هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق

الحمد لله الذي وفقنا بعظيم منّه وواسع كرمه لطبع هذا الجزء الثاني من التفسير المسمى

[illegible]

فتح البيان في مقاصد القرآن

[illegible]

وقد اهتم بطبعه المولوي محمد عبد المجيد خان في سنة ١٢٩١ الهجرية على صاحبها الصلوة والسلام والتحية

في المطبع الصديقي الواقع في دار الامارة بهوبال المحمية

[illegible]

... واسع كرمه وطبع هذا الجزء الثاني من التفسير المسمى

[illegible]

... عبد المجيد ... ١٢٩٢ سنة الهجرية على صاحبها الصلاة والتحية

[illegible]

فهرست فتح البيان في مقاصد القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الاعراف

هي مكية الا ثمان آيات وهي قوله واسئلهم عن القرية الى قوله واذ نتقنا الجبل فوقهم
قاله ابن عباس وابن الزبير وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقال
قتادة آية من الاعراف مدنية وهي واسألهم عن القرية وسائرها مكية وقد ثبت ان النبي
صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ فيها في المغرب يفرقها في الركعتين وآياتها مأتان وست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

المص قال ابن عباس معناه انا الله افصل وعنه ان هذا ونحوه من فواتح السور قسم اقسم الله
به وهي اسم من اسماء الله تعالى وقال السدي هو المصور وقال محمد بن كعب القرظي هو
الله الرحمن الصمد وقال الضحاك انا الله الصادق وقيل غير ذلك ولا يخفى عليك ان هذا كله
قول بالظن وتفسير بالحدس ولا حجة في شيء من ذلك والحق ما قدمناه في فاتحة سورة البقرة
والله اعلم بمراده وهو سره في كتابه العزيز كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ اي هو كتاب وقال الكسائي اي هذا
كتاب يعني القرآن اي القدر الذي كان قد نزل منه وقت نزول هذه الآية فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ
حَرَجٌ مِنْهُ الحرج الضيق اي ضيق من ابلاغه الى الناس مخافة ان يكذبوك ويؤذوك فان الله

حافظك وناصرك وقيل المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك فانما
عليك البلاغ وقال مجاهد وقتادة الحرج هنا الشك لان الشاك ضيق الصدر اي لا تشك
في انه منزل من عند الله وعلى هذا يكون النهي له صلعم من باب التعريض والمراد امته اي لا يشك
احد منهم في ذلك والضمير في منه راجع الى الكتاب فعلى الاول التقدير من ابلاغه وعلى الثاني
التقدير من انزاله لِتُنذِرَ بِهِ اي لتنذر الناس بالكتاب الذي انزلناه اليك وهو متعلق بانزل
اي انزل اليك لانذارك للناس به او متعلق بالنهي لان انتفاء الشك في كونه منزلا من عند الله
او انتفاء الخوف من قومه يقويه على الانذار ويشجعه لان المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوة
نفس وصاحب اليقين جسور متوكل على ربه وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ قال البصريون وذكرى به ذكرى
او المعنى للانذار وللذكرى وقال ابو اسحاق الزجاج وهو ذكرى وتخصيصه بالمؤمنين لانهم الذين ينجع
فيهم ذلك وفيه اشارة الى تخصيص الانذار بالكافرين اتَّبِعُوا كلام مستأنف خوطب به كافة
المكلفين مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ يعني الكتاب ومثله السنة لقوله وما آتاكم الرسول فخذوه وما
نهاكم عنه فانتهوا ونحوها من الآيات قاله الزجاج وهو امر للنبي صلعم ولامته وقيل هو امر للامة
بعد امره صلعم بالتبليغ وهو منزل اليهم بواسطة انزاله الى النبي صلعم قال الرازي قوله ما انزل اليكم
يتناول الكتاب والسنة بمعنى انه خطاب للكل وقال الحسن يا ابن آدم امرت باتباع كتاب الله
وسنة محمد صلعم والله ما نزلت آية الا ويحب ان تعلم فيما انزلت وما معناها وقيل هو خطاب
للكفار اي اتبعوا ايها المشركون ما انزل اليكم من ربكم واتركوا ما انتم عليه من الكفر والشرك
ويدل عليه قوله وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ والاول اولى وهو نهي للامة ان يتبعوا اولياء
من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله من الشياطين والكهان وقال الزمخشري لا تتولوا
احدا من شياطين الانس والجن ليحملوكم على الاهواء والبدع فالضمير في دونه يرجع الى رب ويجوز
ان يرجع الى ما في ما انزل اليكم اي لا تتبعوا من دون كتاب الله وسنة رسوله صلعم اولياء
تقلدونهم في دينكم كما كان يفعله اهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه
عليهم وقرئ مالك بن دينار ولا تبتغوا من الابتغاء قال الرازي هذه الآية تدل على ان تخصيص
عموم القرآن بالقياس لا يجوز لان عموم القرآن منزل من عند الله تعالى والله تعالى اوجب متابعته فوجب العمل

بعموم القران ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس والا لزم التناقض انتهى والبحث في ذلك
يطول محله وضع ضعيف هذا قَلِيلًا مَا مزيد للتاكيد اي تذكرا قليلا او زمانا قليلا تَذَكَّرُونَ ثم
شرع الله في انذارهم بما حصل للامم الماضية بسبب اعراضهم عن الحق فقال وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ كم
هي الخبرية المفيدة للتكثير ولم ترد في القران الا هكذا ويجب لها الصدر لكونها على صورة الاستفهام
والقرية موضع اجتماع الناس اي كم من قرية من القرى الكثيرة أَهْلَكْنَاهَا نفسها باهلاك اهلها
او اهلكنا اهلها والمراد اردنا اهلاكها وقوله فَجَاءَهَا بَأْسُنَا معطوف على اهلكنا بتقدير الارادة
كما مر لان ترتيب مجيء الباس على الاهلاك لا يصح الا بهذا التقدير اذ الاهلاك هو نفس مجيء الباس
وقال الفراء ان الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير والمعنى اهلكناها وجاءها باسنا والواو لمطلق
الجمع لا ترتيب فيها وقيل ان الاهلاك واقع لبعض اهل القرية فيكون المعنى وكم من قرية اهلكنا
بعض اهلها فجاءها باسنا فاهلكنا الجميع وقيل المعنى وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها باسنا
وقيل اهلكناها بارسال ملائكة العذاب اليها فجاءها باسنا والباس العذاب وحكي عن الفراء
انه اذا كان معنى الفعلين واحدا او كالواحد قدمت ايهما شئت فيكون المعنى وكم من قرية جاءها
باسنا فاهلكناها مثل دنى فقرب وقرب فدنى بَيَاتًا اي ليلا لان البيات فيه يقال بات يبيت
بيتا وبياتا اي بائتين أَوْ هُمْ قَائِلُونَ اي قائلين واو في هذا الموضع للتفصيل لا للشك كانه قيل
اتاهم باسنا تارة ليلا كقوم لوط وتارة وقت القيلولة كقوم شعيب وهل يحتاج الى تقدير الواو والحال
قبل هذه الجملة ام لا خلاف بين النحويين فقدره بعضهم ورجحه الزجاج وبه قال ابو بكر و
القيلولة هي نوم نصف النهار وقيل هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم
وخص الوقتين لانهما وقت السكون والدعة فمجيء العذاب فيهما اشد وافظع وازجر وردع عن الاغترار
باسباب الامن والراحة والمعنى جاءها عذابنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون او نهارا وهم
قائلون وقت الظهيرة اي جاءهم الباس على غير تقدم امارة لهم على وقت نزوله وفيه وعيد وتخويف
للكفار كانه قيل لهم لا تغتروا باسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة
فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ الدعوى الدعاء اي فما كان دعاؤهم
واستغاثتهم بربهم عند نزول العذاب الا اعترافهم بالظلم على انفسهم ومثله آخر دعواهم وقيل

الدعوى هنا بمعنى الادعاء والمعنى ما كانوا يدعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه
وفساده قال سيبويه تقول العرب اللهم اشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله دعواهم
فيها سبحانك اللهم فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هذا وعيد شديد وبيان لعذابهم الاخروي
اثر بيان عذابهم الدنيوي ثم بيانه قد تعرض لبيان مبادي احوال المكلفين جميعا لكونه داخلا
في التهويل والسؤال للقوم الذين ارسل اليهم الرسل من الامم السالفة للتقريع والتوبيخ واللام
للقسم اي لنسألنهم عما اجابوا به رسلهم عند دعوتهم والفاء لترتيب الاحوال الاخروية على
الاحوال الدنيوية وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ اي الانبياء الذين بعثهم الله اي يسألهم عما اجاب به
اممهم عليهم ومن اطاع منهم ومن عصى وقيل المعنى فلنسألن الذين ارسل اليهم يعني الانبياء
ولنسألن المرسلين يعني الملائكة قال ابن عباس يسأل الله الناس عما اجابوا به المرسلين ويسأل
المرسلين عما بلغوا به ونحوه عن السدي ولا يعارض هذا قول الله سبحانه ولا يسأل عن ذنوبهم
المجرمون لما قدمنا غير مرة ان في الآخرة مواطن ففي موطن يسألون وفي موطن لا يسألون
وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بان اثبت تارة ونفى اخرى بالنسبة الى يوم القيامة
فانه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ اي على الرسل
والمرسل اليهم لما سكتوا ما وقع بينهم عند الدعوة لهم منهم بِعِلْمٍ لا بجهل اي عالمين بما يسرون
وما يعلنون وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ عن ابلاغ الرسل والامم الخالية في حال من الاحوال حتى يخفى
علينا شيء مما وقع بينهم ومما عملوا قال ابن عباس يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا
يعملون وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ اي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه او المعنى الوزن
العدل كائن او استقر في هذا اليوم واختلف اهل العلم في كيفية هذا الوزن فقيل المراد به وزن
صحائف اعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا وهذا هو الصحيح وهو الذي قامت عليه الادلة وقيل
توزن نفس الاعمال وان كانت اعراضا فان الله يقلبها يوم القيامة اجساما كما جاء في الخبر الصحيح
ان البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان او غيايتان او فرقان من طير صواف
وكذلك ثبت في الصحيح انه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك وقيل الميزان الكتاب
الذي فيه اعمال الخلق وقيل ان الموزون هو نفس الاشخاص العاملين وقيل الوزن والميزان بمعنى العدل

والقضاء وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام في وزن هذا قاله مجاهد
وقال الزجاج هذا شائع من جهة اللسان والاولى ان يتبع ما جاء في الاسانيد الصحاح من ذكر
الميزان قال القشيري وقد احسن الزجاج فيما قال ولا يحمل الصراط على الدين الحق والجنة
والنار على ما يرد على الارواح دون الاجساد وعلى الشياطين والجن وعلى الاخلاق المذمومة
والملائكة على القوى المحمودة ثم قال وقد اجمعت الامة في الصدر الاول على الاخذ بهذه
الظواهر من غير تأويل واذا اجمعوا على منع التأويل وجب الاخذ بالظاهر وصارت هذه
الظواهر نصوصا انتهى والحق هو القول الاول واما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها
فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع اليه بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات
العقلية وليس في ذلك حجة لاحد فهذا اذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي اقوى
من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء و
تركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤا باحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ويتحد قبولهم لها
بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ويوافق ما يذهب اليه هو ومن هو تابع له فتتناقض
عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم يعرف هذا كل منصف ومن انكره فليصف فهمه
وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فانه ان فعل ذلك اسفر الصبح لعينيه وقد ورد ذكر
الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا
وقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في
جهنم خالدون وقوله ان الله لا يظلم مثقال ذرة وقوله واما من خفت موازينه فامه هاوية والاحاديث
في هذا الباب كثيرة جدا مذكورة في كتب السنة المطهرة وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما
فلا يلتفت الى تاويل احد او تحريفه مع قول الله تعالى ورسوله الصادق المصدوق والصباح
يغني عن المصباح فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ بالحسنات فضلا من الله الفاء للتفصيل والموازين جمع
ميزان وثقل الموازين هكذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الاعمال وقيل ان الموازين جمع
موزون وهي الاعمال الموزونة والاول اولى وظاهر جمع الموازين المضاف الى العامل ان لكل واحد من العاملين موازين
يوزن بكل واحد منها صنف من اعماله وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال خرج فلان الى مكة

على البغال وقيل انما جمعها لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا
باجتماع ذلك كله فَأُولَٰئِكَ اشارة الى من والجمع باعتبار معناه كما ان رجع اليه ضمير موازينه باعتبار
لفظه هُمُ الْمُفْلِحُونَ اي الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه ومثل الكلام في قوله وَمَنْ خَفَّتْ
بالسيئات مثله لا مَوَازِينُهُ والمراد موازين اعماله وهم الكفار بدليل قوله فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُم اي ضيعوا حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته والباء في بِمَا كَانُوا سببية بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ
اي يكذبون ويجحدون وقد اخرج احمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه
والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلعم يصاح برجل من امتي على رؤس الخلائق
يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقول اتنكر من هذا شيئا اظلمك
كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول افلك عذر او حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يا رب فيقول
بلى ان لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله واشهد
ان محمدا عبده ورسوله فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال انك لا تظلم فتوضع
السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقد صححه ايضا الترمذي
واسناد احمد حسن ولنعم ما قيل شعر مهما تفكرت في ذنوبي + خفت على قلبي احتراقه +
لكنه ينطفي لهيبي + بذكر ما جاء في البطاقه + وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ اي جعلنا لكم فيها مكانا
واقدرناكم على التصرف فيها وقيل المراد من التمكين التمليك وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ اي هيأنا
لكم فيها اسباب المعاش والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطعوم والمشروب وما تكون به
الحياة وفي القاموس العيش الحياة وايضا الطعام وما يعاش به والخبز والمتعيش من له بلغة من العيش
وقال الزجاج المعيشة ما يتوصلون به الى العيش وهو يعم جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق من
الزرع والثمار وما يتحصل من المكاسب والارباح في انواع التجارات والصنائع وكل ذلك بتمكينه سبحانه
لعباده وانعامه عليهم قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا وحقيقة الشكر تصور ع
النعمة واظهارها وبضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ هذا ذكر نعمة
اخرى عظيمة من نعم الله تعالى على عبيده والمعنى خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك بالتخطيط وشق الحواس
وقيل المعنى خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم في ظهره وذكره بلفظ الجمع لانه ابو البشر ثم صوركم راجع اليه

ويدل عليه قوله تعالى ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فان ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير
يفيد ان المخلوق المصور آدم عليه السلام وقال ابن عباس خلقوا في اصلاب الرجال وصوروا
في ارحام النساء وعنه قال خلقوا في ظهر آدم وصوروا في الارحام وعنه ايضا اما خلقناكم فآدم
واما صورناكم فذريته وقال الاخفش ثم بمعنى الواو وقيل المعنى خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم
حين اخذنا عليكم الميثاق قال النحاس وهذا احسن الاقوال قال ابو السعود وانما نسب الخلق
والتصوير الى المخاطبين مع ان المراد خلق آدم وتصويره اعطاء لمقام الامتنان حقه وتأكيدا
لوجوب الشكر عليهم بالرمز الى ان لهم حظا من خلقه وتصويره لانهما من الامور السارية الى ذريته
جميعا وقال القاضي نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم لانه ابو البشر وقيل
المعنى ولقد خلقنا الارواح اولا ثم صورنا الاشباح ثم قلنا بعد اكمال خلقه وفي السمين اختلف
الناس في ثم في هذين الموضعين فمنهم من لم يلتزم فيها ترتيبا وجعلها بمنزلة الواو ومنهم من
قال هي للترتيب في الاخبار لا في الزمان ولا طائل تحت هذا ومنهم من قال هي للترتيب الزماني
وهذا هو موضوعها الاصلي ومنهم من قال الاولى للترتيب الزماني والثانية للترتيب الاخباري انتهى
قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ اي امرناهم بذلك فامتثلوا الامر فَسَجَدُوا اي فعلوا السجود بعد
الامر قبل دخول الجنة وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال الى العصر واول من سجد جبريل
ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون إِلَّا إِبْلِيسَ قيل الاستثناء متصل بتغليب
الملائكة على ابليس لانه كان منفردا بينهم او كما قيل ان من الملائكة جنسا يقال لهم الجن وقيل غير ذلك
وقد تقدم تحقيقه في البقرة لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن
جعل الاستثناء منقطعا قال معناه لكن ابليس لم يكن من الساجدين لآدم عليه السلام قَالَ
مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ جملة مستأنفة كانه قيل ماذا قال له الله ولا زائدة للتوكيد
بدليل قوله تعالى في سورة ص ما منعك ان تسجد قاله الكسائي والفراء والزجاج وقيل ان منع
بمعنى قال والتقدير من قال لك ان لا تسجد قاله احمد بن يحيى حكاه الواحدي وحكاه ابو بكر عن
الفراء وقيل منع بمعنى دعى اي ما دعاك الى ان لا تسجد قاله القاضي حكاه الرازي وقيل في الكلام
حذف والتقدير ما منعك من الطاعة واحوجك الى ان لا تسجد وقت ان امرتك قاله الطبري

وقد استدل به على أن الامر للفور والبحث مقرر في علم الاصول والاستفهام في ما منعك للتقريع والتوبيخ والا فهو سبحانه عالم بذلك وقال هنا ما منعك وفي سورة الحجر قال يا ابليس ما لك ان لا تكون مع الساجدين وقال في سورة ص ان تسجد لما خلقت بيدي واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على ان اللعين قد ادرج في معصية واحدة ثلث معاص مخالفة الامر ومفارقة الجماعة والاستكبار مع تحقير آدم وقد وبخ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا في سورة البقرة والاسراء والكهف وطه قال ابليس أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ انما قال هذا ولم يقل منعني كذا لان في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده انه افضل منه والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من انكار ان يؤمر مثله بالسجود لمثله ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ اعتقادا منه ان عنصر النار افضل من عنصر الطين لانها جسم نوراني وقد اخطأ عدو الله فان عنصر الطين افضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه وفيه الاناءة والصبر والحلم والحياء والتثبت والنار خفيفة مضطربة سريعة النفاذ وفيها الطيش والارتفاع والحدة ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها وهي عذاب دونه وهو محتاج اليه ليتحيز فيه وهو مسجد وطهور والتراب عدة الممالك والنار عدة المهالك والنار مظنة الخيانة والافناء والطين مئنة الامانة والانماء والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لا تتلفه وهذه فضائل غفل عنها اللعين حتى زل بفاسد من القياس قال النسفي والقياس مردود عند وجود النص وقياس ابليس عناد للامر المنصوص خارج عن الصواب انتهى ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الامر اسوة وقدوة فعنصرهم النوري اشرف من عنصره الناري عن عكرمة قال خلق ابليس من نار العزة وقد ثبت في الصحيح من حديث عايشة قالت قال رسول الله صلعم خلقت الملائكة من نور وخلق ابليس من نار وخلق آدم مما وصف لكم وقال ابن سيرين ما عبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس واصل هذا القياس الذي قاسه ابليس انه رأى النار افضل من الطين واقوى ولم يدر ان الفضل ليس للاصل والجوهر بل بالطاعة وقبول الامر فالمؤمن

الحبشي خير من الكافر القرشي وقد خص الله آدم بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده
ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية
إلى غير ذلك من العناية التي سبقت له في القدم وأورث إبليس كبره اللعنة والطرد والشقاء والتوبيخ التي سبقت
له في الأزل وقال الحسن في الآية أول من قاس إبليس وإسناده صحيح إلى الحسن أخرجه ابن جرير وعن
جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن رسول الله صلعم قال أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال
الله له اسجد لآدم فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال جعفر فمن قاس أمر الدين
برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث
فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة قال فاهبط منها جملة استينافية كالتي قبلها والفاء
لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين
لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصي
أمر ربه مثلك وقيل اهبط من الجنة والهبوط النزول والانحدار من فوق إلى أسفل على سبيل القهر
والهوان والاستخفاف ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى اهبط منها أي اخرج من صورتك
النارية التي افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوهة وقيل المراد هبوطه من زمرة الملائكة فما
يكون لك أن تتكبر فيها أي في الجنة لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف
لأمر الله عز وجل ولا يتوهم أنه يجوز أن يتكبر في غيرها لأن التقدير ما يكون لك أن تتكبر فيها
ولا في غيرها وعلى هذا لا مفهوم لها وجملة فاخرج لتأكيد الأمر بالهبوط متفرع على علته وجملة
إنك من الصاغرين تعليل للأمر بالخروج أي إنك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحي
عباده يذمك كل إنسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار فكل
من تردى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ومن لبس رداء التواضع ألبسه
الله رداء الترفع قال الزجاج استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله بالصغار والذلة والصغار بفتح
الذل والضيم وكذا الصغر والصاغر الذليل والراضي بالضيم قال أنظرني إلى يوم يبعثون جملة استينافية
أي مهلني إلى يوم البعث وكأنه طلب أن لا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده والضمير في يبعثون
لآدم وذريته أي يبعثون من قبورهم بالنفخة الثانية عند قيام الساعة قال إني أجابه الله

بقوله إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ اي الممهلين المؤخرين ثم تعاقب بما قضاه الله عليك من انزاله بك في
دركات النار وقد بيّن الله مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى انك من المنظرين الى
يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى حين يموت الخلق كلهم قيل الحكمة في انظاره ابتلاء
العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي الجملة مستانفة والباء للسببية وبه
قال الزمخشري وقيل قسمية وهو الظاهر كقوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين اي فباغوائك
اياي والاغواء الايقاع في الغي وقيل الباء بمعنى مع والمعنى فمع اغوائك اياي وقيل ما في فيما
اغويتني للاستفهام والمعنى فباي شيء اغويتني والاول اولى ومراده بهذا الاغواء الذي جعله
سببا لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه وان ذلك كان باغواء الله له حتى اختار
الضلالة على الهدى وقيل اراد به اللعنة التي لعنه الله بها اي فبما لعنتني فاهلكتني
ومنه فسوف يلقون غيا اي هلاكا وقال ابن الاعرابي يقال غوى الرجل يغوي غيا اذا فسد
عليه امره او فسد هو في نفسه ومنه وعصى ادم ربه فغوى اي فسد عيشه في الجنة وغرض
اللعين بهذا اخذ ثاره منهم لانه لما طرد ومقت بسببهم على ما تقدم احب ان ينتقم منهم اخذا
بالثار لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ اي لاجهدن في اغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي السجود لابيهم
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ هو الطريق الموصل الى الجنة وقال ابن عباس طريق مكة يعني امنعهم من الهجرة
وعن ابن مسعود مثله وقيل هو طريق الاسلام وقيل المراد الحج والاول اولى لانه يعم الجميع و
المعنى لارصدن بني ادم عن عبادتك وطاعتك ولاغوينهم ولاضلنهم ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ذكر الجهات الاربع لانها هي التي ياتي
منها العدو عدوه ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت وعدى الفعل الى الجهتين الاوليين بمن
والى الاخريين بعن لان الغالب فيمن ياتي من قدام وخلف ان يكون متوجها الى ما ياتيه
بكلية بدنه والغالب فيمن ياتي من جهة اليمين والشمال ان يكون منحرفا فناسب في الاوليين التعدية بحرف الابتداء وفي
الاخريين بحرف المجاوزة وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن ياتي حقيقة وفيه اشارة الى نوع تبا
منه في هاتين الجهتين لقعود ملك اليمين وملك اليسار فيهما وهو ينفر من الملائكة وقيل
المراد من بين ايديهم من دنياهم ومن خلفهم من اخرتهم وعن ايمانهم من جهة حسناتهم

وعن شمائلهم من جهة سيئاتهم واستنه الخبائث قال ابن عباس اسن لهم المعاصي واخف عليهم
الباطل وعنه قال من بين ايديهم من قبل الآخرة فاشككهم فيها ومن خلفهم من قبل الدنيا
فارغبهم فيها وعن ايمانهم اشبه عليهم امر دينهم وعن شمائلهم اسني لهم المعاصي وقال الحكم
بن عتيبة من بين ايديهم اي من قبل الدنيا فازينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاثبطهم
عنها وعن ايمانهم من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم قال قتادة
اتاك ابليس يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك لم يستطع ان يحول بينك وبين رحمة
الله تعالى ونحوه عن ابن عباس ولفظه ولا يستطيع ان يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين
رحمة الله تعالى قيل ولا يأتي ايضا من تحتهم اما لانه متكبر يحب العلو واما لان الاتيان منه ينفر ويفزع
المأتي وهو يحب تأليفه لا تنفيره فلا يأتي الا من الجهات الاربع قال مجاهد يأتيهم من الجهات
الاربع من حيث لا يبصرون وقيل من بين ايديهم فيما بقي من اعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة
ومن خلفهم فيما مضى من اعمارهم فلا يتوبون عما سلفوا فيه من معصية وعن ايمانهم من قبل
الغنى فلا ينفقون ولا يشكرون وعن شمائلهم من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه
وعن شقيق البلخي ما من صباح الا قعد لي الشيطان على اربع مراصد من بين يدي فيقول لا تخف
فان الله غفور رحيم فاقرأ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ومن خلفي فيخوفني الضيعة على
مخلفي اي وقوع اولادي في الفقر فاقرأ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وعن يميني فيأتيني
من قبل الثناء فاقرأ والعاقبة للمتقين وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ وحيل
بينهم وبين ما يشتهون قال النسفي ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة
وقيل ان ذكر هذه الجهات الاربع انما اريد به التأكيد والمبالغة في القاء الوسوسة في قلب
ابن آدم وانه لا يقصر في ذلك والمعنى يأتيهم من جميع الوجوه الممكنة بجميع الاعتبارات وعنه
ان افعل ذلك لا تجد يا رب اكثرهم شاكرين موحدين لتأثير وسوستي فيهم واغوائي لهم و
هذا قاله على الظن فاصاب لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى منهم ان مبدأ
الشر متعدد ومبدأ الخير واحد وقيل انه سمع ذلك من الملائكة فقاله وقيل رآه مكتوبا في
اللوح المحفوظ والاول اولى وقيل شاكرين مؤمنين وعبر بالشكر عن الطاعة او هو على حقيقته

ما تغوينني بشكر والله بسبب الاغواء قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا اي من السماء او من الجنة او من بين
الملائكة كما تقدم وقال له الشيخين طرده عن بابه وابعده عن جنابه مَذْءُومًا من ذامه
يذأمه اذا ذمه وعابه ومقته وقيل المذموم المنفي والذام العيب يهمز ولا يهمز وحكى ابن الانباري
فيه ذيما وقال الليث الذام الاحتقار وقيل الذم قاله ابن قتيبة مَدْحُورًا اي مطرودا والدحر الطرد
والابعاد يقال دحره يدحره دحرا ودحورا ومنه ويقذفون من كل جانب دحورا وقال ابن عباس
صغيرا ممقوتا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبي ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير والمعاني
متقاربة لَمَنْ بفتح اللام على انها لام القسم وتسمى هذه اللام موطئة لانها وطئت الجواب للقسم
المحذوف اي مهدته له وتسمى ايضا المؤذنة لانها تؤذن بان الجواب بعدها مبني على قسم قبلها
لا على الشرط وفيه تغليب الحاضر وهو ابليس على الغائب وهو الناس تَبِعَكَ مِنْهُمْ اي من بني آدم
وجواب القسم لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وقيل اللام الاولى للتاكيد والابتداء وهذه لام
القسم والاول اولى وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ قال له هذا القول بعد اخراج ابليس من الجنة او من السماء او من بين الملائكة
والمعنى اتخذاها مسكنا وتخصيص الخطاب بآدم للايذان باصالته في تلقي الوحي وتعاطي المامور به
واختلفوا في خلق حوا فقال ابن اسحق خلقت قبل دخول آدم الجنة وهو ظاهر هذه الآية وقيل بعد
دخول الجنة وقيل الخطاب للمعدوم لوجوده في علم الله فَكُلَا مِنْ حَيْثُ اي من اي نوع من انواع الجنة
شِئْتُمَا اكله ومثله ما تقدم من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتما وقال ابو السعود حيث
ظرف مكان اي فكلا من ثمارها في اي مكان شئتما الاكل فيه وقال هنالك بالواو وهنا بالفاء قال
الرازي ان الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء
نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بينهما ففي البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع وَلَا تَقْرَبَا
هَذِهِ الشَّجَرَةَ تقدم الكلام على هذا في البقرة مستوفى فَتَكُونَا اي فتصيرا مِنَ الظَّالِمِينَ
لانفسكما اي العاصين لله تعالى فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ الوسوسة الصوت الخفي وحديث النفس
يقال وسوست اليه نفسه وسوسة ووسواسا بكسر الواو والوسوسة بالفتح الاسم مثل الزلزلة و
الزلزال ويقال لهمس الصائد والكلاب واصوات الحلي وسواس والوسواس اسم الشيطان ومعنى

وسوس له ووسوس اليه اوصل الوسوسة لاجله قال الحسن كان يوسوس في الارض الى السماء
ثم الى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له وقال ابو مسلم الاصبهاني بل كان آدم وابليس في
الجنة لان هذه الجنة كانت في الارض وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ذكره والذي يقوله
بعض الناس ان ابليس دخل في جوف الحية وهي دخلت به الى الجنة فهو قصة ركيكة لِيُبْدِيَ اي
ليظهر لَهُمَا اللام للعاقبة كما في قوله ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل هي لام كي اي فعل ذلك
لتتم تبعه الابدا او لكي يقع الابدا ويصح ان تكون للعلة والغرض بجواز ان يكون ظهور سوأتهما
زيادة على دقوعهما في المعصية مَا وُورِيَ اي ما ستر وغطي فوعل من المواراة عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا
سمي الفرج منهما سوأة لان ظهوره يسوء صاحبه ويحزنه اراد الشيطان ان يسوءهما
بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما فانهما كانا لا يريان عورتهما ولا يراها احدهما من الآخر
قيل انما بدت لهما لا لغيرهما وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها فلما اصابا الخطية نزع عنهما وفي الآية
دليل على ان كشف العورة من المنكرات المحرمات وانه لم يزل مستقبحا في الطباع والعقول وَقَالَ الشيطان
لآدم وحوا مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ اي عن الاكل منها إِلَّا كراهة أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ قال البصريون
وقال الكوفيون التقدير لئلا تكونا والاستثناء مفرغ وهو مفعول من اجله مَلَكَيْنِ من الملائكة
تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ في الجنة او من الذين لا يموتون
قال ابن عباس فان اخطأكما ان تكونا ملكين لم يخطئكما ان تكونا من الخالدين فلا تموتان
فيها ابدا قال النحاس فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القرآن فمنها هذا ومنها
ولا اقول اني ملك ومنها ولا الملائكة المقربون قال ابن فورك لا حجة في هذه الآية لانه
يحتمل ان يراد ملكين في ان لا يكون لهما شهوة في الطعام وقيل لطول اعمارهم لا لانهم افضل منه
حتى يلتحق بهم في الفضل فذلك بمعزل عن الدلالة على افضلية الملائكة عليه فليس في الآية
دليل عليها وقد اختلف الناس في هذه المسئلة اختلافا كثيرا واطالوا الكلام في غير طائل
وليست هذه المسئلة مما كلفنا الله بعلمه فالكلام فيها لا يعنينا وقرئ ملكين ولم يكن قبل
آدم ملك فيصيرا ملكين وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى هل ادلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى قال ابو عبيد هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها قال

النحاس هذه قراءة شاذة وأنكر على أبي عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش قال
وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين
وإنما معنى وملك لا يبلى المقام في ملك الجنة والخلود فيه ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما يقال أقسم إقساما
أي حلف وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدل على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك
وقد قدمنا تحقيق هذا في المائدة والمراد بها هنا المبالغة في صدور الإقسام لهما من إبليس ﴿إِنِّي لَكُمَا
لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في ذلك قيل إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة قال قتادة حلف لهما
بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما
﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي منّاهما والتدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل يقال أدلى دلوه
أرسلها والمعنى أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة أو من السماء إلى الأرض
وقيل معناه أوقعهما في الهلاك وقيل خدعهما وقيل دلاهما من الدالة وهي الجرأة أي جرّأهما
على المعصية فخرجا من الجنة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ أي طعما ﴿الشَّجَرَةَ بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ عوراتهما أي ظهر لكل منهما قبله
وقبل الآخر ودبره بسبب زوال ما كان ساترا لها وهو تقلص النور الذي كان عليهما قال ابن عباس تهافت عنهما لباسهما حتى أبصر
كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك قال قتادة كان لباسهما الظفر كل فقشطة بيضاء
على الجسد من جنس الأظفار فنزع عنهما وبقيت الأظفار في اليدين والرجلين تذكرة وزينة و
انتفاعا وقيل كان من ثياب الجنة وهذا أقرب لأن إطلاق اللباس ينبادر فيه وقال مجاهد كان
لباسهما التقوى وقد تقدم في البقرة وفيه دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصدا إلى معرفة
طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير ﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا بمعنى شرع يفعل كذا وحكى
الأخفش طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي شرعا وجعلا وأقبلا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ﴾ قيل من التين وقيل من الموز قرأ الزهري يخصفان من أخصف وقرأ الجمهور يخصفان من
خصف والمعنى أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها من خصف النعل إذا جعله
طبقة فوق طبقة عن عكرمة قال كان لباس كل دابة منها ولباس الإنسان الظفر فأدركت آدم
التوبة عند ظفره وقال ابن عباس كان لباس آدم وحواء الظفر فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما
إلا مثل الظفر وطفقا يخصفان من ورق التين فجعلانه على سوآتهما وعنه قال لما أسكن آدم الجنة كساه

سرى الا من الظفر فلما اصاب الخطيئة سلبه الله بذلك فبقي في اطراف اصابعه وعن انس بن مالك
قال كان لباس آدم في الجنة الياقوت فلما عصى قلص فصار الظفر وقال مجاهد يخصفان يرقعان
كهيئة الثوب وفي الآية دليل على ان كشف العورة من ابن آدم قبيح الا ترى انهما بادرا الى ستر
العورة لما تقرر في عقلهما من قبح كشفها وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا قائلا لهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ
التي نهيتكما عن اكلها وهذا عتاب من الله تعالى لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه
والاستفهام للتقرير وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ اي مظهر للعداوة بترك السجود حسدا
وبغيا كما قال في سورة طه فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك الآية قال السدي قال
آدم انه حلف لي بك ولم اكن اعلم ان احدا من خلقك يحلف بك الا صادقا قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا
جملة مستأنفة مبنية على تقدير سؤال كانه قيل فماذا قالا وهذا اعتراف منهما بالذنب وانهما
ظلما انفسهما بما وقع منهما من المخالفة ثم قالا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا اي تستر علينا ذنبنا وَتَرْحَمْنَا
اي تتفضل علينا برحمتك لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ اي الهالكين قال الحسن هي الكلمات التي
تلقى آدم من ربه وعن الضحاك مثله وقد استدل بهذا على صدور الذنب من الانبياء وقد
تقدم الكلام عليه فيما مضى قَالَ اهْبِطُوا استيناف كالتي قبلها والخطاب لآدم وحوى وذريتهما
اولهما ولابليس قاله الرازي وقيل لهما وللحية قاله الطبري وبه قال السدي والمعنى اهبطوا من
السماء الى الارض بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اي متعادين يعاديهما ابليس ويعاديانه وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ اي موضع استقرار وهو المكان الذي يعيش فيه الانسان وقال ابن عباس
يعني القبور وَلَكُمْ فيها مَتَاعٌ تتمتعون به في الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما
إِلَى حِينٍ الى وقت موتكم وقيل الى انقطاع الدنيا وقال ابن عباس الى يوم القيامة قَالَ فِيهَا
اي في الارض تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ استيناف كالتي قبلها واعيد القال للايذان ببعد اتصال
ما بعده بما قبله واما لاظهار الاعتناء بمضمون ما بعده وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ الى دار الآخرة ومثله
قوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى قيل الخطاب لآدم وذريته
وابليس وأولاده وقد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع اليه يَا بَنِي آدَمَ هذا
تذكير ببعض النعم لاجل امتثال ما هو المقصود الآتي بقوله لا يفتننكم الخ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

عبر سبحانه بالانزال عن الخلق اي خلقنا لكم لباسا وقيل رزقناكم لباسا وقيل انزل المطر من السماء
وهو سبب نبات اللباس فكأنه انزله عليهم وقيل جميع بركات الارض تنسب الى السماء والى
الانزال كما قال تعالى وانزلنا الحديد يُوَارِي سَوْآتِكُمْ التي اظهرها ابليس حتى اضطررتم الى لزق
الاوراق فانتم مستغنون عن ذلك باللباس وقال مجاهد كان ناس من العرب يطوفون
بالبيت عريانا والسوءة العورة كما سلف والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في
كتب الفروع وَرِيشًا وتري رياشا جمع ريش وهو اللباس قال الفراء ريش ورياش كما يقال
لبس ولباس وريش الطائر ما ستره الله به وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان وقيل المراد
بالريش هنا الخصب ورفاهية العيش قال القرطبي والذي عليه اكثر اهل اللغة ان الريش ما
ستر من لباس او معيشة وعن ابي عبيدة وهبت له دابة وريشها اي ما عليها من اللباس
وقيل المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله لباسا وعطفه عليه قاله الزمخشري
وقال مجاهد والضحاك والسدي ريشا اي المال وعن عروة بن الزبير مثله وقال ابن عباس
المال واللباس والعيش والنعيم والايمان وقال ابن زيد الريش الجمال وقيل الاثاث وما ظهر مما
يلبس او يفرش وَلِبَاسُ التَّقْوَى اي الناشئ عنها اثر الناشية عنه والاضافة قريبة من كونها بيانية
اي لباس الورع واتقاء معاصي الله وهو الورع نفسه والخشية من الله تعالى وقيل لباس التقوى
الحياء وقيل الاسلام وقيل العمل الصالح وقيل هو لباس الصوف والخشن من الثياب
لما فيه من التواضع لله وقيل هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله وقيل
هو ستر العورة في الصلوة وقال عثمان هو السمت الحسن وقال الكلبي هو العفاف والاول اولى
وهو يصدق على كل ما فيه تقوى الله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الاقوال ومثل هذه
الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب ذَلِكَ اي لباس التقوى هو خَيْرٌ اي خير لباس
واجمل زينة لانه يستر من فضائح الآخرة وقيل الايمان والعمل خير من الثياب والريش
قاله ابن عباس وانشد وافق المعنى شعر اذا انت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى
القميص قميص * ذَلِكَ اي الانزال المدلول عليه بانزلنا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدالة على انه له
خالقا لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ نعمته فيشكرونها وفيه التفات عن الخطاب كان مقتضى المقام لعلكم

ثم كرر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان فقال يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان اي لا يوقعنكم في الفتنة فالنهي وان كان للشيطان فهو في الحقيقة لبني آدم بان لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك كما اخرج اي كما فتن أبويكم بان اخرجهما من الجنة او مثل اخراج ابويكم او مثل فتنة اخراج ابويكم او اخراجا مثل اخراجه ابويكم ينزع عنهما لباسهما قد تقدم تفسيرها واضاف نزعه الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لانه كان بسبب وسوسته فاسند اليه وصيغة المضارع لاستحضار الصورة التي وقعت فيما مضى والنزع الجذب للشيء بقوة عن مقره ومنه تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر ومنه نزع القوس ويستعمل في الاعراض ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب ونزع فلان كذا سلبه ومنه والنازعات غرقا لانها تقلع ارواح الكفرة بشدة ومنه المنازعة وهي المخاصمة والنزع عن الشيء الكف عنه والنزوع الاشتياق الشديد ومنه نزع الى وطنه واختلفوا في اللباس فقيل الظفر وقيل النور وقيل التقوى وقيل كان من ثياب الجنة وهذا اقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس ليريهما سوآتهما اللام لام كي وقد تقدم تفسيره ايضا والضمير في إنه فيه وجهان الظاهر منهما انه للشيطان والثاني ان يكون ضمير الشأن وبه قال الزمخشري ولا حاجة تدعو الى ذلك يراكم هو وقبيله هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه لان من كان بهذه المثابة كان عظيم الكيد وكان حقيقا بان يحترس منه ابلغ احتراس والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن او انس قبيل وقيل اعوانه من الشياطين وجنوده وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيل نسله والقبيلة الجماعة من اب واحد فليست القبيلة تأنيث القبيل لهذه المغايرة وقيل الجماعة ثلاثة فصاعدا من قوم شتى قاله ابو عبيدة والجمع قبل بضمتين والقبيلة لغة فيه وقبائل الراس القطع المتصل بعضها ببعض وبها سميت قبائل العرب من حيث لا ترونهم اي اذا كانوا على صورهم الاصلية اما اذا تصوروا في غيرها فترونهم كما وقع كثيرا ومن ابتدائية اي رؤيته مبتدأة من مكان لا ترونهم فيه قيل خلق الله في عيون الجن ادراكا يرون به الانس

ولم يخلق هذا في عيون الانس وقالت المعتزلة الوجه في هذه الرؤية ان اجسام الجن رقيقة ولطيفة
وكثافة اجسام الانس وقد استدل جماعة من اهل العلم بهذه الآية على ان رؤية الشيطان
غير ممكنة وليس في الآية ما يدل على ذلك وغاية ما فيها انه يرانا من حيث لا نراه وليس
فيها انا لا نراه ابدا فان انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا
قال مالك بن دينار ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله وما احسن ما قاله
والمعنى فاحذروا من عدو يراكم ولا ترونه والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة
وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض
وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس ان النبي صلعم قال ان الشيطان يجري من
ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال
تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد
قال ابليس جعل لنا اربع نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا شابا إِنَّا جَعَلْنَا
اي صيرنا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ اي اعوانا وقرناء لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ من عباده وهم الكفار
وَإِذَا فَعَلُوا اي العرب فَاحِشَةً هي ما يبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب قال اكثر المفسرين
هو طواف المشركين بالبيت عراة وبه قال ابن عباس والسدي ومحمد بن كعب وقيل
هي الشرك قاله عطاء والظاهر انها تصدق على ما هو اعم من الامرين جميعا والمعنى انهم
اذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين الاول قَالُوا وَجَدْنَا
عَلَيْهَا آبَاءَنَا اي انهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم وتقليدا لما وجدوهم مستمرين على
فعل تلك الفاحشة والثاني وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا اي انهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه
وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لان وجود آبائهم على القبيح لا يسوغ لهم فعله
بل ذلك محض تقليد باطل لا اصل له والامر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء بل امرهم
باتباع الانبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتهما ومما نهاهم عنه فعل الفواحش
ولهذا رد الله سبحانه عليهم بان امر نبيه صلعم فقال قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فكيف
تدعون ذلك عليه قال قتادة والله ما اكرم الله عبدا قط على معصيته ولا رضيها له ولا امره

ولكن رضي لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته والحاصل ان الامرين باطلان الاول
تقليد الرجال والثاني افتراء على ذي الجلال وقد اجمل رد عليهم في المقالة الثانية ولم يتعرض
للاولى لوضوح فسادها لما هو معلوم ان تقليد مثل الآباء ليس بحجة ثم انكر عليهم ما اضافوه
اليه فقال أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وهو من تمام ما امر النبي صلعم بان يقول لهم وفيه
من التقريع والتوبيخ امر عظيم فان القول بالجهل اذا كان قبيحا في كل شيء فكيف اذا كان
في التقول على الله وفي هذه الآية الشريفة لاعظم زاجر وابلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون
آباءهم في المذاهب المخالفة للحق فان ذلك من الاقتداء باهل الكفر لا باهل الحق فانهم
القائلون انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون والقائلون وجدنا عليها
آباءنا والله امرنا بها والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد اباه على ذلك المذهب مع اعتقاده
بانه الذي امر الله به وانه الحق لم يبق عليه وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على
اليهودية والنصراني على النصرانية والمبتدع على بدعته فما ابقاهم على هذه الضلالات الا
كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية او النصرانية او البدعة واحسنوا الظن بهم بان ما هم عليه
هو الحق الذي امر الله به ولم ينظروا لانفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ولا بحثوا عن دين الله
كما ينبغي وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص فيا من نشأ على مذهب من هذه
المذاهب الاسلامية انا لك النذير المبالغ في التحذير من ان تقول هذه المقالة وتستمر على
الضلالة فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم وفاسد الرأي بصحيح الرواية ولم يبعث الله الى
هذه الامة الا نبيا واحدا امرهم باتباعه ونهاهم عن مخالفته فقال وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا ولو كان محض رأي ائمة المذاهب واتباعهم حجة على العباد لكان
لهذه الامة رسل كثيرون متعددون بعدد اهل الرأي المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله
به وان من اعجب الغفلة واعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب
الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم ووجود من يأخذونهما عنه بين ايديهم ووجود
آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ اي العدل وبه قال مجاهد والسدي
وفيه ان الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من ان الله امرهم بالفحشاء وقيل القسط هنا هو لا اله

قال ابن عباس وقيل في الكلام حذف اي قل امر ربي بالقسط فاطيعوه وَأَقِيمُوا عطف على
معنى بالقسط وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ اي توجهوا اليه في صلاتكم الى القبلة في اي مسجد كنتم
او اقصدوا عبادته مستقيمين اليها غير عادلين الى غيرها في كل وقت سجود او في كل مكان سجود على ان المراد بالسجود
الصلوة قال مجاهد الى الكعبة حيث صليتم في كنيسة او غيرها وقيل اجعلوا سجودكم لله خالصا
وقيل غير ذلك والاول اولى وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ اي اعبدوه حال كونكم مخلصين
الدعاء او العبادة له لا لغيره وقيل وحدوه ولا تشركوا به كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ قال السمين
تقديره تعودون عودا مثل ما بدأكم وقيل تقديره تخرجون خروجا مثل ما بدأكم ذكرهما
مكي والاول اليق بلفظ الآية الكريمة وقال الزجاج كما انشأكم في ابتداء الخلق واوجدكم بعد العدم
كذلك يعيدكم فالتشبيه في نفس الاحياء والخلق لا في الكيفية والترتيب فيكون المقصود الاحتجاج
على منكري البعث فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقيل كما اخرجكم من بطون امهاتكم
تعودون اليه كذلك ليس معكم شيء فيكون مثل قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم
اول مرة وقيل كما بدأكم من تراب تعودون الى التراب وقال مجاهد تعودون اي شقي و
سعيد قال ابن عباس ان الله بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال هو الذي خلقكم فمنكم كافر
ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا وعن جابر قال يبعثون على ما
كانوا عليه المؤمن على ايمانه والمنافق على نفاقه وقال الحسن ومجاهد المعنى كما خلقكم في الدنيا ولم تكونوا
شيئا فاحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون احياء يوم القيامة ويدل له ما روي عن ابن عباس قال
قام فينا رسول الله صلعم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا
كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين اخرجه البخاري ومسلم فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا
حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ اي تعودون فريقين سعداء واشقياء وفي القاموس الفرقة بالكسر الطائفة
من الناس والجمع فرق والفريق كالامير اكثر منها والجمع افرقاء وافرقة وفروق والفريق الذي
هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لانبيائه والفريق الذي حق عليه الضلالة هم
الكفار عن جابر انه ذكر القدرية فقال قاتلهم الله اليس قد قال الله سبحانه فريقا هدى الآية
وفيه دليل على ان الهدى والضلالة من الله وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلعم

ان الله خلق خلقه في ظلمة فالقى عليهم من نوره فمن اصابه ذلك النور اهتدى ومن اخطأه
ضل اخرجه الترمذي إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ تعليل لقوله وفريقا حق
عليهم الضلالة اي ذلك بسبب انهم اطاعوا الشياطين في معصية الله ومع هذا فانهم
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ولم يعترفوا على انفسهم بالضلالة وهذا اشد في تمردهم
وعنادهم والآية حجة على اهل الاعتزال في كون الهداية والاضلال الى الله ذي الجلال وفي
دليل ايضا على ان الكافر الذي يظن انه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء
ودلت هذه الآية على ان مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين بل لا بد من الجزم والقطع
لانه تعالى ذم الكفار بانهم يحسبون كونهم مهتدين ولولا ان هذا الحسبان مذموم لما ذمهم
بذلك ودلت ايضا على ان كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى اولم
يحسب ذلك قاله الكرخي يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ هذا خطاب لجميع بني آدم
وان كان واردا على سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يتزين
به الناس من الملبوس امروا بالتزين عند الحضور الى المساجد للصلوة والطواف وقد استدل
بالآية على وجوب ستر العورة في الصلوة واليه ذهب جمهور اهل العلم بل سترها واجب في كل
حال من الاحوال وان كان الرجل خاليا كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة قال ابن عباس ان النساء
كن يطفن عراة الا ان تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول اليوم يبدو بعضه او كله وما بدا منه
فلا احله فنزلت هذه الآية وعنه قال كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة
والزينة اللباس وما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع قال مجاهد ما يواري
عوراتكم ولو عباءة وقيل الزينة المشط والطيب فيستحب التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر
والاول اولى واخرج ابن عدي وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلعم
خذوا زينة الصلوة قالوا وما زينة الصلوة قال البسوا نعالكم فصلوا فيها واخرج العقيلي وابو
الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن انس عن النبي صلعم في قوله خذوا زينتكم عند كل
مسجد قال صلوا في نعالكم والاحاديث في مشروعية الصلوة في النعل كثيرة جدا واما كون
ذلك هو تفسير الآية كما روي في هذين الحديثين فلا ادري كيف اسنادهما وقد ورد

النهي عن ان يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء وهو في الصحيحين وغيرهما
من حديث ابي هريرة وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ما شئتم وَلَا تُسْرِفُوا اي بتحريم الحلال او بالتعدي الى
الحرام او بالافراط في الطعام امر الله سبحانه عباده بالاكل والشرب ونهاهم عن الاسراف فلا
زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من اهل النار كما صح في الاحاديث
الصحيحة والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه من طاعة
او سعي على نفسه وعلى من يعول مخالف لما امر الله به وارشد اليه والمسرف في انفاقه
على وجه لا يفعله الا اهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني
وهكذا من حرم حلالا او حلل حراما فانه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين ومن
الاسراف الاكل لا لحاجة وفي وقت شبع قال ابن عباس احل الله الاكل والشرب ما لم يكن سرفا
او مخيلة قال علي بن حسين بن واقد قد جمع الله الطب كله في نصف آية يعني هذه الآية
وفيه دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات حلال الا ما خصه الشرع بدليل
في التحريم لان الاصل في جميع الاشياء الاباحة الا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل
منفصل إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ في الطعام والشراب واللباس واخرج عبد بن حميد والنسائي ع
وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده
عن النبي صلعم قال، كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف فان الله سبحانه
يحب ان يرى اثر نعمته على عبده وفي الآية وعيد وتهديد لمن اسرف في هذه الاشياء لان
محبة الله عبارة عن رضاه عن العبد وايصال الثواب اليه واذا لم يحبه علم انه ليس براض
عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الاسراف في الماكول والمشروب والملبوس وما
احق بهذا الوعيد اهل الدول من الفساق والفجار قُلْ انكارا على هؤلاء الجهلة من العرب
الذين يطوفون بالبيت عراة والذين يحرمون على انفسهم في ايام الحج اللحم والدسم مَنْ حَرَّمَ
زِينَةَ اللَّهِ الزينة ما يتزين به الانسان من ملبوس او غيره من الاشياء المباحة كالمعادن التي
لم يرد نهي عن التزين بها والجواهر ونحوها وقيل الملبوس خاصة ولا وجه له بل هو من جملة ما
تشمله الآية فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة اذا لم تكن مما حرمه الله ولا

ولا حرج على من تزين بشيء من الاشياء التي لها مدخل في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي
ومن زعم ان ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا وقد قدمنا في هذا ما يكفي قال
الواحدي انه يدلنا على جميع الزينة فيدخل تحته جميع انواع الملبوس والحلي ولولا ان النص ورد
بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم التي اخرج لعباده اي
اصلها يعني القطن والكتان من الارض والقز من الدود والحلي من الحجر والحرير والصوف
من الحيوان والدرع والجواهر من المعادن قال ابن عباس كانت قريش تطوف بالبيت وهم
عراة يصفرون ويصفقون فانزل الله هذه الاية وأمروا بالثياب ان يلبسوها والطيبات
من الرزق اي وهكذا الطيبات المستلذات من المطاعم والمشارب والمآكل ونحوها مما
ياكله الناس فانه لا زهد في ترك الطيب منها ولهذا جاءت الاية هذه معنونة بالاستفهام
المتضمن للانكار على من حرم ذلك على نفسه او حرمه على غيره وما احسن ما قال ابن
جرير الطبري ولقد اخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود
السبيل اليه من حله ومن اكل البقول والعدس واختاره على خبز البر ومن ترك اكل اللحم خوفا
من عارض الشهوة وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطولا والطيبات المستلذات من الطعام
وقال ابن عباس الودك واللحم والسمن وقيل اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على انفسهم
ايام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله عليهم بقوله هذا وقال قتادة المراد ما كان اهل
الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وقيل ان الاية على العموم فيدخل تحته كل ما
يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما نهي عنه وورد النص بتحريمه وهو الحق كما تقدم
وقيل هو اسم عام لما طاب كسبا ومطعما قل هي للذين آمنوا في الحيوة الدنيا اي انها لهم
بالاصالة والاستحقاق وان شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة خالصة يوم القيامة
اي مختصة بهم والتقدير قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا خالصة للمؤمنين
يوم القيامة فهي لهم اصالة وللكفار تبعا لقوله ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب
النار قال ابن عباس في الاية يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا فاكلوا من
طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها ونكحوا من صالحي نسائها ثم يخلص الله الطيبات في

الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء وقيل خالصة من التكدير والتنغيص والهم
لأنه قد يقع لهم ذلك في الدنيا والأول أولى كذلك أي مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل
الآيات المشتملة على التحليل والتحريم لقوم يعلمون أني أنا الله وحدي لا شريك لي فأحلوا ما أحللت
وحرموا ما حرمت قل للمشركين الذين يتجردون من ثيابهم في الطواف والذين يحرمون أكل الطيبات
إن الله لم يحرم ما تحرمونه بل أحله وإنما حرم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال جمع فاحشة
أي كل معصية وقد تقدم تفسيرها ما ظهر منها وما بطن أي ما أعلن منها وما أسر وقيل جهرها
وسرها وقيل هي خاصة بفواحش الزنا ولا وجه لذلك وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن
ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه أخرجه البخاري ومسلم
والإثم هو يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم وهو عطف عام على خاص لمزيد الاعتناء
بها وقيل هو الخمر خاصة وقد أنكره جماعة من أهل العلم قال النحاس فأما أن يكون الإثم
الخمر فلا يعرف ذلك وحقيقته أنه جميع المعاصي قال الفراء الإثم ما دون الحق والاستطالة
على الناس انتهى وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به فهو أحد المعاني التي
يصدق عليها قال في الصحاح وقد يسمى الخمر إثما وقال الحسن وعطاء الإثم من أسماء الخمر وقال
ابن سيدة صاحب المحكم وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم وأنكر أبو بكر بن الأنباري
تسمية الخمر بالإثم قال لأن العرب ما سمته إثما قط في جاهلية ولا إسلام ولكن قد يكون
الخمر داخلا تحت الإثم لقوله قل فيهما إثم كبير وقيل الإثم صغائر الذنوب والفواحش كبائرها
وقيل الإثم اسم لما لا يجب فيه الحد والفاحشة ما يجب فيه الحد من الذنوب وهذا القول قريب
من الأول وقيل الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة
الكبيرة والإثم مطلق الذنب كبيرا كان أو صغيرا وأولى هذه الأقوال أولها والبغي بغير الحق
أي الظلم المجاوز للحد والاستطالة على الناس وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا
عظيما كقوله وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وإذا طلب مالا بالحق خرج من أن يكون بغيا
وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا أي وأن تجعلوا لله شريكا لم ينزل عليكم به حجة وأن تقولوا

به من السلطنة والمراد التهكم بالمشركين لان الله لا ينزل برهانا بان يكون غيره شريكا له
وان تقولوا على الله ما لا تعلمون بحقيقته وان الله قاله وهذا مثل ما كانوا ينسبون الى الله
سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم ياذن بها ولكل امة اجل اي وقت معين محدود
من اول العمر الى اخره ينزل فيه عذابهم من السماء او يميتهم فيه ويجوز ان تحمل الاية على ما هو
اعم من الامرين جميعا فاذا جاء اجلهم اي اذا جاء اجل كل امة من الامم اي اخر المدة كان
ما قدره عليهم واقعا في ذلك الاجل قيل المراد بالاجل وقت نزول العذاب وقيل اجل الحياة
والعمر على هذا الكل واحد اجل لا ينفع فيه تقديم ولا تاخير والاجل يطلق على كل من مدة
العمر بتمامها وعلى الجزء الاخير منها واجل الشيء مدته ووقته الذي يحل فيه وهو مصدر
اجل الشيء اجلا من باب تعب واجل اجولا من باب قعد لغة واجلته تاجيلا جعلت له اجلا
والاجال جمع اجل مثل سبب واسباب لا يستأخرون ساعة خص الساعة بالذكر لانها اقل
اسماء الاوقات في العرف وقد استدل بالاية الجمهور على ان كل ميت يموت باجله وان
كان موته بالقتل او التردي او نحو ذلك والبحث في ذلك طويل جدا ومثل هذه الاية قوله
تعالى ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون وكان الحسن يقول ما احمق هؤلاء القوم يقولون
اللهم اطل عمره والله يقول فاذا جاء اجلهم الاية عن ابن المسيب قال طعن عمر فقال كعب
لو دعا الله لاخر في اجله فقيل له اليس قد قال الله فاذا جاء اجلهم الاية فقال كعب وقد
قال الله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ولا يستقدمون مستأنف معناه
الاخبار بانهم لا يسبقون اجلهم المضروب لهم بل لا بد من استيفائهم اياه كما انهم لا يتأخرون
عنه اقل زمان وقال الحوفي وغيره انه معطوف على لا يستأخرون وهذا لا يجوز وقال
الواحدي المعنى لا يستأخرون عن اجالهم اذا انقضت ولا يستقدمون عليها اذا قاربت
الانقضاء قلت هذا بناء منه على انه معطوف على لا يستأخرون وهو ظاهر اقوال المفسرين
وبالاول قال التفتازاني والكرخي وقال ابو السعود معطوف على الجواب لكن لا لبيان انتفاء التقدم
مع امكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا وقال القاري حاصل
كلام القاضي ان هذا بمنزلة المثل اي لا يقصد من مجموع الكلام الا ان الوقت تحرر لا يتغير ولا يتبدل انتهى

يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي إن هي الشرطية وما زائدة
للتوكيد والتخصيص قد تقدم معناه والمعنى إن أتاكم رسل كائنون منكم ومن جنسكم يخبرونكم
بأحكامي ويبينونها لكم وقيل المراد بالرسل النبي صلعم وذكره بلفظ الجمع للتعظيم والخطاب لأهل
مكة ومن يلحق بهم وقيل أراد جميع الرسل والخطاب عام في كل بني آدم وهو ظاهر الآية فمن
اتقى الشرك ومعاصي الله وأصلح حال نفسه باتباع الرسل وإجابتهم فلا خوف عليهم ولا هم
يحزنون يوم القيامة وقد تقدم تفسيره مرارا والذين كذبوا بآياتنا التي يقصها عليهم
رسلنا واستكبروا عنها أي عن إجابتها والعمل بما فيها أولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون لا يخرجون منها أبدا بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل فمن أظلم ممن افترى
على الله كذبا أي من أعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكا من خلقه وهو
منزه عنه أو كذب بآياته أي بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلعم أولئك
الإشارة إلى المكذبين المستكبرين ينالهم نصيبهم من الكتاب أي مما كتب الله لهم من خير
وشر وقيل ينالهم من العذاب بقدر كفرهم وقيل نصيبهم من الشقاوة والسعادة و
قال مجاهد ما سبق من الكتاب وقال محمد بن كعب رزقه وأجله وعمله ورجحه الطبري قال
الرازي وإنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه قيل الكتاب هنا القرآن
لأن عذاب الكفار مذكور فيه وقيل هو اللوح المحفوظ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم
أي إلى غاية هي هذه والمراد بالرسل هنا ملك الموت وأعوانه أي الملائكة الموكلون بإدخالهم
النار وفي المقام قولان ذكرهما الخازن وقيل حتى هنا هي التي للابتداء ولكن لا يخفى أن كونها
لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها والاستفهام في قوله قالوا أين ما كنتم
تدعون من دون الله للتقريع والتوبيخ لا للسؤال والاستعلام أي أين الآلهة التي كنتم تدعونها
من دون الله وتعبدونها ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل إن هذا يكون في الآخرة قالوا
ضلوا عنا استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جوابا عنه أي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري
أين هم وهو جواب من حيث المعنى لا من حيث اللفظ وذلك أن السؤال إنما وقع عن المكان ولو جاء
الجواب على نسق السؤال لقيل هم في المكان الفلاني وإنما المعنى ما فعل معبودكم ومن كنتم تدعون

فاجابوا بانهم ضلوا عنا وغابوا فلم نرهم مع شدة احتياجنا اليهم في هذا الوقت فلم ينفعونا
وقت الاحتياج اليهم وشهدوا على أنفسهم عند الموت أنهم كانوا كافرين اي اقروا
على انفسهم بالكفر قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم القائل هو الله عز وجل وفي بمعنى
مع اي مع امم وقيل هي على بابها والمعنى ادخلوا في جملتهم وغمارهم وعدادهم وقيل هو قول
مالك خازن النار والظاهر ان هذه الحال منتظرة اذ مصيرهم في غمار الامم انما هو بعد تمام
الدخول وذلك لان الامم المذكورة قد سبقتهم في الدخول فلا يصيرون في غمارها الا بعد
الدخول والمراد بالامم الخالية من الجن والإنس هم الكفار من الطائفتين من الامم الماضية و
اهل الملل في النار اي التي هي مستقركم ومأواكم كلما دخلت أمة من الامم الماضية النار
لعنت أختها اي الامة الاخرى التي سبقتها الى النار وجعلت اختها باعتبار الدين او
الضلالة او الكون في النار قال السدي يلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى
النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الاولى حتى إذا اداركوا فيها
جميعاً التدارك التلاحق والتتابع والاجتماع في النار قالت أخراهم دخولا لأولاهم اي لاجلهم
يعني قال آخر كل امة لاولها واللام للتعليل ولا يجوز ان تكون للتبليغ قال الزمخشري لان خطابهم
مع الله لا معهم وقد بسط القول فيه في ذلك الزجاج وقيل هي للتبليغ وخطابهم معهم
بدليل قوله فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون قال السدي
قالت اخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقيل اخراهم
اي سفلتهم واتباعهم لاولاهم لرؤسائهم وكبارهم قاله مقاتل وهذا اوفق لما يدل عليه
ربنا هؤلاء أضلونا عن الهدى فان المضلين هم الرؤساء ويجوز ان يراد انهم اضلوهم
لانهم اتبعوهم واقتدوهم بدينهم من بعدهم فيصح الوجه الاول لان اخراهم تبعت دين اولاهم
فآتهم عذابا ضعفا من النار الضعف الزائد على مثله مرة او مرات ومثله قوله تعالى
ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وقيل الضعف هنا الافاعي والحيات
وقال ابو عبيدة الضعف مثل الشيء مرة واحدة قال الزهري والذي قاله ابو عبيدة هو
ما يستعمله الناس في مجاري كلامهم واما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره الى موضع

كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين بل اقل الضعف
محصور وهو المثل واكثره غير محصور وقال الزجاج ضعفا اي مضاعفا يعني تضعيف الشيء
وزيادة الى ما لا يتناهى قال لكل اي لكل طائفة منكم ضعف من العذاب اما القادة
فبكفرهم وتضليلهم واما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم قاله الكرخي ولكن لا تعلمون
بما لكل فريق نوع من العذاب وقالت اولاهم لاخراهم اي قال السابقون للاحقين او
المتبوعون للتابعين مشافهة ومخاطبة لها فما كان لكم علينا في الدنيا من فضل بل
نحن وانتم سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه وقد ضللتم كما ضللنا فهذا رد لقول
الطائفة الاخرى هؤلاء اضلونا قال مجاهد من فضل تخفيف من العذاب فذوقوا
العذاب النار كما ذقناه بما كنتم تكسبون من معاصي الله والكفر به والقائل لهذا القول ع
القادة للاتباع او الامة الاولى للاخرى او الله سبحانه إن الذين كذبوا بآياتنا ولم يصدقوا
بها ولم يتبعوا رسلنا واستكبروا عنها اي عن الايمان والتصديق بها لا تفتح لهم
ابواب السماء يعني انها لا تفتح لارواحهم اذا ماتوا وهي تفتح لارواح المؤمنين ويصعد
بروحهم الى السماء السابعة وقد دل على هذا المعنى وانه المراد من الآية ما جاء في الاحاديث
الصحيحة ان الملائكة اذا انتهوا بروح الكافر الى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم ابواب
السماء وقيل لا تفتح ابواب السماء لادعيتهم اذا دعوا قاله مجاهد والنخعي وقيل لاعمالهم اي لا
تقبل بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم وقيل المعنى انها لا تفتح لهم ابواب الجنة لكن فيها
لان الجنة في السماء وعلى هذا العطف يحمله ولا يدخلون الجنة الآتية يكون من عطف التفسير و
لا مانع من حمل الآية على عموم الارواح والدعاء والاعمال ولا ينافيه ورود ما ورد من انها لا تفتح
ابواب السماء لواحد من هذه فان ذلك لا يدل على عدم فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم
الآية ولا يدخلون الجنة اي هؤلاء الكفار المكذبون المستكبرون لا يدخلونها بحال من
الاحوال ولهذا علقه بالمستحيل وقال حتى يلج الجمل في سم الخياط والولوج الدخول بشدة وخص
الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم عند العرب
فجسمه من اعظم الاجسام وخص سم الخياط وهو ثقب الابرة بالذكر لكونه غاية في الضيق اضيق

المنافذ وهو لا يلج فيه ابدا فثبت ان الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار ان خول الكفار الجنة مايؤس منه قطعا والجمل الذكر من الابل والجمع جمال واجمال وجمالات واعلم انه يسمى جملا اذا اربع وقرء ابن عباس الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب وقيل الحبل الغليظ من القنب وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل وقرأ ابن مسعود حتى يلج الجمل الاصفر وقرئ سم بالحركات الثلاث لكن السبعة على الفتح والضم لغة لاهل العالية والكسر لغة لبني تميم وجمعه سمام وكل ثقب ضيق فهو سم وقيل كل ثقب في البدن او انف او اذن فهو سم وجمعه سموم والسم القاتل سمي بذلك للطفه وتاثيره في مسام البدن حتى يصل الى القلب وهو في الاصل مصدر ثم اريد به معنى الفاعل لدخوله باطن البدن والسم ثقب لطيف ومنه ثقب الابرة والخياط ما يخاط به يقال خياط ومخيط قاله الفراء والمراد به الابرة في هذه الآية قال بعض اهل المعاني لما علق الله دخولهم الجنة بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك ان العرب اذا علقت ما يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ اي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي جنس من اجرم وقد تقدم تحقيقه ﴿لَهُم﴾ اي للذين كذبوا واستكبروا فهذا بيان لجزاء آخر لهم غير الجزاء السابق ﴿مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ المهاد الفراش والغواش جمع غاشية اي نيران تحيط بهم من تحتهم وتغشاهم من فوقهم كالاغطية قال ابن عباس الغواش اللحف وبه قال القرظي والضحاك والسدي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ اي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم وذكر الجرم في حرمان الجنة والظلم في دخول النار تنبيها على ان الظلم اعظم الاجرام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ اي صدقوا الله ورسوله واقروا بما جاءهم من وحي الله وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما امرهم به واطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اي لا نكلف العباد الا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ومثله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها

قال الزجاج الوسع ما يقدر عليه ولا يعجز عنه وقد غلط من قال ان الوسع بذل المجهود
أُولَئِكَ اشارة الى الموصول وخبره أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي
صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ هذا من جملة ما ينعم الله به على اهل الجنة ان ينزع ما في قلوبهم
من غل بعضهم على بعض حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضا فان الغل لو بقي في
صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة لان المتشاحنين لا يطيب
لاحدهما عيش مع وجود الآخر والمعنى خلقناهم في الجنة على هذه الحالة وليس المراد انهم
دخلوا الجنة بما ذكر ثم نزع منهم فيها بل المراد انهم دخلوها مطهرين منه قال ابو حيان
والغل الحقد الكامن في الصدور وقيل نزع الغل في الجنة ان لا يحسد بعضهم بعضا في
تفاضل المنازل قال علي بن ابي طالب فينا والله اهل بدر نزلت هذه الآية تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ اي من تحت قصورهم قد تقدم تفسيره مرارا وَقَالُوا عند الاستقرار في
منازلهم الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من
صدورهم والهداية هذه لهذا هي الهداية لسببه من الايمان والعمل الصالح في الدنيا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ نطيق لهذا الأمر جملة موضحة للاولى واللام لتوكيد النفي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا
اللَّهُ جملة مستانفة او حالية اخرج النسائي وابن جرير وابن مردويه عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل اهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله فتكون حسرة عليهم
وكل اهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا ان هدانا الله فهذا شكرهم لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ
رَبِّنَا بِالْحَقِّ اللام لام القسم قالوا هذا لما وصلوا الى ما وصلوا اليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما
صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما اخبروهم به في الدنيا من
ان جزاء الايمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ اي وقع
النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقيل لهم ذلك والمنادي هو الله وقيل
الملائكة وقيل هذا النداء يكون في الجنة عن ابي سعيد الخدري وابي هريرة ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد ان لكم ان تحيوا فلا تموتوا ابدا وان لكم ان تصحوا
فلا تسقموا ابدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان لكم ان تنعموا فلا تبأسوا ابدا فذلك قوله

عز وجل يعني هذه الآية اخرجه مسلم أُورِثْتُمُوهَا اعطيتموها بدلا من اهل النار وهو حال من
الجنة وسماها ميراثا لانها لا تستحق بالعمل بل هو محض فضل الله ووعده على الطاعات كالميراث
من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة حصلت لكم بلا تعب بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
اي اورثتم منازلها بعملكم قال في الكشاف بسبب اعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة انتهى
اقول يا مسكين هذا ما قاله رسول الله صلعم فيما صح عنه سددوا وقاربوا واعلموا انه لن يدخل
احد الجنة بعمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته والتصريح
بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل باقداره
على العمل لم يكن عمل اصلا فلو لم يكن التفضل الا بهذا الاقدار لكان القائلون بمقالة لا
مبطلة وفي التنزيل ذلك الفضل من الله وفيه فسيدخلهم في رحمة منه وفضل وفي
فتح الباري المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول والمثبت في الآية دخولها بالعمل
المتقبل والقبول انما يحصل من الله تفضلا وفي القرطبي وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تنال
الا برحمته فاذا دخلوها باعمالهم فقد ورثوها برحمته ودخلوها برحمته اذ اعمالهم رحمة منه لهم وتفضل
منه عليهم انتهى وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ بعد استقرار اهل الجنة في الجنة واهل
النار في النار يقول اهل الجنة لاهل النار وهذه المناداة لم تكن لقصد الاخبار لهم بما
نادوهم به بل لقصد تبكيتهم وايقاع الحسرة في قلوبهم أَنْ قَدْ وَجَدْنَا هو نفس النداء
اي انا قد وصلنا الى مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا اي ما وعدنا الله به من النعيم على السنة رسله
فَهَلْ وَجَدْتُمْ اي وصلتم الى مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا اي من العذاب الاليم والاستفهام هو
للتقريع والتوبيخ قَالُوا نَعَمْ وجدنا ذلك حقا وظاهر الآية يفيد العموم والجمع اذا قابل الجمع
يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من اهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار
الدنيا فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ اي فنادى مناد بَيْنَهُمْ اي بين الفريقين قيل المنادي هو من
الملائكة وقيل انه اسرافيل ذكره الواحدي واخرج ابن ابي شيبة وابو الشيخ وابن مردويه
عن ابن عمر ان النبي صلعم لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ
اي يقول المؤذن هذا القول ثم فسر الظالمين من هم فقال الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

الصد المنع اي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ اي يطلبون اعوجاجها
اي ينفرون الناس عنها ويقدحون في استقامتها بقولهم انها غير حق وان الحق ما هم فيه
والعوج بالكسر في المعاني والاعيان ما لم يكن منتصبا وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحائط
﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ اي جاحدون منكرون لها ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ اي حاجز بين الفريقين
او بين الجنة والنار والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾
جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض وهي هنا شرفات السور المضروب بينهم ومنه عرف الفرس
وعرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار اعرف
وابين مما انخفض والاعراف في اللغة المكان المرتفع وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله
رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله عن حذيفة قال الاعراف سور بين الجنة والنار
وبه قال مجاهد وقال ابن عباس هو الشيء المشرف وقال سعيد بن جبير الاعراف جبال بين
الجنة والنار فهم على اعرافها اي على ذراها وقيل انها تل بينهما حبس عليه ناس من اهل
الذنوب وعن ابن جريج قال زعموا انه الصراط وقال ابن عباس ايضا سور له عرف كعرف
الديك وقيل الاعراف هو نفس الحجاب عبر عنه تارة بالحجاب وتارة بالاعراف قاله الواحدي
ولم يذكر غيره ولذلك عرف الاعراف لانه عني به الحجاب وقال القرطبي الاعراف جبل احد
يوضع هناك وذكر الزهراوي حديثا فيه ما ذكر ﴿رِجَالٌ﴾ من افاضل المسلمين او من اخرهم دخولا
في الجنة او من لم يرض عنه احد ابويه وقد اختلف العلماء في اصحاب الاعراف من هم على
ثلثة عشر قولا ذكر الخازن منها ثمانية وزاد عليه القرطبي خمسة فقيل هم الشهداء ذكره
القشيري وشرحبيل بن سعد وقيل هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل انفسهم وتفرغوا
لمطالعة احوال الناس ذكره مجاهد وقيل هم قوم انبياء ذكره الزجاج وحكاه ابن الانباري
وقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس
والشعبي والضحاك وسعيد بن جبير وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار يعرفون
محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها حكي ذلك عن ابن عباس وقيل هم عدول القيامة
الذين يشهدون على الناس باعمالهم وهم في كل امة واختار هذا القول النحاس وقال هو من

احسن ما قيل فيهم وقيل هم اولاد الزنا روى ذلك القشيري عن ابن عباس وقيل هم اطفال
المشركين وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء وقيل هم ملائكة موكلون بهذا السور
يميزون الكافرين عن المؤمنين قبل ادخالهم الجنة والنار ذكره ابو مجلز وضعفه الطبري وقال
ان لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق الا على الذكور من بني ادم دون اناثهم ودون سائر
الخلق وفي هذه الاقوال ما يدل على ان اصحاب الاعراف دون اهل الجنة في الدرجات وان كانوا
يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وفيها ما يدل على انهم افضل من اهل الجنة واعلى منهم منزلة و
ليس في الباب ما يقطع به من نص جلي وبرهان نير وقال حذيفة اصحاب الاعراف قوم
كانت لهم اعمال انجاهم الله بها من النار وهم اخر من يدخل الجنة قد عرفوا اهل الجنة واهل
النار وقيل هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالالام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر
فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم وذكر ابن الجوزي انهم قوم رضي
عنهم اباؤهم دون امهاتهم او امهاتهم دون ابائهم ورواه عن ابراهيم واخرج ابن جرير
وابن المنذر عن ابي زرعة بن عمرو قال سئل رسول الله صلعم عن اصحاب الاعراف فقال هم
اخر من يفصل بينهم من العباد فاذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال انتم قوم
اخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فانتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم قال
ابن كثير وهذا مرسل حسن واخرج البيهقي في البعث عن حذيفة اراه قال قال رسول الله
صلعم يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر باهل الجنة الى الجنة ويؤمر باهل النار الى النار ثم يقال لاصحاب
الاعراف ما تنتظرون قالوا ننتظر امرك فيقال لهم ان حسناتكم تجاوزت بكم النار ان تدخلوها وحالت
بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتي ورحمتي وعن عبد الرحمن المزني قال سئل رسول
الله صلعم عن اصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية ابائهم فمنعهم من النار
قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصيتهم اباءهم اخرجه البيهقي والطبراني وسعيد
بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن ابي حاتم وابو الشيخ وغيرهم وروي بطرق عن
جماعة من الصحابة نحوه مرفوعا فان ثبت الرفع فالمصير اليه متعين ولا قول لاحد بعده والله
اعلم يعرفون كلا بسيماهم السيما العلامة اي يعرفون كلا من اهل الجنة والنار بعلاماتهم

كبياض الوجوه وسوادها او مواضع الوضوء من المؤمنين او علامة يجعلها الله لكل فريق
في ذلك الموقف يعرف رجال الاعراف بها السعداء من الاشقياء قال السدي انما سمي الاعراف
لان اصحابه يعرفون الناس اي زيادة على معرفتهم بكونهم في الجنة وكونهم في النار
وَنَادَوْا اي نادى رجال الاعراف أَصْحَابَ الْجَنَّةِ حين رأوهم أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إيـ
نادوهم بقولهم هذا التحية لهم واكراما وتبشيرا ولنخبروهم بسلامتهم من العذاب والآفات
لَمْ يَدْخُلُوهَا اي لم يدخل الجنة اصحاب الاعراف ولا محل له لانه استيناف وَهُمْ يَطْمَعُونَ اي
والحال انهم يطمعون في دخولها وقيل معنى يطمعون يعلمون انهم يدخلونها وذلك معروف
عند اهل اللغة اي طمع بمعنى علم ذكره النحاس وهذا القول اعني كونهم اهل الاعراف مروي
عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود وقال ابو مجلز هم اهل الجنة اي ان اهل الاعراف قالوا
لهم سلام عليكم حال كون اهل الجنة لم يدخلوها والحال انهم يطمعون في دخولها قال الحسن
ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ اي ابصار
اهل الاعراف لا عن قصد لان المكروه لا ينظر اليه الانسان قصدا في العادة تِلْقَاءَ أَصْحَابِ
النَّارِ اي وجاههم وحيالهم واصل معنى تلقاء جهة اللقاء وهي جهة المقابلة ولم يأت مصدر
على تفعال بكسر اوله غير مصدرين احدهما هذا والآخر تبيان وما عداهما بالفتح وزاد
بعضهم الزلزال قَالُوا اي اهل الاعراف اذا نظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه
من العذاب رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سألوا الله ان لا يجعلهم منهم وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا من الكفار كانوا عظماء في الدنيا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ اي بعلاماتهم
قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ الذي كنتم تجمعون من الاموال والعدد في الدنيا للصد عن سبيل
الله والاستفهام للتقريع والتوبيخ وَمَا اغنى عنكم مَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ اي استكباركم عن الايمان
شيئا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ هذا من كلام اصحاب الاعراف اي قالوا
للكفار مشيرين الى المسلمين الذين صاروا الى الجنة هذه المقالة وقد كان الكفار يقسمون
في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ بفضلي ورحمتي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ هذا تمام كلام اصحاب الاعراف اي قالوا

ثمن الربع

للمسلمين ادخلوا الجنة فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من الطعام قاله السدي و
الافاضة التوسعة يقال افاض عليه نعمة ويتضمن افيضوا معنى القوا او تعني الوا ولقوله
حرمهما او هي على بابها من اقتضائها لاحد الشيئين التخيير او اباحة او غير ذلك مما يليق
بها وعلى هذا تقديره حرم كلا منهما او كليهما كما سياتي والمعنى طلبوا منهم ان يواسوهم
بشيء من الماء او بشيء مما رزقهم الله من غيره من الاشربة والاطعمة قَالُوا اي فاجابوا بقولهم
إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا اي حرم الماء وما رزقنا عَلَى الْكَافِرِينَ ومنعهما فلا نواسيكم
بشيء مما حرمه عليكم والتحريم مستعمل في لازمه لانقطاع التكليف ح قيل ان هذا النداء كان
من اهل النار بعد دخول اهل الاعراف الجنة قال ابن عباس ينادي الرجل اخاه فيقول يا
اخي اغثني فاني قد احترقت فافض علي من الماء فيقال اجبه فيقول ان الله حرمهما على
الكافرين وقال ابن زيد يستسقونهم ويستطعمونهم وان الله حرمهما اي طعام الجنة وشرابها
وهو تحريم منع الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا قد تقدم تفسير
اللهو واللعب والغرر قال ابن عباس هم المستهزؤن وذلك انهم كانوا اذا دعوا الى الايمان
سخروا ممن دعاهم اليه وهزؤا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من
تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا
يفعلونها في الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه
فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ اي نتركهم في النار وقال مجاهد نؤخرهم جياعا عطاشا والمعنى نفعل بهم
فعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتناء بهم وتركهم في النار تركا كليا والفاء فصيحة وكثر مثل هذه
الاستعارة في القرآن لان تعليم المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن ان يعبر عنها الا بما يماثلها من عالم
الشهادة كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا اي كما تركوا العمل للقاء هذا اليوم قاله ابن عباس ومجاهد
والسدي وقال ابن عباس ايضا نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وسمي جزاء نسيانهم بالنسيان
مجازا لان الله لا ينسى شيئا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ اي يكذبونها وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ
عَلَى عِلْمٍ اي عالمين بتفصيله حال كونه هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ المراد بالكتاب الجنس

أن كان الضمير للكفار جميعا وان كان للمعاصرين للنبي صلعم فالمراد به القرآن والتفصيل
التبيين اي ما بيناه بالاخبار والوعد والوعيد وكذا بقية الانواع التسعة التي نظمها بعضهم
في قوله ـــه حلال حرام محكم متشابه + بشير نذير قصة عظة مثل + وقال السمين
المراد بتفصيله ايضاح الحق من الباطل او تنزيله في فصول مختلفة كقوله وقرآنا فرقناه
وقرئ فضلناه من التفضيل اي على غيره من الكتب السماوية هَلْ يَنظُرُونَ النظر
الانتظار اي ما ينتظرون اهل مكة إِلَّا تَأْوِيلَهُ اي ما وعدوا به في الكتاب من العقاب
الذي يؤول الامر اليه وقيل تاويله جزاؤه وقيل عاقبة ما فيه والمعنى متقارب يَوْمَ يَأْتِي
تَأْوِيلُهُ وهو يوم القيامة يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ اي التاويل وتركوا العمل بالقرآن مِن قَبْلُ
اي قبل ان ياتي تاويله قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ الذي ارسلهم الله به الينا فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَاءَ استفهام ومعناه التمني ومن زائدة فَيَشْفَعُوا لَنَا جواب الاستفهام والمعنى هل لنا
شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب أَوْ هل نُرَدُّ الى الدنيا فَنَعْمَلَ صالحا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ من المعاصي فنبدل الكفر بالايمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والانابة فيقال
لهم في جواب الاستفهامين قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ اي صاروا الى الهلاك ولم ينتفعوا بها فكانت
بلاء عليهم ومحنة لهم فكانهم خسروها كما يخسر التاجر راس ماله وقيل خسروا النعيم وحظ
الانفس وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ اي افتراؤهم او الذي كانوا يفترونه من دعوى ع
الشريك والمعنى انه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا او غاب عنهم ما كانوا يجعلونه
شريكا لله فلم ينفعهم ولا حضرهم وعلموا انهم كانوا في دعواهم كاذبين إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالايجاد
الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته واصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في ابداع
الشيء من غير اصل سبق ولا ابتداء تقدم فمعنى الآية انشا خلقهما وقدر احوالهما فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وهو من طلوع الشمس الى غروبها قيل هذه الايام
من ايام الدنيا وقيل من ايام الآخرة قال ابن عباس كل يوم مقداره الف سنة وبه قال الجمهور
وهذه الايام الستة اولها الاحد وآخرها الجمعة وبه قال عبد الله بن سلام وكعب الاحبار والضحاك

ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول
لها كوني فتكون ولكنه اراد ان يعلم عباده الرفق والتأني في الامور وقال سعيد بن جبير
تعليما لخلقه التثبت كما في الحديث التأني من الله والعجلة من الشيطان او خلقها لكون لكل
شيء عنده اجلا وفي آية اخرى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة ايام وما
مسنا من لغوب وحديث خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن
من منافع يوم الثلثاء الخ رواه مسلم والحاكم عن ابن عباس لكن يشكل على هذا التوزيع
انه لم يكن ثم ايام لعدم الشمس والقمر ولا تعيين الاحد ولا غيره من الايام الا بوجودهما بالفعل
ذكره سليمان الجمل وقال والجواب بقوله اي في قدرها لا يدفع هذا الاشكال كما لا يخفى ثم
استوى على العرش قد اختلف العلماء في معنى هذا على اربعة عشر قولا واحقها واولاها
بالصواب مذهب السلف الصالح انه استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي
يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار قال
الجوهري استوى على ظهر دابته اي استقر واستوى الى السماء اي صعد واستوى اي
استولى وظهر وبه قال المعتزلة وجماعة من المتكلمين واستوى الرجل اي انتهى شبابه
واستوى الشيء اي اتسق واعتدل وحكي عن ابي عبيدة ان معنى استوى هنا علا وارتفع وللشوكاني في
رسالة مستقلة في اثبات اجراء الصفات على ظواهرها منها صفة الاستواء ولشيخ الاسلام
احمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني والحافظ الامام محمد بن ابي بكر بن القيم الجوزي اهـ
تمام بمسئلة الاستواء هذه واثبات الفوقية والعلو له تعالى على خلقه ولهما في ذلك
رسائل مستقلة ما بين مطولة منها ومختصرة وكتاب العلو للحافظ الذهبي فيه جميع ما ورد
في ذلك من الآيات والاحاديث وغيرها وقد اوضحت هذا المقام في كتابي الانتقاد الرجيح
في شرح الاعتقاد الصحيح وعن ام سلمة قالت الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول
والاقرار به ايمان والجحود له كفر اخرجه ابن مردويه وعن مالك بن انس نحوه وزاد والسؤال
عنه بدعة قال الشيخ وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة
باطل انتهى وأقول يا مسكين اما شعرت ان العرش في اللغة هو السرير والاستواء هو الاستقرار

وبه فسر حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس كما في البخاري وليس في ذلك تشبيه أصلا
إنما التشبيه في بيان الكيفية بل الإنكار عن ذلك تعطيل فالتفويض مذهب سلف الأمة و
أئمتها وهو إمرار الصفات كما جاءت وإجراؤها على ظواهرها بلا تكييف ولا تأويل ولا
تعطيل ليس كمثله شيء والعرش قال الجوهري هو سرير الملك وقيل هو ما علا فأظل وسمي
مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة
والمجاز ويطلق على معان أخر منها عرش البيت سقفه وعرش البئر طيها بالخشب وعرش
السماك أربعة كواكب صغار ويطلق على الملك والسلطان والعز وقد ثبت في الأحاديث
الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما وهو
المراد هنا قال الراغب وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس
كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك ليس
كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب قيل والمراد به هنا هو الجسم النوراني
المرتفع على كل الأجسام المحيطة بكلها (يغشي الليل النهار) أي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي
بظلمته ضياءه وقرئ يغشي بالتشديد والتخفيف وهما لغتان يقال أغشى يغشي وغشى يغشي
والتغشية في الأصل إلباس الشيء الشيء ولم يذكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد
الأمرين عن الآخر كقوله سرابيل تقيكم الحر ولدلالة الحال عليه أو لأن اللفظ يحتملهما بجعل
الليل مفعولا أولا والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس وذكر في آية أخرى يكور الليل على النهار
ويكور النهار على الليل ذكره الكرخي وفي التقدير استوى على العرش مغشيا الليل النهار والآية
الكريمة من باب أعطيت زيدا عمرا لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشيا ومغشيا
فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوي والنهار هو المفعول من غير عكس (يطلبه حثيثا) أي
حال كون الليل طالبا للنهار طلبا لا يفتر عنه بحال والحث الحمل على فعل الشيء كالحض عليه
والاستعجال والسرعة يقال ولى حثيثا أي مسرعا والحث والحض أخوان يقال حثثت فلانا
فاحتث فهو حثيث ومحثوث وفعله من باب رد قال الرازي إنه سبحانه وصف هذه الحركة
بالسرعة الشديدة وذلك أن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك

الحركة اشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان في اشد عدوه بين ان يرفع رجله
ويضعها يتحرك الفلك له اعظم ثلاثة الاف ميل وهي الف فرسخ وهذا قال يطلبه حثيثا
لسرعته وحركته اي يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء والجملة حال من الليل
لانه هو المحدث عنه اي يغشي النهار طالبا له او من النهار اي مطلوبا او من كل منهما وعليه
الجلال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره اي خلقها حال كونها مسخرات والاخبار عن هذه
بالتسخير وهو التذليل لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس هي قادرات بانفسها
وانما يتصرف على ارادة المدبر لها على ما اراد منهن الا اداة استفتاح وله خبر مقدم و
المبتدأ الخلق والامر اخبار منه سبحانه لعباده بانهما له والخلق المخلوق والامر كلامه وهو
كن في قوله انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون او المراد بالامر ما يأمر به على
التفصيل والتصرف في مخلوقاته قال سفيان بن عيينة الخلق ما دون العرش والامر فوق
ذلك واستخرج من هذا المعنى ان كلام الله ليس بمخلوق لانه فرق بين الخلق والامر ومن
جعل الامر الذي هو كلامه من جملة ما خلقه فقد كفر وفي الاية دليل على انه لا خالق الا الله
ففيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم فاخبر انه هو الخالق
المدبر لهذا العالم لا هن وله الامر المطلق وليس لاحد امر غيره فهو الامر والناهي الذي
يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه تبارك الله رب العالمين
اي كثرت بركته واتسعت ومنه بورك في الشيء وبورك فيه كذا قال ابن عرفة وقال الازهري
معناه تعالى وتعاظم وقيل تمجد وارتفع وختم الاية بالثناء عليه لانه هو المستحق للمدح المطلق
وقال ابن عباس معناه جاء بكل بركة وقيل تقدس وقيل باسمه يتبرك في كل شيء وقيل
معناه ثبت ودام وفي الجمل تبارك فعل ماض لا يتصرف اي لم يجئ منه مضارع ولا امر ولا
اسم فاعل وقال الخليل تبارك من البركة وهي الكثرة في كل خير ادعوا ربكم تضرعا وخفية
امرهم الله سبحانه بالدعاء وقيد ذلك بكون الداعي متضرعا بدعائه مخفيا له اي متضرعين
بالدعاء مخفين له او ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية وقيل الدعاء هنا بمعنى العبادة و
الاول اولى والتضرع من الضراعة وهي الذلة والخشوع والاستكانة والخفية والاسرار به فان

ذلك اقطع لعرق الرياء واحسم لمادة ما يخالف الاخلاص وقال الزجاج تضرعاً يعني تملقاً او
قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً وقال تعالى اذ نادى ربه نداء
خفياً وعن ابي موسى الاشعري قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس اربعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائباً انكم تدعون
سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه اقرب الى احدكم من عنق راحلته الحديث اخرجه
الشيخان ثم علل ذلك بقوله إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ اي المجاوزين لما امروا به في الدعاء
بالتشدق ورفع الصوت وفي كل شيء فمن جاوز ما امره الله به في شيء من الاشياء فقد اعتدى
وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم دخولاً اولياً ومن الاعتداء في الدعاء ان يسأل
الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا او ادراك ما هو محال في نفسه او يطلب الوصول الى منازل
الانبياء في الآخرة او يرفع صوته بالدعاء صارخاً به وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ نهاهم الله سبحانه
عن الفساد في الارض بوجه من الوجوه قليلاً كان او كثيراً ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم
وقطع اشجارهم وتغوير انهارهم ومن الفساد في الارض الكفر بالله والوقوع في معاصيه
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا اي بعد ان اصلحها الله بارسال الرسل وانزال الكتب وتقرير الشرائع قاله
الحسن والسدي والضحاك والكلبي وقيل بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا فيه انه يشرع للداعي ان يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في اجابة الله لدعائه
فانه اذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه قال القرطبي امرنا الله تعالى
بان يكون العبد وقت الدعاء في حال ترقب وتخوف وامل في الله حتى يكون الخوف والرجاء
للانسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته واذا انفرد احدهما هلك الانسان
فيدعو الانسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه والخوف الانزعاج في الباطن من المضار التي
لا يؤمن من وقوعها وقيل توقع مكروه فيما بعد والطمع توقع حصول الامر المحبوب في المستقبل
قال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل خوفاً من الرياء وطمعاً في الاجابة قال
بعض اهل العلم ينبغي للعبد ان يغلب الخوف حال حياته فاذا جاء الموت غلب الرجاء قال
صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى اخرجه مسلم والآية الاولى في بيان شرط

صيغة الدعاء والثانية في بيان فائدة الدعاء إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ هذا إخبار
من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم وفي
هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب
مقصود لكل عبد من عباد الله وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب في وجه تذكير خبر رحمة
الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة فقال الزجاج إن الرحمة مأولة بالرحم لكونها بمعنى العفو
والغفران ورجح هذا التأويل النحاس وقال النضر بن شميل الرحمة مصدر بمعنى الترحم وحق المصدر
التذكير وقال الأخفش أراد بالرحمة هنا المطر وتذكير بعض المؤنث جائز وقال أبو عبيدة المعنى
مكان قريب قال علي بن سليمان الأخفش وهذا خطأ وقال الفراء إن القريب إذا كان بمعنى
المسافة فيذكر ويؤنث وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم وروي عن الفراء
أنه قال في النسب قريبة فلان وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث يقال دارك منا
قريب وفلانة منا قريب قال الله تعالى وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وروي عن الزجاج
أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما وقيل إنه لما كان تأنيث
الرحمة غير حقيقي جاز في خبرها التذكير ذكر معناه الجوهري وأصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان
إلى المرحوم وتستعمل تارة في مجرد الرقة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري
فيراد بها الإحسان فقط وقيل هي إرادة إيصال الخير والنعمة على عباده فعلى الأول تكون الرحمة
من صفات الأفعال وعلى الثاني من صفات الذات قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب
فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ وقوله هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته
وثبوت إلهيته ورياح جمع ريح وأصل ريح روح وقرئ نشرا بضم النون والشين جمع ناشر على
معنى النسب أي ذات نشر وقرئ بضم النون وإسكان الشين وبفتح النون وإسكان الشين
ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذي هو خلاف الطي فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية
ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة وقال أبو عبيدة معناه متفرقة في وجوهها على معنى ينشرها
ههنا وههنا وقيل هي الريح الطيبة الهبوب تهب من كل ناحية وقيل يقال أنشر الله الريح بمعنى

احياها وقال الفراء النشر الريح اللينة التي تنشئ السحاب وقال ابن الانباري هي المنتشرة الواسعة الهبوب وقرئ بشرا بالموحدة واسكان الشين جمع بشير اي الرياح تبشر بالمطر ومنه قوله تعالى وهو الذي يرسل الرياح مبشرات والمراد بالرحمة المطر اي قدام رحمته والمعنى انه سبحانه يرسل الرياح ناشرات او مبشرات بين يدي المطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة وجملة الرياح وهي اربعة الصَّبا وهي الشرقية تثير السحاب والدَّبور وهي الغربية تفرقه والشَّمال تجمعه وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجَنوب تدره وهي قبلية عن ابن عمر الرياح ثمان اربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم واربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات قال كعب لو حبس الله الريح عن عباده ثلثة ايام لانتن اكثر اهل الارض حتى غاية لقوله يرسل اذا اقلت سحابا ثقالا حقيقة اقل جعله قليلا او وجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله لان الحامل يستقل ما يحمله ومنه المقل بمعنى الحامل واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيئا يراه قليلا يقال اقل فلان الشيء حمله ورفعه والسحاب اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث تصح مراعاة لفظه ومراعاة معناه وهو الغيم فيه ماء او لا سمي سحابا لانسحابه في الهواء والمعنى اذا حملت الريح سحابا ثقالا بالماء الذي صارت تحمله سقناه اي السحاب وفيه التفات عن الغيبة في قوله هو الذي يرسل لبلد ميت اي مجدب ليس فيه نبات لعدم الماء يقال سقته لبلد كذا والى بلد كذا وقيل لاجل بلد ميت قاله الزمخشري وجعلها لام العلة ولا يظهر بل هي لام التبليغ كقولك قلت لك قال ابو حيان فرق بين قولك سقت لك مالا وسقت لاجلك مالا فان الاول معناه اوصلته لك وبلغتكه والثاني لا يلزم منه وصوله اليك والبلد هو الموضع العامر من الارض وقال الازهري عامرا وغير عامر خاليا او مسكونا والطائفة منها بلدة والجمع بلاد وزاد غيره والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن والبلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان فانزلنا به الماء اي بالبلد الذي سقناه لاجله قاله الزجاج وابن الانباري وهذا هو الظاهر وقيل انزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله او فانزلنا بالريح المرسلة بين يدي المطر الماء وقيل ان الباء بمعنى من اي فانزلنا منه الماء وقيل انها سببية اي فانزلنا الماء بسبب السحاب وقيل يعود على السوق المفهوم من الفعل اي بسبب سوق السحاب وهو ضعيف لعود الضمير على غير مذكور مع امكان

عوده على المذكور فَأَخْرَجْنَا بِهِ اي بالماء او بذلك البلد الميت والاول اولى بل لا ينبغي ان
يعدل عنه مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ اي من جميع انواعها من تبعيضية او ابتدائية كَذَٰلِكَ اي مثل
اخراج الثمرات نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ من القبور يوم حشرهم بعد فنائهم ودروس آثارهم والتشبيه
في مطلق الاخراج من العدم وهذا رد على منكري البعث ومحصله ان من قدر على اخراج
الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على احياء الموتى من قبورهم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتعلمون عظيم
قدرة الله وبدايع صنعته وتؤمنون بانه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التي تشاهدونها
والخطاب لمنكري البعث وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ اي التربة الطيبة السهلة
السمحة يخرج نباتها باذن الله وتيسيره خروجا حسنا تاما وافيا وخص خروج نبات الطيب
بقوله باذن ربه على سبيل المدح والتشريف وان كان كل من النباتين يخرج باذنه تعالى
قاله ابو حيان في النهر والمعنى بمشيته وعبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه اوقعه
في مقابلة قوله وَالَّذِي خَبُثَ اي والتربة الخبيثة السبخة لَا يَخْرُجُ نباتها إِلَّا نَكِدًا اي قليلا
لا خير فيه وقيل عسرا بمشقة وكلفة يقال نكد نكدا من باب تعب فهو نكد تعسر ونكد العيش
نكدا اشتد وعسر وفي القاموس نكد عيشهم كفرح اشتد وعسر والبئر قل ماؤها ونكده
حاجته عسره كنصره منعه اياها ورجل نكد شوم عسر وقوم انكاد ومناكيد والنكد بالضم قلة
العطاء ويفتح وقيل معنى الاية التشبيه شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب والبليد بالبلد
الخبيث ذكره النحاس وقيل هذا مثل للقلوب فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب والنائي
عنه بالبلد الخبيث قاله الحسن وقيل هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة وقيل
هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم قاله مجاهد عن ابي موسى الاشعري قال قال رسول
صلعم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة
طيبة قبلت الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع
الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان
لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى
به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذي ارسلت به اخرجاه

والتصعيد والتبريد في هذا ما يدل على انه السبب في نزول الآية كذلك اي مثل ذلك التصريف
نصرف الآيات لقوم يشكرون الله ويعترفون بنعمته وينتفعون بسماع القرآن لقد ارسلنا ع
نوحا الى قومه لما بين الله سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا
اقاصيص الامم وما فيها من تخويف الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الامة على الصواب وان
لا يقتدوا بمن خالف الحق من الامم السالفة واللام جواب قسم محذوف اي والله لقد ارسلنا
نوح بن لمك بن متوشلخ ومعنى ارسلنا بعثنا وكان نوح نجارا بعثه الله وهو ابن اربعين سنة
وقيل خمسين سنة وقيل مائتين وخمسين سنة وقيل ابن مائة سنة وهو اول الرسل الى اهل
الارض بعد آدم اخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن انس ان النبي صلعم قال
اول نبي ارسل نوح قال يزيد الرقاشي انما سمي نوحا لطول ما ناح على نفسه وكان اسمه عبد
الغفار بن لمك واختلف في سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه في
شان ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فاوحى الله تعالى اليه اعبتني
ام عبت الكلب وقوم الرجل اقرباؤه الذين يجتمعون في جد واحد وقد يقيم الرجل بين الاجانب
فيسميهم قومه مجاز للمجاورة وفي التنزيل قال يا قوم اتبعوا المرسلين وكان مقيما بينهم ولم يكن منهم
وقيل كانوا قومه قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من
الحق وقد تقدم ذكر نوح في آل عمران فاغنى عن الاعادة هنا وما قيل ان ادريس قبل نوح
فقال ابن العربي انه وهم قال المازري فان صح ما ذكره المؤرخون كان محمولا على ان ادريس كان
نبيا غير مرسل فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اي اعبدوه لانه لم يكن لكم اله
غيره حتى يستحق منكم ان يكون معبودا اني اخاف عليكم ان عبدتم غيره عذاب يوم عظيم
جملة متضمنة لتعليل الامر بالعبادة والمراد عذاب يوم القيامة او عذاب الطوفان وانما
قال اخاف على الشك وان كان على يقين وجزم من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه
لم يعرف وقت نزول العذاب بهم ايعاجلهم ام يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة قال الملأ
من قومه الملأ اشراف القوم ورؤساؤهم وقيل هم الرجال سموا بذلك لانهم بما يلتمس عندهم
من المعروف وجودة الراي او لانهم يملؤون العيون ابهة والصدور هيبة والجمع املاء مثل سبب واسباب

وقد تقدم بيانه في البقرة إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ الضلال العدول عن طريق الحق
والذهاب عنه يقال ضل الرجل الطريق وضل عنه يضل من باب ضرب ضلالا وضلالة
زل عنه فلم يهتد إليه فهو ضال هذه لغة نجد وهي الفصحى وبها جاء القرآن في قوله إن ضللت
فإنما أضل على نفسي وفي لغة لأهل العالية من باب تعب والأصل في الضلال الغيبة ومنه
قيل للحيوان الضائع ضالة بالهاء للمذكر والمؤنث والجمع الضوال مثل دابة ودواب أي إنا
لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق وخطأ وزوال عنه بين والرؤية
قلبية قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ كما تزعمون وهي أعم من الضلال فنفيها أبلغ من نفيه
وَلَكِنِّي رَسُولٌ جاءت لكن هنا أحسن مجيء لأنها بين نقيضين لأن الإنسان لا يخلو من أحد
شيئين ضلال وهدى والرسالة لا تجامع الضلال مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ صفة لرسول ومن
لابتداء الغاية المجازية أي رسلني لسوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم نفى عن نفسه الضلالة وأثبت
لها ما هو أعلى منصب في أشرف نعمة وهو أنه رسول الله إليهم أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي جمع الرسالة
لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أو لأن المراد بها المرسل به وهو يتعدد أي ما أرسله الله إليهم
مما أوحاه إليه وَأَنصَحُ لَكُمْ يقال نصحته ونصحت له وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إمحاض
النصح قال الأصمعي الناصح الخالص من الغل وكل شيء خلص فقد نصح فمعنى أنصح هنا أخلص النية
لكم عن شوائب الفساد والاسم النصيحة وقيل النصح تحري قول وفعل فيه صلاح للغير وقيل إرادة
الخير لغيرك مما تريده لنفسك والنهاية في صدق العناية وجملة وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك
ومنها قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين أَوَعَجِبْتُمْ
الاستفهام للإنكار كأنه قيل استبعدتم وكذبتم وأنكرتم وعجبتم أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ
أي وحي وموعظة مِّن رَّبِّكُمْ والمراد به الكتاب الذي أنزل على نوح وقيل المعجزة التي جاء بها
نوح والأول أولى عَلَىٰ رَجُلٍ لسان رَجُلٍ مِّنكُمْ أي من جنسكم تعرفونه ولم يكن ذلك بلسان من لا تعرفونه
أو لا تعرفون لغته وقيل على بمعنى مع قاله الفراء لِيُنذِرَكُمْ علة للمجيء وَلِتَتَّقُوا ما يخالفه علة
ثانية مترتبة على العلة قبلها وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بسبب ما يفيده الإنذار لكم والتقوى منكم من التعرض

لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم وهي ثالثة مرتبة على التي قبلها وهذا الترتيب في غاية
من الحسن لان المقصود من الارسال الانذار ومن الانذار التقوى ومن التقوى الفوز بالرحمة فكذبوه اي
فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الانذار واستمروا على تكذيبه في دعوى النبوة وما
نزل عليه من الوحي الذي بلغه اليهم فانجيناه من الطوفان والغرق والذين معه من المؤمنين
به المستقرين معه قيل كانوا اربعين رجلا واربعين امرأة وقيل كانوا تسعة ابناؤه الثلاثة
وستة من غيرهم في الفلك اي السفينة روي انه اتخذها في سنتين وركبها في عاشر رجب
ونزل منها في عاشر محرم والفلك واحد وجمع تذكر وتؤنث واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا
اي استمروا على ذلك ولم يرجعوا الى التوبة انهم كانوا قوما عمين عن الحق وفهمه الرحمة ع
اي لكونهم عمي القلب لا ينجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير قال ابن عباس عمين كفارا
قال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم في البصيرة واعمى في البصر قاله الليث
وقيل هما بمعنى وقال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق وعمين جمع عم صفة مشبهة
لكن تصرف فيه بحذف لامه كقاض اذا جمع فاصله عميين قال بعضهم عم فيه دلالة على
ثبوت الصفة واستقرارها كفرح وضيق ولو اريد الحدوث لقيل عام كما يقال فارح وضائق
وقد قرئ عامين حكاها الزمخشري وارسلنا الى قوم عاد وهو من ولد سام بن نوح قيل هو عاد
بن عوص بن ارم بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح وهم عاد الاولى وعاد الثانية قوم صالح
وهم ثمود وبينهما مائة سنة اخاهم اي واحدا من قبيلتهم او صاحبهم وسماه اخا لكونه
ابن آدم مثلهم قاله الزجاج والعرب تسمي صاحب القوم اخاهم هودا هو ابن عبد الله
بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص المذكور قاله السيوطي في التحبير وقال ابن اسحاق هو هود بن
شالخ المذكور والاول اولى واشتهر في السنة النحاة ان هودا عربي وفيه نظر لان الظاهر من كلام
سيبويه لما عده مع نوح ولوط انه عجمي وكان بينه وبين نوح ثمانمائة سنة وعاش اربعمائة
واربعا وستين سنة وصرح هنا بتعيين المرسل اليهم دون ما سبق في نوح وما يأتي في لوط
لان المرسل اليهم اذا كان لهم اسم قد اشتهروا به ذكروا به والا فلا وقد امتازت عاد وثمود ومدين
باسماء مشهورة قال الربيع بن خثيم كانت عاد ما بين اليمن الى الشام مثل الذر وقيل كانت منازلهم

عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل التي هي عند عمان وحضرموت وقال وهب كان الرجل
من عاد ستين ذراعا بذراعهم وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل تفرخ
فيها السباع وكذلك مناخرهم وقال قتادة ذكر لنا انهم كانوا اثني عشر ذراعا طولا وعن ابن عباس
كان الرجل منهم ثمانين باعا وكانت البرة فيهم ككلية البقرة والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر ولا تخلو
هذه الاقاويل عن نوع مبالغة قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولم يقل هنا فقال كما قال في
قصة نوح لان الفاء تدل على التعقيب كان نوح مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها
وكان هود دون نوح في المبالغة في الدعاء وقيل هذا على تقدير سؤال سائل قال فما قال
لهم هود فقيل قال يا قوم افلا تتقون قد تقدم تفسيره اي افلا تخافون ما نزل بكم من
العذاب وله الم يكن قبل واقعة قوم نوح شئ حسن تخويفهم من العذاب والاستفهام للاستبعاد
والانكار وقال في سورة هود افلا تعقلون ولعله خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل
منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله ان انتم الا مفترون
وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من القصص قال الملأ الذين كفروا من قومه
انا لنراك في سفاهة هي الخفة والحمق وقد تقدم بيانه في البقرة نسبوه الى الخفة والطيش و
قلة العقل والجهالة ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا وانا لنظنك من الكاذبين مؤكدين لظنهم
كذبه فيما ادعاه من الرسالة قال يا قوم ليس بي سفاهة كما تدعون ولكني رسول من
رب العالمين اليكم استدراك على ما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى
من الرشد فان الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك فكانه قيل ليس بي شئ مما تنسبوني
اليه ولكني في غاية من الرشد والصدق ولم يصرح بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك
ومن لابتداء الغاية وقد تقدم بيان معنى هذا قريبا وكذا سبق تفسير قوله ابلغكم رسالات
ربي وانا لكم ناصح فيما امركم به من عبادة الله وترك عبادة ما سواه امين هو المعروف
بالامانة والثقة على ما ائتمن عليه وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة
المدح وفي اجابة الانبياء من ينسبهم الى السفاهة والضلال بما اجابوهم به من الكلام الصادر
عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بان خصومهم اضل الناس واسفههم ادب

حسن وخلق عظيم وتعليم من الله لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم
ويسبلون اذيال حلمهم على ما يكون منهم وموضع قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما
واتى هود بالجملة الاسمية ونوح بالفعلية حيث قال وانصح لكم وذلك لان صيغة الفعل
تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يكرر في دعائهم ليلا ونهارا من غير تراخ
فناسب التعبير بالفعل واما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا
عبر بالاسمية أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ لسان رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ بأس
ربكم ويخوفكم عقابه وقد سبق تفسيره وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ
نُوحٍ اي جعلهم سكان الارض التي كانوا فيها اذكرهم الله نعمة من نعمه عليهم انما جعلهم
ملوكا وجعل الذكر للوقت والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الارض لقصد المبالغة لان الشيء
اذا كان وقته مستحقا للذكر فهو مستحق له بالاولى وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً اي طولا في الخلق
وعظم جسم وقوة زيادة على ما كان عليه آباؤهم في الابدان وقيل بسطة اي شدة قال ابن
عباس وعن ابي هريرة قال كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع خمسمائة
من هذه الامة لم يستطيعوا ان يقلوه وان كان احدهم ليدخل قدمه في الارض فتدخل
فيها قال السدي والكلبي كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين وقيل
سبعين ذراعا وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم اجرام قوم عاد فيها بعد كما تقدم فَاذْكُرُوا
آلَاءَ اللَّهِ اي نعم الله عليكم جمع إِلي بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل واحمال او أُلي بضم الهمزة وسكون اللام
كقفل واقفال او إِلَي بكسر الهمزة وفتح اللام كضلع واضلاع وعنب واعناب او أَلَي بفتحهما
كقفا واقفاء ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الارض والبسطة في الخلق وغير ذلك مما انعم
به عليهم وكرر التذكير لزيادة التقرير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ان تذكرتم ذلك لان الذكر للنعمة
سبب باعث على شكرها ومن شكر فقد افلح قَالُوا في جواب نصحه لهم أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ
وَحْدَهُ هذا استنكار منهم لدعائه الى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء
لله وانما كان هذا مستنكرا عندهم لانهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم اليه فلهذا قالوا
وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا اي نترك الذي كانوا يعبدونه من الاصنام وهذا داخل في جملة

ما استنكروه وهكذا يقول المقلدة لاهل الاتباع والمبتدعة لاهل السنة فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة
تمردهم على الله ونكوصهم عن طريق الحق وبعدهم عن اتباع الصواب قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره ائمة
المعاني والبيان وقيل معنى وقع وجب والرجس العذاب وقيل السخط وقيل هو هنا الرين
على القلب بزيادة الكفر ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة فقال أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ
يعني اسماء الاصنام التي كانوا يعبدونها جعلها اسماء خالية لان مسمياتها لا حقيقة لها بل
تسميتها بالالهة باطل فكانها معدومة لم توجد بل الموجود اسماؤها فقط والاستفهام على
سبيل الانكار سَمَّيْتُمُوهَا اي سميتم بها معبوداتكم من جهة انفسكم أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ولا
حقيقة لذلك مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ اي من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من
الدعاوى الباطلة ثم توعدهم باشد وعيد فقال فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ اي
فانتظروا ما طلبتموه من العذاب وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك فَأَنْجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا اخبر الله سبحانه انه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به من العذاب
النازل بمن كفر به ولم يقبل رسالته فالمعية مجاز عن المتابعة اخرج ابن عساكر لما ارسل
الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح الا ما
تلين عليهم الجلود وتلتذ به الانفس وانها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والارض وتدمغه
بالحجارة وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الدابر الاصل او الكائن خلف الشيء وهو الآخر اذا
قطع الآخر فقد قطع ما قبله فحصل الاستيصال الذي الاستيعاب بالقطع وقد تقدم تحقيق معناه
والمعنى استاصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب باياتنا وعدم الايمان واراد
بالآيات المعجزات الدالة على صدقه وعن ابي هريرة قال كان عمر هود اربعمائة سنة واثنتين
وسبعين سنة وعن علي بن ابي طالب قال قبر هود بحضرموت في كثيب احمر عند راسه
سدرة وعن عثمان بن ابي العاتكة قال قبلة مسجد دمشق قبر هود وقال عبد الرحمن بن سابط
بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل

في تلك البقعة ويروى ان كل نبي من الانبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه
معه الى مكة يعبدون الله حتى يموتوا بها والله اعلم بصحة ذلك وما كانوا مؤمنين مصدقين
بالله ولا برسوله هود عليه السلام وقد اطال القوم في بيان قصة قوم هود واهلاكهم واجمال القرآن
يغني عن تفصيل لا يسند والى ثمود اخاهم صالحا ثمود قبيلة سموا باسم ابيهم وهو ثمود
بن عاد بن ارم بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح وصالح هو ابن عبيد بن اسف بن ماسح
بن عبيد بن حاذر بن ثمود وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى
وما حوله قال ابو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وكان صالح
اخاهم في النسب لا في الدين وكان بينه وبين هود مائة سنة وعاش صالح مائتين وثمانين
سنة كما في التحبير قال يا قوم اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا به شيئا ما لكم من اله
غيره يستحق ان يعبد سواه وقد تقدم تفسيره في قصة نوح قد جاءتكم بينة من
ربكم اي معجزة ظاهرة وبرهان جلي وهي اخراج الناقة من الحجر الصلد عن ابي الطفيل قال
قالت ثمود لصالح ائتنا باية ان كنت من الصادقين قال اخرجوا فخرجوا الى هضبة من الارض
فاذا هي تمخض كما تمخض الحامل ثم انها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها فقال لهم صالح هذه
ناقة الله لكم آية وليس هذا اول خطاب لهم بل بعد ما نصحهم كما قص في سورة هود من
قوله هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها الآيات فهذه الآية مشتملة على بيان البينة المذكورة
وفي اضافة الناقة الى الله تشريف لها وتكريم وكونها آية على صدق صالح انها خرجت
من صخرة في الجبل لا من ذكر ولا انثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج وقيل غير ذلك
فذروها تأكل في ارض الله تفريع على كونها آية من آيات الله فان ذلك يوجب عدم
التعرض لها اي دعوها فهي ناقة الله والارض ارضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه
ولا تمسوها بسوء اي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها نهى عن المس الذي هو مقدمة
الاصابة بالسوء الشامل لانواع الاذى فيأخذكم عذاب اليم اي شديد الالم بسبب عقرها
واذاها ومنعها من الرعي واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد اي استخلفكم في الارض او
جعلكم ملوكا فيها كما تقدم في قصة هود وبوأكم في الارض اي جعل لكم فيها مباءة وهي المنزل

الذي تسكنونه بيا سكنكم وانزلكم في ارض الحجر بكسر الحاء تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا لمسي
من سهولة الارض وهي ترابها تعقدون بسنه اللبن والاجر ونحو ذلك فتبنون بها القصور وانما
سميت بذلك لقصور الفقراء عن تحصيلها وحبسهم عن نيلها وَتَنْحِتُونَ اي تشقون في النحت
نحر الشيئ الصلب في القاموس نحته ينحته براه والنحاتة البراية والمنحت ما ينحت به الْجِبَالَ بُيُوتًا
تسكنون فيها وقد كانوا القوتهم وصلابة ابدانهم ينحتون الصخر فيتخذون فيها كهوفا يسكنون
فيها لان الابنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء اعمارهم قال الضحاك كان الواحد منهم يعيش
ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذا كان قوم هود وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال
في الشتاء وهذا يدل على انهم كانوا متنعمين مترفهين فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ عليكم واشكروه عليها
وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ العثى العثو لغتان قال قتادة معناه لا تسيروا والعثو اشد
الفساد وقيل اراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع انواع الفساد
وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الاعادة قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ اي الرؤساء
المتكبرون من قوم صالح الذين تعظموا عن الايمان به والسين زائدة لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا اي
المساكين الذين استضعفهم المستكبرون واللام للتبليغ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ لان في المستضعفين
من ليس بمؤمن أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ اليكم قالوا هذا على طريق الاستهزاء
والسخرية قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ اجابوهم بانهم مؤمنون به الله مع كون سؤال
المستكبرين لهم انما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته ام لا مسارعة الى اظهار مالهم
من الايمان وتنبيها على ان كونه مرسلا امر واضح مكشوف لا يحتاج الى السؤال عنه قَالَ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا عن امر الله والايمان به وبرسوله صالح تمردا وعنادا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ
اي جاحدون وهذه الجمل المعنونة بقال مستانفة لانها جوابات عن سؤالات مقدرة
كما سبق بيانه ولم يقولوا انا بما ارسل به كافرون اظهارا لمخالفتهم اياهم ورد المقالتهم
فَعَقَرُوا النَّاقَةَ العقر الجرح وقيل قطع عضو يؤثر في تلف النفس يقال عقرت الفرس اذا
ضربت قوائمه بالسيف وقيل اصل العقر كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر لان العقر سبب
النحر في الغالب واسند العقر الى الجميع مع كون العاقر واحدا منهم لانهم راضون بذلك موافقون عليه

وقال عاقر الناقة لا اقتلها حتى ترضوا اجمعين فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون
اترضين فتقول نعم والصبي حتى رضوا اجمعين فعقروها وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان
اسمه فقيل قدار بن سالف وكان رجلا احمر ازرق يزعمون انه ابن زانية وكان عزيزا منيعا
في قومه وقيل غير ذلك ورغا ولد الناقة هاربا فانفتحت له الصخرة التي خرجت منها امه
فدخلها وانطبقت عليه وقيل انهم ادركوه وذبحوه وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ اي استكبروا
يقال عتا يعتو عتوا استكبر وتعتى فلان اذا لم يطع والليل العاتي الشديد الظلمة والمراد
بالامر الحكم وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ هذا
استعجال منهم للنقمة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم قالوا ذلك استهزاء
وتعجيزا له فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ اي الزلزلة الشديدة العظيمة قاله الزجاج والفراء يقال
رجف الشيء يرجف رجفا ورجفانا واصله حركة مع صوت ومنه يوم ترجف الراجفة وقيل كانت
صيحة شديدة خلعت قلوبهم قاله مجاهد والسدي فقيل انه اخذتهم الزلزلة من تحتهم و
الصيحة من فوقهم حتى هلكوا وعلى هذا ففي الآية كناية وقد وقع التصريح بها في آية اخرى فكان
عذابهم بالرجفة والصيحة فذكر في كل موضع واحدة منهما فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ اي بلدهم وا ضمهم
جَاثِمِينَ اي لاصقين بالارض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر واصل الجثوم للارنب و
شبهها وقيل الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالارض
في حال نومه وسكونه بالليل والمراد انهم اصبحوا في دورهم ميتين لا حراك بهم فَتَوَلَّى عَنْهُمْ
صالح عند اليأس من اجابتهم وقيل بعد ان ماتوا وهلكوا وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ يحتمل انه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم
على طريق الحكاية الماضية كما وقع من النبي صلعم من التكلم لاهل قليب بدر بعد موتهم او قالها
لهم عند نزول العذاب بهم وكانه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما فاتهم من الايمان والسلامة
من العذاب وقيل انما خاطبهم بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة
التي كانوا عليها وابان عن نفسه انه لم يأل جهدا في ابلاغهم الرسالة ومحض النصح ولكن ابوا ذلك
فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه عن قتادة ان صالحا قال

لهم حين عقروا الناقة تمتعوا ثلاثة ايام ثم قال لهم اية هلاككم ان تصبح وجوهكم غدا
مصفرة واليوم الثاني محمرة واليوم الثالث مسودة فاصبحت كذلك فلما كان اليوم الثالث
ايقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ثم اخذتهم الصيحة فاهلكتهم واخرج احمد من حديث ابن عمر
قال قال رسول الله صلعم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا
باكين فلا تدخلوا عليهم ان يصيبكم مثل ما اصابهم واصل الحديث في الصحيحين من غير وجه
وفي لفظ لاحمد من هذا الحديث قال لما نزل رسول الله صلعم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت
ثمود قيل وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح اربعة الاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما
دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا اربعة الاف مدينة وسموها حاضورا وقال
قوم توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة واقام في قومه عشرين سنة ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا
اِذْ قَالَ لِقَوْمِهٖٓ﴾ اي وقت ان قال لقومه قال الفراء لوط مشتق من قولهم هذا اليط بقلبي
اي الصق قال الزجاج ومن زعم انه من لطت الحوض اذا ملسته بالطين فقد غلط لان
الاسماء العجمية لا تشتق وقال سيبويه نوح ولوط اسماء اعجمية الا انها خفيفة فلذلك صرفت
ولوط هو ابن هاران بن تارخ فهو ابن اخي ابراهيم وليس من انبياء بني اسرائيل وكانا ببابل بالعراق
فهاجرا الى الشام فنزل ابراهيم ارض فلسطين ونزل لوط بالاردن وهي قرية بالشام وبعثه
الله الى امة يقال لها سدوم بالذال المعجمة وهي بلدة بحمص ﴿اَتَاْتُوْنَ﴾ الخصلة ﴿الْفَاحِشَةَ﴾
الخسيسة المتمادية في الفحش والقبح وهي ادبار الرجال قاله ابن عباس قال ذلك انكارا عليهم
وتوبيخا لهم ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ اَحَدٍ مِّنَ الْعٰلَمِيْنَ﴾ اي لم يفعلها احد من قبلكم فان اللواط
لم يكن في امة من الامم قبل هذه الامة والباء للسببية وقال الزمخشري للتعدية ومن زائدة
للتوكيد العموم في النفي وانه مستغرق لما دخل عليه والجملة مسوق لتاكيد النكير عليهم و
التوبيخ لهم قال عمرو بن دينار ما نزى ذكر على ذكر في الدنيا الا ما كان من قوم لوط ﴿اِنَّكُمْ لَتَاْتُوْنَ
الرِّجَالَ﴾ في ادبارهم هذا توبيخ اخر اشنع مما سبق لتاكيده بان وباللام واسمية الجملة ﴿شَهْوَةً﴾
اي تشتهونهم شهوة او لاجل الاشتهاء او مشتهين يقال شهي يشهى شهوة وشها يشهو شهوة قال
ابن عباس انما كان بدء عمل قوم لوط ان ابليس جاءهم في هيئة صبي اجمل صبي رآه الناس فدعاهم

الى نفسه نكحوه ثم رجموا على ذلك قرئ انكم بهمزة مكسورة وبهمزتين على الاستفهام
المقتضي للتوبيخ والتقريع واختار الاولى ابو عبيد والكسائي وغيرهما والثانية الخليل
وسيبويه وفيه انه لا غرض لهم باتيان هذه الفاحشة الا مجرد قضاء الشهوة من غير ان
يكون لهم في ذلك غرض يوافق العقل فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضها على
بعض لما يتقاضاه من الشهوة مِنْ دُونِ النِّسَاءِ اي متجاوزين في فعلكم هذا النساء
اللاتي هن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ اي
مجاوزون الحلال الى الحرام يعني من فروج النساء الى ادبار الرجال اضرب عن الانكار
المتقدم الى الاخبار بما هم عليه من الاسراف الذي تسبب عنه اتيان هذه الفاحشة
الفظيعة والمشهور انه اضراب انتقالي من قصة الى قصة وقيل بل للاضراب عن
شيء محذوف قال ابو البقاء تقديره ما عدلتم بل انتم الخ وقال الكرماني بل انتم ردا لما
زعموا ان يكون لهم عذر اي لا عذر لكم بل انتم وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ الداعين
في هذه الفاحشة عما انكره عليهم منها والمستكبرين منهم المتصدين للحل والعقد إِلَّا
أَنْ قَالُوا استثناء مفرغ أَخْرِجُوهُمْ اي لوطا واتباعه مِنْ قَرْيَتِكُمْ من سذوم بوزن رسول
وهي من قرب حمص بالشام ولم يكن لهم جواب الا هذا القول المباين للانصاف والمخالف
لما طلبه منهم وانكره عليهم إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ اي يتنزهون من ادبار الرجال
والنساء والتطهر تعليل لما امروا به من الاخراج ووصفهم بالتطهر يمكن ان يكون على
حقيقته وانهم ارادوا ان هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنونا
في قريتنا ويحتمل انهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء وقيل ان البعد عن
المعاصي والاثام يسمى طهارة فمن تباعد عنها فقد تطهر فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ اخبر سبحانه انه انجى لوطا واهله المؤمنين به وقيل المراد باهله
المتصلون به بسبب النسب والمراد ابنتاه واستثنى امرأته من الاهل لكونها لم تؤمن
به والمعنى انها كانت من الباقين في عذاب الله لانها كانت كافرة يقال غبر الشيء اذا مضى
وغبر اذا بقي فهو من الاضداد وحكى ابن الفارس في المجمل عن قوم انهم قالوا الماضي عابر

بالمهملة والباقي غابر بالمعجمة وقال الزجاج من الغائبين عن النجاة وقال ابو عبيد
للمعمرين وكانت قد هرمت واتى عليها دهر طويل فهلكت واكثر اهل اللغة
على ان الغابر الباقي قال سعيد بن ابي عروبة كان قوم لوط اربعة الاف الف ولم يقل
من الغابرات لانها هلكت مع الرجال وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا قيل امطر بمعنى ارسل
المطر وقال ابو عبيد مطر في الرحمة وامطر في العذاب وهذا مردود بقوله تعالى
هذا عارض ممطرنا فانهم انما عنوا بذلك الرحمة وهو من امطر يأتي ومطر وامطر
بمعنى واحد والمعنى هنا ان الله امطر عليهم حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت
والنار فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ هذا خطاب لكل من يصلح له ولمحمد غ
صلعم قاله الاصفهاني في تفسيره وسيأتي في هود قصة لوط بأبين مما هنا قال
مجاهد نزل جبريل فادخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء
ثم قلبها فجعل اعلاها اسفلها ثم اتبعوا بالحجارة وَإِلَى مَدْيَنَ اسم قبيلة وقيل
اسم بلد والاول اولى وسميت القبيلة باسم ابيهم وهو مدين بن ابراهيم كما
يقال بكر وتميم وقيل مدين اسم الماء الذي كانوا عليه وقيل مشترك بينهما أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن ابراهيم قاله عطاء وابن
اسحاق وغيرهما وقال الشرقي بن القطامي انه شعيب بن عيفا بن ثويب بن مدين بن ابراهيم
وزعم ابن سمعان انه شعيب بن جزة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق
بن ابراهيم وقال ابن اسحاق هو شعيب بن مكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم
وام مكيل بنت لوط وقيل هو شعيب بن شيرون بن مدين وقال قتادة هو
شعيب بن صفوان بن عيفا بن ثابت بن مدين عن عكرمة والسدي قالا ما بعث
الله نبيا مرتين الا شعيبا مرة الى مدين فاخذتهم الصيحة ومرة الى اصحاب الايكة
فاخذهم الله بعذاب يوم الظلة وكان شعيب اعمى وكان يقال له خطيب الانبياء
لحسن مراجعته قومه وكان قومه اهل كفر وبخس في المكيال والميزان قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قد سبق شرحه في قصة نوح قَدْ جَاءَتْكُم

بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ قد تبين تفسيره ايضا ولم يتبين هذه المعجزة في القرآن العظيم كما لم تتبين اكثر معجزات نبينا صلعم وقيل ان المراد بها نفسه وقيل ان المراد بها قوله فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ و قيل غير ذلك وامرهم بايفاء الكيل والميزان لانهم كانوا اهل معاملة بالكيل والوزن وكانوا لا يوفونها وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة واختلف في توجيه ذلك فقيل المراد بالكيل المكيال فيناسب عطف الميزان عليه وقيل المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل والمعنى اتموهما واعطوا الناس حقوقهم وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ البخس النقص و هو يكون بالتعييب للسلعة او التزهيد فيها او المخادعة لصاحبها و الاحتيال عليه وكل ذلك من اكل اموال الناس بالباطل وظاهر الآية انهم كانوا يبخسون في كل الاشياء وقيل كانوا مكاسين يمكسون كل ما دخل الى اسواقهم وقال ابن عباس لا تبخسوا اي لا تظلموا الناس و به قال قتادة وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا اي بعد ان اصلحها الله ببعثة الرسل واقامة العدل قيل كانت الارض قبل ان يبعث الله شعيبا رسولا تعمل فيها المعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء فذلك فسادها فلما بعث الله شعيبا ودعاهم الى الله صلحت الارض وكل نبي يبعث الى قومه فهو صلاحهم ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ذَٰلِكُمْ اشارة الى العمل بما امرهم به وترك ما نهاهم عنه خَيْرٌ لَّكُمْ المراد بالخيرية هنا الزيادة مطلقة لانه لا خير في عدم ايفاء الكيل والوزن و في بخس الناس و في الفساد في الارض اصلا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ اي مصدقين بما اقول ومريدين الايمان فبادروا اليه وَلَا تَقْعُدُوا والهم بِكُلِّ صِرَاطٍ محسوس تُوعِدُونَ الصراط الطريق قيل كانوا يقعدون في الطرقات المفضية الى شعيب فيتوعدون من اراد المجيء اليه ويقولون انه كذاب فلا تذهب اليه كما كانت قريش تفعله مع رسول الله صلعم قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من اراد سلوكها وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ويؤيده وتصدون عن سبيل

اسه من امن به كماسيأتي وقيل المراد بالآية النهي عن قطع الطريق واخذ السلب وكان
ذلك من فعلهم وقيل انهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من اموال الناس
فنهوا عن ذلك والقول الاول اقربها الى الصواب مع انه لامانع من حمل النهي على
جميع هذه الاقوال المذكورة والمعنى لاتقعدوا بكل طريق موعدين لاهله واويذكر
الموعد به لتذهب النفس كل مذهب وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ اي صادين عنه
باغين لها عوجا والمراد بالصد عنه صد الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه ومنعهم
من الوصول الى شعيب فان سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول الى نبي اسه هو
سلوك سبيل اسه والضمير في مَنْ آمَنَ بِهِ يرجع الى اسه او الى السبيل او الى كل صراط او الى
شعيب وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا اي تطلبون سبيل اسه ان تكون معوجة غير مستقيمة و
قيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولاتستقيمون على طريق الهدى والرشاد
وقد سبق الكلام على العوج وقال الزجاج كسر العين في المعاني وفتحها في الاجرام
وَاذْكُرُوا نعمته عليكم إِذْ كُنتُمْ اي عددكم او مالكم او قوتكم قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ بالنسل
والقوة والغناء وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ قبلكم من الامم الماضية
والقرون الخالية حين عتوا ربهم وعصوا رسله فان اسه اهلكهم وانزل بهم من العقوبات ما
ذهب بهم ومحا اثرهم واقربهم اليكم قوم لوط فانظروا كيف انزل الله عليهم حجارة من السماء
وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ اليكم من الاحكام التي شرعها اسه
لكم وَطَائِفَةٌ منكم لَّمْ يُؤْمِنُوا به فَاصْبِرُوا اي انتظروا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وبينكم وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ اي اعدلهم هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم وليس هو
من باب الامر بالصبر على الكفر وحكم اسه بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين
ومثله قوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون او هو امر للمؤمنين بالصبر على ما يحل
بهم من اذى الكفار حتى ينصرهم اسه عليهم وقيل هو امر للكافرين بالصبر لينتصر اسه
عليهم المؤمنين وقيل للفريقين وهذا هو الظاهر او على سبيل التنزل معهم اي اصبروا فستعلمون
من ينصر ومن يغلب مع علمه بان الغلبة له وحتى بمعنى الى قاله السمين

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

اي الاشراف المستكبرين عن الايمان مِنْ قَوْمِهِ استيناف بياني كانه قيل فماذا قالوا بعد
سماعهم هذه المواعظ من شعيب لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا لم يكتفوا بترك الايمان والتمرد عن الاجابة الى ما دعاهم اليه بل
جاوزوا ذلك بغيا وبطرا واشروا الى توعد نبيهم ومن آمن به بالاخراج من قريتهم او عودهم
في ملتهم الكفرية اي لابد من احد الامرين اما الاخراج او العود ومقصودهم الاصلي
هو العود كما يفصح عنه عدم تعرضه لجواب الاخراج وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين
لزيادة التقرير والتهديد الناشية عن غاية الوقاحة والطغيان اي والله لنخرجنك واتباعك
ومرادهم العود بطريق الاختيار وكلمة عاد لها في لسان العرب استعمالان احدهما وهو الاصل
انه الرجوع الى ما كان عليه من الحال الاول والثاني استعمالها بمعنى صار قال السمين واستشكلوا
على كونها بمعناها الاصلي ان شعيبا لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم فكيف يحسن ان يقول او
لتعودن اي ترجعن الى حالتكم الاولى والخطاب له ولاتباعه وقد اجيب عن ذلك بثلاثة
اجوبة احدها ان هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام والايهام لهم انه
كان على دينهم وعلى ملتهم الثاني ان يراد بعوده رجوعه الى حالة قبل بعثته من السكوت
لانه قبل ان يبعث اليهم كان يخفي ايمانه وهو ساكت عنهم برئ من معبوداتهم غير الله الثالث
تغليب الجماعة على الواحد لانهم لما اصحبوه مع قومه في الاخراج حكموا عليه وعليهم
بالعود الى الملة تغليبا لهم عليه واما اذا جعلناها بمعنى صار فلا اشكال في ذلك اذ
المعنى لتصيرن في ملتنا بعد ان لم تكونوا في ملتنا حال على الاول خبر على الثاني وعدى
عاد بفي الظرفية تنبيها على ان الملة صارت لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم انتهى والاولى ما قال
الزجاج يجوز ان يكون العود بمعنى الابتداء يقال عاد الي من فلان مكروه اي صار وان لم يكن
سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل ان يبعثه
الله رسولا ويحتاج الى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود الى ملتهم

والقرية هي مدين وبينها وبين مصر ثمانية مراحل قال أولو كنا كارهين الهمزة للإنكار
ووقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود أي أتعيدوننا في ملتكم حال كراهتنا للعود إليها أو
أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها أو في حال كراهتنا للأمرين جميعا والمعنى
أنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصلح لكم ذلك فإن المكره لا اختيار له ولا
تعد موافقته مكرها موافقة ولا عوده إلى ملتكم مكرها عودا وبهذا التقرير يندفع ما
استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام
قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ التي هي الشرك والجملة استئناف إخبار فيه
معنى التعجب قاله الزمخشري كأنه قيل ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر أو أنه جواب قسم
محذوف والتقدير والله لقد افترينا وجعله ابن عطية احتمالا بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا
بالإيمان فلا يكون منا عود إليها أصلا وَمَا يَكُونُ أي ما يصح لَنَا ولا يستقيم ولا ينبغي أَنْ
نَعُودَ فِيهَا بحال من الأحوال إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أي إلا في حال ووقت مشيئة الله عودنا
فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن قال الزجاج أي إلا بمشيئة الله عز وجل قال وهذا قول
أهل السنة والمعنى أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك فالاستثناء منقطع
وقيل إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل كما في قوله وما توفيقي إلا بالله وقيل
هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط والغراب لا يبيض والجمل
لا يلج فهو من باب التعليق بالمحال ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى
إلى قول الخليل واجنبني وبني أن نعبد الأصنام وكان نبينا صلعم كثيرا ما يقول يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك وقيل المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها أي القرية بعد أن
كرهتم مجاورتنا إلا أن يشاء الله عودنا إليها وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أي أحاط علمه
بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شيء عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا أي عليه نعتمد وإليه نستند في
أن يثبتنا على الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته
رَبَّنَا افْتَحْ الفتاحة الحكومة أي احكم بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ
إعراض عن مقاولتهم لما ظهر له من شدة عنادهم بحيث لا يتصور منهم الإيمان وإقبال على الله بالدعاء

قال الفراء ان اهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من اهل اللغة هي لغة مراد وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين وقيل لغة حمير وقال الزجاج المعنى ربنا اظهر امرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف لانهم قد دعوا الله سبحانه ان يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه الا بنصر المحقين على المبطلين كما اخبرنا به في غير موضع من كتابه او كانهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم وقال الملأ الذين كفروا من قومه يحتمل ان يكون هؤلاء هم الذين استكبروا ويحتمل ان يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين ارسل اليهم شعيب لئن اتبعتم شعيبا اي دخلتم في دينه وتركتم دينكم انكم اذا لخاسرون في الدين او الدنيا او خسرانهم هلاكهم او ما يخسرونه بسبب ايفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به وهو جواب القسم الموطأ له باللام قاله الزمخشري فأخذتهم الرجفة اي الزلزلة وقيل الصيحة كما في قوله واخذت الذين ظلموا الصيحة ولعلها كانت في مبادي الرجفة فاسند هلاكهم الى السبب القريب تارة والى البعيد اخرى فأصبحوا في دارهم جاثمين باركين على الركب ميتين قد تقدم تفسيره في قصة صالح قال قتادة بعث الله شعيبا الى اصحاب الايكة والى مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما اهل مدين فاخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعا وروي ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة ايام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها جملة مبينة لما حل بهم من النقمة يقال غنيت بالمكان اذا اقمت به وغني القوم في دارهم اي طال مقامهم فيها والمغنى المنزل والجمع المغاني وهي المنازل التي بها اهلها والمعنى كان لم يقيموا في دارهم اصلا ولم ينزلوها يوما من الدهر فان الله سبحانه استأصلهم بالعذاب وقيل المعنى كان لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غني الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر والاول اولى الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين هذه الجملة مستانفة كالاولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين واعادة الموصول والصلة كما هي لزيادة التقرير والايذان بان ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين فتولى اي فاعرض

اي بسبب ما كسبوا من الكفر والذنوب الموجبة لعذابهم ومن جملتها قولهم قد مس آباءنا
الآية أفأمن الاستفهام للتقريع والتوبيخ وهو مثل أفحكم الجاهلية يبغون والفاء للعطف على
فأخذناهم بغتة وما بينهما اعتراض والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى ذكره أبو السعود
وبه قال الزمخشري قال الشيخ وهذا رجوع عن مذهبه في مثل ذلك الى مذهب الجماعة
وذلك ان مذهبه في الهمزة الداخلة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة
وحرف العطف ومذهب الجماعة ان حرف العطف في نية التقديم وانما تأخر وتقدمت عليه
الهمزة لقوة تصدرها في اول الكلام والزمخشري هنا لم يقدر بينهما معطوفا عليه بل
جعل ما بعد الفاء معطوفا على ما قبلها من الجمل وهو قوله فأخذناهم بغتة ذكره السمين
أهل القرى المذكورة قبله وقيل المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم للنبي صلعم والعموم
اولى ان يأتيهم بأسنا بياتا اي وقت بيات وهو الليل وهم نائمون غافلون عنه أو أمن
أهل القرى انكار بعد انكار للمبالغة في التوبيخ أن يأتيهم بأسنا ضحى اي نهارا والضحوة
النهار اي صدره وهو في الاصل اسم لضوء الشمس اذا اشرقت وارتفعت وفي السمين
الضحى اشتداد الشمس وامتداد النهار يقال ضحى وضحاء اذا ضممته قصرته واذا فتحته مددته
وقال بعضهم الضحى بالضم والقصر لاول ارتفاع الشمس والضحاء بالفتح والمد لقوة ارتفاعها
قبل الزوال والضحى مؤنث انتهى وهم يلعبون اي حال كونهم مشتغلين بما لا يعود عليهم بفائدة
أفأمنوا مكر الله الاستفهام للتقريع والتوبيخ وانكار ما هم عليه من امان ما لم يؤمن من
مكر الله بهم وعقوبته لهم وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما انكره عليهم
وقيل مكر الله استدراجهم اياهم بما انعم عليهم من الدنيا والنعمة والصحة والاولى حمل الآية
على ما هو اعم من ذلك ثم بين حال من امن من مكر الله فقال فلا يأمن مكر الله المكر الاحتيال
والخديعة والمراد بمكر الله هنا فعل ما يعاقب به الكفرة على كفرهم واضيف الى الله لما كان
عقوبة على ذنبهم فان العرب تسمي العقوبة على اي وجه كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه
العقوبة وهذا نص في قوله ومكروا ومكر الله قاله ابن عطية قلت وهو تأويل حسن وانه
من باب المقابلة ايضا والفاء في قوله فلا يأمن للتنبيه على ان العذاب يعقب امن مكر الله

ع
إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أي الذين أفرطوا في الخسران ووقعوا في وعيده الشديد حتى صاروا إلى النار، قال الشبلي مكره بهم تركه إياهم على ما هم عليه أَوَلَمْ يَهْدِ أي أولم يبين فالهداية هنا بمعنى التبيين ولهذا عدي باللام لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ إهلاك أَهْلِهَا أي المشركين قاله السدي وقيل المراد بهم أهل مكة وما حولها أي الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أي أن الشأن هو هذا والمعنى عاقبناهم بسبب كفرهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين وَنَطْبَعُ نختم عَلَى قُلُوبِهِمْ لأنهم من طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والتفكر فيها والاعتبار بها أي صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من المواعظ والإعذار والإنذار سماع تدبر تِلْكَ مبتدأ مشار بها إلى ما بعدها الْقُرَى خبرها أي التي أهلكناها وهي قرى قوم نوح وهود وعاد وثمود وصالح ولوط وشعيب المتقدم ذكرها نَقُصُّ حال أي قاصين وهذا كقوله تعالى هذا بعلي شيخا في كونه مبتدأ وخبرا وحالا قاله الزمخشري عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا أي أخبارها وهذه تسلية لرسول الله صلعم وللمؤمنين وتحذير للكافرين من قريش وغيرهم ومن للتبعيض لأنه إنما قص عليه صلعم ما فيه عظة وازدجار دون غيرها ولها أنباء غيرها لم يقصها عليه وإنما قص عليه أنباء أهل هذه القرى لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم فتوهموا أنهم على الحق فذكرها الله لقوم محمد صلعم ليحترزوا عن مثل تلك الأعمال وَلَقَدْ لام قسم جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أي المعجزات الباهرات كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيء الرسل اللام زائدة لتوكيد النفي بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ أي قبل مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الأحوال ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم بل هم مستمرون على الكفر متشبثون بأذيال الطغيان دائما ولم ينجع فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له أثر بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله وقيل المعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله ولو ردوا لعادوا قاله مجاهد وقيل سألوا المعجزات فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها

والاولى اولى ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل انهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا
به من ارسال الرسل وانزال الكتب وقال ابي بن كعب كان في علم الله يوم اقروا له بالميثاق
حين اخرجهم من ظهر آدم من يكذب به ممن يصدق به وهو معنى قول ابن عباس والسدي
آمنوا كرها يوم اخذ الميثاق وقال الطبري واولى الاقوال قول ابي بن كعب والربيع بن انس وذلك
ان من سبق في علم الله انه لا يؤمن به فلا يؤمن ابدا كذلك اي مثل ذلك الطبع الشديد
على قلوب اهل القرى المنتفي عنهم الايمان يطبع على قلوب الكافرين الجائين بعدهم
فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب وما وجدنا لاكثرهم
من عهد الضمير يرجع الى اهل القرى المذكورين سابقا اي عهد يحافظون عليه ويتمسكون
به بل دابهم نقض العهود في كل حال وقيل الضمير يرجع الى الناس على العموم اي ما وجدنا
لاكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد هو المأخوذ عليهم في عالم الذر
وقيل الضمير يرجع الى الكفار على العموم من غير تقييد باهل القرى اي لاكثرهم لا عهد
ولا وفاء والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه قال ابن عباس الشأن ان الله انما
اهلك القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به وان وجدنا اكثرهم لفاسقين اي
وان الشان هذا والمعنى خارجين عن الطاعة خروجا شديدا ثم بعثنا اي ارسلنا من
بعدهم اي بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقيل ضميرهم راجع الى الامم
السالفة اي من بعد اهلاكهم موسى قال ابن عباس انما سمي موسى لانه القي بين ماء وشجر فالماء
بالقبطية مو والشجر سا وعاش من العمر مائة وعشرين سنة وبينه وبين يوسف اربعمائة
سنة وبين موسى وابراهيم سبعمائة سنة كما ذكره في التحبير بآياتنا اي بحججنا وادلتنا على
صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك مما جاء به موسى وهذا يدل على ان النبي لا بد له
من آية ومعجزة يتميز بها عن غيره والا لم يكن قبول قوله اولى من قبول قول غيره الى فرعون
هو لقب لكل من يملك ارض مصر بعد العمالقة مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى
وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي ارسل اليه موسى
الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط وكنيته ابو مرة وقيل ابو العباس وكان قبله

فرعون آخر هو أخوه واسمه قابوس ولم يذكر في القرآن وعن مجاهد ان فرعون كان فارسيا
من اهل اصطخر وعن ابن لهيعة انه كان من ابناء مصر وعن ابن المنكدر قال عاش فرعون ثلث
مائة سنة وعن علي بن ابي طلحة ان فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة اشبار وعن الحسن
قال كان علجا من همدان وعن ابراهيم بن مقسم قال مكث فرعون اربعمائة سنة لم يصدع له
راس وملإيه اي اشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لان من
عداهم كالاتباع لهم فظلموا بها اي فكفروا بها اطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات
التي جاء بها موسى كان كفرا متبالغا لوجود ما يوجب الايمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم
بها او المعنى ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الايمان بها او ظلموا انفسهم بسببها فانظر
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ اي انظر بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بالمكذبين بالآيات
الكافرين بها وكيف اهلكناهم وجعلهم مفسدين لان تكذيبهم وكفرهم من اقبح انواع
الفساد وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ اخبره بانه مرسل من الله
اليه وجعل ذلك عنوانا لكلامه معه لان من كان مرسلا من جهة من هو رب العالمين اجمعين
فهو حقيق بالقبول لما جاء به كما يقول من ارسله الملك في حاجة الى رعيته انا رسول الملك
اليكم ثم يحكي ما ارسل به اليهم فان في ذلك من تربية المهابة وادخال الروعة ما لا يقادر قدره
حَقِيقٌ جدير عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قيل في توجيه هذه القراءة ان على بمعنى الباء
كما سبق ويؤيده قراءة ابي والاعمش فانهما قرآ حقيق بان لا اقول وقيل ان حقيق مضمن معنى حريص
وقيل انه لما كان لازما للحق كان الحق لازما له فقول الحق حقيق عليه وهو حقيق على قول الحق وقيل انه اغرق
في وصف نفسه في ذلك المقام حين جعل نفسه حقيقة على قول الحق كانه وجب على الحق
ان يكون موسى هو قائله وقرئ حقيق عليّ اي واجب علي ولازم لي ان لا اقول فيما ابلغكم عن الله الا القول الحق وقرئ
حقيق ان لا اقول باسقاط على ومعناها واحد والاستثناء مفرغ ثم قال بعد هذا قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
بما تبين به صدقي واني رسول من رب العالمين والمراد بها معجزته وهي العصا واليد البيضاء وقد طوي هنا ذكر ما دار
بينهما من المحاورة كما في موضع آخر انه قال فرعون فمن ربكما يا موسى ثم قال بعد جوابه عليه السلام وما رب العالمين الآيات
الحاكية لما دار بينهما فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ امره ان يدعهم يذهبون معه ويرجعون الى الارض التي

وهي الارض المقدسة وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الخروج الى وطنهم
والفاء للترتيب ما بعدها على ما قبلها وكان سبب سكناهم بمصر مع ان اباهم كان بالارض
المقدسة ان الاسباط اولاد يعقوب جاؤا مصر الى اخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر
فلما توفي يوسف غلب فرعون على نسل الاسباط واستعبدهم واستعملهم في الاعمال الشاقة
فاسئل موسى ان يخلصهم من هذا الاسر ويذهب بهم الى ارض الشام التي هي وطن ابائهم
فانقذهم الله بموسى وكان بين اليوم الذي دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي
دخله موسى اربعمائة عام فلما قال ذلك، قَالَ له فرعون إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ من عند
الله كما تزعم فَأْتِ بِهَا حتى نشاهدها وننظر فيها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في هذه الدعوى
التي جئت بها فَأَلْقَى عَصَاهُ اي وضعها على الارض فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ اي فانقلبت
ثعبانا يعني حية عظيمة من ذكور الحيات ظاهرا واضحا لا لبس فيه في تلك الحال ووصفها
في اية اخرى بانها جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين انها كانت
في عظم الجثة كالثعبان العظيم وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان قال قتادة ذكر
لنا ان تلك العصا عصا آدم اعطاه اياها ملك حين توجه الى مدين فكانت تضيئ بالليل
ويضرب بها الارض بالنهار فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه فاذا هي حية تكاد تساوره
وعن ابن عباس قال لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما تجاوز
مرفقيه فاستاذن على فرعون فقال ادخلوه فدخل فقال ان الهي ارسلني اليك فقال للقوم
حوله ما علمت لكم من اله غيري خذوه قال اني قد جئتك باية قال فأت بها فالقى عصاه
فصارت ثعبانا ما بين لحييه ما بين السقف الى الارض وعصى موسى اسمها ماشا قال السدي
فلقة فاها واضعة لحيها الاسفل في الارض والاعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون
لتاخذه فلما رآها ذعر منها ووثب فاحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى
خذها وانا اؤمن بك وارسل معك بني اسرائيل فاخذها موسى فصارت عصا وَنَزَعَ يَدَهُ
اي اخرجها واظهرها من جيبه او من تحت ابطه وفي التنزيل وادخل يدك في
جيبك تخرج بيضاء من غير سوء والنزع عبارة عن اخراج الشيء عن مكانه فَإِذَا هِيَ

بيضاء للناظرين اي تتلألأ نورا يظهر لكل مبصر قال ابن عباس اخرجها مثل اللبن تلتمع ع
الابصار فخروا على وجوههم وقيل لها شعاع غلب نور الشمس واخذ موسى عصاه ثم
خرج ليس احد من الناس الا نفر منه وكان موسى آدم اللون قال الملأ من قوم فرعون
اي الاشراف لما شاهدوا انقلاب العصا حية ومصير يده بيضاء من غير سوء ان هذا
اي موسى لساحر عليم اي كثير العلم بالسحر يأخذ بعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا
صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه ولا ينافي نسبة هذا القول الى الملأ هنا
والى فرعون في سورة الشعراء فكلهم قد قالوه فكان ذلك مصححا لنسبته اليهم تارة و
اليه اخرى يريد ان يخرجكم ايها القبط من ارضكم وهي ارض مصر وهذا من كلام
الملأ فماذا تأمرون هو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا بما تقدم اي باي شيء تأمروني
وتشيرون ان نفعل به وقيل هو من كلام الملأ اي قالوا لفرعون فباي شيء تأمرون وخاطبوه
بما يخاطب به الجماعة تعظيما له كما يخاطب الرؤساء اتباعهم وكون هذا من كلام فرعون
هو الاولى بدليل ما بعده وهو قالوا ارجه اي اخره وفيه ست قراآت في المشهور المتواتر
ثلث مع الهمز وثلث مع عدمه والارجاء في اللغة التاخير وقيل معناه احبسه وهو ضعيف
وقيل هو من رجى يرجو اي اطمعه ودعه يرجو حكاه النحاس عن المبرد واخاه و
ارسل في المدائن حاشرين اي ارسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة
والمدائن جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اي اقام به يعني مدائن صعيد
مصر ومعنى حاشرين جامعين يعني رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد
يأتوك اي هؤلاء الذين ارسلتهم يعني الشرط بكل ساحر وقرئ سحار اي الماهر في السحر
قيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار من يديم سحره ويعمل في كل وقت
عليم اي كثير العلم بصناعة السحر وجاء السحرة فرعون قد اختلف كلمة السلف في عددهم
فقال ابن عباس كانوا سبعين رجلا اصبحوا سحرة وامسوا شهداء وقيل كانوا
اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل قاله مقاتل وقال
الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من اهل نينوى وقال كعب الاحبار كانوا اثني

عشر الفا وقيل خمسة عشر الفا قاله ابن اسحاق وقيل سبعة عشر الفا وقيل تسعة عشر
الفا وقيل ثلثين الفا وقيل سبعين الفا قاله عكرمة وقيل ثمانين الفا قاله محمد بن المنكدر
وقيل ثلثمائة الف وقيل تسعمائة الف قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين الاجر الجائزة
والعطاء والجعل الزموا فرعون ان يجعل لهم جعلا ان غلبوا موسى بسحرهم وقرئ ائن لنا
على الاستفهام للتقرير اي استفهموا فرعون عن الجعل الذي يجعله لهم على الغلبة وعلى
القراءة الاولى كانهم قاطعون بالجعل وانه لابد لهم منه قال نعم لكم الاجر وإنكم مع هذا
الاجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا قال الكلبي تكونون اول من يدخل علي وآخر من يخرج
من عندي وفي الخطيب في الآية تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بان فرعون كان عبدا
ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة وتدل ايضا على ان السحرة ما كانوا
قادرين على قلب الاعيان والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا
على قلب الاعيان لقلبوا التراب ذهبا ولنقلوا ملك فرعون لانفسهم ولجعلوا انفسهم
ملوك العالم ورؤسائهم والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وان لا يغتر
بكلمات اهل الاباطيل والاكاذيب نعم. قالوا اي السحرة يا موسى إما أن تلقي وإما أن
نكون نحن الملقين يعني انهم خيروا موسى بين ان يبتدئ بالقاء ما يلقيه عليهم
او يبتدروهم بذلك تأدبا معه وثقة من انفسهم بانهم غالبون وان تأخروا قال
الكسائي والفراء اما ان تفعل الالقاء او نفعله نحن قال ألقوا اختار ان يكونوا المتقدمين
عليه بالقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاؤا به قال الفراء في الكلام حذف
والمعنى قال لهم موسى انكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته وقيل هو تهديد اي ابتدؤا
بالالقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح والموجب لهذين التأويلين عند من قالهما
انه لا يجوز لموسى ان يأمرهم بالسحر وقيل انما امرهم لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا قبله لم تظهر
معجزته والاول اولى فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال ابن عباس حبالا غلاظا وخشبا طوالا
فاقبلت يخيل اليه من سحرهم انها تسعى سحروا أعين الناس اي قلبوها وغيروها عن
صحة ادراكها بما جاؤا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون واهل الخفة ومنه

هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء التي هي فعل الله وذلك لأن
السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا
موسى حية تسعى واسترهبوهم أي أدخلوا الرهبة في قلوبهم إدخالاً شديداً بما فعلوه من
السحر فاستفعل هنا بمعنى أفعل أي أرهبوهم وهو قريب من قولهم قرّ واستقر وعظم
واستعظم وهذا رأي المبرد وقيل السين على بابها أي استدعوا رهبة الناس منهم وهو رأي
الزجاج وجاؤوا بسحر عظيم في أعين الناظرين وإن كان لا حقيقة له في الواقع وكانت تلك
الواقعة في إسكندرية قاله الخطيب والخازن وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك أمره
سبحانه عندما جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر على لسان جبريل أن يلقي عصاه وصنيع السياق
يقتضي أن إلقاء العصا وانقلابها حية وقع مرتين بحضرة فرعون الأولى كانت سبباً في
جمع السحرة والثانية بحضرتهم فالأولى ذكرت سابقاً بقوله فألقى عصاه والثانية هي المذكورة
هنا ووقع انقلابها حية أيضاً مرة أخرى قبل هاتين المرتين ولم يكن هناك حاضر أحد
غير موسى وقد ذكرت هذه المرة في سورة طه في قوله إذ رأى ناراً إلى قوله ألقها يا موسى فألقاها
فإذا هي حية تسعى فإذا هي أي العصا تلقف من لقف يلقف وقيل من تلقف يتلقف
يقال لقفت الشيء وتلقفته إذا أخذته أو بلعته بسرعة وقال أبو حاتم بلغني في بعض القراءات
تلقم بالميم والتشديد ما يأفكون أصل الإفك قلب الشيء عن وجهه ومنه قيل للكذاب
أفاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل أفك يأفك إفكاً من باب ضرب و
أفكته صرفته وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك وسماه إفكاً لأنه لا حقيقة له في الواقع
بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة قال ابن زيد كان اجتماعهم بالإسكندرية فيقال بلغ
ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فإذا هي تبتلع كل شيء أتوا به من السحر
فوقع الحق أي ظهر وتبين بما جاء به موسى وبطل ما كانوا يعملون من سحرهم أي تبين بطلانه
فغلبوا أي السحرة هنالك أي في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم وهذا هو الظاهر وانقلبوا
من ذلك الموقف صاغرين أذلاء مقهورين وألقي السحرة ساجدين أي خروا كأنما ألقاهم
ملق على هيئة السجود ولم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم قال السدي لما ألقى موسى عصاه

فاكلت كل حيلة لهم فلما رأوا ذلك سجدوا وعن قتادة نحوه قال ابن عباس لما رأت السحرة
ما رأت عرفت ان ذلك من امر السماء وليس بسحر فخروا سجدا قيل كانت مع السحرة حمل ثلثمائة
بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها آمنوا به وخروا ساجدين قالوا آمنا وانما قالوا هذه المقالة
وصرحوا بانهم آمنوا برب العالمين ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا رب موسى وهارون لئلا
يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بالهيته ان السجود له قال الاوزاعي لما خر السحرة سجدا
رفعت لهم الجنة حتى نظروا اليها وقدموا موسى في الذكر وان كان هارون اسن منه لكبره
في الرتبة ولانه وقع فاصلة هنا ولذلك قال في سورة طه رب هارون وموسى لوقوع موسى
فاصلة او لكون كل طائفة منهم قالت احدى المقالتين فنسب فعل البعض الى المجموع في سورة وفعل
بعض آخر الى المجموع في اخرى قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم والاستفهام للانكار و
التوبيخ والقراءات هنا اربع كلها سبعية ذكرها السمين انكر فرعون على السحرة ايمانهم بموسى قبل
ان يأذن لهم بذلك وقال ان هذا لمكر مكرتموه اي حيلة احتلتموها انتم وموسى عن مواطأة
بينكم سابقة ومعنى في المدينة ان هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم وانتم بمدينة مصر قبل
ان تبرزوا انتم وموسى الى هذه الصحراء لتخرجوا منها اي من مدينة مصر اهلها من القبط و
تستولوا عليها وتسكنوا فيها انتم وبنو اسرائيل وهاتان شبهتان القاهما الى اسماع عوام القبط
تثبيتا لهم على ما هم عليه وتهييجا لعداوتهم لموسى ثم هددهم بقوله فسوف تعلمون عاقبة صنعكم
هذا وسوء مغبته ليريهم ان له قوة ثم لم يكتف بهذا الوعيد والتهديد المجمل بل فصله فقال
لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف اي الرجل اليمنى واليد اليسرى او الرجل اليسرى واليد اليمنى
قال ابن عباس هو اول من قطع الايدي والارجل من خلاف وقال قتادة اي يدا من ههنا
ورجلا من ههنا ثم لم يكتف عدو الله بهذا بل جاوزه الى غيره فقال ثم لاصلبنكم في
جذوع النخل على شاطئ نيل مصر اي اجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم وافراطا في
تعذيبهم قال ابن عباس اول من صلب فرعون وجيء هنا بثم وفي السورتين ولاصلبنكم بالواو
لان الواو صالحة للمهلة فلا تنافي بين الآيات اجمعين تأكيد اتى به دون كل وان كان كلا
سبقه بكل وجاء بجملة قسمية تأكيدا لما يفعله يقال صلبه يصلبه ويصلبه لغتان في المضارع

قالوا إنا إلى ربنا منقلبون أي إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل فبعده يوم الجزاء يجازيك
الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم
بعذاب الدنيا ويحتمل أن يكون المعنى إنا إليه لمنقلبون بالموت أي لا بد لنا من الموت فلا يضرنا
كونه بسبب منك وما تنقم بكسر القاف وقرئ بفتحها قال الأخفش هي لغة يقال نقمت الأمر أنكرته
أي لست تعيب علينا وتنكر منا قال عطاء أي ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه وقيل
ما تكره منا وما تطعن علينا وتقدح فينا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا مع أن هذا هو الشرف
العظيم والخير الكامل وأصل المفاخر ومثله لا يكون موضعا للعيب ومكانا للإنكار بل هو حقيق
بالثناء الحسن والاستحسان البالغ فلا نعدل عنه أصلا طلبا لمرضاتك والاستثناء مفرغ ثم تركوا
خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجناب العلي مفوضين الأمر إليه طالبين
منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين ربنا أفرغ علينا صبرا الإفراغ الصب أي
اصببه كاملا تاما حتى يفيض علينا ويغمرنا ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبرا وأي صبر عظيم
يصب صبا ذريعا كما يفرغ الماء إفراغا طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعدادا منهم لما سينزل بهم
من العذاب من عدو الله وتوطينا لأنفسهم على التصلب في الحق وثبوت القدم على الإيمان ثم قالوا
وتوفنا إليك مسلمين أي ثابتين على الإسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين بالوعيد و
لقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شرا محضا سببا للفوز بالسعادة لأنهم
علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر وأنه من فعل الله سبحانه فوصلوا بالشر
إلى الخير ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان
والاعتراف والإيمان وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تأتي بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة
في علم الخير اللهم انفعنا بما علمتنا وثبت أقدامنا على الحق وأفرغ علينا سجال الصبر وتوفنا
مسلمين آمين قال ابن عباس كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قيل فعل بهم
فرعون ما توعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون وقال
الملأ من قوم فرعون أتذر الاستفهام منهم للإنكار عليه أي أتترك موسى وقومه ليفسدوا
في الأرض أي في مصر بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل ويذرك بياء الغيبة ونصب الراء هذه

قراءة العامة وفيها وجهان اظهرهما انه على العطف على ليفسدوا والثاني انه منصوب على
جواب الاستفهام كما ينصب في جوابه بعد الفاء والمعنى كيف يكون الجمع بين تركك موسى وقومه
مفسدين وبين تركهم اياك وعبادة آلهتك اي لا يمكن وقوع ذلك وقرئ برفع الراء وفيها
ثلاثة اوجه اظهرها انه نسق على اتذر اي اتطلق له ذلك والثاني انه استيناف اخبار بذلك
الثالث انه حال ولابد من اضمار مبتدأ اي وهو يذرك وقرئ بالجزم اما على التخفيف بالسكون
لثقل الضمة او على ما قيل في واكن من انه مكين في توجيه الجزم وقرئ بالنون والرفع والمعنى انهم
اخبروا عن انفسهم بانهم سيذرونك وآلهتك اختلف المفسرون في معناها لكون فرعون
كان يدعي الربوبية كما في قوله ما علمت لكم من اله غيري وقوله انا ربكم الاعلى فقيل ومعنى
الهتك طاعتك وقيل معناه عبادتك ويؤيده قراءة علي وابن عباس والضحاك والاهتك وفي
حرف ابي ليفسدوا في الارض وقد تركوك ان يعبدوك وقيل انه كان يعبد بقرة وقيل كان
يعبد النجوم وقيل كان له اصنام يعبدها قومه تقربا اليه فنسبت اليه ولهذا قال انا ربكم
الاعلى قاله الزجاج وقيل كان يعبد الشمس والكواكب والاقرب ان يقال ان فرعون كان دهريا
منكر الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب فاتخذ اصناما على صورتها
وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه هو المطاع والمخدوم في الارض فلهذا
قال انا ربكم الاعلى قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون اربعمائة سنة
وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروها قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم او حمى
ليلة او وجع ساعة لما ادعى الربوبية قال فرعون مجيبا لهم ومثبتا لقلوبهم على الكفر سنقتل
قرئ بالتشديد والتخفيف ابناءهم ونستحيي نساءهم اي نتركهن في الحياة ولم يقل سنقتل موسى
لانه يعلم انه لا يقدر عليه قيل كان ترك القتل في بني اسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاء موسى بالرسالة
وكان من امره ما كان اعاد فيهم القتل وانا فوقهم قاهرون اي مستعلون عليهم بالقهر
والغلبة وهم تحت قهرنا وبين ايدينا ما شئنا ان نفعله بهم فعلناه ففعلوا بهم ذلك فشكا
بنو اسرائيل قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا اي لما بلغ موسى ما قاله فرعون امر
قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ثم اخبرهم ان الارض لله يعني ارض مصر وان كانت

الارض كلها لله او اراد جنس الارض والاول اولى يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ وهو وعد
من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه وانّ الله سيورثهم ارضهم وديارهم وَالْعَاقِبَةُ
المحمودة فى الدنيا والآخرة وعاقبة كل شيء اخره وقيل اراد الجنة لِلْمُتَّقِيْنَ من عباده وهم
موسى ومن معه قَالُوْٓا اُوْذِيْنَا مِنْ قَبْلِ اَنْ تَاْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا وذلك بقتل فرعون
ابناءنا عند مولدك لما اخبر بانه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده وبقتل ابناءنا
الآن وقيل المعنى اوذينا من قبل ان تاتينا بالرسالة باستعمالنا فى الاعمال الشاقة بغير جعل
كضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك ومن بعد ما جئتنا بما صرنا فيه الآن من الخوف
على انفسنا واولادنا واهلنا وقيل ان الاذى من قبل ومن بعد واحد وهو قبض الجزية
منهم قَالَ موسى مجيبا لهم عَسٰى رَبُّكُمْ اَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ مستانفة كالتي قبلها وعدهم
باهلاك الله لعدوّهم وهو فرعون وقومه وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْاَرْضِ هو تصريح بما رمز اليه
سابقا من ان الارض لله وقد حقّق الله رجاءه وملكوا مصر فى زمان داود وسليمان وفتحوا
بيت المقدس مع يوشع بن نون واهلك فرعون وقومه بالغرق وانجاهم فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُوْنَ فيها من الاعمال اي من الاصلاح والافساد بعد ان يمن عليكم باهلاك عدوكم
ويستخلفكم فى الارض فيجازيكم بما عملتم من خير وشر اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس
قال ان بنا اهل البيت يفتح ويختم ولابد ان تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن يكون من بني
هاشم وفيهم نزلت عسى ربكم ان يهلك عدوكم الاية وينبغي ان ينظر فى صحة هذا عن
ابن عباس فالاية نازلة فى بني اسرائيل واقعة فى هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى
وفرعون لا فى بني هاشم وَلَقَدْ اَخَذْنَآ اللام قسم اي والله لقد ابتلينا وهذا شروع فى
تفصيل مبادي هلاكهم وتصدير الجملة بالقسم لاظهار الاعتناء بمضمونها اٰلَ فِرْعَوْنَ اي
قومه بِالسِّنِيْنَ اي الجدب والقحط وهذا معروف عند اهل اللغة يقولون اصابتهم سنة
اي جدب سنة ويقال اسنتوا كما يقال اجدبوا وفى الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني
يوسف وهي سبع سنين والسنة من الاسماء الغالبة كالدابة والنجم والمعنى اخذناهم بالجوع
سنة بعد سنة واكثر العرب يعربون السنين اعراب الجمع المذكر السالم ومنهم من يعربه اعراب

المفرح ويجري على الحركات على النون قاله أبو زيد وحكى الفراء عن بني عامر انهم يقولون
اقمت عنده سنينا مصروفا قال وبنو تميم لا يصرفون قال ابن مسعود السنين الجوع وقال مجاهد
الجوائح قال ابن عباس لما اخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم وذهبت مواشيهم
حتى يبس نيل مصر واجتمعوا الى فرعون فقالوا ان كنت كما تزعم فأتنا في نيل مصر بماء قال
غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال اي شيء صنعت ان لم اقدر على ان اجري في
نيل مصر ماء غدوة كذبوني فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ولبس مدرعة صوف
ثم خرج حافيا حتى اتى نيل مصر فقال اللهم انك تعلم اني اعلم انك تقدر على ان تملأ نيل مصر
ماء فاملأه ماء فما علم الا بخرير الماء يقبل فخرج واقبل النيل يزخ بالماء لما اراد الله بهم من
الهلكة ونقص من الثمرات بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات واتلاف الغلات بالآفا
ت قال قتادة اما السنون فلاهل البوادي واما نقص الثمرات فلاهل الامصار والمعنى اخذناهم
بها لعلهم يذكرون يتعظون ويرجعون عن غوايتهم ثم بين انهم عند نزول العذاب وتلك
المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا كما قال تعالى فإذا جاءتهم الحسنة اي الخصلة
الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمار ورخاء الاسعار والسعة والعافية والسلامة
من الآفات قالوا لنا هذه اي اعطيناها باستحقاق وهي مختصة بنا ونحن اهلها على العادة
التي جرت لنا في سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله فيشكروه على انعامه
وان تصبهم خصلة سيئة من الجدب والقحط وكثرة الامراض ونحوها من البلاء قيل ووجه
تعريف الحسنة انها كثيرة الوقوع وتعلق الارادة باحداثها ووجه تنكير السيئة ندرتها ووقوعها
وعدم القصد لها الا بالتبع وهذا من محاسن علم المعاني قال مجاهد الحسنة العافية والرخاء
والسيئة بلاء وعقوبة يطيروا يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به وقد كانت العرب
تتطير باشياء من الطيور والحيوانات ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع
المفسرين ومثل هذا قوله تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ألا التصدير
بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه إنما أداة حصر طائرهم اي سبب خيرهم
وشرهم وجميع ما ينالهم من خصب وقحط عند الله يأتيهم به ليس بسبب موسى ومن معه وكان

هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري
بقدر الله وحكمته ومشيته وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير
الله جهلا منهم والحق أن الكل من الله وَقَالُوا بعد ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات مَهْمَا
اسم شرط تَأْتِنَا بِهِ من عندك مِنْ آيَةٍ بيان لمهما وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده
وهو لِتَسْحَرَنَا بِهَا أي لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم وضمير به عائد إلى مهما
وضمير بها عائد إلى آية وقيل إنهما عائدان إلى مهما وتذكير الأول باعتبار اللفظ وتأنيث الثاني
باعتبار المعنى فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من
الآيات التي هي في زعمهم من السحر فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وهو المطر الشديد قال الأخفش واحده طوفانة وقيل هو مصدر
كالرجحان والنقصان فلا واحد له وقيل الطوفان الموت روته عائشة عنه صلى الله عليه وسلم أخرجه
ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما قال ابن كثير وهو حديث غريب وبه قال مجاهد وعطاء وقال
النحاس الطوفان في اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل أي ما يطيف بهم فيهلكهم وقال ابن عباس الطوفان
أمر من أمر ربك ثم قرأ وطاف عليها طائف من ربك وقال مجاهد هو الماء والطاعون وقال أبو وهب
هو الطاعون بلغة أهل اليمن وقال أبو قلابة الطوفان هو الجدري وهم أول من عذبوا به
ثم بقي في الأرض وقال مقاتل الماء طغا فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام من السبت
إلى السبت في ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر أحد أن يخرج من داره وقيل دخل
الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة
قال ابن عباس مطروا دائما بالليل والنهار ثمانية أيام وَالْجَرَادَ جمع جرادة الذكر والأنثى فيه سواء
قال أهل اللغة هو مشتق من الجرد قالوا والاشتقاق في أسماء الأجناس قليل جدا يقال أرض جرداء
أي ملساء وثوب أجرد إذا ذهب وبره والمراد به هنا هو الحيوان المعروف أرسله الله لأكل
زروعهم فأكلها وأكل ثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم وأمتعتهم وابتلي الجراد بالجوع فكان
لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء وَالْقُمَّلَ بضم القاف
وفتح الميم المشددة وقرأ الحسن القَمْل بفتح القاف وسكون الميم قيل هي الدبا قاله مجاهد وقتادة والسدي

في الحلي والله أعلم بالجراد قبل أن تطير وقال عطاء إنه القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس
الأرض وقيل هي السوس الذي يخرج من الحنطة قاله ابن عباس وقيل البراغيث وقيل دواب سود
صغار وقيل ضرب من القردان وقيل الجعلان قال النحاس يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها
أرسلت عليهم وقد فسر عطاء الخراساني القمل بالقمل نفسه قال ابن عباس القمل الجراد الذي له
أجنحة وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد وأقام عليهم من السبت إلى السبت
والضفادع جمع ضفدع وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء وكانت تقع في طعامهم
وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه وأقامت عليهم ثمانية أيام قال ابن عباس كانت الضفادع
برية فلما أرسلها على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي
وفي التنانير وهي تفور ومكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات
الجراد والقمل والضفادع والدم روي أنه سال عليهم النيل دما قاله مجاهد وقيل هو
الرعاف قاله زيد بن أسلم وقيل مياههم انقلبت دما فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه
دما عبيطا أحمر قال ابن عباس مكث فيهم سبتا إلى سبت ثم يرفع عنهم شهرا آيات حال من
الخمسة المذكورة مفصلات أي مبينات يتبع بعضها بعضا لتكون لله الحجة عليهم والمعنى
أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله
أو مفرقات بين كل آيتين شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعا فاستكبروا أي ترفعوا
عن الإيمان بالله وكانوا قوما مجرمين لا يهتدون إلى حق ولا ينزعون عن باطل ولما وقع
عليهم الرجز أي العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم وقيل كان هذا الرجز طاعونا
مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفا قاله سعيد بن جبير وعلى هذا هو العذاب
السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت وعن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون
رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه
وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه أخرجه الشيخان قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد
عندك أي بما أوصاك واستودعك من العلم أو بما اختصك به من النبوة أو بما أنبأك أو بما عهد إليك
أن تدعوه فيجيبك والباء متعلقة بادع على معنى أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله أو

لنا متوسلا اليه بعهده عندك وقيل ان الباء للقسم وجوابه لنؤمنن الآتي اي اقسمنا
بعهد الله عندك لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ اي لنصدقن بما جئت به وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ اي لنخلينهم حتى يذهبوا حيث شاؤا وقد كانوا حابسين لبني
اسرائيل عندهم يمتهنونهم في الاعمال فوصلوه بارسالهم معه فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ
بدعوة موسى عليه السلام إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ اي الاجل المضروب لاهلاكهم بالغرق لا
رفعا مطلقا إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ اي ينقضون ما عقدوه على انفسهم واذا هي الفجائية اي فاجوا
النكث وبادروه واصل النكث من نكث الصوف ليغزله ثانيا فاستعير لنقض العهد بعد
احكامه وابرامه قاله زاده فَانْتَقَمْنَا اي اردنا الانتقام مِنْهُمْ لما نكثوا بسبب ما تقدم من
الذنوب المتعددة واصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب وقيل هو ضد الانعام
كما ان العقاب ضد الثواب فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ اي في البحر قيل هو الذي لا يدرك قعره
وقيل هو لجته واوسطه قال الازهري اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع
على البحر الملح والعذب والمراد به نيل مصر وهو عذب بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا تعليل للاغراق وَ
كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ اي عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا او عن الآيات التي لم يؤمنوا بها
بل كذبوا بها فكانهم في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها والثاني اولى لان الجملتين تعليل للاغراق
والمراد بالغفلة عدم التدبر وهذا مواخذ به فسقط ما يقال ان الغفلة لا مواخذة بها وقد
تستعمل الغفلة في ترك الشيء اهمالا واعراضا في القاموس غفل عنه غفولا تركه وسها عنه
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ يعني بني اسرائيل الذين كانوا يذلون ويمتهنون
بالخدمة لفرعون وقومه مَشَارِقَ الْأَرْضِ هي مصر والشام وَمَغَارِبَهَا المراد جهات مشرقها
وجهات مغربها وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط فملكها بنوا اسرائيل بعد الفراعنة
والعمالقة وتصرفوا فيها شرقا وغربا كيف شاؤا وقال الزجاج المراد جميع جهات الارض ونواحيها
لان داؤد وسليمان كانا من بني إسرائيل وقد ملكا الارض وقيل انها الارض المقدسة وهو
بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بالخراج الزرع والثمار منها على اتم
ما يكون وانفع ما ينفق قال الحسن هي الشام وعن قتادة وزيد بن اسلم نحوه وقال عبد الله

بن شوذب هي فلسطين وقد روي عن النبي صلعم في فضل الشام احاديث ليس هذا موضع ذكرها وتمت اي مضت واستمرت على التمام كلمة ربك هي قوله تعالى ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين هذا وعد من الله بماله بالنصر والظفر بالاعداء والاستيلاء على املاكهم فتمامه مجاز عن انجاز ه الحسنى صفة للكلمة وهي تانيث الاحسن على بني اسرائيل بما صبروا اي تمام هذه الكلمة عليهم بسبب صبرهم على ما اصيبوا به من فرعون وقومه وقال مجاهد تمام الكلمة ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الارض واهلاك عدوهم وما اورثهم منها ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه التدمير الاهلاك اي اهلكنا ما كانوا يصنعونه في ارض مصر من العمارات وبناء القصور وفيه اربعة اوجه من الاعراب ذكرها السمين وما كانوا يعرشون من الجنات والثمار والاعناب قال الحسن ومنه قوله تعالى وهو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات وقيل يسقفون من ذلك البنيان وقيل المعنى ما كانوا يرفعون من الابنية المشيدة في السماء يقال عرش يعرش اي بنى يبني قال مجاهد ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وهذا آخر قصة فرعون وقومه وجاوزنا ببني اسرائيل البحر هذا شروع في بيان ما فعله بنو اسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه ومعنى جاوزنا جزنا بهم وقطعنا يقال جاز الوادي وجاوزه اذا قطعه وخلفه وراء ظهره وهو كقوله واذ فرقنا بكم البحر قال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم يقال عكف يعكف ويعكف بالضم والكسر بمعنى اقام على الشيء ولزمه والمصدر منهما عكوف قيل هؤلاء القوم الذين اتاهم بنو اسرائيل هم من لخم وجذام كانوا نازلين بالرقة يعني ساحل البحر كانت اصنامهم تماثيل بقر من نحاس فلما كان عجل السامري شبه لهم انه من تلك البقر فذلك كان اول شان العجل لتكون لله عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك وقيل كانوا من الكنعانيين الذين امر موسى بقتالهم قالوا اي بنو اسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة اي صنما نصبه كائنا كالذي لهؤلاء القوم قال البغوي لم يكن ذلك شكا من بني اسرائيل في

توحيد الله وانما المعنى اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه الى الله وظنوا ان ذلك لا يضر فيه
بعد وقيل انهم توهموا انه يجوز عبادة غير الله فحملهم جهلهم على ما قالوا قال الكرخي وعلى كل
فالقائل للقول المذكور بعضهم لا كلهم اذ كان من جملة من معه السبعون الذين اختارهم موسى
للميقات ويبعد منهم مثل هذا القول قال اي اجاب عليهم موسى إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ وصفهم
بالجهل لانهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له ادنى علم عن طلب عبادة غير الله ولكن
هؤلاء القوم اعني بني اسرائيل اشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوناً وقد سلف في سورة البقرة بيان
ما جرى منهم من ذلك واخرج ابن ابي شيبة واحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير
وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي واقد الليثي قال خرجنا مع
رسول الله صلعم قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات انواط كما للكفار
ذات انواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي صلعم الله اكبر
هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم ثم قال
لهم موسى إِنَّ هَؤُلَاءِ يعني القوم العاكفين على الاصنام مُتَبَّرٌ التبار الهلاك وكل اناء مكسر فهو متبر
اي ان هؤلاء هالك مَا هُمْ فِيهِ مدمر مكسر والذي هم فيه هو عبادة الاصنام اخبرهم بان هذا
الدين الباطل الذي هؤلاء القوم عليه هالك مدمر لا يتم منه شيء وقال ابن عباس متبر خسران
وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اي ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الاعمال مع عبادتهم للاصنام
قال في الكشاف وفي ايقاع هؤلاء اسماً لان وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم
لعبدة الاصنام بانهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة وانه لهم ضربة لازب ليحذرهم
عاقبة ما طلبوا ويبغض اليهم ما احبوا قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا الاستفهام للانكار والتوبيخ
اي كيف اطلب لكم غير الله الها تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي البعض منه
والمعنى ان هذا الذي طلبتم لا يكون ابداً وادخال الهمزة على الغير للاشعار بان المنكر هو كون
المبتغى غير الله الها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ من اهل عصركم وهم القبط بما انعم به عليكم
من اهلاك عدوكم واستخلافكم في الارض واخراجكم من الذل والهوان الى العز والرفعة فكيف تقابلون هذه
النعم بطلب عبادة غيره وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ اي اذكروا وقت انجائنا لكم من آل فرعون

بعد ان كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم ويمتهنونكم بانواع الامتهان هذا
على ان هذا الكلام محكي عن موسى واما اذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد
فهو بمعنى اذكروا اذ انجينا اسلافكم حال كونهم يسومونكم سوء العذاب ويجوز ان تكون مستأنفة
لبيان ما كانوا فيه مما انجاهم منه يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ مفسرة للجملة التي قبلها
او بدل منها وقد سبق بيان ذلك وَفِي ذَٰلِكُمْ اي هذا العذاب الذي كنتم فيه بَلَاءٌ عليكم نقمة
او محنة مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وقد تقدم تفسيرها في البقرة والفائدة في ذكرها في هذا الموضع انه
تعالى هو الذي انعم عليكم بهذه النعمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل
لنا الها كما لهم آلهة وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً نكلمه عند انتهائها بان يصومها وهي ذو
القعدة لاعطاء التوراة وَأَتْمَمْنَاهَا اي المواعدة المفهومة من واعدنا او ثلاثين ليلة قاله الحوفي والاول اولى
بِعَشْرٍ لبيان من ذي الحجة للتقرب قاله ابن عباس ومجاهد وفي مصحف ابي وتممناها بالتضعيف
وحذف تمييز بعشر لدلالة الكلام عليه فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ الميقات هو الوقت الذي قدر ان يعمل
فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج اي وقت وعده بكلامه اياه أَرْبَعِينَ لَيْلَةً هذا من جملة
ما اكرم الله به موسى عليه السلام وشرفه لقد اجمل ذكر الاربعين في البقرة وذكره هنا على التفصيل
وضرب هذه المدة موعدا لمناجاة موسى ومكالمته قاله مجاهد وابن عباس قيل وكان التكليم في
يوم النحر والفائدة في اربعين ليلة مع العلم بان الثلاثين والعشر اربعون لئلا يتوهم ان المراد اتممنا
الثلاثين بعشر منها فبين ان العشر غير الثلاثين وفي نصب اربعين ثلاثة اوجه احدها انه حال
قاله الزمخشري اي تم بالغا هذا العدد الثاني على المفعول به الثالث على الظرف قاله ابن عطية
وفيه ضعف وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ عند ذهابه الى الجبل للمناجاة اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي
اي كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ امر بني اسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد احوالهم وحملهم
على عبادة الله تعالى وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ اي لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونا
للظالمين قال ابن عباس ان موسى قال لقومه ان ربي وعدني ثلاثين ليلة ان القاه واخلف
هارون فيكم فلما فصل موسى الى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله
فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد ابصر جبريل فاخذ من اثر الفرس قبضة من تراب

ع ١٥

ثم ذكر قصة السامري ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ اللام للاختصاص اي كان مجيئه مختصا
بالميقات المذكور بمعنى انه جاء في الوقت الموعود وكان يوم الخميس وكان يوم عرفة واعطاه
التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر ﴿وكلمه ربه﴾ اي اسمعه كلامه من غير واسطة ولا كيفية و
ازال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه وليس المراد انه انشأ له كلاما اسمعه لان كلام الله
قديم ولم نر في التفاسير هنا بيان ما فهمه موسى من ذلك الكلام اخرج البزار وابن ابي حاتم و
ابو نعيم في الحلية والبيهقي في الاسماء والصفات من حديث جابر قال قال رسول الله صلعم
لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه فقال له موسى يا رب
اهذا كلامك الذي كلمتني به قال يا موسى انما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن
كلها واقوى من ذلك فلما رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن فقال
لا تستطيعونه الم تروا الى اصوات الصواعق التي تقبل في احلى حلاوة سمعتموه فذلك قريب منه
وليس به وفيه دليل على كلام الله مع موسى قال الزمخشري تكليمه ان يخلق الكلام منطوقا
به في بعض الاجرام كما خلقه محفوظا في الالواح انتهى واليه ذهب المعتزلة وهو مذهب فاسد
ترده الكتاب والسنة واين المتجوز لذلك الحجر من ان يقول اني انا الله الآية وذهب الحنابلة ومن
وافقهم من اهل الحديث ان كلامه تعالى حروف واصوات مقطعة وانه قديم وهو الحق
وقد نطق به السنة المطهرة وقال جمهور المتكلمين ان كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف
والاصوات وارادوا به الكلام النفسي ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة وكذا ما ذكره الشيخ
في التأويلات ان موسى سمع صوتا دالا على كلام الله وهو ظاهر البطلان لمخالفته نص القرآن وقد
سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تاويل صفة كلام الله تعالى وقالوا انه متكلم بكلام
قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق ليس كمثله شيء ولله المثل الاعلى
ولما سمع موسى كلام ربه عز وجل اشتاق الى رؤيته وسألها بقوله ﴿قال رب أرني﴾ اي ارني نفسك
قاله الزجاج وقال ابن عباس اعطني وارني فعل امر مبني على حذف الياء والمعنى مكني من رؤيتك
وهيئني لها فانك ان فعلت بي ذلك ﴿انظر اليك﴾ فتغاير الشرط والجزاء وبالجملة فقد سأله النظر
اليه اشتياقا قال الى رؤيته لما اسمعه كلامه وسؤال موسى للرؤية يدل على انها جائزة عنده في الجملة

ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها قال لن تراني في جملة مستأنفة لكونها جوابا لسؤال مقدر كأنه
قيل فما قال الله والمعنى لن تراني بعين فانية بالسؤال بل بعين باقية بالعطاء والتوال
أي انه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه او انه لا يراه ما دام الرائي حيا في دار الدنيا واما
رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالاحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة والجدال
في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة ومنهج الحق واضح ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الانسان عليه
وادرك عليه اباءه واهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة
يوقع في التعصب والمتعصب وان كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء واذنه عن سماع الحق صماء
يدفع الحق وهو يظن انه ما دفع غير الباطل ويحسب ان ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا
بما اوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالاذعان والتسليم وما
اقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الاصول والفروع فانه صار بها باب الحق مرتجا
وطريق الانصاف مستوعرة والامر لله سبحانه والهداية منه

يأبى الفتى الا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح

ولم يقل لن أرى ليكون نفيا للجواز ولو لم يكن مرئيا لاخبر بانه ليس بمرئي
اذ الحالة حالة الحاجة الى البيان وقد تمسك اهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجية بظاهر
هذه الآية وقالوا لن للتابيد والدوام وهذا غلط اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن اهل اللغة
العربية ولم يقل به احد منهم والكتاب والسنة على خلاف ذلك فقد قال تعالى في حق اليهود
ولن يتمنوه ابدا مع انهم يتمنون الموت يوم القيامة كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا
ربك وقولهم يا ليتها كانت القاضية وفي السنة اكثر من ان تحصى وصيغة لن تراني دون لن تنظر الي مع انه
المطابق لقوله انظر اليك لان الرؤية هي المقصودة والنظر مقدمتها وقد يحصل دونها واما
المطابقة في الاستدراك بقوله ولكن انظر الى الجبل فلخفيه لان المقصود منه تعظيم امر
الرؤية ومعناه انك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو اعظم منه جرما وصلابة وقوة وهو
الجبل فانظر اليه فان استقر مكانه وبقي على حاله ولم يتزلزل عند رؤيتي له فسوف تراني
اي تثبت لرؤيتي وان ضعف عن ذلك فانت منه اضعف ولا طاقة لك فهذا الكلام بمنزلة ضرب
المثل لموسى عليه السلام بالجبل وقيل هو من باب التعليق بالمحال وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا

لما قدمنا وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والاشعرية فالمعتزلة استدلوا بقوله لن تراني كما تقدم وبأمره بأن ينظر الى الجبل والاشعرية قالوا أن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على انها جائزة غير ممتنعة ولا يخفى ان الرؤية الاخروية هي بمعزل عن هذا كله والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ تجلى معناه ظهر من قولك جلوت العروس اي ابرزتها وجلوت السيف اخلصته من الصدأ وتجلى الشيء انكشف والمعنى فلما ظهر ربه وقيل التجلي هو امره وقدرته قاله قطرب وغيره لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا الدك مصدر بمعنى المفعول اي جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا هذا قراءة اهل المدينة واهل البصرة والدك والدق اخوان وهو تفتيت الشيء وسحقه وقيل تسويته بالارض وقرأ اهل الكوفة دكاء على التانيث والجمع دكاوات كحمراء وحمراوات وهي اسم للرابية الناشزة من الارض وللارض المستوية فالمعنى ان الجبل صار صغيرا كالرابية او ارضا مستوية قال الكسائي الدك الجبال العراض واحدها ادك والدكاوات جمع دكاء وهي رواب من طين ليست بالغلاظ والدكادك ما التبد من الارض فلم يرتفع وناقة دكاء لا سنام لها قال سهل بن سعد الساعدي دكا يعني مستويا بالارض وقيل ترابا وقيل ساخ حتى وقع في البحر وقال عطية العوفي صار رملا هائلا وقال الكلبي يعني كسر جبالا صغارا قيل واسم الجبل زبير قال الضحاك اظهر الله من نوره مثل منخر الثور وقال ابن سلام وكعب ما تجلى الا مثل سم الخياط وقال السدي الا قدر الخنصر واخرج احمد والترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وغيرهم عن انس بن مالك ان النبي صلعم قرأ هذه الآية جعله دكا قال هكذا واشار باصبعيه ووضع ابهامه على انملة الخنصر وفي لفظ على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل وخر موسى صعقا وفي لفظ فساخ الجبل في الارض فهو يهوي فيها الى يوم القيامة وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم وقال ابن عباس هذا الجبل هو الطور وما تجلى منه الا قدر الخنصر جعله ترابا وقال سهل بن سعد اظهر نورا قدر الدرهم من سبعين الف حجاب وعن انس ان النبي صلعم قال لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة اجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة فالمدينة احد وورقان ورضوى وبمكة حرا وثبير وثور اخرجه ابو الشيخ وابو نعيم في الحلية وابن ابي حاتم وغيرهم وفي لفظ سبعة اجبل في اليمن اثنان حصين وصبر وخر موسى

اي سقط والخرور السقوط وقيده الراغب بسقوط يسمع له خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو صَعِقًا اي مغشيا عليه لهول ما رأى ماخوذ من الصاعقة والمعنى انه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند اصابة الصاعقة له يقال صعق الرجل فهو صعق ومصعوق اذا اصابته الصاعقة قال الكلبي صعق موسى يوم الخميس وهو يوم عرفة واعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر قال ابن عباس فلم يزل صعقا ما شاء الله وقال قتادة ميتا والاول اولى لقوله فَلَمَّا أَفَاقَ والميت لا افاقة له انما يقال افاق من غشيته والافاقة رجوع الفهم والعقل الى الانسان بعد جنون او سكر او نحوهما ومنه افاقة المريض وهي رجوع قوته وافاقة الحلب هي رجوع الدر الى الضرع قال الواقدي لما خر موسى صعقا قالت الملائكة مالابن عمران وسؤال الرؤية فلما افاق وعرف انه سأل امرا عظيما لا ينبغي له قَالَ سُبْحَانَكَ اي انزهك تنزيها من ان اسأل شيئا لم تأذن لي به او من ان ترى في الدنيا او من النقائص كلها تُبْتُ إِلَيْكَ عن العود الى مثل هذا السؤال قال القرطبي واجمعت الامة على ان هذه التوبة ما كانت عن معصية فان الانبياء معصومون وقيل هي توبة من قتله للقبطي ذكره القشيري ولا وجه له في مثل هذا المقام وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلعم فمنعها قال تبت اليك وما بعده والاول اولى وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك وبانك لا ترى في الدنيا مع جوازها قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ جملة مستأنفة كالتي قبلها متضمنة لاكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به والاصطفاء الاختيار والاجتباء اي اخترتك عَلَى النَّاسِ المعاصرين لك بِرِسَالَاتِي كأنه نظر الى ان الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الانواع وقرئ بالافراد وَبِكَلَامِي المراد به هنا التكليم امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من انواع الاكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ امره بان يأخذ ما آتاه اي اعطاه من هذا الشرف الكريم والفضل الجسيم وَكُنْ امره بان يكون مِّنَ الشَّاكِرِينَ على هذا العطاء العظيم والاكرام الجليل وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مما يحتاج اليه بنو اسرائيل في دينهم ودنياهم وقال السدي من كل شيء امروا به ونهوا عنه وعن مجاهد مثله وقد اختلف السلف في المكتوب في الالواح اختلافا كثيرا ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي

وهذه الالواح هي التوراة قيل كانت من زمردة خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من زبرجد
خضراء وقيل من صخرة صماء وقيل من خشب نزلت من السماء وقد اختلف في عدة الالواح وفي
مقدار طولها وعرضها والالواح جمع لوح وسمي لوحا لكونه تلوح فيه المعاني واسند الله سبحانه
الكتابة الى نفسه تشريفا للمكتوب في الالواح وهي مكتوبة بامره سبحانه وقيل هي كتابة خلقها
الله في الالواح وفي الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده
وفي لفظ غرس الفردوس بيده رواه الدارمي وابن النجار وغيرهما عن عبد الله بن الحارث والمحفوظ
انه موقوف وفيه ابو معشر متكلم فيه وقال ابن عمر خلق الله اربعة اشياء بيده العرش والقلم
وعدن وادم وعن ميسرة ان الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلث خلق آدم بيده وكتب التوراة
بيده وغرس جنة عدن بيده ونحوه عن كعب رواهما الدارمي وعن علي بن ابي طالب قال
كتب الله الالواح لموسى وهو يسمع صريف الاقلام في اللوح وعن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده
عن النبي صلعم قال الالواح التي انزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر
ذراعا اخرجه ابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وعن سعيد بن جبير قال كانوا يقولون
كانت الالواح من ياقوتة حمراء وانا اقول انما كانت من زمرد وكتابتها الذهب كتبها الله بيده
فسمع اهل السموات صريف الاقلام اقول رحمه الله سعيد اما كان اغناه عن هذا الذي قاله
من جهة نفسه فمثله لا يقال بالرأي ولا بالحدس والذي يغلب به الظن ان كثيرا من السلف رحمهم
الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الامور فلهذا اختلفت واضطربت الاقوال فيها فهذا يقول من خشب
وهذا يقول من ياقوت وهذا يقول من زمرد وهذا يقول من زبرجد وهذا يقول من برد
وهذا يقول من حجر **مَّوْعِظَةً** لمن يتعظ بها من بني اسرائيل وغيرهم وحقيقة الموعظة التذكير
والتحذير مما يخاف عاقبته **وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** اي للاحكام المحتاجة الى التفصيل وتبيانا لكل
شيء من الامر والنهي والحلال والحرام قيل انزل التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها الا
اربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى **فَخُذْهَا** اي الالواح وقيل الضمير عائد الى الرسالات او الى كل
شيء او الى التوراة قيل وهذا الامر على اضمار القول اي قلنا له خذها **بِقُوَّةٍ** اي بجد ونشاط وقال
ابن عباس بحزم وقال ربيع بن انس بطاعة وقال السدي باجتهاد وقيل بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا اي باحسن ما فيها مما اجره اكثر من غيره وهو مثل قوله تعالى
اتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم وقوله فيتبعون احسنه ومن الاحسن الصبر على الغير
والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة وبالفريضة دون النافلة وفعل المامور وترك
المنهي عنه وقال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا امثالها ويقفوا عند متشابهها
وكان موسى اشد عبادة من قومه فامر بما لم يؤمروا به وقيل الحسن يدخل تحته الواجب و
المندوب والمباح والاحسن الاخذ بالاشد والاشق على النفس وقيل الحسن بمعنى حسنٌ كلها حسن
سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ اي الكفار قاله ابن عباس وهي ارض مصر التي كانت لفرعون و
قومه قاله عطية العوفي وقيل منازل عاد وثمود قاله الكلبي وقيل هي جهنم قاله الحسن وعطاء
وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها قاله السدي وقال قتادة سادخلكم
الشام فاريكم منازل القرون الماضية وقيل الدار الهلاك والمعنى ساريكم هلاك الفاسقين
وقد تقدم تحقيق معنى الفسق وقال مجاهد ساريكم مصيرهم في الاخرة وقال قتادة منازلهم
في الدنيا ومعنى الاراءة الادخال بطريق الارث ويؤيده قراءة من قرأ ساورثكم بالثاء المثلثة كما
في قوله واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها قاله ابو السعود وهذه
القراءة ترد القول بانها جهنم والعجب من السيوطي بعد هذا الخلاف المعتبر كيف يرده بدعوى
التصحيف والتحريف وقد ذكر في حسن المحاضرة ما نصه اشتهر على السنة كثير من الناس انها
مصر وقد اخرج ابن الصلاح وغيره من الحفاظ ان ذلك غلط نشأ عن تصحيف وانما الوارد عن
مجاهد وغيره من مفسري السلف في قوله تعالى ساريكم الخ قال مصيرهم فصحفت انتهى وجمهور
المفسرين على ان بني اسرائيل بعد خروجهم الى الشام رجعوا الى مصر وملكوا ارض القبط واموالهم
قاله القرطبي والكرخي وهو قول الحسن وقيل انهم لم يعودوا الى مصر وهو قول ضعيف جدا
سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ قيل معناه سامنعهم فهم كتابي اي انزع
عنهم فهم القرآن قاله سفيان بن عيينة وقال السدي عن ان يتفكروا في اياتي وقال ابن جريج
عن التفكر في خلق السموات والارض والايات التي فيهما وقيل ساصرفهم عن الايمان بها والتصديق
بما فيها وقيل عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم وقيل ساطبع

على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات التسع التي اعطاها الله موسى وقيل الكتب المنزلة وقيل خلق العالم ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة والتكبر اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق العباد ويتكبرون من الكبر لا من التكبر اي يفتعلون التكبر ويرون انهم افضل من غيرهم فلذلك قال بغير الحق اي يتكبرون بما ليس بحق او متلبسين بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها اي ساصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للايمان بما يعرفونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات اي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمه وكذلك وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا والمعنى انهم اذا وجدوا سبيلا من سبل الرشد يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب تركوه وتجنبوه وان رأوا سبيلا من سبل الغي والضلال سلكوه واختاروه لانفسهم قال ابو عبيدة فرق ابو عمرو بين الرُّشد والرَّشَد فقال الرُّشد الصلاح والرَّشَد في الدين وقال النحاس سيبويه يذهب الى ان الرشد والرشد كالسخط والسخط وهما لغتان واصل الرشد في اللغة ان يظفر الانسان بما يريد وهو ضد الخيبة ذلك اي الصرف بتكذيبهم او التكبر وعدم الايمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد وسلوك سبيل الغي بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين اي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الدار الآخرة يعني لقاءهم لها او لقاءهم ما وعدوا به فيها ذكره الزمخشري حبطت اعمالهم الحبط البطلان اي بطل ما عملوه في الدنيا مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وان كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم كأن لم تكن ويحتمل ان يراد انها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير اسلامهم لما في الحديث الصحيح اسلمت على ما اسلفت من خير هل يجزون الا ما اي بما كانوا او على ما كانوا او جزاء ما كانوا قدره الواحدي وقال هنا لا بد منه قال السمين وهو واضح لان نفس ما كانوا يعملون لا يجزونه انما يجزون بمقابلة اعمالهم من الكفر بالله والتكذيب بآياته وتنكب سبيل الحق ع وسلوك سبيل الغي واتخذ قوم موسى من بعده اي من بعد خروجه الى الطور وذهابه الى المناجاة من للتبعيض او للابتداء او للبيان حليهم التي استعاروها من قوم فرعون للعيد

ليتزينوا به فبقي عندهم الى ان هلك فرعون وقومه فصار ملكا لهم والحلي جمع حلي قال النحاس
جمع حلي وحلي مثل ثدي وثدي وثدي، واضيفت الحلي اليهم وان كانت لغيرهم لان الاضافة
تقوم لادنى ملابسة عجلا اي اتخذوا عجلا الها وجسدا بدل من عجلا او وصف له يعني اتخذوا من ذلك
الحلي وهو الذهب والفضة عجلا له خوار اي صوت البقر هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة
وجمهور المفسرين والخوار الصياح يقال خار يخور خوارا اذا صاح وكذلك جار يجار ونسب اتخاذ العجل
الى القوم جميعا مع انه اتخذه السامري وحده لكونه واحدا منهم وهم راضون بفعله روي انه
لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة وابطأ عليهم في العشر المزيدة قال السامري يا بني اسرائيل
وكان مطاعا فيهم ان معكم حليا من حلي آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد وخرجتم
وهو معكم وقد اغرق الله اهله من القبط فهاتوه فدفعوه اليه فاتخذ منه العجل المذكور قال قتادة
فجعله جسدا لحما ودما له خوار قال عكرمة صوت وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه
صوت من خفق الريح والاول اولى لانه كان يخور قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدي
كان يخور ويمشي وقرأ علي وابو السماك له جؤار بالجيم والهمز وهو الصوت الشديد ألم يروا أنه لا يكلمهم
الاستفهام للتقريع والتوبيخ اي الم يعتبروا بان هذا الذي اتخذوه الها لا يقدر على تكليمهم فضلا عن
ان يقدر على جلب نفع لهم او دفع ضر عنهم ولا يهديهم سبيلا اي طريقا واضحا يسلكونها على
كلا التقديرين لا يصلح لان يعبد اتخذوه الها واعيد تاكيدا وكانوا ظالمين لانفسهم في اتخاذه
الها او في كل شيء ومن جملة ذلك الاتخاذ ولما سقط في ايديهم اي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من
الميقات يقال للنادم المتحير قد سقط في يده قال الاخفش يقال سُقط وأسقط ونقله ايضا الفراء
والزجاج الا ان الفراء قال سقط اي الثلاثي اكثر واجود وهذه اللفظة تستعمل في الندم والتحير و
قد اضطربت اقوال اهل اللغة في اصلها قال الواحدي قد بان من اقوال المفسرين واهل
اللغة ان سقط في يده ندم وانه يستعمل في صفة النادم فاما القول في اصله وماخذه فلم
ار لاحد من ائمة اللغة شيئا ارتضيه فيه الا ما ذكره الزجاج فانه قال انه بمعنى ندموا وقال
ابو عبيدة يقال لمن ندم على امر وعجز عنه سقط في يده وقال الزمخشري معناه لما
اشتد ندمهم ومن قال سقط على البناء للفاعل فالمعنى عنده سقط الندم واصله

ان من شان من اشتد ندمه وحسرته ان يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لان فاه
قد وقع فيها او في الجمل سقط فعل ماض وبني للمجهول واصله سقطت افواههم على ايديهم
ففي بمعنى على وذلك من شدة الندم فان العادة ان الانسان اذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه
على اصابعه فسقوط الافواه على الايدي لازم للندم فاطلق اسم اللازم واريد الملزوم على
سبيل الكناية وهذا التركيب لم تعرفه العرب الا بعد نزول القرآن والسقوط عبارة عن
النزول من اعلى الى اسفل وقال الازهري والزجاج والنحاس وغيرهم معنى سقط في ايديهم
اي في قلوبهم وانفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وان كان محالا ان يكون في اليد
تشبيها لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد لان مباشرة الاشياء في الغالب باليد
قال تعالى ذلك بما قدمت يداك وايضا الندم وان حل القلب فاثره يظهر في البدن لان
النادم يعض يده ويضرب احدى يديه على الاخرى قال تعالى فاصبح يقلب كفيه على
ما انفق فيها ومنه ويوم يعض الظالم على يديه اي من الندم وايضا النادم يضع ذقنه
في يده ﴿وَرَأَوْا﴾ اي تبينوا وتيقنوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذهم العجل وانهم قد ابتلوا بمعصية الله
سبحانه في عبادتهم العجل ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفي هذا
الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال والاعتراف بعظم ما قدموا
عليه من الذنب والندم على ما صدر منهم والرغب الى الله في اقالة عثرتهم واعترافهم على
انفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم وسياتي في
سورة طه ان شاء الله ما يدل على ان هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى
وانما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد
﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه وقوله اسفا
شديد الغضب قاله محمد بن كعب وقيل هو منزلة وراء الغضب اشد منه قاله ابو الدرداء
وقال ابن عباس والسدي الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدي والقولان متقاربان
لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت
واذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والاخرى غضبا فقال

هو اسف واسيف واسفان واسوف قال ابن جرير الطبري اخبره الله قبل رجوعه بانهم
قد فتنوا وان السامري قد اضلهم فلذلك رجع وهو غضبان اسفا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي هذا ذم من موسى لقومه اي بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتي عنكم وفراقي
اياكم يقال خلفه بخير وخلفه بشر استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الايات
ما يوجب بعضه الانزجار والايمان بالله وحده ولكن هذا شان بني اسرائيل في تلون حالهم
واضطراب فعالهم ثم قال منكرا عليهم أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ العجلة التقدم بالشيء قبل وقته
يقال عجلت الشيء سبقته واعجلت الرجل حملته على العجلة ولذلك صارت مذمومة
والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشيء في اول وقته والمعنى اعجلتم عن انتظار امر ربكم
اي ميعاده الذي وعدنيه وهو الاربعون ففعلتم ما فعلتم قاله الحسن وقيل معناه تعجلتم
سخط ربكم وقيل معناه اعجلتم واسبقتم بعبادة العجل قبل ان يأتيكم امر ربكم قاله الكلبي وقيل معنى
اعجلتم تركتم والاول اولى وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ التي فيها التوراة اي طرحها لما اعتراه من شدة
الغضب والاسف حين اشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل قال ابن عباس لما
القى موسى الالواح تكسرت فرفعت الا سدسها رفع الله منها ستة اسباعها وبقي سبع وقال
مجاهد لما القاها موسى ذهب التفصيل يعني اخبار الغيب وبقي الهدى يعني ما فيه المواعظ
والاحكام وعن ابن جريج قال كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة وفي زاد المراد
بالقائها انه وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه لا رغبة عنها فلما عاد
اليها اخذها بعينها وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ هارون او بشعر رأسه ولحيته حال كونه يَجُرُّهُ
إِلَيْهِ من شدة غضبه لاهوانا به قال ابن الانباري مد يده الى رأسه لشدة وجده عليه
وفعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري ولا غير ما رآه من عبادة بني اسرائيل للعجل قَالَ
هارون معتذرا منه يا ابْنَ أُمَّ انما قال هذا مع كونه اخاه لابيه وامه لانها كلمة لين ورفق
وعطف ولانها كما قيل كانت مؤمنة وقال الزجاج قيل كان هارون اخا موسى لامه لا لابيه
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي اي اني لم اطق تغيير ما فعلوه لهذين الامرين
استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي مع اني لم آل جهدا في كفهم بالوعظ والانذار فلا تُشْمِتْ

بِيَ الْاَعْدَاۤءَ الشماتة اصلها الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان
بفلان اذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما تنعل بي من المكروه وفي الصحاح
شمت به يشمت من باب سمع اذا فرح بمصيبة نزلت به والاسم الشماتة واشمته الله به العدو
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة
الاعداء وهو الصحيح قيل والمعنى لا تفعل بي ما يكون سببا الشماتة منهم وقال مجاهد ومالك
بن دينار لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي وقال ابن جني والمعنى فلا تشمت بي انت يا رب
وما ابعد هذا المعنى عن الصواب وابعد تاويلها عن وجوه الاعراب وَلَا تَجْعَلْنِيْ مَعَ الْقَوْمِ
الظّٰلِمِيْنَ الذين عبدوا العجل ولا تعتقد اني منهم قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِيْ وَلِاَخِيْ طلب المغفرة له
اولا ولاخيه ثانيا ليزيل عن اخيه ما خافه من الشماتة فكانه تذمم مما فعله باخيه واظهر
انه لا وجه له وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ثم طلب المغفرة لاخيه ان كان
قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الانكار عليهم وتغيير ما وقع منهم وَاَدْخِلْنَا فِيْ
رَحْمَتِكَ التي وسعت كل شيء وَاَنْتَ اَرْحَمُ الرّٰحِمِيْنَ فيه ترغيب في الدعاء لان من هو
ارحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته اِنَّ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ الها عبدوه من دون الله سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ الغضب ما نزل بهم من العقوبة
في الدنيا بقتل انفسهم وما سينزل بهم في الاخرة من العذاب وَذِلَّةٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا الذلة
هي التي ضربها الله عليهم بقوله ضربت عليهم الذلة وقيل هي اخراجهم من ديارهم والاولى
ان يقيد الغضب والذلة بالدنيا لقوله في الحيوة الدنيا وان ذلك مختص بالمتخذين العجل الها
لا لمن بعدهم من ذراريهم ومجرد ما امروا به من قتل انفسهم هو غضب من الله عليهم
وبه يصيرون اذلاء وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم وبه يصيرون اذلاء
واما ما نال ذراريهم من الذل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال ابن عباس وعطية العوفي
فلا يصح تفسير ما في الاية به الا اذا تعذر حمل الاية على المعنى الحقيقي وهو لم يتعذر هنا
وقال ابن جريج ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل و
هذا الذي قاله وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلاف ذلك وَكَذٰلِكَ اي مثل ما

فعلنا بهم ولا وكذلك نجزي المفترين اي نفعل بهم عن ايوب قال هو جزاء كل مفتر يكون الى يوم القيامة
ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا في كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن انس
ما من مبتدع الا وهو يجد فوق راسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله
انتهى ولا افتراء الكذب فمن افترى على الله سيناله غضب وذلة في الحياة الدنيا وان لم يكن
بنفس ما عوقب به هؤلاء بل المراد ما يصدق عليه انه من غضب الله سبحانه وان فيه
ذلة باي نوع كان ولا فرية اعظم من قول السامري هذا الهكم واله موسى والذين عملوا
السيئات اي سيئة كانت حتى الكفر وما دونه ومن جملتها عبادة العجل ثم تابوا من بعدها
اي من بعد عملها وآمنوا بالله ان ربك ايها التائب او يا محمد من بعدها اي من بعد هذه
التوبة او من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله لغفور رحيم
اي كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم وفي الآية دليل على ان السيئات باسرها
صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وان الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته هذا
من اعظم البشائر للمذنبين التائبين ولما سكت وقرئ اسكت عن موسى الغضب اصل
السكوت السكون والامساك عن الشيء يقال جرى الوادي ثلثا ثم سكت اي امسك وسكن
عن الجري قيل هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك
كذا والق الالواح وجر براس اخيك فترك الاغراء وسكت وقيل هذا الكلام فيه قلب و
الاصل سكت موسى عن الغضب كقولهم ادخلت الاصبع الخاتم والخاتم الاصبع وادخلت
القلنسوة راسي وراسي القلنسوة والاول اولى وبه قال اهل اللغة والتفسير وفيه مبالغة
وبلاغة من حيث انه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه حتى
عبر عن سكونه بالسكوت اخذ الالواح التي القاها عند الغضب قال الرازي وظاهر هذا
يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء وفي نسختها فعلة بمعنى مفعولة كالخطبة
والنسخ نقل ما في كتاب الى كتاب آخر ويقال للاصل الذي كان النقل منه نسخة وللمنقول
نسخة ايضا قال القشيري والمعنى اي فيما نسخ من الالواح المتكسرة ونقل الى الالواح الجديدة
وقيل المعنى وفيما نسخ له منها اي من اللوح المحفوظ وقيل المعنى وفيما كتب له فيها فلا يحتاج

إلى الحصل ينقل عنه وهذا كما يقال انسخ ما يقول فلان اي اثبته في كتابك هُدًى اي ما
يهتدون به من الاحكام وَّرَحْمَةٌ اي ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة
الواسعة قال مجاهد ولم يذكر التفصيل ههنا وقال ابن عباس هدى من الضلالة ورحمة
من العذاب لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ صفة لرحمة او لاجلهم واللام في لِرَبِّهِمْ للتقوية
للفعل وقد صرح الكسائي بانها زائدة وقال الاخفش هي لام الاجل وقال المبرد التقدير
للذين هم رهبتهم لربهم يَرْهَبُونَ اي يخافون منه سبحانه وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا
هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم والاختيار افتعال من الخيار
يقال اختار الشيء اذا اخذ خيره وخياره والمعنى اختار من قومه فحذف كلمة من وذلك شائع
في العربية لدلالة الكلام عليه قيل اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين و
سبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل اجر من خرج فقعد يوشع
بن نون وكالب بن يوقنا وذهب مع الباقون وروي انه لم يصب الا ستين شيخا فاوحى الله
اليه ان يختار من الشبان عشرة فاختارهم فاصبحوا شيوخا فامرهم ان يصوموا ويطهروا
ثيابهم ثم خرج بهم الى طور سينا ذكره الخطيب وقيل غير ذلك لِّمِيقَاتِنَا اي الوقت
الذي وقتناه له بعد ان وقع من قومه ما وقع والميقات الكلام الذي تقدم ذكره لان الله
امره ان ياتي الى الطور في ناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه سبحانه من عبادة العجل
كذا قيل وقال مجاهد المعنى لتمام الموعد وقيل هذا الميقات غير ميقات الكلام السابق في قوله
وواعدنا موسى فهذا بعد ميقات الكلام ولم يبينوا امره هذا وقال ابن عباس امره الله ان يختار
سبعين رجلا فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا الله ان قالوا اللهم اعطنا
ما لم تعط احدا من قبلنا ولا تعطه احدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فاخذتهم الرجفة
كما قال فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ هي في اللغة الزلزلة الشديدة قيل انهم زلزلوا حتى ماتوا يوما وليلة
وقال وهب لم تكن موتا ولكن اخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت ان تبين مفاصلهم
ومعظم الروايات انهم ماتوا قال مجاهد ماتوا ثم احياهم الله تعالى وسبب اخذ الرجفة لهم ما حكى
الله عنهم من قولهم واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة

على ما تقدم في البقرة وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة بل أخذتهم الرجفة بسبب
عدم انتهائهم عن عبادة العجل وقيل إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه
عن عبادته فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم قال رب
لو شئت أهلكتهم من قبل المعنى لو شئت أهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل
هذا الوقت وقال ذلك اعترافا منه عليه السلام بالذنب وتلهفا على ما فرط من قومه وإياي معهم و
ذلك انه خاف ان يتهمه بنو اسرائيل على السبعين ولم يصدقوا بانهم ماتوا أتهلكنا بما فعل
السفهاء منا الاستفهام للجحد اي لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله والمقصود
منه الاستعطاف والتضرع قاله ابن الانباري وقيل معناه الدعاء والطلب اي لا تهلكنا قاله
المبرد وقيل قد علم موسى انه لا يهلك احد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم
فانهم عبادك وقيل المراد بالسفهاء السبعون والمعنى اتهلك بني اسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء
في قولهم أرنا الله جهرة وقيل المراد بهم السامري واصحابه إن هي قال الواحدي الكناية في هي تعود
الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت وتمتحن بها من اردت ولعله
عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه إنا قد فتنا قومك من بعدك قال ابو العالية بليتك
وقال ابن عباس مشيئتك تضل بها اي بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدي بها من
تشاء منهم ومثله ليبلوكم ايكم احسن عملا قال الواحدي وهذه الآية من الحجج الظاهرة
على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر ثم رجع الى الاستعطاف والدعاء فقال أنت ولينا
اي المتولي لامورنا وهذا يفيد الحصر اي لا ناصر ولا حافظ الا انت فاغفر لنا ما اخذناه
وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء وأنت خير الغافرين للذنوب واكتب لنا في هذه
الدنيا حسنة بتوفيقنا للاعمال الصالحة او تفضل علينا بافاضة النعم من الحياة الطيبة
والعافية وسعة الرزق واكتب لنا في الآخرة الجنة بما جازينا به او بما تتفضل به علينا
من النعيم في الآخرة إنا هدنا تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة في الدنيا
وفي الآخرة اي انا تبنا اليك ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني اسرائيل والهود التوبة
وقد تقدم في البقرة وبه قال جميع المفسرين قيل وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل

نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم وهو لازم لهم واصل الهود الرجوع برفق والمهادنة المصالحة
قال عكرمة فكتب الرحمة يومئذ لهذه الامة وقال ابو وجزة السعدي وكان من اعلم الناس
بالعربية لا والله ما اعلمها في كلام العرب هدنا قيل فكيف قال هِدنا بكسر الهاء يقول ملنا
قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ قيل المراد بالعذاب هنا الرجفة وقيل امره سبحانه لهم
بان يقتلوا انفسهم اي ليس هذا اليك يا موسى بل ما شئت كان وما لم اشأ لم يكن والظاهر
ان العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا اولياً
قيل المراد من اشاء من المستحقين للعذاب او من اشاء ان اضله واسلبه التوفيق ليس
لاحد علي اعتراض لان الكل ملكي وعبيدي وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ من المكلفين وغيرهم
قيل هذا من العام الذي اريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة
في الآخرة قاله الحسن وقتادة وقال جمع من المفسرين لما نزلت هذه الآية تطاول ابليس اليها
قال وانا من ذلك الشيء فنزعها الله من ابليس قاله السدي وابن جريج وعن قتادة نحوه
فقال فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الذنوب او الشرك قاله ابن عباس وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ المفروضة
عليهم وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ اي يصدقون ويذعنون لها فايس ابليس وقالت اليهود
نحن نتقي ونؤتي الزكوة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود واثبتها لهذه الامة و
اخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان لله
مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على اولادها واخر تسعة وتسعين
الى يوم القيامة وعن ابن عباس قال سأل موسى ربه مسألة فاعطاها محمدا صلعم واعطى محمدا
صلعم كل شيء سأل موسى عليه الصلوة والسلام ربه في هذه الآية ثم بين سبحانه هؤلاء الذين
كتب لهم هذه الرحمة ببيان اوضح مما قبله واصرح فقال ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ قال الرازي هم من
بني اسرائيل خاصة وقال الجمهور هم جميع الامة سواء كانوا منهم او من غيرهم ٱلرَّسُولَ
ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ هو محمد صلعم باجماع المفسرين خرجت اليهود والنصارى وسائر الملل والامي
اما نسبة الى الامة الامية التي لا تكتب ولا تحسب ولا تقرأ وهم العرب قاله الزجاج او نسبة الى
الام والمعنى انه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب وقيل نسبة الى ام القرى

وهي مكة والاول اولى وكونه اميا من اكبر معجزاته واعظمها قال السيد الغبريني المغربي شارح البردة ان كونه اميا معجزة له كما قرره حتى لا يرتاب احد في كلام الله يرد عليه انه لو تحدى قيل عليه لو خلق افصح الناس ولو يخلق غير فصيح حتى يعلموا ان ما يتلوه من الكلام المعجز بلاغته ليس كلامه قال الشهاب في الريحانة قوله هذا ليس بشيء لان الامية سابقة في اكثر فصحاء العرب وهم في غناء عن الكتابة واما عدم الفصاحة فلكنة وعيب عظيم منزه عنه عالي مقامه وظاهر فطرته ونحو هو جبلته وهذا البحث مما لا نراه في غير كتابنا هذا الذي يجدونه يعني اليهود والنصارى اي يجدون نعته مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وهما مرجعهم في الدين وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الانجيل فهو من باب الاخبار بما سيكون اخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرني عن صفة رسول الله صلعم قال اجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القران يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا وروي نحو هذا مع اختلاف في بعض الالفاظ وزيادة ونقص في بعض عن جماعة وذكر الخليلي في تاريخه ان لفظ محمد مذكور في التوراة باللغة السريانية بلفظ المنحمنا ومعنى هذا اللفظ في تلك اللغة هو معنى لفظ محمد وهو الذي يحمده الناس كثيرا وذكروا ان لفظ احمد مذكور في الانجيل بهذا اللفظ العربي الذي هو احمد يامرهم بالمعروف اي بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الاشياء التي هي من مكارم الاخلاق وينهاهم عن المنكر اي عما تنكره القلوب ولا تعرفه وهو ما كان من مساوى الاخلاق قال عطاء يامرهم بخلع الانداد وصلة الارحام وينهاهم عن عبادة الاصنام وقطع الارحام ويحل لهم الطيبات اي المستلذات التي تستطيبها الانفس وقيل ما حرم عليهم من الاشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم من لحوم الابل وشحوم الغنم والمعز والبقر وقيل ما كانوا يحرمونه على انفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل

والحوامي ويحرم عليهم الخبائث اي المستخبثات كالحشرات والخنازير وقال ابن عباس
يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع او تستقذره النفس فان
الاصل في المضار الحرمة الا ما له دليل متصل بالحل ويضع عنهم اصرهم الاصر الثقل
اي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة او العهد الذي اخذ عليهم ان يعملوا بما في التورية
من الاحكام وقد تقدم بيانه في البقرة والاغلال التي كانت عليهم الاغلال مستعارة
للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة
وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم اخذ الدية
وترك العمل في السبت وان صلاتهم لا تجوز الا في الكنائس الى غير ذلك فالذين آمنوا به
اي بمحمد صلعم واتبعوه فيما جاء به من الشرائع وعزروه اي عظموه ووقروه قاله الاخفش و
قيل معناه منعوه من عدوه واصل العزر المنع ونصروه اي قاموا بنصره على من يعاديه
واتبعوا النور الذي انزل معه اي القرآن الذي انزل عليه مع نبوته وقيل المعنى واتبعوا
القرآن المنزل اليه مع اتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهى عنه او اتبعوا القرآن مصاحبين
له في اتباعه أولئك اشارة الى المتصفين بهذه الاوصاف هم المفلحون اي الناجون الفائزون ع
بالخير والفلاح والهداية لا غيرهم من الامم قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا
لما تقدم ذكر اوصاف رسول الله صلعم المكتوبة في التورية والانجيل امره سبحانه ان يقول
هذا القول المقتضي لعموم رسالته الى الناس والجن جميعا لا كما كان غيره من الرسل عليهم
السلام فانهم كانوا يبعثون الى قومهم خاصة قال ابن عباس بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم
الى الاسود والاحمر والاحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها
الذي له ملك السموات والارض ملكا وعبيدا وتصرفا وقوله لا اله الا هو بدل من الصلة
مقرر لمضمونها مبين لها لان من ملك السموات والارض وما فيهما هو الاله على الحقيقة وهكذا
من كان يحيي ويميت هو المستحق لتفرده بالربوبية ونفي الشركاء عنه والجملة سيقت لبيان
اختصاصه بالالهية لانه لا يقدر على الاحياء والاماتة غيره قاله الزمخشري وذكره السمين
فلذا قال فآمنوا بالله ورسوله الامر بالايمان بالله ورسوله متفرع على ما قبله وفي العدول عن المضمر الى

الاسم الظاهر بلاغة النبي الأمي هما وصفان لرسوله وكذلك الذي يؤمن بالله وكلماته وصف له والمراد بالكلمات ما انزله الله عليه وعلى الانبياء من قبله او اياته او عيسى قاله مجاهد والسدي او القرآن فقط قاله قتادة والعموم اولى وجملة واتبعوه معطوفة بجملة فآمنوا به والاتباع يعم الاقوال والافعال والاعتقاد والاعمال لعلكم تهتدون علة للامر بالايمان والاتباع ومن قوم موسى أمة لما قص الله سبحانه علينا ما وقع من السامري واصحابه وما حصل من بني اسرائيل من التزلزل في الدين قص علينا سبحانه ان من قومه امة مخالفة لاولئك الذين تقدم ذكرهم ووصفهم بانهم يهدون اي يدعون الناس الى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق او يهتدون به ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون اليه وبه يعدلون بين الناس في الحكم اي بالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وبه يتصفون واختلفوا في هؤلاء فقيل هم القوم الذين بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس اليه وقال الكلبي والضحاك والربيع هم قوم خلف الصين باقصى الشرق على نهر يسمى نهر الاردن ليس لاحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون في النهار ويزرعون ولا يصل اليهم احد منا وهم على الحق الى آخر القصة وما ابعدها عن الصحة واقربها الى الوضع وقد ابتلي بذكرها جمع من المفسرين الذين ليس لهم معرفة بعلم الحديث وقيل هم الذين آمنوا بمحمد صلعم والقرآن واخرج الفريابي وابن ابي حاتم عن ابن عباس قال موسى يا رب اجد امة اناجيلهم في قلوبهم قال تلك امة تكون بعدك امة احمد قال يا رب اجد امة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن قال تلك امة تكون بعدك امة احمد قال يا رب اجد امة يعطون صدقات اموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون قال تلك امة بعدك امة احمد قال يا رب اجعلني من امة احمد صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله كهيئة المرضية لموسى ومن قوم موسى امة الآية وقطعناهم الضمير يرجع الى قوم موسى المتقدم ذكرهم لا الى هؤلاء الامة منهم الذين يهدون بالحق والمعنى صيرناهم اثنتي عشرة اسباطا اي قطعا متفرقة وفرقناهم معدودين بهذا العدد وميزنا بعضهم من بعض وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي انعم بها على بني اسرائيل انه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا اسباطا كل سبط معروف على

انفرادة لكل سبط نقيب كما في قوله تعالى وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا والاسباط جمع سبط وهو ولد الولد صار واثني عشر امة من اثني عشر ولدا واراد بالاسباط القبائل ولهذا انث العدد والمراد اولاد يعقوب كان يعقوب هو اسرائيل واولاده الاسباط وقد تقدم تحقيق معنى الاسباط في البقرة وسماهم اُمَمًا لان كل سبط كان جماعة كثيرة العدد وكانوا مختلفي الاراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر واخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ عن علي بن ابي طالب قال افترقت بنو اسرائيل بعد موسى احدى وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة ولتفترق هذه الامة على ثلث وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة فاما اليهود فان الله يقول ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون فهذه التي تنجو واما النصارى فان الله يقول منهم امة مقتصدة فهذه التي تنجو واما نحن فيقول وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون فهذه التي تنجو من هذه الامة وقد قدمنا ان زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ اي وقت استسقائهم له لما اصابهم العطش في التيه أَنِ تفسيرية لفعل الايحاء اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ الذي فر بثوبه فضربه فَانبَجَسَتْ من الانبجاس اي فانفجرت وقيل عرقت مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا بعدد الاسباط لكل سبط عين يشربون منها قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ اسم جمع واحده انسان وقيل جمع تكسير له والانسان اسم جنس يقع على المذكر والانثى والواحد والجمع والاناس بالضم مشتق من الانس وقد تحذف همزته تخفيفا على غير قياس فيصير ناسا مَّشْرَبَهُمْ والمعنى علم كل سبط منهم بالعلم الضروري الذي خلقه الله في كل العين المختصة به التي يشرب منها لا يدخل سبط على سبط في مشربهم وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الاعادة وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ اي جعلناه ظللا عليهم في التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم ويقيهم حر الشمس وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ في التيه الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ اي الترنجبين والسماني طعاما لهم وقيل السلوى جنس من الطير وقد تقدم تحقيقه في البقرة كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ اي وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم وَمَا ظَلَمُونَا بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها

وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ اي كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم لايتجاوزهم الى غيرهم وَإِذْ قِيلَ اي اذكر وقت ان قيل لَهُمُ هذا القول وهو اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ اي بيت المقدس او اريحاء وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه وفي البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لان كل ساكن في موضع لابد له من الدخول اليه وَكُلُوا مِنْهَا اي من المأكولات الموجودة فيها من الثمار والزروع والحبوب والبقول حَيْثُ شِئْتُمْ اي في اي مكان من امكنتها لا مانع لكم من الاكل فيه وقال في البقرة فكلوا بالفاء لان الدخول حالة مقتضية للاكل عقبه فحسن دخول الفاء للتعقيب وفي السكنى حالة استمرار والاكل حاصل متى شاؤا ولم يقل رغدا هنا كما قال في البقرة لان الاكل عقب الدخول الذ والكمل ومع السكنى ليس كذلك وَقُولُوا حِطَّةٌ اي حط عنا ذنوبنا وقد تقدم تفسيرها في البقرة وَادْخُلُوا الْبَابَ اي باب القرية المتقدمة حال كونكم سُجَّدًا امروا بان يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين فلا يقال كيف قدم الامر بالقول هنا على الدخول واخره في البقرة وقد تقدم معنى السجود الذي امروا به نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ اي ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وانما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لان المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة او كثيرة اذا اتوا بالدعاء والتضرع سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ على المغفرة للخطايا بما نتفضل به عليهم من النعم وقال في البقرة وسنزيد بالواو ولان هنا استينافا على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ يعني امروا ان يقولوا حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم ودخلوا يزحفون على استاههم ادبارهم وقد تقدم بيان ذلك في البقرة لكن الفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في سورة البقرة من وجوه ثمانية ذكرها الخطيب وقد اشرنا اليها فيما تقدم فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ اي عذابا كائنا منها وهو الطاعون ومات به منهم في وقت واحد سبعون الفا وقال في البقرة انزلنا ولا منافاة بينهما لانهما لايكونان الا من علو الى اسفل بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ اي بسبب ظلمهم وقال في البقرة بما كانوا يفسقون ربع
والجمع بينهما انهم لما ظلموا انفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى

واذكر اذ قيل لهم واسألهم عن القرية هذا سؤال تقريع وتوبيخ والمراد من سؤال القرية
سؤال اهلها اي اسألهم عن هذه الحادثة التي حدثت لهم فيها المخالفة لما امرهم الله به و
في ضمن هذا السؤال فائدة جليلة وهي تعريف اليهود بان ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم وان اطلاعه عليه لا يكون الا باخبار له من الله سبحانه فيكون دليلا على صدقه
واختلف اهل التفسير اي قرية هي فقيل ايلة قاله علي وقيل مدين وقيل ايليا وقيل
قرية بين مصر والمدينة والمغرب قاله ابن عباس وقيل بين مدين والطور على شاطئ
البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وقال وهب هي ما بين مدين وعيونى وقيل قرية
من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر اي التي كانت بقرب بحر القلزم يقال كنت بحضرة
الدار اي بقربها والمعنى سل يا نبي صلعم هؤلاء اليهود الموجودين الذين هم جيرانك عن
قصة اهل القرية المذكورة اذ يعدون اي يتجاوزون حدود الله بالصيد وقرئ بتشديد
الدال من الاعداد للآلة في يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه
والسبت هو اليوم المعروف واصله السكون يقال سبت اذا سكن وسبت اليهود تركوا
العمل في سبتهم والجمع اسبت وسبوت واسبات اذ تأتيهم حيتانهم جمع حوت اضيفت
اليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الاتيان يوم سبتهم دون
ما عداه قال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا شرعا جمع شارع اي ظاهرة
على الماء قريبا من الساحل وقيل رافعة رؤوسها وقيل انها كانت تشرع على ابوابهم كالكباش
البيض قال في الكشاف يقال شرع علينا فلان اذا دنا واشرف علينا وشرعت على فلان
في بيته فرأيته يفعل كذا انتهى ويوم لا يسبتون اي لا يفعلون ولا يراعون امر السبت
وذلك عند خروج يوم السبت والمعنى لا يسبتون لا مراعاة لا تأتيهم الحيتان كما كانت
تأتيهم في يوم السبت كذلك اي مثل ذلك البلاء العظيم والاختبار الشديد نبلوهم
بما كانوا يفسقون اي بسبب فسقهم واذ قالت امة منهم اي جماعة من صلحاء اهل
القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين ايسوا من قبولهم للموعظة
واقلاعهم عن المعصية لم تعظون قوما الله مهلكهم اي مستاصلهم بالعقوبة

أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية وقيل ان الجماعة
القائلة لم تعظون قوما هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت قالوا ذلك للواعظين
لهم حين وعظوهم والمعنى اذا علمتم ان الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا قَالُوا اي قال الواعظون
للجماعة القائلين لهم لم تعظون وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الاول او الفاعلون
على الثاني اي فعلنا ذلك مَعْذِرَةً اي لاجل المعذرة او موعظتنا معذرة على قراءة الرفع إِلَىٰ رَبِّكُمْ حتى لا نواخذ
بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين اوجبهما علينا ولرجاء ان يتعظوا فيتقوا ويقلعوا
عما هم فيه من المعصية قال جمهور المفسرين ان بني اسرائيل افترقت ثلث فرق فرقة عصت
وصادت وكانت نحو سبعين الفا وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص وفرقة اعتزلت ونهت
ولم تعص فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية لم تعظون قوما يريدون
الفرقة العاصية الله مهلكهم او معذبهم قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة
الله من اهلاك العصاة او تعذيبهم من دون استيصال بالهلاك فقالت الناهية موعظتنا
معذرة الى الله وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية وعاصية لقال
لعلكم تتقون فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اي لما ترك العصاة من اهل القرية ما ذكرهم به
الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الاعراض أَنجَيْنَا
الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ اي الذين فعلوا النهي ولم يتركوه وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وهم العصاة
المعتدون في السبت بِعَذَابٍ بَئِيسٍ اي شديد وجيع من بؤس الشيء يباس بأسا اذا اشتد
وفيه احدى عشرة قراءة للسبعة وغيرهم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ اي بسبب فسقهم واعتدائهم
وخروجهم عن طاعتنا قال ابن عباس نجت الفرقة الساكتة وقال يمان بن رباب نجت
الطائفتان واهلك الذين اخذوا الحيتان وبه قال الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية و
هلكت الفرقتان وهذه الآية اشد آية في ترك النهي عن المنكر فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ
اي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه وابوا ان يرجعوا عنها تمردا وتكبرا قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا
اي امرناهم امرا تكوينيا لا امرا قوليا يعني مسخناهم قِرَدَةً قيل انه سبحانه عذبهم اولا بسبب
المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم الله قردة وقيل ان قوله فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا لما ذكروا به

للتأكيد والتقرير وان المسخ هو العذاب البئيس خاسئين الخاسي الصاغر الذليل والمباعد المطرود يقال خسأته فخسأ اي باعدته فتباعد قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء قيل صار شبان القوم قردة والشيخة خنازير وبقوا ثلثة ايام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا واعلم ان ظاهر النظم القرآني هو انه لم ينج من العذاب الا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله انجينا الذين ينهون عن السوء وانه لم يعذب بالمسخ الا الطائفة العاصية لقوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين فان كان الطوائف منهم ثلثا كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل انها ممسوخة مع الطائفة العاصية لانها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر ويحتمل انهم لم تمسخ لانها وان كانت ظالمة لنفسها عاتية عن امر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة وهي صيد الحوت في يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد واما اذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالثانية فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ وانما جعلت طائفة مستقلة لانها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الاخرى من الناهين المعتزلين واذ تأذن ربك اي واسألهم وقت تأذن ربك تأذن تفعل من الايذان وهو الاعلام قال ابو علي الفارسي آذن بالمد اعلم واذن بالتشديد نادى وقال قوم كلاهما بمعنى اعلم كما يقال ايقن وتيقن وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل الى ربك وقال الزمخشري عزم ربك وقيل معناه حتم واوجب والمعنى واسألهم وقت ان وقع الاعلام لهم من ربك وقيل في هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك اجيب بما يجاب به القسم حيث قال ليبعثن اي ليرسلن عليهم ويسلطن كقوله بعثنا عليهم عبادا لنا اولي بأس شديد الى يوم القيامة غاية لقوله من يسومهم يذيقهم سوء العذاب مما يبعثه الله عليهم وقد كانوا اقماهم الله هكذا اذلاء مستضعفين معذبين بايدي اهل الملل وهكذا هم في هذه الملة الاسلامية في كل قطر من اقطار الارض في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار يسلمون الجزية بحقن دمائهم ويمتهنهم المسلمون فيما فيه خسة من الاعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار وعن ابن عباس قال يسومهم

محمد صلى الله عليه وآله وسلم وامته يسومونهم العذاب الى يوم القيامة قيل هو بختنصر وسنحاريب وملوك الروم وهذا نص في بيان ان العذاب انما يحصل لهم مستمرا الى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالاهانة والذلة واخذ الجزية منهم فاذا افضوا الى الآخرة كان عذابهم اشد واعظم ثم علل ذلك بقوله إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ لمن اقام على الكفر بما عجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ اي كثير الغفران والرحمة لمن آمن منهم ودخل في دين الاسلام وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا اي فرقناهم في جوانبها او شتتنا امرهم فلم تجتمع لهم كلمة قال ابن عباس هم اليهود بسطهم الله في الارض فليس فيها بقعة الا وفيها عصابة منهم وطائفة وقيل المعنى وجعلنا كل فرقة منهم في قطر بحيث لا تخلو ناحية من الارض منهم حتى لا تكون لهم شوكة قاله ابو السعود فلا توجد بلدة كلها يهود ولا لهم قلعة ولا سلطان بل هم متفرقون في كل الاماكن مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ قيل هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل قال الطبري وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ويدل له قوله الآتي فخلف من بعدهم خلف وقيل هم الذين سكنوا وراء الصين ولا يصح كما تقدم بيانه وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ اي دون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الاولى وهو الصلاح والتقدير ومنهم اناس او قوم دون ذلك والمراد بهؤلاء من لم يؤمن بل انهمك في المخالفة لما امره الله به وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ اي امتحناهم جميعا الصالح وغيره بالخير والشر قال ابن عباس الحسنات الرخاء والعافية والسيئات البلاء والعقوبة او الخصب والجدب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ اي رجاء ان يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ المراد بهم اولاد الذين قطعهم الله في الارض قال ابو حاتم الخلف بسكون اللام الاولاد الواحد والجمع سواء والخلف بفتح اللام البدل ولدا كان او غيره وقال ابن الاعرابي الخلف بالفتح الصالح وبالسكون الطالح ومنه قيل للردي من الكلام خلف بالسكون وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله وَرِثُوا الْكِتَابَ اي التوراة من اسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها والمراد بارثه انتقاله اليهم ووقوعه في ايديهم يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى اخبر الله عنهم بانهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع

الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم والعرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر
يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والأدنى
مأخوذ من الدنو وهو القرب أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا يتعجلون
مصالحها بالرشا وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله وتهوينهم
للعمل بأحكام التوراة وكتمهم لما يكتمونه منها وقيل إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط
أي إنهم يأخذون عرض الشيء الدني الساقط التافه الخسيس الحقير والمعنى متقارب
لأن الدنيا بأسرها حقيرة فانية والراغب فيها أحقر منها وعن ابن عباس أنه سئل
عن هذه الآية فقال أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن ويقولون
سيغفر لنا ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه وقال مجاهد هم النصارى يأخذون عرض
هذا الأدنى ما أشرف لهم شيء من الدنيا حلالا أو حراما يشتهونه أخذوه ويتمنون المغفرة وإن
يجدوا مثله يأخذوه كما سيأتي **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** أي يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم
في الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق ويتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة والمراد بهذا
الكلام التقريع والتوبيخ لهم عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال
الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الأماني أخرجه الترمذي وكان اليهود يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا
هو التمني بعينه والحال إنهم **إِنْ يَأْتِهِمْ** كما يؤخذ من الكشاف وقال السفاقسي إنه
مستأنف **عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** أي مثل الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة
ولا خائفين من التبعة وقيل الضمير في يأتهم ليهود المدينة أي وإن يأت هؤلاء اليهود الذين
هم في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرض مثل العرض الذي كان تأخذه أسلافهم
أخذوه كما أخذه أسلافهم **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ** أي على هؤلاء المرتشين في أحكامهم والاستفهام
للتقريع والتوبيخ أو للتقرير والمعنى أخذ عليهم الميثاق لأن القصد منه إثبات ما بعد النفي
مِيثَاقُ الْكِتَابِ أي التوراة **أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم
التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها قاله ابن عباس والحال أنهم قد درسوا ما فيه

اي الكتاب وعلموه ولم يأتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل وذلك اشد
ذنبا واعظم جرما وقرئ ادّارسوا ومعناه محوه بترك العمل به والفهم له من قولهم درست الريح
الآثار اذا امحتها وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ من ذلك العرض الذي اخذوه وآثروه عليها وارتشوا
في الاحكام لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الله ويخافون عقابه ويجتنبون معاصيه أَفَلَا تَعْقِلُونَ فتعلمون
هذا او تفهمونه وفي هذا من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
قرأ الجمهور بالتشديد من مسّك وتمسك اي استمسكوا بالكتاب وهو التورية وقرئ
بالتخفيف من امسك يمسك والمعنى ان طائفة من اهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب
ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم وطائفة يتمسكون
بالكتاب اي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون اليه في امر دينهم فهم المحسنون الذين
لا يضيع اجرهم عند الله وقال عطاء هم امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
اي داموا على اقامتها في مواقيتها قال الحسن هي لاهل الايمان منهم كعبد الله بن سلام
واصحابه وقال مجاهد هي لليهود والنصارى وانما وقع التنصيص على الصلوة مع كونها
داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة لانها راس العبادات واعظمها
وعماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر وكان ذلك وجها لتخصيصها بالذكر وقيل
لانها تقام في اوقات مخصوصة والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا وفيه نظر فان كل
عبادة في الغالب تختص بوقت معين إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ الجملة خبر الذين وفيه وضع
الظاهر موضع المضمر وَإِذْ اي اسأ لهم اذ والغرض من هذا الزام اليهود والرد عليهم في قولهم
ان بني اسرائيل لم يصدر منهم مخالفة في الحق نَتَقْنَا النتق اختلفت فيه عبارات اهل
اللغة فقال ابو عبيدة هو قلع الشيء من موضعه والرمي به ومنه نتق ما في الجراب اذا
نفضه فرمى ما فيه وامرأة ناتق ومنتاق اذا كانت كثيرة الولادة وفي الحديث عليكم
بزواج الابكار فانهن انتق ارحاما واطيب افواها وارضى باليسير وقيل النتق الجذب
بشدة ومنه نتقت السقاء اذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فمه وقال الفراء هو الرفع
وقال ابن قتيبة هو الزعزعة وبه فسر مجاهد وكل هذه معان متقاربة اي رفعنا الجبل

من اصله وهو الطور الذي سمع موسى عليه كلام ربه واعطي الالواح وقيل هو جبل من
جبال فلسطين وقيل هو الجبل عند بيت المقدس وكان ارتفاعه على قدر قامتهم فكان
محاذيا لرؤسهم كالسقيفة فوقهم كأنه ظلة لارتفاعه ظلة هي سحابة تظلهم وهي اسم
لكل ما اظل وقال البيضاوي كانه سقيفة وهي كل ما اظلك وقرئ طلة بالطاء من اطل
عليه اذا اشرف وظنوا قيل الظن هنا بمعنى العلم وقيل هو على بابه انه اي الجبل واقع بهم
اي ساقط عليهم خذوا اي قلنا لهم خذوا ما اتيناكم بقوة هي الجد والعزيمة اي اخذا
كائنا بقوة واجتهاد قال ابن عباس اي خذوا ما اتيناكم والا ارسلته عليكم ورفعته
الملائكة فوق رؤسهم فكانوا اذا نظروا الى الجبل قالوا سمعنا واطعنا واذا نظروا الى الكتاب
قالوا سمعنا وعصينا وعنه قال اني لاعلم لم يسجد اليهود الا على حرف قال الله واذ نتقنا
الجبل قال لتاخذن امري او لارمينكم به فسجدوا وهم ينظرون اليه مخافة ان يسقط
عليهم وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة وقال قتادة في الاية انتزعه الله
من اصله ثم جعله فوق رؤسهم فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الايسر وجعل ينظر
بعينه اليمنى الى الجبل خوفا ان يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود الا على شق وجوههم
الايسر واذكروا ما فيه من الاحكام التي شرعها الله لكم ولا تنسوها لعلكم تتقون اي
رجاء ان تتقوا ما نهيتم عنه وتعملوا بما امرتم به وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة
مستوفى فلا نعيده واذ اخذ ربك من بني ادم وكذا من ادم فالاخذ منه لازم للاخذ
منهم لان الاخذ منهم بعد الاخذ منه ففي الاية الاكتفاء باللازم عن الملزوم من ظهورهم
بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار قاله الكواشي والذي في الكشاف انه بدل بعض من
كل قال الحلبي وهو الظاهر وايثار الاخذ على الاخراج للاعتناء بشان الماخوذ لما فيه من
الانباء عن اختيار الاصطفاء وهو السبب في اسناده الى الرب بطريق الالتفات مع ما
فيه من التمهيد للاستفهام الاتي واضافته الى ضميره عليه السلام للتشريف ذريتهم
هي تقع على الواحد والجمع واستدل بهذا على ان المراد بالماخوذين هنا هم ذرية بني ادم
اخرجهم الله من اصلابهم نسلا بعد نسل على نحو ما يتوالد الابناء من الاباء فلذلك

قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم لما علم انهم كلهم بنوا آدم وقد ذهب الى هذا
جماعة من المفسرين وقالوا معنى وأشهدكم على أنفسهم دلهم بخلقه على انه خالقهم
فقامت هذه الدلالة مقام الاشهاد فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في
قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين وقيل المعنى ان الله سبحانه
اخرج الارواح قبل خلق الاجساد وانه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه
وقيل المراد ببني آدم هنا آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع والمعنى ان الله سبحانه لما
خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته واخذ عليهم العهد وهؤلاء هم عالم الذر
وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير الى غيره لثبوته مرفوعا الى النبي صلى
الله عليه وآله وسلم وموقوفا على غير واحد من الصحابة ولا ملجئ للمصير الى المجاز واذا جاء نهر
الله بطل نهر معقل وقد ذكر البيضاوي القولين والحق ما ذكرناه وقد اخرج مالك
في الموطأ واحمد في المسند وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابو داود والترمذي وحسنه
والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن حبان في صحيحه وابو الشيخ والحاكم
وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات والضياء في المختارة عن مسلم بن يسار
الجهني ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم يسأل عنها فقال ان الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال
خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت
هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال ان الله
اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة
فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال
اهل النار فيدخله النار ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وذكر الطبري في بعض طرق
هذا الحديث بين مسلم بن يسار وعمر نعيم بن ربيعة واختلف الناس في كيفية الاستخراج على
اقوال لا مستند لها والحق وجوب اعتقاد اخراجها من ظهر آدم كما شاء الله تعالى كما ورد في
الصحيح قال المقبلي في الابحاث ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الاحاديث والروايات

الواردة في ذلك وقال بعضهم الظاهر انه استخرجهم احياء لانه سماهم ذرية والذرية هم الاحياء لقوله انا حملنا ذريتهم في الفلك قال ابن عباس ان اول ما اهبط الله آدم الى الارض اهبطه بدهناء ارض الهند فمسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم اخذ عليهم الميثاق واشهدهم على انفسهم اي اشهد كل واحد منهم ألست بربكم اي قائلا هذا فهو على ارادة القول وفي هذه الآية رد على اهل المعاني في قولهم ان الاغراق غير مقبول ما لم يقارن كاد ونحوه هذا مما شهد به الذوق السليم وزكى شهادته الطبع المستقيم قال الشهاب في الريحانة وهذا وان سلمه علماء المعاني والبيان الا انه محتاج الى الايضاح والبيان فانه يعترض عليه بما يعارضه ويكدره وورود ما يناقضه كقوله عز وجل هذا فانه بمعناه اذا اخراج الذرية من الظهور قبل الخلق والظهور واخذ المواثيق والعهود مما يقتضي الترغيب والترهيب وهذا على سبيل التحقيق دون التخييل والتقدير وقد ذكر هذا في حديث الصحيحين المعلوم عند علماء الحديث ولهم فيه طريقان مشهوران وهو مما خفي على كثير من العلماء ولهم فيه كلام محتاج للايضاح فاقول لعلماء التفسير فيه طريقان الاول انه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وعلى هذا لا يبقى فيه اشكال ولا للبحث عنه مجال الثاني ان له معنى جليلا قام عليه اقوى برهان ودليل فمنهم من ذهب الى انه استعارة وتمثيل نزل فيه وضوح الادلة القائمة على توحيده تعالى وصحة احكام الشريعة المركوزة في الفطرة السليمة منزلة بروزهم في الخارج واخذ العهود منزلة اتباع ما ذكر وتسليمه والعمل بمقتضاه فلا يرد عليه شيء مما ذكر ونحن نقول ان الامر الذي وقع فيه المبالغة لا يخلو اما ان يقع بعد زمان بعيد كالساعة او لا يقع وهو اما محال متعذر الوقوع لذاته ومشابه او لا الاول مقبول لتنزيل المحقق الوقوع منزلة الواقع وكذا الثاني لامكان ان يراد مجازا او كناية والاخير هو محل الكلام والذي عليه اهل المعاني انه مردود ما لم يقترن به مسوغ مثل كاد ونحوها والآية ليست من هذا القبيل لاسنادها الى الله الذي ابرز المعدومات من ارحام العدم ولا يقتضي قدرته شيء في القدم فما علينا الا الايمان بذلك وما لم تصل له افهامنا نكله اليه ونسأله ان يهدينا للوقوف عليه وكفى هذا الاحتمال في مثل هذه الحال وما بعده

الهدى الى الضلال انتهى قالوا بلى شهدنا اي على انفسنا بانك ربنا واختلفوا في الاجابة هذه
كيف كانت هل كانوا احياء فاجابوا بلسان المقال ام اجابوه بلسان الحال والظاهر الاول
ونكل علم كيفيتها الى الله سبحانه وكان هذا القول على وفق السؤال لانه تعالى سألهم عن
ربوبيته ولم يسألهم عن الهيتهم فقالوا بلى فلما انتهوا الى زمان التكليف وظهر ما قضاه الله في
سابق علمه لكل احد منهم من وافق ومنهم من خالف قاله ابو طاهر القزويني وقيل تجلى
للكفار بالهيبة وللمؤمنين بالرحمة فقال كلهم بلى قيل وكان ذلك قبل دخول الجنة بين
مكة والطائف قاله الكلبي وقيل بعد الهبوط منها وقال علي في الجنة وقيل بسرانديب من
ارض الهند وهو الموضع الذي هبط ادم فيه من الجنة وكل ذلك محتمل ولا يضرنا الجهل
بالمكان بعد صحة الاعتقاد باخذ العهد والله اعلم اخرج احمد والنسائي وابن جرير والحاكم
وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال
ان الله اخذ الميثاق من ظهر ادم بنعمان يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها
فنثرها بين يديه ثم كلمهم فقال الست بربكم الى قوله المبطلون واسناده لا مطعن فيه واخرج
عبد بن حميد والحكيم الترمذي والطبراني وابو الشيخ عن ابي امامة ان رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم قال لما خلق الله الخلق وقضى القضية واخذ ميثاق النبيين وعرشه على
الماء فاخذ اهل اليمين بيمينه واخذ اهل الشمال بيده الاخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فقال
يا اصحاب اليمين فاستجابوا اليه فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال الست بربكم قالوا بلى الحديث
والاحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية وبعضها مطلق يشتمل على
ذكر اخراج ذرية ادم من ظهره واخذ العهد عليهم كما في حديث انس مرفوعا في الصحيحين وغيرهما واما المروي عن الصحابة
في تفسير هذه باخراج ذرية ادم من صلبه في عالم الذر واخذ العهد عليهم واشهادهم على انفسهم فهي كثيرة جدا وقد
روي عن جماعة من تابعي الصحابة تفسير هذه الآية باخراج ذرية ادم من ظهره وفيما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
في تفسيرها ثم ما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل قال اهل الكلام والنظر قولهم بلى شهدنا على المجاز لا على
الحقيقة وهو خلاف مذهب جمهور المفسرين من السلف قال ابن الانباري مذهب اصحاب
الحديث وكبراء اهل العلم في هذه الآية ان الله اخرج ذرية ادم من صلبه واصلاب

اولاده وهم صور كالذر واخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعه فاعترفوا
بذلك وقبلوه وذلك بعد ان ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال
عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال اوّبي معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله
عليه واله وسلم وكذلك الشجرة حتى سمعت لامره وانقادت وقولهم شهدنا اقرار له
بالربوبية وكلام مستانف وقيل شهدنا على انفسنا بهذا الاقرار وليس في الاية ما يدل
على بطلان ما ورد في الاحاديث وقد وردت احاديث بثبوت ذلك وصحته فوجب
المصير اليه والاخذ به جمعا بينهما وحكى الواحدي عن صاحب النظم انه قال ليس بين
قوله صلى الله عليه واله وسلم ان الله مسح ظهر ادم فاخرج منه ذريته وبين الاية
اختلاف بحمد الله تعالى لانه تعالى اذا اخرجهم من ظهر ادم فقد اخرجهم من ظهور
ذريته لان ذرية ادم كذرية بعضهم من بعض قيل اننا لم نتذكر هذا العهد لان تلك
البنية قد انقضت وتغيرت احوالها بمرور الدهور عليها في اصلاب الاباء وارحام
الامهات وتطور الاطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم وهذا كله مما
يوجب النسيان وكان علي بن ابي طالب يقول اني لاذكر العهد الذي عهد الي ربي وكذا
كان سهل بن عبد الله التستري يقول ثم ابتدأهم بالخطاب على السنة الرسل واصحاب
الشرائع فقام ذلك مقام الذكر ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والتكليف ولم يبلغنا في كون
تلك الذوات مصورة دليل والاقرب للعقول عدم الاحتياج الى كونها بصورة الانسان
والحكمة في اخذ الميثاق منهم اقامة الحجة على من لم يوف بذلك والظاهر انه لما ردهم
الى ظهره قبض ارواحهم واما ان الارواح اين رجعت بعد رد الذرات الى ظهره فهذه
مسئلة غامضة لا يتطرق اليها النظر العقلي باكثر من ان يقال رجعت كما كانت عليه
قبل حلولها في الذرات وورد ان كتاب العهد والميثاق مودع في باطن الحجر الاسود ذكره
الشعراني في رسالته القواعد الكشفية في الصفات الالهية وذكر فيها في هذه الاية
اثني عشر سؤالا واجاب عنها والحق عندي ان كل ما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة
فاطواه على غره اولى وترك الخوض فيه احرى أَن تَقُولُوا اي كراهة ان او لئلا

تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا اي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له غافلين
أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا اي فعلنا ذلك كراهة ان تعتذروا بالغفلة اوتنسبوا
الشرك الى آبائكم وتكون لمنع الخلو دون الجمع فقد يعتذرون بمجموع الامرين من قبل
اي قبل زماننا وكنا ذرية من بعدهم اي اتباعا لهم فاقتدينا بهم في الشرك لا نهتدي
الى الحق ولا نعرف الصواب أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا
عن النظر واقتفاءنا آثار سلفنا بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لاجلها اخرجهم
من ظهر آدم واشهدهم على انفسهم وانه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم
القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة ففي هذه الآية
قطع لعذر الكفار فلا يمكنهم ان يحتجوا بمثل ذلك وقال اهل النظر المراد منه مجرد نصب
الدلائل واظهارها للعقول والحق هو الاول والمعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع اشهادهم
على انفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس
وكذلك اي مثل ذلك التفصيل البليغ نفصل الآيات لهم ليتدبروها ولعلهم يرجعون
الى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل وقيل يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه و
يعملون بموجبه ومقتضاه والمآل واحد واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا وهي علوم
الكتب القديمة والتصرف بالاسم الاعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ما طلب
في الحال وايراد هذه القصة منه سبحانه وتذكيرا اهل الكتاب بها لانها كانت مذكورة
عندهم في التوراة وقد اختلف في هذا الذي اوتي الآيات فقيل هو بلعم بن باعوراء
قاله ابن عباس وفي لفظ بلعام بن باعر الذي اوتي الاسم الاعظم كان في بني اسرائيل وبه
قال مجاهد وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة وقيل كان قد اوتي النبوة وكان مجاب
الدعوة بعثه الله الى مدين يدعوهم الى الايمان فاعطوه الاعطية الواسعة فاتبع
دينهم وترك ما بعث به فلما اقبل موسى في بني اسرائيل لقتال الجبارين سأل الجبارون بلعم
بن باعوراء ان يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على اصحابه
فقيل له في ذلك فقال لا اقدر على اكثر مما تسمعون واندلع لسانه على صدره فقال

قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق الا المكر والخديعة والحيلة وسامكر لكم واني
ارى ان تخرجوا اليهم فتياتكم فان الله يبغض الزنا فان وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو اسرائيل
في الزنا فارسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون الفا وقيل ان هذا الرجل اسمه
باعم وهو من بني اسرائيل وقيل من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة
البلقاء وقال ابن مسعود هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن ابر والقصة ذكرها
جماعة من المفسرين وفيها ان موسى دعى على بلعام بان ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان
ولا يصح ذلك من غير نظر فيه ولا بحث وقيل المراد به امية بن ابي الصلت الثقفي وكان
قد قرأ الكتب وعلم ان الله مرسل رسولا في ذلك فلما ارسل الله محمدا صلى الله عليه و
آله وسلم حسده وكفر به قاله عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد
بن اسلم وقيل هو ابو عامر بن صيفي وكان يلبس المسوح في الجاهلية فكفر بمحمد صلى الله
عليه وآله وسلم وكانت الانصار تقول هو ابن الراهب الذي بني له مسجد الشقاق وقيل
نزلت في البسوس رجل من بني اسرائيل قاله ابن عباس وقيل نزلت في منافقي اهل الكتاب
قاله الحسن وابن كيسان وقيل نزلت في قريش اتاهم الله آياته التي انزلها على محمد صلى
الله عليه وآله وسلم فكفروا بها وقيل نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد صلى
الله عليه وآله وسلم فكفروا به وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى
ولم يقبله قيل والمراد بالآيات اسم الله الاكبر قاله ابن عباس وقال ابن زيد كان لا يسأل
الله شيئا الا اعطاه قال السدي كان يعلم اسم الله الاعظم وقيل انه اوتي كتابا وقيل ان الله
آتاه حجة وادلة فانسلخ منها كما تنسلخ الحية والشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال و
قال ابن عباس نزع منه العلم والانسلاخ التعري من الشيء وليس في الآية قلب اذ لا ضرورة
تدعو اليه وان زعمه بعضهم وان اصله فانسلخت منه فاتبعه الشيطان عند انسلاخه
عن الآيات اي لحقه فادركه وصار قرينا له او فاتبعه خطواته وصيره تابعا لنفسه
وقيل اتبعه بمعنى استتبعه فكان من الغاوين اي المتمكنين في الغواية وهم الكفار ولو
شئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها اي بسببها الى منازل العلماء ولكن لم نشأ

ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها وقيل المعنى لو شئنا لامتناه قبل ان يعصي فرفعناه
الى الجنة بها اي بالعمل بها قاله ابن عباس وقال مجاهد وعطاء لرفعنا عنه الكفر و
عصمناه بالآيات وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ اصل الاخلاد اللزوم يقال اخلد فلان بالمكان اذا اقام
به ولزمه والمعنى هنا انه مال وسكن الى الدنيا ورغب فيها ورضي بها واطمأن واثرها
على الآخرة إِلَى الْأَرْضِ هي هنا عبارة عن الدنيا لان بها المفاوز والقفار والمدن
والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الارض
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ اي ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام
الدنيا وقيل كان هواه مع الكفار وقيل اتبع رضاء زوجته وكانت هي التي حملته على
الانسلاخ من آيات الله وهذه الآية من اشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم
الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ اي وصار لما انسلخ عن الآيات ولم
يعمل بها منحطا الى اسفل رتبة مشابها لاخس الحيوانات في الدناءة مماثلا له في اقبح اوصافه
إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ اي في كلتا حالتي قصد الانسان له وتركه هو لاهث
سواء زجر او ترك طرد او لم يطرد شد عليه او لم يشد وليس بعد هذا في الخسة والدناءة
شيء والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفا بهذه الصفة اي ان هذا المنسلخ عن
الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع احواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره
الزاجر او لم يقع شيء من ذلك قال القتيبي كل شيء يلهث فانما يلهث من اعياء او عطش
الا الكلب فانه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال
الري وحال العطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال ان وعظته ضل وان تركته
ضل فهو كالكلب ان تركته لهث وان طردته لهث كقوله تعالى وان تدعوهم الى الهدى
لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون واللهث اخراج اللسان لتعب او
عطش او غير ذلك قاله الجوهري قيل معنى الآية انك اذا حملت على الكلب نبح وولى
هاربا وان تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه
عند ذلك ما يعتريه عند العطش من اخراج اللسان يقال لهث الكلب يلهث اذا اولع لسانه

ذلك اي التمثيل بتلك الحالة الخسيسة مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا من اليهود
بعد ان علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وكذبوا بها وقيل عم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها وهو الحق لان الاعتبار
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فَاقْصُصِ الْقَصَصَ الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات
عليهم فان مثل المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ في ذلك ويعملون فيه افهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على
الصواب وقيل هذا المثل لكفار مكة ولا وجه لتخصيصه بفريق دون فريق والاولى هو العموم
سَاءَ مَثَلًا هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح الى الغاية يقال ساء
الشيء قبح فهو لازم وساءه يسوءه مساءة فهو متعد وهو من افعال الذم كبئس والمخصوص
بالذم الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ اي ما ظلموا بالتكذيب الا
انفسهم لا يتعداها ظلمهم الى غيرها ولا يتجاوزها وقيل المعنى انهم جمعوا بين التكذيب بآيات
الله وظلم انفسهم وهذا افيد مَنْ يَهْدِ اللَّهُ اي يرشده الى دينه ويتوله بآياته فَهُوَ
الْمُهْتَدِي لما امر به وشرعه لعباده وَمَنْ يُضْلِلْ اي يتول ضلالته فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
الكاملون في الخسران من هداه فلا مضل له ومن اضله فلا هادي له ما شاء كان وما لم يشأ
لم يكن اخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات عن
جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته يحمد الله و
يثني عليه بما هو اهله ثم يقول من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له
اصدق الحديث كتاب الله واحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر
الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ثم يقول
بعثت انا والساعة كهاتين فلو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر
والمؤمن اذ البيان ثابت في حقهما فدل انه من الله التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان
ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ اي خلقنا للتعذيب بها خلقا
كَثِيرًا مِنَ طائفتي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل اهلها يعملون وقد علم

ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم
وابو الشيخ وابن النجار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لما
ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم وعن عائشة قالت قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ان الله خلق للجنة اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق
للنار اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم اخرجه مسلم لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا
شيئا من امور الآخرة جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم ورشادهم
غير فاقهة مطلقا وان كانت تفقه في غيره ما فيه النفع والرشاد فهو كالعدم والفقه في
اللغة الفهم والعلم بالشيء يقال فقه الرجل فهو فقيه اذا فهم وهكذا معنى وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا
يُبْصِرُونَ بِهَا طريق الهدى والحق وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الحق فان الذي انتفى من الاعين
هو ابصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وان كانت مبصرة في غير ذلك والذي انتفى
من الآذان هو سماع المواعظ النافعة والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة وما جاءت
به رسل الله عليهم الصلوة والسلام وان كانوا يسمعون غير ذلك أُولَئِكَ المتصفون بهذه
الاوصاف كَالْأَنْعَامِ اي البهائم في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر مع وجودها فيهم والعرب
تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ثم جعلهم شرا من الانعام فقال
بَلْ هُمْ أَضَلُّ اي حكم عليهم بانهم اضل منها لانها تدرك بهذه الامور ما ينفعها ويضرها
فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه
الله منهم وكلفهم به بل يقدمون على النار معاندة أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ حكم عليهم بالغفلة
الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شان من له عقل وبصر وسمع وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
ذكر ذلك في اربع سور في القرآن اولها هذه السورة وثانيها في آخر بني اسرائيل وثالثها
في اول طه ورابعها في آخر الحشر وهذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بما له من
الاسماء على الجملة دون التفصيل والْحُسْنَى تأنيث الاحسن اي التي هي احسن الاسماء لدلالتها
على احسن مسمى واشرف مدلول وقيل الحسنى مصدر وصف به كالرجعى وافرده كما افرد
وصف ما لا يعقل وقد اخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة

وابو عوانة وابن جرير وابن ابي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه وابو نعيم
والبيهقي عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لله تسعة وتسعين
اسما مائة الا واحدا من احصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وفي لفظ
ابن مردويه وابي نعيم من دعا بها استجاب الله دعاءه وزاد الترمذي
في سننه بعد قوله يحب الوتر هو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم الى قوله الصبور وهي
معروفة هكذا اخرج الترمذي هذه الزيادة عن ابي هريرة مرفوعة وقال هذا حديث غريب
وقد روي من غير وجه عن ابي هريرة ولا نعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الاسماء الا في
هذا الحديث قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ان سرد الاسماء
مدرج في هذا الحديث وانهم جمعوها من القرآن ثم قال ليعلم ان الاسماء الحسنى ليست منحصرة
في التسعة والتسعين بدليل ما رواه احمد في مسنده عن ابن مسعود عن رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم انه قال ما اصاب احدا قط هم ولا حزن فقال اللهم اني عبدك وابن عبدك
وابن امتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك اسألك بكل اسم هو لك
سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك او استأثرت به في علم
الغيب عندك الحديث وقد اخرجه ابو حاتم وابن حبان في صحيحه بمثله انتهى واخرجه البيهقي
في الاسماء والصفات قال النووي اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه
سبحانه وليس معناه انه ليس له اسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود ان من احصاها
دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء انتهى قال
ابن حزم جاءت في احصائها يعني الاسماء الحسنى احاديث مضطربة لا يصح منها شيء
اصلا وقد اخرجها بهذا العدد الذي اخرجه الترمذي ابن مردويه وابو نعيم عن ابن
عباس وابن عمر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكراه ولا ادري كيف
اسناده وعن ابي جعفر محمد بن الصادق قال هي في القرآن ثم سردها سورة فسورة
وقد ذكر ابن حجر في التلخيص انه تتبعها من الكتاب العزيز الى ان حررها منه تسعة و
تسعين ثم سردها ويؤيد هذا ما اخرجه ابو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم تسعة وتسعون اسما من احصاها دخل الجنة وهي في
القرآن وقد اطال اهل العلم الكلام على الاسماء الحسنى حتى ان ابن العربي في شرح
الترمذي حكى عن بعض اهل العلم انه جمع من الكتاب والسنة من اسماء الله الف اسم ومعنى
احصاها حفظها قال البخاري وبه قال اكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها
دخل الجنة وقيل العد اي عدها في الدعاء بها وقيل المعنى من اطاقها واحسن المراعاة
لها وقيل احضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها والاول اولى وقد ذكر الرازي
في هذا المقام بحثا في ان الاسم عين المسمى او غيره وهو مما لم يكلف الله به عباده وفي قوله
فَادْعُوهُ بِهَا دليل على ان اسماء الله سبحانه توقيفية لا اصطلاحية والمعنى سموه بها
واجروها عليه واستعملوها فيه دعاء ونداء وغير ذلك فلا تسموه بغيرها مما لم يرد اطلاقه
عليه تعالى امرهم بان يدعوه بها عند الحاجة فانه اذا دعي باحسن اسمائه كان ذلك
من اسباب الاجابة وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ الالحاد الميل والانحراف وترك القصد يقال
لحد الرجل في الدين والحد اذا مال ومنه اللحد في القبر لانه في ناحيته قال ابن عباس
الالحاد التكذيب وقال عطاء هو المضاهاة وقال الاعمش يدخلون فيها ما ليس منها وقال
قتادة يشركون والالحاد فِي أَسْمَائِهِ سبحانه يكون على ثلاثة اوجه اما بالتغيير كما فعله
المشركون فانهم اخذوا اسم اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان قاله
ابن عباس ومجاهد او بالزيادة عليها بان يخترعوا اسماء من عندهم لم ياذن الله بها
قال اهل المعاني هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان اسماءه
كلها توقيفية فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل يدعوه باسمائه التي وردت في الكتاب
والسنة على وجه التعظيم او بالنقصان منها بان يدعوه ببعضها دون بعض ولا يسميه
باسم لا يعرف معناه ولا باسم فيه من الغرابة والمعنى اتركوهم لا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم
وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى ذرني
ومن خلقت وحيدا وقوله ذرهم ياكلوا ويتمتعوا وهذا اولى لقوله سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ فانه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين ان يفعلوا كفعلهم وقد ذكر

مقاتل وغيره من المفسرين ان هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته
يا رحمن يا رحيم فقال رجل من المشركين أليس يزعم محمد واصحابه انهم يعبدون رباً واحداً
فما بال هذا يدعو ربين اثنين حكى ذلك القرطبي وفيه وعيد وتهديد لمن الحد في اسماء
الله عز وجل ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي ان من جملة من خلقه الله ﴿أُمَّةٌ﴾ وعصابة وجماعة ﴿يَهْدُونَ﴾
الناس متلبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ او يهدونهم بما عرفوه من الحق ﴿وَبِهِ﴾ أي بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم قيل
هم من هذه الامة وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قاله ابن عباس
وعن الكلبي هم من امن من اهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين وقيل انهم
الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد في الحديث الصحيح عن معاوية قال و
هو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لا تزال من امتي امة
قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم على ذلك اخرجه
البخاري ومسلم وعن ابن جريج قال ذكر لنا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذه
امتي يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون. وعن قتادة قال بلغنا ان نبي الله صلى
الله عليه وآله وسلم كان يقول اذا قرأها هذه لكم وقد اعطي القوم بين ايديكم مثلها
ومن قوم موسى امة الآية وعن الربيع في الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ان من امتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى نزل اخرجه ابن ابي حاتم
وفي الآية دليل على انه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي اليه قيل وفيه
دلالة على ان اجماع كل عصر حجة والبحث في ذلك مفصل في الاصول ثم لما بين حال
هذه الامة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يريد به جميع
المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم اهل مكة والاول اولى لان صيغة
العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه منه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾
الاستدراج هو الاخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة والدرج كف الشيء يقال ادرجه
ودرجته ومنه ادراج الميت في اكفانه وقيل هو من الدرجة فالاستدراج ان يخطو
درجة بعد درجة الى المقصود ومنه درج الصبي اذا قارب بين خطاه وادرج الكتاب

طواه شيئاً بعد شيء ودرج القوم مات بعضهم في اثر بعض والمعنى سنستدنيهم قليلا قليلا الى ما يهلكهم وذلك بادرار النعم عليهم وانسائهم شكرها فينهمكوا في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وانه لم يحصل لهم الا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة قال الازهري سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون قال السدي سنأخذهم من حيث لا يعلمون قال عذاب بدر وعن يحيى بن المثنى قال كلما احدثوا ذنبا جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار وبه قال الضحاك وقال سفيان نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها وعن ثابت البناني انه سئل عن الاستدراج فقال ذلك مكر الله بالعباد المضيعين قال الكلبي نزين اعمالهم ثم نهلكهم بها روي ان عمر بن الخطاب لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني اعوذ بك ان اكون مستدرجا فاني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وَأُمْلِي الاملاء الامهال والتطويل اي اطيل لهم المدة وامهلهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي واؤخر عنهم العقوبة إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ جملة مقررة لما قبلها من الاستدراج والاملاء ومؤكدة له والكيد المكر والمتين الشديد القوي واصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب لانه اقوى ما في الحيوان وقد متن بالضم يمتن متانة اي قوي والمعنى ان اخذي ومكري شديد لا يطاق قال ابن عباس كيد الله العذاب والنقمة وقال في الكشاف سماه كيدا لانه شبيه بالكيد من حيث انه في الظاهر احسان وفي الحقيقة خذلان وفي الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا الاستفهام للانكار عليهم حيث لم يتفكروا في شان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيما جاء به مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ما للاستفهام الانكاري والجنة مصدر اي وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا اي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون فانهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا وقولهم زورا وبهتانا وقيل اي ليس بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون فيكون هذا ردا لقولهم يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ويكون الكلام قد تم عند قوله اولم يتفكروا والوقف عليه من الاوقاف

الحسنة عن قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله الى الصباح حتى قال قائل ان صاحبكم هذا المجنون بات يصوت حتى اصبح فانزل الله هذه الآية وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه لانه صلى الله عليه وآله وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء الى الله وانذار بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله من الجنون وقال إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ اى بين الانذار والجملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع ولقصد التعجب من اعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية شعر

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

والملكوت من ابنية المبالغة ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه والمعنى ان هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان به بل هم متمادون في ضلالتهم خائضون في غواياتهم لا يعملون فكراً ولا يمعنون نظراً وَمَا خَلَقَ اللَّهُ اي ولم ينظروا فيما خلق مِنْ شَيْءٍ من الاشياء كائناً ما كان فان في جميع مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والارض او من دقائقها من سائر مخلوقاته وَأَنْ اي ولم ينظروا في ان الشأن والحديث عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فيموتون عن قريب والمعنى انهم اذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به وافتعل هنا بمعنى الفعل المجرد اي قرب وقت اجلهم فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ الضمير للقرآن وقيل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل للاجل المذكور قبله وقيل الضمير يرجع الى ما تقدم من التفكر والنظر في الامور المذكورة اي بأي حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يُؤْمِنُونَ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره والجملة الاستفهامية سيقت للتعجب اي اذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره وجملة مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

فلا هادي له مقررة لما قبلها اي هذه الغفلة منهم عن هذه الامور الواضحة البينة
ليس الا لكونهم ممن اضله الله ومن يضلله فلا يوجد له من يهديه الى الحق وينزعه عن
الضلالة البتة وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ اي يتحيرون وقيل يترددون ولا يهتدون
سبيلا يَسْأَلُونَكَ استيناف مسوق لبيان بعض احكام ضلالهم وطغيانهم والسائلون هم
اليهود وقيل قريش عَنِ السَّاعَةِ اي القيامة وهي من الاسماء الغالبة واطلاقها على القيامة
لوقوعها بغتة اولسرعة حسابها اولانها ساعة عند الله مع طولها في نفسها أَيَّانَ ظرف زمان
مبني على الفتح ومعناه متى واشتقاقه من اي وقيل من اين مُرْسَاهَا اي اي وقت ارساؤها
واستقرارها وحصولها وكانه شبهها بالسفينة القائمة في البحر ماخوذ من ارساها الله اي
اثبتها وقرئ بفتح الميم من رست اي ثبتت ومنه وقدور راسيات ومنه رسى الجبل
والمعنى متى يثبتها ويوقعها ويرسيها الله وقال الطيبي الرسو انما يستعمل في الاجسام الثقيلة فاطلاقه
على الساعة تشبيه للمعاني بالاجسام وقال ابن عباس منتهاها اي وقوعها قال والساعة
الوقت الذي تموت فيه الخلائق وظاهر الآية ان السؤال عن نفس الساعة وظاهر ايان
مرساها ان السوال عن وقتها فتحصل من الجميع ان السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها
في الوقت المعين لذلك ثم امره الله سبحانه بان يجيب عم بقوله قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا اي علم
وقت ارسائها باعتبار وقوعها عِنْدَ رَبِّي قد استاثر به لا يعلمها غيره ولا يهتدي اليها
سواه ليكون ذلك ادعى الى الطاعة وازجر عن المعصية لَا يُجَلِّيهَا التجلية اظهار الشيء يقال
جلى لي فلان الخبر اذا اظهره واوضحه اي لا يظهرها ولا يكشف عنها وقال مجاهد لا يأتي بها
وقال السدي لا يرسلها لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ سبحانه بالذات من غير ان يشعر به احد من المخلوقين في
استيثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الاشياء التي اخفاها الله
واستاثر بها وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها مبينة لاستمرار تلك الحالة الى حين
قيامها ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اي عظمت على اهلهما وشقت على العالم العلوي والسفلي
قيل معنى ذلك انه لما خفي علمها على اهل السموات والارض كانت ثقيلة لان كل ما خفي
علمه ثقيل على القلوب وقيل المعنى لا تطيقها السموات والارض لعظمها لان السماء تنشق و

النجوم تتناثر والبحار تنضب وقيل عظم وصفها عليهم وقيل ثقلت المسألة عنها وقال
ابن عباس يعني ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة وقيل ثقلت لأن فيها
فناؤهم وموتهم وذلك ثقيل على الأفئدة وقيل كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه
شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه وهذه الجملة مستأنفة
مقررة لمضمون ما قبلها أيضاً ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة على حين غفلة من
الخلق وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة صحيحة هي معروفة وهذه الجملة كالتي قبلها
في التقرير ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء على زعمهم أنه عالم بالمسؤول عنه قال ابن فارس الحفي العالم
بالشيء والحفي المستقصي في السؤال يقال أحفى في المسألة وفي الطلب فهو محف وحفي على
التكثير مثل مخضب وخضيب والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقص
للسؤال عنها ومستكثر منه ومتطلع إلى علم مجيئها وعن بمعنى الباء وقيل المعنى كأنك حفي
بهم والأول هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي قال ابن عباس يقول كأن بينك
وبينهم مودة وكأنك صديق لهم ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر
ما أجاب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيده وقيل ليس بتكرير بل أحدهما معناه استأثر
الله بهذا أو عدم علم خلقه به لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل والثاني معناه السؤال
عن أحوال ثقلها وشدائدها وعدم علم الخلق بها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن
علمها عند الله وأنه استأثر به حتى لا يسألوا عنه وقيل لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفى
علم وقت قيامها عن الخلق ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قال ابن جرير يعني الهدى
والضلالة وهذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى
تقع لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ سبحانه من النفع
له والدفع عنه فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه وفي هذا من إظهار
العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد والاعتراف بالضعف عن
انتحال ما ليس له صلى الله عليه وآله وسلم ما فيه أعظم زاجر وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه

ما ليس من شأنها او ينتحل علم الغيب بالكهانة او الرمل او الطرق بالحصى والزجر قال النسفي اي انا عبد ضعيف لا املك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر كالمماليك الا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني والاستثناء منقطع وبه قال ابن عطية وهو ابلغ في اظهار العجز ثم اكد هذا وقرره بقوله وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ اي لو كنت اعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته الى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني ولكني عبد لا ادري ما عند ربي ولا ما قضاه في وقدره لي فكيف ادري غير ذلك واتكلف علمه وقيل المعنى لو كنت اعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل ان يعرفنيه لفعلته وقيل لو كنت اعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم اغلب وقيل لو كنت اعلم الغيب لاجبت عن كل ما اسأل عنه وقيل لو كنت اعلم وقت الموت لاستكثرت من العمل الصالح وقيل لاعتددت من الخصب للجدب وقيل غير ذلك والاولى حمل الآية على العموم فيندرج هذه الامور وغيرها تحتها وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ كلام مستانف اي ليس بي ما تزعمون من الجنون والاولى انه متصل بما قبله والمعنى لو علمت الغيب ما مسني السوء ولحذرت عنه كما قدمنا ذلك وقال ابن جريج لا يصيبني الفقر وقال ابن زيد لاجتنبت ما يكون من الشر قبل ان يكون وقال الكرخي اي ما مسني سوء يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فانه مما لا مدفع له إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ اي ما انا الا مبلغ عن الله احكامه لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اي كتب في الازل انهم يؤمنون فانهم المنتفعون به فلا ينافي كونه بشيرا ونذيرا للناس كافة واللام في لقوم من باب التنازع فعند البصريين تتعلق ببشير وعند الكوفيين بنذير وقيل نذيرا بالنار للكافرين وبشيرا بالجنة للمؤمنين وعلى هذا متعلق النذارة محذوف والذي اخبر به صلى الله عليه وآله وسلم عن المغيبات وقد جاءت بها احاديث في الصحيح فهو من قبيل المعجزات ومن قال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله على سبيل التواضع والادب فقد ابعد النجعة بل قاله صلى الله عليه وآله وسلم معتقدا بذلك وان الله هو المستأثر بعلم الغيب والمعجزات مخصصة من هذا العموم كما قال تعالى الا من ارتضى من رسول هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ خطاب لاهل مكة مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ اي آدم قاله جمهور المفسرين والتأنيث باعتبار لفظ النفس وهذا كلام مبتدأ
يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية
وانه المتفرد بالالهية وَجَعَلَ مِنْهَا اي من هذه النفس وقيل من جنسها كما في قوله تعالى جعل
لكم من انفسكم ازواجا والاول اولى زَوْجَهَا وهي حوى خلقها من ضلع من اضلاعه لِيَسْكُنَ
علة للجعل اي لاجل ان يانس إِلَيْهَا ويطمئن بها فان الجنس بجنسه اسكن واليه آنس وكان هذا
في الجنة كما وردت بذلك الاخبار ثم ابتدأ سبحانه بحالة اخرى كانت بينهما في الدنيا بعد
هبوطهما فقال فَلَمَّا تَغَشَّاهَا اي آدم زوجه والتغشي كناية عن الوقاع اي فلما جامعها
كنى به عن الجماع احسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها
وتجللها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا اي علقت به بعد الجماع والمشهور ان الحمل بالفتح ما كان في بطن
او على شجرة والحمل بالكسر خلافه وقد حكي في كل منهما الكسر والفتح وهو هنا اما مصدر فينتصب
انتصاب المفعول المطلق او الجنين المحمول فيكون مفعولا به ووصفه بالخفة لانه عند
القاء النطفة اخف منه عند كونه علقة وعند كونه علقة اخف منه عند كونه مضغة
وعند كونه مضغة اخف مما بعده وقيل انه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه الى
انتهائه ولم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله فَمَرَّتْ بِهِ ١٩ اي استمرت بذلك
الحمل تقوم وتقعد وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلا لا مشقة ولا كلفة وقرئ فمرت به
بالتخفيف اي فجزعت لذلك وقرئ فمارت به من المور وهو المجيء والذهاب
قال سمرة حملا خفيفا لم يستبن فمرت به لما استبان حملها وقال ابن عباس فمرت به اي
شكت احملت ام لا وعن الحسن سئل عن قوله فمرت به قال لو كنت عربيا لعرفتها انما هي
استمرت بالحمل وعن السدي قال حملا خفيفا هي النطفة فمرت به اي استمرت به وبه قال ابن
عباس وعن ميمون بن مهران قال استخفته والوجه الاول اولى لقوله فَلَمَّا أَثْقَلَتْ فان
معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها دَعَوَا اللّٰهَ جوابه لما اي دعا آدم وحواء
رَبَّهُمَا ومالك امرهما لَئِنْ آتَيْتَنَا وَلَدًا صَالِحًا عن ابي صالح قال اشفقا ان يكون بهيمة
فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا وعن مجاهد نحوه وعن الحسن قال غلاما سويا اي مستويا

الاعضاء خالياً عن العوج والعرج وغير ذلك وقيل ولداذكراً لان الذكورة من الصلاح
لنكونن من الشاكرين لك على هذه النعمة وفي هذا الدعاء دليل على انهما قد علما ان
حدث في بطن حوى من اثر ذلك الجماع هو من جنسهما وعلماً بثبوت النسل المتأثر عن ذلك
السبب فلما آتاهما صالحا اي ما طلباه من الولد الصالح واجاب دعاءهما جعلا له شركا
فيما آتاهما قرأ سائر اهل الكوفة بالجمع وقرأ اهل المدينة شركا على التوحيد وانكره الاخفش
واجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف اي جعلا له ذا شرك او ذوي شرك وقال
ابو عبيدة معناه حظا ونصيباً وانما اتاهما الله تعالى على ذلك لانهما نظرت الى السبب دون
المسبب قال كثير من المفسرين انه جاء ابليس الى حواء وقال لها ان ولدت ولدا فسميه باسمي
فقالت وما اسمك قال الحارث ولو سمي لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث فكان هذا
شركا في التسمية ولم يكن شركا في العبادة وقد روي هذا بطرق والفاظ عن جماعة من الصحابة
ومن بعدهم ويدل له حديث سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما ولدت
حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش
فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وامره اخرجه احمد و
الترمذي وحسنه وابو يعلى وابن جرير وابن ابي حاتم والروياني والطبراني وابو الشيخ
والحاكم وصححه وابن مردويه وفيه دليل على ان الجاعل شركا فيما آتاهما هو حوى دون
آدم وقوله جعلا له شركاء بصيغة التثنية لا ينافي ذلك لانه قد يسند فعل الواحد
الى اثنين بل الى جماعة وهو شائع في كلام العرب وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير
الطيب قال تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات ثم قال في هذه السورة قالا ربنا ظلمنا انفسنا
وقال فلا جناح عليهما فيما افتدت به والمراد به الزوج فقط قاله الفراء وانما ذكرهما
جميعا لاقترانهما وقال تعالى نسيا حوتهما وانما الناسي يوشع دون موسى وقال تعالى
يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من احدهما وهو الملح وقال تعالى يا معشر
الجن والانس الم يأتكم رسل منكم وانما الرسل من الانس دون الجن لكن لما جمعوا مع الجن
في الخطاب صح هذا التركيب وقال تعالى القيا في جهنم والخطاب لواحد دون اثنين وفي

الحديث المرفوع اذا سافرتما فاذنا واقيما والمراد احدهما وقال امرء القيس ؎ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل + وقد اكثر الشعراء من قولهم خليلي والمراد بهما الواحد دون الاثنين وعلى هذا فمعنى الاية الكريمة جعل احدهما له شركاء وهو حوى واذا عرفت هذا علمت ان المصير الى هذا التاويل الذي ذكرناه متعين وقد عاضده الكتاب والسنة وكلام العرب والحديث المتقدم ليس فيه الا ذكر حوى وقد استشكل هذه الاية جمع من اهل العلم لان ظاهرها صريح في وقوع الاشراك من ادم عليه السلام والانبياء معصومون عن الشرك ثم اضطروا الى التفصي من هذا الاشكال فذهب كل الى مذهب واختلفت اقوالهم في تاويلها اختلافا كثيرا حتى انكر هذه القصة جماعة من المفسرين منهم الرازي وابو السعود وغيرهما وقال السدي هذا فصل من اية ادم خاصة في الهة العرب وعن ابي مالك نحوه وقال الحسن هذا في الكفار يدعون الله فاذا اتاهما صالحا هودا ونصرا وقال ابن كيسان هم الكفار سموا اولادهم بعبد العزى وعبد الشمس وعبد الدار ونحو ذلك وقيل هم اليهود والنصارى خاصة قال الحسن كان هذا في بعض اهل الملل وليس بادم وقيل هذا خطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم آل قصي وحسنه الزمخشري وقال هذا تفسير حسن لا اشكال فيه وقيل معناها على حذف المضاف اي جعل اولادهما شركاء ويدل له ضمير الجمع في قوله الاتي عما يشركون واياه ذكر النسفي والقفال وارتضاه الرازي وقال هذا جواب في غاية الصحة والسداد وبه قال جماعة من المفسرين وقيل خاطب كل واحد من الخلق بقوله خلقكم وجعل من جنسه زوجه قال البغوي وهذا قول حسن لولا قول السلف بخلافه وقيل ان هذه القصة لم تصح وانما عصى من كان في ظهر ادم من ذريته وكان ادم انموذج التقدير فظهرت ذريته خطايا بني ادم في ذاته كما ترى الصورة في المرأة لان ظهره كان كالسفينة لسائر اولاده وقيل معنى من نفس واحدة من هيئة واحدة وشكل واحد فجعل منها اي من جنسها زوجها فلما تغشاها يعني جنس الذكر جنس الانثى وعلى هذا لا يكون لادم وحوى ذكر في الاية وتكون ضمائر التثنية راجعة الى الجنسين وقيل ان فاعل تغشاها ضمير راجع الى احدهم والمعنى خلق

اذ بث الناس من ادم وكان بدأ خلقهم ان خلق من ادم زوجته ليسكن اليها فحصل منهما النسل ثم رجع الى اول الكلام وهو ان الله خلقهم فلم يشكروا له ولم يؤدوا حقه وذلك ان احدهم لما تغشى امرأته فحملت حملا خفيفا فحصل بسبب ذلك الاختصار غموض في الاية و اصل الكلام عام وكانت حواء من جملة ذلك فلا يجب صدق جميع خصوصيات الايات عليها وانما يجب وجود اصل القصة وقد يؤخذ هذا الوجه من قوله تعالى في موضع اخر الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وبهذا قال الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رح وهذه الاقوال كلها متقاربة في المعنى فتخالفة في المبنى ولا يخلو كل واحد منها من بعد وضعف وتكلف بوجوه الاول ان الحديث المرفوع المتقدم يدفعه وليس في واحد من تلك الاقوال قول مرفوع حتى يعتمد عليه ويصار اليه بل هي تفاسير بالاراء المنهي عنها المتوعد عليها الثاني ان فيه انخرام نظم الكلام سياقا وسباقا الثالث ان الحديث صرح بان صاحبة القصة هي حواء وقوله جعل منها زوجها انما هو لحوى دون غيرها فالقصة ثابتة ولا وجه لانكارها بالرأي المحض الرابع ان الحديث ليس فيه الا ذكر حوى وكان هذا شركا منهما في التسمية ولم يكن شركا في العبادة قيل والشرك في التسمية اهون قلت وفيه بعد ظاهر لان الله تعالى ساق ايات التشنيع عليها وهو شرك وان لم يكن في العبادة وما قيل انها انما قصدت ان الحارث كان سبب نجاة الولد كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه فهو خطأ لان الاعلام كما يقصد بها المعاني العلمية كذلك قد يلاحظ معها المعاني الاصلية بالتبعية كما صرح به اهل المعاني وكان اسم ابي بكر الصديق في الجاهلية عبد الكعبة واسم ابي هريرة عبد الشمس فغيرهما النبي صلى الله عليه واله وسلم وسماهما صديقا وعبد الرحمن وما قيل انها سمته بعبد الحارث باذن من ادم فهذا يحتاج الى دليل يدل عليه ويصح واني له الدليل ولعلها سمته بغير اذن منه ثم تابت من ذلك والحاصل ان ما وقع انما وقع من حواء لا من ادم عليه السلام ولم يشرك ادم قط وعلى هذا فليس في الاية اشكال والذهاب الى ما ذكرناه متعين تبعا للكتاب والحديث وصونا

بجانب النبوة عن الشرك بالله تعالى وظاهر ما ذكروه في تأويل هذه الآية الكريمة يرده
كله ظاهر الكتاب والسنة كما تقدم ولذا سلك المفسرون العلماء مسلك الإنصاف والله أعلم وما
ذكرنا من صحة إطلاق المثنى على المفرد هو شائع في كلام العرب ولكنهم لم يذهبوا إليه
في هذه الآية ولم يخطر ذلك ببالهم مع كونه ظاهر الأمر وواضحه ومع أنهم ذكروه و
ذهبوا إليه في غير هذا الموضع في غير واحد من مواضع في القرآن والحديث وغيرهما
وهذا أعجب منهم غاية العجب فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ هذا ابتداء كلام مستأنف أراد
به إشراك أهل مكة وقيل معطوف على خلقكم وما بينهما اعتراض وقيل أراد به
حوى لأنه يجوز إطلاق الجمع على الواحد وقيل يعود على آدم وحواء وإبليس والأول
أولى وبه قال السمين وليس لها تعلق بقصة آدم وحواء أصلاً ولو كانت القصة واحدة
لقال عما يشركان قال ابن الجزري في كتابه النفيس قد تأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة
كأنها معها وفي القرآن يريد أن يخرجكم من أرضكم هذا قول الملأ قال فرعون فماذا تأمرون
انتهى فالضمير في يشركون يعود على الكفار والكلام قد تم به أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا
الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعل هل مكة لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر
على نفع لهم ولا دفع ضر عنهم وَهُمْ يُخْلَقُونَ الضمير راجع إلى الشركاء أي وهؤلاء
الذين جعلوهم شركاء من الأصنام والشياطين مخلوقون وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد
من جعلهم شركاء أنهم كذلك وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ أي لمن جعلهم شركاء نَصْرًا
إن طلبوه منهم وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ أن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم ومن
عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى هذا خطاب
للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت وبيان
عجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير
تحصيله للطالب أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم
أن يهدوكم ويرشدوكم لَا يَتَّبِعُوكُمْ ولا يجيبوكم إلى ذلك وهو دون ما تطلبونه منهم
من جلب النفع ودفع الضر والنصر على الأعداء قال الأخفش معناه وإن تدعوهم أي

الاصنام الى الهدى لا يتبعوكم وقيل المراد من سبق في علم الله انه لا يؤمن وقرئ لا
يتبعوكم مشددا ومخففا وهما لغتان وقال بعض اهل اللغة اتبعه مخففا اذا مضى
خلفه ولم يدركه واتبعه مشددا اذا مضى خلفه فادركه سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها اي دعاؤكم لهم عند الشدائد و
عدمه سواء لا فرق بينهما لانهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون وقال
ام انتم صامتون مكان ام صمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة في عدم افادة الدعاء
ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وقال محمد بن يحيى انما جاء بالاسمية لكونها
راس اية يعني لمطابقة ولا انفسهم ينصرون وما قبله إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ اخبرهم سبحانه بان هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله
كما انتم عباد له مع انكم اكمل منهم لانكم احياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون
وهذه الاصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لامره وهذا تقريع
لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم قال مقاتل انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدونها
والاول اولى وانما وصفها بانها عباد مع انها جماد تنزيلا لها منزلة العقلاء على في
معتقدهم ولذلك قال فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ مقررة لمضمون ما قبلها من انهم ان
دعوهم الى الهدى لا يتبعوهم وانهم لا يستطيعون شيئا اي ادعوا هؤلاء الشركاء فان
كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم وانما ورد هذا اللفظ في معرض الاستهزاء بالمشركين
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر وانها آلهة ثم
بين غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم فقال أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا
الاستفهام للتقريع والتوبيخ اي هؤلاء الذين حـ … ـشركاء ليس لهم شيء من الآلات
التي هي ثابتة لكم فضلا عن ان يكونوا قادر … ـنه منهم فانهم كما
ترون هذه الاصنام التي تعكفون على عبادتها … رجل يمشون بها في نفع
انفسهم فضلا عن ان يمشوا في نفعكم وليس لهم ايد يبطشون بها كما يبطش غيرهم

من الاحياء وليس لهم اعين يبصرون بها كما تبصرون وليس لهم اذان يسمعون بها كما
تسمعون فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الادوات وبهذه المنزلة
من العجز وأم في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة كما ذكره ائمة النحو والاضراب المفاد
ببل انتقال من توبيخ الى توبيخ اخر والبطش هو الاخذ بقوة وعنف ثم لما بيّن لهم حال هذه
الاصنام وتعاور وجوه العجز والنقص لها من كل باب امره الله بان يقول لهم قل ادعوا
شركاءكم الذين تزعمون ان لهم قدرة على النفع والضر واستعينوا بهم في عداوتي حتى
يتبين عجزها ثم كيدون انتم وهم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد فلا تنظرون اي فلا تمهلوني
ولا تؤخروا انزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز
لاصنامهم شيء ثم قال قل لهم إن وليي الله الذي نزل الكتاب اي كيف اخاف هذه الاصنام
التي هذه صفتها ولي ولي ألجأ اليه واستنصر به وهو الله عز وجل وهذه الجملة تعليل
لعدم المبالاة بها وولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر والكتاب
هو القران اي اوحى الي واعزني برسالته وهو يتولى الصالحين اي يحفظهم وينصرهم
ويحول بينهم وبين اعدائهم والصالحون هم الذين لا يعدلون بالله شيئا ولا يعصونه
وفي هذا مدح للصالحين وان من سنته نصرهم والذين تدعون من دونه لا يستطيعون
نصركم ولا انفسهم ينصرون كرر سبحانه هذا لمزيد التاكيد والتقرير ولما في تكرار
التوبيخ والتقريع من الاهانة للمشركين والتنقص بهم واظهار سخف عقولهم وركاكة
احلامهم وقيل الاولى على جهة التقريع والتوبيخ والاخرى على جهة الفرق بين من تجوز
له العبادة وبين هذه الاصنام وبالجملة هو من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم المفهوم
من السوق فهما جليا وإن تدعوهم اي المشركين قاله الحسن وقيل اي الاصنام الى الهدى
لا يسمعوا دعاءكم لان اذانهم قد صمت عن سماع الحق فضلا عن المساعدة والامداد وهذا
ابلغ من نفي الاتباع وتراهم الرؤية بصرية ينظرون اليك اي يقابلونك كالناظر
وهم اي حال كونهم لا يبصرون جملة مبتدأة لبيان عجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم
عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار والا وجملة حالية والمراد الاصنام اي انهم

يشبهون الناظرين ولا اعين لهم يبصرون بها قيل كانوا يجعلون للاصنام اعينا
من جواهر مصنوعة فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون وقيل
المراد بذلك المشركون اخبر الله عنهم بانهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بابصارهم
وان ابصروا بها غير ما فيه نفعهم خُذِ الْعَفْوَ لما عدد الله سبحانه من احوال المشركين
ما عدده وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم امر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بان
ياخذ العفو من اخلاقهم يقال اخذت حقي عفوا اي سهلا وهذا نوع من التيسير
الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت في الصحيح انه كان
يقول يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا والمراد بالعفو هنا ضد الجهد وقيل العفو الفضل
وما جاء بلا كلفة والعفو التساهل في كل شيء وقيل المراد خذ العفو من صدقاتهم ولا
تشدد عليهم فيها وتاخذ ما يشق عليهم وكان هذا قبل نزول فريضة الزكوة عن
عبد الله بن الزبير قال ما نزلت هذه الآية الا في اخلاق الناس رواه البخاري
قال مجاهد خذ العفو من اخلاق الناس واعمالهم من غير تجسيس وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
اي بالمعروف وقرئ بالعرف بضمتين وهما لغتان والعرف والمعروف والعارفة كل
خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن اليها النفوس وكل ما يعرفه الشارع وقال
عطاء وأمر بقول لا اله الا الله والعموم اولى وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ اي اذا اقمت
الحجة عليهم في امرهم بالمعروف فلم يفعلوا فاعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافههم مكافاة
لما يصدر منهم من المراء والسفاهة قيل وهذه الآية هي من جملة ما نسخ باية السيف قاله
عطاء وابن زيد وقيل هي محكمة قاله مجاهد وقتادة وقيل اول هذه الآية وآخرها
منسوخ واوسطها محكم قال الشعبي لما انزل الله هذه الآية ١٢٠ ول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ما هذا يا جبريل قال لا ادري حتى اسأل جع فقال ان الله
امرك ان تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل رجه ابن جرير وابن
المنذر وغيرهما وعن قيس بن سعد بن عبادة قال لما نظر رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم الى حمزة بن عبد المطلب قال والله لامثلن بسبعين منهم فجاءه جبريل

بهذه الآية اخرجه ابن مردويه وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
النزغ الوسوسة وكذا النغز والنخس والنسغ قال الزجاج النزغ ادنى حركة تكون ومن
الشيطان ادنى وسوسة واصل النزغ الفساد يقال نزغ بيننا اي افسد وقيل النزغ
الاغواء والمعنى متقارب امر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم اذا ادرك شيئا
من وسوسة الشيطان ان يستعيذ بالله ويلجئ اليه في دفعه عنه وقيل انه لما نزل قوله
خذ العفو قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يا رب بالغضب فنزلت هذه الآية
وفي الآية استعارة تبعية حيث شبه الاغواء على المعاصي بالنزغ واستعير النزغ للاغواء
ثم اشتق منه ينزغنك وجملة إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ علة لامره بالاستعاذة اي استعذ به
والتجئ اليه فانه يسمع ذلك منك ويعلم به وقيل الخطاب لكل احد والاول اولى والكلام
خرج مخرج التقدير والفرض فلا يقال لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوما
لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج الى الاستعاذة وجملة إِنَّ الَّذِينَ
اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا مقررة لمضمون ما قبلها اي ان شان
الذين يتقون الله حالهم هو التذكر لما امر الله به من الاستعاذة والالتجاء اليه عند
ان يمسهم طائف من الشيطان وان كان يسيرا وقرئ طيف مخففا ومشددا قال النحاس
كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على انه مصدر من طاف يطيف وقال الكسائي
هو مخفف مثل ميت وميت قال النحاس ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب او يرى
في النوم وكذا معنى طائف وقيل معنيان مختلفان فالاول التخيل والثاني الشيطان نفسه
فالاول من طاف الخيال يطوف طيفا ولم يقولوا من هذا طائف قال السهيلي لانه تخيل
لا حقيقة له واما قوله فطاف عليها طائف من ربك فلا يقال فيه طيف لانه اسم
فاعل حقيقة قال الزجاج طفت عليهم اطوف وطاف الخيال يطيف وسميت الوسوسة
والجنون والغضب طيفا لانها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال وذكر في الآية الاولى النزغ
وهو اخف من الطيف لان حالة الشيطان مع الانبياء عليهم الصلوة والسلام اضعف
من حاله مع غيرهم وقال ابن عباس الطيف الغضب وقرا سعيد بن جبير تذكروا بتشديد

الذال قال النحاس ولا وجه له في العربية وقال السدي تذكروا اي اذا زلوا تابوا وقيل معناه عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده وقال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب فيذكر الله فيكظم وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه فَإِذَا هُمْ بسبب التذكر مُبْصِرُونَ اي منتهون عن المعصية آخذون بأمر الله عاصون للشيطان قاله ابن عباس وقيل على بصيرة وقيل انهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر وقيل مبصرون الحق من غيره فيرجعون وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ قيل المعنى واخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الانس على ان الضمير في اخوانهم يعود الى الشيطان المذكور سابقا والمراد به الجنس فجاز ارجاع ضمير الجمع اليه والمعنى تمدهم الشياطين في الغي وتكون مددا لهم وهذا التاويل هو قول الجمهور وعليه عامة المفسرين قال الزمخشري هو اوجه لان اخوانهم في مقابلة الذين اتقوا وقيل المعنى الشياطين الذين هم اخوان الجاهلين او غير المتقين يمدون الجاهلين او غير المتقين في الغي وهذا تفسير قتادة وقيل المعنى واخوان الشياطين في الغي وهو الجهل بخلاف الاخوة في الله تعالى يمدونهم اي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم قال ابن عباس في الاية هم الجن يوحون الى اوليائهم من الانس وسميت الفجار من الانس اخوان الشياطين لانهم يقبلون منهم ويقتدون بهم وقيل ان المراد بالاخوان الشياطين وبالضمير الفجار من الانس وقال الزجاج المعنى والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا انفسهم ينصرون واخوانهم يمدونهم في الغي لان الكفار اخوان الشياطين وعلى هذا في الكلام تقديم وتاخير قال الكلبي لكل كافر اخ من الشياطين يطيل له في الاغواء حتى يستمر عليه وقيل يزيدونهم من الضلالة يقال مد وامد وهما لغتان قال مكي ومد اكثر وقال ابو عبيدة وجماعة من اهل اللغة انه يقال اذا كثر شيء شيئا بنفسه مده واذا كثره بغيره قيل امده نحو يمددكم ربكم وقيل يقال مددت في الشر وامددت في الخير ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ الاقصار الانتهاء عن الشيء وقال ابن عباس لا يسأمون والمعنى لا يقصر الشياطين في مد الكفار في الغي ولا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها والكافر لا يتذكر ولا يرعوي وقال ابن عباس لا الانس يمسكون عما يعملون من

السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم على هذا يحمل قوله لا يقصرون على فعل الاثم
والشياطين جميعاً وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ اي اهل مكة بِآيَةٍ مما اقترحوا قَالُوا لَوْلَا هلا
اجْتَبَيْتَهَا يقال اجتبى الشيء يجتبي جباه لنفسه اي جمعه اي هلا جمعتها افتعالا
لها من عند نفسك وقيل لولا احدثتها لولا تلقيتها فانشأتها قاله ابن عباس
وقيل المعنى اختلقتها قال اجتبيت الكلام انتحلته واختلقته واخترعته اذا جئت
به من عند نفسك كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا تراخى
الوحي هذه المقالة فامره الله بان يجيب عليهم بقوله قُلْ لست ممن يأتي بالآيات
من قبل نفسه ويقترح المعجزات كما تزعمون بل إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فما اوحاه
الي وانزله علي ابلغته اليكم هَذَا اي القرآن المنزل علي هو بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ يتبصر
من قبلها جمع بصيرة وقيل البصائر الحجج والبراهين وقال الزجاج الطرق ولما كان القرآن
سببا لبصائر العقول اطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب
والبصيرة الحجة والاستبصار في الشيء قال الاخفش جعله هو البصيرة كما تقول للرجل انت
حجة على نفسك وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اي هو بصائر وهدى يهتدي
به المؤمنون ورحمة لهم وذلك ان الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من
بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم اصحاب عين اليقين ومنهم من
بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم اصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم
عامة المؤمنين واصحاب حق اليقين فالقرآن للاولين بصائر وللمستدلين هدى
ولعامة المؤمنين رحمة وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا يحتمل انه من عند الله
مستانف ويحتمل انه من جملة المقول المامور به امرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والانصات
له عند قراءته لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وقال ابو البقاء الضمير
له بمعنى لاجله وفيه بعد قيل هذا الامر خاص بوقت الصلوة عند قراءة الامام ولا يخفى
ان اللفظ اوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه فيكون الاستماع والانصات عند قراءة
القرآن في كل حالة وعلى اي صفة مما يجب على السامع وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم للقرآن دون غيره ولا وجه لذلك وظاهر الامر الوجوب وهو
قول الحسن واهل الظاهر وقيل الندب والاستحباب قال ابوهريرة نزلت في رفع
الاصوات وهم خلفه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلوة وفي لفظ عنه انهم كانوا
يتكلمون في الصلوة بحوائجهم فامروا بالسكوت واليه ذهب جمهور المفسرين كما في
المعالم والكشاف وانوار التنزيل وحاشية الكمالين وغيرها وقال ابن عباس يعني في
الصلوة المفروضة وعن محمد بن كعب القرظي ومجاهد وعبدالله بن مغفل وابن مسعود
نحوه وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وصرحوا بان هذه الآية نزلت في قراءة الصلوة
من الامام وعن الحسن قال عند الصلوة المكتوبة وعند الذكر وعن ابن عباس في
الصلوة وحين ينزل الوحي وقيل نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وبه قال
سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء واختاره جماعة وفيه بعد لان الآية مكية والجمعة
انما وجبت بالمدينة والاول اولى وقال ابن عباس في الجمعة والعيدين وقال الرازي
انه خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزا على صدق
نبوته وعند هذا يسقط احتجاج الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه ثم ذكر ما يقوي ان
حمل الآية على ما ذكر اولى بوجوه وقال لو حملنا الآية على منع المأموم من القراءة خلف
الامام فسد النظم واختل الترتيب فثبت ان حمله على ما ذكرناه اولى وهذه الآية لا دلالة
فيها على هذه الحالة انتهى واشار القاضي الى ان احتجاجهم بهذه الآية ضعيف وقال
بعض محشيه اي مردود بخبر الصحيحين لا صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب انتهى اقول
رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت وفي لفظ لا تجزي صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب
رواه الدارقطني وقال اسناده صحيح وصححه ابن القطان ولها شاهد من حديث ابي هريرة
بهذا اللفظ مرفوعا اخرجه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما ولاحمد بلفظ لا تقبل صلوة لا
يقرأ فيها بام القرآن وفي الباب عن انس عند مسلم والترمذي وعن ابي قتادة
عند ابي داؤد والنسائي وعن ابن عمر وجابر عند ابن ماجة وعن علي
عند البيهقي وعن عايشة وابي هريرة والحديث يدل على تعيين فاتحة الكتاب

في الصلوة وانه لا يجزي غيرها واليه ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء والتابعين
ومن بعدهم وهو مذهب العترة لان النفي المذكور في الحديث يتوجه الى الذات
ان امكن انتفاؤها والا توجه الى ما هو اقرب الى الذات وهو الصحة لا الى الكمال لان الصحة اقرب المجازين والكمال
ابعدهما والحمل على اقرب المجازين واجب وتوجه النفي الى الذات ههنا ممكن كما قال الحافظ
في الفتح لان المراد بالصلوة معناها الشرعي لا اللغوي لما تقرر من ان الفاظ الشارع محمولة
على عرفه لكونه بعث لتعريف الشرعيات لا لتعريف الموضوعات اللغوية واذا كان
المنفي الصلوة الشرعية استقام نفي الذات ولو سلم ان المراد هنا الصلوة اللغوية لم
المتعين توجيه النفي الى الصحة او الاجزاء لا الى الكمال لانها اقرب المجازين ولان الرواية
المتقدمة مصرحة بالاجزاء فيتعين تقديره واذا تقرر هذا فالحديث صالح للاحتجاج به
على ان الفاتحة من شروط صحة الصلوة لا من واجباتها فقط لان عدمها يستلزم عدم
الصلوة وهذا شأن الشرط وذهبت الحنفية وطائفة قليلة الى انها لا تجب بل الواجب
اية من القران قاله النووي والصواب ما قاله الحافظ ان الحنفية يقولون بوجوب قراءتها
لكن بنوا على قاعدتهم انها مع الوجوب ليست شرطا في صحة الصلوة لان وجوبها انما
ثبت بالسنة والذي لا يتم الصلوة الا به فرض والفرض عندهم لا يثبت بما يزيد على
القران وقد قال تعالى فاقرؤا ما تيسر من القران فالفرض قراءة ما تيسر وتعيين الفاتحة
انما ثبت بالحديث فيكون واجبا يأثم من يتركه وتجزئ الصلوة بدونه وهذا تأويل
على رأي فاسد حاصله رد كثير من السنة المطهرة بلا برهان ولا حجة نيرة فكم موطن
من المواطن يقول فيه الشارع لا يجزي كذا ولا يقبل كذا ولا يصح كذا ويقول المتمسكون
بهذا الرأي يجزي ويقبل ويصح ولمثل هذا حذر السلف من اهل الرأي والكلام في ذلك
تعصبا وزادا يطول جدا وقد قضى الوطر منه الشوكاني في نيل الاوطار فراجعه ومن الحجج
حديث ابي سعيد بلفظ لا صلوة الا بفاتحة الكتاب وغيرها قال ابن سيد الناس لا
ندري بهذا اللفظ من اين جاء وقد صح عن ابي سعيد عند ابي داود انه قال امرنا
ان نقرأ فاتحة الكتاب وما تيسر ورواته ثقات وقال ابن سيد الناس اسناده صحيح

ورجاله ثقات وصححه الحافظ ايضا ومن ادلتهم حديث ابي هريرة عند ابي داود بلفظ لا صلوة الا بقران ولو بفاتحة الكتاب ويجاب بانه من رواية جعفر بن ميمون وليس بثقة كما قال النسائي وقال احمد ليس بقوي في الحديث وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء وايضا قد روى ابو داود هذا الحديث من طريقه عن ابي هريرة بلفظ امرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان انادي انه لا صلوة الا بقراءة الفاتحة فما زاد رواه احمد وليست الرواية الاولى باولى من هذه وايضا اين يقع هذه الرواية على فرض صحتها بجنب الاحاديث المصرحة بفرضية فاتحة الكتاب وعدم اجزاء الصلوة بدونها وقد نسب القول بوجوب الفاتحة في كل ركعة النووي في شرح مسلم والحافظ في الفتح الى الجمهور ورواه ابن سيد الناس في شرح الترمذي عن علي وجابر وعن ابن عون والاوزاعي وابي ثور قال واليه ذهب احمد وداود وبه قال مالك الا في الناسي واستدلوا ايضا على ذلك بما وقع عند الجماعة واللفظ للبخاري من قوله صلعم للمسيء ثم افعل ذلك في صلاتك كلها بعد ان امره بالقراءة وفي رواية لاحمد وابن حبان والبيهقي في قصة المسيء صلاته انه قال في اخره ثم افعل ذلك في كل ركعة وهذا الدليل اذا ضممته الى قوله في حديث المسيء ثم اقرا ما تيسر معك من القران ثم حمله على الفاتحة لما تقدم انتهض ذلك للاستدلال به على وجوب الفاتحة في كل ركعة وكان قرينة تحمل قوله في حديث المسيء ثم كذلك في كل صلاتك فافعل على المجاز وهو الركعة وكذلك حمل لا صلوة الا بفاتحة الكتاب عليه ويؤيد وجوب الفاتحة في كل ركعة حديث ابي سعيد عند ابن ماجة بلفظ لا صلوة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة او غيرها قال الحافظ واسناده ضعيف وحديث ابي سعيد امرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة رواه اسمعيل بن سعيد الشالنجي صاحب الامام احمد وظاهر هذه الادلة وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من غير فرق بين الامام والماموم وبين سر الامام وجهره ومن جملة المؤيدات لذلك ما اخرجه مالك في الموطا والترمذي وصححه من جابر موقوفا قال من صلى ركعة لم يقرأ فيها بام القران فلم يصل الا وراء الامام وما اخرجه احمد وابن ماجة عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يقول من صلى صلوة لا يقرأ فيها بام القرآن فهي خداج ومثله عن ابي هريرة عند ابن ماجة من طريق محمد بن اسحق وفيه مقال مشهور ولكن يشهد لصحته حديث ابي هريرة عند الجماعة الا البخاري بلفظ من صلى صلوة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج ولا يقال ان الخداج معناه النقص وهو لا يستلزم البطلان لان الاصل ان الصلوة الناقصة لا تسمى صلوة حقيقة واما حديث ابي هريرة مرفوعا واذا قرأ فانصتوا رواه الخمسة الا الترمذي وقال مسلم هو صحيح فهو عام لا يحتج به على خاص واما حديث عبد الله بن شداد مرفوعا من كان له امام فقراءة الامام له قراءة رواه الدارقطني فقال في المنتقى وقد روي مسندا من طرق كلها ضعاف والصحيح انه مرسل انتهى قال الدارقطني وهو الصواب وقال الحافظ هو مشهور من حديث جابر وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة وقال في الفتح انه ضعيف عند جميع الحفاظ وقد استوعب طرقه وعلله الدارقطني وهو عام ايضا لان القراءة مصدر مضاف وهو من صيغ العموم وحديث عبادة في هذا الباب خاص فلا معارضة قال في شرح المنتقى هو حديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج به انتهى واما قوله تعالى فاستمعوا له وانصتوا فقد مر الجواب عنه وهو ايضا عام وحديث عبادة خاص ويؤيد ذلك الاحاديث المتقدمة و الآتية القاضية بوجوب قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة من غير فرق بين الامام والمؤتم لان البراءة عن عهدتها انما تحصل بناقل صحيح لا بمثل هذه العمومات التي قد اقترنت بما يجب تقديمه عليها وعن عبادة قال صلى بنا رسول الله صلعم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال اني اراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله اي والله قال لا تفعلوا الا بام القرآن فانه لا صلوة لمن لا يقرأ بها رواه ابو داؤد والترمذي وفي لفظ فلا تقرؤا بشيء من القرآن اذا جهرت به الا بام القرآن رواه ابو داؤد والنسائي والدارقطني وقال كلهم ثقات وعنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يقرأن احد منكم شيئا من القرآن اذا جهرت بالقراءة الا بام القرآن رواه الدارقطني وقال رجاله كلهم ثقات اخرجه ايضا احمد والبخاري في جزء القراءة وصححه وابن حبان والحاكم والبيهقي من طريق ابن اسحق قال حدثني مكحول عن محمود بن ربيعة عن عبادة وتابعه زيد بن واقد وغيره

عن مكحول ومن شواهده ما رواه احمد من طريق خالد الحذاء عن ابي قلابة عن محمد بن
ابي عائشة عن رجل من اصحاب النبي صلعم قال قال رسول الله صلعم لعلكم تقرؤن
والامام يقرأ قالوا انا لنفعل قال لا الا ان يقرأ احدكم بفاتحة الكتاب قال الحافظ اسناده
حسن ورواه ابن حبان من طريق ايوب بن ابي قلابة عن انس وليست محفوظة ومحمد
بن اسحق قد صرح بالحديث فذهبت مظنة تدليسه وتابعه من تقدم قال الشوكاني
والحديث استدل به من قال بوجوب قراءة الفاتحة خلف الامام وهو الحق وظاهر الحديث
الاذن بقراءة الفاتحة جهرا لانه استثنى من النهي عن الجهر خلفه ولكنه اخرج ابن حبان من
حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتقرؤن في صلاتكم خلف
الامام والامام يقرأ فلا تفعلوا وليقرء احدكم بفاتحة الكتاب في نفسه واخرجه ايضا
الطبراني في الاوسط والبيهقي واخرجه عبد الرزاق عن ابي قلابة مرسلا وعن ابي هريرة
ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف من صلوة جهر فيها بالقراءة فقال هل
قرء معي احد منكم آنفا فقال رجل نعم يا رسول الله فقال اني اقول مالي انازع القرآن قال
فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلعم
من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رواه ابو داود
والنسائي والترمذي وقال حديث حسن واخرجه ايضا مالك في الموطأ والشافعي واحمد
وابن ماجة وابن حبان وقوله فانتهى الناس عن القراءة مدرج في الخبر كما بينه الخطيب
واتفق عليه البخاري في التاريخ وابو داود ويعقوب بن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم
قال النووي وهذا مما لا خلاف فيه بينهم والاستدلال به على عدم قراءة المؤتم خلف الامام
خارج عن محل النزاع لان الكلام في قراءة المؤتم خلف الامام سرا والمنازعة انما تكون مع
جهر المؤتم لا مع اسراره وايضا لو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان هذا الاستفهام
الذي للانكار عاما لجميع القرآن او مطلقا في جميعه وحديث عبادة خاص او مقيد وقد
اجاب المهدي في البحر عن حديث عبادة بانه معارض بهذا الحديث وهي من معارضة العام
بالخاص وهو لا يعارضه الا على قول من قال من اهل الاصول انه يبني العام على الخاص

مطلقا وهو الحق واما على قول من قال ان العام المتاخر عن الخاص ناسخ له وانما
يخصص للمقارن والمتاخر عنه لا ينسخ فكذلك ايضا لان عبادة روى العام والخاص
في حديثه فهو من التخصيص بالمقارن فلا يعارض بالعام على جميع الاقوال واما الاحتجاج
بحديث جابر فلو يسن لا وراء الامام فهو مع كونه غير مرفوع مفهوم لا يعارض بمثله
منطوق حديث عبادة واذا تقرر لك هذا فقد عرفت مما سبق وجوب الفاتحة على
كل امام ومأموم في كل ركعة وعرفناك ان تلك الادلة صالحة للاحتجاج بها على ان قراءة
الفاتحة من شروط صحة الصلوة واحلة اهل الخلاف عمومات وحديث عبادة خاص
وبناء الخاص على العام واجب كما تقرر في الاصول وهذا لا محيص عنه ولا الآية الكريمة
وما على نحوها من القران والحديث لا دلالة فيها على المقصود فمن زعم انها تصح صلوة من
الصلوات او ركعة من الركعات بدون فاتحة الكتاب فهو محتاج الى اقامة برهان يخصص
تلك الادلة ومن ههنا يتبين لك ايضا ضعف ما ذهب اليه الجمهور من ان من ادرك
الامام راكعا دخل معه واعتد تلك الركعة وان لم يدرك شيئا من القراءة وحاصل
الكلام انه لا محيد عن تحتم المصير الى القول بالفرضية بل القول بالشرطية وقد اختلف
اهل العلم في قراءتها هل تكون عند سكتات الامام او عند قراءته وظاهر الاحاديث
انها تقرأ عند قراءة الامام وفعلها حال سكوت الامام ان امكن احوط لانه يجوز عند
اهل الخلاف فيكون فاعل ذلك اخذا بالاجماع واما اعتياد قراءتها حال قراءة الامام
للفاتحة فقط او حال قراءته للسورة فقط فليس عليه دليل بل الكل جائز وسنة نعم
قراءتها حال قراءة الامام للفاتحة مناسب من جهة عدم الاحتياج الى تاخير الاستعاذة عن
محلها الذي هو بعد التوجه وتمام الكلام على هذا المرام في كتابنا هداية السائل الى ادلة
المسائل وغيره فراجعه قال الشوكاني واختلف في القراءة خلف الامام سرا وجهرا وقد
وردت السنة المطهرة بقراءة سورة الفاتحة خلفه مخرجة في الصحيحين وغيرهما فالآية
في غير الفاتحة وقد جاء نابها من جاء بالقران اذا جاء فهو اسبط لنا فهم معقل لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
اي تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال امر الله سبحانه وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ

الخطاب للنبي صلعم ويدخل فيه غيره من امته لانه عام لسائر المكلفين قيل المراد بالذكر هنا ما هو اعم من القران وغيره من الاذكار التي يذكر الله بها وقال النحاس لم يختلف في معنى هذا الذكر انه الدعاء وقيل هو خاص بالقران اي اقرأ القران بتأمل وتدبر امره ان يذكره في نفسه سرا فان الاخفاء ادخل في الاخلاص واقرب الى حسن التفكر وادعى للقبول تَضَرُّعًا وَّخِيفَةً اي متضرعا وخائفا او متضرعين وخائفين او ذوي تضرع وخيفة والخيفة الخوف قاله الجوهري وحكى الفراء انه يقال في جمع خيفة خيف وَّدُوْنَ الْجَهْرِ اي دون المجهور يعني متضرعا وخائفا ومتكلما بكلام هو دون الجهر مِنَ الْقَوْلِ وفوق السر يعني قصدا بينهما بِالْغُدُوِّ وَالْاٰصَالِ اي في وقات الغدوات واوقات الاصائل والغدو جمع غدوة بضم الغين وسكون الدال وهي من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والاصال جمع اصيل قاله الزجاج والاخفش مثل يمين وايمان وقيل الاصال جمع اصل والاصل جمع اصيل فهو على هذا جمع الجمع قاله الفراء قال الجوهري الاصيل الوقت من بعد العصر الى المغرب وجمعه اصل واصال واصائل كانه جمع اصيلة ويجمع ايضا على اصلان مثل بعير وبعران وقال ابو مجلز والايصال هو مصدر قال قتادة الغدو صلوة الصبح والاصال الصلوة بالعشي وعن ابي صخر قال الاصال ما بين الظهر والعصر وقال ابن زيد بالبكر والعشي وقال مجاهد الغدو اخر الفجر صلوة الصبح والاصال اخر العشي صلوة العصر وخصهما بالذكر لشرفهما ولان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو اخو الموت فاستحب له ان يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون اول اعماله ذكر الله عز وجل واما وقت الاصال وهو اخر النهار فان الانسان يريد ان يستقبل النوم الذي هو اخو الموت فيستحب له ان يشغله بالذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وقيل ان اعمال العباد تصعد اول النهار واخره فيصعد عمل الليل عند صلوة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى الغروب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به وقيل غير ذلك والمراد دوام الذكر لله وَلَا تَكُنْ مِّنَ الْغٰفِلِيْنَ عن ذكر الله وعما يقربك الى الله اِنَّ الَّذِيْنَ عِنْدَ رَبِّكَ المراد بهم الملائكة قال القرطبي بالاجماع قال الزجاج وقال عند ربك والله عز وجل

بكل مكان لانهم قريبون من رحمته وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده فالمراد بالعندية
القرب من الله بالزلفى والرضا لا المكانية والمراد عند عرش ربك قاله الشهاب والمراد بقوله
والله بكل مكان اي علمه وقدرته وهو بائن من خلقه مستو على عرشه كما وصف به نفسه
في غير موضع من الكتاب العزيز وقال القرطبي يعني انهم في موضع لا ينفذ فيه الا حكم
الله وقيل انهم رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كبير وقيل هذا على جهة التشريف
والتكريم لهم وانهم بالمكان المكرم وهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة **لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** اي لا يتعظمون عنها لانهم عبيده ومعنى **وَيُسَبِّحُونَهُ** يعظمونه و
ينزهونه عن كل شين **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** اي يخصونه بعبادة السجود التي هي اشرف عبادة
وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة وفي ذكر الملأ الاعلى تعريض لبني آدم وهذه السجدة من
عزائم سجود القرآن والاحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة وعدد المواضع التي
يسجد فيها وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطول بايراد ذلك ههنا

سورة الانفال

صرح كثير من المفسرين بانها مدنية لم يستثنوا منها شيئا وبه قال الحسن وعكرمة و
جابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعن ابن عباس انه قال نزلت
في بدر وفي لفظ تلك سورة بدر قال القرطبي ... هي مدنية الا سبع آيات من قوله
واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخرها يعني فانها مكية قلت وان كانت في شأن الواقعة
التي وقعت بمكة فلا يلزم ان تكون كذلك فالآيات نزلت بالمدينة تذكيرا له بما وقع في
مكة فهذا القول ضعيف والاول هو الاصح وجملتها انها خمس وست وسبع وسبعون
آية وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها في صلوة المغرب كما اخرجه الطبراني
بسند صحيح عن ابي ايوب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

يَسْأَلُوْنَكَ يا محمد **عَنِ الْأَنْفَالِ** جمع نفل محركا وهو الغنيمة التي اصابها لمن هي وبه قال
ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة واكثر المفسرين على انها نزلت في غنائم بدر واصل
النفل الزيادة وسميت الغنيمة به لانها زيادة فيما احل الله لهذه الامة مما كان محرما على

غيرهم أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد ويطلق النفل على معان
أخر منها اليمين والابتغاء ونبت معروف والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب و
النافلة ولد الولد لأنه زيادة على الولد وهو سؤال استفتاء لأن هذا أول تشريع الغنيمة
وفاعل السؤال من حضر بدرا وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وعن بمعنى من وهذا
لا ضرورة تدعو إليه وقيل صلة ويؤيده قراءة سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي
بن الحسين وغيرهم بدون عن والصحيح أنها على إرادة حرف الجر وكان سبب نزول الآية
اختلاف الصحابة في غنائم يوم بدر فقال الشبان هي لنا لأنا باشرنا القتال وقال الشيوخ
كنا ردءا لكم تحت الرايات ولو انكشفتم أي انهزمتم لفئتم إلينا أي لرجعتم إلينا فنزع الله
ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أي
حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه
حيث شاء وليس لكم حكم في ذلك فقسمها صلى الله عليه وآله وسلم بينهم على السواء رواه
الحاكم في المستدرك وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى واعلموا
أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه فهي على هذا منسوخة وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي
وقال ابن زيد محكمة مجملة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس وللإمام أن ينفل من شاء
من الجيش ما شاء قبل التخميس فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أي نفس ما بينكم والذي بينهم
هو الوصلة الإسلامية فالبين هنا بمعنى الاتصال كما في قوله لقد تقطع بينكم والبين
يطلق على الضدين الاتصال والفراق وذات هذا البين هي حاله أي الأمور التي تحققه
بالمودة وترك النزاع وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أمرهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة
الله والرسول بالتسليم لأمرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم وقال امتثلوا هذه الأوامر
الثلاثة إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بالله جوابه كما ذهب إليه أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله
السابق إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط والصحيح ما ذهب إليه سيبويه وهو أنه
محذوف لدلالة ما قبله عليه وفيه من التهييج والإلهاب والتنشيط للمخاطبين والحث لهم

على المسارعة الى الامتثال مما لا يخفى مع كونهم في تلك الحال على الايمان فكانه قال ان كنتم
مستمرين على الايمان بالله لان هذه الامور الثلاثة لا يكمل الايمان بدونها بل لا يثبت
اصلا لمن لم يمتثلها فان من ليس بتقي وليس بمطيع لها ليس بمؤمن قال عطاء طاعة الله
والرسول اتباع الكتاب والسنة اخرجه ابن ابي حاتم إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ جملة مستانفة
مسوقة لبيان من اريد بالمؤمنين بذكر اوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخلال
الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالاوامر المذكورة اي انما الكاملون في
الايمان المخلصون فيه الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ اي وعيده وَجِلَتْ اي فزعت وخضعت و
خافت ورقت قُلُوبُهُمْ لذكر الله استعظاما له وتهيبا من جلاله الوجل الخوف والفزع
يقال وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح وقرئ كوعد يعد ويقال باثبات الواو في المضارع
والمراد ان حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شان المؤمنين الكاملين
الايمان المخلصين لله فالحصر باعتبار كمال الايمان لا باعتبار اصل الايمان قال جماعة من المفسرين
هذه الاية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما امر به
من قسمة الغنائم ولا يخفاك ان هذا وان صح ادراجه تحت معنى الاية من جهة ان وجل
القلوب عند الذكر وزيادة الايمان عند تلاوة ايات الله يستلزمان امتثال ما امر به
سبحانه من كون الانفال لله والرسول ولكن الذي يظهر ان مقصود الاية هو اثبات هذه
المزية لمن كمل ايمانه من غير تقييد بحال دون حال ولا بوقت دون وقت ولا بواقعة
دون واقعة وعن ابن عباس وجلت فرقت وقال المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء
من ذكر الله عند اداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من ايات الله ولا يتوكلون على الله ولا
يصلون اذا غابوا ولا يؤدون زكوة اموالهم فاخبر الله انهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف
المؤمنين فقال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فادوا فرائضه وعن
ام الدرداء قالت انما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب اما تجد
قشعريرة قلت بلى قالت فادع عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك وقال ثابت البناني
قال فلان اني لاعلم متى يستجاب لي قالوا ومن اين لك قال اذا اقشعر جلدي ووجل قلبي

وفلضت عينا اي يعذلك حين يستجاب لي وعن عايشة قالت ما الوجل في قلب المؤمن
الا كضرمة السفينة فاذا وجل احدكم فليدع عند ذلك وعن السدي قال هو الرجل يريد
ان يظلم او يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيوجل قلبه فان قيل قال هنا وجلت قلوبهم
وقال في اية اخرى وتطمئن قلوبهم فكيف الجمع بينهما قلت الاطمينان بذكره بصفات
الجمال والوجل انما هو بذكر وعيده وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ المراد من التلاوة تلاوة
الايات المنزلة او التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في اياته التكوينية بذكر
خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون زَادَتْهُمْ إِيمَانًا اي تصديقا
قاله ابن عباس وعن الربيع بن انس قال خشية المراد بزيادة الايمان هو زيادة انشراح
الصدر وطمانينة القلب وانفلاح الخاطر عند تلاوة الايات وقيل المراد بها زيادة
العمل لان الايمان شئ واحد لا يزيد ولا ينقص والايات المتكاثرة والاحاديث المتواترة
ترد ذلك وتدفعه والاية صريحة في زيادة الايمان وعن ابي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه واله وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها شهادة لا اله
الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان اخرجه الشيخان
وفي هذا دليل على ان الايمان فيه اعلى وادنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة و
النقصان قال الواحدي عن عامة اهل العلم ان كل من كانت الدلائل عنده اكثر و
اقوى كان ايمانه ازيد قال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها
بالزيادة للفرق المميزبين يقين الانبياء وارباب المكاشفات ويقين احاد الامة ويدل
ذلك قول علي رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا من قام عليه دليل
واحد ومن قامت عليه ادلة كثيرة لان تظاهر الادلة اقوى للمدلول عليه واثبت
لقدمه وعليه يحمل ما نقل عن الشافعي من انه يقبل الزيادة والنقص فلا يرد كيف
قال ذلك مع ان حقيقة الايمان عند الاكثر لا تزيد ولا تنقص كالالهية والوحدانية
انتهى وقيل المعنى انهم كلما سمعوا اية جديدة اتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان
ذلك زيادة في ايمانهم وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ التوكل على الله تفويض الامور اليه

في جميع الامور قال ابن عباس لا يرجون غيره وعلى بمعنى الباء ويتوكلون بمعنى يثقون و
تقديم المعمول للحصر وقال السمين التقديم يفيد الاختصاص اي عليه لا على غيره
والجملة في محل الحال او مستأنفة او معطوفة على الصلة الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ المفروضة
بحدودها وأركانها في أوقاتها ومن في مما للتبعيض رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ويدخل فيه
النفقة في الزكوة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق في انواع البر والقربات وخص
اقامة الصلوة والصدقة لكونهما اصل الخير واساسه أُولَٰئِكَ اي المتصفون بالاوصاف
المتقدمة هُمُ الْمُؤْمِنُونَ اي الكاملون الايمان البالغون فيه الى اعلى درجاته واقصى غاياته
حَقًّا اي حق ذلك حقا او ايمانا حقا يعني يقينا لا شك في ايمانهم وصدقا لا ريب فيه
قال ابن عباس برئوا من الكفر وحقا اي خالصا وقيل التقدير حقا لهم درجات وهذا
انما يجوز على رأي ضعيف اعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون جملة عليها وقد استدل
بظاهر هذه الآية ابو حنيفة ومن قال بقوله انه يجوز ان يقول انا مؤمن حقا ولا يجوز
الاستثناء واجيب عنه بان الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله انا ان شاء الله
بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق بهم او المراد حصر الاستثناء الى الخاتمة والنزاع
عند التحقيق لفظي كما تقرر في موطنه وانما حكم سبحانه بكونهم مؤمنين حقا في هذه الآية
اذا اتوا بتلك الاوصاف الخمسة كما تفيده لفظة انما لانها للحصر لَّهُمْ دَرَجَاتٌ يعني
فضائل ورحمة قاله سعيد بن جبير وعن مجاهد قال اعمال رفيعة وقال الضحاك اهل
الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو اسفل منه ولا يرى
الاسفل فضل احد عليه ذكر ما اعد لمن كان جامعا بين هذه الاوصاف من الكرامة
فقال لهم منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة عِندَ رَبِّهِمْ وفي كونها عنده
سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم وَمَغْفِرَةٌ لذنوبهم وعن ابن زيد
قال بترك الذنوب وَرِزْقٌ كَرِيمٌ دائم مستمر يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض
جوده وعن ابن زيد قال هو الاعمال الصالحة وعن محمد بن كعب القرظي قال اذا سمعتم
الله يقول ورزق كريم فهي الجنة كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ قال الزجاج اي الانفال ثابتة لك

مثل اخراج ربك وبه قال المبرد وقيل المعنى امض لامرك في الغنائم ونفل من شئت
وان كرهوا لان بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جعل لكل
من اتى باسير شيئا قال بقي اكثر الناس بغير شيء فموضع الكاف نصب قال ابو عبيدة
هو قسم اي والذي اخرجك فالكاف بمعنى الواو وما بمعنى الذي وقال الاخفش المعنى
اولئك هم المؤمنون حقا كما اخرجك ربك وقال عكرمة المعنى اطيعوا الله ورسوله
كما اخرجك ربك وقيل الكاف كاف التشبيه على سبيل المجازاة وقيل بمعنى على اي امض
على الذي اخرجك فانه حق وقيل بمعنى اذ اي اذكر يا محمد اذ اخرجك وقيل هذه
الحال كحال اخراجك يعني ان حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في
كراهة خروجك للحرب ذكره صاحب الكشاف وقال السمين فيه عشرون وجها الثاني
ان تقديره اصلحوا ذات بينكم اصلاحا كما اخرجك وقد التفت من خطاب الجماعة الى
خطاب الواحد الثالث تقديره واطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما اخرجك
الرابع تقديره يتوكلون توكلا حقيقيا كما اخرجك السادس عشر تقديره قسمتك الغنائم
حق كما كان اخراجك حقا السابع عشر ان التشبيه وقع بين اخراجين انتهى من بيتك
اي المدينة او بيتك الذي بها بالحق اي اخراجا متلبسا بالحق لا شبهة فيه وقال
مجاهد كما اخرجك ربك من بيتك بالحق كذلك يجادلونك في خروج القتال وعن
السدي قال خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى بدر وقيل المراد اخراجه من مكة الى المدينة
للهجرة والاول اولى وبه قال جمهور المفسرين وقيل هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة
كما اخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له فانجز وعدك وظفرك بعدوك واوفى لك
ذكره النحاس واختاره وفي الجمل اي اخرجك من المدينة لتاخذ العير التي مع ابي سفيان
اي لتغنمها فاصل خروج النبي والمؤمنين لاجل ان يغنموا القافلة فلم تكن في خروجهم
كراهة وانما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريبا لما اخبروا ان العير نجت منهم وان قريشا
اتوا الى بدر واشار عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانهم يمضوا الى قتال قريش الذين
خرجوا اليهم بدل المسير من القافلة فكره المسلمون القتال لا عصيانا بل بالطبع حيث خرجوا

من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد وإنما كان أصل خروجهم لأخذ الغنيمة فقو ت
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ حال مقدرة لما علمت ان الكراهة لم تقارن الخر ج
وقيل الجملة حال من الكاف في أخرجك وفي حال كراهة منهم لذلك لانه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين
اما العير او النفير رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال وكرهوا لق
عددهم وسلاحهم وكثرة عددهم وسلاحهم وفي لكارهون مراعاة معنى الفر يق
يُجَادِلُونَكَ ومجادلتهم لما ندبهم الى احدى الطائفتين وفات العير وامرهم بقتال
النفير ولم يكن معهم كثير أهبة لذلك شق عليهم وقالوا لو اخبرتنا بالقتال لأخذ نا
العدة واكملنا الاهبة والجملة مستأنفة او حال ثانية اي اخرجك وحال مجادلتهم او حال من الضمير في لكارهون اي
لكارهون في حال الجدال والضمير يجوز ان يعود على الكفار وجدالهم ظاهر والظا هر
انه يعود على الفريق المتقدم فِي الْحَقِّ اي في القتال بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لهم انك لا تأمر بشيء
الا باذن الله او بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم بالظفر باحدى الطائفتين وان العير
اذا فاتت ظفروا بالنفير كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ اي حال كونهم في شدة فزعهم
من القتال يشبهون حال من يساق بالعنف والصغار ليقتل وَهُمْ يَنظُرُونَ يعني
الموت كمن هو مشاهد لاسباب قتله ناظر اليها بعينه لا يشك فيها والجامع بينهم
الكراهة في كل وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ اي واذكروا وقت وعد الله اياكم
وامرهم بتذكر الوقت مع ان المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة والطائفتا
هما فرقة ابي سفيان مع العير وفرقة ابي جهل مع النفير أَنَّهَا اي احدى الطائفتين مسخر
لكم وانكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل واسر وغنيمة لا
يطيقون لكم دفعا ولا يملكون لانفسهم منكم ضرا ولا نفعا وفي هذه الجملة تذكير لهم
بنعمة من النعم التي انعم الله بها عليهم وَتَوَدُّونَ اي تريدون وتتمنون معطوف على يعد
من جملة الحوادث التي امروا بذكر وقتها أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ من الطائفتين وهي طائفة
العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تَكُونُ لَكُمْ دون ذات الشوكة وهي طائفة النفير قال
ابو عبيدة اي غير ذات الحد والشوكة السلاح والنبت الذي له حد ومنه رجل شائك السلاح اي حديد السلاح ثم نقل

فيقال شاكي السلاح فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك والمعنى تودون ان تظفروا
بالطائفة التي ليس معها سلاح وهي طائفة العير لانها غنيمة صافية عن كدر القتال اذ
لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها قال الضحاك هي عير ابي سفيان ود اصحاب محمد صلى
الله عليه وآله وسلم ان العير كانت لهم وان الله تعالى صرف عنهم وَيُرِيدُ اللّٰهُ
اَنْ يُّحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهٖ وهو من جملة ما امروا بذكره وقت على اي ويريد الله غير ما تريدون
وهو ان يحق الحق باظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة وقتلكم لصناديدهم
واسر كثير منهم واغتنام ما غنمتم من اموالهم التي اجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم
بها والمراد بالكلمات الآيات التي انزلها في محاربة ذات الشوكة ووعدكم منه بالظفر
بها وقيل الكلمات عداته التي سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه وقيل اسباب النصر
مثل نزول الملائكة واوامره لهم بالامداد وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ الدابر الآخر وقطعه
عبارة عن الاستيصال والمعنى ويستاصلهم جميعا حتى لا يبقى منهم احد لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ
يُبْطِلَ الْبَاطِلَ هذه الجملة علة لما يريده الله اي اراد ذلك او يريده ليظهر الحق
ويرفعه وهو الاسلام ويبطل الباطل ويضعه وهو الكفر او فعل ذلك ليحق الحق و
ليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لان الاولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين و
هذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه و
قيل لا يقال فيه تحصيل الحاصل اذ المراد بالحق الايمان وبالباطل الشرك وقيل المراد بالاول
تثبيت ما وعد به في هذه الوقعة من النصرة والظفر بالاعداء وبالثاني تقوية الدين و
اظهار الشريعة لان الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم ومن قهر الكافرين مع
كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا قرنه بقوله ويبطل الباطل وَلَوْ كَرِهَ اَنْ يُحِقَّ
الحق ويبطل الباطل الْمُجْرِمُوْنَ اي المشركون من قريش او جميع طوائف الكفار ووقعة
بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتواريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها اِذْ
تَسْتَغِيْثُوْنَ رَبَّكُمْ اي اذكروا وقت استغاثتكم تذكيرا لهم بنعمة اخرى والمقام للماضي وانما
عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية اي اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر

والاستغاثة طلب الغوث يقال استغاثني فلان فاغثته والاسم الغياث والمعنى ان المسلمين لما علموا انه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة وهم النفير كما امرهم الله بذلك وارادة منهم ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه وهو معنى قول الازهري وقيل المستغيث هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب ان عدد المشركين يوم بدر الف وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلا وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه ابو بكر فاخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فانزل الله عز وجل هذه الآية فَاسْتَجَابَ لَكُمْ عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير وهو وان كان مستقبلا فهو بمعنى الماضي ولهذا عطف عليه استجاب أَنِّي اي باني مُمِدُّكُمْ بوعدي اياكم بالامداد وذلك لانه وقت الاجابة لم يحصل الامداد بالفعل لان الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ قرئ اسم فاعل واسم مفعول وهما قراءتان والمعنى على الاولى انهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض اي ان الراكب خلف صاحبه قد اردفه وجعل ابو البقاء مفعول مردفين بالكسر محذوفا اي مردفين امثالهم وعلى الثانية انه جعل بعضهم تابعا للبعض اي اردفهم الله بغيرهم وخلفهم ويجوز ان يكون معنى الارداف المجيء بعد الاوائل اي جعلوا ردفا للاوائل قاله السمين وقد قيل ان ردف واردف بمعنى واحد وانكره ابو عبيدة قال لقوله تعالى تتبعها الرادفة ولم يقل المردفة قال ابن عباس مردفين متتابعين وعنه قال المدد وعنه قال وراء كل ملك ملك وعن الشعبي قال كان الف مردفين وثلثة آلاف منزلين وكانوا اربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم وقال مجاهد مردفين ممدين وقال قتادة متتابعين امدهم الله بالالف ثم بثلاثة ثم اكملهم خمسة آلاف وعن

علي قال نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة من ميمنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وفيها ابو بكر ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة من ميسرة النبي صلى الله عليه و
آله وسلم وانا في الميسرة وعن مجاهد قال ما امد النبي صلى الله عليه وآله وسلم باكثر من هذه
الالف التي ذكر الله في الانفال وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف الا بشرى قال في اجمل لم
يثبت ان الملائكة قاتلت في وقعة الا في بدر واما في غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد
المسلمين ولا تقاتل كما وقع في حنين وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ اي الامداد المدلول عليه بقوله
اني ممدكم إِلَّا بُشْرَىٰ اي بشارة لكم بنصره وهو استثناء مفرغ اي ما جعل امدادكم بشيء
من الاشياء الا للبشرى لكم بالنصر وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ اي بالامداد قُلُوبُكُمْ وفي هذا اشعار بان الملائكة
لم يقاتلوا بل امدّ الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبيت قلوبهم يعني بنزول الملائكة قال
قتادة وذكر لنا ان عمر قال اما يوم بدر فلا نشك ان الملائكة كانوا معنا واما بعد ذلك
فالله اعلم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك اثر فهو الناصر
على الحقيقة وليسوا الا سببا من اسباب النصر التي سببها الله لكم وامدكم بها وفيه تنبيه
على ان الواجب على المسلم ان لا يتوكل الا على الله في جميع احواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده
ع الظفر والاعانة إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ في كل افعاله إِذْ يُغَشِّيكُمُ الفاعل هو الله فيه
ثلث قراءات سبعية يغشاكم كيلقاكم من غشيه اذا اتاه واصابه ويُغْشِيكم من اغشاه اي
انزله بكم واوقعه عليكم ويغشيكم من غشاه تغشية غطاه وقيل الفاعل النُّعَاسَ أَمَنَةً
مِّنْهُ وهو النوم الخفيف والاكثر على الاول وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة انعم الله بها
عليهم وهي انهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وامنها
حتى ناموا آمنين غير خائفين وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها قيل وفي
امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان احدهما انه قواهم بالاستراحة على القتال
من الغد الثاني انه آمنهم بزوال الرعب من قلوبهم وقيل ان النوم غشيهم في حال التقاء
الصفين وقد مضى في يوم احد نحو من هذا في سورة آل عمران عن علي قال ما كان فينا
فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا الا نائم الا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يصل بغت شجرة حتى أصبح قال مجاهد أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وقال قتادة رحمة منه أمنة من العدو وعنه قال النعاس في الرأس والنوم في القلب وعنه قال كان النعاس أمنة من الله وكان النعاس نعاسين يوم بدر ويوم أحد قال ابن مسعود النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان وقيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا المطر كان بعد النعاس وقيل قبله وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم فأنزل الله المطر ليلة بدر والذي في سيرة ابن إسحق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس الوادي وأعانهم على المسير وقال مجاهد المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار والتبدت به الأرض وطابت به أنفسهم وثبتت به أقدامهم وعن عروة بن الزبير قال بعث الله السماء وكان الوادي دهسا وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي ليرفع عنكم الأحداث الجنابة وعن ابن عباس أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمأ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين وقد قدمنا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء و هذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي وهو ضعيف جدا ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت والرجز في الأصل العذاب الشديد وأريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازا لمشقتها على أهل الإيمان كما قيل كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالنصر واليقين فيجعلها جريئة قوية ثابتة في مواطن الحرب والربط في اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قيل لفظة على صلة كذا في الوسيط وقيل للاستعلاء أي أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها

وارتفع فوقها ذكره الواحدي ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ اي بالماء الذي انزله الله عند الحاجة اليه
وقيل الضمير راجع الى الربط المدلول عليه بالفعل ﴿الْأَقْدَامَ﴾ اي اقدامكم في مواطن القتال
ومعارك الجدال وقال قتادة كان الوادي دهاسا فلما مطروا اشتدت الرملة وسهل
المشي عليه لان العادة ان المشي في الرمل عسر فاذا نزل عليه الماء وجد سهل المشي ولم
يبق فيه غبار يشوش على الماشي فيه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ اي اذكر يا محمد وقت ايحاء ربك
لانه لا يقف على ذلك سواه وقيل يثبت الاقدام وقت الوحي وليس لهذا التقييد معنى
وقيل العامل فيه ليربط ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الايحاء ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الذ
امد بهم المسلمين ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والمعونة عن ابي امامة بن سهل بن حنيف قال قال
لي ابي يا بني لقد رايتنا يوم بدر وان احدنا ليشير بسيفه الى راس المشرك فيقع راسه عن
جسده قبل ان يصل اليه السيف وعن الربيع بن انس قال كان الناس يوم بدر يعرفون
قتلاء الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق
به ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اي بشروهم بالنصر والظفر او ثبتوهم على القتال بالحضور معهم
وتكثير سوادهم او قووا قلوبهم وهذا امر منه سبحانه للملائكة الذين اوحى اليهم بانه
معهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت
فقيل كما ان الشيطان له قوة في القاء الوسوسة في قلب ابن ادم بالشر فكذلك للملك
قوة في القاء الالهام في قلب ابن ادم بالخير ويسمى ما يلقيه الشيطان وسوسة وما يلقيه الملك
لمة والهاما فهذا هو التثبيت ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ اي الخوف فلا يكون
لهم ثبات وقد تقدم بيان معنى القاء الرعب في آل عمران وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين
حيث القى الرعب في قلوب الكفار قيل هذه الجملة تفسير لقوله اني معكم وكانت الملائكة لا
تعرف قتال بني ادم فعلمهم الله ذلك بقوله ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ المراد بها انفسها قاله
عطية وفوق زائدة قاله الاخفش وغيره وقال محمد بن يزيد وهذا عند الجمهور خطا لان
فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى انه ابيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها وقيل
المراد الرؤس قاله عكرمة وهذا ليس بجيد لان فوق لا يتصرف وزعم بعضهم انه يتصرف

وانك تقول فوق راسك برفع فوق وهو ظاهر قول الزمخشري وقال ابو عبيدة انها بمعنى
على تقديره فاضربوهم على الاعناق وهو قريب من الاول وقال ابن قتيبة هي بمعنى
دون قال ابن عطية وهذا خطأ بين وغلط فاحش وانما دخل عليه اللبس من قوله
تعالى بعوضة فما فوقها اي فما دونها وليست فوق هنا بمعنى دون وانما المراد فما فوقها
في القلة والصغر وعن الضحاك قال اضربوا الرقاب وقيل المراد بفوق الاعناق اعاليها
لانها المفاصل التي يكون الضرب فيها اسرع الى القطع قاله في الكشاف قيل هذا امر
للملائكة فيكون متصلا بما قبله وقيل للمؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وعلى الاول
قيل هو تفسير لقوله فثبتوا الذين امنوا وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ اي كل مفصل
قال الزجاج واحد البنان بنانة وهي هنا الاصابع وغيرها من الاعضاء والبنان
مشتق من قولهم ابن الرجل بالمكان اذا اقام به لانه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة
وقيل المراد بالبنان هنا اطراف الاصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات
في الحرب فاذا ضربت البنان تعطل من للضرب والقتال بخلاف سائر الاعضاء قال ابن فارس
البنان الاصابع وقال عطية كل مفصل بنانة وقال ابن عباس كل الاطراف وقال ابو الهيثم
البنان المفاصل قيل امرهم الله بضرب اعلى الجسد وهو الراس وفيه هلاك الانسان
وبضرب اضعف الاعضاء وهو البنان وفيه تعطيل حركة الانسان فيدخل في ذلك كل
عضو في الجسد ذَلِكَ اشارة الى ما وقع عليهم من القتل والاسر ودخل في قلوبهم من
الرعب بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ اي بسبب مشاقتهم والمشاقة المخالفة واصلها
من المجانبة وكذا الشقاق اصله ان يصير كل واحد من الخصمين في شق كانهم صاروا
في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه انهم شاقوا اولياء الله وهم
المؤمنون او شاقوا دين الله وقد تقدم تحقيق ذلك وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ اي يخالف ويجانبه
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق
يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شيء قليل فيما اعد الله لهم من
العقاب يوم القيامة والشرطية تكملة لما قبلها وتكرير لمضمونه وتحقيق السببية بالطريق

البرهاني كان قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله فانما من كان فله بذلك عقاب شديد فاذا لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد قاله ابو السعود ذلكم اشارة الى ما تقدم من العقاب والعذاب بالقتل والاسر وفيه اوجه منها العقاب ذلكم او الامر ذلكم الثاني ذلكم العقاب فذوقوه الخطاب هنا للكافرين كما ان الخطاب في قوله ذلكم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم او لكل من يصلح للخطاب في اشارة الله وقال ان عذاب الدنيا عاجل يسير بالاضافة الى المؤجل وان للكافرين عذاب النار معطوفة على ما قبلها فتكون الاشارة على هذا الى العقاب العاجل الذي اصيبوا به ويكون ذلك اشارة الى العقاب الاجل الذي اعد لهم في الآخرة ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على ان الكفر سبب العذاب الاجل والجمع بينهما وفيها وجوه خمسة ذكرها السمين يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا اي مجتمعين بعضكم الى بعض والزحف الدنو قليلا قليلا واصله الاندفاع على الالية ثم سمي كل ماش في الحرب الى آخر زاحفا والتزاحف التداني والتقارب يقال زحف الى العدو زحفا وازدحف القوم اي مشى بعضهم الى بعض ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف اي حال كونكم زاحفين الى الكفار او حال كون الكفار كالزاحفين اليكم او متزاحفين على ادبارهم في بطوء السير وذلك لان الجيش اذا كثر والتحم بعضهم ببعض يترائى ان سيره بطيء وان كان في نفس الامر سريعا فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة وهو الكثرة اي مجتمعين كانهم لكثرتهم يزحفون فلا تولوهم الادبار اي ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولي ظهره ودبره نهى الله المؤمنين ان ينهزموا عن الكفار اذا لقوهم وقد دب بعضهم الى بعض للقتال وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن وعلى كل حال الا حالة التحرف والتحيز وقد روي عن عمر وابن عمر وابن عباس وابي هريرة وابي سعيد الخدري وابي بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن ابي حبيب والضحاك ان تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر وان اهل بدر لم يكن لهم ان ينحازوا ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين اذ لم يكن في

الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ولا فئة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأما
بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض وبه قال أبو حنيفة قالوا ويؤيده قوله ومن يولهم
يومئذ دبره فإنه إشارة إلى يوم بدر وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف وذهب
جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة وأن الفرار من الزحف محرم
ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر وأجيب عن قول الأولين بأن
الإشارة في يومئذ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق ولا منافاة
بين هذه الآية وآية الضعف بل هذه الآية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرما
بشرط ما بينه الله في آية الضعف ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون
غير من حضرها فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه
وآله وسلم بالخروج لأنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء
أنه سيكون قتال ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من
جملة الكبائر كما في حديث اجتنبوا السبع الموبقات وفيه والتولي يوم الزحف ونحوه من الأحاديث
وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه وورد عن جماعة من الصحابة
أن التولي يوم الزحف من الكبائر قال ابن عطية والأدبار جمع دبر والعبارة بالدبر في هذه
الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له قلت ويطلق الدبر
على مقابل القبل وعلى الظهر وهو المراد هنا والمقصود ملزوم تولية الظهر وهو الانهزام
وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فأتى بلفظ الدبر دون الظهر
لذلك وبعض أهل علم البيان يسمي هذا النوع كناية وليس بشيء ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم
لقيتموهم ﴿دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ أي منعطفا ومائلا إليه والنصب على الحال والاستثناء
من ضمير المؤمنين أي ومن يولهم إلا رجلا منهم متحرفا واللام للتعليل أي لأجل قتال أي
لأجل التمكن منه والتحرف الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب
في المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه
ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب فإن الحرب خدعة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ أي منضما

وصائرا الى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو اي رجلا منهم متحرفا او متحيزا
ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز والتحيز والتحوز
الانضمام وتحوزت الحية انطوت وحزت الشيء ضممته والحوزة ما يضم الاشياء فقد باء
اي من ينهزم ويفر من الزحف الا في هاتين الحالتين فقد رجع بغضب كائن من الله و
مأواه جهنم اي المكان الذي يأوي اليه هو النار ففراره اوقعه الى ما هو اشد بلاء مما
فر منه واعظم عقوبة والمأوى ما يأوي اليه الانسان وبئس المصير ما صار اليه من
عذاب النار وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف وفي
ذلك دلالة على انه من الكبائر الموبقة فلم تقتلوهم اي اذا عرفتم ما قصه الله عليكم
من امداده لكم بالملائكة وايقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم
بما يسره لكم من الاسباب الموجبة للنصر قال الزمخشري الفاء في فلم جواب شرط محذوف
اي وان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم انتم وقال الشيخ وليست جوابا بل لربط الكلام
بعضه ببعض وما رميت اذ رميت اختلف المفسرون في هذا الرمي على اقوال فروي
عن مالك ان المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين فانه رمى
المشركين بقبضة من حصباء الوادي فاصابت كل واحد منهم وقيل المراد به الرمية
التي رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم
ومات منها وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
في حصن خيبر فسار في الهواء حتى اصاب ابن ابي الحقيق وهو على فراشه وهذه الاقوال
ضعيفة فان الآية نزلت عقب وقعة بدر وايضا المشهور في كتب السير والحديث في
قتل ابن ابي الحقيق انه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن اسحاق وغيره
ان المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم
بدر فانه اخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فاصابت كل واحد منهم
ودخلت في عينيه ومنخريه وانفه قال ثعلب المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم
اذ رميت بالحصباء فانهزموا ولكن الله رمى اي اعانك واظفرك والعرب تقول رمى الله

اليها فأتاك واظفرك وصنع لك وقد حكى مثل هذا ابو عبيدة في كتاب المجاز وقال محمد بن يزيد المبرد المعنى وما رميت بقوتك اذ رميت ولكنك بقوة الله رميت وقيل المعنى ان الرمية بتلك القبضة من التراب التي رميتها لم ترمها انت على الحقيقة لانك لو رميتها ما بلغ اثرها الا ما يبلغه رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث اثرت ذلك الاثر العظيم فاثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لان صورتها وجدت منه ونفاها عنه لان اثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة وكانها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اصلا هكذا في الكشاف وفي الآية بيان ان فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله خلقا لا كما تقوله الجبرية والمعتزلة لانه اثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه واثبته لنفسه فنحو هذا النفي والاثبات قال الكرخي نفي الفعل عنهم وعنه باعتبار الايجاد اذ الموجد حقيقة هو الله تعالى واثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة قال مجاهد هذا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين حصب الكفار وقال قتادة رماهم يوم بدر بالحصباء وعن حكيم بن حزام قال لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء الى الارض كانه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الحصباء وقال شاهت الوجوه فانهزمنا فذلك قوله تعالى وما رميت اذ رميت الآية وعن جابر نحوه وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فما بقي احد من القوم الا امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه الآية وقال ابن المسيب اخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حربته في يده فرمى بها ابي بن خلف وكسر ضلعا من اضلاعه وفي ذلك انزل الله وما رميت اذ رميت وعن الزهري نحوه واسناده صحيح اليهما قال ابن كثير وهذا القول عن هذين الامامين غريب جدا ولعلهما ارادا ان الآية تتناوله بعمومها وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعى بقوس فرمى بها الحصن فاقبل السهم حتى قتل ابن ابي الحقيق في فراشه فانزل الله وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ولِيُبلِيَ

المؤمنين منه بلاء حسناً البلاء يستعمل في الخير والشر على حد وبلوناهم بالحسنات
والسيئات والمراد هنا الخير النعمة وعليه اجمع المفسرون والمعنى ولينعم على المؤمنين
بالغنيمة انعاماً جميلاً اي للانعام عليكم بنعمه الجليلة فعل ذلك لا لغيره وقيل التقدير
لكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين وقال عروة بن الزبير اي ليعرف المؤمنين
من نعمته عليهم في اظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة هؤلاء ليعرفوا بذلك
حقه ويشكروا بذلك نعمته إن الله سميع لدعائهم عليم باحوالهم ذلكم اي البلاء الحسن
والقتل والرمي وأن الله موهن كيد الكافرين اي ان الغرض منه بما وقع مما حكته الآيات
السابقة ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الاستفتاح طلب
النصر وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم فقيل انها خطاب للكفار تهكماً بهم
لانهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة والمعنى ان تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم
النصر وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله ان ينصر احق الطائفتين واعلى
الجندين واهدى الفئتين واكرم الحزبين بالنصر والظفر وهو في نفس الامر دعاء عليهم
وان ارادوا به الدعاء على محمد وحزبه صلى الله عليه وآله وسلم فتهكم الله بهم وسمى ما
حل بهم من الهلاك نصراً ومعنى بقية الآية على هذا القول وإن تنتهوا عما كنتم عليه من
الكفر والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو اي الانتهاء خير لكم وإن تعودوا
الى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة نعد بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم
ونصرناهم في يوم بدر وقال قتادة نعد لكم بالقتل والاسر ولن تغني عنكم فئتكم اي
جماعتكم شيئاً ولو كثرت اي لا تغني عنكم في حال من الاحوال ولو في حال كثرتها ثم قال
وإن بالكسر استئنافاً وبفتحها على تقدير اللام الله مع المؤمنين اي محمد واصحابه قال السدي
ومن كان الله معه فهو المنصور ومن كان الله عليه فهو المخذول وقيل ان الآية خطاب
للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر وان تنتهوا عن مثل
ما فعلتموه من اخذ الغنائم وفداء الاسرى قبل الاذن لكم بذلك وعن التكاسل في القتال
والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا الى مثل ذلك نعد الى توبيخكم كما في قوله

لولا كتاب من الله سبق الآية ولا يخفى انه يأبى هذا القول معنى ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ويأباه ايضا ان الله مع المؤمنين وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف وقيل ان الخطاب في ان تستفتحوا للمؤمنين وفيما بعده للكافرين ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ امر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في امر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس وَلَا تَوَلَّوْا نهاهم عن التولي عن رسوله فالضمير في عَنْهُ عائد الى الرسول لان طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي من طاعة الله ومن يطع الرسول فقد اطاع الله ويحتمل ان يكون راجعا الى الله والى رسوله كما في قوله والله ورسوله احق ان يرضوه وقيل راجع الى الامر الذي دل عليه اطيعوا هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين وبه قال الجمهور وقيل انه خطاب للمنافقين والمعنى يا ايها الذين آمنوا بألسنتهم فقط قال ابن عطية وهذا وان كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا لان الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالايمان وهو التصديق والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء وابعد من هذا من قال الخطاب لبني اسرائيل فانه اجنبي من الآية وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وتصدقون بها ولستم كالصم البكم وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهم المشركون او المنافقون او اليهود او الجميع من هؤلاء فانهم يسمعون باذانهم من غير فهم ولا عمل وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ سماع تدبر واتعاظ اي فهم كالذي لم يسمع اصلا لانه لم ينتفع بما سمعه وهذه صفة المنافقين او المشركين إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ اي ما دب على وجه الارض واطلاق الدابة على الانسان حقيقي لما ذكروه في كتب اللغة من انها تطلق على كل حيوان ولو آدميا وفي المصباح الدابة كل حيوان في الارض مميزا او غير مميز عِنْدَ اللَّهِ اي في حكمه الصُّمُّ الْبُكْمُ اي الذين لا يسمعون ولا ينطقون وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ما فيه النفع لهم فيأتونه وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله لانها تميز بعض تمييز وتفرق بين ما ينفعها ويضرها قال ابن عباس هم نفر من قريش من بني عبد الدار وعن ابن

جبير قال نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ اي في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾ اي خيراً ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين قال الزجاج لاسمعهم جواب كل ما سألوا عنه وقيل لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا احياءهم لانهم طلبوا احياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال عروة بن الزبير لاسمعهم اي لانفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فرضاً وقد علم ان لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عنه ولم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل ولم يستقيموا ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً وجحوداً لانه قد سبق في علمه انهم لا يؤمنون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الامر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة والاستجابة الطاعة قال ابو عبيدة معنى استجيبوا اجيبوا والسين والتاء زائدتان وان كان استجاب يتعدى باللام واجاب بنفسه كما في قوله يا قومنا اجيبوا داعي الله وقد يتعدى استجاب بنفسه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير هنا كما وحده في قوله ولا تولوا عنه لان استجابة الرسول استجابة لله تعالى وانما يذكر احدهما مع الاخر للتوكيد وقد تقدم وجه ذلك ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ اي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم ولا مانع من ان تكون اللام متعلقة بدعا اي اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة لان العلم حياة كما ان الجهل موت ــه لا تعجبن الجهول حلته + فذاك ميت وثوبه كفن + قال الجمهور من المفسرين المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من اوامر ونواهي ففيه الحياة الابدية والنعمة السرمدية وقيل المراد الجهاد فانه سبب الحياة في الظاهر لان العدو اذا لم يغز غزى قاله ابن اسحق وقال السدي هو الايمان لان الكافر ميت فيحيى بالايمان وقال مجاهد هو الحق وقيل هو الشهادة لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون وعن قتادة قال هذا هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة وقال عروة بن الزبير الحرب التي اعزكم الله بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم وقد ثبت في الصحيح من حديث ابي سعيد بن المعلى قال كنت اصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فلم اجبه ثم اتيته فقلت يا رسول الله اني كنت اصلي فقال الم يقل الله تعالى استجيبوا
لله وللرسول اذا دعاكم الحديث وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم خرج على ابي بن كعب وهو يصلي فقال يا ابي فالتفت ابي ولم يجبه الحديث وفيه فقال
اني كنت في الصلوة فقال افلم تجد فيما اوحى الله الي استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم
قال بلى ولا اعود ان شاء الله تعالى اخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وهذه الاجابة
مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس لاحد ان يقطع صلاته لدعاء احد آخر
وقيل لو دعاه احد لامر لا يحتمل التأخير فله ان يقطع صلاته والاول اولى
ويستدل بهذا الامر بالاستجابة على انه لا بد من الاجابة في كل ما دعا الله ورسوله اليه
فيجب على كل مسلم اذا بلغه قول الله او قول رسوله في حكم من الاحكام الشرعية ان يبادر
الى العمل به كائنا ما كان ويدع ما خالفه من الآراء واقوال الرجال وفي هذه الآية
الشريفة اعظم باعث على العمل بنصوص الادلة وترك التقليد بالمذاهب وعدم الاعتداد
بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائنا ما كان ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾
قيل معناه بادروا الى الاستجابة قبل ان لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت
الذي كتبه الله عليكم وقيل معناه انه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فاعلمهم
الله انه يحول بين المرء وقلبه بان يبدلهم بعد الخوف امنا ويبدل عدوهم من الامن
خوفا واختار ابن جرير ان هذا من باب الاخبار من الله عز وجل بانه املك لقلوب
عباده منهم وانه يحول بينهم وبينها اذا شاء حتى لا يدرك الانسان شيئا الا بمشيئته
عز وجل ولا يخفاك انه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني وقال ابن عباس يحول
بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وبه
قال سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدي يحول بين الانسان وقلبه فلا
يستطيع ان يؤمن او يكفر الا باذنه وارادته قيل وهذا القول هو الذي دلت عليه
البراهين العقلية لان احوال القلوب اعتقادات ودواع وارادات وتلك الارادات
لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى فثبت بذلك ان المتصرف في القلب كيف شاء هو الله

والمعنى انه يحول بين المرء وخواطر قلبه او وادراك قلبه بمعنى انه يمنعه من حصول مراده او يمنعه من الادراك والفهم وفي الشهاب اصل الحول كما قال الراغب تغير الشيء وانفصاله عن غيره وباعتبار التغير قيل حال الشيء يحول وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه انه يفصل بينهما وهو غير متصور في حقه فهو مجاز عن غاية القرب من العبد لان من فصل بين شيئين كان اقرب الى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما وهو اما استعارة تبعية فمعنى يحول يقرب او تمثيلية و قيل مجاز مرسل ثم قال البيضاوي هذا تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله نحن اقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على انه مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها او حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه او تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفران اراد سعادته ويبدله بالامن خوفا وبالذكر نسيانا وما اشبه ذلك من الامور العارضة المفوتة للفرصة انتهى وقال الربيع بن انس علمه يحول ثم قال مجاهد يحول حتى يتركه لا يعقل وعن الحسن قال في القرب منه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان قلوب بني آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك اخرجه مسلم وفي الباب احاديث وهذا الحديث من احاديث الصفات يجب امراره على ما جاء من غير تاويل ولا تعطيل ولا تشبيه وكذا هذه الآية وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ اي انكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا قال الفراء ولو استانفت فكسرت همزة انه لكان صوابا ولعل مراده ان مثل هذا جائز في العربية وَاتَّقُوا خطاب للمؤمنين مطلقا صلحاؤهم وغيرهم فِتْنَةً المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسلط الظلمة وغير ذلك اي اتقوا سبب فتنة لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً اي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا يختص اصابتها بمن يباشر الظلم منكم وفي لا وجهان

احدهما انها ناهية والنهي في الصورة للمصيبة وفي المعنى للمخاطبين والثاني انها نافية والجملة صفة لفتنة وهذا واضح من هذه الجهة الا انه يشكل عليه توكيد المضارع في غير قسم ولا طلب ولا شرط وفيه خلاف وقد اختلف النحاة في هذه النون المؤكدة في تصيبن فقال الفراء هو جواب الامر بلفظ النهي ومثله قوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم اي ان تدخلوا وقال المبرد انه نهي بعد امر والمعنى النهي للظالمين اي لا يقربن الظلم ومثله ما روي عن سيبويه لا ارينك ههنا اي لا تكن ههنا فان من كان ههنا رأيته وقال الجرجاني هي في موضع وصف لفتنة وقيل لا تصيبن جواب قسم محذوف والجملة القسمية صفة لفتنة اي فتنة والله لا تصيبن ودخول النون ايضا قليل لانه منفي قال الزبير الفتنة ابتلاء والامر الذي هو كائن وعن الحسن قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير وعن الضحاك قال نزلت في اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وعن السدي قال نزلت في اهل بدر خاصة فاصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا وكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من اهل بدر فتصيب الظالم والصالح عامة وعن مجاهد والضحاك وقتادة مثله روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي قال حدثني مولى لنا انه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذي ذكره ابن الاثير في جامع الاصول عن عدي بن عميرة الكندي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا عملت الخطيئة في الارض كان من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها واخرج ابو داود عن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون ان يغيروا عليه ولم يغيروا الا اصابهم الله بعقاب قبل ان يموتوا وقال ابن زيد اراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا وروى الشيخان عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي

من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ او معاذا فليعذ به قال الكرخي واستشكل هذا
بقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى واجيب بأن الناس اذا تظاهروا بالمنكر فالواجب
على كل من رآه ان يغيره اذا كان قادرا على ذلك فاذا سكت فكلهم عصاة هذا بفعله
وهذا برضاه وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة انتهى
وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي فلا يتحقق
كون الانسان كارها له الا اذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله او ولده
فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار هكذا
قرره القسطلاني على البخاري وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ومن شدة عقابه انه
يصيب بالعذاب من لم يباشر اسبابه وقد وردت الآيات القرآنية بانه لا يصاب احد
الا بذنبه ولا يعذب الا بجنايته فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون
بتسليط العباد بعضهم على بعض ويمكن ان تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة
والله اعلم ويمكن ان يقال ان الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة باسباب كترك الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر فتكون الاصابة المتعدية للظالم الى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه
عند ظهور الظلم وعن ابن عباس قال امر الله المؤمنين ان لا يقروا المنكر بين اظهرهم
فيعمهم الله بعذاب وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ الخطاب للنبي
وللمهاجرين بتذكير نعمة الله عليهم بالحماية من اعدائهم حيث آواهم في المدينة ونصرهم
ببدر وهذه الآية نزلت بعد بدر اي اذكروا وقت قلتكم والارض هي ارض مكة
واطلقها في الآية لانها لعظمها كانها هي الارض كلها او لان حالهم كان في بقية البلاد
كحالهم فيها او قريبا من ذلك ولهذا عبر عنهم بالناس في قوله تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ و
الخطف الاخذ بسرعة والمراد بالناس مشركوا قريش وكفار مكة وقال عكرمة كفار العرب
وقيل فارس والروم قاله وهب فَآوَاكُمْ يقال أوى اليه بالمد والقصر بمعنى الضم اليه والمعنى
ضمكم الله الى المدينة او الى الانصار وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ اي قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي
منها يوم بدر او قواكم بالملائكة يوم بدر وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ التي من جملتها الغنائم احلها

الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وعن قتادة انها نزلت في ابي جهل وعن ابن سعيد
بن جبير انها نزلت في النضر بن الحارث وعن مجاهد وعطاء نحوه قال عطاء لقد نزل في
النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن
جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة
بن عدي وعقبة بن ابي معيط والنضر بن الحارث وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع
وَمَا كَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ روي انهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك
فنزلت اي وما كان الله معذبهم في حال كونهم مستغفرين قال ابن عباس كان فيهم
امانان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار فذهب النبي صلى الله عليه وآله
وسلم وبقي الاستغفار واخرج الترمذي وضعفه عن ابي موسى
الاشعري قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم انزل الله علي امانين لامتي وما كان
الله ليعذبهم الآية فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار وقيل معنى الآية لو كانوا ممن
يؤمنون بالله ويستغفرون لم يعذبهم وقيل ان الاستغفار راجع الى المسلمين الذين هم
بين اظهرهم اي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين فلما خرجوا
من بين اظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده وقيل المعنى وفي اصلابهم من يستغفر الله
وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة وقال مجاهد وعكرمة وهم
يستغفرون اي يسلمون يعني لو اسلموا لما عذبوا قال اهل المعاني دلت هذه الآية على
ان الاستغفار امان وسلامة من العذاب والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم في مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث وَمَا لَهُمْ أَلَّا
يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ لما بين سبحانه ان المانع من تعذيبهم هو الامران المتقدمان وجود رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهورهم ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك ان هؤلاء
اعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح والمعنى اي شيء لهم يمنع من تعذيبهم
قيل هذا العذاب هو القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة وَهُمْ اي والحال انهم
يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم واصحابه من البيت وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ كما زعموا اي مستحقين ولاية
امره مع شركهم وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من انهم ولاة البيت والحرم وان امرهما مفوض
اليهم ثم قال مبينا لمن له ذلك إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ اي من كان في عداد المتقين عن الشرك
والمعاصي وعن مجاهد قال من كانوا وحيث كانوا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ اي اكثر الناس لَا يَعْلَمُونَ
ذلك والحكم على الاكثرين بالجهل يفيد ان الاقلين يعلمون ولكنهم يعاندون او اراد
به الكل كما يراد بالقلة العدم وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ اي ما كان شيء مما يعدونه
صلاة وعبادة إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً اي الا هذين الفعلين والمكاء الصفير من مكا يمكو
مكاء ومكوا ومنه مكت است الدابة اذا نفخت بالريح وقيل المكاء هو الصفير على لحن طائر
ابيض بالحجاز يقال له المكاء والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية اذا صفق
وقيل المكاء الضرب بالايدي والتصدية الصياح وقيل المكاء ادخالهم اصابعهم في افواههم
والتصدية الصفير وقيل التصدية صدهم عن البيت ومعنى الاية ان المشركين كانوا
يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلوة والعبادة فوضعوا ذلك موضع
الصلوة قاصدين به ان يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلوة وعن عكرمة قال كان
المشركون يطوفون بالبيت على الشمال فالمكاء مثل نفخ البوق والتصدية طوافهم على الشمال
وقال السمين التصدية فيها قولان احدهما انها من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت
في الامكنة الخالية الصلبة يقال منه صدى يصدي تصدية والمراد بها هنا ما يسمع من صوت
التصفيق باحدى اليدين على الاخرى وقيل ماخوذ من التصدد وهو الضجيج والصياح والتصفيق
اي يضجون ويلغطون والثاني انها من الصد وهو المنع اي يمنعون انتهى والمكاء الصفير
وهو الصوت الخالي عن الحروف والمعنى انهم نزلوا ما حقهم ان يشتغلوا به في هذا المكان
من الصلاة وشغلوه بهذا اللعب والخرافة والهوس واستثنى المكاء والتصدية مع انهما ليسا
من جنس الصلوة تعريضا للمشركين بتركهم ما امروا به في المسجد الحرام فان ما لا يدخل تحت
الشيء قد يستثنى منه لمصلحة وغرض كقصد المدح والذم فعلى هذا يكون التقدير وما
كان موضع صلاتهم اي عوضها الا مكاء وتصدية فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

هذا التفات الى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة في ادخال الرعب في قلوبهم والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة قال الضحاك يعني اهل بدر عذبهم الله بالقتل والاسر إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه من شرح هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية اتبعها شرح احوالهم في الطاعات المالية والمعنى ان غرض هؤلاء الكفار في انفاق اموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وبارك وسلم وجمع الجيوش لذلك وانفاق اموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم احد ويوم الاحزاب فان الرؤساء كانوا ينفقون اموالهم على الجيش وعن ابن عباس قال نزلت في ابي سفيان بن حرب وعن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه وعن الحكم بن عتيبة قال نزلت في ابي سفيان انفق على مشركي قريش يوم احد اربعين اوقية من ذهب وكانت الاوقية يومئذ اربعين واثنين مثقالا من ذهب ثم اخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال فَسَيُنفِقُونَهَا اي سيقع منهم هذا الانفاق وسيعلمون عاقبة انفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود فحصلت المغايرة ثُمَّ تَكُونُ اي عاقبة ذلك ان يكون انفاقهم عَلَيْهِمْ حَسْرَةً كان ذات الاموال تنقلب حسرة وتصير ندما لفوات ما قصدوه بها ثُمَّ اخر الامر يُغْلَبُونَ في الدنيا كما وعد الله في مثل قوله كتب الله لاغلبن انا ورسلي ومعنى ثم في الموضعين اما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الاسلام من الامتداد واما التراخي في الرتبة لما بين بذل الاموال وعدم حصول المقصود من المباينة ثم قال وَالَّذِينَ كَفَرُوا اي استمروا على الكفر لان من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من اسلم وحسن اسلامه إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ اي يساقون اليها لا الى غيرها ثم بين العلة التي لاجلها فعل بهم ما فعل فقال لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ وهم الكافرون مِنَ الطَّيِّبِ وهم المؤمنون قال ابن عباس يميز اهل السعادة من اهل الشقاوة

وقيل العمل الخبيث من العمل الطيب وقيل الانفاق في طريق الشيطان وسبيل الرحمن وقيل الخبيث والطيب صفة للمال والتقدير ليميز المال الخبيث الذي انفقه المشركون في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المال الطيب الذي انفقه المسلمون في نصرته صلى الله عليه وآله وسلم فيضم تلك الاموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها كما في قوله تعالى فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال في الكشاف واللام على هذا متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وعلى الاول يحشرون انتهى وعن شمر بن عطية قال يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم ويجعل الخبيث اي يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض اي فوق بعض فيركمه الركوم عبارة عن الجمع والضم اي يجمع بعضهم الى بعض ويضم بعضهم الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم يقال ركم الشيء يركمه اذا جمعه والقى بعضه على بعض وبابه نصر وارتكم الشيء وتراكم اجتمع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه جميعا حال من الهاء في يركمه او توكيد لها فيجعله اي الخبيث فيه مراعاة اللفظ في جهنم أولئك اي الفريق الخبيث هم الخاسرون اي الكاملون في الخسران فيه مراعاة المعنى لان الضمير راجع على الخبيث قل للذين كفروا كابي سفيان واصحابه واللام للتبليغ إن ينتهوا الخ امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وبارك وسلم ان يقول لهم هذا المعنى سواء قاله بهذه العبارة او غيرها قال ابن عطية ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف ابن مسعود تنتهوا بالتاء لما تأدت الرسالة الا بتلك الالفاظ بعينها وقال في الكشاف هي لام العلة اي قل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم والمعنى ان ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام

يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ لهم من العداوة انتهى وقيل معناه ان ينتهوا عن الكفر
قال ابن عطية والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف و
مغفرة ما قد سلف لا يكون الا للمنتهي عن الكفر وفي هذه الآية دليل على
ان الاسلام يُجبّ ما قبله واخرج احمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال لمّا
جعل الله الاسلام في قلبي اتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط
يدك فلا بايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال ما لك فقلت اردت ان
اشترط قال تشترط ماذا قلت ان تستغفر لي قال اما علمت ان الاسلام يهدم
ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله وقد ثبت
في الصحيح من حديث ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الاسلام
يجب ما قبله والتوبة تُجبّ ما قبلها قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز
عن هدم ما قبله من كفر فكيف يعجز عن هدم ما بعده من ذنب وَإِنْ يَعُودُوا
الى القتال والعداوة او الى الكفر الذي هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار وفي
الحمل العود يشعر بسبق التلبس بالشيء الذي حصل العود اليه فالمعنى وان يرتدوا
عن الاسلام بعد دخولهم فيه يرجعوا الى الكفر وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وجواب الشرط محذوف تقديره ننتقم منهم بالعقاب والعذاب وقوله فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ تعليل للمحذوف ولا يصلح للجوابية كما لا يخفى اي سبقت
واستقرت سنة الله في اهلاك اعدائه ونصر اوليائه وهذه العبارة مشتملة
على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن اهلك من الامم في سالف الدهر بعذاب الله اي
قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الاولين من الامم ان يصيبه بعذاب
فليتوقعوا مثل ذلك عن مجاهد قال فقد مضت سنة الاولين في قريش وغيرها يوم
بدر والامم قبل ذلك وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بما مضى في الامم المتقدمة
من عذاب من قاتل الانبياء وصمم على الكفر وقال السدي ومحمد بن اسحاق المراد
بالآية يوم بدر وترسم سنت هذه بالتاء المجرورة وكذا الثلاثة التي في فاطر وكذا

التي في آخر خافر والاضافة على معنى في وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ اي شرك
قاله ابن عباس وقيل بلاء قاله الحسن وقد فسّرها جمهور السلف بالكفر وقال
محمد بن اسحاق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا المعنى حتى
لا يفتن مسلم عن دينه وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى والجملة معطوفة
على قل للذين لما كان الغرض من الاول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء
بالافراد ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا
جميعا وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ اي الطاعة والعبادة كلها لِلَّهِ خالصة دون غيره و
قال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليه قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله و
سلم واليه دعى وقيل يضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده
والمعاني متقاربة فَإِنِ انتَهَوْا عما ذكر من الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بالتحتية باتفاق السبعة وقرأ بالفوقية يعقوب من العشرة بَصِيرٌ
لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء فيجازيهم به وَإِن تَوَلَّوْا عما امروا من الانتهاء
او عن الايمان وجوابه محذوف اي فلا تخشوا باسهم فَاعْلَمُوا ايها المؤمنون أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ اي ناصركم عليهم ومتولي اموركم نِعْمَ الْمَوْلَىٰ هو وَنِعْمَ النَّصِيرُ فمن والاه فاز ومن نصره غلب

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

ما موصولة وكان القياس فصلها في الرسم من ان لكن ثبت وصلها في خط المصحف
الامام وثبت فصلها ايضا في بعضها على القياس كما ذكره ابن الجزري في قوله ع
وخلف الانفال ونحل وقعا + غَنِمْتُم لما امر الله سبحانه بالقتال بقوله وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ذكر حكم الغنيمة والغنيمة
قد قدمنا ان اصلها اصابة الغنم من العدو ثم استعملت في كل ما يصاب منهم و
قد يستعمل في كل ما ينال بسعي واما معنى الغنيمة في الشرع فحكى القرطبي الاتفاق على
ان المراد بقوله انما غنمتم مال الكفار اذا ظفر بها المسلمون على وجه الغلبة والقهر

قال ولا يقتضي اللغة هذا التخصيص ولكن عرف الشرع قيد هذا اللفظ بهذا النوع و
قد ادعى ابن عبد البر الاجماع على ان هذه الآية نزلت بعد قوله يسألونك عن الانفال
حين تشاجر اهل بدر في غنائم بدر وقيل انها يعني قوله يسألونك عن الانفال محكمة
غير منسوخة وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليست مقسومة
بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الائمة حكاه الماوردي عن كثير من المالكية قالوا
وللامام ان يخرجها عنهم واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان ابو عبيدة يقول افتتح
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ومَنَّ على اهلها فردها عليهم
ولم يقسمها ولم يجعلها فيأ وقد حكى الاجماع جماعة من اهل العلم على ان اربعة
اخماس الغنيمة للغانمين وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودي وا
المازري والقاضي عياض وابن العربي والاحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين
الغانمين وكيفيتها كثيرة جدا قال القرطبي ولم يقل احد فيما اعلم ان قوله تعالى
يسألونك عن الانفال الآية ناسخ لقوله واعلموا انما غنمتم الآية بل قال الجمهور ان قوله
واعلموا انما غنمتم ناسخ وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله واما
قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها قال واما قصة حنين فقد عوض
الانصار لما قالوا يعطي الغنائم قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نَفْسَه فقال
لهم اما ترضون ان يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
الى بيوتكم كما في مسلم وغيره وليس لغيره ان يقول هذا القول بل ذلك خاص به وقوله
انما غنمتم يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة قليلا كان او كثيرا ومِنْ شَيْءٍ بيان لما
الموصولة وقد خصص الاجماع من عموم الآية الاسارى فان الخيرة فيها الى الامام بلا خلاف
وكذلك سلب المقتول اذا نادى به الامام وقيل وكذلك الارض المغنومة ورُدّ بانه لا اجماع
على الارض فَأَنَّ اي فحق او فواجب ان لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُوْلِ وقد اختلف العلماء في
كيفية قسمة الخمس على اقوال ستة الاول قالت طائفة يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس
للكعبة وهو الذي لله والثاني لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والثالث لذوي القربى

والرابع لليتامى والخامس للمساكين والسادس لابن السبيل القول الثاني قاله ابو العالية
والربيع انها تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد ويقسم اربعة على الغانمين
ثم يضرب يده في السهم الذي عزله فما قبضه من شيء جعله للكعبة ثم يقسم بقية
السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده في الآية القول الثالث روي عن
زين العابدين علي بن الحسين انه قال ان الخمس لنا فقيل له ان الله يقول واليتامى و
المساكين وابن السبيل فقال يتامانا ومساكيننا وابناء سبيلنا القول الرابع قول الشافعي
ان الخمس يقسم على خمسة وان سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح
المؤمنين والاربعة الاخماس على الاربعة الاصناف المذكورة في الآية القول الخامس
قول ابي حنيفة انه يقسم الخمس على ثلاثة اليتامى والمساكين وابن السبيل وقد ارتفع
حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموته كما ارتفع حكم سهمه قال ويبدأ
من الخمس باصلاح القناطير وبناء المساجد وارزاق القضاة والجند وروي نحو هذا
عن الشافعي القول السادس قول مالك انه موكول الى نظر الامام واجتهاده فيأخذ منه
بغير تقدير ويعطي منه الغزاة باجتهاده ويصرف الباقي في مصالح المسلمين قال القرطبي
وبه قال الخلفاء الاربعة وبه عملوا وعليه يدل قوله صلى الله عليه وآله وسلم ما
لي مما افاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم فانه لم يقسمه اخماسا ولا اثلاثا و
انما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم لانهم من اهم من يدفع اليه
قال الزجاج محتجا لهذا القول قال الله تعالى يسألونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير
فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وجائز باجماع ان ينفق في غير هذه
الاصناف اذا رأى ذلك اخرج ابن منذر عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وآله
وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج
اليه الكعبة ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة اهله وسهم ذي القربى
لقرابته يضعه رسول الله فيهم مع سهمهم مع الناس ولليتامى والمساكين وابن السبيل
ثلاثة اسهم يضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن شاء وحيث شاء

ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الاسهم ولرسول الله سهم مع سهام الناس وعن
ابن بريدة قال الذي لله لنبيه والذي للرسول لازواجه وعن ابي العالية قال كان
يجاء بالغنيمة فتوضع فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خمسة اسهم
فيعزل سهما منها ويقسم اربعة اسهم بين الناس يعني لمن شهد الوقعة ثم يضرب بيده
في جميع السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة فهو الذي سمى الله
لا تجعلوا لله نصيبا فان لله الدنيا والآخرة ثم يعمد الى بقية السهم فيقسمه على خمسة
اسهم سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسهم لذي القربى وسهم لليتامى
وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل وعن ابن عباس قال فان لله خمسه مفتاح
كلام اي على سبيل التبرك وانما اضافه لنفسه لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف
شاء وليس المراد منه ان سهما منه لله مفرد لان لله ما في السموات وما في الارض
وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعي قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد
وذكر الله للتعظيم فجعل هذين السهمين في الخيل والسلاح وجعل سهم اليتامى والمساكين
وابن السبيل لا يعطيه غيرهم وجعل الاربعة الاسهم الباقية للفرس سهمين ولراكبه
سهم وللراجل سهم وعنه رضي الله عنه قال كانت الغنيمة تقسم على خمسة اخماس
فاربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على اربعة اخماس فربع لله وللرسول
ولذي القربى يعني قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما كان لله وللرسول
فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من
الخمس شيئا والربع الثاني لليتامى والربع الثالث للمساكين والربع الرابع لابن السبيل وهو
الضعيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين وَلِذِي الْقُرْبَى قيل اعادة اللام في ذي القربى
دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى
ان سهما من خمس الخمس لذوي القربى وقد اختلف العلماء فيهم على اقوال الاول انهم قريش
كلها روي ذلك عن بعض السلف واستدل بما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
انه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا يا بني فلان يا بني فلان

وقال الشافعي واحمد وابو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس وبني نوفل منه شيء وان كانوا اخوة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين اصابعه وهو في الصحيح وقيل هم بنو هاشم خاصة وبه قال مالك والثوري والاوزاعي وغيرهم وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد واختلفوا في سهمهم هل هو ثابت اليوم ام لا فذهب اكثرهم الى انه ثابت فيعطى فقراءهم واغنياءهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وبه قال مالك والشافعي وقيل انه غير ثابت وسقط سهمه وسهمهم بوفاته وصار الكل مصروفا الى الثلثة الباقية وبه قال ابو حنيفة واصحاب الرأي وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطونهم ولا يفضلون فقيرا على غني لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعطى العباس مع كثرة غناه وكذا الخلفاء بعده والحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير انهم يعطون القريب والبعيد ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قد تقدم بيان سهمهم قريبا والمراد باليتيم هنا هو الصغير المسلم الذي لا اب له فيعطى مع الحاجة اليه والمساكين هم اهل الفاقة من المسلمين وابن السبيل هو المسافر البعيد عن ماله المنقطع في سفره فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم اربعة اخماسها الباقية بين الغانمين الحاضرين في الوقعة الحائزين للغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة اسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم واحد لحديث ابن عمر في الصحيح وبه قال اكثر اهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي واحمد واسحاق وقال ابو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم والحديث يرد عليه وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول وعند ابي حنيفة يخير الامام بين قسمه ووقفه على المصالح ومن قتل قتيلا فله سلبه اخرجه الشيخان وغيرهما ويجوز تنفيل بعض الجيش من الغنيمة ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة ان المعنى فاعلموا ان الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله وقالت فرقة اخرى ان ان متعلقة بقوله واعلموا

انما غنمتم قال ابن عطية وهذا هو الصحيح لان قوله واعلموا يتضمن الامر بالانقياد
والتسليم لامر الله في الغنائم فعلق ان بقوله واعلموا على هذا المعنى اي ان كنتم مؤمنين
بالله فانقادوا واسلموا لامر الله فيما اعلمكم به من حال قسمة الغنيمة وقال في الكشاف انه
متعلق بمحذوف يدل عليه واعلموا بمعنى ان كنتم امنتم بالله فاعلموا ان الخمس من الغنيمة
يجب التقرب به فاقطعوا عنه اطماعكم واقنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد بالعلم
العلم المجرد ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لامر الله لان العلم المجرد يستوي فيه المؤمن
والكافر انتهى وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا اي ان كنتم امنتم بالله وبما انزلنا على محمد صلى
الله عليه واله وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه واله وسلم
يَوْمَ الْفُرْقَانِ بدل من يوم بدر لانه فرق بين اهل الحق باظهاره واهل الباطل باخماده
يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ اي الفريقان من المسلمين والكافرين عن علي بن ابي طالب قال كانت
ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان
وهو اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الاقل على الفريق الاكثر إِذْ اي اذكروا ايها المسلمون
إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ قرئ بكسر العين في الموضعين
وقرئ بالضم فيهما وهما لغتان في شط الوادي وشفيره سميت بذلك لانها عدت ما
في الوادي من ماء ونحوه ان يتجاوزها اي منعته وقرئ بالفتح وكلها لغات بمعنى واحد
هذا هو قول جمهور اللغويين وقيل هي جانب الوادي وحافته وقال ابو عمرو هي المكان المرتفع
والدنيا تانيث الادنى من دنى يدنو اي القربى من المدينة والقصوى تانيث الاقصى من
قصى يقصو ويقال القصيا والاصل الواو وهي لغة اهل الحجاز والمعنى وقت نزولكم
بالجانب الادنى من الوادي الى جهة المدينة وعدوكم بالجانب الاقصى منه مما يلي مكة
والباء بمعنى في كقولك زيد بمكة وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ اي والحال ان الركب في مكان
اسفل من المكان الذي انتم فيه مما يلي البحر واجاز الاخفش والكسائي والفراء رفع اسفل
على معنى اشد سفلا منكم وقيل الواو للعطف والركب اسم جمع لراكب او جمع له وهم

اعشرة فصاعدا ولا تقول العرب ركب الا للجماعة الراكبي الابل وقد يقال لمن كان
على فرس وغيرها راكب والجمع اركب وركوب كذا قال ابن فارس وحكاه ابن السكيت
عن اكثر اهل اللغة والمراد بالركب هنا ركب ابي سفيان وهي المراد بالعير فانهم كانوا
في موضع اسفل منهم مما يلي ساحل البحر على ثلاثة اميال من بدر قيل وفائدة ذكر هذه
الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب
اسفل منهم الدلالة على قوة شان العدو وشوكته وذلك لان العدوة القصوى التي
اناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت ارضا لا باس بها واما العدوة الدنيا فكانت
رخوة تسوخ فيها الاقدام ولا ماء بها وكانت العير وراء ظهر العدو ومع كثرة عددهم
فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه ولو تواعدتم اي انتم والمشركون
من اهل مكة على ان تلتقوا في هذا الموضع للقتال وا علم كل منكم الاخر للخروج له
لاختلفتم في الميعاد اي لخالف بعضكم بعضا فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء
بالوعد وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله صلى الله عليه واله وسلم فالميعاد
معناه التواعد والميعاد المواعدة ووقتها ومكانها كما في القاموس ولكن جمع الله بينكم
في هذا الموطن بغير ميعاد ليقضي الله امرا كان مفعولا اي حقيقا بان يفعل من نصر
اوليائه وخذلان اعدائه واعزاز دينه واذلال الكفر فاخرج المسلمين لاخذ العير وغنيمتها
عندا نفسهم واخرج الكافرين للمدافعة عنها ولم يكن في حساب الطائفتين ان يقع
هذا الاتفاق على هذه الصفة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن
بينة اي ليموت من يموت عن بينة ويعيش من يعيش عن بينة راها وعبرة عاينها
وحجة قامت عليه لئلا تبقى لاحد على الله حجة وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر
والاسلام اي ليصدر اسلام من اسلم عن وضوح بينة ويقين بانه دين الحق ويصدر
كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة وهو معنى قول ابن اسحق وقتادة وان الله لسميع بكفر الكافرين وايمان المؤمنين عليم بهما
لا يخفى عليه خافية اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر
المعنى ان النبي صلى الله عليه واله وسلم راهم في منامه قليلا فقص ذلك على اصحابه

فكان ذلك سببا لثباتهم قاله مجاهد ولو أراهم في منامه كثيرا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم
وتنازعوا في الامر هل يلاقونهم ام لا والمضارع بمعنى الماضي لان نزول الآية كان بعد
الاراءة ولكن الله سلم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله
صلى الله عليه وسلم في المنام قال ابن عباس سلم اي اتم يقول سلم لهم امرهم حتى اظهرهم على عدوهم
وقيل عني بالمنام محل النوم وهي العين اي في موضع منامك وهو عينك روي ذلك
عن الحسن قال الزجاج هذا مذهب حسن ولكن الاول اسوغ في العربية لقوله وإذ
يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا ويقللكم في اعينهم فدل بهذا على ان هذه
رؤية الالتقاء وتلك رؤية النوم إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ اي بما يحصل فيها من
الجرأة والجبن والصبر والجزع وقيل بما فيه من الحب لله عز وجل قاله ابن عباس وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا اي واذكروا وقت اراءتكم اياهم حال كونهم
قليلا حتى قال القائل من المسلمين لآخر اتراهم سبعين قال هم نحو المائة قال ابن مسعود
حتى اخذنا رجلا منهم فسألناه قال كنا الفا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ اي وقلل المسلمين في اعين
المشركين حتى قال قائلهم انما هم اكلة جزور وكان هذا قبل القتال والتحام الحرب فلما شرعوا
فيه كثر الله المسلمين في اعين المشركين كما قال في آل عمران يرونهم مثليهم رأي العين ووجه
تقليل المسلمين في اعين المشركين انهم اذا رأوهم قليلا اقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم
كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه لِيَقْضِيَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا في علمه وانما كرره لاختلاف الفعل المعلل به عن عباد بن عبد الله
بن الزبير قال ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن اراد الانتقام منه والانعام على من اراد النعمة
عليه من اهل ولايته وقيل المراد بالامر اعلاء كلمة الاسلام ونصر اهله واذلال كلمة
الشرك وخذلان اهله والمعاني متقاربة وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ اي تصير الْأُمُورُ كلها يفعل فيها
ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً اللقاء الحرب
والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها وتجمع على فئات وقد تجمع بالواو والنون جبرا
لما نقص منها اي اذا حاربتم جماعة من المشركين فَاثْبُتُوا لهم ولا تجبنوا عنهم وهذا لا ينافي

الرخصة المتقدمة في قوله الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فان الامر بالثبات هو في حال
السعة والرخصة هي في حال الضرورة وقد لا يحصل الثبات الا بالتحرف والتحيز واذكروا
الله كثيرا عند جزع قلوبكم فان ذكره يعين على الثبات في الشدائد وقيل المعنى اثبتوا
بقلوبكم واذكروا بالسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء وتضطرب اللسان فامرهم
بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان قيل وينبغي ان يكون الذكر في هذه الحالة بما
قاله اصحاب طالوت ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين
وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الاحوال حتى في هذه الحالة التي ترجف
فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر قال قتادة افترض الله ذكره عند اشغل ما يكونون
عند الضراب بالسيوف واخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثنتان لا تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا و
اخرج الحاكم وصححه عن ابي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الصوت عند
القتال لعلكم تفلحون اي كونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر وأطيعوا الله ورسوله
ولا تنازعوا فتفشلوا امرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم
اليه ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي فان ذلك يتسبب عنه الفشل وهو
الجبن في الحرب واما المنازعة بالحجة لاظهار الحق فجائزة كما قال وجادلهم بالتي هي
احسن بل هي مأمور بها بشروط منها قصد اظهار الحق على لسان اي الخصمين وعلامته
ان يفرح لظهوره على لسان خصمه وتذهب ريحكم الريح القوة والنصر كما يقال الريح
لفلان اذا كان غالبا في الامر وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ امرها بالريح وهبوبها
والمفاد ان الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة والرحمة والنصرة والدولة قال في الخازن
الريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا اقبل
امره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هو ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها
الله تضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا واهلكت عاد
بالدبور واصبروا ان الله مع الصابرين امرهم بالصبر على شدائد الحرب واخبرهم

بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل امر ينبغي الصبر فيه ويأخذ الجزاء للمبة التي لا يغلب من رزقها غالب ولا يوتى صاحبها من جهة من الجهات وان كانت كثيرة وَلَا تَكُونُوا في البطر والاستكبار كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ اي مكة بَطَرًا اي فخرا واشرا وَرِئَاءَ النَّاسِ فيصيبكم مثل ما اصابهم نهاهم عن ان تكون حالتهم كحالة هؤلاء وهم قريش فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع ابي سفيان ومعهم القيان والمعازف فلما بلغوا الجحفة بلغهم ان العير قد نجت وسلمت فلم يرجعوا بل قالوا لابد لهم من الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بخروجهم فكان خروجهم بطرا واشرا وطلبا للثناء من الناس والتمدح اليهم والفخر عندهم وهو الرياء قيل البطر في اللغة التقوي بنعم الله على معاصيه اي خرجوا بطرين مرائين او خرجوا للبطر والرياء قال الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها وجعلها وسيلة الى ما لا يرضاه الله و الرياء اظهار الجميل مع ابطان القبيح وقيل معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بهما والرياء مصدر رأى كقاتل قتالا وظاهر النظم الكريم ان قوله بطرا متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لان خروجهم كان لغرض مهم وهو المنع عن عيرهم ولهذا جعله السيوطي متعلقا بمحذوف وقدر لخروجهم علة اخرى حيث قال خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطرا فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله ولم يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين عن قتادة قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ اللهم ان قريشا قد اقبلت بفخرها و خيلائها لتجادل رسولك وقال جاءت من مكة افلاذها وقد احتج بهذه الآية الشيخ عبد العزيز الدهلوي على انه لا يجوز طوف البلد للعروس بركوب الخيل وغيرها كما اعتاد اهل الهند في عقود مناكحاتهم وَيَصُدُّونَ اي ويمنعون الناس عَنْ الدخول في سَبِيلِ اللَّهِ يعني وكذا صادين عن دين الله والمصد عنه والصد اضلال الناس و الحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ويجوز ان يكون المعنى يصدون بين لخروج على تلك الصفة والصد ونكتة التعبير بالاسم اولا ثم الفعل ان البطر والرياء كانا دأبا لهم خلاف

في لا يجوز طوف البلد للعروس

الصد فانه بعد خروجهم في زمن النبوة قاله الشهاب والله بما يعملون محيط لا يخفى عليه من اعمالهم
شيء فهو مجازيهم عليها وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم اي واذكر يا محمد إذ زين لهم الشيطان
اعمالهم بان شجعهم وقواهم لما خافوا الخروج من عداوة بني بكر وهم قبيلة كنانة
قريبة من قريش وبينها وبينهم الحروب الكثيرة والتزيين التحسين وقد روي ان الشيطان
تمثل لهم يوم بدر في جند من الشياطين معه قال ابن عباس اتاه في صورة رجل من رجال
بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم سيد تلك الناحية وكانت قريش تخاف من بني بكر
ان يأتوهم من ورائهم وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس اي كنانة وغيرها واني جار لكم
اي مجير ومعين وناصر لكم من كل عدو من بني كنانة ومعنى الجار هنا الدافع عن صاحبه
انواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار وقيل المعنى انه ألقى في روعهم هذه المقالة وخيل اليهم انهم
لا يغلبون ولا يطاقون فلما تراءت التقت الفئتان اي فئة المسلمين والمشركين ورأى
الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام نكص اي رجع على عقبيه هاربا اي رجع
القهقرى يمشي الى ظهره وقيل معنى نكص هنا بطل كيده وذهب ما خيله وقال اني بريء منكم
اي من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم وتبرأ منهم لما رأى امارات النصر مع المسلمين
بامداد الله لهم بالملائكة ثم علل ذلك بقوله اني أرى ما لا ترون من الملائكة ثم علل
بعلة اخرى فقال اني اخاف الله قيل خاف ان يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا
الوقعة وقيل ان دعوى الخوف كذب منه ولكنه رأى انه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل
بذلك والله شديد العقاب يحتمل ان يكون من تمام كلام ابليس بسطا للعذر ويحتمل ان يكون
كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه تهديدا لابليس إذ يقول المنافقون قيل هم الذين اظهروا
الايمان وابطنوا الكفر وكانوا بالمدينة وهو ابتداء كلام منقطع عما قبله والذين في قلوبهم
مرض هم الشاكون من غير نفاق الكائنون بمكة لم يقو اسلامهم لكونهم حديثي عهد بالاسلام
وعن الحسن قال مرضى القلوب هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين وقال الكلبي
هم قوم كانوا اقروا بالاسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا
المنافقين في قولهم غرّ هؤلاء دينهم حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش

وعن الشعبي نحوه وقيل هم المشركون ولا يبعد ان يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما
حولها انهم هم والمنافقون من اهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر
لما رأوهم في قلة من العدد وضعف من العدد فأجاب الله عليهم بقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ﴾ يثق به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه غالب ولا يذل من توكل عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكمة
البالغة التي تقصر عندها العقول ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من
يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع والرؤية بصرية والمعنى لو رأيت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ لان لو يقلب المضارع ماضيا اي لو ترى الكافرين وقت تتوفى الملائكة
لهم قيل اراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر وقيل هي فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف
تقديره لرأيت امرا عظيما ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ اي جهة الامام ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ اي جهة الخلف
يعني استاههم كنى عنها بالادبار وقيل ظهورهم بمقامع من حديد وهذا نص في ان
ملائكة الموت عند قبضها الروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ما ذكروا ان كنا محجوبين
عن رؤية ذلك وسماعه واختلفوا في وقت هذا الضرب فقيل يكون عند الموت تضرب
الملائكة وجوه الكفار وادبارهم بسياط من نار كما يفيده ذكر التوفي وقيل هو يوم القيامة
حين يسيرون بهم الى النار قال ابن جريج يريد ما اقبل من اجسادهم وادبر يعني يضربون
جميع اجسادهم قيل كان المشركون اذا اقبلوا بوجوههم على المسلمين ضربت الملائكة
وجوههم بالسيوف واذا ولوا ادبارهم ضربت الملائكة ادبارهم قيل كان معهم مقامع
من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم و يقول لهم خزنة
جهنم عند القتل ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ اي المحرق وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك
بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة والذوق قد يكون محسوسا وقد يوضع موضع
الابتلاء والاختبار واصله من الذوق بالفم ﴿ذَٰلِكَ﴾ اشارة الى ما تقدم من الضرب والحريق
والعذاب والقتل ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ اي واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب
هذا من جملة قول الملائكة وخص الايدي بالذكر دون غيرها لان اكثر الافعال تزاول بها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لانه لا يظلمهم او ذلك العذاب بسبب المعاصي وبسبب ان الله ليس بظلام

لهم فيعذبهم بغير ذنب لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه موضحة
لهم السبيل وهداهم النجدين كما قال سبحانه وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون والجملة
اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها كدأب لما ذكر سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه
بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال
فلان يدأب في كذا إذا داوم عليه وأتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لأن الإنسان
يداوم على عادته ويواظب عليها أي دأب هؤلاء في كفرهم مثل دأب آل فرعون والذين
من قبلهم والمعنى أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك فكانت العادة في عذاب هؤلاء
كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر من الأمم الماضية المكذبة فيما فعلوا و
فعل بهم كفروا بآيات الله مفسرة لدأب آل فرعون وبيان لفعلهم أي دأبهم هذا هو
أنهم كفروا بها فأخذهم الله بذنوبهم هذا بيان لما فعل بهم أي فتسبب عن كفرهم
أخذ الله سبحانه لهم والمراد بذنوبهم معاصيهم المترتبة على كفرهم فالباء للملابسة
أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها إن الله قوي على ما يريده شديد العقاب
جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ذلك أي العقاب الذي أنزله الله بهم بأن الله
لم يك مجزوم بسكون النون المحذوفة تخفيفا أي لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم المراد
بالنعمة هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم بها على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الأنصار قاله
السدي والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله أي أن ذلك العقاب بسبب
أن عادة الله في عباده عدم تغيير النعمة التي ينعم بها عليهم حتى يبدلوها بالنقمة حتى يغيروا
ما بأنفسهم من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمص إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه
وهذا يعم الحال المرضية والقبيحة فكما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة كذلك تغير الحال
المسخوطة إلى ما هو أسوأ منها هذا حاصل ما في الكشاف وذلك كما كان من آل فرعون ومن
قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا
ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تبديل النعم
كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها وجملة وأن الله سميع

التعرض لكفران النعمة

عليم معطوفة على ما قبلها داخلة معها في التعليل اي ذلك بسبب ان الله لم يك
مغيرا وبسبب ان الله سميع يسمع ما يقولونه وعليم يعلم ما يفعلونه ثم كرر ما تقدم فقال
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لقصد التأكيد مع زيادة انه كالبيان للاخذ
بالذنوب بانه كان بالاغراق وقيل ان الاول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم
والثاني باعتبار ما فعل بهم وقيل المراد بالاول كفرهم بالله وبالثاني تكذيبهم الانبياء وقيل
الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله احدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم
وادبارهم عند نزع ارواحهم والثاني اخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله
وهو الاهلاك والاغراق وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف وفي قوله كَذَّبُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق والكلام في فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كالكلام المتقدم
في فاخذهم الله بذنوبهم قيل المعنى اهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم
بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك اهلكنا كفار قريش بالسيف وَأَغْرَقْنَا
آلَ فِرْعَوْنَ اي قومه معه معطوف على اهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته
وكونه من اشد انواع الاهلاك وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون
والذين من قبلهم ومن كفار قريش بالظلم لانفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر
بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بانواع
الظلم وبالتكذيب للانبياء وجمع الضمير في كانوا وفي ظالمين مراعاة لمعنى كل لان كلا متى
قطعت عن الاضافة جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها اخرى وانما اختير هنا مراعاة المعنى
لاجل الفواصل ولو روعي اللفظ فقط فقيل وكل كان ظالما لم تتفق الفواصل قاله السمين
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا اي شر ما يدب على وجه الارض في حكم الله وقضائه
المصرون على الكفر المتمادون في الضلال وجعلهم شر الدواب لا شر الناس ايماء الى انسلاخهم
عن الانسانية ودخولهم في جنس غير الناس من انواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم
ومع ذلك هم شر من جميع افرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالانعام بل هم اضل
عن سعيد بن جبير قال نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت [illegible] قال

فهم لا يؤمنون اي هذا شأنهم لا يؤمنون ابدا ولا يرجعون عن الغواية اصلا وهذا الحكم مترتب
على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من اهل الطبع لا يلويهم صارف ولا
يثنيهم عاطف اصلا جيء به على وجه الاعتراض لا انه عطف على كفروا داخل معه في حيز
الصلة التي لا حكم فيها بالفعل قاله ابو السعود الذين عاهدت منهم اي اخذت منهم عهدهم ان
لا يعينوا المشركين اي كفار مكة قيل من في منهم صلة اي عاهدتهم وقيل للتبعيض اي الذين
عاهدتهم وهم بعض اولئك الكفرة يعني الاشراف منهم ثم ينقضون عهدهم الذي عاهدتهم
وعطف المستقبل على الماضي للدلالة على استمرار النقض منهم وهؤلاء هم قريظة عاهدهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك في كل مرة من مرات المعاهدة
فنقضوا واعانوهم بالسلاح وقالوا نسينا العهد ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤا الكفار عليه يوم الخندق
وهم اي والحال انهم لا يتقون الله في النقض والغدر ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون اسبابه
ثم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشدة والغلظة عليهم فقال فاما تثقفنهم في الحرب اي
فاما تصادفنهم في ثقاف وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم وتظفر بهم
يقال ثقفت الشيء ثقفا من باب تعب اخذته وثقفت الرجل في الحرب ادركته وثقفته
ظفرت به وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف وبه سمي حي من اليمن والثقاف في
اصل اللغة ما يشد به القناة ونحوها يقال فلان ثقف اي سريع الوجود لما يحاوله فشرد
بهم اي ففرق بقتلهم والتنكيل بهم والعقوبة لهم من خلفهم من المحاربين لك من اهل
الشرك كفار مكة حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة ان ينزل بهم ما نزل بهؤلاء
او يخافك من وراءهم من اهل مكة واليمن والتشريد التفريق مع اضطراب والازعاج وقال
ابو عبيدة شرد بهم سمع بهم وقال الزجاج افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم يقال
شردت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها ومنه شرد البعير
اذا فارق صواحبه وقرأ ابن مسعود بالذال قال قطرب التشريذ بالذال هو التنكيل وبالمهملة هو التفريق
وقال المهدوي الذال المعجمة لا وجه لها ولا يعرف في اللغة لعلهم اي الذين خلفهم يذكرون
اي يحذرون ان ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك قاله السدي وإما تخافن من قوم خيانة اي غشا

ونقضا للعهد من القوم المعاهدين بأمارة تلوح لك وهم قريظة والنضير فانبذ اليه‍م
فاطرح اليهم العهد الذي بينك وبينهم والنبذ الطرح وهو مجاز عن اعلامهم بأن
لا عهد لهم بعد اليوم فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه واثبت النبذ له
تخييلا ومفعوله محذوف وهو عهدهم قال الشهاب على سواء اي طريقة مستوية
والمعنى انه يخبرهم اخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة وقيل معنى على
سواء على وجه يستوي في العلم بالنقض اقصاهم وادناهم او تستوي انت وهم فيه لئلا
يتهموك بالغدر قال الكسائي السواء العدل وقد يكون بمعنى الوسط ومنه قوله في سواء
الجحيم وقيل معنى على سواء على جهر لا على سر والظاهر ان هذه الآية عامة في كل معاهد
يخاف من وقوع النقض منه قال ابن عطية والذي يظهر من الفاظ القرآن ان امر بني قريظة
انقضى عند قوله فشرد بهم من خلفهم ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما
يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ تعليل لما قبلها ع
يحتمل ان تكون تحذيرا للرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المناجزة قبل ان ينبذ اليهم على سواء
ويحتمل ان تكون عائدة الى القوم الذين تخاف منهم الخيانة وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
انفسهم من قريش سَبَقُوا اي فاتوا عذابه وخلصوا ونجوا منه وانهزموا يوم بدر وافلتوا
من ان يظفر بهم وعلى القراءة بالفوقية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد زعم
جماعة من النحويين ان قراءة يحسبن بالتحتية لحن لا يحل القراءة بها قال النحاس وهذا تحامل
شديد إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ تعليل لما قبلها اي انهم بهذا السبق لا يفوتون ولا يجدونه طالبهم
عاجزا عن ادراكهم والانتقام منهم وقيل المراد بهذه الآية من افلت من وقعة بدر من
المشركين والمعنى انهم وان افلتوا من هذه الوقعة ونجوا فانهم لا يعجزون بل هم واقعون
في عذاب الله في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
فيمن فاته من المشركين ولم يستقم منهم فاعلمه الله انهم لا يعجزونه وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ امر سبحانه باعداد القوة للاعداء الناقضين العهد كما يقتضيه السياق او للكفار مطلقا
كما يقتضيه ما بعده والاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه ومن لبيان الجنس والقوة

كل ما يتقوى به في الحرب على العدو ومن ذلك السلاح والقسي وقد ثبت في صحيح مسلم
وغيره من حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول واعدوا
لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي قالها ثلاث مرات وقيل هي الحصون والمصير الى
التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متعين وعن ابن عباس القوة الرمي و
السيوف والسلاح وقال ابن الزبير امرهم باعداد الخيل وعن عكرمة قال القوة ذكور الخيل
والرباط الاناث وعن مجاهد مثله وعن ابن المسيب قال القوة السهم الى الفرس فما دونه
وقال عكرمة الحصون وقيل كل ما هو آلة يستعان به في الجهاد فهو من جملة القوة المامور
باعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي ليس من القوة فهو كقوله
الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من افضل
المقصود واجله فكذا هنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو
بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل
ذلك مامور به لانه من فروض الكفايات ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ قال ابو حاتم الرباط من الخيل
الخمس فما فوقها وهي الخيل التي ترتبط بازاء العدو قال في الكشاف الرباط اسم للخيل
التي ترتبط في سبيل الله ويجوز ان تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة ويجوز ان يكون جمع
ربيط كفصيل وفصال انتهى والرباط الرابط به القربة وغيرها والجمع ربط مثل كتاب وكتب
ويقال للمصاب ربط الله على قلبه بالصبر كما يقال افرغ الله عليه الصبر اي الهمه والرباط
الذي يبنى للفقراء مولد ويجمع في القياس على ربط بضمتين ورباطات والمرابطة اقامة
المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من اعظم ما يستعان به قال ابن محيريز
كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند الشتات والغارات وقيل
ربط الفحول اولى من الاناث لانها اقوى على الكر والفر والعدو وقيل لفظ الخيل عام يتناول
الفحول والاناث فاي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به
في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه
من الاجر واستحباب اتخاذ الخيل واعدادها وكثرة ثواب صاحبها احاديث كثيرة لا يتسع

المقام بسطها وقد افرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
الترهيب التخويف والضمير في به راجع الى ما في ما استطعتم او الى المصدر المفهوم من
واعدوا وهو الاعداد اي حصلوا لهم هذا حال كونكم مرهبين او اعدوه مرهبا به وجاز
نسبته لكل منهما لان في الجملة ضميرهما والمراد بعدو الله وعدوكم هم المشركون من اهل
مكة وغيرهم من مشركي العرب وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ اي من غيرهم قيل هم اليهود وقيل
فارس والروم وقيل المنافقون وفيه بعد وقيل كفار الجن قاله الحسن ورجحه ابن جرير
الطبري وهو ابعد وقيل المراد كل من لا تعرف عداوته قاله السهيلي وقيل هو بنو قريظة
خاصة وقيل غير ذلك والاولى الوقف في تعيينهم لقوله لَا تَعْلَمُونَهُمُ اي لا تعرفونهم
باعيانهم ومن عينهم قال اي لا تعلمون بواطنهم وما انطووا عليه من النفاق والعلم
فيه قولان احدهما انه متعد لواحد لانه بمعنى المعرفة ولذلك تعدى لواحد والثاني
انه على بابه فتعدى لاثنين والثاني محذوف اي لا تعلمونهم فازعين او محاربين
وان هذين القولين لا يجوزان جريا في قوله اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ بل يجب ان يقال انها المتعدية
الى اثنين وان ثانيهما محذوف للفرق بين العلم والمعرفة بوجوه منها ان المعرفة
تستدعي سبق جهل ومنها ان متعلقها الذوات دون النسب وقد اتفق العلماء على
انه لا يجوز ان يطلق الوصف بالمعرفة على الله تعالى وهذا لا يرد لانه ليس في الاية اطلاق
اسم العارف عليه وانما فيها اطلاق اسم العلم وان كان بمعنى العرفان وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اي في الجهاد وان كان يسيرا حقيرا وقيل هو امر عام في كل وجوه الخيرات
والطاعات فيدخل فيه نفقة الغزو دخولا اوليا يُوَفَّ إِلَيْكُمْ اجره وجزاءه في الاخرة
فالحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة كما قررناه سابقا ويعجل
لكم عوضه في الدنيا وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله
اي من ثوابها بل يصير ذلك اليكم وافيا وافرا كاملا وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من
لدنه اجرا عظيما اني لا اضيع عمل عامل منكم والتعبير عنه بالظلم مع ان الاعمال غير موجبة للثواب
حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره

عنه تعالى من القبائح وابرازا لاثابته في معرض الامور الواجبة عليه تعالى وَإِنْ جَنَحُوا
لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا اي ان مالوا الى المصالحة فاقبل منهم الصلح ومل الى المصالحة والجنوح الميل
يقال جنح الرجل الى الرجل مال اليه ومنه قيل للاضلاع جوانح لانها مالت الى الحشوة وجنحت
الابل اذا امالت اعناقها في السير ويقال جنح الليل اقبل قال النضر بن شميل جنح الرجل الى
فلان ولفلان اذا خضع له والجنوح الاتباع ايضا لتضمنه الميل والجناح من ذلك
ميلانه الى الباطل والسلم الصلح قرئ بالكسر والفتح وهما قراءتان سبعيتان وقرئ فاجنُح
بضم النون وبالفتح والاولى لغة قيس والثانية لغة تميم قال ابن جني لغة قيس هي القياس و
السلم يذكر ويؤنث كما يؤنث الحرب اذ هي مأولة بالخصلة او الفعلة وعن مجاهد قال و
ان جنحوا يعني قريظة وعن ابن عباس قال السلم الطاعة وقد اختلف اهل العلم هل هذه
الآية منسوخة او محكمة فقيل هي منسوخة بقوله فاقتلوا المشركين قاله ابن عباس وقيل
ليست بمنسوخة لان المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم فتكون
خاصة باهل الكتاب قاله مجاهد وقيل ان المشركين ان دعوا الى الصلح جاز ان يجابوا اليه
وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم
الاعلون والله معكم وقيدوا عدم الجواز بما اذا كان المسلمون في عزة وقوة لا اذا لم يكونوا
كذلك فانه جائز كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من مهادنة قريش وما زالت الخلفاء والصحابة
على ذلك وهذا كله مبني على ان المراد بالصلح هو عقد الجزية اما لو اريد غيره من العقود
التي تفيد الامن وهي الهدنة والامان فلا نسخ مطلقا اذ يصح عقدهما لكل كافر وكلام اهل
العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواطنه وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ في جنوحك للسلم ولا
تخف من مكرهم وفوض امرك اليه فيما عقدته معهم ليكون ذلك عونا لك في جميع
احوالك إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لما يقولون الْعَلِيمُ بما يفعلون وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ
بالصلح وهم مضمرون الغدر والخدع جواب الشرط محذوف اي فصالحهم ولا تخش منهم فَإِنَّ
اي لان حَسْبَكَ اللَّهُ اي كافيك بنصره ومعونته ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر و
دفع خديعتهم هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ تعليلية اي لا تخف من خدعهم ومكرهم فان

الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر هو الذي سينصرك ويقويك عليهم
عند حدوث الخدع والنكث والمراد بالمؤمنين المهاجرون والانصار فان قلت لما كان
الله قد ايده بنصره فاي حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر
من الله عز وجل وحده لكنه يكون باسباب باطنة غير معلومة وباسباب ظاهرة معلومة
فاما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذي ايدك بنصره لان اسبابه
باطنة بغير وسائط معلومة واما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين
لان اسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو
الذي اقامهم لنصره ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وظاهره
العموم وان ائتلاف قلوب المؤمنين هو من اسباب النصر التي ايد الله بها رسوله وقال
جمهور المفسرين المراد الاوس والخزرج فقد كان بينهم عصبية شديدة وانفة عظيمة
وانطووا على الضغينة من ادنى شيء وحروب عظيمة وفتن من منذ مائة وعشرين سنة
لا يكاد يأتلف منهم قلبان فالف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وانقلبت
تلك الحالة واجتمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية وابدلت تلك الضغائن بالمحبة في
الله واتفقوا على الطاعة وصاروا انصار الرسول صلى الله عليه وسلم واعوانا يقاتلون عنه ويحمونه
وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة
باهرة دالة على صدقه وقيل اراد التأليف بين المهاجرين والانصار والحمل على العموم اولى فقد
كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الاسلام
فصاروا يدا واحدة وذهب ما كان بينهم من العصبية والانفة والحمية الجاهلية
لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى
ان ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حد لا يمكن دفعه بحال من الاحوال
ولو انفق الطالب له جميع ما في الارض لم يتم له طلبه من التأليف لان امرهم في ذلك
قد تفاقم جدا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ بعظيم قدرته وبديع صنعه وفيه دليل على
ان القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء إِنَّهُ عَزِيزٌ لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه امر

من الامور بحكمه في تدبيره ونفوذ امره ولطفه وعن ابن مسعود قال ان هذه الآية
نزلت في المتحابين في الله وهذا يدل على ان التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين ايد
الله بهم رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف
تأليف الله تعالى بينهم واخرج ابن عساكر عن ابي هريرة قال مكتوب على العرش لا اله الا
الله انا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي ايدته بعلي وذلك قوله هو الذي
ايدك بنصره وبالمؤمنين والله اعلم يا ايها النبي حسبك الله في كل شيء وعند كل مهم وليس
هذا تكريرا لما قبله فان الاول مقيد بارادة الخدع وان يريدوا ان يخدعوك فان
حسبك الله فتلك كفاية خاصة وفي هذه كفاية عامة غير مقيدة اي حسبك الله
في كل حال والواو في قوله ومن اتبعك من المؤمنين يحتمل ان تكون للعطف على الاسم
الجليل والعلم الشريف والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون اي كافيك الله وكافيك
المؤمنون ويحتمل ان تكون بمعنى مع كما تقول حسبك وزيدا درهم والمعنى كافيك وكافي المؤمنين
الله لان عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو واجازه
الكوفيون قال الفراء ليس بكثير في كلامهم ان تقول حسبك واخيك بل المستعمل
ان تقول حسبك وحسب اخيك باعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجرورا لقيل
حسبك الله وحسب من اتبعك وبه قال الشعبي واختار النصب على المفعول معه النحاس وقال
شيخ الاسلام احمد ابن تيمية رضي الله عنه اي وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين
اتبعوك ومن قال ان المعنى ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفر
فان الله وحده هو حسب كل عبد مؤمن والحسب الكافي كما قال تعالى اليس الله بكاف
عبده وقال تعالى وقالوا حسبنا الله ولم يقل ورسوله وقالوا انا الى الله راغبون ولم يقل
هنا والى رسوله انتهى وقيل يجوز ان يكون التقدير ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله
فحذف الخبر قال الزهري نزلت في الانصار وقيل في جميع المهاجرين والانصار وقال سعيد
بن جبير لما اسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلثة وثلثون وست نسوة ثم اسلم عمر نزلت هذه الآية وعن ابن عباس
نحوه فعلى هذا الآية مكية كتبت في سورة مدنية وقيل نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال يا ايها النبي

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ اي حثهم وحضهم والتحريض في اللغة المبالغة في
الحث على الشيء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كانه في الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك
وهو كالتحضيض مأخوذ من الحرض وهو ان ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفي على
الموت كأنه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المأمور به ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا
لخواطرهم بان الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة امثالهم من الكفار فقال
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ اي فيهم قوة وشجاعة فالمقاومة
مدارها على العدد مع مراعاة المعنى لا على العدد وحده كما هو مقرر في الفروع وفي
الآية احتباك حيث اثبت في الشرطية الاولى قيد الصبر وحذفه من الثانية واثبت في
الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الاولى وهو غاية الفصاحة ثم زاد هذا ايضاحا
مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد بل هي جارية في كل عدد فقال وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وفي هذا دلالة على ان الجماعة من المؤمنين قليلا
كانوا او كثيرا لا يغلبهم عشرة امثالهم من الكفار بحال من الاحوال قال الشهاب تكرير المعنى
الواحد اي وجوب ثبات الواحد للعشرة في الاول وثبات الواحد للاثنين في الثاني للدلالة
على ان حكم القليل والكثير واحد فكفاية عشرين لمائتين تغني عن كفاية مائة لالف
وكفاية مائة لمائتين تغني عن كفاية الف لالفين انتهى قيل وقد وجد في الخارج ما يخالف
ذلك فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين بل مثل
نصفهم بل مثلهم واجيب عن ذلك بان وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال
ان لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر عند اللقاء وقيل ان هذا الخبر
الواقع في الآية هو في معنى الامر كقوله تعالى والوالدات يرضعن اولادهن والمطلقات
يتربصن فالمؤمنون كانوا مامورين من جهة الله سبحانه بان يثبت الجماعة منهم لعشرة
امثالهم وفي الخطيب حاصل هذه العبارة المطولة ان الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة
في العدول الى تلك اجيب بان هذا ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على

المائة فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ اي ان هذا الغلب
بسبب جهلهم بالله وباليوم الآخر وعدم فقههم وانهم يقاتلون على غير بصيرة ولا يقاتلون
احتسابا وامتثالا لامر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون
وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب
ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف
فيهم فقال الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا عن قتال عشرة امثالكم قرئ
بضم الضاد وفتحها فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ منهم وَإِن يَكُن مِّنكُمْ
أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ فاوجب على الواحد ان يثبت لاثنين من الكفار قال سفيان قال ابن
شبرمة وارى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين امرهما وان
كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب المائة لمائتين
والالف للالفين انه بشارة للمسلمين بان عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات
والمئات الى الالوف ثم اخبرهم بأن هذا الغلب هو بِإِذْنِ اللَّهِ وتسهيله وتيسيره وارادته
لا بقوتهم وجلادتهم ثم بشرهم بأنه مع الصابرين فقال وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بعونه وفيه
الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به وانه من اعظم اسباب النجاح
والفلاح والنصر والظفر لان من كان الله معه لم يستقم لاحد ان يغلبه وقد اختلف
اهل العلم هل هذا التخفيف نسخ ام لا ولا يتعلق بذلك كثير فائدة مَا كَانَ اي ما صح وما
استقام لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ هذا حكم آخر من احكام الجهاد
والاسرى جمع اسير مثل قتلى وقتيل وجرحى وجريح ويقال في جمع اسير اسارى وهو مأخوذ
من الاسر وهو القد لانهم كانوا يشدون به الاسير فسمي كل اخيذ وان لم يشد بالقد اسيرا
وقال ابو عمرو بن العلاء الاسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون والاسارى هم الموثقون
ربطا والاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه تقول العرب اثخن فلان في هذا الامر اي بالغ
فيه فالمعنى ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك
وقيل معنى الاثخان التمكن وقيل هو القوة وقيل الثخانة هي الغلظة والصلابة فاستعمل

هنا في اللازم المعنى الاصلي وهو القوة اللازمة واثخن في الارض اثخانا اسارا الى العدو واوقعهم
قتلا واثخنته اوهنته بالجراحة واضعفته وعن ابن عباس حتى يثخن حتى يظهر على الارض
وعن مجاهد قال الاثخان هو القتل اخبر الله سبحانه ان قتل المشركين يوم بدر كان اولى
من اسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال فاما منا بعد واما
فداء كما يأتي في سورة القتال قال الرازي ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما
فداء يزيل حكم الاية التي نحن في تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الايتين متوافقتان
وكلتاهما تدلان على انه لابد من تقديم الاثخان ثم بعده اخذ الفداء انتهى وقال غيره
لا تظهر دعوى النسخ من اصلها اذ النهي الضمني كما هنا مقيد ومغيا بالاثخان اي كثرة القتال
اللازمة لها قوة الاسلام وعزته وما في سورة القتال من التخيير محله بعد ظهور شوكة
الاسلام بكثرة القتال فلا تعارض بين الايتين اذ ما هنا لبيان للغاية التي هنا
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا الخطاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بعرض الدنيا نفعها
ومتاعها بما قبضوا من الفداء وسمي عرضا لانه سريع الزوال كما تزول الاعراض التي هي مقابلة
الجواهر قال قتادة اراد اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر الفداء ففادوهم باربعة آلاف درهم
وقيل كان الفداء لكل اسير اربعين اوقية والاوقية اربعون درهما فيكون مجموع ذلك
الفا وستمائة درهم وعن عكرمة قال عرض الدنيا الخراج وَاللهُ يُرِيدُ لَكُمُ الدَّارَ الآخِرَةَ بما
يحصل لكم من الثواب في الاثخان بالقتل والمراد بالارادة هنا الرضاء وعبر بها للمشاكلة
فلا يرد ان الاية تدل على عدم وقوع مراد الله وهو خلاف مذهب اهل السنة قاله الشهاب
وَاللهُ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ في افعاله وقد استدل بهذه الاية من يقدح في عصمة
الانبياء واشتغل المفسرون برده وجوابه وما اقل فائدة ذلك لَوْلَا كِتَابٌ اي حكم مكتوب
ومثبت في اللوح المحفوظ مِنَ اللهِ سَبَقَ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق
ما هو على اقوال الاول انه ما سبق في علم الله من انه سيحل لهذه الامة الغنائم والاسرى
بعد ان كانت محرمة على سائر الامم والثاني انه مغفرة الله لاهل بدر ما تقدم من ذنوبهم
وما تأخر كما في الحديث الصحيح ان الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت

لكن القول الثالث هو انه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى وما كان الله ليعذبهم
وانت فيهم القول الرابع انه لا يعذب احدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا القول
الخامس انه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر القول السادس انه لا يعذب
احدا الا بعد تاكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهي عن ذلك فذهب ابن جرير الطبري الى ان
هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وانه يعمها لمسكم اي لحل بكم فيما اي لاجل ما اخذتم
من الفداء عذاب عظيم وهذا عتاب له صلى الله عليه وسلم على ترك الاولى اذ كان الاولى له ايثار
كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس عتابا على فعل محرم تنزيها لمنصب النبوة عن ذلك وقد
اخرج احمد عن انس قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الاسارى يوم بدر فقال ان الله قد امكنكم
منهم فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب اعناقهم فاعرض عنه النبي صلى الله
عليه وآله وسلم ثم عاد فقال مثل ذلك فقام ابو بكر الصديق فقال نرى ان تعفو عنهم وان تقبل
منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فانزل الله لولا كتاب من الله سبق الآية وفي الباب
روايات كثيرة بطرق عديدة بالفاظ مختلفة وفي بعضها عند احمد والترمذي وحسنه
عن ابن مسعود فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون
الين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون اشد من الحجارة مثلك يا
ابا بكر مثل ابراهيم عليه السلام قال من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك
يا ابا بكر مثل عيسى عليه السلام اذ قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز
الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا
ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام اذ قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم الحديث روي انهم امسكوا عن الغنائم فنزل فكلوا الفاء
للترتيب لما بعدها على سبب محذوف اي قد ابحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والمعنى
اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره وقيل ان ما عبارة عن الفداء اي كلوا من الفداء
الذي غنمتم فانه من جملة الغنائم التي احلها الله لكم حلالا ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه
حلالا طيبا اي كلا احلالا او النصب على الحال عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم احل الله لنا وذلك بان رأى ضعفنا وعجزنا فاحلها لنا
اخرجه البخاري ومسلم وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما فرط منكم رَحِيمٌ بكم فلذلك رخص لكم في اخذ الفداء في مستقبل
الزمان يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا اي قُلْ لِمَنْ اي لهؤلاء الذين فِي
أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى اسرتموهم يوم بدر واخذتم منهم الفداء إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
من حسن ايمان وصلاح نية وخلوص طوية يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء اي
يعوضكم في هذه الدنيا رزقا خيرا منه وانفع لكم او في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة
بالاعمال الصالحة وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذنوبكم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ شانه المغفرة لعباده والرحمة
لهم وقد اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عايشة قالت لما بعث اهل مكة في فداء
اسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء ابي العاص وبعثت فيه
بقلادة فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق رقة شديدة وقال ان رأيتم ان تطلقوا لها
اسيرها وقال العباس اني كنت مسلما يا رسول الله قال الله اعلم باسلامك فان يكن كما
تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني اخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن ابي طالب
وحليفك عتبة بن عمرو ففدى نفسه وابني اخويه وحليفه ونزلت قل لمن في ايديكم من الاسرى
الآية الحديث مختصرا والروايات في هذا الباب كثيرة قال العباس فابدلني الله خيرا
مما اخذ عني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير ادناهم يضرب بعشرين الف درهم
مكان عشرين اوقية واعطاني زمزم وانا انتظر المغفرة ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم
في قلبه خيرا ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ بما قالوه لك بالسنتهم
من انهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة بل
هو مماكرة ومخادعة فليس ذلك بمستبعد منهم فانهم قد فعلوا ما هو اعظم منه فَقَدْ
خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ اي من قبل ان يظفر بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ بان نصرك
عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت واسرت من اسرت وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما في ضمائرهم حَكِيمٌ في افعاله بهم
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ختم الله سبحانه

هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به وسمى سبحانه المهاجرين
الى المدينة بهذا الاسم لانهم هجروا اوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله واجابة لداعيه
وسبقوا بالهجرة بان هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية بدليل قوله فيما يأتي والذين
امنوا من بعد وهاجروا بعد عام الحديبية وقبل الفتح والذين اووا ونصروا هم الانصار اووا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين واسكنوهم منازلهم وبذلوا لهم اموالهم واثروهم على
انفسهم ولو كان بهم خصاصة ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والاشارة بقوله اولئك
الى الموصول الاول والاخر وهو مبتدأ خبره الجملة المذكورة بعده بعضهم اولياء بعض في النصرة
والمعونة وقيل في الميراث وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه
واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض والذين امنوا ولم يهاجروا من مكة بل اقاموا بها
ما لكم من ولايتهم بفتح الواو وكسرها اي من نصرتهم واعانتهم ومن ميراثهم من شيء
ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم فلا ارث بينكم وبينهم حتى يهاجروا الى المدينة
فيكون لهم ما كان للطائفة الاولى الجامعين بين الايمان والهجرة وان استنصروكم في الدين
اي هؤلاء الذين امنوا ولم يهاجروا اذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين فعليكم النصر اي فواجب
عليكم النصر قال الزجاج ويجوز النصر بالنصب على الاغراء اثبت للقسمين الاولين النصرة
والارث ونفى عن هذا القسم الارث واثبت له النصرة الا ان يستنصروكم على قوم بينكم
وبينهم ميثاق عهد فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين اولئك
القوم حتى ينقضي مدته وهي عشر سنين والله بما تعملون بصير تحذير عن تعدي حدود
الشرع الشريف والذين كفروا بعضهم اولياء بعض اي بعضهم ينصر بعضا ويتولاه
في اموره او يرثه اذا مات وفيه تعريض للمسلمين بانهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم
وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة و
المصارمة وان كانوا اقارب الا تفعلوه الضمير يرجع الى ما امروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين
ومناصرتهم على التفصيل المذكور وترك موالاة الكافرين تكن اي تقع فتنة في الارض
ان لم تفعلوا ذلك وهي قوة الكفار وفساد كبير اي مفسدة كبيرة في الدين والدنيا وهو ضعف

المسلمين ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله
والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار فقال وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا أي الكاملون في الإيمان لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة
الأهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى وليس في هذا تكرير لما
قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة ثم أخبر سبحانه
أن لهم منه مَغْفِرَةٌ لذنوبهم في الآخرة وَلهم في الدنيا رِزْقٌ كَرِيمٌ خالص عن الكدر طيب
مستلذ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ أخبر سبحانه بأن من هاجر
بعد هجرتهم وجاهد مع المجاهدين والأنصار وهي الهجرة الثانية التي وقع فيها الصلح ووضعت
الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة وقيل من بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان
وقيل بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والأول أولى لأن الهجرة قد انقطعت
بعد فتح مكة لأنها صارت دار الإسلام بعد الفتح فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ أي مثلكم في استحقاق
ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم لكن فيه دليل
على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة
لأن الله تعالى ألحق المتأخرين بالسابقين وجعلهم معهم وذلك معرض المدح والشرف
ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق قال في الجمل ولم يبينوا هنا على
حكم التوارث بالهجرة الثانية هل هو ثابت كما في الهجرة الأولى وغير ثابت لانحطاط رتبة أهل
الثانية عن رتبة أهل الأولى لا ما رأيته في الخطيب لكم ما لهم وعليكم ما عليهم من التوارث
والغنائم وغيرها وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ بين سبحانه بأن ذوي القرابات
بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث من التوارث
بالإيمان والهجرة فيتناول كل قرابة وقيل المراد بهم هنا العصبات قالوا ومنه قول العرب
وصلتك رحم فإنهم لا يريدون قرابة الأم ولا يخفاك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه
على غير العصبات وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الأرحام وهو ليس

بعمّتة وكالذي سهم على حسب اصطلاح اهل علم المواريث واليه ذهب اصحاب ابي حنيفة
والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه وقد قيل بان هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة
والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله بعضهم اولياء بعض وما بعده بالتوارث واما من
فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية اخبارا منه سبحانه وتعالى بان القرابات بعضهم
اولى ببعض فِي كِتَابِ اللهِ اي في حكم الله او في اللوح المحفوظ او في القرآن ومن ان قسمة
المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وكذا اعطاء اهل الفروض
فروضهم وما بقي للعصبات وبهذا اخذ الشافعي واصحاب ابي حنيفة رح ويدخل في
هذه الاولوية الميراث دخولا اوليا لوجود سببه اعني القرابة إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ربع
لا يخفى عليه شيء من الاشياء كائنا ما كان ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات
من التوارث بمقتضى الايمان والهجرة ولو بدون قرابة الذي قد نسخ والتوارث بمقتضى
القرابة ولو بدون مشاركة في الهجرة او النصرة والله سبحانه وتعالى اعلم

سُورَةُ بَرَاءَة

هي مائة وثلاثون آية وقيل مائة وسبع وعشرون آية ولها اسماء منها سورة
التوبة لان فيها ذكر التوبة على المؤمنين، وتسمى الفاضحة لانه ما زال ينزل فيها ومنهم ومنهم
حتى كادت ان لا تدع احدا وتسمى البحوث لانها تبحث عن اسرار المنافقين وتسمى المبعثرة
والبعثرة البحث وتسمى ايضا باسماء اخر كلها بصيغة اسم الفاعل الا البحوث فبفتح الباء صيغة
مبالغة وهي مدنية قال القرطبي باتفاق وعن ابن عباس قال نزلت بعد فتح مكة وعن
ابن الزبير وقتادة نحوه وعن البراء قال آخر سورة نزلت تامة براءة وقد اختلف العلماء
في سبب سقوط البسملة من اولها على اقوال الاول عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب
اذا كان بينهم وبين قوم عهد فاذا ارادوا نقضه كتبوا اليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة
فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبي
صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب في
نقض العهد من ترك التسمية وعن علي قال البسملة امان وبراءة نزلت بالسيف وهذا هو القول

الثاني وروي نحوه عن سفيان بن عيينة وروي من مالك بن انس وابن عجلان وابن جبير انها كانت تعدل سورة البقرة او قريباً منها وانه لما سقط اولها سقطت البسملة وهذا هو القول الثالث والرابع انهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلفت الصحابة فقال بعضهم براءة والانفال سورة واحدة وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت البسملة لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً قاله خارجة وابو عصمة وغيرهما وقول من جعلهما سورة واحدة اظهر لانهما جميعاً نزلتا في القتال ومجموعهما مأتان وخمس آية ويعدان جميعاً سابعة السبع الطوال وقال السيوطي لم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم انتهى لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم وعن عثمان قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها فظننت انها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم اخرجه الترمذي وحسنه والصحيح انها لم تكتب لان جبريل ما نزل بها في هذه السورة قاله القشيري وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب وروى البخاري عن البراء انها آخر سورة نزلت براءة يقال برئت من الشيء ابرأ براءة وانا منه بريء اذا ازلته عن نفسك وقطعت سبب بينك وبينه وقيل معناها هنا التباعد مما تكره مجاورته اي هذه براءة وقال حسين بن عمر اسمعوا والتزموا براءة لان فيها معنى الاغراء وقيل ذات براءة اي آلة على التبري والتباعد مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ اي انقطاع الوصلة بينهما وبين المشركين ومن ابتدائية إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ عهداً مطلقاً او دون اربعة اشهر او فوقها والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب للمسلمين ومن بيان للموصول وقد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم باذن من الله ومن الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى الاخبار للمسلمين بان الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض فصار النبذ اليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم وفي ذلك من التفخيم لشان البراءة

والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى قال مجاهد اهل العهد من المشركين
خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك فسيحوا ايها المشركون
في الارض اربعة اشهر امر اباحة منه سبحانه بالسياحة بعد الاخبار بثبوت البراءة والسياحة
السير يقال ساح فلان في الارض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ومنه سيح الماء في الارض
وسيح الخيل ومعنى الآية ان الله سبحانه بعد ان اذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم اباح
للمشركين الضرب في الارض والذهاب الى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الاربعة
الاشهر وليس المراد من الامر بالسياحة تكليفهم بها وقد جدده علي في الموسم وهذا القول كناية
عن عقد الامان لهم اربعة اشهر بعد نقضهم العهد بصورة الثلاث وانما اقتصر على الاربعة
لقوة المسلمين اذ ذاك بخلاف صلح الحديبية فانه كان على عشر سنين لضعف المسلمين اذ ذاك
قال محمد بن اسحاق ومجاهد وغيرهما ان المشركين صنفان صنف كانت مدة عهده اقل من
اربعة اشهر فامهل تمام اربعة اشهر والآخر كانت مدته اكثر من ذلك فقصر على اربعة اشهر
ليرتاد لنفسه وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد الا ان يتوب
ويرجع الى الايمان وابتدأ هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فاما
من لم يكن له عهد فانما اجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما عشرون من ذي
الحجة وشهر محرم وقال الكلبي انما كانت الاربعة الاشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى
الله عليه وسلم عهد دون اربعة اشهر فتمم له الاربعة ومن كان عهده اكثر من ذلك فهو
الذي امر الله ان يتم له عهده بقوله فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم كما سيأتي ورجح هذا
ابن جرير وغيره وعن الزهري قال نزلت في شوال فهي اربعة اشهر شوال وذو القعدة
وذو الحجة ومحرم والقول الاول اصوب وعليه الاكثرون وفي الباب اقوال وقيل المقصود من
هذا التأجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا انه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام
او القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول في الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد
وقال ابن الانباري التقدير قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة و
الاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعني فسيحوا في الارض وانتم آمنون من القتل

والقتال وقد توهم بعضهم ان بعث علي بن ابي طالب بقراءة اول براءة عزل لابي بكر
عن الامارة وذلك جهل من هذا المتوهم والبحث مستوفى في موطنه وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ اي اعلموا ان هذا الامهال ليس لعجز ولكن لمصلحة ليتوب من تاب وفي ذلك
ضرب من التهديد كانه قيل افعلوا في هذه المدة كلما امكنكم من اعداد الآلات والادوات
فانكم لا تفوتون الله ولا تعجزوا بعقد الامان لكم وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ اي وهو
مخزيكم ومذلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والاسر وفي الآخرة بالعذاب بالنار وفي وضع
الظاهر موضع المضمر اشارة الى ان سبب هذا الاخزاء هو الكفر ويجوز ان يكون المراد جنس
الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا اوليا واخرج الترمذي وحسنه وابن ابي حاتم و
الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعث ابا بكر وامره ان ينادي بهؤلاء الكلمات ثم اتبعه عليا وامره ان ينادي بهؤلاء الكلمات
فانطلقا فحجا فقام علي في ايام التشريق فنادى ان الله بريء من المشركين ورسوله
فسيحوا في الارض اربعة اشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل
الجنة الا مؤمن فكان علي ينادي فاذا اعيى قام ابو بكر ينادي بها وفي الباب احاديث
في الصحيحين وغيرهما بالفاظ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام
كما ان الامان والعطا بمعنى الايمان والاعطاء ومعنى إِلَى النَّاسِ التعميم في هذا اي انه
ايذان من الله الى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم فهذه الجملة متضمنة للاخبار
بوجوب الاعلام لجميع الناس والجملة الاولى متضمنة للاخبار بالبراءة الى المعاهدين صفة
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ظرف لقوله واذان ووصفه بالاكبر لانه يجتمع فيه الناس ولكون معظم
افعال الحج فيه او احترازا عن العمرة فهي الحج الاصغر لان اعمالها اقل من اعمال الحج اذ يزيد
عليها بامور كالرمي والمبيت فكان اكبر بهذا الاعتبار وسمي يوم الحج لان اعمال الحج يتوقف
معظمها وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الاية فذهب جمع منهم علي
بن ابي طالب وابن مسعود وابن ابي اوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد الى انه يوم النحر ورجحه
ابن جرير وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاوس الى انه يوم عرفة والاول اصح لان النبي

صلى الله عليه وسلم امر من بعثه لابلاغ هذا المشركين ان يبلغهم يوم النحر واخرج الترمذي وابن
المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن علي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم
الحج الاكبر فقال يوم النحر واخرج ابو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن قرط قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظم الايام عند الله يوم النحر ثم يوم القر وعن ابي اوفى عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال يوم الاضحى هذا يوم الحج الاكبر اخرجه ابن مردويه وعن ابن عمر ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال اي يوم هذا قالوا يوم النحر قال هذا
يوم الحج الاكبر اخرجه البخاري وابو داود وابن ماجة وغيرهم ولا يخفاك ان الاحاديث الواردة
في كون يوم النحر هو يوم الحج الاكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهما من طرق فلا تقوى
لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بانه يوم عرفة وقيل ايام منى كلها وبه قال مجاهد
وسفيان الثوري وهو يوم النحر وقيل اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قال ابن
سيرين والاول اولى وقيل القران قاله مجاهد أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ اي
بان الله بريء ورسوله بريء منهم وقرئ ورسوله بالجر على ان الواو للقسم وهي ضعيفة جدا
وقرئ شاذا ايضا بالنصب على انه مفعول معه قاله الزمخشري والرفع قراءة الجمهور باتفاق السبعة
فَإِن تُبْتُمْ من الكفر وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب وقيل فائدة هذا الالتفات
زيادة التهديد فَهُوَ اي المتاب والتوب والتوبة خَيْرٌ لَّكُمْ مما انتم فيه من الكفر الذي
هو ابا خير في زعمكم واحسن او التفضيل ليس على بابه والمعنى هو خير لا شر وفيه ترغيب في
التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار وَإِن تَوَلَّيْتُمْ اي اعرضتم عن التوبة
وبقيتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ اي غير فائتين عليه بل هو مدرككم فمجازيكم
باعمالكم وفيه وعيد عظيم وتهديد شديد وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ عبر عن الاخبار
بالبشارة تهكما بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قال ابن
عباس هم قريش وقال قتادة هم مشركوا قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية
وقيل هم بنو ضمرة حي من كنانة وعن محمد بن عباد هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر
بن كنانة قال الزمخشري هذا الاستثناء من قوله فسيحوا في الارض اي فقولوا لهم فسيحوا الا الذين

و قيل مستثنى من المشركين في قوله الذين عاهدتم من المشركين ويجوز كونه منقطعا
والتقدير لكن الذين عاهدتم فاتموا اليهم عهدهم وهذا اولى لما يرد على الاول من الفصل
بين المستثنى والمستثنى منه بجمل كثيرة ثم لم ينقصوكم شيئا امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم
باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة اشهر وكان السبب فيه انه لم
يقع منهم نقض وان كان يسيرا وفيه دليل على انه كان من اهل العهد من خاس
بعهده ومنهم من ثبت عليه فان الله سبحانه امر لنبيه صلى الله عليه وسلم بنقض عهد من نقض
وبالوفاء لمن لم ينقض الى مدته قرأ الجمهور بالصاد المهملة وقرئ بالمعجمة قال الكرماني
وهي مناسبة لذكر العهد فان من نقض العهد فقد نقص من المدة الا ان قراءة العامة
اوقع لمقابلتها التمام ولم يظاهروا المظاهرة المعاونة اي لم يعاونوا عليكم
احدا من اعدائكم فاتموا اليهم عهدهم اي ادوا اليهم عهدهم تاما غير ناقص الى
مدتهم التي عاهدتموهم اليها وان كانت اكثر من اربعة اشهر ولا تعاملوهم معاملة
الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقا وهي اربعة اشهر او خمسون يوما
على الخلاف السابق ان الله يحب المتقين الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون
بالعهد قال السدي فلم يعاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الآيات احدا فاذا انسلخ
الاشهر الحرم انسلاخ الشهر تكامله جزءا فجزءا الى ان ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه
شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه واصله الانسلاخ الواقع
بين الحيوان وجلده فاستعير لانقضاء الاشهر يقال سلخت المرأة درعها نزعته وفي
التنزيل وآية لهم الليل نسلخ منه النهار واختلف العلماء في تعيين الاشهر الحرم المذكورة
ههنا فقيل هي الاشهر الحرم المعروفة التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ثلاثة
سرد وواحد فرد ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين
في هذه الاشهر الحرم وقال السدي هي الاربعة عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر
ربيع الاول وعشر من ربيع الآخر قلت مراد السدي ان هذه الاشهر تسمى حرما لكون تأمين
المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال لا انها الاشهر الحرم المعروفة وقد وقع النداء والنبذ الى المشركين بعهدهم

يوم النحر فكان الباقي من الاشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضي بانقضاء شهر المحرم فامرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون وبه قال جماعة من اهل العلم منهم الضحاك والباقر وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقيل المراد بها شهور العهد المشار اليها بقوله فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وسميت حرما لان الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم والى هذا ذهب جماعة من اهل العلم منهم مجاهد وابن اسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب وقيل هي الاشهر المذكورة في قوله فسيحوا في الارض اربعة اشهر وهي شوال والثلاثة بعده وفي قوله الحرم تغليب وفيه الحرمة التاجيل لكن هذا عند قوتنا اما عند ضعفنا فيجوز الزيادة الى عشر سنين بحسب الحاجة فالحاجة حالية اومستانفة وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن اسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وسياتي بيان حكم القتال في الاشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة ان شاء الله تعالى فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ اي في اي مكان واي وقت وَجَدْتُّمُوهُمْ من حل وحرم وَخُذُوهُمْ اي اسروهم فان الاخيذ هو الاسير وَاحْصُرُوهُمْ اي احبسوهم في القلاع والحصون حتى يضطروا ويلجأوا الى القتل او الاسلام ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين الا باذن منهم وقيل امنعوهم من دخول مكة خاصة والاول اولى وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ اي طريق يسلكونه ونصب كل على نزع الخافض اي على كل طريق والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو ويقعد يقال رصدت فلانا ارصده اي رقبته اي اقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها لئلا ينتشروا في البلاد والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من اي وجه توجهوا وقيل بكل طريق مكة حتى لا يدخلوها وهذه الاية المتضمنة للامر بقتل المشركين عند انسلاخ الاشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها الا من خصته السنة وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل وكذلك يخصص منها اهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم وهذه الاية نسخت كل اية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على اذاهم وقال الضحاك وعطاء

والسدي هي منسوخة بقوله فإما منا بعد وإما فداء وان الاسير لا يقتل صبرا بل يمن
عليه او يفادى وقال مجاهد وقتادة بل هي ناسخة لقوله فاما منا بعد واما فداء وانه لا يجوز
في الاسارى من المشركين الا القتل وقال ابن زيد الآيتان محكمتان قال القرطبي وهو الصحيح لان
المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من اول حرب حاربهم وهو يوم بدر
قال الرازي كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لا بد من تقديم الاثخان ثم
بعده اخذ الفداء انتهى فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ اي تابوا عن الشرك الذي
هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من اعظم اركان الاسلام وهو اقامة الصلوة
وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالابدان من العبادات لكونه راسها واكتفى بالركن
الآخر المالي وهو ايتاء الزكوة عن كل ما يتعلق بالاموال من العبادات لانه اعظمها فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ اي اتركوهم وشانهم فلا تاسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ولا تمنعوهم من
الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم ولا تتعرضوا لهم إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لهم
وَإِنْ أَحَدٌ مرفوع بفعل مقدر مِنَ الْمُشْرِكِينَ الناقضين للعهد الذين امرت بالتعرض لهم
في قوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين اسْتَجَارَكَ استامنك من القتل فَأَجِرْهُ
يقال استجرت فلانا اي طلبت ان يكون جارا اي محاميا ومحافظا من ان يظلمني ظالم او يتعرض لي
متعرض وفي القاموس جار واستجار طلب ان يجار واجاره انقذه واعاذه وفي المصباح
استجاره طلب منه ان يحفظه فاجاره والمعنى امنه حَتّٰى يصح ان تكون للغاية وللتعليل
يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ منك ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو اليه ويتحقق انه
ليس من كلام الخلق والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شيء آخر في الفهم لكونهم من اهل الفصاحة
ثُمَّ ان اراد الانصراف ولم يسلم أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ اي الى الدار التي يامن فيها وهو دار قومه لينظر
في امره ويعرف ما له من الثواب ان امن وما عليه من العقاب ان اصر على الشرك ثم
بعد ان تبلغه مامنه قاتله من غير غدر ولا خيانة فقد خرج من جوارك ورجع الى ما كان
عليه من اباحة دمه ووجوب قتله حيث يوجد عن سعيد بن ابي عروبة قال كان الرجل يجيء
اذا سمع كتاب الله واقر به واسلم فذلك الذي دعي اليه وان انكر ولم يقر به رد الى مامنه ثم

نسخ ذلك فقال وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وعن ابن زيد قال ان لم يوافقه
ما يقص عليه ويخبر به فابلغه مأمنه وهذا ليس بمنسوخ قال الحسن هذه الاية محكمة
الى يوم القيامة ذلك اي الامر بالاجارة وابلاغ المأمن بانهم قوم لا يعلمون ما الايمان وما
حقيقة ما تدعوهم اليه بسبب فقدانهم العلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال و
المال فلابد لهم من امان بقدر زمان يسمعون فيه القران ويتدبرون كيف يكون للمشركين
الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار ولهذا حسن بعده الا والمراد بالمشركين الناكثون لان البراءة
هي في شانهم عهد عند الله يأمنون به من عذابه وعند رسوله وقيل معنى الاية محال
ان يثبت لهؤلاء عهد وهم اضداد لكم مضمرون للغدر فلا يطمعوا في ذلك ولا يحدثوا به
انفسهم والمعنى ليس من لم يف بعهده ان يفي الله ورسوله بالعهد ثم استدرك فقال الا
الذين عاهدتم اي لكن الذين عاهدتم ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم وقيل الاستثناء
متصل وفيه احتمالان احدهما انه منصوب على اصل الاستثناء من المشركين والثاني انه
مجرور على البدل منهم عند المسجد الحرام اي عند قربه يوم الحديبية والمراد به جميع الحرم
كما هي عادته في القران الا ما استثني فما استقاموا لكم اي فما داموا مستقيمين لكم على
العهد الذي بينكم وبينهم ولم ينقضوه وفي ما وجهان احدهما انها مصدرية زمانية
والثاني انها شرطية فاستقيموا لهم على الوفاء به قيل هم بنو بكر وقيل بنو كنانة
وبنو ضمرة وقال ابن عباس هم قريش وعن ابن زيد نحوه وقال السدي هم بنو جزيمة
وقال قتادة هم يوم الحديبية وقال مجاهد هم اهل العهد من خزاعة ان الله يحب
المتقين اشارة الى ان الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من اعمال المتقين فيكون تعليلا
للامر بالاستقامة وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوا باعانة بني بكر على خزاعة
كيف يكون لهم عهد وهو زيادة ترقي في استبعاد بقاء عهد لهم ولهذا اعاد الاستفهام
التعجبي للتاكيد والتقرير والحال انهم ان يظهروا عليكم بالغلبة لكم ويظفروا بكم
لا يرقبوا اي لا يراعوا ولا يحفظوا ولا ينتظروا فيكم الا ولا ذمة قال في الصحاح الال العهد
والقرابة قال الزجاج الال عندي على ما يوجبه اللغة يدور على معنى الحدة ومنه الالة

الحربة ومنه اذن مؤللة اي محددة وقال الفراء المراد به القرابة وقيل ان الال الجؤار
وهو رفع الصوت عند التحالف وذلك انهم كانوا اذا تحالفوا جاروا بذلك جؤارا ويجمع الال
في القلة على آلال وفي الكثرة على الال كقدح وقداح والال بالفتح قيل شدة القنوط قال
الهروي في الحديث عجب ربكم من الكم وقنوطكم وفي القاموس الال بالكسر العهد والحلف
وموضع والجؤار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى وكل
اسم آخره ال او ايل فمضاف الى الله تعالى والوحي والامان والجزع عند المصيبة ومنه ما
روي عجب ربكم من الكم فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح اكثر انتهى وقال ابن زيد والسدي
وابو عبيدة الال العهد وقيل الذمة والندم وقال الازهري هو اسم لله بالعبرانية و
اصله من الاليل وهو البريق يقال ال لونه يؤل الا اي صفا ولمع والذمة العهد وجمعها
ذمم فمن فسر الال بالعهد كان التكرير للتاكيد مع اختلاف اللفظين وقيل الذمة
الضمان يقال هو في ذمتي اي في ضماني وبه سمي اهل الذمة لدخولهم في ضمان المسلمين
ويقال له ذمة وذمام ومذمة وهي الذم قاله ابن عرفة وقال الراغب الذمام ما يذم
الرجل على اضاعته من عهد وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا
تهتكها وقال غيره سميت ذمة لان كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة
وقال ابو عبيدة والازهري الذمة الامان كما في قوله صلى الله عليه وسلم ويسعى بذمتهم ادناهم
وروي عنه ايضا ان الذمة ما يتذمم به اي ما يجتنب فيه الذم وقال قتادة الال الحلف
وقال ابو مجلز هو الله تعالى وعن مجاهد وعكرمة مثله وقال ابن عباس
الال القرابة والذمة العهد يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ اي يقولون
بالسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم وقلوبهم تابى ذلك
وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله اهل النفاق وذوو الوجهين والكلام
مستانف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله وان يظهروا عليكم الخ
يقال ابى يابى اي اشتد امتناعه فكل اباء امتناع من غير عكس ولم يصب من فسره بمطلق
الامتناع ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين

ثم حكم عليهم بالفسق فقال وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق
لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم شرطا ثم وصفهم بقوله اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
اي استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الامر بالوفاء بالعهود ثمنا حقيرا وهو
•٢ ثروة من حطام الدنيا اي تركوا اتباعها للشهوات والهوى وكانت شهوتهم اكلة
اطعمها ابو سفيان حملتهم على نقض العهد فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ اي فعدلوا واعرضوا
عن سبيل الحق او صرفوا غيرهم عنه وذلك ان اهل الطائف امدوهم بالاموال ليقووهم
على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الشرك ونقضهم العهد و
منعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً قال النحاس
ليس هذا تكريرا ولكن الاول لجميع المشركين والثاني لليهود خاصة والدليل على هذا اشتروا
بآيات الله ثمنا قليلا يعني اليهود وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق
وفي الاول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة وقيل الاول وقع جوابا لقوله و
ان يظهروا والثاني وقع خبرا عن تقبيح حالهم وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ اي المجاوزون
للحلال الى الحرام بنقض العهد والمبالغون في الشر والتمرد الى الغاية القصوى فَإِن تَابُوا
عن الشرك وعن نقض العهد الى الوفاء به قال قتادة يقول ان تركوا اللات والعزى و
شهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ اي التزموا
احكام الاسلام المفروضة فَإِخْوَانُكُمْ اي فهم اخوانكم فِي الدِّينِ اي في دين الاسلام
لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وكرره لاختلاف جزاء الشرط اذ جزاء الشرط في الاول تخلية
سبيلهم في الدنيا وفي الثاني اخوتهم لنا في الدين وهي ليست عين تخليتهم بل سببها
وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ اي نبينها ونوضحها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بما فيها من الاحكام ويفهمونه
وخص اهل العلم لانهم المنتفعون بها والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة
باحوال المشركين على اختلاف انواعهم وعن ابن عباس قال حرمت هذه الآية قتال
او دماء اهل الصلوة وقال ابن مسعود امرتم بالصلوة والزكوة فمن لم يزك فلا صلوة
له وقال ابن زيد افترضت الصلوة والزكوة جميعا لم يفرق بينهما وابى ان يقبل الصلوة

الا بالزكوة وقال يرحم الله ابا بكر ما كان افقهه يريد ما قاله في حق من منع الزكوة والله لا
افرق بين شيئين جمع الله بينهما يعني الصلوة والزكوة وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مقابل قوله
فان تابوا والنكث النقض واصله نقض الخيط بعد ابرامه ثم استعمل في كل نقض ومنه
نقض الايمان والعهود على طريق الاستعارة مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ اي من بعد ان
عاهدوكم والمعنى ان الكفار ان نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين ونقضوها وَ
طَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ اي وضموا الى ذلك الطعن في دين الاسلام والقدح فيه واظهروا ما
في ضمائرهم من الشر واخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وان
يظهروا عليكم لا يرقبوا الاية وثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد
الايمان كما قيل وعطف طعنوا على ما قبله مع ان نقض العهد كاف في اباحة القتل
لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم وقيل عطف تفسير فَقَٰتِلُوٓاْ اي فقد وجب على
المسلمين قتالهم أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ بهمزتين وبابدال الثانية ياء صريحة وفيه وضع الظاهر
موضع المضمر وهي جمع امام والمراد صناديد المشركين واهل الرياسة فيهم على العموم
وعن قتادة قال هم ابو سفيان بن حرب وامية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو جهل
بن هشام وسهيل بن عمرو وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة
وعن مالك بن انس مثله وقال ابن عباس رؤس قريش وعن الحسن انهم الديلم
وعن حذيفة قال ما قاتلوا اهل هذه الاية ولم يأت اهلها وعن علي نحوه وقال
مجاهد هم فارس والروم والاولى ان الاية عامة في كل رؤساء الكفر من غير تقييد
بزمن معين او بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومما يفيد
ذلك ما اخرجه ابن ابي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير انه كان في عهد ابي بكر
الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام انه قال انكم ستجدون قوما مجوفة رؤسهم
فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لان اقتل رجلا منهم احب الي من ان
اقتل سبعين من غيرهم وذلك بان الله يقول فقاتلوا ائمة الكفر إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ
قال الزمخشري هذه الجملة تعليل لما قبلها والايمان جمع يمين اي لا عهد لهم وسمي العهد

يميناً لاستحالته عليه غالباً والمعنى لا ايمان بار تخمروا ان وجدت صورة ويمين الكافر شرعية
عندنا والاستدلال به على ان يمين الكافر ليست يميناً ضعيفة ظاهر لان المراد نفي الوثوق
بقرينة وان نكثوا ايمانهم ولا يقال الكلام باعتبار اعتقادهم لان المخاطب هم المؤمنون قال
السدي يعني لا عهود لهم وعن عمار مثله وقرئ بكسر الهمزة والمعنى ان هؤلاء الناكثين للايمان
الطاعنين في الدين ليسوا من اهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم واموالهم فقتلهم
واجب على المسلمين وقيل لا وفاء لهم بالعهود وقيل هو من الامان اي لا يعطون امانا بعد
نكثهم وطعنهم يعني لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عن كفرهم
ونكثهم وطعنهم في دين الاسلام والمعنى ان قتالهم يكون الى غاية هي الانتهاء عن ذلك
وقد استدل بهذه الآية على ان الذمي اذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال
ابو حنيفة لان الله انما امر بقتلهم بشرطين احدهما نقض العهد والثاني الطعن في الدين
وذهب مالك والشافعي وغيرهما الى انه اذا طعن في الدين قتل لانه ينتقض عهده
بذلك قالوا وكذلك اذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فانه
يقتل أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي
مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحققه والمعنى ان من كان حاله
كحال هؤلاء من نقض العهد فهو حقيق بأن لا يترك قتاله وان يوبخ من فرط في ذلك
وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره
باذن الله له في الهجرة وتقدم انهم هموا بالصد امور ثلاثة قتله وحبسه واخراجه وانما اقتصر
هنا على همهم بالاخراج لانه هو الذي وقع اثره في الخارج بحسب الظاهر وكانت دار الندوة
مكان اجتماع القوم للتحدث وكان قد بناها قصي وقد دخلت الآن في المسجد فهي مقام
الحنفي الآن وَهُمْ بَدَءُوكُمْ بالقتال أَوَّلَ مَرَّةٍ اي يوم بدر قال مجاهد قتال قريش حلفاء
النبي صلى الله عليه وسلم وهمهم باخراج الرسول زعموا ان ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في العام الثاني
الحديبية نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في انفسهم اذا دخلوا مكة ان يخرجوه
منها فذلك همهم باخراجه فلم تتابعهم خزاعة على ذلك فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة

قالت قريش لخزاعة عميتمونا عن اخراجه فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالا أتخشونهم الاستفهام
للتوبيخ والتقريع اي اتخشون ان ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية ثم بين ما
يجب ان يكون الامر عليه فقال فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين اي هو احق
بالخشية منكم فانه هو الضار النافع في الحقيقة ومن خشيته ان تقاتلوا من امركم
بقتاله فان قضية الايمان توجب ذلك عليكم ثم زاد في تأكيد الامر بالقتال فقال
قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم
مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ورتب على هذا الامر فوائد الاولى تعذيب الله
للكفار بايدي المؤمنين بالقتل والاسر الثانية اخزاؤهم قيل بالاسر وقيل بما نزل بهم
من الذل والهوان والثالثة نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم والرابعة ان الله يشفي
بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره والخامسة انه سبحانه
يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الامور
الجالبة للغيظ وحرج الصدر فان قيل شفاء الصدور واذهاب غيظ القلوب كلاهما
بمعنى فيكون تكرارا قيل في الجواب ان القلب اخص من الصدر وقيل ان شفاء الصدور
اشارة الى الوعد بالفتح ولا ريب ان الانتظار لانجاز الوعد مع الثقة به فيه شفاء للصدور
وان اذهاب غيظ القلوب اشارة الى وقوع الفتح وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد
هذه الامور كلها عن عكرمة قال نزلت هذه الآية في خزاعة وعن مجاهد والسدي وقتادة
نحوه وقد ساق القصة ابن اسحاق في سيرته واورد فيها النظم الذي ارسلته خزاعة
الى النبي صلى الله عليه وسلم واوله ۞ يا رب اني ناشد محمدا ۞ حلف ابينا وابيه الاتلدا ۞ واخرج
القصة البيهقي في الدلائل ثم قال ويتوب الله على من يشاء وهو ابتداء كلام مستأنف
يتضمن الاخبار بما سيكون وهو ان بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض
اهل مكة يوم الفتح فانهم اسلموا وحسن اسلامهم كابي سفيان وعكرمة وسهيل
بن عمرو فهؤلاء كانوا ائمة الكفر ثم منّ الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فان قيل كيف
تقع التوبة جزاء للمقاتلة اجيب بان القتال قد يكون سببا لها اذا كانت من جهة الكفار ولما

اذا كانت من جهة المسلمين فوجهه ان النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تُتْرَكُوْا ام هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة والاستفهام للتوبيخ وحرف الاضراب للدلالة على الانتقال من كلام الى اخر والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بان تتركوا على ما انتم عليه والتقدير ام حسبتم ان تتركوا من غير ان تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب يعني بدون تكليفكم بالقتال الذي شئتموه وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جَاهَدُوْا مِنْكُمْ المراد من نفي العلم نفي المعلوم والمعنى كيف تحسبون انكم تتركون ولما تبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص قال الرازي ونقل الواحدي عن الزجاج يعني العلم الذي يجازى عليه لانه انما يجازى على ما عملوا وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلَا رَسُوْلِهٖ وَلَا الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً داخلة في حكم النفي والوليجة من الولوج وهو الدخول ولج يلج ولوجا اذا دخل فالوليجة الدخيلة قال ابو عبيدة كل شئ ادخلته في شئ ليس منه فهو وليجة ويكون للمفرد وغيره بلفظ واحد وقد يجمع على ولائج وولج كصحيفة وصحف قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين وقيل وليجة الرجل من يداخله في باطن اموره والمعنى واحد اي كيف تتخذون دخيلة او بطانة من المشركين تفشون اليهم باسراركم وتعلمونهم اموركم من دون الله وقال قتادة وليجة يعني خيانة وقال الضحاك خديعة وقال الراغب الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم وَاللّٰهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ اي بجميع اعمالكم ع مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِيْنَ اي ما ينبغي ولا يصح لهم اَنْ يَّعْمُرُوْا قرئ من اعمر يعمر اي يجعلون طامن يعمرها وقرئ من عمر يعمر مَسٰجِدَ اللّٰهِ قرئ بالجمع والافراد واختار الجمع ابو عبيدة قال النحاس لانها اعم والخاص يدخل تحت العام وقد يحتمل ان يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة لقوله وعمارة المسجد الحرام وهذا جائز فيما كان من اسماء الاجناس كما يقال فلان يركب الخيل وان لم يركب الا فرسا وعلى هذا يندرج فيه سائر المساجد ويدخل المسجد الحرام دخولا اوليا قال وقد اجمعوا على الجمع في قوله مساجد الله قلت وهي ايضا محتملة للامرين وعن الحسن البصري انما قال تعالى مساجد والمراد المسجد الحرام لانه قبلة المساجد كلها وامامها اضامرة

جميع المساجد او لان كل بقعة من المسجد الحرام يقال لها مسجد قال الفراء العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا ملكا واحدا والمراد بالعمارة اما المعنى الحقيقي او المعنى المجازي وهو ملازمته ودخوله التعبد والقعود فيه وكلاهما ليس للمشركين اما الاول فلانه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم واما الثاني فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام قيل لو اوصى كافر ببناء المسجد لم تقبل وصيته وكذا يمنع من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل عزر وان دخل باذن لم يعزر ولكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها شٰهِدِيْنَ باظهار ما هو كفر من نصب الاوثان والعبادة لها وجعلها آلهة فان هذا شهادة منهم عَلٰٓى اَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وان ابوا ذلك بالسنتهم فكيف يجمعون بين امرين متنافيين عمارة المساجد التي هي من شان المؤمنين والشهادة على انفسهم بالكفر التي ليست من شان من يتقرب الى الله بعمارة مساجده وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك مع قولهم نحن نعبد اللات والعزى وقيل ان اليهودي يقول هو يهودي والنصراني يقول هو نصراني والصابي يقول هو صابي والمشرك يقول هو مشرك وقال ابن عباس شهادتهم سجودهم للاصنام وقال الحسن كلامهم بالكفر وقيل شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من انفسهم وما ابعده عن المقام اُولٰٓئِكَ حَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ التي يفتخرون بها ويظنون انها من اعمال الخير مثل العمارة والحجابة والسقاية وفك العاني لانها مع الكفر لا تاثير لها اي بطلت ولم يبق لها اثر وَفِي النَّارِ هُمْ خٰلِدُوْنَ في هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تاكيد لمضمونها ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال اِنَّمَا يَعْمُرُ مَسٰجِدَ اللّٰهِ الظاهر ان الجمع هنا حقيقة لان المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد اقطار الارض والتعمير يعم البناء والتزيين بالفرش والسراج وبالعبادة وترك حديث الدنيا يقال عمرت الدار عمرا من باب قتل بنيتها والاسم العمارة بالكسر وعمرت الحرام

عمرا من باب كتب فهو عامر اي معمور وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما أن امن بالله واليوم الاخر واقام الصلوة واتى الزكوة اي فعل ما هو من لوازم الايمان من اقامة الصلوة وايتاء الزكوة وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اقام الصلوة واتى الزكوة فقد امن برسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر اخرجه احمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي وعبد بن حميد وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان اوكبيرا بنى الله له بيتا في الجنة اخرجه الترمذي وعن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة وقد وردت احاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات ولم يخش احدا الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين فيه حسم لاطماع الكفار في الانتفاع باعمالهم فان الموصوفين بتلك الصفات الاربع اذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات وقيل عسى من الله واجبة وقال ابن عباس كل عسى في القرآن فهي واجبة كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا وهي الشفاعة وقيل هي بمعنى خليق اي فخليق ان يكونوا من المهتدين وقيل ان الرجاء راجع الى العباد قال ابن عباس يقول من وحد الله وامن بما انزل الله واقام الصلوات الخمس ولم يعبد الا الله فهو من المهتدين فمن كان جامعا بين هذه الاوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خاليا منها او من بعضها واقتصر على ذكر الصلوة والزكوة والخشية تنبيها بما هو اعظم امور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لان كل ذلك من لوازم الايمان والاستفهام في قوله اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام للانكار وهو استيناف خوطب به المشركون التفاتا عن الغيبة في قوله ما كان للمشركين ان يعمروا والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية

قال في المجمل السقاية هي المحل الذي يتخذ فيه الشراب في الموسم كان يشترى الزبيب فينبذ في ماء زمزم ويسقى للناس وكان يليها العباس جاهلية واسلاما واقرها النبي صلى الله عليه وسلم له في لال العباس ابدا فلا يجوز لاحد نزعها منهم ما بقي منهم احد قاله المناوي في شرح الجامع الصغير والظاهر ان هذا المعنى لا يظهر هنا بل المراد بها المصدر اي سقاء الحجاج واعطاء الماء لهم وقيل في الكلام حذف والتقدير اجعلتم اصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد او اياهما وقرئ سقاة الحاج وعمرة المسجد جمع ساق وعامر وعلى هذا لا يحتاج الى تقدير محذوف كَمَنْ اي كايمان او كعمل من آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ حتى يتفق الموضوع والمحمول لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ المعنى ان الله انكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الاعمال التي صورتها صورة الخير وان لم ينتفعوا بها وبين ايمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونهما على عمل المسلمين فانكر الله عليهم ذلك نصرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم اي لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون اي اذا لم تبلغ اعمال الكفار الى ان تكون مساوية لاعمال المسلمين فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون وهذا الكلام استيناف مؤكد لما علم من ابطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام اي لا يستوي الفريقان ثم حكم عليهم بالظلم فقال وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ اي انهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه وهو تعليل في المعنى لنفي المساواة وفي هذا اشارة الى الفريق المفضول ثم صرح بالفريق الفاضل فقال الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً اي الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالاموال والانفس احق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة باعمالها المحبطة الباطلة وفي قوله عِنْدَ اللّٰهِ تشريف عظيم للمؤمنين وَأُولٰئِكَ اي المتصفون بالصفات الثلاثة المذكورة هُمُ الْفَائِزُونَ بسعادة الدارين

المختصون بالفوز المحصلون لاصله بالنسبة لكون الغير اهل السقاية والعمارة والمحصلون لكماله بالنسبة لكون الغير من لم يجمع الاوصاف المذكورة ثم فسر الفوز بقوله يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ التنكير في الثلاثة للتعظيم والمعنى انها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين قال ابو حيان لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث وبدأ بالرحمة في مقابلة الايمان لتوقفها عليه وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الاحسان في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الانفس والاموال ثم ثلث بالجنات في مقابلة الهجرة وترك الاوطان اشارة الى انهم لما آثروا تركها بدلهم دارا عظيمة دائمة وهي الجنات انتهى لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذكر الابد بعد الخلود تاكيد له إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل اي اعطاهم سبحانه هذه الاجور العظيمة لكون الاجر الذي عنده عظيما يهب منه ما يشاء لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم وهذه اعظم البشارات ونهاية المقصودات يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ يعني بطانة واصدقاء تفشون اليهم اسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق الى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين والمراد النهي لكل فرد من افراد المخاطبين عن موالاة فرد من افراد المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الآحاد الى الآحاد كما في قوله وما للظالمين من انصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من اللفظ دلالة لا عبارة وقالت طائفة من اهل العلم انها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب خوفوا ان يوالوا الآباء والاخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر وقال بعضهم حمل هذه الآية على الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي آخر القرآن نزولا فالاقرب ان يقال ان الله تعالى لما امر بالتبري عن المشركين قالوا كيف يمكن ان يقاطع الرجل اباه واخاه وابنه فذكر الله تعالى ان مقاطعة الرجل اهله واقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي

الكافر وان كان اباه او اخاه او ابنه وقال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في
قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما امر النبي صلى الله عليه وسلم
الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به اهله واولاده يقولون ننشدك بالله ان لا
تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت
في التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وانزل
هذه الآية والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ اي احبوا كما يقال
استجاب بمعنى اجاب وهو في الاصل طلب المحبة اي ان اختاروا الكفر واقاموا عليه ﴿عَلَى
الْإِيمَانِ﴾ وتركوه وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة ثم حكم على من يتولى من استحب
الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم فقال ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ فيه مراعاة لفظ من ﴿مِنْكُمْ
فَأُولَئِكَ﴾ فيه مراعاة معناها ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فدل ذلك على ان تولي من كان كذلك
واختيار المقام معه على الهجرة والجهاد من اعظم الذنوب واشدها ثم امر الله رسوله
صلى الله عليه وسلم قائلا له ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ العشيرة الجماعة المجتمعة التي ترجع الى نسب تنعقد وتحد
او ود كعقد العشرة وعشيرة الرجل اهله وقرابته الادنون وهم الذين يعاشرونه
ويتكثر بهم سواء بلغوا العشرة ام فوقها وهي اسم جمع وقرأ السلمي وابو رجاء عشيراتكم بالجمع
ووجهه ان لكل من المخاطبين عشيرة فحسن الجمع قال الاخفش لا تكاد العرب تجمع عشيرة
على عشيرات وانما يجمعونها على عشائر وهذه القراءة حجة عليه وقرأ الحسن عشائركم
والباقون عشيرتكم والاقتراف الاكتساب واصله اقتطاع الشيء من مكانه والتركيب يدور
على الدنو والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه والتجارة الامتعة التي
يشترونها ليربحوا فيها والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الاوطان
ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك انه قال ان المراد بالتجارة في هذه الآية البنات
والاخوات اذا كسدن في البيت لا يجدون لهن خاطبا واستشهد لذلك بقول الشاعر

ومن غرائب التفسير

كسدن من الفقر في قومهن * وقد زادهن مقامي كسادا ﻫ وهذا البيت ان كان
فيه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطبين فليس فيه جواز اطلاق اسم التجارة
عليهن والمراد بالمساكن المنازل التي تعجبهم وتميل اليها انفسهم ويرون الاقامة اليها
احب اليهم من المهاجرة الى الله ورسوله ومن الجهاد في سبيله فقعدوا لاجل ما ذكر
من الامور الثمانية او لاجل حبها فتربصوا اي فانتظروا حتى يأتي الله بأمره فيكم وما
تقتضيه مشيته من عقوبتكم وقيل المراد بأمر الله سبحانه القتال وقيل فتح مكة وفيه
بعد فقد روي ان هذه السورة نزلت بعد الفتح وقيل هو عقوبة عاجلة او آجلة
وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم ويؤكده ابهام الامر وعدم التصريح به لتذهب
انفسهم كل مذهب وتتردد بين انواع العقوبات وانما كان تهديدا لكونهم آثروا
لذات الدنيا على الآخرة وهذا قل من يتخلص منه وهذه الآية تدل على انه اذا وقع التعارض
بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين مهمات الدنيا وجب ترجيح الدين على الدنيا
ليبقى الدين سليما والله لا يهدي القوم الفاسقين اي الخارجين عن طاعته النافرين ع
عن امتثال اوامره ونواهيه لقد نصركم الله في مواطن كثيرة تذكير للمؤمنين
بنعمة عليهم والمواطن جمع موطن وفي المصباح الوطن مكان الانسان ومقره والجمع اوطان
مثل سبب واسباب والموطن مثل الوطن والجمع مواطن كمسجد ومساجد والموطن ايضا
المشهد من مشاهد الحرب والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر وقريظة و
النضير وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن ارقم
تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه
وبعوثه سبعون وقيل ثمانون ونصركم ايضا يوم حنين هو واد بين مكة والطائف
بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلا كما في الخازن وانصرف على انه اسم مكان ومن العرب من
يمنعه على انه اسم للبقعة قال قتادة قاتل بها نبي الله صلى الله عليه وسلم هوازن وثقيف وعلى
هوازن مالك بن عوف وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو وذلك في شوال سنة ثمان عقيب
رمضان الذي وقع فيه الفتح والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير اذ اعجبتكم كثرتكم

وانما اعجب من اعجب من المسلمين بكثرتهم لانهم كانوا احد عشر الفا وقيل اثني عشر الفا
وقيل ستة عشر الفا والكفار اربعة الاف قاله السيوطي والذي في شرح المواهب انهم
كانوا اكثر من عشرين الفا وقتل من المسلمين اربعة ومن المشركين اكثر من سبعين انتهى
وبالجملة فقال بعضهم لن نغلب اليوم من قلة فوكلوا الى هذه الكلمة فَلَمْ تُغْنِ اي لم تدفع
الكثرة عَنْكُمْ شَيْئًا بل انهزمتم وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه طائفة يسيرة
منهم عمه العباس وكان اخذ بلجام البغلة وابو سفيان اخذ بركابه وهو ابن عمه اذ هو
ابن الحارث بن عبد المطلب وقد اسلم هو والعباس يوم الفتح ثم تراجع المسلمون فكان النصر
والظفر وفي سيرة الشامي ان الذين ثبتوا معه في حنين مائة ثلاثة وثلاثون من المهاجرين
وسبعة وستون من الانصار والاغناء اعطاء ما يدفع الحاجة اي لم يعطكم الكثرة شيئا
يدفع حاجتكم ولم تفدكم وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ الرحب بضم الراء السعة
والرحب بفتحها المكان الواسع والباء بمعنى مع وما مصدرية والمعنى ان الارض مع كونها
واسعة الاطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل وقيل ان الباء بمعنى
على اي على رحبها ثُمَّ وَلَّيْتُمْ اي انهزمتم حال كونكم مُدْبِرِينَ اي مولين ادباركم على
الجهة عدوكم اخرج ابن المنذر عن الحسن قال لما اجتمع اهل مكة واهل المدينة قالوا الان
نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا وما اعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزموا
حتى ما يقوم احد منهم على احد حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي احياء العرب الي الي
فوالله ما يعرج عليه احد حتى اعرى موضعه فالتفت الى الانصار وهم ناحية فناداهم يا
انصار الله وانصار رسوله الي عباد الله انا رسول الله فجثوا يبكون وقالوا يا رسول الله
ورب الكعبة اليك والله فنكسوا رؤسهم يبكون وقدموا اسيافهم يضربون بين يدي
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليهم وقيل ناداهم العباس باذنه وكان صيتا يسمع
صوته من نحو ثمانية اميال فقاتلوا ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والاحاديث بطولها
وتفاصيلها فلا نطول بذلك ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ اي انزل
ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد ان ولوا مدبرين

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر والمراد بالمؤمنين هم الذين لم ينهزموا وقيل الذين
انهزموا والظاهر جميع من حضر منهم لانهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا وَأَنْزَلَ جُنُودًا
لَمْ تَرَوْهَا هم الملائكة واختلف في عددهم على اقوال قيل كانوا خمسة الاف وقيل ثمانية
الاف وقيل ستة عشر الفا وقيل غير ذلك وهذا لا يعرف الا من طريق النبوة واختلفوا
ايضا هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم ام لا وقد تقدم ان الملائكة لم تقاتل الا يوم
بدر وانهم انما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين وادخال الرعب في قلوب
المشركين وان كانوا الا بروهم وقيل ان الكفار كانت تراهم عن جبير بن مطعم قال رأيت
قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الاسود اقبل من السماء حتى سقط بين القوم
فنظرت فاذا نمل اسود مبثوث قد ملأ الوادي لم اشك انها الملائكة ولم تكن الا هزيمة
القوم واخرج الطبراني والحاكم وصححه وابو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود
قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين
رجلا من المهاجرين والانصار فكنا على اقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر وهم
الذين انزل عليهم السكينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدما فقال
ناولني كفا من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت اعينهم ترابا وولى المشركون ادبارهم
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بما وقع عليهم من القتل والاسر واخذ الاموال وسبي الذرية وقال
السدي قتلهم بالسيف قيل اسر ستة الاف من نسائهم وصبيانهم ولم تقع غنيمة اعظم
من غنيمتهم فقد كان فيها من الابل اثنا عشر الفا ومن الغنم ما لا يحصى عددا ومن الاسرى
ما سمعته وكان فيها غير ذلك وَذَٰلِكَ التعذيب المفهوم من عذب جَزَاءُ الْكَافِرِينَ
سمي ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع انه غير كاف بل لا بد من عذاب الاخرة
مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيما له ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ التعذيب عَلَىٰ
مَنْ يَشَاءُ ممن هداه منهم الى الاسلام وَاللَّهُ غَفُورٌ يغفر لمن اذنب فتاب رَحِيمٌ بعباده
متفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ اي ذوو انجاس
لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس والنجس مصدر لا يثنى ولا يجمع يقال رجل نجس وامرأة نجس

له بجاد بالكسر كليم مخطط ١٢ صراح

لهم حال كونها فريضة اي مصروفة او هي بمعنى مفروضة او مصدر وقع موقع الحال قال في
الكشاف فان قلت لم عدل عن اللام الى في في الاربعة الاخيرة قلت للايذان بانهم ارسخ في
استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره وقيل النكتة في العدول ان الاصناف الاربعة الاول
يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤا وفي الاربعة الاخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف
الى الجهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لاجلها استحقوا سهم الزكوة والله عليم بمصالح
عباده حكيم فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقص ولا خلل قال السيوطي فلا يجوز
صرفها لغير هؤلاء ولا منع صنف منهم اذا وجد فيقسمها الامام عليهم على السواء وله
تفضيل بعض احاد الصنف على بعض وافادت اللام وجوب استغراق افراده انتهى وهو ظاهر
الاية وقال الرازي لا دلالة في الاية على قول الشافعي في انه لا بد من صرفها الى الاصناف وقد
اشار الى ذلك القاضي ورد عليه بعض الشيوخ وقال ظاهر الاية يؤيد قوله وتمام البحث
في محل ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن هذا نوع اخر مما حكاه الله من فضائح
المنافقين وقبائحهم وذلك انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه الطعن والذم هو اذن
قال الجوهري يقال رجل اذن اذا كان يسمع مقال كل احد يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم
اقماهم الله انهم اذا اذوا النبي صلى الله عليه وسلم وبسطوا فيه السنتهم بلغه ذلك اعتذروا له وقبل
ذلك منهم لانه يسمع كلما يقال له فيصدقه وانما اطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه
انه اذن مبالغة لانهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع حتى كان جملته اذن سامعة ونظيره
قولهم للربيئة اي الطليعة عين وفي اطلاق الاذن عليه مجاز مرسل من اطلاق اسم الجزء
على الكل للمبالغة في استماعه وايذاؤهم له هو قولهم اذن لانهم نسبوه الى انه يصدق كلما
يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرما وحلما
وتغاضيا ثم اجاب الله عن قولهم هذا فقال قل هو اذن خير بالاضافة وقرئ بالتنوين كانه
قيل نعم هو اذن ولكن نعم الاذن هو لكونه اذن خير لكم وليس باذن في غير ذلك كقولهم
رجل صدق يريدون الجودة والصلاح والمعنى انه يسمع الخير ولا يسمع الشر يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين اي يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان فيقبل قولهم ويسلم ويرضيهم ولا يقبل قول المنافقين

واللام مزائدة للفرق بين ايمان الامان من الخلود في النار وهو الايمان المقابل للكفر وحقه
ان يعدى بالباء وبين ايمان التسليم والتصديق فانه يعدى باللام وان كان حقه ان يعدى
بنفسه كالتصديق وهذا موافق لكثير من الايات كقوله وما انت بمؤمن لنا وقوله ان يؤمنوا
لكم وقوله انؤمن لك واما قوله امنتم له قبل ان اذن لكم وقوله امنتم به فمشترك في الدلالة
بين الايمان بموسى والايمان بالله لان من امن بموسى حقيقة امن بالله كعكسه وَرَحْمَةٌ
اي وانه رحمة لهم وقرئ رحمة بالخفض واستبعده النحاس عند اهل العربية والمعنى ان النبي
صلى الله عليه وسلم اذن خير للمنافقين ورحمة لهم حيث لم يكشف اسرارهم ولم يهتك استارهم ولا فضحهم فكأنه
قال هو اذن كما قلتم لكنه اذن خير لكم لا اذن سوء فسلم لهم قولهم فيه الا انه فسره بما هو مدح
له وثناء عليه وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ اي اظهروا
الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بما تقدم من
قولهم هو اذن ونحو ذلك مما يصدق عليه انه اذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اي
شديد الالم وعن ابن عباس قال كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس اليه ويسمع
منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين وهو الذي قال لهم انما محمد اذن من حدثه بشيء صدقه فانزل الله فيه
هذه الاية وعن عمير بن سعد قال فيّ انزلت هذه الاية وذلك ان عميرا كان يسمع احاديث
اهل المدينة فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته
وقالوا هو اذن فانزلت فيه يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الخطاب للمؤمنين وذلك ان المنافقين
كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا بلغ ذلك الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم والى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على انهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الايمان
الكاذبة ان يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم فقال وَاللهُ وَ
رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ من ارضاء المؤمنين بالايمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وتركوا النفاق
لكان ذلك اولى لهم وافراد الضمير في يرضوه اما للتعظيم للجناب الالهي بافراده بالذكر او لكونه لا
فرق بين ارضاء الله وارضاء رسوله فارضاء الله ارضاء لرسوله او المراد الله احق ان يرضوه
ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس او لان الضمير موضوع موضع اسم الاشارة فانه يشار

أي الواحد وللتعدد او الضمير راجع الى المذكور وهو يصدق على كليهما او قال الفراء المعنى ورسوله
احق ان يرضوه الله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت وجواب إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ
محذوف اي فليرضوا الله ورسوله فانهما احق بالارضاء ولا يكون ذلك الا بالطاعة والمتابعة
وايفاء الحقوق في باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا أَلَمْ يَعْلَمُوا استفهام توبيخ قال اهل
المعاني الم تعلم خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه او انكره فيقال له الم تعلم انه كان كذا وكذا
والمعنى الم يعلموا من شرائع الدين التي علمهم رسولنا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ اي يخالف ويخاصم وَرَسُولَهُ
واصل المحاددة في اللغة وقوع هذا في حد وذلك في حد كالمشاقة يقال حاد فلان فلانا
اي صار في حد غير حده وكان كل واحد من المتخاصمين صار في محل غير محل صاحبه فَأَنَّ لَهُ
اي فحق ان له وقال الاخفش المعنى فوجوب النار له وانكره المبرد وقال هذا خطأ نَارَ جَهَنَّمَ
جزاء خَالِدًا فِيهَا على الدوام ذَلِكَ اي ما ذكر من العذاب الْخِزْيُ الْعَظِيمُ اي البالغ الى الغاية
التي لا يبلغ اليها غيره وهو الذل والهوان يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ قيل هو خبر
وليس بامر وقال الزجاج معناه ليحذر والمعنى على الاول ان المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن
فيهم خوفا من الفضيحة وعلى الثاني الامر لهم بان يحذروا ذلك ومعنى عليهم على المؤمنين في
شان المنافقين على ان الضمير للمؤمنين ولا يبالى بتفكيك الضمائر عند ظهور الامر لعود المعنى
اليه قاله الكرخي والاولى ان يكون الضمير للمنافقين اي في شأنهم تُنَبِّئُهُمْ اي المنافقين بِمَا
فِي قُلُوبِهِمْ مما يسرونه فضلا عما يظهرونه وهم وان كانوا عالمين بما في قلوبهم فالمراد من انباء
السورة لهم اطلاعهم على ان المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى
الفاضحة والمبعثرة والمثيرة لانها فضحت المنافقين وبعثرت عن اخبارهم واثارها واسفرت
عن مخازيهم ومثالبهم ثم امر الله رسوله بان يجيب عليهم فقال قُلِ اسْتَهْزِئُوا امر تهديد
اي افعلوا الاستهزاء إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون اما
بانزال سورة او باخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك او نحو ذلك وَلَئِنْ لام قسم اي والله لئن
سَأَلْتَهُمْ عما قالوه من الطعن في الدين وثلب المؤمنين وهم سائرون معك الى تبوك بعد
ان يبلغ اليك ذلك ويطلعك الله عليه لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ في الحديث لنقطع

الطريق ولو نقصد ذلك ولو يكن في شيء من امرك ولا امر المؤمنين ثم امره الله ان يجيب عنهم
فقال قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ الاستفهام للتقريع والتوبيخ واثبت وقوع
ذلك منهم ولو يعبأ بانكارهم لانهم كانوا كاذبين في الانكار بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك
منهم حيث جعل المستهزأ به واليا حرف النفي فان ذلك انما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته
ثم قال لَا تَعْتَذِرُوا نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة فان ذلك غير مقبول منهم
وقال نقلا الواقدي عن ائمة اللغة ان معنى الاعتذار محوا ثر الذنب قطعه من قولهم اعتذر
المنزل اذا درس واعتذرت المياه اذا انقطعت قَدْ كَفَرْتُمْ اي اظهرتم الكفر بما وقع منكم من
الاستهزاء المذكور وفيه ان محمد ابن عمر انه ترك في اصحابنا قرانا وانما هو قوله وكلامه فاطلع
الله نبيه صلى الله عليه على قولهم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ اي بعد اظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر
إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ وهو من اخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه كجحش بن حمير
قال الزجاج الطائفة في اللغة الجماعة قال ابن الانباري ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند
العرب نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ اي بسبب انهم كَانُوا مُجْرِمِينَ مصرين على النفاق لو يتوبوا
منه الْمُنَافِقُونَ وكانوا ثلثمائة وَالْمُنَافِقَاتُ وكن مائة وسبعين بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ اي
متشابهون في الدين كابعاض الشيء الواحد ذكرهها هنا جملة احوال المنافقين وان ذكورهم في
ذلك كاناثهم وانهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان وفيه اشارة الى نفي ان يكونوا من
المؤمنين ورد لقولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال
المنافقين فقال يَأْمُرُونَ اي يامر بعضهم بعضا بِالْمُنْكَرِ هو كل قبيح عقلا او شرعا وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ هو كل حسن عقلا او شرعا قال الزجاج هذا متصل بقوله يحلفون بالله انهم
لمنكم وما هم منكم اي ليسوا من المؤمنين ولكن بعضهم من بعض اي متشابهون في الامر
بالمنكر والنهي عن المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ اي يشحون فيما ينبغي اخراجه من المال في الصدقة
والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح كما ان البسط كناية عن الكرم نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ النسيان
الترك اي تركوا ما امرهم به فتركهم من رحمته وفضله او تركوا ذكر الله وعبادته فترك الله
ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان لان النسيان الحقيقي لا يصح اطلاقه على الله سبحانه وانما

اطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان فهو مجاز مرسل ثم حكم عليهم بالفسق
فقال إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الفسق الخروج عن طاعة الله الى معاصيه والانسلاخ من
كل خير وهذا التركيب يفيد انهم هم الكاملون في الفسق والتمرد والاظهار في موضع الاضمار
لزيادة التقرير وللاهانة والتحقير فان الاظهار كما يأتي للتعظيم يأتي للتحقير كما نص عليه بعضهم
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ يقال وعده في الخير والشر والاختلاف انما هو
بالمصدر فمصدر الاول وعد ومصدر الثاني وعيد فاستعمل وعد في الشر كما هنا وفي الخير
فيما سيأتي في قوله وعد الله المؤمنين ثم بين مآل حال اهل النفاق والكفر بان لهم نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
اي يصلونها مقيمين فِيهَا مقدرين الخلود هِيَ اي النار حَسْبُهُمْ اي كافيهم جزاء وعقابا لا
يحتاجون الى زيادة على عذابها وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ اي مع ذلك فقد طردهم عن بابه وابعدهم
عن رحمته وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ اي نوع آخر من العذاب غير النار دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير
او عذاب في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق اذ هم دائما في حذر من ان يطلع المسلمون
على نفاقهم كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا
من الغيبة الى الخطاب اي انتم مثل الناس قبلكم والمعنى فعلتم مثل فعل الذين مضوا من قبلكم
من الامم قال الزجاج التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلهم وقيل
المعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقبض الايدي ثم وصف
حال هؤلاء الكفار الذين من قبلهم وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بانهم كَانُوا
أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً اي بطشا في الابدان ومنعة من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي
صلى الله عليه وسلم وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا منكم فَاسْتَمْتَعُوا اي تمتعوا بِخَلَاقِهِمْ اي نصيبهم الذي
قدره الله لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا في الباطل اخذا مما يأتي واشتقاقه من الخلاق بمعنى التقدير
فانه ما قدر لصاحبه فَاسْتَمْتَعْتُمْ انتم بِخَلَاقِكُمْ اي نصيبكم الذي قدره الله لكم كَمَا اسْتَمْتَعَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ اي انتفعتم به كما انتفعوا به والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء
المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم بمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله من الشهوات
الفانية والتشاغل بها عن السعي في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية وقد قيل ما

فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الاولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانيا ثم تكريره في حق
الاولين ثالثا اجيب بانه تعالى ذم الاولين بالاستمتاع بما اوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها
ورضاهم بها وحرمانهم عن سعادة الاخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ الفانية فلما قرر
تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة في ذم المخاطبين
وتقبيح حالهم ولم يسلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني وهو قوله وخضتم حيث لم يقل فخاضوا
وخضتم كخوضهم اكتفاء بالتمهيد الاول فاستغني عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني قال ابن عباس
ما اشبه الليلة بالبارحة هؤلاء بنو اسرائيل اشبهناهم والذي نفسي بيده لتتبعنهم
حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه وَخُضْتُمْ في الباطل وتلبستم به كَالَّذِي خَاضُوا اي كخوضهم
اوكالذين خاضوا اوكالفوج الذي خاضوا اوكالخوض الذي خاضوه يقال خضت
الماء اخوضه خوضا وخياضا والموضع مخاضة وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا وجمعها
المخاض والمخاوض ويقال منه خاض القوم في الحديث والمعنى خضتم في اسباب الدنيا واللهو واللعب
وقيل في امر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب و دخلوا في ذلك أُولَئِكَ اشارة الى كل من المشبهين
والمشبه بهم في جموع الفريقين حَبِطَتْ بطلت أَعْمَالُهُمْ اي ما عملوه مما هو في صورة طاعة
لا هذه الاعمال المذكورة هنا فانها من المعاصي وحبوطها غنية عن البيان فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
اي انها باطلة على كل حال اما بطلانها في الدنيا فلان ما يترتب على اعمالهم فيها من السعة
والصحة وغير ذلك لا يحصل لهم بل يصيرون وما يرجونه من الغنى فقرا ومن العز ذلا ومن القوة
ضعفا واما في الاخرة فلانهم يصيرون الى عذاب النار ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الاعمال
التي يظنونها طاعة وقربة وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ اي المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في
الدنيا والاخرة أَلَمْ يَأْتِهِمْ اي المنافقين او الكافرين رجوع الى الغيبة عن الخطاب ففيه التفات
وهو استفهام معناه التقرير اي قد اتاهم نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ اي خبرهم الذي له شان وهو
ما عملوه من التكذيب وما فعل بهم يجرون لاهل الامثال المشبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال في التشبيه ثم ذكر
منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب اخبارهم لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق
واليمن وكل ذلك قريب من ارض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون اخبارهم قَوْمِ نُوحٍ

وقد هلكوا بالاغراق واهلكوا بالطوفان وهم اولهم وثانيهم قوم عاد وقد اهلكوا بالريح العقيم
وثالثهم قوم ثمود وقد اخذوا بالصيحة واهلكوا بالرجفة وقوم ابراهيم وقد سلط الله عليهم
البعوض وقيل اهلكوا بسلب النعمة عنهم وهم رابعهم واصحاب مدين وهم قوم شعيب
وقد اخذتهم الرجفة واهلكوا بعذاب يوم الظلة وهم خامسهم وسادسهم اصحاب المؤتفكات
وهي قرى قوم لوط وقد اهلكهم الله بما امطر عليهم من الحجارة وهي بدل من الذين بدل بعض
من كل فقوله وعاد الى آخر المعطوفات كلها على قوم نوح لا على نوح فيه ان كان الاخير وهو المؤتفكات
على حذف مضاف كما قدرنا اذ هي القرى وليست من الذين خلوا حتى تكون من جملة البدل
وسميت مؤتفكات لانها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها والائتفاك الانقلاب يقال افكه
اذا قلبه وبابه ضرب ويقال افكته فائتفك اي قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف
ومنه يؤفك عنه من افك اي يصرف اتتهم استئناف لبيان نبأهم رسلهم اي رسل هذه الطوائف
الست وقيل رسل اصحاب المؤتفكات لان رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولا
بالبينات اي المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا امرنا
فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم والفاء في فما كان الله ليظلمهم للعطف على مقدر يدل
عليه الكلام اي فكذبوهم فاهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ولم يعجل العقوبة لهم لانه قد بعث
اليهم رسله فانذروهم وحذروهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون بسبب ما فعلوه من الكفر
بالله وعدم الانقياد لانبيائه وهذا التركيب يدل على ان ظلمهم لانفسهم كان مستمرا وقيل
تقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم
والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض اي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف
واتفاق الكلمة والعون والنصر بسبب ما جمعهم من امر الدين وضمهم من الايمان بالله قال
ابن عباس اخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية له فظهر الفرق بين الفريقين ثم
بين اوصافهم الحميدة كما بين اوصاف من قبلهم من المنافقين فقال يأمرون بالمعروف اي بما
هو معروف في الشرع غير منكر ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره وينهون
عن المنكر اي عما هو منكر في الدين غير معروف اي جنس المعروف وجنس المنكر الشاملين لكل خير وشر

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحاديث ما هو معروف
وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ المفروضة ويتمون اركانها وحدودها فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في
مقابلة ما سبق من قوله نسوا الله وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ الواجبة عليهم وهو في مقابلة قوله ويقبضون
ايديهم قيل خصصهما بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالابدان
والاموال وقد تقدم معنى هذا وَيُطِيعُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ في جميع ما امرهم بفعله او نهاهم عن تركه
وهذا في مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة اُولٰٓئِكَ يعني المؤمنين
والمؤمنات المتصفين بهذه الاوصاف الفاضلة سَيَرْحَمُهُمُ اللّٰهُ السين للمبالغة والدلالة
على تحقق ذلك وتقرره بمعونة المقام والتوكيد في انجاز الوعد لكونه بشارة امحضت لتاكيد
الوقوع اي ما وعد به من الرحمة والرضوان وما اعد لهم من النعيم المقيم في الجنان اِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ
لا يغالب ولا يعجزه شيء عن انجاز وعده ووعيده حَكِيمٌ في افعاله واقواله لا يضع شيئا الا في
محله وفيه ترغيب وترهيب وتعليل لقوله سيرحمهم الله فهو لف ونشر مشوش ثم ذكر تفصيل
ما يدخل تحت آثار الرحمة اجمالا باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِيْنَ
والمؤمنات اي كل مؤمن ومؤمنة جَنّٰتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ الاظهار في موضع
الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان للوعد المذكور ومعنى جري الانهار
من تحت الجنات انها تجري تحت اشجارها وغرفها والمراد البساتين التي يتحير في حسنها الناظر
خٰلِدِيْنَ فِيْهَا اي مقدرين الخلود فيها وقد تقدم تحقيق الآية في البقرة وَمَسٰكِنَ اي منازل يسكنون
فيها من الدر والياقوت طَيِّبَةً تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش فِيْ جَنّٰتِ عَدْنٍ اقامة
يقال عدن بالمكان اذا اقام به ومنه المعدن اي بساتين خلد وقيل هي اعلى الجنة وقيل
اوسطها وقيل قصور من ذهب لا يدخلها الا نبي او صديق او شهيد واخرج ابن ابي حاتم
والطبري بسند عن عمران وابن مردويه عن الحسن قال سألت عمران بن حصين وابا هريرة
عن تفسير قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن قالا على الخبير سقطت سألنا عنها
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة
حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمرد خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون

فراشا من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة
سبعون لونا من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة في كل
غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله اجمع قلت ووصف الله الجنة ههنا باوصاف الاول جريان الانهار
من تحتها الميل الطبع اليها والثاني انهم فيها خالدون لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير والثالث طيب
مساكنها الخالية عن الكدورات والرابع انها ذات عدن اي اقامة غير منقطعة هذا على ان
معنى عدن لغة وقيل هو علم قال الرازي والحاصل ان في عدن قولين احدهما انه اسم علم لموضع
معين في الجنة والآثار والاخبار تقوي ذلك وقال الزمخشري انه علم بدليل قوله جنات عدن
التي وعد الرحمن عباده والثاني انه صفة للجنة بمعنى اقامة فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها
عدن والاحاديث في صفة الجنات واصنافها كثيرة وقد اوضحت المقام في كتابي مثير ساكن
الغرام الى روضات دار السلام فليرجع اليه ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ حقير يسير ﴿مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من ذلك
كله الذي اعطاهم الله اياه اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط كل شرف وسيادة
ولعل عدم نظمه في سلك الموعود به مع عزته في نفسه لانه متحقق في ضمن كل موعود ولانه
مستمر في الدارين وفيه دليل على انه لا شيء من النعم وان جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه
وان ادنى رضوان الله لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وان كانت على غاية ليس وراءها
غاية اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه سخط ولا يكدره كدر يا من بيده الخير دقه وجله ﴿ذَٰلِكَ﴾ اي
ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون كل فوز مما يعده الناس خ
فوزا من حطام الدنيا واخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابي سعيد قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الله يقول لاهل الجنة يا اهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في
يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد اعطيتنا ما لم تعطه احدا من
خلقك فيقول الا اعطيكم افضل من ذلك قالوا يا ربنا واي شيء افضل من ذلك قال احل
عليكم رضواني فلا اسخط عليكم بعده ابدا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الامر
للنبي صلى الله عليه وسلم بجهاد الجهاد امر لامته من بعده وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم بالسيف و
السنان حتى يسلموا وجهاد المنافقين يكون باقامة الحجة عليهم باللسان والبيان حتى يخرجوا عنه

فيؤمنوا بالله ويه قال ابن مسعود قال الحسن ان جهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم
والمقارنة قتادة قيل في توجيهه ان المنافقين كانوا اكثر من يفعل موجبات الحدود قال ابن العربي
ان هذه دعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق انما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق
دائما لا بما يتلبس به الجوارح ظاهرا واخبار المحدودين تشهد سياقتها انهم لم يكونوا منافقين
وقال الطبري اولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الاية
على وجوب جهاد المنافقين وليس في الاية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد
دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة
عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود وَاغْلُظْ اي شدد
عَلَيْهِمْ اي الفريقين بالانتهار والمقت والجهاد واصل الغلظ نقيض الرافة وهو شدة القلب
وخشونة الجانب قيل وهذه الاية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح وَمَأْوَاهُمْ اي
مسكنهم جَهَنَّمُ قال ابو البقاء ان قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء اشبه بهذا الموضع ففيه
ثلاثة اجوبة احدها ان الواو واو الحال والتقدير افعل ذلك في حال
استحقاقهم جهنم والثاني تقديره واعلم ان ماواهم جهنم والثالث ان الكلام قد حمل على المعنى
والمعنى انه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة بجعل جهنم ماواهم
قال السمين ولا حاجة الى هذا كله بل هذه جملة استينافية قال ابو السعود مستانفة
لبيان مآل امرهم بعد بيان عاجله وَبِئْسَ الْمَصِيرُ مصيرهم اليها ثم ذكر من خصال المنافقين
انهم يحلفون الايمان الكاذبة فقال يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا استيناف مسوق لبيان ما صدر عنهم
من الجرائم الموجبة للامر بجهادهم والغلظة عليهم وقد اختلفت ائمة التفسير في سبب
نزول هذه الاية فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت وذلك
انه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم قالا لئن كان محمد
صادقا على اخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير فقال له عامر بن قيس
اجل والله ان محمدا الصادق مصدق وانك لشر من الحمار واخبر عامر بذلك النبي
صلى الله عليه وسلم وجاء الجلاس فحلف بالله ان عامرا لكاذب وحلف عامر لقد قال وقال اللهم

انزل على نبيك شيئا فنزلت وقيل ان الذي سمع ذلك عاصم بن عدي وقيل حذيفة
وقيل بل سمعه ولد امرأته اي امرأة الجلاس واسمه عمير بن سعد فهم الجلاس بقتله لئلا
يخبر بخبره وقيل ان هذه الآية نزلت في عبد الله بن ابي رأس المنافقين لما قال ما مثلنا
ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فاخبر
النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فجاء عبد الله بن ابي فحلف انه لم يقله وقيل انه قول جميع المنافقين
وان الآية نزلت فيهم وعلى تقدير ان القائل واحدا واثنان فنسبة القول الى جميعهم هي
باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف وفي الباب احاديث
مختلفة في سبب نزول هذه الآية وفيما ذكرناه كفاية ثم رد الله على المنافقين وكذبهم
بين انهم حلفوا كذبا فقال وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الاقوال
السابقة وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ اي كفروا بهذه الكلمة بعد اظهارهم الاسلام وان كانوا
كفارا في الباطن والمعنى انهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة اسلامهم وَهَمُّوا بِمَا لَمْ
يَنَالُوا قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك وهم بضعة
عشر رجلا فضرب عمار بن ياسر في قول حذيفة بن اليمان وجوه الرواحل لما غشوه فرجعوا
والقصة مبسوطة في سيرة الحلبي وغيرها وقيل هموا بعقد التاج على راس عبد الله بن ابي وقيل
هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وَمَا نَقَمُوا إِلَّا
أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ اي ما عابوا وانكروا وكرهوا الا ما هو حقيق بالمدح
والثناء وهو اغناء الله لهم من فضله والاستثناء مفرغ من اعم العام فهو من تاكيد المدح بما
يشبه الذم وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة
اتسعت معيشتهم وكثرت اموالهم فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وسلم النعمة وقيل انهم بطروا
النعمة اشرا فَإِنْ يَتُوبُوا اي فان تحصل منهم التوبة والرجوع الى الحق يَكُ ذلك الذي فعلوه من
التوبة خَيْرًا لَهُمْ في الدين والدنيا وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن اسلامه وفي ذلك
دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق فمنع قبولها
مالك واتباعه لانه لا يعلم صحة توبته اذ هو في كل حين يظهر التوبة والاسلام وَإِنْ يَتَوَلَّوْا

اي يعرضوا عن التوبة والايمان ويصروا على النفاق والكفر يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا
بالقتل والاسر ونهب الاموال عاجلا فلا ينافي ما سبق من ان قتالهم باللسان والحجة لا بالسيف
لان ذاك اذا لم يظهروا الكفر بل اظهروا الايمان والآخرة بعذاب النار آجلا وما لهم في
الارض مع سعتها وتباعد اقطارها وكثرة اهلها من ولي يواليهم ولا نصير ينصرهم
ومنهم من عاهد الله لئن هي لام قسم اي والله لئن آتانا من فضله بان يوسع علينا في
الرزق لنصدقن هي لام الجواب للقسم وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه ولا يمتنع
الجمع بين القسم واللام الموطئة له اي لنخرجن من ذلك المال الصدقة وهي اعم من المفروضة
وغيرها ولنكونن من الصالحين اي من جملة اهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات
الدين التاركين لمحرماته والصلاح ضد الفساد والمفسد هو الذي يخل بما يلزمه في حكم الشرع
فلما آتاهم من فضله بخلوا به اي لما اعطاهم ما طلبوا من الرزق لم يتصدقوا بشيء منه
كما حلفوا به وتولوا اي اعرضوا عن طاعة الله واخراج صدقات ما اعطاهم الله من فضله
وهم اي والحال انهم معرضون في جميع الاوقات قبل ان يعطيهم الله ما اعطاهم من الرزق
وبعده عن ابن عباس قال ذلك ان رجلا كان يقال له ثعلبة من الانصار اتى مجلسا
فاشهدهم فقال لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت
منه القرابة فابتلاه الله فآتاه من فضله فاخلف ما وعده فاغضب الله بما اخلف ما وعده
فقص الله شأنه في القرآن واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وغيرهم هذه القصة
باطول من هذا جدا وفيه قال يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم له يا ثعلبة قليل تؤدي شكره
خير من كثير لا تطيقه فقال ادع الله ان يرزقني مالا فقال اللهم ارزقه مالا فاتخذ غنما فنمت
كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا يشهدها بالليل ثم نمت حتى لا يشهد جمعة ولا جنازة الحديث فاعقبهم الله سبحانه نفاقا
في قلوبهم بسبب البخل الذي وقع منهم والاعراض نفاقا كائنا في قلوبهم متمكنا منها مستمرا فيها
الى يوم يلقونه اي الله عز وجل وقيل ان الضمير يرجع الى البخل اي فاعقبهم البخل بما عاهدوا
الله عليه الى يوم يلقون البخل اي جزاء بخلهم يعني ان الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم

الى تلك الغاية ما قبله مما وقع منهم من البخل ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الباء للسببية اي
بسبب اخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح وكذلك الباء في ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾
اي وبسبب تكذيبهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال آية المنافق ثلث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان وعن ابن عمرو بن العاص
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة كانت فيه
خصلة من نفاق حتى يدعها الحديث وفيه اذا خاصم فجر ثم انكر عليهم فقال ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ اي
المنافقون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ اي جميع ما يسرونه من النفاق وما يتناجون به فيما
بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى اصحابه وعلى دين الاسلام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾
اي ما غاب عن العيان فلا يخفى عليه شيء من الاشياء المغيبة كائنا ما كان ومن جملة ذلك
ما يصدر عن المنافقين ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ اي يعيبون وقال قتادة يطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ اي
المتطوعين والتطوع التبرع والتنفل بالير لا واجب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ والمعنى ان المنافقين
كانوا يعيبون المسلمين اذا تطوعوا بشيء من اموالهم واخرجوه للصدقة فكانوا يقولون ما اغنى
الله عن هذا ويقولون ما فعلوا هذا الا رياء ولم يكن لله خالصا اخرج البخاري ومسلم وغيرهما
عن ابن مسعود قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء
كثير فقالوا مرائي وجاء ابو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون ان الله لغني عن صدقة هذا
فنزلت هذه الآية وفي الباب روايات كثيرة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ بالضم الطاقة وهي لغة
اهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وهي المشقة وقيل هما لغتان ومعناهما واحد وفي القرطبي الجهد شيء
يسير يعيش به المقل وقد تقدم بيان ذلك والمعنى ان المنافقين كانوا يعيبون المؤمنين
الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ اي يستهزؤن بهم لحقارة ما
يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه يقال سخرت
منه سخرا من باب تعب هزئت به والسخري بالكسر اسم منه وبالضم لغة فيه والسخرة وزان
غرفة ما سخرت من خادم او جارية او دابة بلا اجر ولا ثمن والسخري بالضم بمعناه وسخرته في العمل
بالتثقيل استعملته مجانا وسخر الله الابل ذللها وسهلها وسنه سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴿سَخِرَ

الله منهم أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم
وأخزاهم وعذبهم والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في نظائره وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر
الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ثابت مستمر شديد الألم في الآخرة ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ
أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه رسوله صلى
الله عليه وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء فهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه
الخبر وذلك لأنهم ليسوا بأهل للاستغفار له صلى الله عليه وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه فهو كقوله تعالى
قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وإن
أكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لهم وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا
كما في سائر مفاهيم الأعداد بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول فقد كانت العرب تجري ذلك
مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير والمعنى أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفارا
بالغا في الكثرة غاية المبالغ وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد
قبول الزيادة عليه ويدل لذلك ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبي
قال لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله وهو القائل ليخرجن الأعز منها الأذل
فأنزل الله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأزيدن على السبعين فأنزل الله سواء عليهم أستغفرت لهم
أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وعن مجاهد وابن عباس نحوه قال الضحاك لما نزلت هذه الآية قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سواء عليهم الآية
يعني فبين له حسم المغفرة ومعلوم أنه لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار كمال رحمته ورأفته بمن
بعث إليهم وفيه لطف بأمته وحث على التراحم وشفقة بعضهم على بعض وهذا دأب الأنبياء كما قال إبراهيم
ومن عصاني فإنك غفور رحيم وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها وليس بشيء فقال إن السبعة عدد
شريف لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع فصير كل واحد
من السبعة إلى العشرة لأن الحسنة بعشرة أمثالها وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه حمزة
سبعين تكبيرة فكأنه قال إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله ثم علل
عدم المغفرة لهم بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ الامتناع [illegible] ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والله

الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب الكفر والاصرار عليه فلا بخل منا او قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب
الكفر الصارف عنه انتهى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ اي المتمردين الخارجين عن الطاعة
المتجاوزين لحدودها والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة واراءة الطريق ثم
ذكر سبحانه نوعا اخر من قبائح المنافقين فقال ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ هم المتروكون وهم الذين استأذنوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فاذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك او الذين خلفهم الله وثبطهم او
الشيطان او نفاقهم او كسلهم او المؤمنون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ اي بقعودهم يقال قعد قعودا ومقعدا اي جلس واقعده غيره ذكر
معناه الجوهري ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اي تخلفوا خلاف رسول
الله الثاني انه مفعول من اجله اي فرحوا لاجل مخالفتهم رسول الله او بقعودهم لمخالفتهم له اليه ذهب الطبري
والزجاج ويؤيده قراءة خلف بضم الخاء وسكون اللام والثالث انه منتصب على الظرف اي بعد رسول الله يقال اقام
زيد خلاف القوم اي تخلف بعد ذهابهم وخلاف يكون ظرفا واليه ذهب ابو عبيدة وعيسى بن عمر قال الاخفش
ويونس الخلاف بمعنى الخلف وذلك ان جهة الامام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف و
قال قطرب معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار والى تبوك واقاموا اي قعدوا
لاجل المخالفة او مخالفين له ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لكمال شحهم
بالاموال والانفس وعدم وجود باعث الايمان وداعي الاخلاص ووجود الصارف عن ذلك
وهو ما هم فيه من النفاق وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لاموالهم وانفسهم في سبيل الله لوجود
الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم قال في الخازن كرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان
يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال ﴿وَقَالُوا﴾ اي قال
المنافقون لاخوانهم ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ تثبيطا لهم وكسرا لنشاطهم وتواصيا بينهم بالمخالفة لامر الله
ورسوله وكانت غزوة تبوك في شدة الحر والقحط فامر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا﴾ اللعنة انكر ايها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير ونار جهنم التي ستدخلونها
خالدين فيها ابدا اشد حرا مما فررتم منه فانكم انما فررتم من حر يسير في زمن قصير ووقعتم
في حر كثير في زمن كبير بل غير متناه ابد الابدين ودهر الداهرين ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ انها كذلك
لما فعلوا ما فعلوا وهذا اعتراض تذييلي من جهته تعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه

فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً هذان الامران معناهما الخبر والمعنى فسيضحك هؤلاء الذين
تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلاً بالنسبة للبكاء في الآخرة وان كان كثيراً في نفسه
لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل ويبكون كثيراً
وانما جيء بهما على لفظ الامر للدلالة على ان ذلك امر محتوم لا يكون غيره والتقدير يضحكون قليلاً
ويبكون كثيراً او زماناً قليلاً وزماناً كثيراً وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون
ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً اخرجه البخاري جزاءً بما كانوا يكسبون من المعاصي
والمعنى يجزون جزاء او بسبب الامر بقلة الضحك وكثرة البكاء جزاؤهم بعملهم فان رجعك
الله الرجع متعد كالرد والرجوع لازم واللازم من باب جلس والمتعدي من باب قطع وفي الكرخي
معنى الرجع تصيير الشيء الى المكان الذي كان فيه يقال رجعته رجعاً كقولك رددته رداً
الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وانما قال الى طائفة منهم لان جميع من اقام بالمدينة لم يكونوا
منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم اعذار صحيحة وفيهم من المؤمنين من لا عذر له
ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا وسيأتي بيان ذلك
وقيل انما قال الى طائفة لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف وفي البيضاوي ان المتخلفين
كانوا اثني عشر رجلاً فاستأذنوك للخروج معك في غزوة اخرى بعد غزوتك هذه فقل لهم
اخراجاً لهم عن ديوان الغزاة وابعاداً لهم عن محفل صحبتك لن تخرجوا معي ابداً الى غزوة
ولا الى سفر وهذا اخبار في معنى النهي للمبالغة ولن تقاتلوا معي عدواً اي قل لهم ذلك عقوبة
لهم ولما في استصحابهم من المفاسد كما تقدم في قوله ولو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً انكم
رضيتم بالقعود تعليل لما سبق لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لانكم رضيتم بالقعود والتخلف اول
مرة وهي غزوة تبوك والفاء في فاقعدوا مع الخالفين لتفريع ما بعدها على ما قبلها والخالفين
جمع خالف كانهم خلفوا الخارجين والمراد بهم من تخلف عن الخروج بعد القوم وقيل المعنى فاقعدوا
مع الفاسدين من قولهم فلان خالفة اهل بيته اذا كان فاسداً فيهم ومن ذلك خلف اللبن اي
فسد بطول المكث في السقاء ذكر معناه الاصمعي وقرئ مع الخلفين قال الفراء معناه المخالفين
قيل المراد بهم النساء والصبيان والرجال العاجزون فلذلك جاز جمعه للتغليب وقال قتادة الخالفون

النساء وهو مردود لاجل الجمع قال ابن عباس الخالفين هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو بغير عذر و في الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكر وخداع و بدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني صلوة الجنازة ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ قال الزجاج معناه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعى له فمنع ههنا منه وقيل معناه لا تقم بمهمات اصلاح قبره ولا تتول دفنه ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهي عن الصلوة والقيام على قبره وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لان الكافر قد يكون عدلا في دينه بأن يؤدي الامانة ولا يضمر لاحد سوء وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والنفاق والخدع والجبن واضمار السوء للغير والخبث وهي مستقبحة في كل دين عند كل احد و قد اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله بن ابي بن سلول اتى ابنه عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه ليكفنه فيه فاعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر فاخذ ثوبه فقال يا رسول الله اتصلي عليه وقد نهاك الله ان تصلي على المنافقين فقال ان الله خيرني وقال استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسازيد على السبعين فقال انه منافق فصلى عليه فانزل الله ولا تصل على احد منهم مات ابدا الآية فترك الصلوة عليهم والحديث له الفاظ في الصحاح والسنن وكان ابن ابي رئيس الخزرج وينسب لابيه وامه فابوه ابي وامه سلول وكان اسمه عبد الله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ نهي لرسوله ان تعجبه ﴿أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ هذا تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه وارادة ان يكون المخاطب به على بال ولا ينساه وان يعتقد ان العمل به مهم وقيل ان الآية المتقدمة في قوم وهذه في آخرين وقيل هذه في اليهود والاولى في المنافقين وقيل غير ذلك وقد تقدم في الآية الاولى جميع ما يحتاج اليه في تفسير هذه الآية وذكر في الكشاف ما حصل من التفاوت في الالفاظ في هاتين الآيتين ولا يليق بكتبه ذلك ثم عاد الله سبحانه الى توبيخ المنافقين فقال ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني طائفة من القرآن يجوز ان يراد بها

بعض السورة وان يراد تمامها وقيل هي هذه السورة أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ
الخطاب للمنافقين اي اخلصوا في ايمانكم وجاهدوا وانما قدم الامر بالايمان لان الاشتغال
بالجهاد لا يفيد الا بعد الايمان اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ اي ذوو الفضل والسعة والقدرة واهل
الغنى والثروة من طال عليه طولا كذا قال ابن عباس والحسن وقال الاصم هم الرؤساء والكبراء
المنظور اليهم وخصهم بالذكر لان الذم لهم الزم اذ لا عذر لهم في القعود ولان العاجز عن السفر
والجهاد لا يحتاج الى الاستيذان وَقَالُوا عطف تفسيري ذَرْنَا اي اتركنا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ
اي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمناء رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
استيناف لبيان سوء صنيعهم والخوالف جمع خالفة ولذا قيل الخوالف النساء اللاتي يخلفن
الرجال في القعود في البيوت وجوز بعضهم ان يكون جمع خالف وهو من لا خير فيه وهو مردود
فان فواعل لا يكون جمعا لفاعل وصفا لعاقل الا ما شذ من نحو فوارس ونواكس وهوالك وقال
النحاس يجوز ان تكون من صفة الرجال بمعنى انها جمع خالفة يقال رجل خالفة اي لا خير فيه
فعلى هذا يكون جمعا للمذكور باعتبار لفظه وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ هو كقوله ختم الله على قلوبهم وقد
مر تفسيره فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شيئا مما فيه نفعهم وضرهم بل هم كالانعام اي لا يفهمون الخير
الذي في الجهاد ولا الشر الذي في التخلف لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ المقصود من الاستدراك الاشعار بان تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة
الجهاد من هو خير منهم واخلص نية كما في قوله فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا
بها بكافرين وقد تقدم بيان الجهاد بالاموال والانفس ثم ذكر منافع الجهاد فقال وَأُولَئِكَ
لَهُمُ الْخَيْرَاتُ جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين من النصر والغنيمة والجنة والكرامة وقيل
المراد بها النساء الحسان اي الحور قاله الحسن كقوله تعالى فيهن خيرات حسان ومفرده خيرة
بالتشديد ثم خففت مثل هينة وهينة وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قد تقدم معنى الفلاح والمراد
هنا الفائزون بالمطلوب وفي تكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم امرهم أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ استيناف
لبيان كونهم مفلحين جَنَّاتٍ اي بساتين تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قد تقدم بيان جري الانهار
من تحتها خَالِدِينَ فِيهَا قد سبق بيان الخلود والفوز ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ اي ما تقدم من الخيرات والفلاح

عٌ

ونيل الكرامة العظمى واعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة الفوز العظيم ووصف الفوز بكونه
عظيما يدل على انه الفرد الكامل من انواع الفوز وجاء المعذرون من الاعراب قرئ بالتخفيف
من اعذر وكان ابن عباس يقرأها مخففة ويقول والله هكذا انزلت قال
النحاس الا ان مدارها على الكلبي يقال اعذر اذا بالغ في العذر ومنه من انذر فقد اعذر وقرأ
الجمهور بالتشديد وفيه وجهان احدهما ان يكون اصله المعتذرون وهم الذين لهم عذر
فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم وقد روي هذا عن الفراء والزجاج وابن الانباري
وابي عبيد والاخفش وابي حاتم وقيل هو من عذر وهو الذي يعتذر ولا عذر له يقال عذر
في الامر اذا قصر فيه واعتذر بما ليس بعذر ذكره الجوهري وصاحب الكشاف فالمعذرون على هذا
هم المبطلون لانهم اعتذروا باعذار كاذبة باطلة لا اصل لها والمعنى انه جاء هؤلاء من الاعراب
بما جاؤا به من الاعذار بحق او بباطل على كلا التفسيرين قال الضحاك هم رهط عامر وقيل من
اسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر وهذا شروع في بيان احوال منافقي
الاعراب اثر بيان احوال منافقي اهل المدينة والاعراب سكان البادية وهم اخص من العرب
اذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية او الحاضرة وقد اختلف في انهم
كانوا معتذرين بالتصنع او بالصحة ليؤذن لهم اي لاجل ان يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف
عن الغزو وقعد الذين طائفة اخرى لم يعتذروا بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقوا
الاعراب الذين كذبوا الله ورسوله بالتخفيف اي كذبوا في ادعاء ايمانهم وبالتشديد اي لم
يؤمنوا ولا صدقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا امره قال ابو اسحاق ذكر لي انهم
نفر من بني غفار جاؤا فاعتذروا ومنهم خفاف بن ايما وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا
ان غزونا معك اغارت اعراب طي على اهالينا ومواشينا وقيل منافقوا الاعراب قسمان قسم
جاؤا واعتذروا بالاعذار الكاذبة وقسم لم يجيء ولم يعتذر ثم توعدهم سبحانه فقال سيصيب
الذين كفروا منهم اي من الاعراب وهم الذين اعتذروا بالاعذار الباطلة والذين لم يعتذروا
بل كذبوا الله ورسوله وأتى بمن التبعيضية لان منهم من اسلم فلم يصبه العذاب عذاب اليم
اي كثير الالم فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل والاسر وعذاب الآخرة بالنار والتوبة ليس على

الضعفاء لما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم اهل الاعذار الصحيحة المسقطة للغزو وبدأ
بالعذر في اصل الخلقة وهو الضعف او باب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك كالشيوخ
والصبيان والنساء ومن خلق في اصل الخلقة ضعيفا نحيفا والضعفاء جمع ضعيف وهو الصحيح في
بدنه العاجز عن الغزو ثم ذكر العذر العارض فقال ولا على المرضى المراد بهم كل ما يصدق عليه
اسم المرض لغة او شرعا وقيل انه يدخل في المرضى الاعمى والاعرج ونحوهما ثم ذكر العذر الراجع
الى المال لا الى البدن فقال ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اي ليست لهم اموال
ينفقونها فيما يحتاجون اليه من التجهز للجهاد لفقرهم كجهينة ومزينة وبني عذرة فنفى سبحانه
عن هؤلاء الثلاثة الحرج وابان ان الجهاد مع هذه الاعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم
مقيدا بقوله اذا نصحوا لله ورسوله في حال قعودهم بالطاعة وعدم الارجاف والتثبيط
واصل النصح اخلاص العمل من الغش ومنه التوبة النصوح قال نفطويه نصح الشيء اذا خلص
ونصح له القول اي اخلصه له والنصح لله الايمان به والعمل بشريعته وترك ما يخالفها كائنا ما
كان ويدخل تحته دخولا اوليا نصح عباده ومحبة المجاهدين في سبيله وبذل النصيحة لهم في امر
الجهاد وترك المعاونة لاعدائهم بوجه من الوجوه ونصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم التصديق
بنبوته وبما جاء به وطاعته في كل ما يأمر به والنهي عنه وموالاة من والاه ومعاداة من
عاداه ومحبته وتعظيم سنته واحياؤها بعد موته بما تبلغ اليه القدرة وقد ثبت في الحديث
الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدين النصيحة ثلاثا قالوا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة
المسلمين وعامتهم وفي الخازن النصح ان يقيموا في البلد ويحترزوا عن افشاء الاراجيف واثارة
الفتن ويسعوا في ايصال الخير الى اهل الجهاد ويقوموا بمصالح بيوتهم ما على المحسنين من
سبيل جملة مقررة لمضمون ما سبق اي ليس على المعذورين الناصحين طريق عقاب و
مؤاخذة ومن مزيدة للتأكيد وعلى هذا فيكون لفظ المحسنين موضوعا في موضع الضمير
الراجع الى المذكورين سابقا او اتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين او
يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم فتكون الجملة
تعليلية والله غفور رحيم لاهل الاساءة جملة تذييلية [illegible]

وسمعها وقوله ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج واسقاط التكليف
عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو الذي عذرهم الله عنه مع رغبتهم
اليه لولا حبسهم العذر عنه ومنه حديث انس عند ابي داود واحمد واصله في الصحيح ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتم من مسير ولا انفقتم من نفقة
ولا قطعتم واديا الا وهم معكم فيه قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة فقال
حبسهم العذر واخرجه احمد ومسلم من حديث جابر عن قتادة قال نزلت هذه الآية في عائذ
بن عمرو المزني و قال الضحاك عذرهم وجعل لهم من الاجر ما جعل للمجاهدين
قال الرازي ليس في الآية انه يحرم عليهم الخروج لان الواحد لو خرج
ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم او بتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل
نفسه كلا ووبالا عليهم لكان ذلك طاعة مقبولة ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من
تضمنه قوله وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ العطف على
جملة ما على المحسنين او على الضعفاء اي لا على هؤلاء حرج والمعنى ان من جملة المعذورين
هؤلاء الذين اتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك قيل
هم سبعة من الانصار وقيل بنو مقرن وقيل المعنى اذا ما اتوك قائلا لا اجد وقيل غير ذلك و هذا
اولى وفي ايثار هذا التعبير على ليس عندي لطف في الكلام وتطييب لقلوب السائلين كأنه قال
انا طالب ما تسألونه وافتش عنه فلا اجده فانا معذور وعن انس في الآية قال الماء والزاد
وعن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا ادركنا الذين سألوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم الحملان فقالوا ما سألناه الا الحملان على النعال وعن ابراهيم بن ادهم عمن حدثه في
الآية قال ما سألوه الدواب ما سألوه الا النعال وعن الحسن بن صالح قال استحملوه النعال تَوَلَّوْا
اي انصرفوا عنك لما قلت لهم لا اجد ما احملكم عليه وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ اي تسيل مِنَ الدَّمْعِ في
حال كونهم باكين ومن للبيان وفي الشهاب بل الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء
للمبالغة وجعلت اعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها يعني ان الفيض مجاز عن الامتلاء
بعلاقة السببية فان الثاني سبب للاول فالجار في المسند الى الدمع هو في الشأن الماء او النهر حقيقة

والتجوز في اسناده الى العين للمبالغة كجرى النهر ومن للتعليل حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا قال الفراء اي ليس يجدوا وقيل حزنا على ان لا يجدوا وقيل المعنى حزنا انهم لا يجدوا وقيل لاجل ان لا يجدوا مَا يُنْفِقُونَ في الجهاد لا عند انفسهم ولا عندك عن محمد بن كعب قال هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف حرمي بن عمرو ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى ابا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد ابو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمرو المزني ومن ثم قيل لهم البكاؤن فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه وهو الف وحمل يامين بن عمرو النضري اثنين كذا في مختصر سيرة الحلبي وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة واختلفوا في البعض ولا يأتي التطويل في مثل ذلك بكثير فائدة ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال إِنَّمَا السَّبِيلُ اي طريق العقوبة والمؤاخذة وهي للاعمال السيئة واتى بانما للمبالغة في التوكيد لا للحصر قال السفاقسي وليس ثم ما يمنع ان تكون للحصر عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ في التخلف عن الغزو وَهُمْ اي والحال انهم أَغْنِيَاءُ يجدون ما يحملهم وما يجهزون به رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وهم النساء والصبيان والجملة مستانفة كانه قيل ما بالهم استاذنوا وهم اغنياء فقيل رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فيهم واليه مال الزمخشري وقيل انه في محل نصب على الحال وقد مقدرة قاله الكرخي وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ معطوفة على رضوا اي سبب الاستيذان مع الغناء امران احدهما الرضاء بالصفقة الخاسرة وهي ان يكونوا مع الخوالف والثاني الطبع من الله على قلوبهم فَهُمْ بسبب هذا الطبع لَا يَعْلَمُونَ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر عن مجاهد قال هي في المنافقين قال السيوطي وقد تقدم مثله انتهى قال في الجمل لكن مع نوع اختلاف في الالفاظ كما لا يخفى

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

اخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بانهم يعتذرون الى المؤمنين اذا رجعوا

عن الغزو وهذا كلام مستأنف وانما قال اليهم اي الى المعتذرين بالباطل ولم يقل الى المدينة لان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع اليها وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها ويحتمل ان يكون الضمير في اليكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التاني المشهور في هذا روي ان المعتذرين كانوا بضعة وثمانين رجلا ثم اخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيب به عليهم فقال قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا فيها هو او لا عن الاعتذار بالباطل ثم علله بقوله لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ اي لن نصدقكم كانهم ادعوا انهم صادقون في اعتذارهم لان غرض المعتذر ان يصدق فيما يعتذر به فاذا عرف انه لا يصدق ترك الاعتذار وانما خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم مع ان الاعتذار منهم كان الى جميع المؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم راسهم والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير وجملة قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ تعليلية للنهي اي لا يقع منا تصديق لكم لان الله قد اعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ اي ما ستفعلونه من الاعمال فيما بعد هل تقلعون عما انتم عليه الان من الشر ام تبقون عليه وقيل سيعلم عملكم السيء واضاف اليه مستة على الوقوع والظاهر ان الاستقبال في علم الله بالنظر لظهوره لنا وَرَسُولُهُ معطوف على الاسم الشريف ووسط مفعول الرؤية ايذانا بان رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير او شر هي التي تدور عليها الاثابة او العقوبة وفي جملة ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تخويف شديد لما هي مشتملة عليه من التهديد ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر لاشعار ذلك باحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به واخبارهم به ومجازاتهم عليه سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ذكر ان هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاؤا به من الاعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو وغرضهم من هذا التاكيد لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ اي يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضاء عنهم كما يفيده ذكر الرضاء من بعد وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه وهو اعتذارهم الباطل فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ اي دعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق والهوى ولا تقبلوهم كما تفيده جملة إِنَّهُمْ رِجْسٌ الواقعة علة للامر بالاعراض وللنعي اظهر في انفسهم رجس لكون جميع اعمالهم نجسة فكانهم

قد صيرت ذواتهم رجسا اولانهم ذو رجس اي ذوو اعمال قبيحة ومثله انما المشركون نجس
وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متاهلين لقبول الارشاد الى الخير والتحذير من الشر فليس لهم
الا الترك قال اهل المعاني ان هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ من تمام التعليل فان من كان من اهل النار لا يجدي فيه الدعاء الى الخير او تعليل مستقل
قاله ابو السعود والمأوى كل مكان يأوي اليه الشيء ليلا او نهارا وقد أوى فلان الى منزله يأوي
جَزَاءً بِمَا يجزون جزاء او مفعول من اجله كَانُوا يَكْسِبُونَ الباء للسببية يَحْلِفُونَ لَكُمْ
حذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق والمحلوف عليه بمثل ما تقدم لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ
بين سبحانه ان مقصدهم بهذا الحلف هو رضاء المؤمنين عنهم ثم ذكر ما يفيد انه لا يجوز
الرضاء عن هؤلاء المعتذرين بالباطل فقال فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ كما هو مطلوبهم وساعدتهم
لهم وقبلتم معذرتهم فلا ينفعهم رضاكم فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ تعليل للمحذوف
المتقدم وانما كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضاء عن هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي
لكم ايها المؤمنون ان لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم ان لا ترضوا عنهم على ان رضاكم
عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم هو نهي
المؤمنين عن ذلك لان الرضاء عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن ونكتة العدول
عن الظاهر التسجيل عليهم حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط
وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك الْأَعْرَابُ اي جنسهم لا كل واحد لما سيأتي
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا لما ذكر سبحانه احوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجا عنها من
الاعراب وبين ان كفرهم ونفاقهم اشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم لانهم اقسى قلوبا
واغلظ طباعا واجفى قولا وابعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله واوحش فعلا ولان
نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف
بعض افراده كما في قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ما سنحيط به خبرا
والاعراب هم من سكن البوادي بخلاف العرب فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا
البوادي او القرى هكذا قال اهل اللغة ولهذا قال سيبويه ان الاعراب صيغة جمع وليست بصيغة

جمع العرب لئلا يلزم كون الجمع اخص من مفرده قال النيسابوري قال اهل اللغة رجل عربي اذا
كان نسبه الى العرب ثابتا وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس واليهودي واليهود فالاعرابي اذا قيل
له يا عربي فرح واذا قيل للعربي يا اعرابي غضب وذلك ان من استوطن القرى العربية فهو
عربي ومن نزل البادية فهو اعرابي ولهذا لا يجوز ان يقال للمهاجرين والانصار اعراب انما هم
عرب فان قيل لم سمي العرب عربا لان اولاد اسمعيل عليه السلام نشأوا بالعربة وهي من
تهامة فنسبوا الى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم وقيل لان السنتهم
معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى وفي المصباح واما الاعراب
بالفتح فاهل البدو من العرب الواحد اعرابي بالفتح ايضا وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ
وزاد الازهري سواء كان من العرب او من مواليهم فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن
بظعنهم فهم اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي
الى العرب فهو عرب وان لم يكونوا فصحاء واجدر معناه اخلق يقال فلان جدير بكذا اي خليق به
وانت جدير ان تفعل كذا واصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير واجدر
وحقيق واحق وقمن وخليق واولى بكذا كله بمعنى واحد قال الليث جدر يجدر جدارة فهو جدير
ويؤنث ويثنى ويجمع وقد نبه الراغب على اصل الاشتقاق هذه المادة وانها من الجدار اي الحائط
فقال والجدير المنتهى لانتهاء الامر اليه انتهاء الشيء الى الجدار والذي يظهر ان اشتقاقه من الجدر
وهو اصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك جدير بكذا ان لا يعلموا حدود ما
انزل الله على رسوله من الشرائع والاحكام والفرائض وما امر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن
الانبياء وديار التنزيل ومشاهدة المعجزات ومعاينة ما ينزل عليه في تضاعيف الكتاب و
السنة ووصف العرب بانهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بالفاظهم واشعارهم على كتاب
الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لان المراد وصفهم بالجهل الغالب في احكام القرآن لا في الفاظه ونحن لا نحتج بالفاظهم
في بيان الاحكام بل في بيان الالفاظ لفظ القرآن والسنة لما انها لغتهم قاله الكرماني والله عليم باحوال العباد
حكيم فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقابا وثوابا فيما يحكم عليهم من خير وشر من الجليات هذه الاية نزلت في
اسد وغطفان واخرج احمد وابو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الايمان عن ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سكن البادية جفى ومن اتبع الصيد غفل ومن اتى السلطان افتتن قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث الثوري واخرج ابو داود والبيهقي من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدا جفى ومن اتبع الصيد غفل ومن اتى ابواب السلطان افتتن وما ازداد احد من سلطانه قربا الا ازداد من الله بعدا

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ هذا تنويع الجنس الى نوعين الاول هؤلاء والثاني ومن الاعراب من يؤمن بالله والمغرم الغرام والخسران وهو ثاني مفعولي يتخذ لانه بمعنى الجعل والمعنى انه اعتقد ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسرانا واصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده ولكنه ينفقه للرياء والتقية وقيل اصل الغرم اللزوم كانه اعتقد انه يلزمه لامر خارج لا تنبعث له النفس قال الضحاك يعني بالمغرم انه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها وعن ابن زيد قال هؤلاء المنافقون من الاعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء ان يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرما وهم بنو اسد وغطفان ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ اي ينتظر بكم الدوائر جمع دائرة وهي الحالة المنقلبة عن النعمة الى البلية واصلها ما يحيط بالشيء ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله وكانها لا تستعمل الا في المكروه وفي الدائرة مذهبان اظهرهما انها صفة على فاعلة كقائمة وقال الفارسي يجوز ان تكون مصدرا كالعاقبة والمعنى ينتظر بكم تقلب الزمان وصروفها التي تاتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعني يموت الرسول ويظهر المشركون ثم ردها سبحانه عليهم بقوله ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلا لما ارادوه بالمسلمين والسوء بالفتح عند الجمهور مصدر واضيف اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق وهو مصدر في الحقيقة قال ابو البقاء هو الضرر وقال مكي بن فتح السين فمعناه الفساد والرداءة ومن ضمها فمعناه البلاء والضر وظاهر هذا انهما اسمان لما ذكر ويحتمل ان يكونا مصدرين بمعنى الملقبا على ما ذكر وقال غيره المضموم العذاب والضرر والمفتوح الذم وقرا ابن كثير وغيره بضم السين وهو المكروه قال الاخفش عليهم دائرة الهزيمة والشر وقال الفراء دائرة العذاب والبلاء قال والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة ومسائية والضم اسم

لا مصدر وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه وقال الضحاك الدوائر الهلاك وَاللَّهُ سَمِيعٌ
لما يقولونه عَلِيمٌ بما يضمرونه وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هذا النوع الثاني
من انواع الاعراب كما تقدم اي منهم من يتصدق بهما عن عبد الرحمن بن معقل قال كنا عشرة ولد
مقرن فنزلت هذه الآية فينا وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله ولا على
الذين اذا ما أتوك لتحملهم الآية وقال الكلبي هم اسلم وغفار وجهينة ومزينة وفي الباب احاديث
يطول ذكرها وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ اي سبب قربات عِنْدَ اللَّهِ وهي جمع قربة بالضم وهي ما يتقرب
به الى الله سبحانه تقول منه قربت لله قربانا والجمع قرب وقربات والمعنى انه يجعل ما ينفقه في سبيل الله
سببا لحصول القربات عند الله وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ اي سببا لدعوات الرسول لهم لانه صلى الله عليه وسلم
كان يدعو للمتصدقين ومنه قوله صل عليهم ان صلوتك سكن لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم
صل على آل ابي اوفى وقال ابن عباس استغفار النبي صلى الله عليه وسلم وقيل انها منسوقة على ما ينفق
اي ويتخذ بالاعمال الصالحة صلوات الرسول قربة وجوزه ابن عطية ولم يذكر ابو البقاء غيره
وظاهر كلام الزمخشري انها منسوقة على قربات كما تقدم ثم انه سبحانه بين بان ما ينفقه هذا
النوع من الاعراب تقربا الى الله مقبول واقع على الوجه الذي يريده فقال أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ
فاخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق وفي هذا من
التطييب لخواطرهم والتطمينة لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من
يتخذ ما ينفق مغرما والتوبيخ له بابلغ وجه والضمير في انها راجع الى ما في ما ينفق وتانيثه باعتبار
الخبر وقيل راجع الى صلوات الرسول والاول اولى ثم فسر سبحانه القربة بقوله سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ والسين لتحقيق الوعد وهذه النعمة هي اقصى مرادهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لاهل
طاعته رَحِيمٌ بعباده وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لما ذكر سبحانه
اصناف الاعراب ذكر المهاجرين والانصار وبين ان منهم السابقين الى الهجرة وان منهم
التابعين لهم وقرأ عمر بن الخطاب الانصار بالرفع وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم
بالجر قال الاخفش الخفض في الانصار الوجه لان السابقين منهم يدخلون في قوله والسابقون
وفي [illegible] الاولين من المهاجرين والانصار [illegible] الذين اتبعوهم

في قول سعيد بن المسيب وطائفة او الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي او اهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار ولا مانع من حمل الآية على هذه الاصناف كلها قال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابو منصور البغدادي اصحابنا مجمعون على ان افضلهم الخلفاء الاربعة ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم اصحاب احد ثم اهل بيعة الرضوان بالحديبية وقال ابن زيد هو من بقي من اهل الاسلام الى ان تقوم الساعة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ اي اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا وهم كل من ادرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون من في قوله من المهاجرين على هذا للتبعيض وقيل انها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الامة الى يوم القيامة قال جماعة من الصحابة لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لامتي كلهم وليس بعد الرضاء سخط عن حميد بن زياد قال قلت لمحمد بن كعب القرظي اخبرني عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما اريد الفتن قال ان الله قد غفر لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم قلت له وفي اي موضع اوجب الله لهم الجنة في كتابه قال الا تقرؤن قوله تعالى والسابقون الاولون الآية اوجب لجميع اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم قلت وما اشترط عليهم قال اشترط عليهم ان يتبعوهم باحسان يقول يقتدون بهم في اعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك قال ابو صخر فوالله لكأني لم اقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب وقوله ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ قيل التابعين اي والذين اتبعوهم متلبسين باحسان في الافعال والاقوال اقتداء منهم بالسابقين الاولين ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ اي قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما اعطاهم من فضله ومع رضاء الله عنهم فقد ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ خالدين فيها ابدا وفي قراءة بزيادة من قال [illegible] وهذا بحسبه لابن كثير ومعلوم ان قراءته [illegible] [illegible] بزيادة من [illegible] الاشهر [illegible]

وقد تقدم تفسير تجري الانهار من تحت الجنات وتفسير الخلود خالدين فيها
ابدا ذلك الفوز العظيم اختلفوا في اول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة اول
الخلق اسلاما على اقوال يطول ذكرها وقال اسحاق بن ابراهيم اول من اسلم من الرجال ابو بكر
ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن ابي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة فهؤلاء
الاربعة سباق الخلق الى الاسلام واسلم على يد ابي بكر عثمان والزبير وابن عوف وسعد بن
ابي وقاص وطلحة ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول في الاسلام فهؤلاء السابقون الاولون
من المهاجرين واما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة
وهي العقبة الاولى وكانوا خمسة نفر سعد وعوف ورافع وقطبة وجابر ثم اصحاب
العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلا ثم اصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا
فهؤلاء سابقوا الانصار وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة وممن حولكم من
الاعراب منافقون هذا عود الى شرح احوال المنافقين من اهل المدينة ومن يقرب
منها من الاعراب قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة
ومزينة واشجع وغفار واسلم ذكره جمع من المفسرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي
والنسفي والخازن والسيوطي وغيرهم وفيه اشكال لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل
فان صح هذا النقل فتحمل الاية على القليل منهم لان لفظة من للتبعيض ويحمل الدعاء لهم
على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بينهما واطلق الطبري القول ولم يعين احدا من
القبائل المذكورة بل قال من القوم الذين حول مدينتكم ايها المؤمنون من الاعراب منافقون
ومن اهل المدينة قوم واناس مردوا على النفاق قال البغوي اي من الاوس والخزرج وقيل
المعنى وممن حولكم من الاعراب ومن اهل المدينة منافقون مردوا واصل مرد وتمرد اللين و
الملاسة والتجرد فكانهم تجردوا للنفاق ومنه غصن امرد لا ورق عليه وفرس امرد لا شعر
فيه وغلام امرد لا شعر بوجهه وارض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد فالمعنى اقاموا
على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه ولم يتوبوا منه قال ابن زيد معناه لجوا فيه وابوا غيره
وقيل تمرنوا عليه يقال تمرد فلان اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته

اي تمرنوا وثبتوا عليها واعتادوها ولم يتوبوا وجملة لَا تَعْلَمُهُمْ مبينة للجملة الاولى وهي مردوا
على النفاق اي ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفي امرهم على رسول الله صلى
الله عليه وسلم فكيف بسائر المؤمنين والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم باعيانهم لا من حيث الجملة
فان للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم ولا ينافي هذا قوله تعالى ولتعرفنهم في لحن القول
لان اية النفي نزلت قبل اية الاثبات وهذه الجملة صفة لمنافقون او مستانفة والعلم هنا
اما على بابه فيتعدى لاثنين اي لا تعلمهم منافقين او عرفاني فيتعدى لواحد قاله ابو البقاء
واما قوله نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ فلا يجوز ان يكون الا على بابه وهي مقررة لما قبلها لما فيها من
الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر ولا يظهر لغير الله
سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر ثم توعدهم سبحانه فقال
سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قيل المراد بهما عذاب الدنيا بالقتل والسبي وعذاب الآخرة وقيل
الفضيحة بانكشاف نفاقهم والعذاب في الآخرة وقيل المصائب في اموالهم واولادهم و
عذاب القبر قال مجاهد مرتين يعني بالجوع والقتل وعن ابي مالك قال بالجوع وعذاب
القبر وعن قتادة قال عذاب في القبر وعذاب في النار وقد روي عن جماعة من السلف
نحو هذا في تعيين العذابين وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على انه المراد
بعينه والظاهر ان هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب وانهم
يعذبون مرة بعد مرة ثم يردون بعد ذلك الى عذاب الآخرة وهو المراد بقوله ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ومن قال ان العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال
معنى قوله ثم يردون انهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار الى الدرك
الاسفل منها او انهم يعذبون في النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار ثم يردون
بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار وفي مسند احمد عن ابن مسعود خطبنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان منكم منافقين فمن سميته فليقم ثم
قال قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون
في دينهم فقال وممن حولكم من اهل المدينة قوم وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ المعنى ان

ان هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا ان يتوب الله عليهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا المراد بالعمل الصالح ما تقدم من اسلامهم وقيامهم بشرائع الاسلام وخروجهم الى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ هو تخلفهم عن هذه الغزوة وقد اتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا وهو الاعتراف به والتوبة عنه واصل الاعتراف الاقرار بالشيء ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا ومعنى الخلطة انهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ذكره غالب المفسرين وانكره الرازي وقال الواو لمطلق الجمع وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وانه بقي كل واحد منهما كما كان من غير ان يتأثر احدهما بالآخر ويجوز ان يكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت الشاء شاة ودرهما اي بدرهم وقال الواحدي الواو احسن من الباء لانه اريد به معنى الجمع لا حقيقة الخلط الا ترى ان العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقال التفتازاني وتحقيقه ان الواو للجمع والباء للالصاق والجمع والالصاق من قبيل واحد فسلك به طريق الاستعارة وقال الزمخشري كل واحد مخلوط ومخلوط به وفيه ما ليس في الباء وفي قوله عسى الله ان يتوب عليهم دليل على انه قد وقع منهم الاعتراف ما يفيد التوبة او ان مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي هو عسى في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لان الاطماع من الله سبحانه ايجاب لكونه اكرم الاكرمين وفي المواهب واتفق المفسرون على ذلك قال القسطلاني وعسى للاشعار بان ما يفعله تعالى ليس الا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر ان الله غفور رحيم يغفر الذنوب ويتفضل على عباده وهذا يفيد انجاز الوعد عن ابن عباس قال كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم اوثق سبعة منهم انفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم اذا رجع عليهم فلما رآهم قال من هؤلاء الموثقون انفسهم

قالوا هذا ابو لبابة واصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم قال
وانا اقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا
عن الغزو مع المسلمين فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق انفسنا حتى يكون الله هو الذي
يطلقنا فنزلت عسى الله ان يتوب عليهم وقيل الآية تعم جميع المسلمين والحمل على العموم
اولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وروى
الطبراني عن ابي عثمان قال ما في القرآن آية ارجى عندي لهذه الامة من هذه الآية خُذْ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً اختلف اهل العلم في هذه الصدقة المامور بها فقيل هي صدقة الفرض
وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها لانهم بعد التوبة عليهم عرضوا اموالهم
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية كما تقدم ومن للتبعيض على التفسيرين
والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة والصدقة ماخوذة من الصدق اذ هي دليل على صدق
مخرجها في ايمانه تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا الضمير المرفوع في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم اي تطهرهم
وتزكيهم يا محمد بما تاخذه من الصدقة منهم وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة والضمير
في تزكيهم للنبي صلى الله عليه وسلم والاول اولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين
المتعاطفين ومعنى التطهير اذهاب ما يتعلق بهم من اثر الذنوب ومعنى التزكية المبالغة
في التطهير قال الزجاج والاجود ان يكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم اي فانك يا محمد
تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستيناف ويجوز الجزم على جواب الامر والمعنى ان تاخذ
من اموالهم صدقة تطهرهم قال السيوطي فاخذ ثلث اموالهم وتصدق بها على سبيل
الكفارة لذنوبهم فان كل من اتى ذنبا يسن له التصدق وَصَلِّ عَلَيْهِمْ اي ادع لهم بعد
اخذك لتلك الصدقة من اموالهم قال النحاس وحكى اهل اللغة جميعا فيما علمناه ان
الصلوة في كلام العرب الدعاء ثم علل سبحانه امره لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلوة على من ياخذ
منه الصدقة فقال إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ السكن ما تسكن اليه النفس وتطمئن به وهو
فَعَل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض والمعنى يسكنون اليها قال ابن عباس استغفارهم
من ذنوبهم التي كانوا اصابوها ان صلوتك رحمة لهم واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله

بن ابي اوفى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اتي بصدقة قال اللهم صل على آل فلان
فاتاه ابي بصدقته فقال اللهم صل على آل ابي اوفى اخرجاه ان الله سميع لاعترافهم بذنوبهم
ودعائهم عليم بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ولما تاب الله سبحانه على هؤلاء
المذكورين سابقا قال ألم يعلموا اي غير التائبين او التائبون قبل ان يتوب الله عليهم
ويقبل صدقاتهم والاستفهام للتقرير والتحضيض والتاكيد ان الله هو يقبل التوبة
لاستغنائه عن طاعة المطيعين وعدم مبالاته بمعصية العاصين وهو اما خطاب
للتائبين او لجماعة المؤمنين والمعنى ان ذلك ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم انما الله هو الذي يقبل
التوبة ويردها فاقصدوه بها عن عباده وقيل لا فرق بين عن ومن قال ابن عطية وكثيرا
ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه نحو لا صدقة الا عن غنى ومن غنى وفعل ذلك
فلان من اشره وبطره وعن اشره وبطره وقيل بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع ابلغ
لان فيه تبشير القبول للتوبة مع تسهيل سبيلها وقيل لفظة عن تشعر ببعد ما تقول
جلس عن يمين الامير اي مع نوع من البعد والظاهر ان عن هنا للمجاوزة واذا قلت منه
فمعناه ابتداء الغاية ويأخذ الصدقات اي يتقبلها منهم وفي اسناد الاخذ اليه سبحانه
بعد امره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها وفي ذكر لفظ
الاخذ ترغيب في بذل الصدقة واعطائها الفقراء عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما تصدق احدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا اخذها الرحمن
بيمينه وان كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون اعظم من الجبل كما يربي احدكم فلوه
او فصيله اخرجه الشيخان وفي الباب احاديث يطول ذكرها وان الله هو التواب الرحيم
اي ان هذا شأنه سبحانه وفي صيغة المبالغة في التواب مع توسيط ضمير الفصل والتاكيد
من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى وقل لهم او للناس وهما قولان للمفسرين اعملوا ما شئتم من
الاعمال الصالحة والسيئة فسيرى الله عملكم خيرا كان او شرا تعليل لما قبله ورسوله والمؤمنون
فيه تخويف وتهديد للمذنبين اي ان عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين
فسارعوا الى اعمال الخير واخلصوا اعمالكم لله عز وجل وفيه ايضا ترغيب وتنشيط للمطيعين

قال من علم ان عمله لا يخفى سواء كان خيرا وشرا رغب الى اعمال الخير وتجنب اعمال الشر
وما احسن قول زهير ﴿ومهما يكن عند امرء من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم﴾
فظاهره ترغيب وترهيب والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر من الاعمال الاستقبال
بالنظر للجزاة والا فالعلم حاصل بالفعل اي فيجازيكم على عملكم والمجازاة من الله معلومة
ومن رسوله والمؤمنين بعض الثناء عليهم والدعاء لهم قال مجاهد هذا وعيد من الله عزوجل
وقال ابو السعود زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح واخرج احمد وابو يعلى وابن حبان
والحاكم والبيهقي وغيرهم عن ابي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو ان احدكم يعمل
في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لاخرج الله عمله للناس كائنا ما كان ثم جاء سبحانه بوعيد
شديد فقال وَسَتُرَدُّونَ اي بالبعث بعد الموت إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
اليه سبحانه الذي يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه وفي تقديم الغيب
على الشهادة اشعار بسعة علمه عزوجل وانه لا يخفى عليه شئ ويستوي عنده كل معلوم
ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم اليه فقال فَيُنَبِّئُكُم اي يخبركم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ في
الدنيا فيجازي المحسن باحسانه والمسيئ باساءته ويتفضل على من يشاء من عباده وَ
آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ذكر سبحانه ثلثة اقسام في المتخلفين الاول المنافقون الذين مردوا
على النفاق الثاني التائبون المعترفون بذنوبهم الثالث الذين بقي امرهم موقوفا في تلك
الحال وهم المرجون لامر الله من ارجيته وارجاته اذا اخرته وهما لغتان والقراءتان اي بالهمز
ودونه سبعيتان والمعنى انهم مؤخرون في تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها
بل هم على ما تبين من امر الله سبحانه في شانهم والفرق بين الثاني والثالث ان الثاني
اعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم باعذار فقبلها منه فجعلت توبته وان الثالث لم يعتذر ولا انه فتش
فلم يجد عذرا صادقا فاخر رسول الله صلى الله عليه وسلم امرهم حتى نزل الله قبول توبته فاخر الله قبولها
خمسين يوما إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ان بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ان تابوا
توبة صحيحة واخلصوا الاخلاص والتقدير آخرون مرجون لامر الله حال كونهم اما معذبين
واما متوبا عليهم واما هنا للشك بالنسبة الى المخاطب واما للابهام بالنسبة الى الله تعالى

بمعنى انه تعالى اعلم على المخاطبين اعني هذا الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم والا فالله سبحانه عالم
بما هو فاعله بهم وَاللَّهُ عَلِيمٌ باحوالهم حَكِيمٌ فيما يفعله بهم من خير او شر وعن عكرمة
قال وآخرون مرجون لامر الله هم الثلاثة الذين خلفوا وعن مجاهد قال هم هلال بن امية
ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الاوس والخزرج تخلفوا كسلا وميلا الى الدعة لا نفاقا
ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف امرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم
بعد وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لما ذكر سبحانه اصناف
المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم وهم الذين
اتخذوا مسجدا ضرارا وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار وفي اعرابه وجوه ذكرها
في الجمل وقد اخبر الله سبحانه ان الباعث لهم على بناء هذا المسجد امور اربعة الاول الضرار لغيرهم
وهو المضاررة الثاني الكفر بالله والمباهاة لاهل الاسلام لانهم ارادوا ببنائه تقوية اهل النفاق
الثالث التفريق بين المؤمنين لانهم ارادوا ان لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى
الرابع قوله وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قال الزجاج الارصاد الانتظار وقال ابن قتيبة الارصاد الانتظار مع العداوة
وقال الاكثرون الارصاد الاعداد والمعنى متقارب يقال رصدت لكذا اذا اعددته مرتقبا له به قال ابو زيد يقال رصدته و
ارصدته في الخير وارصدت له في الشر وقال ابن الاعرابي لا يقال الا ارصدت ومعناه ارتقبت والمراد
بمن حارب الله ورسوله المنافقون وهم اثنا عشر رجلا منهم ابو عامر الراهب الى احد وكان هؤلاء
ارتقبوا به وصوله وانتظروه ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين مِنْ قَبْلُ اي من قبل
ان ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار والمعنى لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء
مسجد الضرار وَلَيَحْلِفُنَّ جواب قسم مقدر اي والله ليحلفن إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى اي ما اردنا ببنائه الا
الخصلة او الارادة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على اهل الضعف والعجز عن الصلوة
في مسجد قباء او مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المطر والحر فرد الله عليهم بقوله وَاللَّهُ يَشْهَدُ اي
يعلم إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فيما حلفوا عليه وقالوه عن ابن عباس قال هم اناس من الانصار ابتنوا
مسجدا فقال لهم ابو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم
من قوة وسلاح فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فاخرج محمدا واصحابه

فلما فرغوا من مسجدهم اتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب ان تصلي فيه
وتدعو بالبركة فانزل الله لا تقم فيه ابدا وعنه قال لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج
رجال من الانصار فبنوا مسجد النفاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بجدج ما اردت الا ما ارى
قال ما اردت الا الحسنى وهو كاذب فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم واراد ان يعذره فانزل الله والذين
اتخذوا مسجدا ضرارا الاية ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلوة في مسجد الضرار فقال لا تقم
فيه ابدا اي في وقت من الاوقات فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة هدموه واحرقوه
وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والنهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلوة فيه وقد
يعبر عن الصلوة بالقيام يقال فلان يقوم الليل اي يصلي ومنه الحديث الصحيح من قام رمضان
ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام بقوله لمسجد
اسس على التقوى اللام في لمسجد لام القسم وقيل لام الابتداء وفي ذلك تاكيد لمضمون الجملة وتاسيس
البناء تثبيته ورفعه ومعنى تاسيسه على التقوى تاسيسه على الخصال التي تتقى بها العقوبة واختلف العلماء في
هذا المسجد فقالت طائفة هو مسجد قباء كما روي عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي و
غيرهم وذهب اخرون الى انه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم والثاني ارجح لما اخرج ابن ابي شيبة واحمد
ومسلم والترمذي والنسائي وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن خزيمة وابن
حبان وابو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابي سعيد الخدري قال اختلف رجلان
رجل من بني خدرة وفي لفظ تماريت انا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي اسس على
التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري هو مسجد قباء فاتيا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال هو هذا المسجد لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في ذلك خير
كثير يعني مسجد قباء واخرج احمد وغيره عن ابي بن كعب قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد
الذي اسس على التقوى قال هو مسجدي هذا وعن زيد بن ثابت مرفوعا مثله عند الطبراني
وغيره وفي الباب احاديث كثيرة ولا خفاء ان النبي صلى الله عليه وسلم قد عين هذا المسجد الذي اسس
على التقوى وجزم بانه مسجده صلى الله عليه وسلم كما تقدم من الاحاديث الصحيحة فلا يقاوم قول
فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا من غيرهم ولا يصلح لايراده في مقابلة ما قد عين

النبي صلى الله عليه وسلم قال الكرخي والتحقيق ان رواية نزولها في مسجد قباء لا تدحض تنصيصه صلى الله
على انه مسجد المدينة فانها لا تدل على اختصاص اهل قباء بذلك انتهى ولا فائدة في ايراد ما ورد
في فضل الصلوة في مسجد قباء فان ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي اسس على التقوى على ان ما ورد
في فضائل مسجده صلى الله عليه وسلم اكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة ومن اول يوم
متعلق باسس اي اسس على التقوى من اول يوم من ايام تاسيسه قال بعض النحاة ان من هنا
بمعنى منذ اي منذ اول يوم ابتدئ بنائه ووضع اساسه احق ان تقوم فيه مصليا وافعل
التفضيل على غير بابه او المفاضلة باعتبار زعمهم او بالنظر له في ذاته فان المحظور قصدهم
ونيتهم والمعنى لو كان القيام في غيره جائزا لكان هذا اولى بقيامك فيه للصلوة ولذكر الله
لكونه اسس على التقوى من اول يوم ولكون فيه رجال يحبون ان يتطهروا هذه الجملة
مستانفة لبيان احقية قيامه صلى الله عليه وسلم فيه اي كما ان هذا المسجد اولى من جهة المحل فهو
اولى من جهة الحال فيه ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض
موجبه يعني من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول اكثر المفسرين وقيل معناه يحبون
التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والاول اولى قال الرازي المراد بها الطهارة من الذنوب
والمعاصي وعينه بوجوه ثلاثة وقيل يحبون ان يتطهروا بالحمى المطهرة للذنوب فحموا جميعا و
هذا ضعيف جدا والله يحب المطهرين معنى محبة الله لهم الرضاء عنهم والاحسان اليهم كما
يفعل المحب بمحبوبه واخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن ابي حاتم والدارقطني والحاكم عن ابي
ايوب وجابر بن عبد الله وانس بن مالك ان هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يا معشر الانصار ان الله قد اثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا قالوا نتوضأ للصلوة
ونغتسل من الجنابة قال فهل مع ذلك غيره قالوا لا غير ان احدنا اذا خرج الى الغائط احب
ان يستنجي بالماء قال هو ذاك فعليكموه وفي حديث رواه البزار والا نتبع الحجارة بالماء فقال
هو ذاك فعليكموه وفي الباب روايات بالفاظ وقد روي عن جماعة من التابعين في ذكر
سبب نزول الآية نحو هذا ولا يخفاك ان بعض هذه الاحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء
واهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بان المسجد الذي اسس على التقوى هو مسجد قباء

وعلى كل حال لا يقاوم تلك الاحاديث المصرحة بان المسجد الذي اسس على التقوى هو مسجد النبي
صلى الله عليه وسلم في صحتها وصراحتها ثم بين سبحانه ان بين الفريقين بونا بعيدا فقال ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ
بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الهمزة للانكار
التقريري والجملة مستانفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين على اهل مسجد الضرار والفاء عاطفة
على مقدر اي ابعد ما علم حالهم فمن اسس والبنيان مصدر كالعمران واريد به المبني والمعنى
ان من اسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن اسس دينه
على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق قيل انه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما
يعتمد عليه البناء تشبيها مضمرا في النفس واسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي
او مجاز فتاسيس البنيان بمعنى احكام امور دينية او تمثيل لحال من اخلص لله وعمل الاعمال
الصالحة بحال من بنى شيئا محكما ثم سبسا يستوطنه ويتحصن فيه او البنيان استعارة اصلية
والتاسيس ترشيح والشفا الشفير وشفا كل شيء حرفه وطرفه ومنه يقال اشفى على كذا اذا دنى منه
وقرب ان يقع فيه والجرف بضم الراء وسكونها قراءتان سبعيتان وعلى كل فالجيم مضمومة وهو ما
يتجرف بالسيول وهي الجوانب التي تتحفر بالماء وقيل المكان الذي اكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب
وقيل البئر التي لم تطو وقيل هو الهوة والاجتراف اقتلاع الشيء من اصله والهار الساقط يقال
هار البناء اذا سقط واصله هائر كما قالوا شاك السلاح وشائك كذا قال الزجاج يقال هار
يهور ويهار فهو هائر وتهور البناء وتهير فهو مقلوب بتقديم لامه على عينه وقيل حذفت
عينه اعتباطا اي لغير موجب وقال ابو حاتم ان اصله هاور اي ساقط متداع منهار قال
في شمس العلوم الجرف مكجرف السيل اصله واشرف اعلاه فان انصدع اعلاه فهو الهار انتهى
وقيل لا قلب فيه ولا حذف فان اصله هور او هير قال السمين وهذا اعدل الوجوه لاستراحته
من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الاصل لولا انه غير مشهود عند اهل التصريف
انتهى جعل الله سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ثم قال ﴿فَانْهَارَ﴾ الجرف
او الشفا او بنيان الباني على شفا جرف هار ﴿بِهِ﴾ اي بالبنيان او المعنى انه طاح الباطل بالبناء
والباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار ذكر انهم رأوا الدخان يخرج من اساسه

وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار والباء في به للتعدية او للمصاحبة
اي فانهار مصاحبا له وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحا للمجاز وسبحانه ما اعظم هذا
الكلام واقوى تراكيبه وادق معناه وافصح مبناه عن جابر بن عبد الله قال لقد رأيت الدخان
يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجه الحاكم ومسدد و
ابن جرير وغيرهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ اي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم
ثم ذكر سبحانه ان بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم واستمرار ترددهم وشكهم فقال ﴿لَا يَزَالُ
بُنْيَانُهُمُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ﴿الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اي شكا ونفاقا اي سبب ريبة
كانه نفس الريبة اما حال بنائه فظاهر واما حال هدمه فلانه رسخ به ما كان في قلوبهم
من الشر وتضاعفت آثاره واحكامه وقيل معنى الريبة الحسرة والندامة لانهم ندموا
على بنيانه وقال المبرد اي حرارة وغيظا وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين
شاكين في دينهم ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وسلم له نفاقا وتصميما على الكفر و
مقتا للاسلام لما اصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ثم ذكر سبحانه ما يدل على
استمرار هذه الريبة ودوامها وهو قوله ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعا وتتفرق اجزاء اما بالموت
او بالسيف وقيل في القبور او في النار والمقصود ان هذه الريبة دائمة لهم ما داموا احياء
ويجوز ان يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة وقيل معناه الا ان يتوبوا توبة يتقطع
بها قلوبهم ندما واسفا على تفريطهم وقرئ تقطع بالتخفيف والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
اي الا ان تقطع يا محمد قلوبهم وتمكن منهم كل التمكن وقرئ ولو تقطعت قلوبهم وقرئ شاذا
الى ان تقطع على الغاية اي لا يزالون كذلك الى ان يموتوا والمستثنى منه محذوف والتقدير في
كل وقت الا وقت تقطيع قلوبهم او في كل حال الا حال تقطيعها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ ع
في جزاء جرائمهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ لما
شرح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك وذكر اقسامهم
وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد الى بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه وقد بالغ
في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبوله انفسهم واموالهم التي بذلوها في سبيله

واثابته اياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء فذكر الشراء تمثيل على طريقة الاستعارة التبعية
كما في قوله اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد انفس
المؤمنين واموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس
بان يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بانفسهم واموالهم ليدل على ان المقصود في العقد
هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة اليها ايذانا بكمال العناية بهم وباموالهم ثم
انه لم يقل بالجنة بل قال بان لهم الجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم
كانه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم واصل الشراء بين العباد هو اخراج الشيء عن الملك
بشيء آخر مثله او دونه او انفع منه فهؤلاء المجاهدون باعوا انفسهم من الله بالجنة التي
اعدها الله للمؤمنين اي بان يكونوا من جملة اهل الجنة وممن يسكنها فقد جادوا بالانفس
وهي انفس الاعلاق واجودها غاية الجود وجاد الله عليهم بالجنة وهي اعظم ما يطلبه
العباد ويتوسلون اليه بالاعمال والمراد بالانفس هنا انفس المجاهدين وبالاموال ما ينفقونه
في الجهاد او في جميع وجوه البر والطاعات ويدخل فيها الجهاد دخولا اوليا قال اهل
المعاني لا يجوز ان يشتري الله شيئا في الحقيقة لان المشتري انما يشتري ما لا يملكه و
الاشياء كلها ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن انفسنا هو خلقها واموالنا هو رزقنا اياها
لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء الى الطاعة والجهاد وجعل ذلك استبدالا وشراء و
دخلت الباء هنا على المتروك على بابها وسماها ابو البقاء باء المقابلة كقولهم باء
العوض وباء التمنية وقرء عمر بن الخطاب بالجنة عن جابر بن عبد الله انه قال لما نزلت هذه
الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد كبر الناس في المسجد فاقبل رجل من الانصار ثانيا
طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول الله انزلت هذه الآية قال نعم فقال الانصاري بيع ربيح
لا نقيل ولا نستقيل وقد اخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترط
في بيعة العقبة على من بايعه من الانصار ان يشهدوا ان لا اله الا الله وانه رسول الله
ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة والسمع والطاعة ولا ينازعوا في الامر اهله ويمنعوه مما يمنعون
منه انفسهم واهليهم قالوا نعم قال قائل الانصار نعم لك هذا يا رسول الله فما لنا قال الجنة

واخرجه ابن سعد ايضا من وجه اخر وليس في قصة العقبة ما يدل على انها سبب نزول الاية يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ استئناف لبيان البيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور لا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله انفسهم واموالهم كانه قيل كيف يبيعون انها بالجنة فقيل يقاتلون وقيل فيه معنى الامر اي قاتلوا في سبيله ثم بين هذه المقاتلة بقوله فَيَقْتُلُونَ اعداء الله وَيُقْتَلُونَ في طاعته والمراد انهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبذلون انفسهم في ذلك فان فعلوا فقد استحقوا الجنة وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء في الجهاد والتعرض للموت بالاقدام على الكفار وفي قراءة بتقديم المبني للمفعول اي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي يعني لا يشترط اجتماع الامرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم وان لم يوجد واحد من الوصفين كما اذا وجدت المضاربة من غير قتل بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف اي وعدهم وعدا وحق ذلك الوعد حقا اي تحقق وثبت اخبار من الله سبحانه بان فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ اي كما وقع في القرآن وفيه وجهان احدهما انه متعلق باشترى وعلى هذا ففيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع اهل الملل وكل امة وعدت عليه بالجنة والثاني انه متعلق بمحذوف والمعنى وعدا مذكورا كائنا في التوراة وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الامة مذكورا في كتب الله المنزلة وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ في هذا من تاكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد والتنشيط لهم على بذل الانفس والاموال ما لا يخفى فانه اولا اخبر بانه قد اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وجاء بهذه العبارة الفخيمة وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم ثم اخبر ثانيا بانه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة ثم اخبر ثالثا بانه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به فانه لا احد اوفى بعهده من الله سبحانه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد فان اخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره منهم فكيف بجانب الخالق فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في

كونه اوفى بالعهد من كل وافٍ ثم زادهم سرورا وحبورا فقال فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ البشارة هي اظهار السرور وظهوره يكون في بشرة الوجه ولذا يقال اسارير الوجه اي التي يظهر فيها السرور والسين ليست للطلب بل للمطاوعة وقد تقدم ايضاح هذا والفاء لترتيب الاستبشار والامر على ما قبله والمعنى اظهروا السرور وافرحوا غاية الفرح بهذا البيع الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ الله عزوجل فقد ربحتم فيه ربحا لم يربحه احد من الناس الا من فعل مثل فعلكم وفيه التفات عن الغيبة تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور وفيه زيادة تقرير بيعهم والاشارة بقوله ذَٰلِكَ الى الجنة او الى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظيم يدل على انه فوز لا فوز مثله قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه ان الله اعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم وقال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها التَّائِبُونَ اي هم التائبون يعني المؤمنين والتائب الراجع اي هم الراجعون الى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة وقال الزجاج عندي ان قوله التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر اي التائبون ومن بعدهم الى آخر الآية لهم الجنة ايضا وان لم يجاهدوا قال وهذا احسن اذ لو كانت هذه اوصافا للمؤمنين المذكورين لكان الوعد خاصا بالمجاهدين وقد ذهب الى هذا طائفة من المفسرين وقيل ان الخبر هو الآمرون وقيل ان التائبون بدل من الضمير المستتر في يقاتلون وذهب آخرون الى ان هذه الاوصاف راجعة الى المؤمنين في الآية الاولى وانها على جهة الشرط اي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة الا من كان من المؤمنين على هذه الاوصاف وبه قال ابن عطية وقيل غير ذلك وجوز صاحب الكشاف ان يكون التائبون مبتدأ وخبره العابدون وما بعده اخبار كذلك اي التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وفيه من البعد ما لا يخفى ثم قيل المراد به التوبة عن الشرك والبراءة من النفاق وقيل من كل معصية وقيل من جميع المعاصي لان اللفظ عام يتناول الكل وحاصل ما ذكر اوصاف تسعة الستة

الاولى تتعلق بمعاملة الخالق والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق التاسع لهم القبيلتين
قاله الخفاجي وان في ترتيب هذه الصفات في الذكر على احسن نظم وهو ظاهر بالتامل فانه
قدم التوبة اولا ثم ثنى بالعبادة الى آخرها العَابِدُونَ اي القائمون بما امروا به من عبادة
الله مع الاخلاص الحَامِدُونَ الذين يحمدون الله سبحانه على كل حال في السراء والضراء ويقومون
بشكره على جميع نعمه دنيا واخرى السَّائِحُونَ السياحة في اللغة اصلها الذهاب على وجه الارض
كما يسيح الماء وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ولما يحصل له من الاعتبار
بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه فالسياحة لها اثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين اخلاقها
وفي القاموس السياحة بالكسر الذهاب في الارض للعبادة ومنه المسيح بن مريم وذكرت في
اشتقاقه خمسين قولا في شرحي لمختصر البخاري والسائح الصائم الملازم للسياحة قيل هم الصائمون
واليه ذهب جمهور المفسرين وبه قال ابن مسعود ومنه قوله تعالى عابدات سائحات وانما
قيل للصائم سائح لانه يترك اللذات كلها كما يترك السائح في الارض قاله سفيان بن عيينة
وقال الازهري سمي الصائم سائحا لان الذي يسيح في الارض متعبد لا زاد معه فكان ممسكا
عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عنه قال الزجاج ومذهب الحسن ان السائحين هنا هم
الذين يصومون الفرض وقيل انهم الذين يديمون الصيام وقال عطاء السائحون هم الغزاة
والمجاهدون وقال عبد الرحمن بن زيد هم المهاجرون وقال عكرمة هم الذين يسافرون
لطلب الحديث وقيل هم الجائرون بافكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر وقيل هم
طلبة العلم مطلقا لانهم ينتقلون من بلد الى بلد في طلبه ويسيحون في الارض يطلبون مظانه
ويدخل فيهم طالب الحديث دخولا اوليا الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ معناه المصلون المحافظون
على الصلوات وعبر عنها بهما لانهما معظم اركانها وبهما يمتاز المصلي من غيره بخلاف غيرهما
كالقيام والقعود لانهما حالتا للمصلي وغيره الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ اي القائمون بامر الناس بما هو
معروف في الشريعة وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ اي القائمون بالانكار على من فعل منكرا اي شيئا
ينكره الشرع قال الحسن اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من اهله ولم ينهوا عن
المنكر حتى انتهوا عنه ثم ان تعاطف بين هذه الاوصاف لمناسبتها لبعضها الاتي هذين الوصفين

للمضادة بينهما اذ الاول طلب فعل والثاني طلب ترك او كف وقيل انما عطف بالواو اشارة
الى ان مدخولها هو الوصف الثامن وذلك لانها عندهم تسمى واو الثمانية وتدخل على ما يكون
ثامنا وكذا والحافظون لحدود الله اي القائمون بحفظ شرائعه التي انزلها الله في كتبه وعلى
لسان رسله وقيل بطاعة الله وقال الحسن بفرائض الله وهم اهل الوفاء ببيعة الله وقيل
باوامره ونواهيه او بمعالم الشرع وقيل ان العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها كقوله غافر
الذنب وقابل التوب شديد العقاب وقيل ان الواو زائدة وقيل هي واو الثمانية المعروفة
عند النحاة كما في قوله تعالى ثيبات وابكارا وقوله وفتحت ابوابها وقوله سبعة وثامنهم
كلبهم وقد انكر واو الثمانية ابو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه وبشر المؤمنين
الموصوفين بالصفات السابقة بالجنة عن ابن عباس قال من مات على هذه التسع فهو في
سبيل الله ومن مات وفيه تسع فهو شهيد وفيه اظهار في مقام الاضمار للتنبيه على علة
الحكم اي سبب استحقاقهم الجنة هو ايمانهم وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان
ما كان اي لا يصح ولا ينبغي ولا يجوز للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين لما بين سبحانه
في اول السورة وما بعده ان البراءة من المشركين والمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما
يزيد ذلك تاكيدا وصرح بان ذلك متحتم ولو كانوا اولي قربى فان القرابة في مثل هذا
الحكم لا تاثير لها وقد ذكر اهل التفسير ان ما كان في القرآن يأتي على وجهين الاول على
النفي نحو ما كان لنفس ان تموت الا باذن الله والآخر على النهي نحو ما كان لكم ان تؤذوا رسول
الله من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار
والمعنى ان هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا وعدم الاعتداد بالقرابة
لانهم ماتوا على الشرك وقد قال سبحانه ان الله لا يغفر ان يشرك به فطلب المغفرة لهم في
حكم المخالفة لوعد الله ووعيده عن علي قال اخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بموت ابي طالب فبكى
فقال اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ففعلت وجعل رسول الله صلى
الله عليه وسلم يستغفر له اياما ولا يخرج من بيت حتى نزل عليه ما كان للنبي الآية وقد روي في سبب نزول
الآية استغفاره صلى الله عليه وسلم لابي طالب من طرق كثيرة واصله في الصحيحين وما فيهما مقنع

على ما لم يكن فيهما على فرض انه صحيح فكيف وهو ضعيف غالبه وقيل بان اريد بطلب المغفرة
للكافر هدايته للاسلام قبل الموت جاز الاستغفار له وان اريد به ان يغفر ذنبه مع بقائه
على الكفر لم يجز فهو مع هذه الآية فيه تفصيل وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار و
تحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم
في الصحيح انه قال يوم احد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه اللهم اغفر لقومي فانهم
لا يعلمون لانه يمكن ان يكون ذلك قبل ان يبلغه تحريم الاستغفار لهم وعلى فرض انه
قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول فانه قبل يوم احد بمدة طويلة فصدور هذا الاستغفار
منه لقومه انما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الانبياء كما في صحيح مسلم عن عبد الله قال
كأني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الانبياء ضربه قومه ويمسح الدم عن وجهه ويقول
رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ بقوله واغفر لابي اي
توفقه للايمان وهدايته اليه ووجه تعلق هذه الآية بما قبلها انه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع
عن المشركين الاحياء منهم والاموات بين ان هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم بل هو
مشروع ايضا في دين ابراهيم فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع اكمل واقوى إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ ذكر سبحانه السبب في استغفار ابراهيم لابيه انه كان لاجل وعد تقدم
من ابراهيم لابيه بالاستغفار له والاستثناء مفرغ من اعم العلل اي لم يكن استغفاره لابيه
ناشئا عن شيء ولاجل شيء الا عن موعدة مبنية على عدم تبين امره وعدها اياه اي لاجلها
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ مصر على العداوة والكفر ومستمر عليه وانه غير مستحق للاستغفار
بموته على الكفر تَبَرَّأَ مِنْهُ وترك الاستغفار له وهذا يدل على انه انما وعده قبل ان يتبين
له انه من اهل النار ومن اعداء الله فلا حاجة الى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين انه
كيف خفي ذلك على ابراهيم فانه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن اصر على الكفر ومات عليه
وهو لم يعلم ذلك الا باخبار الله سبحانه له بانه عدو فان ثبوت هذه العداوة وتبينها بموته
على الكفر وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وسلم بتحريم ذلك الا بعد ان اخبره الله بهذه الآية و
هذا حكم انما ثبت بالسمع لا بالعقل وقيل المراد من استغفار ابراهيم لابيه دعاؤه الى الاسلام

وهو ضعيف جداً وقيل المراد به هنا النهي عن الصلاة على جنائز الكفار فهو كقوله تعالى
ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك ثم
ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم فقال إن إبراهيم استيناف
مسوق لبيان ما حمله على الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يقتدي به فيه
إذ ليس لغيره ما له من الرأفة والرقة فلا بد من أن يكون غيره أكثر احتياطاً وتبرياً والأواه
هو كثير الآه وهي كلمة تدل على ذلك والصيغة للمبالغة وقال كعب الأحبار وهو كناية عن فرط ترحمه
ورقة قلبه والتأوه أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع آه وقد أوه الرجل تأويهاً
وتأوه تأوهاً إذا قال أوه أي أتوجع وحكى قطرب يقال آه يؤه كقام يقوم أوهاً وأنكر
النحويون هذا القول عليه وقالوا لا يقال من أوه فعل ثلاثي وقد اختلف أهل العلم في معنى
الأواه فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير إنه الذي يكثر الدعاء وقال الحسن وقتادة إنه الرحيم
بعباد الله وروي عن ابن عباس أنه المؤمن التواب بلغة الحبشة وقال الكلبي إنه الذي يذكر
الله في الأرض القفر وروي مثله عن ابن المسيب وقيل الذي يكثر الذكر من غير تقييد وروي
ذلك عن عقبة بن عامر وقيل هو الذي يكثر التلاوة وقيل إنه الفقيه قاله مجاهد والنخعي
وقيل المتضرع الخاضع روي ذلك عن عبد الله بن شداد وقيل المؤمن قاله مجاهد وقيل
هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها روي ذلك عن أبي أيوب وقيل هو الشفيق قاله عبد
العزيز بن يحيى وقيل هو المسبح قاله سعيد بن جبير وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً وفرقاً
المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة قال الزجاج انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه
وقيل إنه المعلم للخير وقيل إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله الخائف من النار قاله عطاء
والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوه من ذنوبه فيقول مثلاً آه من
ذنوبي آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك وبه قال الفراء وهو مروي عن أبي ذر وكان إبراهيم
عليه السلام يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وأصله من التأوه وهو أن
يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه أوه قال في الصحاح وقد أوه الرجل تأويهاً
وتأوه تأوهاً والاسم منه الآهة بالمد قال المثقب العبدي: إذا ما قمت أرحلها بليل * تأوه آهة الرجل الحزين

وعن ابن شداد بن الهاد قال قال رجل يا رسول الله ما الأواه قال الخاشع المتضرع في الدعاء أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي حاتم وفيه شهر بن حوشب فيه اختلاف وهذا ان ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأواه حليم الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل ابراهيم مع ابيه حين قال له لئن لم تنته لأرجمنك فاجابه بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقيل الذي لا يعاقب احدا قط الا لله قال ابن عباس كان من حلمه إذا آذاه الرجل من قومه قال له هداك الله وقيل الحليم السيد وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار فانزل الله هذه الآية اي ان الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلالا بعد ان هداهم الى الاسلام والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد ان تبين لهم انه محرم واما قبل ان يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به وهذا مثل قوله في آل عمران بعد اذ هديتنا وفيه وجهان اي بعد ان هداهم او بعد وقت هداهم فيه يعني اذ بمعنى ان او انها ظرف بمعنى وقت حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ اي ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع وقال الضحاك ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في المنسوخ اي ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ قال ابن عباس نزلت حين اخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب اذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون اي ينهاهم قبل ذلك وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة ما فعلوا او تركوا إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ومن سائر الاشياء التي خلقها ومنه مستحق الاضلال والهداية ثم بين لهم ان الله سبحانه لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يشاركه في ذلك مشارك ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما يشاء من التصرفات التي من جملتها انه يُحْيِي وَيُمِيتُ من قضت مشيئته باحيائه وباماتته وَمَا لَكُمْ اي لعباده مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يواليهم وَلَا نَصِيرٍ ينصرهم

فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى فان القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر اثرا بل التصرف
في جميع الاشياء لله سبحانه وحده لقد تاب الله اي ادام توبته على النبي فيما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الاذن
في التخلف او فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين وليس من لازم التوبة ان يسبق الذنب ممن وقعت
منه او له لان كل العباد محتاج الى التوبة والاستغفار وقد يكون التوبة منه على النبي من باب
انه ترك ما هو الاولى والاليق كما في قوله عفا الله عنك لم اذنت لهم ويجوز ان يكون ذكر النبي صلى
الله عليه وسلم لاجل التعريض للمذنبين بان يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها قال اهل
المعاني هو مفتاح كلام للتبرك وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم
الرسول الى اسم الله في قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وكذلك تاب الله سبحانه
على المهاجرين والانصار فيما قد اقترفوه من الذنوب ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله
عليه وسلم من قوله ان الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم والانسان لا
يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره اما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل ثم وصف
سبحانه المهاجرين والانصار بانهم الذين اتبعوه اي النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتخلفوا عنه في
ساعة العسرة هي غزوة تبوك فانهم كانوا فيها في عسرة شديدة وقد ذكر بعض العلماء
ان النبي صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك في سبعين الفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار
وغيرهم من سائر القبائل فالمراد بالساعة اوقات جميع تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها
او الساعة الفلكية بل مطلق الوقت والعسرة صعوبة الامر والشدة والضيق وقد وقع الاتفاق
بين الرواة ان ساعة العسرة هي غزوة تبوك وتسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار يسمى
جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة في الزاد والظهر والماء واخرج ابن حبان والحاكم وصححه
والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس انه قال لعمر بن الخطاب حدثنا من شان ساعة العسرة
فقال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا فاصابنا فيه
عطش حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي
على كبده فقال ابو بكر الصديق يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا فرفع يديه
فلم يرجعهما حتى قالت السماء فاظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ في كاد ضمير الشان بيان لتناهي الشدة وبلوغها
النهاية ومعنى يزيغ يتلف بالجهد والمشقة والشدة وقيل معناه يميل عن الحق ويترك المناصرة
والممانعة وقيل معناه بهموا بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة وفي قراءة ابن مسعود
من بعد ما زاغت وهم المتخلفون على هذه القراءة وفي تكرير التوبة عليهم بقوله ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ تأكيد ظاهر واعتناء بشانهم هذا ان كان الضمير راجعا الى من تقدم ذكر
التوبة عنهم وان كان الضمير الى الفريق الثاني فلا تكرار وذكر التوبة اولا قبل ذكر الذنب تفضلا
منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك واردفه بذكر التوبة مرة اخرى تعظيما
لشانهم وليعلموا انه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم اتبعه بقوله إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ تاكيد لذلك اي رفيق بعباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرأفة
والرحيم فرق لطيف وان تقاربا في المعنى قال الخطابي قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرأفة
تكون معها وقيل الرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضرر والرحمة عبارة عن السعي في
ايصال النفع وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا اي اخروا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت
توبة اولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم قال ابن جرير معنى خلفوا تركوا يقال خلفت فلانا فارقته
وقرئ خلفوا بالتخفيف اي اقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الى الغزو وقرئ
خالفوا وقيل معنى خلفوا فسدوا ماخوذ من خلوف الفم وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك
ومرارة بن الربيع او ابن ربيعة العامري وهلال بن امية الواقفي وكلهم من الانصار لم يقبل
النبي صلى الله عليه وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بان الله قد تاب عليهم حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ كناية عن شدة التحير وعدم الاطمينان يعني انهم اخروا عن قبول التوبة الى هذه
الغاية وهي وقت ان ضاقت عليهم الارض برحبها لاعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم
من كل احد لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى الناس ان يكالموهم والرحب الواسع يقال منزل رحب و
رحيب ورحاب والمضموم مصدر والمفتوح مكان وفي هذه الآية دليل على جواز هجران اهل
المعاصي تاديبا لهم ليزجروا عن المعاصي وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ اي انها ضاقت صدورهم
بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وشدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك

كلامهم فلا يسعها سرور ولا انس وصبر بالظن في قوله وَظَنُّوٓا عن العلم اي علموا وايقنوا أَنْ
لَّا مَلْجَأَ يلجأون اليه قط مِنَ اللَّهِ اي من عذابه او من سخطه إِلَّآ إِلَيْهِ سبحانه بالتوبة والاستغفار
ثُمَّ تَابَ اي رجع عَلَيْهِمْ بالقبول والرحمة وانزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا او وفقهم
للتوبة فيما يستقبل من الزمان ان فرطت منهم خطية لِيَتُوبُوٓا عنها ويرجعوا فيها الى الله
ويندموا على ما وقع منهم ويحصلوا التوبة وينشؤها فحصل التغاير وصح التعليل إِنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ اي الكثير القبول لتوبة التائبين الرَّحِيمُ اي الكثير الرحمة لمن طلبها من ع ١٤
عباده قال ابوبكر الوراق التوبة النصوح ان تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه
نفسه كتوبة هؤلاء الثلثة وفيه دليل على ان قبول التوبة محض الرحمة والكرم والرافة و
الاحسان من الله تعالى وانه لا يجب عليه شئ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ في مخالفة
امر الرسول صلى الله عليه وسلم وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ هذا الامر بالكون مع الصادقين بعد
قصة الثلثة يفيد الاشارة الى ان هؤلاء الثلثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة
الله وظاهر الآية الامر للعباد على العموم قال نافع قيل للثلثة كونوا مع محمد واصحابه وقال
سعيد بن جبير كونوا مع ابي بكر وعمر وزاد الضحاك واصحابهما وعن ابن عباس مع علي
بن ابي طالب وعن جعفر قال مع الثلثة الذين خلفوا وقال ابن جرير مع المهاجرين وقيل اي
مع الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك وقيل مع الذين صدقوا في الاعتراف
بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق روي
ان ابابكر احتج بهذه الآية على الانصار في يوم السقيفة حين قال الانصار منا امير ومنكم امير
فقال ان الله يقول في كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله اولئك هم الصادقون فمن
هؤلاء قال الانصار انتم هم فقال ان الله يقول اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فامركم
ان تكونوا معنا ولم يأمرنا ان نكون معكم قيل والآية تدل على ان الاجماع حجة لانه امر
بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم وقيل مع بمعنى من اي كونوا منهم والله اعلم
مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَّسُولِ اللَّهِ زيادة
تاكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريم التخلف عنه اي ما صح وما استقام لهم

ولمن حولهم كمزينة وجهينة واشجع واسلم وغفار ان يتخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك

وقيل هو عام في كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم اولى وانما خصهم الله سبحانه لانهم

قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فانهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم

احق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن زيد هذا حين كان الاسلام قليلا لم

يكن لاحد ان يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كثر الاسلام وفشا قال الله وما كان المؤمنون

لينفروا كافة وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ اى وما كان لهم ذلك فيشحون بها ويصونونها

ولا يشحون بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصونونها كما شحوا بانفسهم وصانوها يقال رغبت

عن كذا اي ترفعت عنه واعرضت والمعنى ولا يصونوا انفسهم راغبة معرضة عما ألقى فيه نفسه

الكريمة بل واجب عليهم ان يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه اهل الشقاء ويبذلوا

انفسهم دون نفسه بان يصبروا على البأساء والضراء علما بانها اعز نفس عند الله واكرمها

عليه فاذا تعرضت مع عزتها وكرامتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس ان تتهافت

فيما تعرضت له ولا يكترث بها اصحابها ولا يقيموا لها وزنا وتكون اخف شيء عليهم واهونه

وفي هذا الاخبار معنى الامر لهم مع ما يفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع

الشديد والتهييج لهم والازراء عليهم والاشارة بقوله ذَٰلِكَ الى ما يفيده السياق من وجوب

المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اي ذلك الوجوب بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ

اي بسبب انهم مثابون على انواع المتاعب واصناف الشدائد والظمأ العطش والنصب التعب

والمخمصة المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن ولا في هذا الموضع زائدة للتاكيد

ومعنى فِي سَبِيلِ اللَّهِ في طاعة الله وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ بفتح الياء باتفاق السبعة

وان كان يجوز لغة ضمها اذ يقال لغة غاظه واغاظه بمعنى واحد اي يغضب الْكُفَّارَ اي

لا يدوسون مكانا من امكنة الكفار باقدامهم او بحوافر خيولهم او باخفاف رواحلهم فيحصل

بسبب ذلك الغيظ والغم والحزن للكفار والموطئ اسم مكان ويجوز ان يكون مصدرا وفيه

ان للمدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم

وَلَا يَنَالُونَ اي لا يصيبون مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا اي قتلا واسرا وهزيمة او غنيمة واصله من نلت الشيء

انال اي اصيب قال الكسائي هو من قولهم امر منيل منه وليس هو من التناول انما التناول
من نلته بالعطية قال غيره نلت انول من العطية ونلته انال اي ادركته إلا كتب لهم به
اي بكل واحد من الامور الخمسة عمل صالح حسنة مقبولة يجازيهم بها او ثواب عمل صالح
قد ارتضاه لهم وقبله منهم حكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى قال الاوزاعي وجماعة
من الائمة هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة وقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله
صلى الله عليه وسلم والاول اولى وفي الآية دليل على ان من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه و
حركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكان سعيه مشكورا إن الله لا يضيع
أجر المحسنين جملة في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين
هنا صدقا اوليا والعدول من الاضمار الى الاظهار لاجل مدحهم ولا ينفقون نفقة صغيرة
ولا كبيرة اي ولا يقع منهم الانفاق في الحرب او في سبيل الله وان كان شيئا حقيرا صغيرا
يسيرا كالتمرة فما دونها او اكثر منها حتى علاقة سوط ولا يقطعون واديا مقبلين او مدبرين
فيه وهو في الاصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل والعرب تقول واد
واودية على غير قياس قال النحاس ولا يعرف فيما علمت فاعل وافعلة والمراد هنا مطلق الارض
قاله الخفاجي إلا كتب لهم ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ليجزيهم الله به
أحسن ما كانوا يعملون من الاعمال وقال الرازي الاحسن من صفة افعالهم وفيها
الواجب والمندوب والمباح فالله يجزيهم على الاحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح
والاول اولى وقيل يجزيهم على كل واحد جزاء احسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لاجرهم
وفي الآية دليل على فضل الجهاد وانه من احسن اعمال العباد وقد ذهب جماعة الى ان هذه
الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهي قوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة فانها تدل
على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض واختلف المفسرون في معنى هذه
الآية فذهب جماعة الى انه من بقية احكام الجهاد لانه سبحانه لما بالغ في الامر بالجهاد والانتداب
الى الغزو كان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة
خالية فاخبرهم الله سبحانه بانه ما كان لهم ذلك اي ما صح ولا استقام ان ينفروا جميعا فلولا

تحضيضية فالمعنى على الطلب فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة الطائفة في اللغة الجماعة
القليلة بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرق ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة
قالوا ويكون الضمير في قوله ليتفقهوا في الدين عائدا الى الفرقة الباقية والمعنى ان طائفة
من هذه الفرقة تخرج الى الغزو ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة
او يذهبون في طلبه الى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذ
عنه الفقه في الدين ولينذروا قومهم عطف علة ففيه اشارة الى انه ينبغي ان يكون غرض
المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو دأب ابناء
الزمان اذا رجعوا اليهم وقت رجوعهم اليهم من الغزو وذهب آخرون الى ان هذه الآية ليست من بقية
احكام الجهاد وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين
جعله الله سبحانه متصلا بما دل على ايجاب الخروج الى الجهاد فيكون السفر نوعين الاول
سفر الجهاد والثاني السفر لطلب العلم ولا شك ان وجوب الخروج لطلب العلم انما يكون اذا
لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر والفقه هو العلم بالاحكام الشرعية وبما
يتوصل به الى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان واصول وقد جعل الله سبحانه الغرض من
هذا هو التفقه في الدين وانذار من لم يتفقه فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين
وهما تعلم العلم وتعليمه فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو طالب لغرض دنيوي
لا لغرض ديني لعلهم يحذرون الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله فيترك ع اربع
او فيما يجب تركه فيفعل يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار في هذا
الفعل لغتان اكثرهما وليه يليه بالكسر فيهما والثانية من باب وعد وهي قليلة الاستعمال
وجلست مما يليه اي يقاربه وكان الآية جاءت على اللغة الثانية واصله يليون اي الاقرب
فالاقرب منهم امر سبحانه المؤمنين بان يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار في الدار والبلاد
والنسب قيل مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها كما قاله ابن عباس وقال ابن عمر هم الروم لانهم
كانوا سكان الشام والشام اقرب الى المدينة من العراق وقيل هم الديلم وقال ابن زيد هم العرب
فقاتلوهم حتى فرغوا منهم ثم امروا بقتال اهل الكتاب جهادهم حتى يؤمنوا او يعطوا الجزية عن يد

وهكذا الكفر ومن حول اهل كل ناحية ان يقاتلوا من وليهم وان يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة كما قال وَلْيَجِدُوا اي ليجدوا فِيكُمْ غِلْظَةً اي شدة وقوة وشجاعة والغلظة بالكسر ضد الرقة وهي لغة اسد والفتح لغة اهل الحجاز والضم لغة تميم حكاه ابو عمرو واللغات الثلاث في الغلظة اصلها في الاجرام فاستعيرت هنا للشدة والجلد والصبر وقال الحسن صبرا على جهادهم وهو الجهاد واجب لكل الكفار وان كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم اهم واقدم ثم الاقرب فالاقرب ونقل عن بعض العلماء انه قال نزلت هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فصارت ناسخة لهذه الآية ولا وجه للنسخ فانه تعالى امرهم بقتالهم كافة وارشدهم الى الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور وبهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم اولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم الى قتال اهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب اولا تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد وفي الآية استعمال المسبب مع السبب فان وجدان الكفار لغلظة المسلمين سببه اغلاظ المسلمين عليهم قاله الحفناوي ثم اخبرهم الله بما يقوي عزائمهم ويثبت اقدامهم فقال وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالنصرة لهم وتاييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شيء وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين اي والحال اذا ما انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز فَمِنْهُمْ اي فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ لاخوانه منهم أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السورة النازلة إِيمَانًا يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين ويحتمل ان يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الاسلام وتزهيدهم فيه وقد تقدم بيان معنى السورة فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا كما حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه ان المؤمنين زادتهم ايمانا الى ايمانهم لتصديقهم بها والزيادة ضم شيء الى آخر من جنسه مما هو في صفته وقد تقدم الكلام على زيادة الايمان وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ اي والحال انهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيئا بعد شيء وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وهم المنافقون والمراد بالمرض هنا الشك في النفاق فَزَادَتْهُمْ
السورة المنزلة رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ اي خبثا مضموما الى خبثهم الذي هم عليه من الكفر
وفساد الاعتقاد واظهار غير ما يضمرونه ولفظ الى عدي بالى وقيل ان الى بمعنى مع وسمي الكفر رجسا
لانه اقبح الاشياء واصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ اي وثبتوا و
استمروا عليه الى ان ماتوا كفارا منافقين وقيل المعنى زادتهم شكا الى شكهم أَوَلَا يَرَوْنَ قرئ
بالتحتية وبالفوقية خطابا للمؤمنين وقرأ الاعمش اولم يروا وقرأ طلحة اولا ترى خطابا للرسول
صلى الله عليه وسلم والهمزة على القراءة بالياء للانكار والتوبيخ وعلى الخطاب للتعجيب والرؤية قلبية او
بصرية أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ يختبرون قاله ابن جرير وغيره او يبتليهم الله بالقحط والشدة والجوع
والسنة قاله مجاهد وقال ابن عطية بالامراض والاوجاع وقال قتادة بالغزو والجهاد
مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن بالعدو فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ عن ابي سعيد قال كانت لهم
في كل عام كذبة او كذبتان قال حذيفة فيضل بها فئام من الناس كثير وقيل المعنى يفتضحون
باظهار نفاقهم وقيل ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل ينقضون عهدهم في السنة
مرة او مرتين ويرون ما وعد الله من النصر ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ بسبب ذلك من النفاق ونقض العهد
ولا يرجعون الى الله مع ان الابتلاء يقتضي الرجوع والتذكر وثم للعطف على يرون وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ
اي لا يرون ولا ينظرون ولا يتعظون وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم
في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة
بعد ذكره لما كانوا يقولونه فقال وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فيها عيب المنافقين وذكرهم وتوبيخهم
قرأها النبي صلى الله عليه وسلم نَظَرَ بَعْضُهُمْ اي بعض المنافقين إِلَى بَعْضٍ آخر وتغامزوا بالعيون انكارا لها
او سخرية او غيظا لما فيها من عيوبهم وحكى ابن جرير عن بعض اهل العلم انه قال نظر في هذه
الآية موضوع موضع قال اي قال بعضهم لبعض هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المؤمنين لتنصرفوا عن
المقام الذي ينزل فيه الوحي فانه لا صبر لنا على استماعه ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية
والضحك وقيل المعنى واذا انزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من
يحضر منهم مجلس النبي صلى الله عليه وسلم للبعض الآخر منهم هل يراكم من احد ثُمَّ انْصَرَفُوا الى رحالهم عن ذلك

المجلس او عما يقتضي الهداية والايمان الى ما يقتضي الكفر والنفاق والتراخي باعتبار وجدان
الفرصة والوقوف على عدم رؤية احد من المؤمنين ثم دعى الله سبحانه عليهم فقال صرف الله
قلوبهم عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها وقيل المعنى
اخذلهم عن قبول الهداية قال الزجاج اضلهم الله مجازاة على فعلهم وقيل هو دعاء لا يراد به
وقوع مضمونه كقولهم قاتله الله وقيل اخبار عنهم ثم ذكر سبحانه السبب الذي لاجله انصرفوا
عن مواطن الهداية او السبب الذي لاجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله صرف الله قلوبهم
فقال بانهم قوم لا يفقهون ما يسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم وعن ابن عباس لا تقولوا
انصرفنا من الصلوة فان قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلوة وعن ابن عمر
نحوه واقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر وليس في اطلاقه هنا على رجوع المنافقين
عن مجلس الخير ما يدل على انه لا يطلق الا على نحو ذلك والا لزم ان كل لفظ يستعمل في لغة العرب
في الامور المتعددة اذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله في حكاية ما
وقع عن اهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود واللازم باطل
بالاجماع فالملزوم مثله ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون
عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال لقد جاءكم يا معشر العرب والخطاب
لهم عند جمهور المفسرين وقال الزجاج هي خطاب لجميع العالم اي لقد جاءكم رسول ارسله الله
اليكم له شان عظيم من انفسكم اي من جنسكم في كونه عربيا قرشيا مثلكم تعرفون نسبه و
حسبه وانه من ولد اسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملائكة عزيز عليه ما
عنتم ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف
ونحوه او بعذاب الآخرة بالنار او بمجموعهما والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثا
لهدايتكم حريص شحيح عليكم بان تدخلوا النار او حريص على ايمانكم وهدايتكم والاول اولى
وبه قال الفراء بالمؤمنين رؤف رحيم قد تقدم بيان معناهما اي هذا الرسول بالمؤمنين
الطائعين منكم ايها العرب او الناس رؤف رحيم وسماه الله رؤفا رحيما ولم يجمع لاحد من انبيائه
بين اسمين من اسمائه الا للنبي صلى الله عليه وسلم قال الحسين بن الفضل قرئ رؤف بالمد وبالقصر وهما

قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة اينما وقعت في القرآن والرؤف اخص من الرحيم وانما
قدم عليه رعاية للفواصل وعن ابن عباس في هذه الآية ليس من العرب قبيلة الا
وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريها وربيعيها ويمانيها وعلى هذا يكون المقصود ترغيب
العرب في نصره والايمان به فانه قد شرفهم بشرفه وعزهم بعزه وفخرهم بفخره فانه
من عشائرهم وعن جعفر بن محمد عن ابيه قال من انفسكم بفتح الفاء من النفاسة اي
من اشرفكم قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت
من نكاح ولم اخرج من سفاح وهذا فيه انقطاع ولكنه وصله الحافظ الرامهرمزي
في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي عن علي بن ابي طالب وزاد من لدن آدم الى ان
ولدني ابي وامي وقال علي ما معنى من انفسكم يا رسول الله قال نسبا وصهرا وحسبا
ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح وعن ابن عباس ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قرأ من انفسكم يعني من اعظمكم قدرا وبه قرأ الزهري وفي الباب احاديث
بمعناه ويؤيده ما في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل واصطفى من ولد اسمعيل بني كنانة واصطفى
من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم واخرج احمد
والترمذي وحسنه وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي عن العباس بن عبد المطلب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ثم حين فرقهم جعلني
في خير الفريقين ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة وحين خلق الانفس جعلني
من خير انفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم بيتا وخيرهم
نفسا وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا
حتى كنت من القرن الذي كنت فيه اخرجه البخاري وفي الباب احاديث وعن ابي بن كعب
قال آخر آية انزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ آخر ما انزل من القرآن لقد جاءكم رسول من انفسكم
الى آخر الآية ثم قال مخاطبا لرسوله ومسليا له ومرشدا له الى ما يقوله عند ان يعصى فإن
تولوا اي اعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه فقل يا محمد حسبي اي كافي الله

سبحانه لا إله إلا هو أي المتفرد بالالوهية وهذه الجملة الحالية كالدليل لما قبلها عليه توكلت أي فوضت جميع أموري اليه لا الى غيره وهو رب العرش العظيم وصفه بالعظم لانه اعظم المخلوقات قرأ الجمهور بالجر على انه صفة للعرش وقرئ بالرفع صفة للرب ورويت هذه القراءة عن ابن كثير قال ابو بكر الاصم وهذه القراءة اعجب الي لان جعل العظيم صفة للرب اولى من جعله صفة للعرش قال ابن عباس انما سمي العرش عرشا لارتفاعه وقد رويت احاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره وقال السيوطي الكرسي واعترض بعضهم على هذا التفسير بان العرش غير الكرسي وان الكرسي اصغر من العرش فكيف يفسر به وهو مرفوع بان المسئلة خلافية والمشهور ما سمعت وقيل انهما اسمان لشيء واحد فالعرش والكرسي معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش على القول المشهور وروى الحاكم في المستدرك عن ابي بن كعب قال آخر اية نزلت لقد جاءكم رسول الى آخر السورة قلت وهذا القول مرجوح والراجح ان آخر اية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله كما تقدم هناك

سورة يونس عليه السلام

وهي مائة وتسع ايات وهي مكية قاله الحسن وعطاء وعكرمة وجابر الا ثلث ايات فان كنت في شك الى آخرهن قال ابن عباس وبه قال قتادة وقال مقاتل الا ايتين فان كنت في شك الى آخرهما او ثلث وقال الكلبي الا قوله ومنهم من لا يؤمن به الاية فانها نزلت بالمدينة وقالت فرقة من اولها نحو من اربعين اية مكي وباقيها مدني قال القرطبي وقال ابن سيرين كانت هذه السورة بعد السابعة واخرج ابن مردويه عن انس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اعطاني الرائيات اي الطواسين مكان الانجيل وعن الاحنف قال صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما بسم الله الرحمن الرحيم الر قد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في اوائل السور في اول سورة البقرة فلا نعيده ففيه ما يغني عن الاعادة وقد قيل ان معنى الر انا الله ارى

قال النحاس ورأيت ابا اسحاق يميل الى هذا القول لان سيبويه قد حكى مثله عن العرب
وقال الحسن وعكرمة الر قسم وقال قتادة الر اسم للسورة وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم
ما استأثر الله بعلمه وقد اتفق القراء على ان الر ليس باية وحم اية وعلى ان طه اية وفي مفتتح [illegible]
ان العادين لطه اية هم الكوفيون فقط ولعل الفرق ان الر لا تشاكل مقاطع الاي التي بعدها
تلك اي ما تضمنته السورة من الايات والتبعيد للتعظيم وقيل الايات المتقدمة على
هذه السورة وقال مجاهد وقتادة اراد التوراة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة فان تلك
اشارة الى غائب مؤنث وقيل تلك بمعنى هذه اي هذه ءايٰتُ الكتٰبِ الحكيم وهو القرآن
ويؤيد كون الاشارة الى القرآن انه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر وان الحكيم من صفات
القرآن لا من صفات غيره والاضافة بمعنى من لان هذه السورة بعض القرآن والحكيم المحكم
بالحلال والحرام والحدود والاحكام قاله ابو عبيدة وغيره وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو
فعيل بمعنى فاعل كقوله وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس وقيل بمعنى المحكوم اي حكم الله
فيه بالعدل والاحسان قاله الحسن وغيره وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها وقيل الحكيم
المنظوم نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه وقيل الممنوع من الفساد فيكون المعنى لا تغيره الدهور
والمراد براءته من الكذب والتناقض والاستفهام في قوله اكانَ لِلنّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنا
لانكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ اي اكان ايحاؤنا عجبا للناس والعجب حالة تعتري
الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة وقيل العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا
اهل مكة يعني قريشا الى رَجُلٍ مِنْهُمْ اي من جنسهم وليس في هذا ما يقتضي العجب فانه لا يلابس
الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه الا من كان من جنسه ولو كان من غير جنسهم لكان
من الملائكة او من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الارسال لانهم لا يأنسون اليه ولا يشاهدونه
ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره فاما ان يظهر في غير شكل النوع الانساني وذلك اوحش لقلوبهم
وابعد عن انسهم او في الشكل الانساني فلا بد من انكارهم لكونه في الاصل غير انسان هذا
ان كان العجب منهم لكونه من جنسهم وان كان لكونه يتيما او فقيرا فذلك لا يمنع من ان يكون
من كان كذلك جامعا من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره بالغا في كمال الصفات الى حد

يقصر عنه من كان غنيا او خير يتيم وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يصطفيه الله
بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو اشهر من الشمس واظهر من النهار حتى كانوا يسمونه
الامين ﴿ان انذر الناس﴾ اي خوفهم قيل ان هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول وقيل مصدرية
والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور ﴿وبشر الذين امنوا ان لهم قدم صدق
عند ربهم﴾ من اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع وصلوة الاولى وحب الحصيد وفائدة
هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شيء اضيف الى الصدق فهو
ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق واختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في
معنى قدم صدق فقيل منزل صدق وقال الزجاج درجة عالية وقال ابن الاعرابي القدم المتقدم
في الشرف وقال ابو عبيدة والكسائي كل سابق من خير او شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان
قدم في الاسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر وقال ثعلب القدم كل ما
قدمت من خير وقال ابن الانباري القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تاخير ولا ابطاء و
قال قتادة سلف صدق وقال الربيع والضحاك ثواب صدق وقال الحسن هو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم
ونحوه عن زيد بن اسلم وهو قول قتادة وقال الحكيم الترمذي قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود و
قال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقيل عمل صالح سلفوه يقدمون
عليه قاله الحسن وقال الليث وابو الهيثم القدم السابقة اي سبق لهم عند الله خير وقال مقاتل
اعمالا قدموها واختاره ابن جرير قال ابن عباس ما سبق لهم من السعادة في الذكر الاول يعني
اللوح المحفوظ وقال ايضا اجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وعن ابن مسعود قال القدم
هو العمل الذي قدموه قال الله سبحانه سنكتب ما قدموا واثارهم والاثار ممشاهم قال مشى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال هذا اثر مكتوب وقيل غير ما تقدم مما
لا حاجة الى التطويل بايراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا الكثير
والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني ان السعي والسبق لا يحصل الا بالقدم فسمي المسبب باسم
السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد ﴿قال الكافرون ان هذا لسحر مبين﴾ قرئ لساحر
على ان المراد رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الاشارة وقرئ لسحر على انهم ارادوا القران وقد تقدم

معنى العجب في البقرة والجملة مستانفة كانه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب وقال القفال
فيه اضمار والتقدير فلما انذرهم قال الكافرون ذلك ثم ان الله سبحانه جاء بكلام
يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الايحاء الى رجل منهم فقال إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ من ايام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس
ولا قمر ولو شاء لخلقهن في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الامور
وتخصيص الستة بالذكر مع ان المتثبت يتأتى باقل منها او بازيد عليها قد استأثر الله
بعلمه والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره
كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم محلا للتعجب مع كون الكفار يعترفون
بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة لهذا الرسول ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به وهذه طريقة
السلف المفوضين وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده
هنا وقد تقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود وقال الكرخي ان الاستواء على
العرش صفة له سبحانه بلا كيف انتهى فهذه الصفة يجب الايمان بها وامرارها على ظاهرها
من غير تاويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير
وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة واقوال سلف الامة و
ائمتها وظاهر الآية يدل على انه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق السموات و
الارض لان كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على انه تعالى كان قبل العرش غنيا عنه فلما
خلقه امتنع ان تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء الى الحاجة فوجب ان يبقى
بعد خلق العرش غنيا عنه ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان
به على ما يليق بجلاله ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شانه مع ما مر من خلق
هاتيك الاجرام العظام فقال يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وترك العاطف لان جملة يدبر كالتفسير والتفصيل
لما قبلها واصل التدبير النظر في ادبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود قال
مجاهد يقضيه ويقدره وحده على الوجه الاتم الاكمل وقيل يبعث الامر وقيل ينزل الامر وقيل
يأمر به ويمضيه والمعنى متقارب واشتقاقه من الدبر والامر الشان وهو احوال ملكوت السموات

والارض والعرش وسائر الخلق من العجائب ما خلقه احدثه شيئا فشيئا على الوجه الذي اقتضته حكمته ما من
شفيع يشفع عنده يوم القيامة إلا من بعد إذنه له في الشفاعة لانه علم بمصالح عباده
في تدبيرهم ولا يحتاج لاحد ان يسأله ما ليس له به علم قال الزجاج ان الكفار الذين خوطبوا
بهذه الآية كانوا يقولون ان الاصنام شفعاؤنا عند الله فرد الله عليهم بانه ليس لاحد
ان يشفع اليه في شيء الا بعد اذنه لانه اعلم بموضع الحكمة والصواب وله التصرف المطلق
في العالم وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة وفي هذا بيان لاستبداده بالامور في كل شيء
سبحانه وتعالى ذلكم اي فاعل هذه الاشياء العظيمة من الخلق والتدبير الله ربكم اي
هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله ان ربكم الله الذي
خلق السموات والارض فاعبدوه امرهم بعبادته بعد ان بين لهم انه الحقيق بها دون غيره لبديع
صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر
والاستفهام في قوله أفلا تذكرون للانكار والتوبيخ والتقريع لان من له ادنى تذكر واقل
اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه ثم بين لهم ما يكون آخر امرهم بعد الحياة الدنيا فقال اليه
مرجعكم جميعا وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه
اما بالموت او بالبعث او بكل واحد منهما وانتصاب وعد الله على المصدر او هو منصوب
بفعل مقدر ثم اكد ذلك الوعد بقوله حقا فهو تأكيد للتأكيد فيكون في الكلام من التوكيد
ما هو الغاية في ذلك وقرئ وعد الله حق على الاستئناف ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله انه
بالكسر استئنافا وبالفتح على تقدير اللام يبدأ الخلق اي ان هذا شأنه يبتدي خلقه من التراب
ثم يعيده اليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي وعبر به استحضارا للصورة الغريبة
او معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة قال مجاهد ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث وقيل ينشئه من
الماء ثم يعيده من حال الى حال وقرئ وعدكم الله انه يبدأ الخلق ثم يعيده او التقدير لانه يبدأ الخلق
قال احمد بن يحيى التقدير حقا ابداؤه الخلق وفي الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة
وقوعه ورد على منكري البعث ثم ذكر غاية ما يترتب على الاعادة فقال ليجزي الذين آمنوا وعملوا
الصالحات بالقسط اي بالعدل الذي لا جور فيه اي يجزيهم متلبسا بالقسط او متلبسين به

اي بسبب قسطهم والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون والذين
كفروا يحتمل وجهين احدهما ان يكون مرفوعا بالابتداء وجملة لهم شراب من حميم وعذاب
اليم خبره والثاني ان يكون منصوبا عطفا على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم
وقيل الجملة في محل نصب على الحال اي حال كون لهم هذا الشراب هذا العذاب المولم ولكن
يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الاليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى
حره وكل مسخن عند العرب فهو حميم وتغيير الاسلوب للمبالغة في استحقاقهم له فائدة التنبيه
على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وانه تعالى يتولى
اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه واما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه اليهم سوء
اعتقادهم وسوء افعالهم بما كانوا يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس
ضياء والقمر نورا ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته
وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام وبعد ما ذكر
قبل هذا ابداعه السموات والارض واستواءه على العرش وغير ذلك والضياء قيل جمع ضوء
كالسياط والسوط والحياض والحوض والاولى ان يكون ضياء مصدرا لا جمعا ولا بد من تقدير
مضاف اي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور الا ان يحمل على المبالغة كانهما جعلا نفس الضياء
والنور قيل الضياء اقوى من النور وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض ومن هنا
قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير
وحال ان جعل بمعنى الخلق قال السدي لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله
فمحونا اية الليل الاية قال ابن عباس وجوههما الى السموات واقفيتهما الى الارض وعن ابن عمرو مثله
وقدره اي قدر مسير القمر في منازل او قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين
وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية
لا الشمسية ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية
وعشرون وهي معروفة لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منها منزلا الى
انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه فيبدو صغيرا في اول منازله ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو

كاملا واذا كان في اخر منازله دق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى اذا كان الشهر كاملا او ليلة اذا كان الشهر ناقصا والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال اورده عليه بعض الاعلام وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وقوله والله ورسوله احق ان يرضوه وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والاولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى والقمر قدرناه منازل ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال لِتَعْلَمُوا بذلك التقدير عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ اي وقت دخولها وانقضائها وحساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها فان في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى وفي العلم بحساب الاشهر والايام والليالي من ذلك ما لا يخفى ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم السنة تحصل من اثني عشر شهرا والشهر يحصل من ثلاثين يوما ان كان كاملا واليوم يحصل من ساعات معلومة هي اربع وعشرون ساعة لليل والنهار وقد يكون لكل واحد منهما اثنا عشر ساعة في ايام الاستواء ويزيد احدهما على الاخر في ايام الزيادة وايام النقصان والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه في لقطة العجلان وحجج الكرامة مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ بيّن سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الاحوال إِلَّا بِالْحَقِّ والصواب دون الباطل والعبث والاشارة بقوله ذلك الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ معنى التفصيل تبيينها والمراد بالآيات التكوينية او التنزيلية او مجموعهما ويدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا اوليا في ذلك قرئ يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان وعلى الثانية فيه التفات ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض من تلك المخلوقات فقال إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اي في تعاقبهما وكون كل منهما يخلفه الاخر بحسب طلوع الشمس وغروبها او في تفاوتهما في انفسهما بازدياد كل منهما وانتقاص الاخر باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة او في

اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من البلاد البعيدة منه ولياليها وأما في أنفسهما فإن كرية الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً ﴿وما خلق الله في السموات﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك ﴿والأرض﴾ فيها من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿لآيات﴾ دالة على قدرته تعالى ﴿لقوم يتقون﴾ الله سبحانه ويجتنبون معاصيه خصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظراً لعاقبة أمرهم وما يصلحهم في معادهم قال القفال من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل إذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي عن خليفة العبدي قال لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحى سلطان الليل وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض وفي النجوم وفي الشتاء والصيف فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى أيقنت قلوبهم بربهم وقد تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شرع الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مساعد لكل حي طول حياته فيتسبب عن إهمال النظر والتفكر الصادق عدم الإيمان بالمعاد ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع فالمعنى على الأول لا يخافون عقاباً وعلى الثاني لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته فإن كان المراد حقيقته كان المعنى لا يخافون رؤيتنا ولا يطمعون في رؤيتنا وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ عوضاً عن الآخرة فعملوا لها ﴿واطمأنوا بها﴾ أي وقد سكنت نفوسهم إليها وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ العطف إنما هو لتغاير الصفات أي غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لا يعتبرون بها ولا

يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات ادلة التوحيد وقيل محمد وقيل القرآن أُولَٰئِكَ اي المتصفون
بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضاء والاطمئنان والغفلة مَأْوَاهُمُ النَّارُ اي مثواهم ومكان
اقامتهم بِمَا كَانُوا اي بسبب ما كانوا يَكْسِبُونَ من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين
لا يؤمنون بالمعاد واما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اي فعلوا الايمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره
من الآيات وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التي يقتضيها الايمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ اي يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل
الصالح فيصلون بذلك الى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ مستانفة او خبر ثان لان او في محل النصب على الحال والمعنى من تحت
بساتينهم او من بين ايديهم لانهم على سرر مرفوعة فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خبر آخر او حال
اخرى منه او من الانهار او متعلق بتجري دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ اي دعاؤهم ونداؤهم
وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي وقيل هذا من باب
الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط بل يقولونه او ما يؤدي معناه من جميع
صفات التنزيه والتقديس قيل الدعاء العبادة كقوله واعتزلكم وما تدعون من دون
الله وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين والمعنى ان اهل الجنة يدعون
في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية وقيل قولهم وكلامهم
قال القفال اصله من الدعاء لان الخصم يدعو خصمه الى من يحكم بينهما وقيل معناه طريقتهم
وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن ان يجعل الدعوى كناية عن الملازمة
وان لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ولهم ما يدعون
وكان تمنيهم في الجنة ليس الا تسبيح الله وتقديسه واخرج ابن مردويه عن ابي بن كعب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قالوا سبحانك اللهم اتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم وقد
روي نحو هذا عن جماعة من التابعين فهذه الكلمة علامة بين اهل الجنة والخدم في احضار
الطعام فاذا ارادوه قالوا سبحانك اللهم فياتوهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له

على الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا
الله على ما اعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك قال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يفتتحون
بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث
والمعنى نسبحك يا الله تسبيحا وتحيتهم فيها سلام اي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافا
الى الفاعل او تحية الله والملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر الى المفعول والتحية التكرمة
بالحالة الجليلة اصلها احياك الله حياة طيبة والسلام السلامة من كل مكروه وقد
مضى تفسير هذا في سورة النساء وآخر دعواهم اي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح
في كل مجلس أن يقولوا الحمد لله رب العالمين لا ان معناه انقطاع الحمد فان اقوال
اهل الجنة واحوالها لا آخر لها قال النحاس مذهب الخليل ان ان هذه مخففة من الثقيلة
والمعنى انه الحمد لله وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع اقيس ولم يحك
ابو عبيد الا التخفيف قال ابو الهذيل الحمد اول الكلام وآخر الكلام ثم تلا هذه الآية ولما
ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر
عن هذه الحياة الدنيا فقال ولو يعجل الله للناس الشر اي اجابة دعائهم بالشر لما لهم فيه
مضرة ومكروه في نفس او مال والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته وقال القفال لما وصفهم
بالغفلة اكد ذلك بان من غاية غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب
فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون ويخرج من اصلابهم
من يؤمن قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة استعجالهم بالخير اي كما يستعجلون بالثواب
والخير اي استعجالا مثل استعجالهم قال مكي وهذا مذهب سيبويه او تعجيلا مثل استعجالهم
وهذا تقدير ابي البقاء وهو الظاهر وقال الزمخشري اصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف
جدا وقيل منصوب على اسقاط كاف التشبيه اي كاستعجالهم والاستعجال طلب العجلة لقضي
اليهم اجلهم اي لاهلكهم وقيل معناه لاميتوا قال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر
قد يدعون على انفسهم واهلهم واولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة و
اعطاء المسئول يقول لو اجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ

من اهلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجيب له
في الشر وقال مجاهد في الآية هو قول الانسان لولده واهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك
الله فيكم وقال سعيد بن جبير هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يحب ان
يستجاب له وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه
وقيل الآية خاصة بالكفار الذين انكروا البعث وما يترتب عليه وقيل نزلت في النضر
بن الحارث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق فامطر علينا حجارة من السماء الآية وقرئ
لقضى على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ولو يعجل الله وصورة القياس
هكذا لو يعجل الله الشر للناس لاهلكهم لكنه لم يهلكهم بل امهلهم فلم يعجل لهم الشر ويدل
على هذا القول قوله فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا اي لا يتوقعونه فالفاء للعطف على مقدر
يدل عليه الكلام فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشر ولا يقضي اليهم اجلهم فيذرهم اي فيتركهم
ويمهلهم فِي طُغْيَانِهِمْ اي تجاوزهم الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع
على اعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع يَعْمَهُونَ
يعني يتركهم يتحيرون في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم الحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا
ثم بين سبحانه انهم كاذبون في استعجال الشر ولو اصابهم ما طلبوه لاظهروا العجز والجزع فقال
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ اي هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به كالمرض والفقر و
دَعَانَا لِجَنْبِهِ اللام للوقت او بمعنى على اي دعانا مضطجعا أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا كانه قال
دعانا في جميع الاحوال المذكورة وغيرها وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على الانسان
ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود ويجوز ان يراد انه يدعو الله حال كونه
مضطجعا غير قادر على القعود وقاعدا غير قادر على القيام وقائما غير قادر على المشي و
الاول اولى قال الزجاج ان تعديد احوال الدعاء ابلغ من تعديد احوال المضرة لانه اذا كان
داعيا على الدوام ثم نسي في وقت الرخاء كان اعجب وعن ابي الدرداء قال ادع الله يوم سرائك
يستجاب لك يوم ضرائك واقول انا الاكثر من شكر الله على السراء ليدفع عنه الضراء فان وعد
للشاكرين بزيادة النعم موذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة

النعمة اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فانا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون
ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان ومكان فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ
لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ اي مضى على طريقته التي كان عليها قبل ان يمسه الضر ونسي
حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر واهمل جانب الله او مضى عن موقف الدعاء والتضرع
لا يرجع اليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند ان مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي
مسه وقيل معناه استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه
للداعي لا تختص باهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين السنتهم بالدعاء وقلوبهم
بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع
والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي انعم الله بها عليهم من اجابة دعائهم
ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما اصابهم من المكروه وهذا مما يدل على ان الآية تعم
المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الانسان اللهم اوزعنا شكر نعمتك واذكرنا
الاحوال التي مننت علينا فيها باجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه
ولا نقدر على غيره وما اغنانا عنه واحوجنا اليه ولئن شكرتم لأزيدنكم كَذَٰلِكَ اي
مثل ذلك التزيين العجيب كما زين له الدعاء عند البلاء والاعراض عند الرخاء زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اي عملهم والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير
لاجل الغرض الخسيس والتزيين هو اما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف
بهم او من طريق الشيطان بالوسوسة او من طريق النفس الامارة بالسوء والمعنى انه زين
لهم الاعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات ثم ذكر سبحانه ما يجري
مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ يعني الامم الماضية
مِنْ قَبْلِكُمْ اي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اهلكناهم من قبل
زمانكم وقيل الخطاب لاهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر لَمَّا ظَلَمُوا اي
اهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجاري على الرسل والتطاول في المعاصي من غير
تأخير لاهلاكهم كما اخرنا اهلاككم وقيل الظلم هنا الشرك اي لما اشركوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات ادلة التوحيد وقيل محمد وقيل القرآن أُولَٰئِكَ اي المتصفون
بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضا والاطمينان والغفلة مَأْوَاهُمُ النَّارُ اي مثواهم ومكان
اقامتهم بِمَا كَانُوا اي بسبب ما كانوا يَكْسِبُونَ من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين
لا يؤمنون بالمعاد واما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اي فعلوا الايمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره
من الآيات وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التي يقتضيها الايمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ اي يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل
الصالح فيصلون بذلك الى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ مستانفة او خبر ثان لان او في محل النصب على الحال والمعنى من تحت
بساتينهم او من بين ايديهم لانهم على سرر مرفوعة فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خبر اخر او حال
اخرى منه او من الانهار او متعلق بتجري دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ اي دعاؤهم وندائهم
وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي وقيل هذا من باب
الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط بل يقولونه او ما يؤدي معناه من جميع
صفات التنزيه والتقديس قيل الدعاء العبادة كقوله واعتزلكم وما تدعون من دون
الله وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين والمعنى ان اهل الجنة يدعون
في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية وقيل قولهم وكلامهم
قال القفال اصله من الدعاء لان الخصم يدعو خصمه الى من يحكم بينهما وقيل معناه طريقهم
وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن ان يجعل الدعوى كناية عن الملازمة
وان لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ولهم ما يدعون
وكان تمنيهم في الجنة ليس الا تسبيح الله وتقديسه واخرج ابن مردويه عن ابي بن كعب قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قالوا سبحانك اللهم اتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم وقد
روي نحو هذا عن جماعة من التابعين فهذه الكلمة علامة بين اهل الجنة والخدم في احضار
الطعام فاذا ارادوه قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له

على الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا
الله على ما اعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك قال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يبتدؤن
بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث
والمعنى نسبحك يا الله تسبيحا ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ اي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافا
الى الفاعل او تحية الله والملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر الى المفعول والتحية التكرمة
بالحالة الجليلة اصلها احياك الله حياة طيبة والسلام السلامة من كل مكروه وقد
مضى تفسير هذا في سورة النساء ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ اي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح
في كل مجلس ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا ان معناه انقطاع الحمد فان اقوال
اهل الجنة واحوالها لا آخر لها قال النحاس مذهب الخليل ان ان هذه مخففة من الثقيلة
والمعنى انه الحمد لله وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع اقيس ولم يحك
ابو عبيد الا التخفيف قال ابو الهذيل الحمد اول الكلام وآخر الكلام ثم تلى هذه الآية ولما
ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر
عن هذه الحياة الدنيا فقال ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ اي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه
مضرة ومكروه في نفس او مال والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته وقال القفال لما وصفهم
بالغفلة اكد ذلك بان من غاية غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب
فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون ويخرج من اصلابهم
من يؤمن قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ اي كما يستعجلون بالثواب
والخير اي استعجالا مثل استعجالهم قال مكي وهذا مذهب سيبويه او تعجيلا مثل استعجالهم
وهذا تقدير ابي البقاء وهو الظاهر وقال الزمخشري اصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف
جدا وقيل منصوب على اسقاط كاف التشبيه اي كاستعجالهم والاستعجال طلب العجلة ﴿لَقُضِيَ
إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ اي لاهلكوا وقيل معناه لاميتوا قال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر
قد يدعون على انفسهم واهلهم واولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة و
اعطاء المسئول يقول لو اجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ

الذين ارسلناهم اليهم بالبينات اي بالآيات الواضحات الدالة على صدق الرسل
وما كانوا ليؤمنوا الجملة اعتراضية واللام لتاكيد النفي اي وما صح لهم ولا استقام
ان يؤمنوا برسلهم لعدم استعدادهم لذلك وسلب الالطاف عنهم كذلك نجزي
القوم المجرمين اي مثل ذلك الجزاء وهو الاستيصال الكلي لكل مجرم وهذا وعيد شديد
لمن كان في عصره من الكفار او لكفار مكة على الخصوص ثم خاطب سبحانه الذين بعث
اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثم جعلناكم خلائف اي استخلفناكم في الارض بعد
تلك القرون التي تسمعون اخبارها وتنظرون آثارها والخلائف جمع خليفة وقد تقدم
الكلام عليه في آخر سورة الانعام لننظر كيف تعملون اللام لام كي اي لكي ننظر اي عمل
تعملونه من اعمال الخير والشر او على اي حالة تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف وقيل
النظر هنا بمعنى العلم اي لنختبر اعمالكم كقوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا ذكره الواحدي
والرازي وقيل لنعامل معاملة من ينظر ففي استعارة تمثيلية والاول اولى عن ابي سعيد
الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر
كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء اخرجه مسلم ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا
من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال واذا تتلى عليهم وفيه التفات عن الخطاب الى الغيبة اعراضا
عنهم آياتنا التي في الكتاب العزيز اي واذا تلا التالي عليهم آياتنا الدالة على اثبات التوحيد
وابطال الشرك حال كونها بينات اي واضحات الدلالة على المطلوب قال الذين لا يرجون
لقاءنا اي لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد وقال قتادة هم مشركوا مكة
وقد تقدم تفسيره قريبا اي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ائت بقرآن
غير هذا او بدله طلبوا منه صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من
ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها احد امرين اما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن
مع بقاء هذا القرآن على حاله واما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته او كلها ووضع اخرى
مكانها مما يطابق ارادتهم ويلائم غرضهم قال الرازي اقدامهم على هذا الالتماس اما على سبيل
السخرية والاستهزاء او على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كاذب في قوله

ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله تعالى فأمره الله ان يقول في جوابهم قُلْ مَا
يَكُونُ لِي اي ما ينبغي ولا يحل لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي فنفى عن نفسه احد القسمين
وهو التبديل لانه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزا بخلاف القسم الآخر وهو الاتيان بقرآن
آخر فان ذلك ليس بوسعه ولا يقدر عليه وقيل انه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه اسهل القسمين
ليكون دليلا على نفي اصعبهما بالطريق الاولى وهذا منه صلى الله عليه وسلم من باب مجاراة السفهاء
اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد ان امره الله سبحانه بذلك وهو اعلم بمصالح
عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة قال الزجاج سألوه
اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور وقيل سألوه ان يسقط ما فيه من عيب آلهتهم
وتسفيه احلامهم وقيل سألوه ان يحول الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ثم
امره ان يؤكد ما اجاب به عليهم من انه ما صح له ولا استقام ان يبدله من تلقاء نفسه
بقوله إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف
ولا تصحيف فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى اليه وربما كان مقصد الكفار بهذا
السؤال التعريض للنبي صلى الله عليه وسلم بان القرآن كلامه وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل
له ثم امره الله سبحانه ان يقول لهم تكميلا للجواب عليهم إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ فان هذه الجملة كالتعليل لما تقدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة
اي اني اخاف ان عصيت ربي بفعل ما تطلبون على تقدير امكانه عذاب يوم
القيامة ثم اكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وانه صلى الله عليه وسلم انما يبلغ اليهم منه ما
امره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ اي ان هذا القرآن المتلو
عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولو شاء الله ان لا اتلوه عليكم ولا ابلغكم اياه مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
فالامر كله منوط بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيء وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ اي ولو شاء الله ما ادراكم
بالقرآن اي ما اعلمكم على لساني يقال دريت الشيء وادراني الله به من ادراه يدريه اعلمه يعلمه
وقرأ ابن كثير ولأدراكم به بغير الف والمعنى لاعلمكم به على لسان غيري من غير ان اتلوه
عليكم ويحتمل ان يكون من درأته اذا دفعته وادرأته اذا جعلته دارئا والمعنى لا اجعلكم

بتلاوته خصما بذرا وتني بالجدال وتكذبوني، وقرأ ابن عباس والحسن ولا ادرأ تكوبه
قال أبو حاتم اصله ولا ادريتكوبه فابدل من الياء الفا قال النحاس وهذا غلط والرواية
عن الحسن ولا ادرأتكوبه بالهمزة فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ تعليل لكون ذلك
بمشية الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم الا التبليغ اي اقمت فيما بينكم زمانا طويلا من قبل
القرآن وهو اربعون سنة تعرفونني بالصدق والامانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب أَفَلَا
تَعْقِلُونَ الهمزة للتقريع والتوبيخ اي افلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي
لما عرفتم من العادة المستمرة لي المدة الطويلة بالصدق والامانة وعدم قراءتي للكتب
المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند اهلها من العلم ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي
عليه ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته
وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بانهم البالغون فيها الى مبلغ لا يتعلق
به غيركم اخرج ابن ابي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال بعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم لاربعين سنه فمكث بمكة ثلث عشر يوحى اليه ثم امر بالهجرة فهاجر عشر سنين
ومات وهو ابن ثلث وستين سنة وعن السدي نحوه قال النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث
روايات احدها انه توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة
ثلاث وستون سنة وهي اصحها واشهرها رواه مسلم من حديث انس وعايشة وابن
عباس واتفق العلماء عليها وتاولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود
وترك الكسر ورواية الخمس متاولة ايضا بانها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت
الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني نور الملائكة او نور ايات الله حتى رأى الملك بعينه
وشافهه بالوحي من الله عز وجل فَمَنْ أَظْلَمُ استفهام فيه معنى الجحد اي لا احد اظلم مِمَّنِ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا زيادة كذبا مع ان الافتراء لا يكون الا كذبا للبيان بان هذا مع كونه افتراء
على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذبا في الاسناد فقط كما اذا اسند خبر زيد
الى عمرو وذكر معنى هذا ابو السعود في تفسيره قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما
طلبوا منه ان يأتي بقرآن غير هذا القرآن او يبدله فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من الافتراء

على الله لا أظلم مما ثل ذلك وقيل المفترى على الله الكذب هو المشركون او كذب بآياته وهم اهل
الكتاب انه اي ان الشان لا يفلح المجرمون تعليل لما قبله اي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون
بخير قال عكرمة قال النضر اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فانزل الله هذه الآية
ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الاصنام وبين انها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها
فقال ويعبدون من دون الله اي متجاوزين الله سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته
بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الغير اليها للتقرب والشفاعة ما لا يضرهم
ولا ينفعهم اي ما ليس من شانه الضر ولا النفع ومن حق المعبود ان يكون مثيبا لمن اطاعه
معاقبا لمن عصاه ونفي الضر والنفع هنا عن الاصنام باعتبار الذات واثباتهما لها في الحج
في قوله يدعو لمن ضره اقرب من نفعه باعتبار السبب فلا منافاة بينهما ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله اي زعموا انهم يشفعون لهم في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم
قاله ابن جريج وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد
منه نفع ولا ضر في الحال وقيل ارادوا بهذه الشفاعة اصلاح احوال دنياهم قاله الحسن
اي لانكارهم البعث وما يترتب عليه ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يجيب عنهم فقال
قل لهم تبكيتا اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض والمعنى اتخبرون الله ان له
شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد او اتخبرونه ان لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا
يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي ارضه
وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك اصلا وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى
سبحانه وتعالى عما يشركون بالياء والتاء سبعيتان نزه الله سبحانه نفسه عن اشراكهم ويحتمل وهو اولى
ان يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي امر الله سبحانه رسوله بان يجيب به عليهم
ويحتمل ان يكون من تمام ما امر النبي صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم جوابا عليهم وما كان الناس قد
تقدم تفسيره في البقرة والمعنى ان الناس جميعا ما كانوا الا امة واحدة موحدة لله سبحانه مؤمنة
به من لدن آدم الى نوح وقيل من عهد ابراهيم الى عمرو بن لحي ان التوحيد والاسلام ملة قديمة
اجتمعت عليه الناس قاطبة فطرة وتشريعا وان الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة

فَاخْتَلَفُوا اي فصار البعض كافرا وبقي البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا وقال الكلبي هم العرب كانوا على الشرك وقال كل مولود يولد على الفطرة فاختلفوا عند البلوغ والاول اظهر وليس المراد ان كل طائفة احدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للاخرى بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد كما قدمنا وقال ابن مسعود كانوا على هدى وروي انه قرأ هكذا وعن مجاهد قال آدم وحده فاختلفوا حين قتل احد ابني آدم اخاه وعن السدي قال اهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس في الآية ما يدل على اي دين كانوا من ايمان او كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل كانوا في الكفر وهو منقول عن جماعة من المفسرين والاول اولى وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ وهي انه سبحانه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه الا يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الدنيا بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف وقيل المعنى لقضي بينهم باقامة الساعة عليهم وقيل لفرغ من هلاكهم وقيل الكلمة ان الله امهل هذه الامة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي وقيل الكلمة انه لا ياخذ احدا الا بحجة وهي ارسال الرسل كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية وَيَقُولُونَ ذكر سبحانه ههنا نوعا رابعا من مخازيهم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه قيل والقائلون هم اهل مكة كانهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها الا القرآن فكفى به دليلا بينا ومصدقا قاطعا لَوْلَا اي هلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كاحياء الاموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك مِّن رَّبِّهِ كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد ثم امره الله سبحانه ان يجيب عنهم فقال فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ اي ان نزول الآية غيب والله هو المحيط بعلمه المستاثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ فَانتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه من الآيات إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل وقال الربيع خوفهم عذابه وعقوبته ان لم يؤمنوا

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ لما بين سبحانه
في الآية المتقدمة انهم طلبوا آية عنادا ومكرا ولجاجا اكد ذلك بما ذكره هنا من انه
سبحانه اذا اذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة
المكر منهم في آيات الله والمراد باذاقتهم رحمته سبحانه انه وسع عليهم في الارزاق وادر
عليهم النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد ان مسهم الضر بالجدب وضيق المعايش
فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها بل اضافوها الى اصنامهم التي لا تنفع ولا تضر
وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها واذا الاولى شرطية
وجوابها اذا لهم مكر وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه ويستفاد منه السرعة
لان المعنى انهم فاجؤا المكر اي اوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة وقال مجاهد في الآية
استهزاء وتكذيب هذا تفسير مراد والا فاصل المكر اخفاء الحيل والمكائد وقال مقاتل
لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا ثم امر الله سبحانه رسوله ان
يجيب عنهم فقال ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ اي اعجل عقوبة واشد اخذا واقدر على الجزاء
من سرعة مكرهم وقد دل افعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعا ولكن مكر الله اسرع منه و
تسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب
العزيز ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ اي الملائكة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ قرئ بالتاء والياء والاولى سبعية
والثانية عشرية قيل لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم
الخبير وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم وهذه الجملة تعليل للتي قبلها
فان مكرهم اذا كان ظاهرا لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى
الآية المتقدمة وهي اذا مس الانسان الضر وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على
مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما وهو كلام مستأنف يتضمن معنى
تسييرهم في البر انهم يمشون على اقدامهم التي خلقها لهم لينتفعوا بها او ركوبهم ما خلقه الله لركوبهم
من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر انه الهمهم عمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم

اسباب الهلاك وقرأ ابن عامر وهو الذي ينشركم في البحر بالنون من النشر كما في قوله تعالى
فانتشروا في الارض اي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويغرق من يشاء حتى غاية للسير في البحر و
الغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها اذا كنتم في الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث
وقد تقدم تحقيقه وجرين اي السفن بهم اي بالراكبين عليها والفائدة في صرف الكلام
عن الخطاب الى الغيبة المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم
مزيد الانكار والتقبيح قاله الزمخشري وقيل ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله
عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من اقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى
الغائب وقيل هذا الالتفات فيه امتنان واظهار نعمة المخاطبين وللمسيرون في البحر
مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر ولعل الطالح
يتذكر هذه النعمة ولما كان في آخر الآية ما يقتضي انهم اذا نجوا بغوا في الارض عدل عن خطابهم
بذلك الى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق قال السمين
وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب وقال
الرازي الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما
ان عكس ذلك في قوله اياك نعبد دليل الرضاء والتقريب بريح طيبة اي ساكنة لينة
الهبوب الى جهة المقصد والباء للسببية او الحال وفرحوا بها اي بريح السفينة فالقيود المعتبرة
في الشرط ثلاثة اولها الكون في الفلك والثاني جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة
وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة الاول جاءتها اي جاءت الفلك وعارضته
وقابلته او جاءت الريح الطيبة اي تلقتها ريح عاصف العصوف شدة هبوب الريح
وهي الهواء بين السماء والارض والجمع ارواح ورياح وقيل ارياح على لفظ الواحد وغلطه
ابو حاتم وهي مؤنثة على الاكثر وقد تذكر على معنى الهواء نقله ابو زيد وقال ابن الانباري
الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر اسمائها الا الاعصار فانه مذكر وراح اليوم يروح روحا
من باب قال في لغة من باب خاف اذا اشتدت ريحه فهو رائح والثاني وجاءهم اي ركبان
السفينة الموج من كل مكان اي من جميع الجوانب للفلك والموج ما ارتفع من غوارب الماء

وعلى فوق البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه والثالث ظنوا انهم احيط بهم اي
غلب على ظنهم الهلاك واصله من احاطة العدو بقوم او ببلد فجعل هذه الاحاطة
مثلا في الهلاك وان كان بغير العدو كما هنا وهو استعارة تبعية وقيل الظن هنا اليقين
اي ايقنوا انه الهلاك وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه
وقوله دعوا الله بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم انما كان عند ظن الهلاك وهو
الباعث عليه فكان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله عليه ويمكن ان يكون جملة مستانفة
كانه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله مخلصين له الدين اي لم يشوبوا دعاءهم بشيء
من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن انهم يشركون اصنامهم في الدعاء
ليس هذا لاجل الايمان بالله وحده بل لاجل ان ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم انه لا
ينجيهم الا الله سبحانه وفي هذا دليل على ان الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد
وان المضطر يجاب دعاؤه وان كان كافرا وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا
لا يلتفتون الى اصنامهم في هذه الحالة وما شابهها فيا عجبا لما حدث في الاسلام من طوائف
يعتقدون في الاموات فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا
الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواترا يحصل به القطع فانظر هداك الله
ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية واين وصل بها اهلها والى اين رمى بهم الشيطان
وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه
من عباد الاصنام فانا لله وانا اليه راجعون واللام في لئن انجيتنا هي الموطية للقسم
المحذوف اي دعوا قائلين ذلك ويجوز ان يجري دعوا الله مجرى قالوا لان الدعاء بمعنى القول
اذ هو نوع من انواعه وهو مذهب كوفي من هذه اي ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك
في البحر من الريح العاصفة والامواج الشديدة لنكونن في كل حال من الشاكرين اي ممن
يشكر نعمك التي انعمت بها علينا منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك ان تفرجها
عنا وتنجينا منها وهذا جواب القسم وقيل ان هذه الجملة مفعول دعوا فلما انجاهم
الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها واجاب دعاءهم اذا هم يبغون وصدوا من انفسهم بما قصدوا

فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الارض بغير الحق مكان الشكر اذا هم يبغون
اي فاجئوا البغي والفساد وسارعوا اليه والبغي هو الفساد من قولهم بغى الجرح اذا ترامى
في الفساد وقيل هو الشرك وزيادة في الارض للدلالة على ان فسادهم هذا شامل لاقطار
الارض والبغي وان كان ينافي ان يكون بحق بل لا يكون الا بالباطل لكن زيادة بغير الحق
اشارة الى انهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمردا وعنادا لانهم قد يفعلون ذلك
شبهة يعتقدونها مع كونها باطلة وقيل البغي مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل
الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع ومذموم ان كان من الحق الى الباطل او الى الشبهة
وقال الزمخشري البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم
واحراق زروعهم وقلع اشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة وهذا فائدة
تقييده بغير الحق يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا لما ذكر سبحانه
ان هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الارض بغير الحق ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته وقرئ
بنصب متاع اي بغيكم وبال على انفسكم تتمتعون متاع الحيوة الدنيا وقيل ظرف زمان
اي زمن متاع الحياة الدنيا وقيل مفعول له اي لاجل متاع الحياة الدنيا وقيل اي كمتاع
او متمتعين وقد نوقش غالب هذه الاقوال في توجيه النصب وعلى الرفع معناه بغيكم متاع
الحياة الدنيا والتقدير انما بغيكم على امثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا
ومنفعتها التي لا بقاء لها فيكون المراد بانفسكم على هذا الوجه ابناء جنسهم وعبر عنهم
بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة وقيل هو متاع وقيل بغيكم
مبتدأ وخبره متاع الحيوة الدنيا وعلى انفسكم مفعول البغي وقيل ذلك متاع الحيوة الدنيا
وقد نوقش ايضا بعض هذه الوجوه في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل والحاصل
انه اذا جعل خبر المبتدأ على انفسكم فالمعنى انما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفسك لانه
باعتبار ما يؤول اليه الامر من الانتقام منه مجازاة على بغيه وان جعل الخبر متاعا فالمراد ان
بغي هذا الجنس الانساني على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر امتعة الحياة
الدنيا فانها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى

واخرج ابو الشيخ وابن مردويه وابو نعيم والخطيب في تاريخه عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث هن رواجع على اهلها المكر والنكث والبغي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بغيكم على انفسكم ولا يحيق المكر السيء الا باهله ومن نكث فانما ينكث على نفسه وعن مكحول ثلاث من كن فيه كن عليه المكر والبغي والنكث قلت انا وينبغي ان يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على انها تعود على فاعلها الخدع فان الله يقول يخادعون الله والذين امنوا وما يخدعون الا انفسهم واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي منهما ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال ثم الينا مرجعكم تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون الى الله فيجازي المسيء باساءته والمحسن باحسانه فينبئكم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشر والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن اساء سأخبرك بما صنعت وفيه اشد وعيد وافظع تهديد ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به بعد ان تملأ الاعين برونقها وتجلب النفوس ببهجتها وتحمل اهلها على ان يسفكوا دماء بعضهم بعضا ويهتكوا حرمهم حبا لها وعشقا لجمالها الظاهري وتكالبا على التمتع بها وتهافتا على نيل ما تشتهيه الانفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثال المنتظم في سلك الامثال فقال انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء اي ان مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه مثل ما على الارض من انواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه بعد ان كان غضا مخضرا طريا قد تعانقت اغصانه المتمايلة وزهت اوراقه المتصافحة وتلألأت انوار نوره وحاكت الزهر انواع زهره وانما ليست للحصر لانه تعالى ضرب للحياة الدنيا امثالا غير هذا وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله كماء بل ما يفهم من الكلام فاختلط به اي بسببه نبات الارض بان اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ الى حد الكمال ويحتمل ان يراد ان النبات كان في اول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع فاذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعضه

الانواع بعضها ببعض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ اي كائنا من الحبوب والثمار والكلاء والتبن
والعشب حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا قال في الصحاح الزخرف الذهب ثم يشبه به
كل مموه مزور انتهى وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه
ومن الارض الوان نباتها والمعنى ان الارض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه
للون الذهب وبعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرد حتى غايته وفيه ما ثنى ينمو
ويزهو حتى اخذت حسنها ونضارتها وبهجتها واظهرت الوان زهرها من ابيض واخضر
واحمر واصفر وغير ذلك وَازَّيَّنَتْ اي تزينت به وقرئ ازينت على وزن افعلت اي تزينت
بالزينة التي عليها شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة الوانا كثيرة ففي الكلام استعارة
مكنية وَظَنَّ أَهْلُهَا اي اهل تلك الارض الاخذة زخرفها أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا اي غلب على
ظنونهم او تيقنوا انهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها
متمكنون على جدادها وقطافها والضمير في عليها للارض والمراد النبات الذي هو عليها
أَتَاهَا اي جاءها امرنا باهلاكها واستيصالها وضربها ببعض العاهات لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
او للتنويع اي تارة ياتي قضاؤنا وعذابنا بالليل وتارة ياتي نهارا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا اي
جعلنا زرعها شبيها بالمحصود في قطعه من اصوله قال ابو عبيدة الحصيد المستاصل وقيل
المقطوع بالمناجل كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ اي كان لم يكن زرعها موجودا فيها بالامس مخضرا
طريا من غَنِيَ بالمكان بالكسر يغنى بالفتح اذا اقام قال البيضاوي اي لم تلبث اي لم تقم ولم
تمكث وقيل لم تكن ولم توجد وفي القاموس ما يقتضي ان غني ياتي بمعنى كان ووجد كقوله
غَنِيَتْ دارنا بتهامة اي كانت بها والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضي لا خصوص
اليوم الذي قبل يومك قاله الكرخي والمغاني في اللغة المنازل وقال قتادة كان لم ينعم وقرئ
لم يغن بالتحتية بارجاع الضمير الى الزخرف وقرأ من عداه تغن بالفوقية بارجاع الضمير الى
الارض كَذَلِكَ اي مثل ذلك التفصيل البديع نُفَصِّلُ الْآيَاتِ القرانية التي من جملتها هذه الاية
المنبهة على احوال الدنيا ويجوز ان يراد الايات التكوينية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فيما اشتملت عليه
عن ابي مجلز قال كان مكتوبا في سورة يونس الى جنب هذه الاية ولو ان لابن ادم واديين

من مال لقي ثالثا ولا يشبع نفس ابن ادم الا التراب ويتوب الله على من تاب فحيث قال النسفي في الآية وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه ان الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما ان سفو المائي اعلى الاناء شعر الم تر ان العمر كاس سلافة ✦ فاوله صفو واخره كدر ✦ وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التدارين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلف ثمام الاثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولماع اللعب فريد عوه معاده كما عين المحرث حصاده فتزائله الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته في الرمس كان لم تغن بالامس الى ان يعود ربيع البعث وموصل العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولابد من ترك ما زاد كما لابد من اخذ الزاد واخذ المال لا يخلو من زلة كما ان خائض الماء لا يخلو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فما دون النصاب كصاحل ما يجاوز بلا احتياء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهي الزكوة وعمارتها بذل الصلاة فمتى اختلت القنطرة غرقته امواج القناطير المقنطرة وكذا المال يساعد الاوغاد دون الامجاد كما ان الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما ان الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف انتهى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ لما نفر عباده عن الميل الى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم في الدار الآخرة باخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل الى دار السلام قال الحسن وقتادة السلام هو الله تعالى وداره الجنة وقال الزجاج المعنى والله يدعو الى دار السلامة ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة وقيل اراد دار السلام والذي هو التحية لان اهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله تحيتهم فيها سلام وقيل السلام اسم لاحد الجنان السبع احدها دار السلام والثانية دار الجلال والثالثة جنة عدن والرابعة جنة المأوى والخامسة جنة الخلد والسادسة جنة الفردوس والسابعة جنة النعيم وقيل المراد دار السلام

الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة وقد اتفقوا على ان دار السلام هي الجنة وانما
اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته قال ابو العالية يهديهم المخرج
من الشبهات والفتن والضلالات ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الاسلام جعل سبحانه الدعوة الى
دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء ان يهديه تكميلا للحجة واظهارا للاستغناء
عن خلقه اخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابي جعفر محمد بن علي
قال حدثني جابر قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال اني رأيت في المنام كان
جبريل عند راسي وميكائيل عند رجلي يقول احدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال اسمع
سمعت اذنك واعقل عقل قلبك انما مثلك ومثل امتك مثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا
ثم جعل فيها مادبة ثم بعث رسولا يدعو الناس الى طعامه فمنهم من اجاب الرسول ومنهم
من تركه فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وانت يا محمد رسول فمن اجابك دخل
الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة اكل منها وقد روي معنى هذا
من طرق ثم قسم سبحانه اهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالقيام
بما اوجبه الله عليهم من الايمان والاعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي وقيل الذين شهدوا
ان لا اله الا الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ اي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب فعصاة المؤمنين داخلون
في هذا قال ابن الانباري الحسنى في اللغة تانيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على
الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها وقيل المراد بالحسنى الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾
قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله و
قيل الزيادة النظر الى وجهه الكريم وبه قال جماعة من الصحابة منهم ابو بكر الصديق وحذيفة
وابو موسى الاشعري وعبادة بن الصامت وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل
والسدي وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنة الى عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وقيل الزيادة
غرفة من لؤلؤة واحدة لها اربعة ابواب قاله علي بن ابي طالب وقيل الزيادة مغفرة من الله
ورضوان قاله مجاهد وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم
القيامة قاله ابن زيد وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره واخرج احمد ومسلم والترمذي

وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى
مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا
ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه
فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم وفي لفظ من حديث أبي
موسى مرفوعا الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن أخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما
وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعا بطرق وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات
في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلم يبق لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون
من السنة المطهرة ما ينتفعون به فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان
ولا يرهق الرهق الغشيان وقيل أصله المقاربة وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق إذا
لحق بالرجال وقيل يعلو والمعاني متقاربة والمعنى لا يغشى وجوههم قتر هو غبار معه سواد وقيل
سواد الوجه وواحده قترة وقيل هو الدخان ومنه قتار القدر وقيل التقليل ومنه لم يقتروا وأو
منه على المقتر قدره وقيل الكآبة ولا ذلة هي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان
يعني لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان وقال مجاهد في الآية خزي وعن صهيب عنه
صلى الله عليه وسلم قال هذا بعد نظرهم إليه عز وجل أخرجه أبو الشيخ والجملة مستأنفة أو في محل نصب على
الحال قاله أبو البقاء وهذا ليس بجائز لأن المضارع متى وقع حالا منفيا بلا امتنع دخول واو الحال
عليه كالمثبت أو في محل الرفع نسقا على الحسنى والتقدير وأن لا يرهق أي وعدم رهقهم أولئك
أي المتصفون بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون أي المتنعمون بأنواع نعيمها
لا يخرجون منها أبدا والذين كسبوا السيئات فيه سبعة أوجه قررها السمين لا نطول بذكرها
جزاء سيئة بمثلها أي يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها كما يزاد في
الحسنة وهذا أولى مما عداه والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصي التي ليست بشرك وهي ما
يتلبس به العصاة من المعاصي قال ابن كيسان الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء

سيئة كانت بمثلها وقيل التقدير فلهم جزاء سيئة وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات
والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى
أضعاف كثيرة تفضلاً منه سبحانه وتكرماً وأما السيئات فإنه يجازي فاعلها عليها بمثلها عدلاً
منه سبحانه وَتَرْهَقُهُمْ أي تغشاهم ذِلَّةٌ أي هوان وخزي وقال ابن عباس ذلة وشدة مَا لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ أي لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه أو ما لهم من جهة الله من
عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين والأول أولى كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ
مُظْلِمًا القطع بفتح الطاء جمع قطعة وبإسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان قال ابن السكيت
القطع طائفة من الليل وقيل ظلمة آخر الليل وقال الأخفش سواد الليل والجملة حالية أو مستأنفة
أي أغشيت وألبست وجوههم قطعاً وسواداً من الليل في حال ظلمته أُولَئِكَ أي الموصوفون
بهذه الصفات الذميمة أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في
السنة من خروج عصاة الموحدين وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى
موضع واحد وقال مجاهد الحشر الموت أي اذكر يوم نحشرهم لموقف الحساب والجملة مستأنفة
لبيان بعض أحوالهم القبيحة والمعنى أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة ثُمَّ نَقُولُ
في حالة الحشر ووقت الجمع لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا تقريعاً لهم على رؤوس الأشهاد وتوبيخاً لهم مع حضور
من يشاركهم في العبادة وحضور معبوداتهم مَكَانَكُمْ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا في
موضعكم ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ
هذا الضمير تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسده مسد الزموا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين
والمعبودين والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الأصنام وإن الله سبحانه ينطقها
في هذا الوقت وقيل المسيح وعزير والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان فَزَيَّلْنَا أي فرقنا
وقطعنا ما كان بَيْنَهُمْ من التواصل في الدنيا يقال زيلته فتزيل أي فرقته فتفرق والمزايلة المفارقة
والتزايل التباين قال السيوطي ميزنا بينهم وبين المؤمنين كما في آية وامتازوا اليوم أيها المجرمون انتهى
وفيه مسامحة قال القرطبي هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه إذ هما في الكلام على المشركين و
معبوداتهم فالأولى القول الآخر الذي جرى عليه غيره كالبيضاوي والخازن وبعض الخطيب

اي بين المشركين وشركائهم وذلك حين يتبرأ كل معبود ممن عبده وهذا انسب بقوله وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه وانما اضاف الشركاء اليهم مع انهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيبا من اموالهم فهم شركاؤهم في اموالهم من هذه الحيثية وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والاضافة تكون لادنى ملابسة مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ في الحقيقة ونفس الامر وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين اغووكم لانها الآمرة لكم بالاشراك على حد قوله قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم الآية وهذا الجحد من الشركاء وان كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم اياهم عن امرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ان كنا امرناكم بعبادتنا او رضينا ذلك منكم إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ القائل لهذا الكلام هم المعبودون قالوا لمن عبدهم من المشركين والمراد بالغفلة هنا عدم الرضاء بما فعله المشركون من العبادة لهم وعدم علمهم بها او كل من الامرين وفي هذا دليل على ان هؤلاء المعبودين غير الشياطين لانهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم قال ابو السعود هذا من كلام الاصنام كما علمت انتهى قلت ويمكن ان يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم على انهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا اكرهوهم عليها هُنَالِكَ اي في ذلك المكان الدهش او في ذلك الموقف الدحض او في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان تَبْلُو اي تختبر وتذوق كُلُّ نَفْسٍ مؤمنة كانت او كافرة سعيدة او شقية جزاء مَّا أَسْلَفَتْ من العمل وتعاينه بكنهه متتبعة لآثاره من نفع او ضر وخير او شر فمعنى تبلو تذوق وتختبر وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من التلو وهذا على القراءة بالفوقية باسناد الفعل الى كل نفس واما على القراءة بالنون فالمعنى ان الله يبتلي كل نفس ويختبرها وانه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد احوالها ويجوز ان يراد يصيب بالبلاء اي العذاب كل نفس عاصية بسبب ما اسلفت من الشر والبلية والبلاء والبلوى واحد والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يوردوهم النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك تبلو الآية وعن ابن زيد قال تعاين كل نفس ما عملت

وقرئ من التلاوة اي تقرأ كل نفس صحيفة عملها من خير او شر وردوا اي الذين اشركوا الى
الله اي الى جزائه وما احد لهم من عقابه والرد عبارة عن صرف الشيء الى الموضع الذي جاء منه
مولاهم ربهم ومالكهم الحق صفة له اي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة
وقرئ بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله اهل الحمد وضل عنهم اي ضاع وبطل وذهب في الموقف
ما كانوا يفترون عليه من ان الالهة التي لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم الى الله وتقربهم اليه نصف
والحاصل ان هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام الى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان
ما كانوا يعبدونه ويجعلونه الها ولكن حين لا ينفعهم ذلك وعن السدي قال نسخها قوله الله
مولى الذين امنوا وان الكافرين لا مولى لهم ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين اتبعها بايراد
الحجج الدامغة من احوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى
وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسئولين ليكون ابلغ في الزام الحجة و
اوقع في النفوس فقال قل يا محمد المشركين احتجاجا لحقية التوحيد وبطلان ما هو عليه من
الشرك وهذه اسئلة ثمانية جواب الخمسة الاولى منها منهم وجواب الاثنين بعدها منه صلى الله
عليه وسلم بتعليم الله اياه لعدم قدرتهم عليه وجواب الاخير لم يذكر لشهرته والعلم به من يرزقكم
من السماء بالمطر والارض بالنبات والمعادن فان الارزاق تحصل باسباب سماوية ومواد
ارضية او من كل واحدة منهما او من لابتداء الغاية فان اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا
بان الله هو الذي خلقهما فقل ام من يملك السمع والابصار ام هي المنقطعة وفي هذا
انتقال من سوال الى سوال على القاعدة المقررة في القران انه اضراب انتقالي لا اضراب ابطالي
اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما او من يحفظهما من الافات مع كثرتها وسرعة انفعالهما
من ادنى شيء وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك هو الذي يستطيع التصرف
فيه والحفظ له والحماية ولذلك يعبر به عن كل منهما وخصهما بالذكر لما فيهما من الصنعة
العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بهما من الفوائد ما
لا يدخل تحت حصر ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال ومن يخرج الحي من الميت اي
الانسان من النطفة والطير من البيضة والنبات من الحبة او المؤمن من الكافر والاول اقرب الى

الحقيقة ويخرج الميت من الحي اي النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن او البيضة من الطائر
الحي والمراد بهذا الاستفهام عمن يحيي ويميت وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال و
من يدبر الامر بين الخلائق اي يقدره ويقضيه وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم
ما تقدم وغيره فسيقولون الله اي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات ان الفاعل
لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم والمعنى انه
يفعل ذلك فقل امره ان يقول لهم بعد ذلك وعظا وتذكيرا بعد ان يجيبوا بهذا الجواب افلا
تتقون الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر اي تعلمون ذلك افلا تتقون وتفعلون
ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال وتعبدون هذه الاموات و
الاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به وفي البيضاوي افلا تتقون عقابه
باشراككم اياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك فذلكم الذي يفعل هذه الافعال الله وهو ربكم
المتصف بانه الحق لا ما جعلتموهم شركاء له من الموتى والاصنام والاستفهام في قوله فماذا بعد
الحق الا الضلال للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام و
المعنى اي شيء بعد الحق الا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره
باطلا لان واجب الوجود يجب ان يكون واحدا في ذاته وصفاته فانى تصرفون اي كيف تستجيزون
العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تخطى احدهما وقع في الآخر
والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب كذلك اي كما ثبت ان الحق ليس بعده الا الضلال
او كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة ربك اي حق حكمه وقضاؤه على الذين
فسقوا اخرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عنادا ومكابرة قال الزمخشري اي مثل ذلك
الحق حقت وقال الزجاج اي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي انهم لا يؤمنون اي عدم
ايمانهم بدل من كلمة والمعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلا لحقيتها عليهم قل هل من
شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده اورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وامر
نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقولها لهم وهم وان كانوا لا يعترفون بالمعاد لكنه لما كان امرا ظاهرا بينا
وقد قام الادلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من انصف ولم يكابر كان

كالمسلم عندهم الذي لا محيد له ولا انكار فيه والمعنى هل من هذه الاصنام والاوثان التي تزعمون
انها آلهة من يقدر على ان ينشئ الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في
القيامة كبعثته اول مرة للجزاء وهذا السؤال استفهام انكار وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا
باستقلاله في اثبات المطلوب وعبارة ابي السعود هذا احتجاج آخر على حقية التوحيد و
بطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالوهية ببيان اختصاص خواصها
من بدء الخلق واعادته به تعالى انتهى الحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الاعادة والبعث فكيف يحتج عليهم
بها لان الزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح ايضا بما استبين وثبتت حقيته لقوة برهانه فلذا جعل
الاعادة كالبدء في الالزام بها لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها ولذلك امر الرسول ان
ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ اي هو الذي يفعل
ذلك لا غيره وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن امر الله سبحانه له نيابة عن
المشركين في الجواب كما تقدم اما على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم
الى ما يقولون واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم
ومعرفة ما لديه واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فرارا منهم
عن ان تلزمهم الحجة او ان يسجل عليهم بالمكابرة ان حادوا عن الحق فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ اي
فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره والمراد التعجب من احوالهم ثم امره الله سبحانه
ان يورد عليهم حجة سابعة فقال قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم الاستفهام ههنا كالاستفهامات
السابقة مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا في القرآن
كقوله الذي خلقني فهو يهدين وقوله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقوله الذي خلق
فسوى والذي قدر فهدى وفعل الهداية يجيء متعديا باللام والى وهما بمعنى واحد وقد حكى ذلك
عن الزجاج وقيل كما يعدى بالى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على ان المنتهى غاية
الهداية والمعنى متقارب وقد يحذف الحرف تخفيفا وقد جمع بين المتعديين هنا فجرى في الجمع
تعديه الاول والثالث بالى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في البلاغة
ولذلك قال الزمخشري هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد

الباطل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك ومعاندين امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم
ان يجيب بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الذي له الاحاطة الكاملة ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ من يشاء دون غيره
ممن زعموهم شركائهم دليل ذلك ما تقدم من الادلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا وهداية
الله سبحانه لعباده الى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسل وانزاله
للكتب وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار والاستفهام
في قوله ﴿أَفَمَن﴾ للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان ثان لم يذكر جوابه
الآية والمعنى ﴿أَفَمَن يَهْدِي﴾ الناس ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ ويقتدى به ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾
اي ام الاحق بان يتبع ويقتدى به من لا يهتدي بنفسه ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ الاستثناء مفرغ من
اعم الاحوال اي لا يهتدي في حال من الاحوال الا في حال هداء الغير اياه وكان مقتضى المقابلة
ان يقال ام من لا يهدي وانما خولف اشارة الى انه اذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره وقال النحاس
الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره الا ان يسمع اي لكنه يحتاج ان يسمع فمعنى الا
ان يهدى اي لكنه يحتاج ان يهدى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين
اي اي شيء يثبت لكم في هذه الحالة فهذا جملة مستقلة وكيف تحكمون اي باتخاذ هؤلاء
شركاء لله وهي جملة اخرى مستقلة وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ثم بين سبحانه ما هؤلاء
عليه في امر دينهم وعلى اي شيء بنوه وباي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال
﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة والمعنى ما يتبع
هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له انداداً الا مجرد الظن والتخمين والحدس ولم يكن ذلك
عن بصيرة والتفات الى فرد من افراد العلم فضلاً عن ان يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة
الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها
وبطلان ما يخالفها بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم
ولم يكن ظنه هذا لمستند قط بل مجرد خيال مختل وحدس باطل فقلده عاقبه اباءهم ولعل تنكير
الظن هنا للتحقير اي الا ظناً ضعيفاً واهياً لا يستند الى ما تستند اليه سائر الظنون وقيل المراد
بالآية انه ما يتبع اكثرهم في الايمان بالله والاقرار به الا ظناً والاول اولى وقيل المراد بالاكثر الكل لان

جميعهم يتبعون الظن في دعواهم ان الاصنام تشفع لهم قال الكرخي وفيه دليل على ان تحصيل العلم في الاصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز وقيل المراد بالاكثر الرؤساء ثم اخبر الله سبحانه ان الظن لا يغني من الحق شيئاً لان امر الدين انما يبنى عن العلم به يتضح الحق من الباطل والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء و الجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم ان الله عليم بما يفعلون من الافعال القبيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكي عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجاً اولياً وما كان هذا القرآن ان يفترى قيل ان بمعنى اللام اي ليفترى وقيل بمعنى لا اي لا يفترى لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت امر النبوة اي وما صح وما استقام ان يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة مفترى من الخلق من دون الله وانما هو من عند الله عز وجل وكيف يصح ان يكون مفترى على سبيل الافتعال والاختلاق وقد عجز عن الاتيان بسورة منه القوم الذين هم افصح العرب لساناً وادقهم اذهاناً قال الفراء ومعنى الآية وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله وما كان لنبي ان يغل وما كان المؤمنون لينفروا كافة يعني ليس وصف القرآن وصف شيء يمكن ان يفترى به على الله لان المفتري هو الذي يأتي به البشر وانه منزه عن الافتراء والكذب ولكن كان هذا القرآن ووقعت لكن هنا احسن موقع اذ هي بين نقيضين وهما الكذب والصدق المتضمن للتصديق وفيه اوجه احدها العطف على خبر كان الثاني انه خبر لكان مضمرة وتقدم تقديره واليه ذهب الكسائي والفراء وابن سعدان والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى الثالث تقديره وما كان هذا القرآن ان يفترى ولكن انزل للتصديق والرابع تقديره ولكن يصدق الذي قاله السمين تصديق الذي بين يديه اي امامه من الكتب الالهية المنزلة على الانبياء قبله اي انها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقاً لها ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة لان اقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك و قيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم لانهم شاهدوه قبل ان

يسمعوا منه القرآن وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ التفصيل التبيين اي تبيين ما في كتب الله المتقدمة والالف
واللام في الكتاب للجنس وقيل اراد ما بيّن في القرآن من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القرآن
وقيل اللوح المحفوظ لَا رَيْبَ فِيهِ الضمير عائد الى القرآن وهو داخل في حكم الاستدراك وهو
خبر ثالث او حال من الكتاب اي منتفيا عنه الريب او مستأنف او معترض بين تصديق
وبين مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ اي كائنا منه خبر رابع او حال ثانية او متعلق بتصديق او بتفصيل
او التقدير انزل للتصديق من رب العالمين أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير
ثبوت الحجة وام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل يقولون افتراه واختلقه وقال
ابو عبيدة ام بمعنى الواو اي ويقولون وقيل الميم زائدة اي أيقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ
والانكار والاستبعاد اي هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة وقيل التقدير ايقرون به
ام يقولون ثم امره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال قُلْ تبكيتا
لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة فَأْتُوا اي ان كان الامر كما تزعمون
من ان محمدا افتراه فأتوا انتم على جهة الافتراء بِسُورَةٍ مِثْلِهِ في البلاغة وجودة الصناعة
فانتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن وحسن النظم وبلاغة الكلام والمراد مثل
هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا قال الرازي وهي مكية والاولى التناول
لجميع السور فانهم لا يقدرون ان يأتوا باقصر سورة وَادْعُوا بمظاهرتكم ومعاونتكم مَنِ
اسْتَطَعْتُمْ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونها شركاء لله
مِنْ دُونِ اللَّهِ اي من سوى الله من خلقه إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في دعواكم ان هذا القرآن
مفترى فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو ايضا مستلزم لقدرتكم عليه سبحان
الله العظيم ما اقوى هذه الحجة واوضحها واظهرها للعقول فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد
منهم في البشرية والعربية قال لهم هذا الذي نسبتموه الي وانا واحد منكم ليس عليكم الا
ان تأتوا وانتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره واستعينوا بمن شئتم من اهل هذا
اللسان العربي على كثرتهم وتباين مساكنهم او من غيرهم من بني آدم او من الجن او من الاصنام فان
فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فانتم صادقون فيما نسبتموه الي والصقتموه بي فلم يأتوا عند سماع

هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا
بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ومراتب
تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن أربعة أولها انه تحداهم بكل القرآن كما قال
تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ثانيها انه تحداهم بعشر
سور قال تعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال
تعالى فأتوا بسورة مثله رابعها انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله
فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي
لأجله كذبوا بالقرآن وأتى به عقب هذا التحدي البالغ فقال بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ
فأضرب عن الكلام الأول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل ان يتدبروه
ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه وهكذا اصنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من
دعى الى الحق وتمسك بذيول الانصاف بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه ولا جاء على طبق دعواه
قبل ان يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا والحاصل ان من كذب بالحجة
النيرة والبرهان الواضح قبل ان يحيط بعلمه فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب الا مجرد كونه
جاهلا لما كذب به غير عالم به فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى
صوت ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه
شيء شعر ما يبلغ الاعداء من جاهل ، ما يبلغ الجاهل من نفسه ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
أي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله أي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل
ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم ولا وصلت اذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والمعنى
ان التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه وقبل ان يعرفوا ما يؤل اليه من صدق ما اشتمل
عليه من حكاية ما سلف من اخبار الرسل المتقدمين والامم السابقين ومن حكايات ما
سيحدث من الامور المستقبلة التي اخبر عنها قبل كونها وقبل ان يفهموه حق الفهم وتتعقله
عقولهم فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي وعرفوا لما اشتمل عليه من الامور الدالة
أبلغ دلالة على انه كلام الله وعلى هذا فمعنى تأويله ما يؤل اليه لمن تدبره من المعاني

الرشيقة واللطائف الأنيقة وكلمة التوقع الظاهر في المعنى الأول والمعنى أن القرآن معجز من جهة
النظم ومن جهة المعنى من حيث الإخبار بالغيب كذلك أي مثل ذلك التكذيب كذب
الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه فإنهم كذبوا به قبل
أن يحيطوا بعلمه وقبل أن يأتيهم تأويله فانظر كيف كان عاقبة الظالمين من
الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم
كما حكى ذلك القرآن عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم والخطاب لرسول الله صلى
الله عليه وسلم أو لكل فرد من الناس والجملة في قوة فأهلكناهم ومنهم أي ومن هؤلاء الذين كذبوا
بالقرآن من يؤمن به في نفسه ويعلم أنه صدق وحق ولكنه كذب به مكابرة وعنادًا وقيل
المراد ومنهم من يؤمن في المستقبل وإن كذب به في الحال ومنهم من لا يؤمن به
ولا يصدقه في نفسه بل كذب به جهلاً كما مر تحقيقه أو لا يؤمن به في المستقبل بل يبقى على
جحوده وإصراره وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكلا الطائفتين وهم الذين
يؤمنون به في أنفسهم ويكذبون به في الظاهر والذين يكذبون به جهلاً والذين يؤمنون
في المستقبل والذين لا يؤمنون به وقد قيل إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة وقيل عام في جميع
الكفار وربك أعلم بالمفسدين فيجازيهم بأعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون فإن
كذبوك فقل أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا
عليه لي عملي ولكم عملكم أي جزاؤه فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه وليس علي غير ذلك
ثم أكد بقوله أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون أي لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ
بعملكم وفيه توكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدي أجر العمل إلى غير عامله وقد
قيل إن هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب
إليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي وعن ابن زيد قال أمره الله بهذا ثم نسخه فأمره
بجهادهم قال الرازي وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعًا لحكم المنسوخ ومدلول الآية
اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئًا
من مدلولات هذه الآية بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً ومنهم من يستمعون إليك

ج ٢

بين الله سبحانه في هذا ان في اولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة الى هذا الحد وفي
انهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة
لعدم حصول اثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه وجمع الضمير في يستمعون حملا على معنى
من وافرده في ومنهم من ينظر حملا على لفظه قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين
لان الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع
والنور الموافق لنور البصر والتقدير ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون
ومنهم بعض ينظر ولهذا قال أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الهمزة للانكار يعني ان هؤلاء وان استمعوا في
الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم ذلك مع حصول المانع وهو الصمم
فكيف اذا انضم الى ذلك وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ فان من كان اصم غير عاقل لا يفهم شيئا ولا يسمع
ما يقال له والفاء عاطفة وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك
لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره وعقولهم لما كانت مريضة
بمعارضة الوهم ومتابعة الالف والتقليد تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا
بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق والكلام في وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ كالكلام فيما تقدم فان العمى مانع فكيف يطمع
من صاحبه في النظر وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد
يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهما يقوم مقام النظر وكذلك الاصم العاقل
قد يحدس تحدسا يفيده بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه
الادراك وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى والمقصود من هذا
الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الطبيب اذا رأى مريضا لا يقبل العلاج اصلا اعرض عنه
واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان ان ذلك لم يكن لاجل
نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طبائعهم من التعصب
والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا انفسهم بذلك ولم يظلمهم الله

شيئاً من الاشياء بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به الحق ادراك ورکب فيهم من الحواس
ما يصلون به الى ما يريدون ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية
فصلي نفسه بها برائتها حتى قيل والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة اليقين والتقرير وتقديم
المفعول على الفعل لافادة القصر ولمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ اولئك
المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب في اصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم
اي احياؤهم من القبور كَأَنْ اي كانهم لَمْ يَلْبَثُوا اي مشبهين بمن لم يلبث إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
اي شيئاً قليلاً والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور استقلوا المدة الطويلة اما لانهم
ضيعوا اعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم او استقصروها للدهش والحيرة او لطول وقوفهم
في الحشر او لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكانها لم تكن ومثل هذا قولهم لبثنا يوماً
او بعض يوم او لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الاخرة قليل جداً والمقصود من هذا
التشبيه كما قاله ابو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل
واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم له بقولهم ءاذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءانا لمبعوثون
ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم
التبدل والتغير والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان
ساعاته اعرف حالا من ساعات الليل يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ اي يعرف بعضهم بعضاً كانهم لم
يتفارقوا الا قليلا بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع اي في ابتدائه وينقطع
في اثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين ايديهم من الامور المدهشة
للعقول المذهلة للافهام واما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه وهذا الحل
وجهين في المقام ذكره البيضاوي وابو البقاء وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث
من القبور وجرى على هذا ابو السعود والخازن والقرطبي وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ و
التقريع يقول بعضهم لبعض انت اضللتني واغويتني لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ولا يسأل حميم
حميما وقوله فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فيجمع بان المراد بالتعارف هو تعارف
التوبيخ وعليه يحمل قوله ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول وقوله

تعالى كلما دخلت امة الآية وقوله ربنا انا اطعنا سادتنا الآية قال القرطبي وهو الصحيح وقد جمع
بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بان المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف
ما لا يكون في الآخر قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله هذا التسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران
والتعجيب منه ولذا اتى بحرف التحقيق والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء اي من باع
الآخرة الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي والجملة مستأنفة او في محل
نصب باضمار قول اي قائلين قد خسر وما كانوا مهتدين نفى عنهم ان يكونوا من جنس المهتدين
لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم واما نرينك بعض الذي نعدهم اصله
ان نرينك وما مزيدة لتاكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التاكيد خلافا لسيبويه والمعنى ان
حصلت منا الاراءة لك بعض الذي وعدناهم من اظهار دينك في حياتك بقتلهم واسرهم
وجواب الشرط محذوف والتقدير فتراه او فذاك هو المراد او نتوفينك المعنى او لا نرينك ذلك
في حياتك بل نتوفينك قبل ذلك فالينا مرجعهم فعند ذلك نعذبهم في الآخرة فنريك عذابهم
فيها والتقدير او نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة وقيل انه جواب للشرط وما
عطف عليه اذ معناه صالح لذلك والى هذا ذهب الحوفي وابن عطية وقيل انه جواب لقوله
او نتوفينك وجواب الاول محذوف لدلالته على ما هو المراد من اراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم
في الآخرة وقيل العدول في الموضعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة والاصل اريناك
او توفيناك وفيه نظر فان اراءته صلى الله عليه وسلم لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن
قد وقعت كالوفاة وحاصل معنى هذه الآية ان لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا وقد
اراه الله سبحانه قتلهم واسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما اصابهم به في
يوم بدر ثم بعد ذلك من المواطن فلله الحمد ثم الله شهيد على ما يفعلون من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم
اشد العذاب وجاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه في الدارين
للدلالة على ان المراد بهذا الافعال ما يترتب عليها من الجزاء او ما يحصل من انطاق الجوارح
بالشهادة عليهم يوم القيامة فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري وقال
السمين ثم هنا ليست للترتيب الزماني بل هي لترتيب الاخبار لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد

حالهم ثم هو كريم وقال الزمخشري ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب كأنه
قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وفيه وعيد لهم وتهديد شديد ﴿ولكل أمة﴾ من الامم
الخالية في وقت من الاوقات ﴿رسول﴾ يرسله الله اليهم يبين لهم ما شرعه الله لهم من الاحكام
على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ اليهم وبلغهم ما ارسله الله به فكذبوه
جميعا ﴿قضي بينهم﴾ اي بين الامة ورسولها ﴿بالقسط﴾ اي العدل فنجي الرسول وهلك المكذبون
له فيكون ما يعذبون به في الآخرة عدلا لا ظلما كما قال سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولا وقوله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
ويجوز ان يراد بالضمير في بينهم الامة على تقدير انه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر
فيهلك المكذبون وينجو المصدقون وقيل وقت هذا القضاء في الآخرة والاول اولى ﴿وهم لا
يظلمون﴾ في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ومنه قوله تعالى
وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم وقوله فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد والمراد
المبالغة في اظهار العدل والنصفة بين العباد ثم ذكر سبحانه شبهة اخرى من شبه الكفار
وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما اهددهم بنزول العذاب كانوا يقولون ﴿متى هذا الوعد﴾
والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد والقدح في النبوة لا لطلب التعيين وقت مجيئه على
وجه الالزام كما في سورة الملك فان المطلوب هنالك تعيين الوقت ﴿ان كنتم صادقين﴾ خطابا
منهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ويحتمل ان يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الامم الذين لم يسلموا
لرسلهم الذين ارسلهم الله اليهم ثم امر الله سبحانه رسوله ان يجيب عليهم بما يحسم مادة
الشبهة ويقطع اللجاج فقال ﴿قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا﴾ اي لا اقدر على جلب نفع لها
ولا دفع ضر عنها فكيف اقدر على ان املك ذلك لغيري وقدم الضر لان السياق لاظهار العجز
عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه والاستثناء في قوله ﴿الا ما شاء الله﴾ منقطع
كما ذكره ائمة التفسير وبه قال الزمخشري اي ولكن ما شاء الله من ذلك كان فكيف اقدر على
ان املك لنفسي ضرا ونفعا وقيل متصل تقديره الا ما شاء الله ان املكه واقدر عليه والاول
اولى وفي هذا اعظم واعظ وابلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه وكذلك من صار يطلب
من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله الا الله سبحانه فان هذا مقام رب العالمين الذي
خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم واحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء
او ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب
لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرزاق المعطي المانع وحسبك بما في هذه الآية موعظة فان
هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا فكيف
يملكه لغيره وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه فضلا
عن ان يملكه لغيره فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق
الثرى ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل كيف لا يتيقظون لما وقعوا
فيه من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا اله الا الله ومدلول قل هو الله احد
واعجب من هذا اطلاع اهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين
الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو اشد منها فان اولئك يعترفون بان الله سبحانه هو
الخالق الرزاق المحيي المميت الضار النافع وانما يجعلون اصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم
اليه وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي
الجلال وكفاك من شر سماعه والله ناصر دينه ومظهر شريعته من اوضار الشرك وادناس
الكفر ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من
كفر كثير من هذه الامة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا انا لله وانا اليه راجعون
ثم بين سبحانه ان لكل طائفة مدة محدودة لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال
لِكُلِّ أُمَّةٍ ممن قضى بينهم وبين رسولهم او بين بعضهم البعض أَجَلٌ اي وقت خاص ومدة
مضروبة يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر وعلى آخر جزء منه
والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ اي اجل كل امة قال ابو السعود
ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان اريد به ما امتد
من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ عن ذلك

الاجل المعين ساعة اي شيئا قليلا من الزمان ولا يستقدمون منه ومثله قوله تعالى ما
سبق من امة اجلها وما يستاخرون والسين زائدة فيهما والكلام على هذه الآية المذكورة
هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في اول الاعراف فلا نعيده قل أرأيتم إن أتاكم عذابه
هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول اي اخبروني
عن عذاب الله ان اتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل اذ
العذاب كله مر المذاق موجب لنفار الطبع منه فتكون جملة الاستفهام او جاءت على سبيل
التلطف بهم والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل او جاءت على سبيل التعجب و
التهويل للعذاب اي اي شيء شديد تستعجلون منه اي ما اشده وما اهول ما تستعجلون
من العذاب قاله ابو حيان بياتا اي وقت بيات والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه
ينامون ويغفلون عن التحرز والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم
وكذلك قوله او نهارا اي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب والاستفهام في قوله ماذا
يستعجل منه المجرمون للانكار المتضمن للنفي كما في قوله اتى امر الله فلا تستعجلوه ووجه الانكار
عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتاباه الطبائع فما المقتضي لاستعجالهم و
ضمير منه راجع الى العذاب وقيل الى الله والمعنى تندموا على الاستعجال وتعرفوا الخطأ منكم
فيه وقيل المعنى ان اتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان والاول اولى
ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان
يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فزعا من مجيئه وان ابطأ فكيف يستعجله قاله الحفناوي
ودخول الهمزة الاستفهامية في أثم إذا ما وقع آمنتم به للانكار لايمانهم حيث لا ينفع الايمان و
ذلك بعد نزول العذاب وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتقطيع ما فعلوه في غير وقته
مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع وهذه الجملة داخلة تحت القول المامور به
وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد وجيء باذا مع زيادة ما للتاكيد دلالة على تحقق
وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك زيادة استجهال لهم والمعنى ابعد ما وقع عذاب الله
عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الايمان شيئا ولا يدفع عنكم ضرا وقيل ان هذه الجملة

ليست داخلة تحت القول المامور به وانها من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم والاول
اولى وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هناك والاول اولى آلآن بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية
همزة ال المعرفة واذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية احد امرين تسهيلها من غير الف بينها
وبين الاولى وابدالها مدا بقدر ثلاث الفات وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل
ستة مواضع اثنان في الانعام وهما الذكرين مرتين وثلاثة في هذه السورة لفظ الآن هنا
وفيما سياتي ولفظ آلله اذن لكم وواحد في النمل آلله خير فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق
الهمزتين بل يجب احد الامرين اللذين قد عرفتهما قيل هو استيناف بتقدير القول غير داخل
تحت القول الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم اي قيل لهم
عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به والحال انكم قد كنتم به اي العذاب
تستعجلون يعني تكذبون لان استعجالهم كان على جهة التكذيب والانكار قال الزمخشري
تجعله من باب الكناية ويكون المقصود بامره صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم هذا القول توبيخهم
والازراء عليهم ثم قيل للذين ظلموا انفسهم بالكفر وعدم الايمان ان هذا الذي تطلبونه
ضرر محض خال عن النفع من كل وجه والعاقل لا يطلب ذلك وهو استيناف اخبار عما يقال
لهم يوم القيامة على سبيل الاهانة ذوقوا عذاب الخلد اي العذاب الدائم الذي لا ينقطع
والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم ولا يبعد ان يكون القائل لذلك هم الانبياء
على الخصوص او المؤمنون على العموم هل تجزون الا بما كنتم تكسبون في الحياة الدنيا من
الكفر والمعاصي والاعمال والاستفهام للتقرير والاستثناء مفرغ وكانه يقال لهم هذا القول عند
استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة بهم ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة
والجوابات عن اقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة اخرى عن تحقق العذاب فقال ويستنبئونك
اي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار احق هو اي ما تعدنا به من العذاب
في العاجل والآجل وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض فقد تقدم
ذكره عنهم مع الجواب عليه فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال
له وقيل المراد به الاستخبار منهم عن حقيقة القرآن قل اي امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم

ان يقول لهم في جواب استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء اي قل لهم يا محمد غير
ملتفت الى ما هو مقصودهم من الاستهزاء إِي أي نعم وربي إنه اي ان ما اعدكم به من العذاب
لحق ثابت كائن لا محالة وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه الاول القسم مع دخول الحرف الخاص
بالقسم الواقع موقع نعم الثاني دخول ان المؤكدة الثالث اللام في لحق الرابع اسمية الجملة وذلك
يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية ثم توعدهم بأشد
توعد ورهبهم باعظم ترهيب فقال وما أنتم بمعجزين اي فائتين العذاب بالهرب والتحيل
الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئا بل هو مدرككم لا بد وهذه الجملة معطوفة
على جملة جواب القسم او مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه ثم زاد
في التأكيد فقال ولو امتناعية على ما هو الكثير فيها أن لكل نفس من الانفس المتصفة بانها
ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به ما في الأرض من كل شيء من الاشياء التي تشتمل
عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة لافتدت به اي جعلته فدية لها من العذاب
يوم القيامة لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها ومثله قوله تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم
كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به ويجوز ان يكون الافتداء متعديا
وان يكون قاصرا فاذا كان مطاوعا للمتعدي كان قاصرا تقول فديته فافتدى وان لم يكن
مطاوعا يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعديا فمفعوله
محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن
نفسها وأسروا الندامة الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم وقيل راجع الى
الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم ومعنى اسروا اخفوا
اي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل اخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب
عقولهم وذهب بتجلدهم ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية
التي كانوا عليها في الدنيا فاسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون وقيل اسرها الرؤساء
فيما بينهم دون اتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين اضلوهم وحالوا بينهم وبين
الاسلام وقيل معنى اسروا اظهروا لان اسر من الاضداد ومعنى الاول هو المشهور في اللغة

وهو في الآية يحتمل الوجهين وقيل معناه بدت بالحسرة في قلوبهم لان الندامة لا يمكن اظهارها
وذكر المبرد في ذلك وجهين الاول انها بدت في وجوههم اسرة الندامة وهي الانكسار وا
سرار وجمعها اسارير والثاني ما تقدم وقيل معنى اسروا الندامة اخلصوها لان اخفاء الشيء اخلاصه
قيل انه ماض على بابه قد وقع وقيل بل هو بمعنى المستقبل لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ اي وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعاينته ولما بعد الدخول فيه
فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ اي العدل مستأنفة وهو
الظاهر او معطوفة على راوا اي قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين او بين الرؤساء و
الاتباع او بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل وقيل معنى القضاء بينهم انزال
العقوبة عليهم وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ اي لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم فانه
بسبب ما كسبوا وجملة أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مسوقة لتقرير كمال قدرته لان من
ملك ما في السموات والارض يتصرف به كيف يشاء وطلب غير العقلاء لانهم الاكثر المخلوقات
قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الارض لو كان لهم ذلك بين ان الاشياء كلها لله و
ليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به وقيل لما اقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم اراد
ان يصحب في ذلك بدليل البرهان البين بان ما في العالم على اختلاف انواعه ملكه يتصرف
به كيف يشاء وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه الغافلين وايقاظ الذاهلين ثم اكد ما سبق
بقوله أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ اي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب
اندراجا اوليا وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين
وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
اي اكثر الناس وهم الكفار لَا يَعْلَمُونَ ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه
لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ اي يهب الحياة ويسلبها وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ في الدار الآخرة فيجازي كلا بما يستحقه ويتفضل على من يشاء من عباده يَا أَيُّهَا النَّاسُ
قيل المراد قريش وقيل هو على العموم وهو الاولى واختاره الطبري وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم
بعد تهديدهم من غوائل الضلال وشروع في بيان اداء الرسالة بعد بيان حال الاحتجاج بذلك

شيأ قد جَاءتكُمْ مَوْعِظَةٌ يعني القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل
هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب او الترهيب والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما
يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب مِنْ
رَبِّكُمْ من لابتداء الغاية وهو مجاز او للتبعيض اي موعظة كائنة من مواعظ ربكم وَشِفَاءٌ لِمَا فِي
الصُّدُورِ من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة
واشتماله على تزييف العقائد الباطلة عن ابي سعيد الخدري قال جاء رجل الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال اني اشتكي صدري فقال اقرأ القرآن يقول الله شفاء لما في الصدور واخرجه
ابن المنذر وابن مردويه واخرج البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع ان رجلا
شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء
لما في الصدور والعسل شفاء من كل داء مصدر والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفا مبالغة
او هو اسم لما يشفى به اي يتداوى فهو كالدواء لما يداوى به وانما خص الصدر بالذكر لانه
موضع القلب وغلافه وهو اعز موضع في بدن الانسان لمكان القلب فيه وداء الجهل اضر
للقلب من داء المرض للبدن والقرآن مزيل لامراض القلب كلها وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
بلغا هو من الضلال نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات والهدى الارشاد لمن اتبع القرآن
وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز
من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من اراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل
على هذه الامور جامع لهذه الاشياء كلها قال الكرخي والحاصل ان الموعظة اشارة الى
تطهير ظاهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة
والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة
والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة
فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما
تقدم ذكره انتهى ثم امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم
فقال قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ المراد بالفضل من الله سبحانه هو تفضله على عباده من الاجل

والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة رحمة لهم وروي عن ابن عباس انه قال فضل الله القرآن
ورحمته الاسلام وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة ان فضل الله الايمان ورحمته
القرآن وعن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من اهله
رواه ابو الشيخ وابن مردويه وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة
والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولا اوليا وتكرير الباء
في برحمته للدلالة على ان كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح واصل الكلام قل
بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله فبذلك فليفرحوا
وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب
وتقديم الظرف على الفعل لافادة الحصر والتكرير للتاكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل
والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين اوجه ذكرها في الجمل
وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وجوزه في قوله فرحين
بما آتاهم الله من فضله وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاءتكم موعظة بفضل الله ورحمته
فبذلك اي فبمجيئهما فليفرحوا هو خير اي ان هذا خير لهم مما يجمعون من حطام الدنيا و
لذاتها الفانية قرئ بالياء والتاء وهما سبعيتان ثم امر سبحانه بقوله قل ارأيتم ما انزل
الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا الى طريق اخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة
وتقرير ذلك ما حاصله انكم حكمتم بتحليل البعض وتحريم البعض فان كان بمجرد التشهي والهوى
فهو مذموم باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم وان كان لاعتقادكم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم
فلا تعرفون ذلك الا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام الا من جهة
الرسل الذين يرسلهم الله الى عباده والمعنى اخبروني الذي انزل الله اليكم من رزق اي زرع
وضرع وغيرهما فجعلتم بعضه حراما كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالا كالميتة وذلك كما
كانوا يفعلونه في الانعام والحرث حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب
العزيز وقيل ما استفهامية واليه ذهب الحوفي والزمخشري والظاهر انها موصولة كما تقدم وان
فيه ابقاء ارأيت على بابها ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو وقال الزجاج

انزل بمعنى خلق كما قال وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وانزلنا الحديد فيه بأس شديد
قل آلله اذن لكم في هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار ام على الله تفترون ام منقطعة بمعنى
بل كما في الكشاف والظاهر انها متصلة كما قال السعد قسيا اي الله اذن لكم ام تكذبون على الله
في نسبة الاذن اليه قال الكرخي وكفى به زاجرا لمن افتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان
انتهى واظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء قلت وفي هذه الآية
الشريفة ما يصك مسامع المتصدين للافتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز
وعدمه مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي وما مبلغهم
من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الامة قد قلدوه في دينهم وجعلوه شارعا مستقلا
ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه او بلغه ولم يفهمه حق
فهمه او فهمه واخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه
عن العباد مع كون من قلدوه متعبدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوما عليه بها
كما هم محكوم عليهم بها وقد اجتهد رأيه وادّى ما عليه وفاز باجرين مع الاصابة واجر
مع الخطأ انما الشأن في جعلهم لرأيه الذي اخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلا معمولا به وقد
اخطأوا في هذا خطأ بينا وغلطوا غلطا فاحشا فان الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه
وحده ولا قائل من اهل الاسلام المعتد باقوالهم انه يجوز لغيره ان يعمل به تقليدا له واقتداء به
وما جاء به المقلدة في تقويم هذا الباطل فهو من الجهل العاطل اللهم كما رزقتنا من العلم ما
نميز به بين الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير
قال النسفي الآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه
وان لا يقول احد في شيء جائز او غير جائز الا بعد ايقان واتقان والا فهو مفتر على الديان ثم قال
وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة اي اي شيء ظنهم في هذا اليوم وما يصنع
بهم فيه اي لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة
للتقليل والوعيد الشديد داخلة تحت القول الذي امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم بل
[illegible] مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله وذكر الكذب بعد الافتراء مع ان الافتراء

لا يكون الا لذي الزيادة العاكفين إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ يتفضل عليهم بانواع النعيم
في الدنيا والاخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وابقاء الكتاب و
السنة الى اخر الدهر والزمان وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ الله على نعمه الواصلة اليهم منه سبحانه ع
في كل وقت من الاوقات وطرفة من الطرفات ولا يصرفون مشاعرهم الى ما خلقت له
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما نافية والشان الامر بمعنى القصد وجمعه
شؤون قال الاخفش تقول العرب ما شأنت شأنه اي ما عملت عمله وما قصدت قصده فهو
مصدر بمعنى المفعول وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ قال الفراء والزجاج الضمير يعود على الشان والجار
والمجرور صفة لمصدر محذوف اي تلاوة كائنة منه اذ التلاوة للقران من اعظم شؤونه صلى الله
عليه وسلم والمعنى انه يتلو من اجل الشان الذي حدث القران فيعلم كيف حكمه او يتلو القران الذي
يتنزل في ذلك الشان وقال ابن جرير الطبري الضمير في منه عائد الى الكتاب اي ما يكون من
كتاب الله من قران واعاده تفخيما له لقوله اني انا الله وقيل ما تتلو من الله من قران نازل عليك
فمن الثانية زائدة والاولى اما تعليلية او ابتدائية بحسب الوجهين المتقدمين والخطاب في
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ لرسول الله وللامة وقيل الخطاب لكفار قريش إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا استثناء
مفرغ من اعم الاحوال المخاطبين بالافعال الثلثة اي في حال كوننا شهودا عليكم رقباء مطلعين
عليه حافظين له يقال شهدت على الشيء اطلعت عليه فانا شاهد وشهيد والجمع اشهاد وشهود
والضمير في إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ عائد على العمل يقال فاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه
وقال الضحاك الضمير في فيه عائد على القران والمعنى اذ تشيعون في القران الكذب والافاضة
الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه قال ابن الانباري اذ تندفعون فيه
وتنبسطون في ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنتشرون فيه وقيل تخوضون فيه
وقيل تاخذون اي تشرعون فيه والمعاني متقاربة وَمَا يَعْزُبُ اي يغيب ويخفى وقيل يبعد وقال
ابن كيسان يذهب وهذه المعاني متقاربة قرئ بضم الزاي وبكسرها سبعيتان وهما لغتان فصيحتان
مِن رَّبِّكَ اي عن علمه ومن في مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ زائدة للتاكيد اي وزن ذرة اي نملة حمراء وهي
خفيفة الوزن جدا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ اي في دائرة الوجود والامكان ولانها صنفهما

مع انه سبحانه لا يغيب عنه شيء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما الا ان الناس لا يشاهدون سواهما
وسوى ما فيهما من المخلوقات وقدم الارض على السماء لانها محل استقرار العالم فهم يشاهدون
ما فيها من قرب «ولا اصغر من ذلك» اي من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية
للجنس «ولا اكبر منها الا وهو في كتاب مبين» فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذي عند الله
يعني اللوح المحفوظ قاله السدي وقد اورد على توجيه النصب والرفع في اصغر واكبر على العطف
على لفظ مثقال او محله او على لفظ ذرة اشكال وهو انه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في
الارض ولا في السماء الا في كتاب ويلزم منه ان يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجا
عن علم الله وهو محال وقد اجيب عن هذا الاشكال بان الاشياء المخلوقة قسمان قسم اوجده الله ابتداء
من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والارض وقسم آخر اوجده بواسطة القسم الاول من
حوادث عالم الكون والفساد ولا شك ان هذا القسم الثاني متباعد في السلسلة العلية عن مرتبة
الاول فالمراد من الآية انه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الارض ولا في السماء الا وهو في
كتاب مبين اثبت فيه صورة تلك المعلومات والغرض الرد على من يزعم انه غير عالم بالجزئيات و
اجيب ايضا بان الاستثناء منقطع اي لكن هو في كتاب مبين وذكر ابو علي الجرجاني ان الا بمعنى
الواو اي وهو ايضا في كتاب مبين والعرب قد تضع الا موضع الواو ومنه قوله تعالى اني لا يخاف لدي
المرسلون الا من ظلم يعني ومن ظلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا اي والذين
ظلموا وقد رد هو بعد الواو التي جاءت الا بمعناها كما في قوله وقولوا حطة اي هي حطة قال الكرخي
وهذا الوجه فيه تعسف ومثله قوله ولا تقولوا ثلاثة وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة
في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وجوز الكواشي كونه متصلا مستثنى من يعزب على
ان معناه يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عن الله شيء بعد خلقه له الا وهو في كتاب قال الحلبي
فقد حاول الرازي جعله متصلا بعبارة طويلة وحصلها انه جعله استثناء مفرغا وهو حال من
اصغر واكبر وهو في قوة المتصل ولا يقال فيه متصل ولا منقطع ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع
الاشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين
فقال «الا ان اولياء الله لا خوف عليهم» الولي في اللغة ضد العدو وفيه المحبة وعدم المباعدة

طاعتهم له ومحبته لهم اكرامه اياهم كما في شرح الكشاف وعلى الاول يكون فعيل بمعنى فاعل
وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما قاله الشهاب وفي تركيب الواو واللام والياء يدل على
معنى القرب فولي كل شيء هو الذي يكون قريبا منه والمراد بالاولياء خلص المؤمنين كانهم قربوا
من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته والمراد بنفي الخوف عنهم انهم لا يخافون ابدا كما
يخاف غيرهم لانهم قد قاموا بما اوجب الله عليهم وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها فهم على
ثقة من انفسهم وحسن ظن بربهم وكذلك ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوت مطلب من المطالب لانهم
يعلمون ان ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر
فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة وقد فسر سبحانه هؤلاء الاولياء بقوله
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اي يؤمنون بما يجب الايمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من
معاصي الله سبحانه وعن سعيد بن جبير قال هم الذين اذا رأوا ذكر الله وعن ابن عباس قال
اذا رأوا يذكر الله لرؤيتهم وقال قوم هم المتحابون في الله وقال ابو حنيفة والشافعي اذا لم تكن العلماء
اولياء الله فليس لله ولي قال النووي وذلك في العالم العامل بعلمه وقد اكثر اهل العلم من المتكلمين و
الصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه واطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه وهذه الآية
تغني عنها فانه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل والحاصل ان ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد
الصحيح المبني على الدليل وبالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة لان الايمان مبني على
العقيدة والعمل ومقام التقوى هو ان يتقي العبد كل ما نهى الله عنه قال ابو السعود والجملة في جواب
سؤال كانه قيل من اولئك وما سبب تلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى انتهى
وعن عمرو بن الجموح انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض
لله فاذا احب لله وابغض لله فقد استحق الولاية من الله وان اوليائي من عبادي واحبائي من خلقي
الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم اخرجه احمد وغيره واخرج احمد عن عبد الرحمن بن غنم
يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم خيار عباد الله الذين اذا رأوا ذكر الله وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة
المفرقون بين الاحبة الباغون للبراء العنت وعن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله اخرجه الحكيم الترمذي

وعن ابن عمر مرفوعاً ان لله عباداً ليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء
يوم القيمة بقربهم ومجلسهم منه فجثى اعرابي على ركبتيه فقال يا رسول الله صفهم لنا حلّهم لنا
قال قوم من افناء الناس من نزاع القبائل تصادقوا في الله وتحابوا في الله يضع الله لهم يوم القيمة
منابر من نور فيجلسهم عليها قد فزع الناس ولا يفزعون هم اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
اخرجه الحاكم وصححه واخرج ابو داود وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر
بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه قال ابن كثير واسناده جيد وروي بطرق
عن جماعة من الصحابة وقد ورد في فضل المتحابين في الله احاديث ليس فيها انهم المرادون
بالاية لَهُمُ الْبُشْرٰى فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ تفسير لمعنى كونهم اولياء الله اي لهم البشرى من
الله ما داموا في الحياة بما يوحيه الى انبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده ادخالهم
الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القران الكريم وكذلك ما يحصل
لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم وما يشاهدونه من التبشير لهم عند
حضور اجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة قال الزهري وقتادة
واما البشرى في الاخرة فتلقي الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب والبشرى مصدر
اريد به المبشر به والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الاخرة واخرج احمد والترمذي وحسنه
وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من اهل مصر قال سألت ابا الدرداء عن معنى قوله لهم البشرى فقال
ما سألني عنها احد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما سألني عنها احد غيرك منذ انزلت
علي هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم او ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الاخرة الجنة وفي اسناده
هذا الرجل المجهول وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً مثله عند احمد والدارمي والترمذي وابن ماجة
واخرج احمد والبيهقي عن ابن عمرو مرفوعاً قال الرؤيا الصالحة بشرى من الله وهي جزء من ستة واربعين
جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث وفي الباب احاديث وقد وردت احاديث صحيحة
بان الرؤيا الصالحة من المبشرات وانها جزء من اجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الاية
وقد روي عن ابن عباس ان المراد بالبشرى في الاية هي قوله وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلاً كبيراً
وغيرها نحو قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي

الآخرة الجنة وعن أبي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده
الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال أهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة
في الآخرة وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء الله عنه وقيل غير ذلك واللفظ أوسع من ذلك
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ أي لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده
الصالحين دخولاً أولياً ذَلِكَ أي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند
من يجوزه وفائدتهما تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه والأولى اعتراضية والثانية تذييلية
وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ نهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح
في دينه والمقصود تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالهم
الموحشة وتبشير له بأنه تعالى ينصره ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسوله صلى الله عليه وسلم معللاً لما ذكره
من النهي فقال إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه ليست لأحد من
عباده وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون
من الغلبة شيئاً ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين لأن كل عزة بالله
فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله وعلى أيدي المؤمنين تكريماً وتعظيماً لهم ومنه قوله
كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنا لننصر رسلنا هُوَ السَّمِيعُ لما يقولون الْعَلِيمُ بما يدبرون ويعزمون
عليه وهو مكافئهم بذلك أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ومن جملتهم هؤلاء
المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء فكيف يستطيعون
أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يأذن الله به وألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد فيهما
إلا لله عز وجل فهو يملك ما فيهما وقال في الآية الأولى ما وفي هذه من فمجموعهما دل على أن الله يملك
جميع كل شيء فيهما من العقلاء وغيرهم وغلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف وفي الآية نعي على عباد
البشر والملائكة والجمادات لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك مخالف لموجب العقل ولهذا عقبه
بقوله وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا
يكون مفعول يدعون محذوفاً والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في

الحقيقة انما هي اسماء لا مسميات لها فحذف احدهما لدلالة المذكور عليه ويجوز ان يكون
المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه يعني انهم وان سموا معبوداتهم
شركاء الله فليست شركاء له على الحقيقة لاستحالة ذلك لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل ما استفهامية اي
اي شيء يتبع الذين يدعون وعلى هذا شركاء منصوب بيدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ
لهم والازراء عليهم وقيل موصولة والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات
ومن في الارض ثم زاد سبحانه في تاكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
اي ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنا ويظنون انهم آلهة تشفع لهم وان الظن لا يغني من الحق شيئا
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ اصل معنى الخرص الحزر بتقدير الزاء على الرائي التخمين والتقدير ويستعمل
بمعنى الكذب لغلبته في مثله والاسم الخرص بالكسر اي يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا
وقد تقدمت هذه الآية في الانعام ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده
ببعض نعمه فقال هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا الجعل ان كان بمعنى
الابداع والخلق فمبصرا حال وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثاني اي جعل لعباده الزمان منقسما
الى قسمين احدهما مظلم وهو الليل لاجل ان يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون انفسهم
عن الكد والكسب والآخر مبصر لاجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ويحصلون
ما يحتاجون اليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير وجعله سبحانه للنهار مبصرا
مجاز والمعنى انه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب تقول العرب اظلم الليل وابصر النهار بمعنى
صار ذا ظلمة وذا ضياء وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما اثبته او مقابله في الآخر
فحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه وهذا افصح الكلام إِنَّ فِي
ذَلِكَ الجعل المذكور لَآيَاتٍ عجيبة كثيرة لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة
على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه ههنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم
لذلك يتفكرون ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الاشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية
في الوجود فيكون ذلك من اعظم اسباب الايمان قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا هذا نوع آخر من اباطيل
المشركين او اهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بان الله سبحانه اتخذ وتبنى ولدا

ثم رد ذلك عليهم بقوله سبحانه فتنزه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين كلمتهم
الحمقاء وبين انه هو الغني عن ذلك فان الولد انما يطلب لاجل الحاجة والغني المطلق لا حاجة
له حتى يكون له ولد يقضيها واذا انتفت الحاجة انتفى الولد وايضا انما يحتاج الى الولد من يكون بصدد
الانقراض ليقوم الولد مقامه والازلي القديم لا يفتقر الى ذلك وقد تقدم تفسير الاية في البقرة
ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال له ما في السموات وما في الارض وانما
كان الكل له وفي ملكه فلا يصح ان يكون شيء مما فيهما ولدا له للمنافاة بين الملك والبنوة و
الابوة ثم زيف دعواهم الباطلة وبين انها بلا دليل فقال ان اي ما عندكم من سلطان حجة وبرهان
بهذا القول الذي تقولونه ومن زائدة للتاكيد ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل
عند العقلاء فقال اتقولون على الله ما لا تعلمون استفهام توبيخ ويستفاد من هذا ان كل قول لا دليل
عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض ثم امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم قولا يدل
على ان ما قالوه كذب وان من كذب على الله لا يفلح فقال قل ان الذين يفترون على الله الكذب
لا يفلحون اي كل مفتر هذا شانه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولا اوليا وذكر الكذب مع الافتراء
للتاكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى ان هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون
بمطلب من المطالب ولا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة ثم بين سبحانه
ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل في الدنيا ثم
يتعقبه الموت والرجوع الى الله فيعذب المفتري عذابا مؤبدا والجملة مستانفة لبيان ان ما
يحصل للمفتري بافترائه وما يتراءى فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل
ان يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه الموت والعذاب
الشديد بسبب الكفر الحاصل باسباب من جملتها الكذب على الله وليس بنافع في الاخرة وقال الاخفش ان
التقدير لهم متاع في الدنيا وقال الكسائي ذلك متاع او هو متاع ثم الينا مرجعهم
بعد الموت ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا اي بسبب ما كانوا يكفرون اي يجحدون في
الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة
ودفع الشبه الظاهرة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع اممهم لما في ذلك من التسلية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأسوة بمن سلف من الأنبياء ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم
كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال واتل
عليهم أي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة نبأ نوح أي خبره
والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما
فعله كفار قريش وأمثالهم إذ أي وقت أن قال لقومه اللام لام التبليغ يا قوم إن كان كبر أي
عظم وثقل عليكم مقامي من باب الإسناد المجازي كقولهم ثقل علي ظله والمقام بفتح الميم الموضع
الذي يقام فيه وبالضم مكان الإقامة أو الإقامة نفسها وقد اتفق القراء هنا على الفتح وقرأ أبو رجاء
وأبو مجلز وابن الجوزاء بالضم قال ابن عطية ولم يقرأ هنا بالضم وكأنه لم يطلع على قراءة هؤلاء وكنى
بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان أي لأجله ومنه ولمن خاف مقام ربه أي خاف
ربه ويجوز أن يراد بالمقام المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا
خمسين عاماً ويجوز أن يراد بالمقام القيام لأن الواعظ يقوم حال وعظه والمعنى إن كان كبر عليكم
قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم وكبر عليكم تذكيري لكم بآيات الله التكوينية والتنزيلية
فعلى الله توكلت أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى وهذه الجملة جواب الشرط والمعنى أني لا أقابل
ذلك منكم إلا بالتوكل على الله فإن ذلك دأبي الذي أنا عليه قديماً وحديثاً ويجوز أن يريد حدوث
مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ويجوز أن يكون جواب الشرط فأجمعوا كما يأتي قاله الأكثرون
والجملة اعتراض كقولك إن كنت أنكرت علي شيئاً فالله حسبي وثقتي وقيل فأجمعوا أمركم
عطف على الجواب وجزم السفاقسي بأن جوابه محذوف أي فافعلوا ما شئتم والمعنى اعزموا عليه
من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه قاله الفراء وروي عنه أجمع الشيء أعده وقال مؤرج السدوسي
أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله جميعاً بعد ما كان متفرقاً وتفرقه أن يقول مرة
افعل كذا ومرة افعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً فهذا هو الأصل في
الإجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم يقال أجمع في المعاني وجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان
الآخر وفي التنزيل فجمع كيده قال ابن الأنباري المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا
من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه وشركاءكم أي ادعوا شركاءكم لنصرتكم قاله الكسائي والفراء. قال

الزجاج والفراء هي والمعنى مع شركائكم ولم يذكر الزمخشري غير هذا وقيل اجمعوا شركاءكم وفي مصحف
ابي وادعوا شركاءكم قال النحاس وغيره وقراءة الرفع بعيدة وقال المهدوي يجوز رفع الشركاء بالابتداء
والخبر محذوف اي وشركاؤكم ليجمعوا امرهم ونسبة ذلك الى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد
التوبيخ والتقريع لمن عبدها ثم لا يكن امركم عليكم غمة اي خفيا والغمة التغطية من قولهم غم الهلال
اذا استتر اي ليكن امركم ظاهرا منكشفا قاله الزجاج وقال الهيثم معناه لا يكن امركم مبهما وقيل ان الغمة
ضيق الامر كما روي عن ابي عبيدة والمعنى لا يكن امركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقا شديدا
بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه وعلى الوجهين الاولين يكون المراد بالامر الثاني
هو الامر الاول وعلى الثالث يكون المراد غيره وانما نسب عدم الستر الذي هو عدم الغمة الى الامر
مبالغة ثم اقضوا الي ذلك الامر الذي تريدونه بي واصل اقضوا من القضاء وهو الاحكام والمعنى
احكموا ذلك الامر قال الاخفش والكسائي هو مثل وقضينا اليه ذلك الامر اي انهيناه اليه وابلغناه
اياه وقيل معناه ثم امضوا الي قال النحاس هذا قول صحيح في اللغة ومنه قضى الميت مضى وعن بعض القراء
ثم افضوا بالفاء اي توجهوا ولا تنظرون اي ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني بل عجلوا امركم وانفذوا
واصنعوا ما بدا لكم وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم
مبالاته بما يتوعده به قومه ثم بين لهم ان كل ما اتى به اليهم من الاعذار والانذار وتبليغ الشريعة عن
الله ليس هو لطمع دنيوي ولا لغرض خسيس فقال فان توليتم اي اعرضتم عن العمل بنصحي لكم وتذكيري
اياكم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فما سألتكم في مقابلة ذلك عليه من اجر تؤدونه الي حتى
تتهموني فيما جئت به والفاء جزائية ان اجري اي ما ثوابي في النصح والتذكير الا على الله سبحانه فهو
يثيبني آمنتم او توليتم وامرت ان اكون من المسلمين المنقادين لحكم الله الذين يجعلون اعمالهم
خالصة لله سبحانه لا ياخذون عليها اجرا ولا يطمعون في عاجل او من المستسلمين لكل ما يصيب من
البلاء فكذبوه اي استمروا على تكذيبه واصروا على ذلك وليس المراد احدثوا تكذيبه بعد
ان لم يكن فنجيناه اي نوحا عليه السلام ومن معه اي من قد اجابه وصار على دينه وكانوا
ثمانين اربعين رجلا واربعين امرأة في الفلك اي السفينة والفلك على وزن قفل والجمع على وزن
اسد والمراد هنا المفرد وجعلناهم اي الذين نجيناهم معه في الفلك حملا على معنى من

خلائف جمع خليفة والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الارض التي كانت للمهلكين
بالغرق ويخلفونهم فيها واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا من الكفار المعاندين لنوح الذين
لم يؤمنوا به تأخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى ولما جاء امرنا نجينا
شعيبا الآية لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة
التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين فانظر كيف
كان عاقبة المنذرين من اهلاكهم فكذلك نفعل بمن كذبك فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وتهديد للمشركين وتهويل عليهم ثم بعثنا من بعده اي من بعد نوح عليه السلام رسلا
الى قومهم لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط و
شعيب فجاؤهم بالبينات اي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما ارسلهم الله به
من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي فما كانوا ليؤمنوا اي فما احدثوا الايمان بل استمروا على
الكفر واصروا عليه والمعنى انه ما صح ولا استقام لقوم من اولئك الاقوام الذين ارسل الله اليهم
رسله ان يؤمنوا في وقت من الاوقات بما كذبوا به من قبل اي من قبل تكذيبهم الواقع منهم
عند مجيء الرسل اليهم والمعنى ان كل قوم من الامم لم يؤمنوا عند ان ارسل الله اليهم الرسول المبعوث
اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم لانهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين
بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولا وهذا مبني على ان الضمير في كانوا وكذبوا راجع
الى القوم المذكورين في قوله الى قومهم وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح اي فما كان قوم الرسل
ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل اي في عالم الذر كذلك اي مثل ذلك
الطبع العظيم المحكم نطبع بنون العظمة وقرئ بالياء على ان الضمير لله على قلوب المعتدين اي المجاوزين
الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم
وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم في الغي والضلال وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع ثم بعثنا من
بعدهم اي بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى وهارون وخصهما بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد
شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون الى فرعون وملائه المراد بالملأ الاشراف هكذا قرره بعض
المفسرين وقرر بعضهم ان المراد بالملأ هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام وهو ظاهر صنيع السيوطي والمحلي

بِآيَاتِنَا اي مصحوبين بالمعجزات وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها ولم
يتواضعوا لها ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها والاستكبار ادعاء
الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة وقيل عن الايمان بموسى وهارون والاول اولى وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ اي كانوا ذوي اجرام عظام وآثام كبيرة فبسبب ذلك اجترؤا على ردها لان الذنوب
تحول بين صاحبها وبين ادراك الحق وابصار الصواب قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون
ما قبلها فَلَمَّا جَاءَهُمُ اي فرعون وملأه الْحَقُّ اي المعجزات التسع مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا
لَسِحْرٌ مُبِينٌ اي لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم قَالَ مُوسَى اي جملا ثلاثا الاولى
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ قيل في الكلام حذف والتقدير اتقولون للحق سحر فلا تقولوا ذلك ثم
استأنف انكارا آخر من جهة نفسه فقال أَسِحْرٌ هَذَا وهي الثانية والمجيء الى هذا انهم لم يستفهموا
عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله اسحر هذا بل هم قوم قاطعون بانه سحر لانهم قالوا ان هذا الا سحر
مبين فلا يكون قوله اسحر هذا من قولهم وقال الاخفش هو قولهم وفيه نظر لما قدمنا وقيل معنى
اتقولون اتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم ان تذعنوا له ثم قال اسحر هذا منكرا لما
قالوه والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الاولى المستأنفة والمعنى اتقولون للحق لما جاءكم ان
هذا السحر مبين وهو ابعد شيء من السحر ثم انكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال اسحر هذا فجاء موسى
عليه السلام بانكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل والثالثة وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ
اي والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه فكيف يقع في هذا
من هو مرسل من عند الله وقد ايده بالمعجزات والبراهين الواضحة وحاصل السحر تمويه و
تخييل وصاحب ذلك لا يفلح ابدا قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مستأنفة
قال مجاهد لتلوينا وتصرفنا وقال السدي لتصدنا عن آلهتنا وفي هذا ما يدل على انهم انقطعوا
عن الدليل وعجزوا عن ابراز الحجة ولم يجدوا ما يجيبون به عما اورده عليهم بل لجأوا الى ما
يلجأ اليه اهل الجهل والبلادة وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر وضموا الى ذلك
ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة
الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا انها ستذهب عنهم ان آمنوا وكم بقي على الباطل

وهو ايماء الى انه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه فمنهم
من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ومنهم من حبسه عن الخروج الى السنة من البدعة والى
الرواية الصحيحة من الرأي البحت قال ابو السعود استئناف مسوق لبيان انه عليه السلام القمهم
الحجر فانقطعوا واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند
لدود حانق واللفت والفتل اخوان وكلاهما من باب ضرب يقال لفته لفتا اذا صرفه عن الشيء ولواه
عنه وفي السمين اللفت اللي والصرف يقال لفته عن رأيه اذا صرفه ولواه عنه الى ذات اليمين
او الشمال وقال الازهري لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب قلت ولا يدعى فيه قلب حتى يرجح احد
اللفظين في الاستعمال على الآخر اي تريد ان تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة
الاصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ اي لموسى وهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة والملك
والسلطان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ اي مصر وفيه خمسة اوجه جوزها ابو البقاء احدها ان يكون متعلقا بنفس الكبرياء
الثاني ان يتعلق بنفس تكون الثالث ان يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبرا الرابع ان يكون حالا
من الكبرياء الخامس ان يكون حالا من الضمير في لكما لتحمله اياه قال الزجاج سمي الملك كبرياء لانه
اكبر ما يطلب من امور الدنيا وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر والحاصل انهم عللوا عدم قبولهم
دعوة موسى بامرين التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياسة الدنيوية لانهم اذا اجابوا النبي
وصدقوه صارت مقاليد امر امته اليه ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين
يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ثم قالوا ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ تصريحا منهم بالتكذيب
وقطعا للطمع في ايمانهم وقد افرد الخطاب لموسى في قولهم اجئتنا لتلفتنا ثم جمعه بينه وبين
هارون في الخطابين الاخيرين ووجه ذلك انهم اسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى
موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم وجمعوا بينهما في الضميرين الاخيرين لان
الكبرياء شامل لهما في زعمهم ولكون ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهارون وقد مر القصة
في الاعراف ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لما رأى اليد البيضاء والعصا ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ لانه اعتقد انهما
من السحر فامر قومه بان يأتوا بكل ساحر اراد ان يعارض معجزة موسى بانواع من التلبيس ليظهر ان ما
اتى به موسى سحر وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف وقرئ سحار على صيغة المبالغة اي كثير السحر كثير العلم

بعلمه وانواعه فلما جاء السحرة في الكلام حذف اي فاتوا بهم اليه فلما جاء السحرة قال لهم موسى بعد ان قالوا له اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين القوا ما انتم ملقون اي اطرحوا على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين ان ما اتوا به فاسد زاهق فلما القوا ما القوه من تلك الحبال والعصي قال لهم موسى ما جئتم به ما موصولة مبتدأ والسحر خبره والمعنى حصرًا انه اية من ايات الله كما سماه فرعون وقومه وهو من جنس السحر يريهم ان حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغي ان يجاء به وقرأ السحر على الاستفهام فما استفهامية اي شيء جئتم به أهو السحر الذي يعرف حاله كل احد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما اتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثاني في القرأة المشهورة اظهر واجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية والجزاء ان الله سيبطله على تقدير الفاء اي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلا بما يظهره على يده من الايات والمعجزة فلا يبقى له اثر والسين للتاكيد ان الله لا يصلح عمل المفسدين اي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه انه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا اوليا والجملة تعليل لما قبلها او عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر تسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم ويحق الله الحق اي يبينه ويوضحه بكلماته التي انزلها في كتبه على انبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين او بوعده الصادق لموسى انه يظهره او بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة اوبا وامره واحكامه والاول اولى ولو كره المجرمون من ال فرعون والمجرمون على العموم ويدخل تحتهم ال فرعون دخولا اوليا ع

والاجرام الاثام فما امن لموسى الا ذرية اسم يقع على القليل من القوم وقيل المراد به التصغير وقلة العدد من قومه اي من قوم موسى وهو طائفة من ذراري بني اسرائيل وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائدًا على فرعون قيل ومنهم مؤمن ال فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه وقيل هم قوم اباؤهم من القبط وامهاتهم من بني اسرائيل روى هذا عن الفراء كما يقال الاولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لان امهاتهم من غير جنس الاباء على اي مع خوف من فرعون وملإهم الضمير لفرعون وجمع لانه لما كان جبارًا جمعوا ضميره تعظيمًا له وقيل ان قوم فرعون سموا فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار وقيل انه عائد على مضاف محذوف اي على خوف من ال فرعون روي هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه وروي عن الاخفش ان

الضمير يرجع على الذرية وقوله أن يفتنهم اي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان
ينزله بهم وهو بدل اشتمال او مفعول للمصدر او مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون
وافرد ولم يقل ان يفتنوهم اي فرعون والملأ للدلالة على ان الخوف من الملأ كان بسبب فرعون
وتجبره من حيث استعانتهم به وإن فرعون لعال في الأرض اي عات متكبر متغلب على ارض
مصر اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق وإنه لمن المسرفين في المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله
من القتل والصلب وتنويع العقوبات ولانه كان عبدا فادعى الربوبية وقال موسى يا قوم تطمينا لقلوبهم
وازالة للخوف عنهم سماهم قومه من حيث ايمانهم به لا لانهم من قوم فرعون او المراد به
بنو اسرائيل او مطلق من آمن به ولو من القبط إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين
قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام اي الاستسلام
لقضائه وقدره وبه قال الكرخي وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان
هو وجوب التوكل والمشروط بالاسلام حصوله ووجوده فانه لا يوجد مع التخليط والمعنى ان يسلموا نفوسهم
لله اي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط قال الكازروني
المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه فقالوا اي قوم موسى مجيبين له
على الله توكلنا اي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا ربنا لا تجعلنا فتنة اي موضع
فتنة للقوم الظالمين والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا قاله مجاهد او لا
تجعلنا فتنة لهم يفتتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم
قاله مجاهد ايضا وعلى المعنى الاول تكون الفتنة بمعنى المفتون ولما قدموا التضرع الى الله سبحانه في ان
يصون دينهم عن الفساد اتبعوه بسؤال عصمة انفسهم فقالوا ونجنا برحمتك من القوم الكافرين
اي من ايديهم وفي هذا دليل على انه كان لهم اهتمام بامر الدين فوق اهتمامهم بسلامة انفسهم
وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا قيل هي الاسكندرية وقيل هي مصر
المعروفة لا الاسكندرية وأن هي المفسرة لان في الايحاء معنى القول اي اتخذا لقومكما يقال بوأت زيدا
مكانا وبوأت لزيد مكانا والمبوأ المنزل الملزوم ومنه بوأه الله منزلا اي الزمه اياه واسكنه فيه
ومنه حديث من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار والتبوء النزول والرجوع واللام زائدة

اي بيما قومكما وقيل غير زائدة واجعلوا بيوتكم قبلة اي متوجهة الى جهة القبلة وقال
قتادة ذلك حين منعهم فرعون الصلوة فامروا ان يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها
نحو القبلة وعن مجاهد قال كانوا لا يصلون الا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فامروا ان يصلوا
في بيوتهم وعن ابن عباس نحوه وعلى هذا فالمراد بالبيوت هنا المساجد واليه ذهب جماعة من السلف
وقيل التي يسكنون فيها امروا بان يجعلوها مقابلة بعضها بعضا والمراد بالقبلة على القول
الاول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى
ومن معه قال ابو سنان ان آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة وظاهر القران لا يدل
على تعيينها وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرا لئلا يصيبهم من الكفار
معرة بسبب الصلوة ومما يؤيد هذا قوله واقيموا الصلوة اي التي امركم الله باقامتها فانه يفيد
ان القبلة هي قبلة الصلوة اما في المساجد او في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل امر الله
موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء وتكفل بان يصونهم عن شر الاعداء
ذكره الخطيب وانما جعل الخطاب في اول الكلام مع موسى وهارون ثم جعله لهما ولقومهما
في قوله واجعلوا واقيموا ثم افرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال وبشر المؤمنين اي بالنصر
والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الانبياء ثم جعل عاما في استقبال القبلة واقامة الصلوة
لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصا بموسى لانه الاصل في الرسالة و
هارون تابع له فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها وقيل ان الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا
محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول اولى ولما بالغ موسى عليه السلام في
اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تاثير فيمن ارسل اليهم دعا عليهم بعد ان
بين سبب اصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد قال موسى مبينا للسبب ربنا انك
آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحيوة الدنيا قد تقدم ان الملأ هم الاشراف والزينة اسم
لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك والمال ما زاد على
هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم كرر النداء للتاكيد فقال ربنا ليضلوا عن سبيلك قال الخليل
وسيبويه انها لام العاقبة والصيرورة والمعنى انه لما كان عاقبة امرهم الضلال صار كانه سبحانه

اعطاهم ما اعطاهم من النعم ليضلوا وقيل انها لام كي قاله الفراء اي اعطيتهم لكي يضلوا و
قال قوم ان المعنى اعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال سبحانه يبين الله لكم ان تضلوا قال
النحاس ظاهر هذا الجواب حسن الا ان العرب لا تحذف لا الا مع ان فموه صاحب هذا التاويل
بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم وقيل اللام للدعاء عليهم والمعنى ابتلهم بالضلال عن سبيلك
قاله ابن الانباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا اطمس واشدد واليه ذهب الحسن البصري
وقيل انها لام العلة والمعنى انك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الايتاء لهذه العلة
وقد اطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته والقول الاول هو الاولى وقرئ
ليضلوا بضم الياء اي يوقعوا الاضلال على غيرهم وقرا الباقون بالفتح اي يضلون في انفسهم
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ اي امسخها وازل صورها قال الزجاج طمس الشيء اذهابه عن صورته وازالة
اثر الشيء بالمحو قال مجاهد اهلكها وقال اكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيآتها والمعنى الدعاء
عليهم بان يمحق الله اموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس وقد روي عن قتادة ان اموالهم
وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا
وانصافا واثلاثا قيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فاخرج منها
البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة قال السدي مسخ الله اموالهم حجارة والنخل والثمار
والدقيق والاطعمة وقال القرظي صارت صورهم حجارة وفيه ضعف لان موسى دعا على اموالهم
ولم يدع على انفسهم بالمسخ وهذا الطمس هو احد الآيات التسع التي اوتيها موسى عليه السلام
وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ اي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوعة حتى لا تقبل الحق ولا تنشرح للايمان
ولا تلين قال الواحدي وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر
موسى على هذا السؤال فَلَا يُؤْمِنُوا اي آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا قاله المبرد والزجاج وقال
الفراء والكسائي وابو عبيدة هو دعاء بلفظ النهي والتقدير اللهم فلا يؤمنوا وقال الاخفش انه جواب
الامر اي اطمس واشدد فلا يؤمنوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ اي فلا يحصل منهم الايمان الا مع
المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم قال ابن عباس العذاب هو الغرق وقد
استشكل بعض اهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال ان الرسل انما تطلب هداية

قومهم وايمانهم واجيب بانه لا يجوز لنبي ان يدعو على قومه الا باذن الله سبحانه وانما ياذن الله بذلك لعلمه بانه ليس فيهم من يؤمن ولهذا لما اعلم الله نوحا عليه السلام بانه لن يؤمن من قومه الا من قد امن قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا قَالَ الله تعالى قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا جعل الدعوة ههنا مضافة الى موسى وهارون وفيما تقدم اضافها الى موسى وحده فقيل ان هارون كان يؤمن على دعاء موسى فسمي ههنا داعيا وان كان الداعي موسى وحده ففي اول الكلام اضاف الدعاء الى موسى لكونه الداعي وههنا اضافه اليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعي ويجوز ان يكونا جميعا داعيين ولكن اضاف الدعاء الى موسى في اول الكلام لاصالته في الرسالة قال النحاس سمعت علي بن سليمان يقول الدليل على ان الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب وقرئ دعواتكما ودعوا كما قال ابن عباس فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان ويزعمون ان فرعون مكث بعد هذه الدعوة اربعين سنة لحكمة يعلمها هو وعن ابن جريج ومجاهد نحوه فَاسْتَقِيمَا اي امضيا لامري ودوما على الاستقامة قاله ابن عباس والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء الى الله قال الفراء وغيره امرا بالاستقامة على امرهما والثبات عليه وعلى دعاء فرعون وقومه الى الايمان الى ان ياتيهما تاويل الاجابة اربعين سنة ثم اهلكوا وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضاء والتسليم لما يقضي الله به سبحانه وَلَا تَتَّبِعَانِّ قرئ بتشديد النون للتاكيد وبتخفيفها على النفي لا على النهي او انه نفي في معنى النهي اي لا تسلكا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ حكمة تاخير المطلوب نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في اجراء الامور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتاجيلا وقيل انه خبر محض مستانف لا تعلق له بما قبله والمعنى انهما خبرا بانهما لا يتبعان واما تشديد التاء وتخفيفها فلغتان من اتبع يتبع وتبع يتبع وهما بمعنى واحد يقال تبعه اي مشى خلفه واتبعه كذلك والا انه حاذاه في المشي واتبعه لحقه قال الرازي وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهارون كما ان قوله لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ هو من جاوز المكان اذا خلفه وتخطاه والباء للتعدية اي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط لان الله سبحانه جعل البحر يبسا فمروا فيه حتى خرجوا منه الى البر والمراد به القلزم

وهو بحر السويس وكانوا ستمائة الف قاله الخطيب وفي الخازن قال اهل التفسير اجتمع يعقوب
وبنوه على يوسف وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم
ستمائة الف وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه واذ فرقنا بكم البحر وقرأ الحسن
وتجوزنا وهما لغتان وهو دليل على خلق الافعال فَاَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُوْدُهٗ يقال تبع واتبع
بمعنى واحد اذا لحقه وقال الاصمعي يقال اتبعه بقطع الالف اذا لحقه وادركه واتبعه بوصل
الالف اذا اتبع اثره ادركه او لم يدركه وكذا قال ابو زيد وقال ابو عمرو اتبعه بالوصل اقتدى به
وفي المختار تبعه من باب طرب اذا مشى خلفه او مر به فمضى معه وكذا اتبعه وهو افتعل واتبعه
على افعل اذا كان قد سبقه فلحقه وقال الاخفش تبعه واتبعه بمعنى مثل ردفه واردفه بَغْيًا
ظلمًا وَعَدْوًا اعتداء اي لاجلهما او باغين ومعتدين وقرأ الحسن عدوا بضم العين والدال وتشديد
الواو وقيل ان البغي الاستعلاء في القول بغير حق والعدو في الفعل قال عكرمة العدو والعتو والعلو
في كتاب الله التجبر حَتّٰى اِذَا اَدْرَكَهُ الْغَرَقُ اي ناله ووصله والجمه وغاية لاتباعه وذلك ان
موسى خرج ببني اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده
ففرق الله البحر لموسى وبني اسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الاخر وتبعهم فرعون والبحر
باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا
ان يخرجوا من الجانب الاخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك قَالَ اٰمَنْتُ اَنَّهٗ لَا
اِلٰهَ اِلَّا الَّذِيْٓ اٰمَنَتْ بِهٖ بَنُوْٓا اِسْرَآءِيْلَ اي صدقت ولم ينفعه هذا الايمان لانه وقع منه بعد
ادراك الغرق له كما تقدم في النساء ولم يقل اللعين امنت بالله او برب العالمين بل قال ما تقدم
لانه بقي فيه عرق من دعوى الالهية وَاَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ اي المستسلمين لامر الله المنقادين له
الذين يوحدونه وينفون ما سواه فان قيل انه امن ثلث مرات كما في هذه الاية فما السبب في
عدم القبول قيل انه امن عند نزول العذاب والايمان والتوبة عنده غير مقبول ويدل عليه
قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا وان الايمان انما يتم بالاقرار بالتوحيد والنبوة
وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه وقيل غير ذلك ذكره الخطيب اخرج احمد والترمذي وحسنه
وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

اغرق الله فرعون فقال آمنت الآية قال جبريل يا محمد لو رأيتني وانا آخذ من حال البحر فادسه
في فيه مخافة ان تدركه الرحمة والمعنى دس جبريل في فيه بامر الله فلا اعتراض عليه وقد
روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال حسن غريب وصححه ايضا الحاكم عن ابن عباس
من طرق اخرى واسناده على شرط البخاري وليس في رواتها متهم وان كان فيهم من هو سيئ الحفظ
فقد تابعه عليه غيره وقد اطال الخازن في جواب ما اعترض به الرازي واشكاله في هذا الحديث
بما يطول ذكره واخرج الطبراني في الاوسط عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال لي جبريل
ما كان على الارض شيء ابغض الي من فرعون فلما آمن جعلت احشو فاه حمأة وانا اغطه خشية
ان تدركه الرحمة واخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه وابو الشيخ عن ابي امامة نحوه ايضا
وفي اسناد حديث ابي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن
الرواية من المفسرين ولا يكاد يميز بين اصح الصحيح من الحديث واكذب الكذب منه كيف يتجارى على الكلام
في احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحكم ببطلان ما صح منها ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت
والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له ادنى ممارسة لفن الحديث فيا مسكين ما لك ولهذا
الشأن الذي لست فيه في شيء الا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بانك بهذا العلم من الجاهلين
وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره وهو علم اللغة
وتوابعه من العلوم الآلية ولقد صار صاحب الكشاف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره
من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين فتارة
يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري انه منها وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بانه من الكذب
على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة
من الصحابة باسانيد كلها ائمة ثقات حجج اثبات وادنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في
علم لا يعلمه ولا يدري به اقل دراية وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع
عليها طائفة من الناس ويصطلحون على امور فيما بينهم فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم
كتاب الله وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم وراويه عنه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم
وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع اهل الاسلام والتشاغب

فقيل له آلآن وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة فقيل هو من قول الله سبحانه
وقيل من قول جبريل وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه
والمعنى انكار الايمان منه عند ان الجمه الغرق والمقصود التقريع والتوبيخ له قال ابن عباس لم
يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل والايمان والتوبة عند البأس لا يقبل
وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ تاكيد لهذا التقريع والجملة حالية اي وقد ايست من نفسك ولم يبق لك
اختيار والايمان في هذه الحالة لا يفيد يعني الآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت
دنياك الفانية على الآخرة الباقية وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ في الارض بضلالك عن الحق واضلالك
لغيرك فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ اي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط وذلك ان بني اسرائيل لم يصدقوا
ان فرعون غرق وقالوا هو اعظم شانا من ذلك فالقاه الله على نجوة من الارض اي مكان مرتفع
حتى شاهدوه احمر قصيرا كانه ثور ثم اعاده الى البحر ثانيا فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا ابدا
قاله الخازن وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافيا
ليشاهدوك ميتا بالغرق وقرئ بالحاء المهملة من التنحية اي نطرحك على ناحية من الارض
وقد اختلف المفسرون في معنى بِبَدَنِكَ فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو
مطلوبك فهو تخييب له وحسم لطمعه والباء للمصاحبة وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدنا في
الابدان الدروع قاله ابو عبيدة ورجح الاخفش الاول وقرأ ابو حنيفة رح بابدانك وهو مثل قولهم
هو باجرامه اي ببدنك كله وافيا باجزائه وقيل عريانا لا شيء عليه وقيل الباء سببية لان بدنه
سبب في تنجيته لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً هذا تعليل لتنجيته ببدنه وفي ذلك دليل على انه لم يظهر
جسده دون قومه الا لهذه العلة لا سوى والمراد بالآية العلامة اي لتكون علامة يعرفون بها
هلاكك وانك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتا بالغرق وقيل المراد
ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله يعتبر
بها الناس او يعتبر بها من سياتي من الامم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على
الله سبحانه فان هذا الذي بلغ الى ما بلغ اليه من دعوى الالهية واستمر على ذلك مدة طويلة كانت
له هذه العاقبة القبيحة وقرئ لمن خلفك على صيغة الماضي اي لمن ياتي بعدك من القرون او من خلفك

في الرياسة او في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه وهذا اخر مقول جبريل عليه السلام
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة لَغَافِلُونَ
عما توجبه تلك الآيات وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكي وَلَقَدْ
بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي انعمها عليهم
ومعنى بوأنا اسكنا يقال بوأت زيدا منزلا اسكنته فيه والمبوأ اسم مكان او مصدر واضافته
الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيئا اضافوه الى الصدق
والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضي قيل هو ارض مصر قاله الضحاك وقيل جميع ما كان تحت
ايدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره وقيل الاردن وفلسطين وقيل الشام
قاله قتادة وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
اي المستلذات من الرزق فَمَا اخْتَلَفُوا في امر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة
واحدة غير مختلفة وقد روي في الحديث ان اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة
وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين
فرقة وهو في السنن والمسانيد والكلام فيه يطول وقد ذكرنا ذلك في كتابنا حجج الكرامة حَتَّى
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ اي لم يقع منهم هذا الاختلاف في الدين الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة
وعلمهم باحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل العلم هو القرآن المنزل على
نبينا صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيه وفي صفته وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر قال ابن زيد
يعني كتاب الله الذي انزله وامره الذي امرهم به وانما سمي القرآن علما لانه سبب العلم فيكون المراد بالمختلفين
على القول الاول هم اليهود بعد ان انزلت عليهم التوراة وعلموا بها وعلى القول الثاني هم اليهود
المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من
امر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته و
المحق بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل فَإِن كُنتَ يا محمد فِي شَكٍّ هو في اصل اللغة ضم الشيء
بعضه الى بعض ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كانه يضم الى ما يتوهمه شيئا اخر خلافه فيتردد
ويتحير والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع وعن ابن عباس قال

لم يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة
قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا اشك ولا اسأل وهو مرسل فمما اي في شك مما
أنزلنا إليك بان تشك فيه ومن للابتداء او انها بمعنى في من اول الامر قال القاضي عياض في
الشفاء احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي صلى الله
عليه وسلم فيما اوحي اليه فمثل هذا لا يجوز عليه انتهى وقال ثعلب والمبرد اي قل يا محمد للكافر فان
كنت في شك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يعني مسلمي اهل الكتاب كعبد الله بن
سلام وامثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بانهم اعلم منهم فامر
الله سبحانه نبيه ان يرشد الشاكين فيما انزله الله اليه من القرآن ان يسألوا اهل الكتاب الذين
قد اسلموا فانهم سيخبرونهم بانه كتاب الله حقا وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك
ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة
الاحبار وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر قال الزجاج ان الله خاطب الرسول وهو شامل
للخلق وهذا وجه حسن ايضا لكن فيه بعد لان الرسول متى كان داخلا في هذا الخطاب كان الايراد
موجودا والاعتراض واردا وقيل ان في قوله فان للنفي اي ما انت في شك حتى تسأل وهذا ابعد
وقال القتيبي المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتصديقه
بل كان في شك وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشك
فيما اخبرناك به فسألت اهل الكتاب لازالوا عنك الشك وقيل الشك هو ضيق الصدر اي ان ضاق
صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبروك بصبر من قبلك من الانبياء على اذى قومهم وقيل
معنى الآية الفرض والتقدير كانه قال له فان وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه
تقديرا فاسأل فانهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ويعترفون بذلك لانهم يجدونه مكتوبا
عندهم وقد زال فيمن اسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم لقد اي قسم لقد جاءك الحق
من ربك وفي هذا بيان ما يقلع الشك من اصله ويذهب به بجملته وهو شهادة الله سبحانه
بان هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل
ولا تشوبه شبهة ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال فلا تكونن من الممترين فيما

انزل الله عليك بل تستمر على ما انت عليه من اليقين وانتفاء الشك ويمكن ان يكون هذا النهي له تعريضاً بالغير كما في مواطن من الكتاب العزيز وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فان الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو ابلغ واوقع من النهي لهم انفسهم لانه اذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ قد تقدم مثله في هذه السورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بانهم يصرون على الكفر ويموتون عليه لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم قال مجاهد حق عليهم سخط الله بما عصوه وقيل لعنة الله وقيل الكلمة هي قوله خلقت هؤلاء للنار ولا ابالي وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان ولا يترتب عليه شيء من احكامه فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا كما قال الاخفش والكسائي وغيرهما ويدل على ذلك ما في مصحف ابي وابن مسعود فهلا قرية وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ والنفي فوبخ الله اهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي اهلكناها آمنت ايماناً معتداً به نافعاً وذلك بان يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما اخره فرعون فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا في حال الباس إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ استثناء منقطع من القرى لان المراد اهلها والمعنى لكن قوم يونس قد قال بان هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاخفش والفراء وقيل متصل والجملة في معنى النفي كانه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس قال ابن جرير خص قوم يونس من بين الامم بان تيب عليهم من بعد معاينة العذاب وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين وقال الزجاج انه لم يقع العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان وهذا اولى من قول ابن جرير لَمَّا آمَنُوا ايماناً معتداً به قبل معاينة

العذاب حين رؤية أمارته وعند أول المعاينة قبل حلوله بهم كشفنا عنهم عذاب الخزي
في الحيوة الدنيا هو العذاب الذي كان قد وعدهم يونس انه سينزل عليهم ولم يروه والذي
قد رأوا علاماته دون عينه ومتعناهم إلى حين اي بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله في الدنيا
الى حين معلوم قدره لهم اي الى وقت انقضاء آجالهم قال قتادة لم يكن هذا في الامم قبل قوم
يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب الا قوم يونس وذكر لنا ان قومه كانوا
بنينوى من ارض الموصل فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة وحكى ذلك الزجاج
فقال انه لم يقع بهم العذاب وانما رأوا علامته ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان قال
القرطبي وهو كلام حسن فان المعاينة التي لا ينفع معها الايمان هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون
واخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان يونس دعا قومه فلما ابوا
ان يجيبوه وعدهم العذاب فقال انه يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم وكانت الانبياء اذا تواعدت
قومها العذاب خرجت فلما اظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها والسخلة وولدها
وخرجوا يعجون الى الله وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس
في الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال ما فعل قوم يونس فحدثه بما صنعوا فقال لا ارجع
الى قوم قد كذبتهم وانطلق مغاضبا يعني مراغما وعن سعيد بن جبير قال غشي قوم يونس العذاب
كما يغشى القبر بالثوب اذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دما وعن ابن عباس ان العذاب
كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم
وقال قتادة قدر ميل وقال وهب غامت السماء غيما اسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط
حتى غشي مدينتهم واسودت سطوحهم فتابوا واخلصوا النية فرحمهم ربهم وكشف ما نزل بهم
من العذاب بعد ما اظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قيل انهم قالوا
يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا انت وقيل قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت
وانت اعظم واجل فافعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله قاله الفضيل بن عياض
والله اعلم ما قالوا ثم بين سبحانه ان الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ بحيث لا يخرج عنهم احد جَمِيعًا مجتمعين على الايمان لا يتفرقون

فيه ويختلفون ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفا للمصلحة التي ارادها الله سبحانه قال الاخفش جاء بقوله جميعا بعد كلهم للتاكيد كقوله لا تتخذوا الهين اثنين وقيل اتى به مع ان كلا منهما يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذي لا يدل عليه كلهم ذكره الكرخي ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على ايمان جميع الناس اخبره الله بان ذلك لا يكون لان مشيته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك فقال أفأنت تكره الناس استفهام وتاديب للنبي صلى الله عليه وسلم اي اتكرههم بما لم يشأه الله منهم حتى يكونوا مؤمنين فان ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ودفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل الذي لو كان لم يكن صلاحا محققا بل يكون الى الفساد اقرب ولله الحكمة البالغة وايلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بان الاكراه ممكن مقدور عليه وانما الشان في المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشارك فيه لانه هو القادر على ان يخلق في قلوبهم ما يضطرهم عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله وما كان اي ما صح وما استقام لنفس من الانفس ان تؤمن الا باذن الله اي بتسهيله وتيسيره ومشيته لذلك فلا يقع غير ما يشاءه كائنا ما كان ويجعل الرجس بكسر الراء وضمها لغتان اي العذاب او السخط او الكفر او الخذلان الذي هو سبب العذاب هذا معطوف على محذوف كانه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان ويجعل الخ والمضارع في المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضي والمراد بقوله على الذين لا يعقلون هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة قل انظروا بضم اللام وكسرها سبعيتان ماذا في السموات والارض لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل الا بمشية الله امر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والارضية والمراد بالنظر التفكر والاعتبار اي قل يا محمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيهما من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته ثم ذكر سبحانه ان التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته فقال وما تغني اي ما تنفع على ان ما نافية وهذا هو الظاهر ويجوز ان تكون استفهامية اي اي شيء تغني الآيات هي التي عبر عنها بقوله ماذا في السموات والارض ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار والجملة اما حالية او اعتراضية بنوع ايضاح والنذر جمع نذير وهو

الرسل او جمع نذار وهو المصدر عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ في علم الله سبحانه والمعنى ان من كان هكذا
لا يجدي فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ اِلَّا مِثْلَ اَيَّامِ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
اي فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبه الا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار
الذين خلوا من قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود قاله قتادة فانهم بارتكاب موجباتها
كمنتظريها فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بايام مشتملة على انواع العذاب
وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه والعرب تسمي
العذاب اياما والنعم اياما كقوله تعالى وذكرهم بايام الله ثم قال قُلْ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك
فَانْتَظِرُوْا اي تربصوا لوعد ربكم اِنِّيْ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ لوعد ربي وفي هذا تهديد شديد
ووعيد بالغ بانه سينزل بهؤلاء ما نزل باولئك من الاهلاك ثُمَّ نُنَجِّيْ بالتشديد باتفاق العشرة
رُسُلَنَا المرسلين اليهم وهو معطوف على حكاية الاحوال الماضية وَنجينا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا التعبير بلفظ
الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لامرها كَذٰلِكَ صفة لمصدر محذوف
اي انجاء مثل ذلك الانجاء وقوله حَقًّا عَلَيْنَا اعتراض بين حق ذلك علينا حقا اي وجب ذلك علينا
بمقتضى الفضل والكرم وفي حقا وجهان ذكرهما في الجمل نُنْجِ بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان
الْمُؤْمِنِيْنَ من عذابنا للكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم او يكون ع
خاصا بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى وقال الاسيوطي النبي صلى الله عليه
وسلم واصحابه حين تعذيب المشركين قُلْ يٰاَيُّهَا النَّاسُ امر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يظهر التباين
بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس او للكفار منهم او لاهل مكة على الخصوص بقوله
اِنْ كُنْتُمْ فِيْ شَكٍّ مِّنْ دِيْنِيْ الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته
ولا عرفتم صحته وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريء من اديانكم التي انتم عليها
فَلَا اَعْبُدُ الَّذِيْنَ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ في حال من الاحوال وَلٰكِنْ اَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِيْ يَتَوَفّٰىكُمْ
اي اخصه بالعبادة لا اعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها وخص صفة التوفي من
بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم اي اعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من
العذاب الشديد لكونه يدل على الخلق اولا وعلى الاعادة ثانيا ولكونه اشد الاحوال مهابة في القلوب

ولكونه قد تقدم ذكر الاهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الامم السابقة فكأنه قال اعبد
الله الذي وعدني باهلاككم ولما ذكر انه لا يعبد الا الله بين انه مامور بالايمان فقال وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اي بان اكون من جنس من آمن بالله واخلص له الدين وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ يعني ان الله سبحانه امره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال
وخص الوجه لانه اشرف الاعضاء او امره باستقبال القبلة في الصلوة وعدم التحول عنها حَنِيفًا
اي مائلا عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام ومستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر واكد
الامر المتقدم بالنهي عن ضده فقال وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عطف على اقم داخل تحت الامر وهو من
باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ على حال من الاحوال مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
بشيء من النفع والضر ان دعوته ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا ولا يقدر على ضر ضائع لا يفعله
عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره فكيف اذا كان موجودا فان العدول
عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر اقبح واقبح فَإِنْ فَعَلْتَ اي فان دعوت ولكنه كنى عن القول
بالفعل فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ هذا جزاء الشرط اي فانك في عداد الظالمين لانفسهم
والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم وجملة وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ مقررة لمضمون ما قبلها والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع فان انزل بعبد
ضرا لم يستطع احد ان يكشفه كائنا من كان بل هو المختص بكشفه كما اختص بانزاله وَإِنْ يُرِدْكَ
بِخَيْرٍ اي خير كان لم يستطع احد ان يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائنا من كان وهو من القلب واصله
ان يردبك الخير ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الآخر
قال النيسابوري وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على ان الخير يصدر عنه
سبحانه بالذات والشر بالعرض قلت وفي هذا نظر فان المس هو امر وراء الارادة فهو مستلزم لها
وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ اي لا دافع لرزقه
ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه
ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وارادة الله قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فانه
صفة فعل يُصِيبُ بِهِ اي بفضله او بكل واحد من الخير والضر مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وجملة

وهو الغفور الرحيم ثم بيلية عن عامر بن قيس قال ثلث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق اولهن ان يمسسك الله الآية والثانية ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له والثالثة وما من دابة في الارض الا على الله رزقها اخرجه البيهقي في الشعب واخرج ابو الشيخ عن الحسن نحوه ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره فقال قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاجل ان تنقطع معذرتهم فهذا نهاية الامر قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ اي القرآن او الاسلام او محمد صلى الله عليه وسلم فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ اي منفعة اهتدائه مختصة به وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا اي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود اليه ومن في الموضعين يجوز ان تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وان تكون موصولة والفاء جائزته وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ اي بحفيظ يحفظ اموركم وتوكل اليه انما انا بشير ونذير ثم امره الله سبحانه ان يتبع ما اوحاه من الاوامر والنواهي التي شرعها الله له ولامته فقال وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ثم امره بالصبر على اذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلون اخلاق المشركين وتجرفهم فقال وَاصْبِرْ وجعل ذلك الصبر ممتدا الى غاية هي قوله حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ اي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم وامته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يامرهم به المنتهون عما ينهاهم عنه ينقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على ادنى مزاياه وقال مجاهد هذا منسوخ بامره بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس قال السيوطي وقد صدر حتى حكم على المشركين بالقتال واهل الكتاب بالجزية انتهى واشار بهذا الى قول مجاهد قاله الكرخي

سورة هود عليه السلام وهي مائة وثلث وعشرون آية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد وقال ابن عباس وقتادة الا آية وهي قوله واقم الصلوة طرفي النهار الآية فلعلك تارك الآية واولئك يؤمنون به الآية وهذا قول مقاتل وعن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا هود يوم الجمعة اخرجه

الدارمي وابو داود والبيهقي وغيرهم وعن ابي بكر الصديق قال قلت يا رسول لقد اسرع اليك الشيب فقال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت اخرجه الطبراني والترمذي وحسنه وعن انس مرفوعا وهل اتاك حديث الغاشية رواه البزار وقد روي بطرق عن جمع من الصحابة قال بعض العلماء سبب شيبه من هذه السور ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله اعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرٰ ان كان مسرودا على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له وان كان اسما للسورة فهو في محل الرفع وما بعده خبره كتاب اي هذا كتاب يدل على ذلك قوله في اية اخرى ذلك الكتاب والاشارة اما الى بعض القران او الى مجموعه ومعنى أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم المرصف وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التورية والانجيل وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ وقيل معناه احكمت اياته بالامر والنهي والايات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المنفصل بعضها عن بعض اي نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها اخذا من قولهم احكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ثُمَّ فُصِّلَتْ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وقيل احكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام وقيل احكمت جملته ثم فصلت اياته وقيل جمعت في اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحي وقيل ايدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله والتراخي المستفاد من ثم اما زماني ان فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح واما رتبي ان فسر بغيره مما تقدم واليه ذهب الزمخشري وقال هي محكمة احسن الاحكام ثم مفصلة احسن التفصيل كما يقال فلان كريم الاصل ثم كريم الفعل مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ فيه طباق حسن اي لف ونشر مرتب لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الامور قيل صفة ثانية لكتاب او خبر ثان واليه نحا الزمخشري وقيل غير ذلك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قال الكسائي والفراء التقدير احكمت بان وقال الزجاج احكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا او قيل تعليل للفعلين قبله اي لاجل ان تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله فاخذ الترك من النافية والاثبات

من الاستثناء وقيل تقديره بان لا تعبدوا وقيل ان مفسرة اي قال لا تعبدوا او امركم ان
لا تعبدوا وهذا اظهر الاقوال لانه لا يحوج الى اضمار ولما ذكر شئون الكتاب ذكر ان من جاء به مرسل
من عند الله لتبليغ احكامه فقال إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ اي ينذرهم ويخوفهم من
عذابه لمن عصاه ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن اطاعه والضمير في منه راجع الى الله سبحانه
اي كائنا من جهة الله وهذا على ظاهره ليس بجيد لان الصفة لا تتقدم على الموصوف فكيف تجعل صفة
لنذير وكانه يريد انه صفة في الاصل لو تاخر ولكن لما تقدم صار حالا صرح به ابو البقاء فصوابه
كائنا من جهته وقيل يعود على الكتاب اي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل
صالحا وقدم الانذار لان التخويف اهم اذ يحصل به الانزجار وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله
ويحذركم الله نفسه وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ قدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة
لكونه وسيلة اليها وقيل ان التوبة من متممات الاستغفار وقيل معنى استغفروا توبوا ومعنى توبوا
اخلصوا التوبة واستقيموا عليها وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها وقيل
استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة قال الفراء ثم ههنا بمعنى الواو اي وتوبوا اليه لان
الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتاكيد وقيل انما قدم ذكر الاستغفار لان
المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب اليها وما كان آخرا في الحصول كان اولا في الطلب وقيل
استغفروا في الصغائر وتوبوا اليه في الكبائر ثم رتب على ما تقدم امرين الاول يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا
اصل الامتاع الاطالة ومنه امتع الله بك فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية
موسعة للرزق ورغد العيش وقيل هو الرضاء بالميسور والصبر على المقدور إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى الى وقت
مقدر عند الله وهو الموت وقيل القيامة وقيل دخول الجنة والاول اولى والامر الثاني قوله وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ في الطاعة والعمل فَضْلَهُ اي جزاء فضله اما في الدنيا او في الآخرة او فيهما جميعا والضمير
راجع الى كل ذي فضل وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى ان الله يعطي كل من فضلت حسناته فضله الذي
يتفضل به على عباده عن ابن مسعود قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له
عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها
في الدنيا اخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده

ا عشاره وقال ابو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة ثم
توعدهم على مخالفة الامر فقال وَإِنْ تَوَلَّوْا اي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ هو يوم القيامة ووصفه بالكبر لما فيه من الاهوال
وقيل اليوم الكبير يوم بدر وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وانما خفض على الجوار ثم بين سبحانه
عذاب اليوم الكبير بقوله إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ اي رجوعكم اليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا الى غيره
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال وهذه الجملة مقررة لما قبلها
ثم اخبر الله سبحانه بان هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ولا لانت له قلوبهم بل هم مصرون على
العناد مصممون على الكفر فقال مصدرا لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجيب من حالهم وانه لمما ينبغي ان يتنبه له العقلاء ويفهموه
أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور عنه وانحرف منه فيكون في الكلام كناية عن الاعراض لان من اعرض عن
الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة
النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة
فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين والوجه الثاني
اولى ويؤيده قوله لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ اي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين او من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ثم كرر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
اي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي بها وقد كانوا يقولون اذا اغلقنا ابوابنا و
استغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن يعلم بنا وقيل معناه يأوون
الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم وقيل انه حقيقة وذلك ان بعض الكفار كان اذا مر به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال البخاري
عن ابن عباس يغطون رؤسهم وروي عنه ايضا قال يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا
روي عن مجاهد والحسن وغيرهما اي انهم كانوا يثنون صدورهم اذا قالوا شيئا او عملوه فيظنون انهم
يستخفون من الله بذلك فاعلمهم سبحانه انهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل
يعلم سرهم وعلانيتهم وعن عبد الله بن شداد قال كان المنافقون اذا مر احدهم بالنبي صلى الله عليه وسلم
ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت وعن الحسن قال لغطلة الليل في اجواف بيوتهم وعن قتادة قال

كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله وجملة يعلم ما يسرون وما يعلنون مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم أو في ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان إنه عليم بذات الصدور تعليل لما قبله وتقرير له وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب والمعنى أنه عليم بجميع الضمائر أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار فلا يخفى عليه شيء من ذلك ثم لما ذكر كونه عالماً بكل المعلومات ما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان فقال

وما من دابة

هي كل حيوان يدب على وجه الأرض وتطلق على كل ذي أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الإطلاق فيدخل فيه الآدمي وغيره من جميع الحيوان وفي المصباح دب الصغير يدب من باب ضرب إذا مشى ودب الجيش دبيباً أيضاً ساروا ومن زائدة للتأكيد أي ما من حيوان وغيره في الأرض إلا على الله رزقها أي الرزق الذي يحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضلاً منه وإحساناً وإنما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة على اعتباراً بسبق الوعد به منه وقيل إن على بمعنى من وإنه عليه من باب الفضل لا الوجوب لأنه لا يجب عليه شيء والحاصل أن المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب إلزام فهو موكول إلى مشيئته إن شاء رزقها وإن شاء لم يرزقها وقيل إن على بمعنى من أي من الله رزقها أي ما يقوم به رمقها وتعيش به قال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعاً ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ويعلم مستقرها أي محل استقرارها في الأرض أو محل قرارها في الأصلاب ومستودعها موضعها في الأرحام وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها وقال الفراء مستقرها حيث تأوي إليه ليلاً أو نهاراً ومستودعها موضعها الذي تموت فيه وقد مر تمام الأقوال في سورة الأنعام ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر وكذا على القول الأول فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة والمعنى وما من دابة إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة وذلك

سبب تكونها في الرحم وعن مجاهد في المستقر مثله لكونها في شيء من الصلب والاختلاف بالارحام اولا وكذا
من الارض حين يوجد بعد بالفعل ومستودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة فانه في المواد
كالمني في الحلقة والنطفة كالصلب في الرحم وعن ابن مسعود قال مستقرها في الارحام ومستودعها حيث
تموت ويؤيد هذا التفسير ما اخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان اجل
احدكم بارض اتيحت له اليها حاجة حتى اذا بلغ اقصى اثره منها فيقبض فتقول الارض يوم القيامة
هذا ما استودعتني ثم ختم الآية بقوله كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ اي كل ما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها
ومستودعها ورزقها في اللوح المحفوظ اي مثبت فيه قبل خلقها ثم اكد دلائل قدرته بالتعرض
لذكر خلق السموات والارض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ الكلام على التوزيع فكان خلق السموات في يومين والارضين في يومين وما عليها من
انواع الحيوان والنبات والاقوات والجمادات في يومين والمراد بالايام هنا الاوقات اي في ستة اوقات
كما في قوله ومن يولهم يومئذ دبره وقيل مقدار ستة ايام وقيل المراد هنا الايام المعروفة وهي
المقابلة لليالي اولها الاحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن حينئذ ارض ولا سماء وليس اليوم
الا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض في المحل وهذا مشكل جدا اذ لا يتعين الاحد ولا غيره
من الايام الا عند وجودها بالفعل وفي تلك الحال لم يكن زمان قط فضلا عن تفصيله اياما
فضلا عن تخصيص كل يوم باسم والجواب عن هذا الاشكال بان المراد مقدار ستة ايام لا يدفع
هذا الاشكال انما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان انتهى وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ اي فوقه
قبل خلقهما وفيه بيان تقدم خلق العرش والماء على السموات والارضين والمعنى انه لم يكن تحته
شيء الا انه كان موضوعا على متن الماء قال البيضاوي زاد الجمل بل هو في مكانه الذي هو فيه
الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الارضين السبع
انتهى وعن ابن عباس انه سئل على اي شيء كان الماء قال على متن الريح وعن ابي رزين العقيلي
قال قلت يا رسول الله اين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان في عماء ما تحته هواء وما
فوقه هواء وخلق عرشه على الماء اخرجه الترمذي قال احمد يريد بالعماء انه ليس معه شيء قال
البيهقي والعلماء [illegible]

وان كان متصورا انتصابه لا على شيء ثابت لانه مما عجز عن ادراكه لكونه خفيا دقيقا فكل يعجب
اهل العلم قال الازهري فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته وقد وردت احاديث كثيرة في صفة العرش
وفي كيفية خلق السموات والارض ليس هذا موضع ذكرها ليبلوكم اي خلق هذه المخلوقات
ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء ايكم
احسن عملا فيما امر به ونهي عنه من غيره ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من اعمال القلب
وقيل المراد بالاحسن عملا الاتم عقلا وقيل الازهد في الدنيا وقيل الاكثر شكرا وقيل الاتقى لله
وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له ولئن قلت
اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم والقاعدة ان يحذف جواب المتاخر ويذكر
جواب المتقدم فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف وكذا في قوله ولئن اخرنا وقوله
ولئن اذقنا وقوله ولئن اذقناه فالمواضع اربعة ولما كان الابتلاء متضمن حديث البعث اتبع
ذلك بذكره والمعنى لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء انكم مبعوثون من بعد
الموت فيجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته قيل انكم بمعنى لعلكم على ان الرجاء باعتبار
حال المخاطبين اي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره ليقولن الذين كفروا من الناس
ان هذا الذي تقوله يا محمد الا سحر مبين اي كالسحر او باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام
من باب التشبيه البليغ ويجوز ان يكون الاشارة بهذا الى القران لانه المشتمل على الاخبار بالبعث
وقرئ ساحر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ولئن اخرنا عنهم العذاب اي الذي يستعجلونه استهزاء وهو ما تقدم ذكره
في قوله عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده وقيل عذاب يوم بدر الى امة
معدودة اي الى طائفة من الايام قليلة لان ما يحصره العد قليل والامة اشتقاقها من الام
وهو القصد واراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب وقيل هي في الاصل الجماعة من الناس وقد
يسمى الحين باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلوة العصر اي في ذلك الحين فالمراد على
هذا الى حين تنقضي امة معدودة من الناس ليقولن ما يحبسه اي اي شيء يمنعه من
النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية فاجابهم الله بقوله الا اداة
استفتاح [illegible] يوم ياتيهم اي العذاب ليس مصروفا او محبوسا عنهم

بل واقع بهم لا محالة، ولكن قال الشيخ وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم اظفر بتقدم خبر ليس عليها ولا بتقدم معموله الا ما دل عليه ظاهر هذه الاية وَحَاقَ اي احاط بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ اي العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ووضع هذا مكان يستعجلون لان استعجالهم كان استهزاء منهم وعبر بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه فكانه قد حاق بهم وَلَئِنْ اللام هي الموطئة للقسم اَذَقْنَا الْاِنْسَانَ اي الجنس فيشمل المؤمن والكافر ويدل على ذلك الاستثناء الاتي وقيل المراد به جنس الكفار ويؤيده ان الياس والكفران والفرح والفخر هي اوصاف اهل الكفر لا اهل الاسلام في الغالب وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة وقيل عبد الله بن امية المخزومي مِنَّا رَحْمَةً اي نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش والرخاء ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ اي سلبناه اياها واخذناها قهرا عليه اِنَّهُ لَيَئُوسٌ اي ايس من الرحمة شديد القنوط من عودها وامثالها لقلة صبره وعدم ثقته بالله كَفُورٌ عظيم الكفران وهو الجحود لها قاله ابن الاعرابي وفي ايراد صيغتي المبالغة ما يدل على ان الانسان كثير الياس وكثير الجحد عند ان يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له منها وَلَئِنْ اَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ في التعبير بالذوق ما يدل على انه يكون منه ذلك عند سلب ادنى نعمة ينعم الله بها عليه لان الاذاقة والذوق اقل ما يوجد به الطعم والنعماء انعام يظهر اثره على صاحبه والضراء ظهور اثر الاضرار على من اصيب به والمعنى انه ان اذاق الله سبحانه العبد نعماء من الصحة والسلامة والغنا بعد ان كان في ضر من فقر او مرض او خوف لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه لَيَقُولَنَّ اي بل يقول ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي اي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال اثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه اِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ اي كثير الفرح بطرا واشرا كثير الفخر على الناس بتعديد المناقب والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى وفي التعبير عن ملابسة الضراء له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالاذاقة فان كليهما لادنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم اِلَّا الَّذِيْنَ صَبَرُوْا فان عادتهم الصبر عند نزول المحن والشكر عند حصول المنن قال الاخفش هو استثناء منقطع بمعنى لكن الذين صبروا فانهم ليسوا كذلك وقيل متصل لدخولهم في الانسان

الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والنقمة أولئك اشارة الى
الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات لهم مغفرة لذنوبهم وان جمت وأجر
يوجرون به على اعمالهم الحسنة كبير متناه في الكبر وهو الجنة ووصف الاجر بالكبير لما احتوى عليه
من النعيم السرمدي ورفع التكاليف والامن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم واختيار هذا النظم
لمطابقته لرعاية الفواصل ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال فلعلك لعظم ما تراه منهم من
الكفر والتكذيب واقتراح الايات التي يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما
يوحى اليك مما انزله الله عليك وامرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه او يستثقلون العمل
به كسب الهتهم وامرهم بالايمان بالله وحده وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام اي هل
انت تارك وقيل هو في معنى النفي مع الاستبعاد اي لا يكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما انزل
الله عليك احبوا ذلك ام كرهوا شاؤا ام ابوا وضائق به صدرك الضمير راجع الى ما او الى بعض
وعبر بضائق دون ضيق لان اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها
معنى اللزوم وان يقولوا اي كراهة او مخافة او لاجل ان او بان لا وقال ابو البقاء لان يقولوا لولا اي هلا
انزل عليه كنز اي مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغني به او جاء معه ملك يصدقه ويبين
لنا صحة رسالته ثم بين سبحانه ان حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة فقال انما انت نذير
ليس عليك الا الانذار بما اوحي اليك وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد مقترحاتهم
والله على كل شيء وكيل يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل ومن جملة مقدوراته
انزال ما طلبوا ان اقتضت ذلك حكمته ومشيئته ام يقولون افتراه ام هي المنقطعة بمعنى
بل والهمزة اضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة
وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو اشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بانه افتراه والاستفهام للتقريع
والتوبيخ والضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى ثم امره الله سبحانه ان يجيب عليهم بما يقطعهم
ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال قل فأتوا بعشر سور مثله اي مماثلة له في البلاغة وحسن
النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعنى ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل امثاله لان المراد
مماثلة كل واحدة من السور او لقصد الايماء الى وجه الشبه ومداره المماثلة في شيء واحد وهو

البلاغة البالغة الى حد الاعجاز وهذا انما هو على القول بان المطابقة في الجمع والتثنية والافراد
شرط وقيل النكرة، وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى
انؤمن لبشرين مثلنا وتجوز المطابقة قال تعالى وحور عين كامثال اللؤلؤ وقال تعالى ثم لا يكونوا امثالكم
والهاء في مثله تعود لما يوحى ثم وصف السور بصفة اخرى فقال مُفْتَرَيَاتٍ جمع مفتراة كمصطفيات
في مصطفاة فانقلبت الالف ياء كالتثنية قاله السمين اي مختلقات حيث قالوا انه افتريت هذا
القرآن من عند نفسك وليس هو من عند الله فتحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل
دعواهم وقال مفتريات في مقابلة قولهم افتراه ولما تحداهم بهذا الكلام امره بان يقول لهم وادعوا
للاستظهار على المعارضة بالعشر السور مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا
النوع الانساني مِنْ دُونِ اللَّهِ اي ممن تعبدونه وتجعلونه شريكا له سبحانه اي ادعوا من استطعتم
متجاوزين الله سبحانه إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فيما تزعمون من افترائه فَإِلَّمْ تكتب بغير نون كما في
خط المصحف وهذا في خصوص هذا الموضع يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ اي فان لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم
به من الاتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير في لكم لرسول
الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للنبي صلى الله عليه وسلم وحده وجمع تعظيما وتفخيما فَاعْلَمُوا امر لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للرسول وحده على التاويل الذي سلف قريبا ومعنى امرهم بالعلم امرهم
بالثبات عليه لانهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله او المراد بالامر
بالعلم الامر بالازدياد منه الى حد لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين والاول اولى أَنَّمَا
أُنْزِلَ متلبسا بِعِلْمِ اللَّهِ المختص به الذي لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الا فهامها ولما
اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر وليس مفترى على الله وانما اداة حصر ويجوز فيما
ان تكون موصولة اسمية او حرفية تقديره فاعلموا ان تنزيله او ان الذي انزله متلبس بعلم الله
وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ اي واعلموا ان الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر
عليه ثم ختم الآية بقوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ اي ثابتون على الاسلام وراسخون فيه مخلصون اذا
تحقق عندكم اعجازه وعن مجاهد قال الخطاب لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اي هل انتم مزدادون من الطاعة
لانه قد حصل لكم عجز الكفار عن الاتيان بمثل سورة من هذا الكتاب علما نافعة فوق ما كنتم عليه

ومبصيرة زائدة ان كنتم مسلمين من قبل هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة
به مطلوب منكم وقيل المعنى فان لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الاتيان بعشر
سور من سائر الكفار ومن تعبدونه وتزعمون انهم يضرون وينفعون فاعلموا ان هذا القرآن
الذي انزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز
الذي تتقاصر دونه قوة المخلوقين وانه انزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الافهام واعلموا
انه المنفرد بالالوهية لا شريك له فهل انتم بعد هذا مسلمون اي داخلون في الاسلام متبعون لاحكامه
مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى
الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر وهذا الوجه اقوى من الوجه الاول من جهة واضعف منه
من جهة فاما جهة قوته فلاتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل واما
ضعفه فلما في ترتيب الامر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه
الى تكلف وهو ان يقال ان عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والالهة مع حرصهم على
نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء
الكفار بان هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الاله وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم
في الاسلام واعلم انه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله
لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله وبعشر سور كما في هذه
الآية وذلك لان العشرة اول عقد من العقود وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس وذلك
لان السورة اقل طائفة منه ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب
غيرها ولا يريد سواها فقال مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا واختلف اهل التفسير في
هذه الآية فقال الضحاك نزلت في الكفار واهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها
اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وقال انس نزلت في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله
وقيل نزلت في المنافقين وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على
العموم اولى والمعنى من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد
بزينتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والامن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول

ولذة الاولاد والرياسة ونحو ذلك وادعى ان في الآية تقييدا اذ هم مستمرون على ارادة الدنيا باعمالهم
لا يكادون يريدون الآخرة ولهذا قيل انهم مع اعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة
لانهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للآخرة وظاهر قوله نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ان كل من
اراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل
متمن ينال من الدنيا امنيته وان عمل لها واراده فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه عن ابن
عباس قال يعني من عمل صالحا التماس الدنيا صوما او صلوة او تهجدا بالليل لا يعمله الا لالتماس الدنيا قال
القرطبي ذهب اكثر العلماء الى ان هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى من كان يريد حرث
الدنيا نؤته منها وكذلك ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وقيدتها وفسرتها التي في سبحان من كان يريد
العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ اي وهؤلاء المريدون باعمالهم
الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب اعمالهم لها وذلك في الغالب وليس
بمطرد بل ان قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة وقال القاضي معنى الآية من
كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم وافية كاملة من غير بخس
في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات في المنافع فخص الجزاء بمثل ما
ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا وانما عبر عن عدم نقص اعمالهم بنفي
البخس الذي هو نقص الحق مع انه ليس لهم شائبة حق فيما اوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي
هي اعطاء الحقوق مع ان اعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال
ومبالغة في نفي النقص كان ذلك نقصا لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم
اصلا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ الاشارة الى المريدين المذكورين ولا بد من تقييد
هذا بانهم لم يريدوا بالآخرة بشيء من الاعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدنيا والآخرة او تكون
الآية خاصة بالكفار كما تقدم وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا اي ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه
من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم افسدوها بعدم
مقاصدهم وعدم الخلوص وارادة ما عند الله في دار الجزاء بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها
ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اي انه كان عملهم في نفسه باطلا

غير معتد به لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح عن مجاهد
قال هم أهل الرياء وهذا مشكل لأن قوله أولئك الذين الآية لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن
تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو
عذاب النار ويدل له ما روي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علماً لغير الله
أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذي وفي الباب أحاديث بمعناه والرياء
هو الشرك الأصغر كما ورد في الحديث ثم بين سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط ومن
كان طالباً للآخرة تفاوتاً عظيماً وتبايناً بعيداً فقال أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ برهان يدل على الحق
مِنْ رَبِّهِ في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها وقيل المراد به
النبي صلى الله عليه وسلم أي أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل وقد
بشرت به الكتب السابقة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها والضمير في وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ راجع إلى البينة
باعتبار تأويلها بالبرهان أي يؤيده ويشده ويقويه والضمير في مِنْهُ راجع إلى القرآن لأنه
تقدم ذكره في قوله أم يقولون افتراه أو راجع إلى الله تعالى والمعنى ويتلو البرهان الذي هو البينة
شاهد يشهد بصحته من القرآن أو من الله سبحانه والشاهد هو الإعجاز الكائن في القرآن أو المعجزات
التي ظهرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن وقال الفراء قال بعضهم ويتلوه
شاهد منه الإنجيل وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق والهاء في منه لله عز وجل وقيل المراد
بمن كان على بينة من ربه هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وعن علي بن أبي
طالب قال ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن فقال له رجل ما نزل فيك قال
أما تقرأ سورة هود أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بينة
من ربه وأنا شاهد منه أخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و
يتلوه شاهد منه علي أخرجه ابن عساكر وعنه وددت أنما أنا هو ولكنه لسان محمد وعن ابن
عباس أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وإبراهيم ومجاهد والضحاك وأكثر
المفسرين وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم ووجه ذلك أن اللسان لما كان يعرب عما
في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لأنه آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد

الشاهد هو ملك يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم ويسدده والاول اولى وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى اي ويتلو
الشاهد شاهد آخر وهو كتاب موسى فهو وان كان متقدما في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة
وانما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متاخرا في الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق فكان
اعرق في الوصفية من كتاب موسى ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم
واخبر بانه رسول من الله قال الزجاج والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لان النبي صلى الله عليه وسلم موصوف
في كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم في التورية والانجيل وقرئ كتابَ موسى بالنصب اي يتلو كتاب
موسى جبريل إِمَامًا وَرَحْمَةً الامام هو الذي يؤتم به في امور الدين ويقتدى في الاحكام و
الشرائع والرحمة النعمة العظيمة التي انعم الله بها على من انزله عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة
باحتبار ما اشتمل عليه من الاحكام الشرعية الموافقة لحكم القران أُولَٰئِكَ اي المتصفون بتلك الصفة
الفاضلة وهو الكون على البينة من الله يُؤْمِنُونَ بِهِ اي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم او بالقران
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ اي بالنبي او بالقران مِنَ الْأَحْزَابِ وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل
مكة وغيرهم او المتحزبون من اهل الاديان كلها قال قتادة الكفار احزاب كلهم على الكفر فَالنَّارُ
مَوْعِدُهُ اي هو من اهل النار لا محالة وفي جعل النار موعدا اشعار بان فيها ما لا يحيط به الوصف
من افانين العذاب عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي احد
من هذه الامة لا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي ارسلت به الا كان من اصحاب النار
اخرجه البغوي بسنده قال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه
الا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث فقلت اين هذا في كتاب الله حتى اتيت على
هذه الاية فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ اي في شك من كون القران نازلا من عند الله وفيه تعريض بغيره
صلى الله عليه وسلم لانه معصوم عن الشك في القران او في شك من الموعد والمرية بالكسر والضم والاولى لغة
الحجاز وبها قرأ جماهير الناس والثانية لغة اسد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا
مدخل للشك فيه بحال من الاحوال وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ بذلك مع وجوب الايمان به لظهور
الدلائل الموجبة له ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه صدقا او قد طبع على قلوبهم فلا يفقهون انه الحق
اصلا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اي لا احد اظلم منهم لانفسهم افتروا عليه سبحانه كذبا

بقولهم للاصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقولهم الملائكة بنات الله واضافوا كلامه سبحانه
الى غيره واللفظ وان كان لا يقتضي الا نفي وجود من هو اظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكاري
فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم فالمعنى على هذا لا احد مثلهم في الظلم فضلا عن ان
يوجد من هو اظلم منهم وذكر لهم هنا من اوصافهم اربعة عشر وصفا اولها افتراء الكذب
وآخرها كونهم في الآخرة اخسر من غيرهم أُولَئِكَ اي الموصوفون بالظلم البالغ يُعْرَضُونَ
عَلَى رَبِّهِمْ يوم القيامة فيحاسبهم على اعمالهم او المراد بعرضهم عرض اعمالهم عرضا تظهر به
فضيحتهم وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ جمع شهيد ورجحه ابو علي بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله
ويكون الرسول عليكم شهيدا فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا
وقيل هو جمع شاهد كاصحاب وصاحب قال مجاهد هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون قاله ابن
عباس وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما امرهم الله بابلاغه وقيل جميع الخلائق
قاله قتادة والمعنى انه يقول هؤلاء الاشهاد عند العرض هَؤُلَاءِ المعروضون او المعروضة
اعمالهم الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ في الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به كانه كان امرا معلوما
عند اهل ذلك الموقف أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الذين ظلموا انفسهم بالافتراء هذا من تمام
كلام الاشهاد اي يقولون الا لعنة الله الخ ويجوز ان يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الاشهاد
وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يدني المؤمن حتى يضع
كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له اتعرف ذنب كذا اتعرف ذنب كذا فيقول
رب اعرف حتى اذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال فاني سترتها عليك في الدنيا
وانا اغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته واما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين
والفائدة في قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار والتقريع لهم على رؤس الاشهاد
ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بانهم الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ اي يمنعون من
قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه وقال السدي عن محمد صدت قريش عنه الناس
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا اي يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها او يبغون اهلها ان يكونوا
معوجين بالخروج عنها الى الكفر يقال بغيتك شرا اي طلبته لك وقال ابو مالك يعني يرجون

بملة غير الاسلام دينا وَهُمْ اي والحال انهم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ اي غير مصدقين فكيف
يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به
حتى كان كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم أُولَٰئِكَ الموصوفون بتلك الصفات
لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ اي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا ان اراد عقوبتهم وقيل معناه
سابقين وقيل فائتين وقيل مفلتين انفسهم من اخذه لو اراد ذلك في الارض مع سعتها
وان هربوا فيها كل مهرب وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يدفعون عنهم ما يريده الله
سبحانه من عقوبتهم وانزال بأسه بهم ومن زائدة يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ في الآخرة مستأنفة
لبيان ان تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا بسبب صدهم عن
سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت ومعنى مضاعفته وقد نص الله على ان من جاء بالسيئة
لا يجزى الا مثلها مضاعفة عذاب الكفر بالتعذيب على ما فعلوا من المعاصي والتعامي عن آيات
الله ونحو ذلك من تضاعف كفرهم وبغيهم وصدهم عن سبيل الله قاله الشهاب وقيل الاستحقاق
باضلالهم غيرهم وهذا غير خارج عن الآية المذكورة مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ اي لفرط
في اعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كانهم لا يقدرون على السمع للحق وهذا تعليل المضاعفة
العذاب وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ اي ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب ويجوز
ان يراد بقوله وما كان لهم من اولياء انهم جعلوا آلهتهم اولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك
فما كان هؤلاء الاولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا
او يدفعون عنهم ضرا والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر وقال
الفراء لا يستطيعون السمع لان الله اضلهم في اللوح المحفوظ وقال الزجاج لبغضهم النبي صلى الله
عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه قال النحاس هذا معروف
في كلام العرب يقال فلان لا يستطيع ان ينظر الى فلان اذا كان ثقيلا عليه أُولَٰئِكَ المتصفون
بتلك الصفات الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بعبادة غير الله والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة
الله فكان خسرانهم في تجارتهم اعظم خسران وَضَلَّ اي ذهب وضاع عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ من الآلهة التي يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بايديهم الا الخسران

لَا جَرَمَ قال الخليل وسيبويه لا جرم بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء وروي
عن الخليل والفراء انها بمنزلة قولك لابد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا وقال
الزجاج ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضمر وان منصوبة بجرم قال الازهري وهذا احسن ما نقل في
هذه اللغة وقال الكسائي معنى لا جرم لا صد ولا منع وقال جماعة من النحويين ان معنى لا جرم لا قطع
قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه اي قطعه ووردت هذه اللفظة في القرآن في خمسة
مواضع متلوة بأن واسمها ولم يجئ بعدها فعل واختلف فيها فقيل لا نافية وقيل زائدة قاله
في الاتقان والاول مذهب سيبويه واليه ذهب الخليل والمعنى حق وثبت وفيه لغات بكسر الجيم
وبضمها ولا جر بحذف الميم ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم ولا ذا جرم وغير ذلك أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ
هُمُ الْأَخْسَرُونَ في هذه الآية بيان انهم قد بلغوا في الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم
ولا يبلغ اليه وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها وبين من كان على بينة من ربه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اي صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق
به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اراد بها
جميع اعمال الجوارح وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ اي انابوا اليه وسكنوا وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل
خافوا قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد وهذا اشارة الى اعمال القلوب قيل واصل
الاخبات الاستواء في الخبت وهو الارض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان
قال الفراء الى ربهم ولربهم واحد وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام والى فاذا قلت اخبت فلان
الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت له فمعناه خشع وخضع أُولَٰئِكَ الموصوفون بتلك
الصفات الصالحة أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لاهلها
مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق
الكافرين بالاعمى والاصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على ان كل فريق شبه
بشيئين او شبه بمن جمع بين الشيئين فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم والمؤمن شبه
بمن جمع بين السمع والبصر وعلى هذا يكون الواو في والاصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا اي حالا وصفة أَفَلَا تَذَكَّرُونَ في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت

الظاهر لا يخفى على من له تذكر وعنده تفكر وتامل والهمزة للانكار ردم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين ولما اورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم انواع الدلائل التي هي اوضح من الشمس اكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتنان في الكلام ونقله من اسلوب الى اسلوب لتكون الموعظة اظهر والحجة ابين والقبول اتم فقال وَلَقَدْ الواو للابتداء واللام هي الموطئة للقسم أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ اي ارسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وقيل قائلا اني لكم واقتصر على النذارة دون البشارة لان دعوته كانت لمجرد الانذار ولكونهم لم يعملوا بما بشرهم به وفي هذه السورة ذكر انواع من القصص الاولى قصة نوح الثانية قصة هود الثالثة قصة صالح الرابعة قصة ابراهيم الخامسة قصة لوط السادسة قصة شعيب السابعة قصة موسى وهي اخر القصص أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ان مصدرية او مفسرة متعلقة بارسلنا او بنذير مبين ولا ناهية إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني اخاف عليكم وفيها تحقيق لمعنى الانذار واليوم هو يوم القيامة او يوم الطوفان ووصفه بالاليم من باب الاسناد المجازي مبالغة ثم ذكر ما اجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ الملا الاشراف كما تقدم غير مرة ووصفهم بالكفر ذما لهم وفيه دليل على ان بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا هذه الجهة الاولى من جهات طعنهم في نبوته اي نحن وانت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا والجهة الثانية وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا اي ولم يتبعك احد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك والاراذل جمع ارذل بضم الذال وارذل جمع رذل بسكونها مثل اكالب واكلب وكلب فهو جمع الجمع وقيل الاراذل جمع ارذل كالاساود جمع اسود وهم السفلة كالحاكة والاساكفة والارذل الادون من كل شيء فقال النحاس الاراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والحسب الصناعات قال الزجاج نسبوهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا اثر لها في الديانة لان الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمناصب العالية بل الفقراء الخاملين وهم اتباع كل نبي ولا تضرهم خسة صناعتهم اذا حسنت سيرتهم في الدين وهذه عادة الله في الانبياء والاولياء

ان اول من يتبعهم ضعفاء الناس لذلتهم فلا يستكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه وقال ثعلب
عن ابن الاعرابي السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفلة قال الذي يصلح
دنيا غيره بفساد دينه والظاهر من كلام اهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية
والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشرا في الاول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني
وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال بادي الرأي اي في ظاهر الرأي من غير تعمق
يقال بدا يبدو اذا ظهر قال الازهري معناه فيما يبدو لنا من الرأي وقيل اول الرأي قرئ
بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف اي وقت حدوث اول رأيهم والوجه الثالث
من جهات قدحهم في نبوته وما نرى لكم علينا من فضل بالمال والشرف والجاه والرأي
خاطبوه في الوجهين الاولين منفردا وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه تواضعوا عن الثلاثة
المطاعن وانتقلوا الى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له الا مجرد العصبية والحسد و
استبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ويجوز ان
يكون هذا خطابا للاراذل وحدهم والاول اولى لان الكلام مع نوح لا معهم الا بطريق التبعية
له ثم ذكر سبحانه ما اجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالا فقال قال يا قوم ارأيتم اي اخبروني
ان كنت على بينة برهان من ربي في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما
جعلتموه قادحا ليس بقادح في الحقيقة فان المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في
صفة النبوة واتباع الاراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل
والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ويجوز ان يريد بالبينة المعجزة وفي هذا الخطاب غاية التلطف
بهم وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز ان يكون
الرحمة هي البينة نفسها والاولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الخلق
وقيل هي الهداية الى معرفة البرهان وقيل الايمان والافراد في فعميت على ارادة كل واحدة
منهما او على ارادة البينة لانها هي التي تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ومعنى عميت خفيت
يقال عميت عن كذا وعمي علي كذا اذا لم افهمه قيل وهو من باب القلب لان البينة او الرحمة
لا تعمى وانما يعمى عنها فهو كقولهم ادخلت القلنسوة رأسي وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه

مجازا فيقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية شبه خفاء الدليل
بالعمى في انه كلا يمنع الوصول الى المقاصد وقرئ فعميت على البناء للمفعول اي فعماها الله عليكم
وخفيت والبست عليكم فلم تهتدوا كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته
ان الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره والاستفهام
في أَنُلْزِمُكُمُوهَا للانكار اي لا يمكنني ان اضطركم الى المعرفة بها اي بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتال
ونحوه لا الزام الايجاب اذ هو حاصل ولذا فسره السيوطي بقوله انجبركم على قبولها وَأَنْتُمْ اي والحال
انكم لَهَا كَارِهُونَ اي منكرون ونافرون لها والمعنى اخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة
على صحة النبوة الا انها خافية عليكم ايمكننا ان نضطركم الى العلم بها والحال انكم لها كارهون
غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه الا الله عز وجل وعن قتادة قال اما والله لو
استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فيه التصريح منه عليه السلام بانه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى
يكون بذلك محلا للتهمة ويكون لقول الكافرين مجال بانه ادعى ما ادعى طلبا للدنيا والضمير
في عليه راجع الى ما قاله لهم فيما قبل هذا وَقوله مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا كالجواب عما يفهم من
قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا من التلميح منهم الى ابعاد الاراذل عنه وقيل انهم
سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا وهذا كما قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة الانعام
لا تطرد الذين يدعون ربهم الاية ثم علل ذلك بقوله إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ اي لا اطردهم فانهم
ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على ايمانهم لانهم طلبوا بايمانهم ما عنده سبحانه
وكانه قال هذا على وجه الاعظام لهم ويحتمل انه قال ذلك خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم
بسبب طرده لهم ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها
عن اجابته فقال وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ كلما ينبغي ان يعلم ومن ذلك استرذالهم
الذين اتبعوه وسؤالهم له ان يطردهم ثم اكد عدم جواز طردهم بقوله وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي
مِنَ اللَّهِ اي من يمنعني من عذابه وانتقامه إِنْ طَرَدْتُهُمْ فان طردهم بسبب سبقهم الى
الايمان والاجابة الى الدعوة التي ارسل الله رسوله لاجلها ظلم عظيم لا يقع من الانبياء المؤيدين

بالعصمة ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم
من سائر الناس ﴿أفلا تذكرون﴾ معطوف على مقدر وكأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من
الجهل بما ذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم
عليه من الخطأ وما هم عليه من الصواب وقيل تقديره أتأمرون في بطردهم فلا تذكرون
وقيل الأصل فألا تذكرون وقيل أفلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخي وقيل أفهلا
وهذا الأوجه لصحتها كما قاله علي القاري بل هي تحريف إذ فيها الجمع بين الهمزة وهلا وليس فيه
تنبيه على الحذف ولا على التقديم والتأخير ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أعطيكم منها بين
أحوانه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة كذلك لا يدعي أن عنده خزائن
الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل والمراد بخزائن
الله خزائن رزقه وقال ابن الأنباري الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو
عن الخلق والأول أولى لقوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أدعي أني أعلم بغيب الله بل لم أقل لكم إلا
إني نذير مبين إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم وما نراك اتبعك إلا الذين هم
أراذلنا بادي الرأي أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم وفي الباطن لم يتبعوك فقال لهم إني إنما أحكم
على الظاهر لأني لا أعلم الغيب فأحكم به ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرا مثلنا
فإن البشرية ليست من موانع النبوة من مباديها وقد استدل بهذا من قال إن الملائكة أفضل
من الأنبياء والأدلة في هذه المسألة مختلفة وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة فليست هي
مما كلفنا الله بعلمه ﴿ولا أقول للذين﴾ أي في شأن الذين ﴿تزدري أعينكم﴾ أي تحتقر وتستصغر و
الازدراء مأخوذ من أزرى عليه إذا عابه وزرى عليه إذا احتقره والمعنى أني لا أقول لهؤلاء
المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿لن يؤتيهم الله خيرا﴾ لي توفيقا وهداية
وإيمانا وأجرا بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في
الآخرة ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئا ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾
من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء ﴿إني إذا لمن الظالمين﴾
لهم إن فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ثم جاوبوه بغير

ما تقدم من كلامه وكلامهم قالوا عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا أي خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه علينا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تقوله لنا فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته وقالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي الذي أبذله لكم وأستكثر منه قياما مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته ولكم بإيضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ أي إغواءكم فلا ينفعكم النصح مني وكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأول وتقديره ما ذكرنا وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط وأما على مذهب من يجيزه فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصحي وجزاء الشرط الثاني الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها قال ابن جرير معنى يغويكم يهلككم بعذابه وظاهر لغة العرب أن الإغواء الإضلال فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ويخذلكم عن طريق الحق وحكي عن طي أصبح فلان غاويا أي مريضا وليس هذا المعنى هو المراد في الآية وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك ومنه فسوف يلقون غيا وهو غير ما في الآية هذه هُوَ رَبُّكُمْ فإليه الإغواء وإليه الهداية وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أنكر سبحانه عليهم قولهم إن ما أوحي إلى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف فقال قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي بكسر الهمزة مصدر أجرم أي فعل ما يوجب الإثم وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس أي اكتسب الذنب وافتعله والمعنى فعلي إثمي وجزاء كسبي ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم وذكره النحاس أيضا قال قتادة إجرامي أي عملي والإجرام اكتساب السيئة واقترافها يقال جرم جرما أذنب والاسم منه الجرم بالضم والجريمة مثله

واجرم هو الفاشي في الاستعمال ويجوز جرم ثلاثيا والمعنى ان كنت افتريته فعلي عقاب جرمي
وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذفت هذه البقية لدلالة
الكلام عليها ولا يدل ذلك على انه كان شاكا لانه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول
وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ اي من اجرامكم بسبب ما تنسبون الي من الافتراء قيل وفي الكلام
حذف والتقدير لكن ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وانا بريء منه وقد اختلف
المفسرون في هذه الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه وقيل هي حكاية عن المحاورة
الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة قاله مقاتل فعلى هذا تكون الآية معترضة
في قصة نوح والاول اولى لان الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ
أَنَّهُ في محل رفع على انه نائب الفاعل الذي لم يسم ويجوز ان يكون في محل نصب بتقدير الباء
اي بانه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ وفي الكلام تأييس له من ايمانهم وانهم مستمرون
على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن احد منهم الا من قد سبق ايمانه او المراد الا من استعد للايمان
وتوقع منه ولا يراد ظاهره والا كان المعنى الا من آمن فانه يؤمن وقيل ان الاستثناء منقطع وهو
على طريقة قوله الا ما قد سلف قال قتادة وذلك حين دعا عليهم نوح قال لا تذر على الارض
من الكافرين ديارا وعن الحسن قال ان نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع
عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ البوس الحزن اي فلا تحزن
عليهم قاله ابن عباس والبائس المستكين فنهاه الله سبحانه عن ان يحزن حزن مستكين لان
الابتئاس حزن في استكانة يقال ابتأس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين ثم ان الله سبحانه
لما اخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم والهمه الامر الذي يكون به خلاصه وخلاص من
آمن معه فقال وَاصْنَعِ الْفُلْكَ الظاهر انه امر ايجاب لانه لا سبيل الى صون روح نفسه وارواح غيره
من الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب اي
اعمل السفينة متلبسا بِأَعْيُنِنَا اي بمرأى منا او بابصارنا لك وهو مجاز عن كلاءة الله بالحفظ
وعبر بالاعين عن ذلك لانها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب وقيل
بعلمنا ذلك وجمع الاعين للتعظيم لا للتكثير وقيل معناها باعين ملائكتنا الذين جعلناهم

عيوننا على حفظك وقيل بامرنا والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فيجب امرارها على ظاهرها من دون تاويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تقدير ومعنى وَوَحْيِنَا بما اوحينا اليك من كيفية صنعتها وقال ابن عباس بعين الله ووحيه ولم يعلم كيف يصنع الفلك فاوحى الله اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا قيل هم امرأته وابنه اي لا تطلب امهالهم وترك اهلاكهم اي لا تراجعني ولا تكلمني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ تعليل لما قبله اي فانهم محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تاخيره وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتاخر اغراقهم عنه وَطفق يَصْنَعُ الْفُلْكَ اي اخذ وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين وقيل ثلاثين سنة فكان طولها ثلثمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا والذراع الى المنكب وكانت من خشب الساج لها ثلاث بطون واطباق سفلى ووسطى وعليا وكان بابها في عرضها وغير ذلك وقيل غير ذلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ اي جماعة مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ كل ظرفية وما مصدرية ظرفية اي كل وقت مرور قوم استهزؤا به لعمله السفينة والجملة في محل نصب على الحال قال الاخفش والكسائي يقال سخرت به ومنه وفي وجه سخريتهم منه قولان احدهما انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجارا وكان يصنعها في برية في ابعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة والثاني انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا يا نوح ما تصنع بها قال امشي بها على الماء فعجبوا من قوله وسخروا به ثم اجاب عليهم بقوله إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا وهذا الكلام مستانف على تقدير سؤال كانه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ غدا عند الغرق ومعنى السخرية هنا الاستجهال اي ان تستجهلونا فانا نستجهلكم وهذا على سبيل المشاكلة اذ السخرية لا تليق بعقلاء الانبياء وقيل انه يجزائهم من جنس صنيعهم فلا يقبح كَمَا تَسْخَرُونَ اي تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم

ومشافهتهم الا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده والتشبيه لمجرد التحقق والوقوع او التجدد والتكرر والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك او متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك وقيل معناه نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق وفيه نظر فان حمل هذا المراد ذالك لا تناسبه السخرية اذ هو في شغل شاغل عنها ثم هدد هم بقوله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ موصولة في محل نصب او استفهامية في محل رفع اي ايُّنا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ اي يهينه وهو عذاب الغرق في الدنيا قاله ابن عباس والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار وَيَحِلُّ في التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح اي ينزل عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ في الاخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها وقيل معنى يحل يحصل الموجل حالا ماخوذ من حلول الدين الموجل واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ والحاكم عن عايشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نوح مكث في قومه الف سنة الا خمسين عاما يدعوهم حتى كان اخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري قال سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت ام الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب الماء بها فلو رحم الله منهم احدا لرحم ام الصبي وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم وقد روي في صفة السفينة وقدرها احاديث وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله واصنع الفلك باعيننا وما بينهما اعتراض والمراد بالامر العذاب او وقته وهو واحد الامور لا الاوامر ويصح ان يراد الثاني على معنى جاء امرنا بركوب السفينة وَفَارَ التَّنُّورُ اي غلى واختلف في تفسير التنور على اقوال الاول انها وجه الارض والعرب تسمي وجه الارض تنورا واشرف موضع فيها روي ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة الثاني انه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدئ منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن

وهو قول أكثر المفسرين قيل وهذا أولى لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على
الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه الثالث أنه موضع اجتماع الماء
في السفينة روي هذا عن الحسن الرابع أنه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر روي ذلك عن علي
بن أبي طالب الخامس أنه مسجد الكوفة روي ذلك عن علي أيضا ومجاهد وقال مجاهد كان ناحية
التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله أنه ما فار إلا من
ناحية الكوفة السادس أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة قاله قتادة السابع أنه العين التي
بالجزيرة المسماة عين الوردة وهي بالشام روي ذلك عن عكرمة وبه قال مقاتل الثامن أنه
موضع بالهند قال ابن عباس كان تنور آدم بالهند وكانت حواء تخبز فيه وصار إلى نوح قال النحاس
وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض
قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان
علامة هكذا قال وفيه نظر فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع
الماء إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا وقد ذكر أهل اللغة أن الفور الغليان يقال
فار الماء يفور فورا نبع وجرى وفارت القدر فورا من باب قال وفورانا غلت وعلى هذا لا تجوز
في الآية إلا من حيث نسبة الفوران إلى التنور وهو اسم أعجمي عربته العرب وعلى هذا فلا اشتقاق
له وقيل فارسي لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون
وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وإنه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول
ويعزى هذا لثعلب وقيل فعول ويعزى لأبي علي الفارسي وقيل معنى فار التنور التمثيل بحضور
العذاب كقولهم حمي الوطيس إذا اشتد الحرب وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الأمر وقيل كان
من حجر لحواء فصار إلى نوح وقد روي في تفسير التنور غير هذا ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان
في ثالث عشر من أبيب في شدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة
قلنا يا نوح احمل فيها أي في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا
وأنثى وقرئ من كل بتنوين أي من كل شيء زوجين والزوجان للاثنين اللذين لا يستغني
أحدهما عن الآخر ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوج وللمرأة زوج والمراد

هنا اي من كل فردين متزاوجين اثنين بان تحمل من الطير ذكرا وانثى ومن الغنم ذكرا وانثى وهكذا او تترك الباقي والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد او تبيض ليخرج الحشرات والتي تتولد من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيئا ويطلق الزوج على الاثنين اذا استعمل مقابلا للفرد ويطلق الزوج على الضرب والصنف ومنه قوله تعالى وانبتت من كل زوج بهيج قال الرازي واما ما يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يغرق من الغرق وايضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيما انتهى واحمل اهلك والمراد امرأته منه وبنوه ونساؤهم الا من سبق عليه القول اي من تقدم الحكم عليه بانه من المغرقين في قوله او في قوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون على الاختلاف الشائع فيهم ممن جعلهم جميع الكفار من اهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها واهلك ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته الكافرة واعلة او كنعان جعل الاستثناء من اهلك ويكون متصلا ان اريد بالاهل ما هو اعم من المسلم والكافر منهم ومنقطعا ان اريد بالاهل المسلمون منهم فقط واحمل من آمن معك في السفينة وافرد الاهل منهم لمزيد العناية بهم او للاستثناء منهم على القول الآخر ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال وما آمن معه الا قليل قيل هم ثمانية انسانا ثلاثة من بنيه وهم سام وحام و يافث وزوجاتهم ونوح وامرأته وبه قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي وقيل كانوا ثمانين رجلا احدهم جرهم قاله ابن عباس ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل وقيل كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل هم نوح وبنوه وستة نفر آمنوا بنوح وازواجهم جميعا وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنائن له قاله الاعمش وقيل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة قاله مقاتل وقيل غير ذلك قال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال عز وجل وما آمن معه الا قليل ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اركبوا فيها القائل نوح وقيل الله سبحانه

والأول أولى لقوله إن ربي لغفور رحيم والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب
الدابة أو مجازاً نحو ركبه الدين وفي الكلام حذف أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد أن
ركب يتعدى بنفسه وقيل إن الفائدة في زيادة في أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة
لا على ظهرها وقيل بل إنها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله فإذا
ركبوا في الفلك وقوله حتى إذا ركبا في السفينة قيل ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد إدخال
ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك وقال للمؤمنين
اركبوا فيها ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين ولا
يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات أو يكون هذا على طريقة التغليب وقد روي
في صفة القصة وما حمله نوح في السفينة وكيف كان الغرق وكم بقيت السفينة على ظهر الماء
روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه بِسْمِ اللَّهِ متعلق باركبوا وحال من
فاعله أي اركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا بضم الميم فيهما من أجريت
وأرسيت على أنهما اسما زمان وهما في موضع نصب على الظرفية أي وقت إجرائها و
إرسائها أو مكانهما على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو للمصدر والمضاف محذوف
كقولهم آتيك خفوق النجم وقرئ الأول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان و
قرئ بفتحهما فيهما من جرى ورسى وهذه شاذة وقرئ مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا بلفظ اسم الفاعل
مجروري المحل على أنهما وصفان لله ويجوز أن يكونا في موضع رفع بإضمار مبتدأ أي هو مجريها
ومرسيها والرسو الثبات والاستقرار قال مجاهد في الآية أي حين تركبون وتجرون وترسون و
عن الضحاك قال كان إذا أراد أن ترسي قال بسم الله فرست وإذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت
إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ للذنوب رَحِيمٌ بعباده ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء
هذا الجنس الحيواني وعدم استيصاله بالغرق أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن
الحسن بن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا بسم الله
الملك الرحمن بسم الله مجريها الآية وما قدروا الله حق قدره الآية وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ أي فركبوا
مسمين والسفينة تجري والجملة مستأنفة أو حالية ولذلك فسره الزمخشري بقوله أي تجري وهم فيها

فِي مَوْجٍ جمع موجة وهي ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه في خلاله
كَالْجِبَالِ شبهها بالجبال المرتفعة على الارض اي كل موجة منه كالجبل في تراكمها وارتفاعها
وعظمها قال اهل السير ارتفع الماء على اعلى جبل واطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى
اغرق كل شيء وعم العباد وشمل كل البلاد وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ هو كنعان وقيل يام وكان كافرا
واستبعد كون نوح ينادي من كان كافرا مع قوله رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا واجيب
بانه كان منافقا فظن نوح انه مؤمن وقيل حملته شفقة الابوة على ذلك وكان من صلبه على
المعتمد وقال ابن عباس هو ابنه غير انه خالفه في النية والعمل وقيل انه كان ابن امرأته ولم
يكن ابنه ويؤيده ما روي ان عليا قرأ ونادى نوح ابنها وقيل انه كان لغير رشده وولد
على فراش نوح ورد بان قوله هذا وقوله ان ابني من اهلي يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة
منصب النبوة فان جناب الانبياء ادفع من ان يشار اليه باصبع الطعن وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ اي
في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح اركبوا فيها وقيل في
معزل من دين الله وقيل من السفينة قيل وكان هذا النداء قبل ان يستيقن الناس الغرق
بل كان في اول فور التنور قبل سير السفينة يَا بُنَيَّ اصله بثلاث ياءات ياء التصغير ولام الكلمة
وياء المتكلم ارْكَبْ مَعَنَا في السفينة اي اسلم واركب قال ملا علي الجيلاني الظاهر ان معنى الآية
اسلم لتستحق الركوب معنا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ في البعد عنا فتهلك معهم نهاه عن الكون معهم
خارج السفينة ويمكن ان يراد بالكون معهم الكون على ما ينهم في الكفر ثم حكى الله سبحانه ما اجاب
ابن نوح على ابيه فقال قَالَ سَآوِي اي سالتجيء واصير إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي اي يمنعني بارتفاعه وعلوه
مِنَ وصول الْمَاءِ الي قَالَ اي فاجاب عنه نوح بقوله لَا عَاصِمَ اي لا مانع الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فانه
يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم
من الغرق في ذلك اليوم اندراجا اوليا وعبر عن الماء او عن الغرق بامر الله سبحانه تفخيما
لشانه وتهويلا لامره إِلَّا مَنْ رَحِمَ وقرئ على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قال الزجاجي اي
لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقسي ومتصل على ان يكون عاصم بمعنى معصوم اي
لا معصوم اليوم من امر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية واختار هذا الوجه ابن جرير

والزمخشري وتبعه القاضي وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر والتقدير لا عاصم قط
الا مكان من رحم الله وهو السفينة وح فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله
فهو معصوم فكيف يصح استثناؤه عن العاصم لان في كل وجه من هذه الوجوه دفعا للاشكال
وذكر صاحب الانتصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا اربعة لا عاصم الا راحم لا معصوم الا
مرحوم لا عاصم الا مرحوم لا معصوم الا راحم فالاولان استثناء من الجنس والاخيران استثناء
من غير الجنس فيكون منقطعا اي لكن المرحوم يعصم على الاول ولكن الراحم يعصم من اراد على
الثاني وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ اي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين
ابن نوح وبين الجبل والاول اولى لان تفرع فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ عليه يدل على الاول لا على الثاني
لان الجبل ليس بعاصم قال عكرمة لا ناجي الا اهل السفينة والمعنى فصار او فكان كنعان من المغرقين
في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء وَقِيلَ اي بعد ما انتهى الطوفان واغرق الله قوم نوح وقيل
في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ان
يقول له كن فيكون يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد
لغتان حكاهما الكسائي والفراء والبلع الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة وهي الموضع الذي
يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام اذا ازدرده واستعير البلع الذي
هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج
وقال عكرمة ابلعي هو بالحبشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن جعفر بن محمد عن ابيه
قال معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله اقول وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في
لغة العرب ظاهر مكشوف فالتوافق بين اللغات والحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي
الاقلاع الامساك يقال اقلع المطر اذا انقطع واقلع عن الشيء اذا تركه وهو قريب من الاول والمعنى
امر السماء بامساك الماء عن الارسال قيل ميز الله بين المائين فما كان من ماء الارض امرها
فبلعته وصار ماء السماء بحارا وخوطبت الارض وال بالبلع لان الماء نبع منها اولا قبل ان تمطر السماء
وَغِيضَ الْمَاءُ اي نقص ونضب يقال غاض الماء وغضته انا وهو لازم ومتعد فمن اللازم
قوله تعالى وما تغيض الارحام اي تنقص وقيل بل هو هنا متعد ايضا وسماعي من المتعدي هذا

الآية لانه لا يبنى المفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدي بنفسه وَقُضِيَ الْأَمْرُ أي أحكم
وفرغ منه يعني اهلاك الله قوم نوح على تمام واحكام وانجز ما كان وعد قاله القرطبي وَاسْتَوَتْ
عَلَى الْجُودِيِّ أي استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي في العاشر من محرم وهو
جبل بقرب الموصل وقيل ان الجودي اسم لكل جبل وقيل هو بالشام وقيل بآمل وفي الحديث
لقد بقي منها شيء ادركه اوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد
ان طافت الارض كلها ستة اشهر وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ القائل هو الله سبحانه ليناسب
صدر الآية وقيل هو نوح واصحابه والمعنى وقيل هلاكا لهم وهو من الكلمات التي تختص بدعاء السوء
ووصفهم بالظلم للاشعار بانه علة الهلاك ولايماء الى قوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا
قال عبد الرحمن بن خلدون اتفقوا على ان الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب
بعمران الارض اجمع بما كان من خراب المعمور وهلاك الذين ركبوا معه في السفينة لم يعقبوا
فصار اهل الارض كلهم من نسله وصار ابا ثانيا للخليقة انتهى وقال ابن الاثير في الكامل
واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقر به ويزعم انه كان في اقليم بابل وما قرب منه
وان مساكن ولد خيومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم وكذلك جميع الامم المشرقية من
الهند والفرس والصين لا يعترفون بالطوفان وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاما
ولم يتعد عقبة حلوان والصحيح ان جميع اهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى
وجعلنا ذريته هم الباقين فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث اولاد نوح انتهى وقال المقريزي
في الخطط ان جميع اهل الشرائع اتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد اجمعوا على
ان نوحا هو الاب الثاني للبشر وان العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذرأ الله جميع
اولاد آدم فليس احد من بني آدم الا وهو من اولاد نوح وخالفت القبط والمجوس واهل الهند
والصين ذلك فانكروا الطوفان وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث في اقليم بابل وما وراءه
من البلاد الغربية فقط وان اولاد كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد
الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا الى الهند والصين والحق ما عليه اهل الشرائع
وان نوحا عليه السلام لما انجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلا سوى اولاده

فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا وصار العقب من نوح في اولاده الثلاثة ويؤيد هذا قول الله تعالى
عن نوح وجعلنا ذريته هم الباقين انتهى وقد اطبق علماء البلاغة على ان هذه الآية الشريفة
بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه
قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام في علم البيان الراسخين في اللغة المطلعين
على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب واشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق
علوم العربية واسرارها وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فاطالوا واطابوا
رحمنا الله واياهم برحمته الواسعة منهم ابو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسي في تفسيره
المسمى بالنهر الماد من البحر المحيط ذكر فيه احد وعشرين نوعا من البديع وكذا السيد محمد بن اسمعيل
بن صلاح الامير في رسالته المسماة بالنهر المورود في تفسير اية هود وهو المناسبة والمطابقة
والمجاز والاستعارة والاشارة والتمثيل والارداف والتعليل وصحة التقسيم والاحتراس و
الايضاح والمساواة وحسن النسق والايجاز والتسهيم والتهذيب وحسن البيان والتمكين
والتجنيس والمقابلة والذم والوصف وبسط في بيان هذه الانواع اتم بسط وقال هذا كله نظر في
الآية من جانب البلاغة واما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني
لطيف سديد وتادية لها مخلصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يتشبك الطرق
على المرتاد بل الفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق الفاظها واما النظر فيها من جانب
الفصاحة اللفظية فالفاظها على ما ترى عربية اصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سليمة
عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسلة على الاسلات كل منها كالماء في السلاسة و
كالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة انتهى قلت النظر في هذه الآية من اربع جهات الاول من جهة علم البيان
وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الاشارة اليه والثاني من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة
كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتاخير فيما بين جملها والثالث والرابع من جهة الفصاحة المعنوية
واللفظية كما تقدم وقد ذكر طرفا من هذه الجهات الاربع النسفي في المدارك ثم قال ومن قواطع
المعاندين على ان طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شان التنزيل لا يتامل العالم
اية من اياته الا ادرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك اكثر

من المسطور انتهى وقال ابو السعود ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها
وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفسيرها المهرة المتقنون ولعمري ان ما فوق
ما يصفه الواصفون فحري بنا ان نوجز الكلام في هذا الباب ونفوض الامر الى تامل اولي
الالباب والله عنده علم الكتاب في الجمل قال بعضهم هذه الآية ابلغ آية في القرآن وقد احتوت
من انواع البديع على احد وعشرين نوعا فيها تسعة عشرة كلمة انتهى ولولا مخافة الاطناب
لاسمعناك من عندنا ما ترقص له اسماع اولي الالباب ونادى نوح ربه اي دعاه والظاهر ان هذا
النداء كان قبل سيرها لانه سؤال في نجاة ابنه ولا معنى للسؤال الا عند امكان النجاة والمراد
انه اراد دعاءه بدليل الفاء في قوله فقال رب ان ابني من اهلي وعطف الشيء على نفسه
غير سائغ فلا بد من التقدير المذكور قاله الزمخشري وقيل عطف تفسير او تفصيل اذ القول
المذكور هو عين النداء فهو مرتبط في المعنى بقوله ونادى نوح ابنه والمعنى انه من الاهل الذين وعدتني
بنجيتهم بقولك واهلك فان قيل كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ما وعد الله بقوله
واهلك وهو المستثنى منه وترك ما يفيده الاستثناء وهو الا من سبق عليه القول فيجاب بانه
لم يعلم اذ ذاك انه ممن سبق عليه القول فانه كان يظنه من المؤمنين وان وعدك الحق
الصدق الذي لا خلف فيه وهذا منه وانت احكم الحاكمين اي اتقن المتقنين لما يكون به
الحكم فلا يتطرق الى حكمك نقض وقيل اراد به اعلمهم واعدلهم اي انت اكثر علما وعدلا من
ذوي الحكم وقيل ان الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدارع ثم اجاب الله سبحانه عن نوح ببيان
ان ابنه غير داخل في عموم الاهل وانه خارج بقيد الاستثناء قال يا نوح انه يعني هذا الابن
الذي سألتني نجاته ليس من اهلك الذين آمنوا بك وتابعوك ومن اهل دينك وان كان من
اهلك باعتبار القرابة قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين انه ابن نوح من
صلبه وهو الصحيح وعن ابن عباس قال ما بغت امرأة نبي قط وان الله نص عليه بقوله ونادى
نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه بقوله يا بني ولا يجوز صرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير
ضرورة وقيل المعنى انه ليس من الذين وعدتك ان انجيهم معك وانما خالف هذا الظاهر من
خالفه لانه استبعد ان يكون ولد نبي كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله يخرج الكافر من المؤمن

والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه قد اخرج قابيل من صلب
آدم وهو نبي وكان كافرا واخرج ابراهيم وهو نبي من صلب آزر وكان كافرا فكذلك اخرج كنعان
من صلب نوح وهو كافر فهو المتصرف في خلقه كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ثم صرح
بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الاهل المبينة له بان المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب
وحده فقال إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر وقرئ على لفظ الفعل ومعنى الاولى
المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل واصله ذو عمل غير صالح كذا قال ابو اسحق الزجاجي وابو علي
الفارسي وابن الانباري والواحدي ومعنى الثانية ظاهر اي انه عمل عملا غير صالح وهو كفره
وعدم متابعته لابيه قاله ابو علي وقال ابن عباس يقول مسألتك اياي يا نوح عمل غير صالح
لا ارضاه لك وقال ابن عباس بين الله لنوح انه ليس ابنه ثم نهاه عن مثل هذا السؤال فقال فَلَا
تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من اهله فرع على ذلك النهي عن السؤال وهو
وان كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو
يدخل تحته سؤاله هذا دخولا اوليا وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقته للشرع
وسمي دعاءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال باعتبار استنجازه في شان ولده إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ
تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ اي احذرك وانهاك ان تكون جاهلا فتسأل مثل ما يسألون تقول له
يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا وسمي سؤاله جهلا لان حب الولد شغله عن تذكر استثناء
من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي وقيل المعنى ارفعك ان تكون منهم قال ابن
العربي وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها الى مقام
العلماء العاملين ثم لما علم نوح بان سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناش عن وهم كان يتوهم
بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة وقَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ اي الجأ اليك
واعتذر من أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ اي اطلب منك بعد ذلك ما لا علم لي بصحته
وجوازه وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ذنب ما دعوت به على غير علم مني وجهلي واقدامي عليه وَتَرْحَمْنِي
برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ في اعمالي فلا اربح فيها وليس في
الآية ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح سوى تاويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن

له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية وقال الخطيب خطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم في
الأكل من الشجرة فلم يصدر منه إلا هذه الزلة قِيلَ يَا نُوحُ القائل هو الله او الملائكة اهْبِطْ اي
انزل من السفينة الى الارض او من الجبل الى المنخفض منها فقد بلعت الارض ماءها وجفت
بِسَلَامٍ مِنَّا اي بسلامة وامن وقيل بتحية وعظمة وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع الارض
فعند ما خرج من السفينة علم انه ليس في الارض شيء ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف
في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من الماكول والمشروب فلما قال
الله ذلك زال عنه الخوف لان السلامة لا تكون الا مع الامن وسعة الرزق ثم اردفه تعالى
بالبركة بقوله وَبَرَكَاتٍ اي خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة مشتق من بروك الجمل وهو
ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها عَلَيْكَ وفي هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة
زلته وَعَلَى أُمَمٍ ناشية وهم المتشعبون مِمَّنْ مَعَكَ اي من ذرية من كان معك في السفينة
وهي الامم الى آخر الدهر قيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب احد منهم الا اولاد نوح السلثة
فانحصر النوع الانساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال انه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم
الف سنة وثمانية اجداد فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية اولاد نوح الى فريق مومن وفريق كافر
لا تقسيم من كان معه في السفينة اذ كانوا كلهم مؤمنين وقيل اراد من في السفينة فانهم امم
مختلفة وانواع من الحيوانات متباينة ومن تبعيضية اي على امم من ذرية من معك واليه
نحا السيوطي في تفسيره وقال ابو السعود من بيانية وانما سموا امما لانهم امم متحزبة وجماعات متفرقة
او لان جميع الامم انما تشعبت منهم فح يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ بعض
الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى امر الامم المؤمنة الناشية
منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه انتهى قيل اراد الله سبحانه بهذا الامم الذين كانوا معه
من صار مؤمنا من ذريتهم واراد بقوله وامم سنمتعهم من صار كافرا من ذريتهم
الى يوم القيامة والتقدير ومنهم امم او يكون امم والمعنى سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم
منها ما يعيشون به ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا في الآخرة او في الدنيا عَذَابٌ أَلِيمٌ وعن الضحاك قال وعلى امم ممن
معك يعني ممن لم يولد اوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة وامم سنمتعهم

يعني متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة قال محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك
السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة ودخل في ذلك العذاب الاليم كل كافر وكافرة
الى يوم القيامة وعن ابن زيد هبطوا والله راض عنهم ثم اخرج منهم نسلا منهم من رحم الله ومنهم من
عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب بالعذاب بما نزل بهم والى هنا
انتهت قصة نوح عليه السلام تِلْكَ اى قصة نوح وهو مبتدأ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ خبره اي من
جنسها والانباء جمع نبأ وهو الخبر اي اخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة نُوحِيهَا اي القصة
إِلَيْكَ خبر ثان والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة مَا كُنْتَ يا محمد تَعْلَمُهَا أَنْتَ تفصيلا خبر ثالث
والا كانت مشهورة عند كل القرون لكن اجمالا وَلَا يعلمها قَوْمُكَ يعني العرب بل هي مجهولة
عندكم وفي ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد
منهم مِنْ قَبْلِ هَذَا اي الوحي او القرآن او من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ على ما تلاقيه من كفار
زمانك كما صبر نوح على اذى قومه والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها إِنَّ الْعَاقِبَةَ المحمودة في
الدنيا والآخرة لِلْمُتَّقِينَ لله المؤمنين بما جاءت به رسله وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ع
وتبشير له بان الظفر للمتقين في عاقبة الامر ولا اعتبار بمباديه وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا
اي واحدا منهم في النسب لا في الدين وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة اوثان وقد تقدم
مثل هذا في الاعراف وقيل هم عادان الاولى والاخرى فهؤلاء هم عاد الاولى من ذرية سام بن
نوح وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله ارم ذات العماد واصل عاد اسم
رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش اربعمائة سنة
واربعا وستين سنة قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ولا تشركوا معه شيئا في العبادة مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَهٍ غَيْرُهُ في معنى العلة لما قبله قرئ غيره بالجر على اللفظ وبالرفع على محل من اله وبالنصب على
الاستثناء إِنْ أَنْتُمْ اي ما انتم باتخاذ اله غير الله وجعله شفيعا إِلَّا مُفْتَرُونَ اي كاذبون على
الله عز وجل ثم خاطبهم فقال يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا اي لا اطلب منكم اجرا على الذي
ابلغكم وانصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا اله لكم سواه فالضمير راجع الى مضمون
هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبي قومه ازاحة لما عسى ان يتوهموه وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت

مشوبة بالمطامع فهي بمعزل عن التأثير وقد تقدم معنى هذا في قصة نوح وقال هنا اجراً وهنا
مالاً تفنناً ولذكر الخزائن بعده هناك ولفظ المال بها اليق إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي اي ما
اجري الذي اطلب الا ممن خلقني فهو الذي يثيبني على ذلك أَفَلَا تَعْقِلُونَ ان اجر الناصحين
انما هو من رب العالمين ثم ارشدهم الى الاستغفار والتوبة فقال وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ اي اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل الطاعة ثم توسلوا اليه بالتوبة وقد
تقدم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ثم رغبهم في الايمان بالخير العاجل فقال يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا اي كثير الدر ودر اي السيلان والنزول والتتابع والسماء المطر يقال درت السماء
تدر فهي مدرار ولم يونثه لان المراد بالسماء المونثة السحاب والمطر كما تقدم فذكر على المعنى او ان
مفعالا للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمونث وان الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب قاله مكي
وكان قوم هود اهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن عن
الضحاك قال امسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فقال
لهم هود استغفروا الآية فابوا الا تمادياً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ اي شدة مضافة الى شدتكم او خصباً
الى خصبكم او عزاً الى عزكم قال الزجاج قوة في النعم وقال عكرمة القوة الى القوة ولد الولد وقيل كانت
قد عقمت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد وقيل قوة في الدين الى قوة الابدان وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ اي
لا تعرضوا عما ادعوكم اليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه والاجرام الآثام كما تقدم ثم اجابه قومه
بما يدل على فرط جهالتهم وعظيم غباوتهم قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ اي بحجة واضحة نعمل
عليها ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عناداً وبعداً عن الحق
والباء للتعدية او المصاحبة وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا التي نعبدها من دون الله عَنْ قَوْلِكَ اي
لاجله او تركاً صادراً عنه فعن على الاول للتعليل كما اشار اليه ابن عطية ولكن المختار الثاني ولم
يذكر الزمخشري غيره وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ اي بمصدقين في شيء مما جئت به إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ
يقال عراه الامر واعتراه اذا ألم به اي ما نقول الا انه اصابك بَعْضُ آلِهَتِنَا التي تعيبها وتسفه رأينا
في عبادتها بِسُوءٍ بجنون حتى نشأ عنه ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء
مفرغ كما قال الزمخشري ثم اجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه

وانهم لا يقدرون على شيء مما يريدونه به الكفار بل الله سبحانه هو الضار النافع قال إني أشهد الله
على نفسي واشهدوا انتم ايضا عليها أني بريء مما تشركون به من دونه اي من اشراككم من دون
الله من غير ان ينزل به سلطانا فكيدوني جميعا انتم والهتكم ان كانت كما تزعمون من انها تقدر
على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء ثم لا تنظرون اي لا تمهلوني بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم
واحتالوا في هلاكي وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وباصنامهم التي يعبدونها ما يصك
مسامعهم ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة إني توكلت
على الله ربي وربكم فهو يعصمني من كيدكم وان بلغتم في تطلب وجوه الاضرار بي كل مبلغ فمن
توكل على الله كفاه ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلايته وصفه بما يوجب التوكل
عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال ما من دابة
تدب على الارض إلا هو آخذ بناصيتها اي ان ناصية كل دابة من دواب الارض بيده وفي
قبضته وتحت قهره وانتم من جملة الدواب فلا تؤثروا في شيئا وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل
وكانوا اذا اسروا الاسير وارادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره قال
الفراء معنى آخذ بناصيتها مالكها والقادر عليها وقال القتيبي قاهرها لان من اخذت بناصيته
فقد قهرته والناصية قصاص الشعر من مقدم الراس ويسمى الشعر النابت ايضا ناصية باسم محله
ثم علل ما تقدم بقوله إن ربي على صراط مستقيم اي هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطهم علي
وقيل ان دين ربي هو الصراط وقيل ان ربي يحملكم على صراط وقيل ان ربي
يدل على صراط والاول اولى فإن تولوا اي تستمروا على الاعراض عن الاجابة والتصميم
على ما انتم عليه من الكفر فلا ابالي ولا علي مواخذة في شأنكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به
إليكم وليس علي الا ذلك وقد لزمتكم الحجة ويستخلف ربي قوما غيركم جملة مستأنفة لتقرير الوعيد
بالهلاك اي يستخلف في دياركم واموالكم قوما آخرين ولا تضرونه شيئا بتوليكم ولا تقدرون
على كثير من الضرر ولا حقير إن ربي على كل شيء حفيظ اي رقيب مهيمن عليه يحفظه من
كل شيء قيل وعلى بمعنى اللام فيكون المعنى لكل شيء حفيظ فهو يحفظني من ان تنالوني بسوء ولما جاء أمرنا
اي عذابنا النازل بهم وهو الريح العقيم نجينا هودا والذين آمنوا معه من قومه من هذا العذاب

وكانوا اربعة الآف برحمة عظيمة كائنة منا لانه لا ينجو احد من العذاب الا برحمة الله وقيل
هي الايمان ونجيناهم من عذاب غليظ اي شديد في الآخرة وقيل هو السموم التي كانت تدخل
انوفهم في الدنيا والى هنا تمت القصة وتلك عاد اشارة اعتبارا بالقبيلة قال الكسائي ان من
العرب من لا يصرف عادا ويجعله اسما للقبيلة وقيل اشارة الى آثارهم كقبورهم ونحوها جحدوا
بآيات ربهم اي كفروا بها وكذبوها وانكروا المعجزات وعصوا اي رؤساؤهم وسفلتهم رسله
اي هودا وحده لانه لم يكن في عصره رسول سواه وانما جمع هنا للتعظيم او لان من كذب رسولا
فقد كذب جميع الرسل وقيل انهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل او كانوا بحيث لو بعث
الله اليهم رسلا متعددين لكذبوهم واتبعوا امر كل جبار عنيد الجبار المتكبر والعنيد الطاغي
الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم قال ابو عبيدة العنيد والعنود والعاند والمعاند هو
المعارض بالخلاف منه ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عاند وعن قتادة قال عنيد شرك
وقال السدي العنيد المشاق واتبعوا اي جميعهم او السفلة والرؤساء في هذه الدنيا لعنة اي
الحقوها على لسان الانبياء واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرد من الخير والمعنى انها لازمة
لهم لا تفارقهم ما داموا في الدنيا و اتبعوها يوم القيامة فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا قال
السدي لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه وقال قتادة تتابعت عليهم لعنتان من الله
لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة الا ان عادا كفروا ربهم قال الفراء اي بنعمة ربهم يقال كفرته
وكفرت به مثل شكرته وشكرت له الا بعدا لعاد قوم هود اي لا زالوا مبعدين من رحمة الله ع
والبعد الهلاك والتباعد من الخير يقال بعد يبعد بعدا اذا تأخر وتباعد وبعد يبعد بعدا اذا هلك
والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق و
قد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك والى ثمود اخاهم صالحا وهم كان الحجر
فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم وقرأ الحسن ثمود بالتنوين
في جميع المواضع واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع
بالقبيلة وهكذا سائر ما يصرف فيه التاويلان وبين صالح وهود مائة سنة وعاش صالح مائتين و
ثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة وتقدم في الاعراف بسط قصتهم قصصا لنا قد ذكرنا ههنا

والكلام فيه وفي قوله قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره كما تقدم في قصة هود هو أنشأكم
من الأرض أي ابتدأ خلقكم لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق منها فمن لابتداء الغاية وقيل
هي بمعنى في واستعمركم فيها أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلانا داره فهي له
عمرى فيكون استفعل بمعنى أفعل مثل استجاب بمعنى أجاب فالسين والتاء زائدتان وقال الضحاك معناه
أطال عمركم وكانت أعمارهم ثلثمائة إلى ألف سنة وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس
الأشجار وقال ابن زيد استخلفكم فيها فاستغفروه أي سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ثم توبوا
إليه أي ارجعوا إلى عبادته إن ربي قريب مجيب أي قريب الإجابة لمن دعاه وقد تقدم القول فيه
في البقرة عند قوله تعالى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان قالوا يا صالح قد كنت فينا
مرجوا أي كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من
مخائل الرشد والسداد لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم قبل هذا الذي
أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون
رجوعه إلى دينهم فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك والاستفهام في قوله أتنهانا
أن نعبد ما يعبد آباؤنا للإنكار أنكروا عليه هذا النهي والمعنى ما كان يعبد آباؤنا فهو حكاية
حال ماضية لاستحضار الصورة وإننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله مريب من أربته
فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب الرجل
إذا كان ذا ريبة والإسناد مجازي للمبالغة كجد جده والظاهر أن الأول مجاز أيضا والمعنى أننا
مرتابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان قال يا قوم أرأيتم قال ابن عطية هي
من رؤية القلب والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لأرأيتم قال الشيخ والذي تقرر
أن أرأيت ضمن معنى أخبرني وعلى تقدير أن لا يضمن فجملة الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت
إن كنت على بينة من ربي أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح وآتاني منه أي من جهته رحمة أي
نبوة وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين
لأنهم في شك من ذلك كما وصفوا عن أنفسهم وعبارة الشهاب لأنه من باب إرخاء العنان فمن
ينصرني من الله استفهام معناه النفي أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في

لانه معناها وهو المنع ولذا عدي بمن إِنْ عَصَيْتُهُ في تبليغ الرسالة ورافقتكم وفترت عما يجب
علي من البلاغ فَمَا تَزِيدُونَنِي بتثبيطكم اياي غَيْرَ تَخْسِيرٍ بان تجعلوني خاسرا بابطال عملي وما
منحني الله والتعرض لعقوبة الله قال الفراء اي تضليل وابعاد من الخير وقيل المعنى فما تزيدونني
باحتجاجكم بدين اباءكم غير بصيرة بخسارتكم وقال مجاهد وعطاء الخراساني ما تزدادون انتم
الا خسارا وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً اي معجزة ظاهرة وقد مر تفسير هذه الآية في الاعراف
وانما قال هذه ناقة الله لانه اخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم وقيل من صخرة صماء والاضافة
للتشريف كبيت الله وعبد الله فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ اي فدعوها تأكل مما فيها من المراعي التي تأكلها
الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها وهذا من تتمة الزامهم وقال الكرخي اي ترع نباتها وتشرب
ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو تقيكم الحر و جعل تأكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ قال الفراء بعقر والظاهر ان النهي عما هو اعم من ذلك فَيَأْخُذَكُمْ ان قتلتموها
عَذَابٌ قَرِيبٌ في الدنيا جواب النهي اي قريب من عقرها وذلك ثلاثة ايام فَعَقَرُوهَا اي فلم
يمتثلوا الامر من صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها وعقرها قدار وهو من
اشقى الاشقياء فَقَالَ لهم صالح تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ اي بالعيش في منازلكم وبلادكم ومساكنكم فان
العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لان الحي يكون متمتعا بالحواس ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثم
تهلكون قيل عقروها يوم الاربعاء فاقاموا الخميس والجمعة والسبت واتاهم العذاب يوم الاحد
ذَلِكَ اي التمتع ثلاثة ايام وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فيه فحذف الجار اتساعا ومن [illegible]
اذا وفي به صدق ولم يكذب ويجوز ان يكون مصدرا اي وعد غير كذب فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا اي عذابنا
او امرنا بوقوع العذاب نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ عظيمة مِنَّا قد تقدم تفسير
هذا في قصة هود والباء للسببية او للمصاحبة وهي بالنسبة لصالح النبوة وبالنسبة الى المؤمنين
الايمان وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ وهو هلاكهم بالصيحة وسمي خزيا لان فيه خزيا للكفار
والخزي الذل والمهانة وقيل من عذاب يوم القيامة والاول اولى ويومئذ بكسر الميم اعرابا
وفتحها بناء للاضافة الى مبني قال السيوطي وهو الاكثر اي في الاستعمال والا فهما قراءتان سبعيتان
على السواء إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء والخطاب لرسول الله صلى الله

والقصة تمت عند قوله يومئذ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ اي في اليوم الرابع من عقر الناقة صيح
بهم فماتوا وذكر الفعل لان الصيحة والصياح واحد مع كون التانيث غير حقيقي والصيحة فعلة
تدل على المرة من الصياح وهو الصوت الشديد يقال صاح يصيح صياحا اي صوت بقوة قيل
صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم في الاعراف فاخذتهم الرجفة
قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ميتين صرعى هلكى ساقطين
على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير اذا جثمت والجثوم كالركوب من البعير والفاعل جاثم
وجثام مبالغة يقال جثم الطائر والارنب يجثم كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا اي كانهم لم يقيموا في بلادهم
او ديارهم ولم يعيشوا فيها ولم يعمروا ولم ينعموا والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط
يقال غنيت بالمكان اذا اتيته واقمت فيه أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وضع الظاهر موضع المضمر
لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ بالصرف مح
وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف
بما يحتاج الى مراجعته ليضم ما في احدى القصتين من الفوائد الى الاخرى وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
إِبْرَاهِيمَ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافا الى الضمير فالخلاف وما اذا اضيف الى مظهر فليس فيه الا ضمها
وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة هنا توطية لقصة لوط لا استقلالا ولذا لم يذكرها على
اسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وارسلنا ابراهيم الى كذا وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمسا وخمسين
وسبعين سنة وبينه وبين نوح الفا سنة وستمائة سنة واربعون سنة وابنه اسحاق عاش مائة
وثمانين سنة ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وخمسا واربعين سنة ولوط عليه السلام
هو ابن اخي ابراهيم عليه السلام وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشام وابراهيم ببلاد فلسطين
فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بابراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده يحسن
قراه وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة الآتية فظنهم اضيافا وهم جبريل وميكائيل
واسرافيل قاله عطاء وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك وقيل احد عشر قاله السدي وقيل اثنى
عشر قاله مقاتل وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك قاله محمد بن كعب القرظي والاول اولى
لان اقل الجمع ثلاثة بِالْبُشْرَىٰ التي بشروه بها هي بشارته بالولد وقيل باهلاك قوم لوط والاول اولى

قالوا سلاما اي سلمنا عليك سلاما وهذه تحيتهم التي وقعت منهم وهي لفظ سلاما قال
لهم ابراهيم سلام اي امركم سلام او عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جوابا وهي لفظ سلام
وحياهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الاولى ابلغ من الثانية فكانت
تحية احسن من تحيتهم كما قال تعالى فحيوا باحسن منها فما لبث اي ابراهيم ان جاء بعجل
حنيذ قال اكثر النحاة ان هنا بمعنى حتى وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء اي ما ابطأ ابراهيم عن
مجيئه بعجل وما نافية قاله سيبويه وقال الفراء مصدرية اي فما لبث مجيئه اي ما ابطأ وقيل
ان ما موصولة والتقدير فالذي لبث ابراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوي مطلقا وقيل المشوي بحر
الحجارة من غير ان تمسه النار وهذا من فعل اهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها
فوق حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول و
انما جاءهم بعجل لان البقر كانت اكثر امواله فلما رأى الرؤية بصرية اي بصر ايديهم لا تصل
اليه اي لا يمدونها الى العجل المشوي كما يمد يده من يريد الاكل نكرهم يقال نكرته وانكرته واستنكرته
اذا وجدته على غير ما تعهد ويقال انكرت لما تراه بعينك ونكرت لما تراه بقلبك قيل وانما
استنكر منهم ذلك لان عادتهم ان الضيف اذا نزل بهم ولم ياكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء
بشر ولم يأت بخير قاله قتادة وفي الذاريات قوم منكرون اي غرباء لا اعرفهم قال ذلك في نفسه
كما قاله ابن عباس وقيل انما انكر امرهم لانهم دخلوا عليه من غير استئذان وقال ابو العالية
انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الارض واوجس منهم اي احس في نفسه خيفة اي
خوفا وفزعا وقيل معنى اوجس اضمر في نفسه والاول الصق بالمعنى اللغوي والوجس هو رجف القلب
والايجاس الادراك وقيل الاضمار وفي السمين الايجاس حديث النفس واصله من الدخول كان الخوف
داخله والوجيس ما يعتري النفس اوان الفزع ووجس في نفسه كذا اي خطر بها يجس وجسا ووجوسا
ووجيسا وكانه ظن انهم قد نزلوا به لامر ينكره او لتعذيب قومه قالوا لا تخف قالوا له ذلك مع كونه
لم يتكلم بما يدل على الخوف بل اوجس ذلك في نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بامارات كظهور
اثره على وجهه او قالوه له بعد ما قال عقب ما اوجس في نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف كما في
قوله في سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بما هنالك ثم عللوا نهيه عن الخوف

بقولهم انا ارسلنا الى قوم لوط خاصة ولوط اول من آمن بابراهيم وابوه هاران اخو ابراهيم ولم يكن
ان يكون ابراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه كما قال فما خطبكم ايها المرسلون
قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين وامرأته اي سارة زوجة ابراهيم وهي ابنة هارون بن ناحور وهي
ابنة عم ابراهيم قائمة قيل كانت قائمة عندهما وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت
واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس والجملة مستأنفة او حالية فضحكت الضحك هنا هو الضحك
المعروف الذي يكون للتعجب او للسرور كما قاله الجمهور واصل الضحك انبساط الوجه من ... يحصل للنفس
ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد
ايضا وعليه اكثر المفسرين وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض والعرب تقول ضحكت الارنب اذا حاضت وقد
انكر بعض اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت قال الراغب وقول من قال حاضت ليس
تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها جعل ذلك
امارة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس منكرا لان المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل
قال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت
وقال ابن الانباري قد انكر الفراء وابو عبيدة ان يكون ضحكت بمعنى حاضت وقال في المحكم ضحكت المرأة
حاضت والاول اولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة وظاهر النص انها ضحكت قال
قتادة ضحكت تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما اتاهم من العذاب وقال السدي ضحكت تعجبا من
عدم اكلهم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف ابراهيم من ثلثة وهو فيما بين خدمه وحشمه
وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم حين قالوا لا تخف وقيل ضحكت سرورا
من البشارة وقال وهب ضحكت تعجبا من ان يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها وقيل غير ذلك
مما ليس في ذكره كثير فائدة والله اعلم مما ضحكت قال ابن عباس حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة
وعن مجاهد قال وكان ابراهيم ابن مائة سنة فبشرناها باسحق ظاهرة ان التبشير كان بعد
الضحك وقال الفراء فيه تقديم وتاخير والمعنى فبشرناها فضحكت سرورا بالولد وولد اسحق بعد
البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسماعيل باربعة عشر سنة ومن وراء اي وهبنا لها من
وراء اسحق يعقوب وقرئ بجر يعقوب وضعفه الفراء وقرئ بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي

قبله وبالنصب وهما سبعيتان وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لابراهيم في قوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم لان كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما قال ابن عباس هو ولد الولد اي فبشرت بانها تعيش حتى ترى ولد الولد مع قدرتها قَالَتْ يَا وَيْلَتَى مستانفة كانه قيل فماذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تقع كثيرا على افواه النساء اذا طرأ عليهن ما يعجبن منه واصل الويل الخزي ثم شاع في كل امر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة و الاستفهام في قولها أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ للتعجب اي كيف ألد وانا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز عجزا مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا اي طعنت في السن ويقال عجوز وعجوزة واما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت عجيزتها وَهَذَا بَعْلِي اي زوجي ابراهيم شَيْخًا لا يحبل من مثله النساء والبعل هو المستعلي على غيره والزوج مستعل على المرأة قائم بامرها فسمي بعلا لذلك قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم وقد كان ولد لابراهيم من هاجر امته اسماعيل فتمنت سارة ان يكون لها ابن وايست منه لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته وكانت بين الولادة والبشارة سنة إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ اي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونهما في هذه السن العالية التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مستانفة جواب سؤال مقدر والاستفهام فيها للانكار اي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل عليه شيء وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك وانما انكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لانها من بيت النبوة ولا يخفى على مثلها ان هذا من مقدوراته سبحانه ولهذا قالوا رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ اي الرحمة التي وسعت كل شيء والبركات هي النمو والزيادة وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وانتصاب اهل البيت على المدح او الاختصاص وبين النصبين فرق ذكره السمين وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم وقيل خطاب لها ولاهله وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل من اهل بيته عن ابن عباس انه كان ينهى عن ان يزاد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويتلو هذه الآية وعن ابن عمر نحوه إِنَّهُ حَمِيدٌ اي يفعل موجبات الحمد من عباده على

سبيل الكثرة حميد مجيد كثير الاحسان الى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام
وقال الخطابي المجيد الواسع الكرم واصل المجد في كلامهم السعة وقيل هو ذو الشرف والكرم
والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ فلما ذهب عن ابراهيم الروع اي الخيفة التي اوجسها
في نفسه يقال ارتاع من كذا اذا خاف قال جماعة الروع الفزع وهو الخوف وقيل الفرح وجاءته
البشرى اي بالولد او بقولهم لا تخف يجادلنا في قوم لوط قال الاخفش والكسائي ان يجادلنا في موضع
جادلنا فيكون هو جواب لما لما تقرر من ان جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل قال النحاس جعل
المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ويجادلنا
في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترى على خطابنا
حال كونه يجادلنا اي يجادل رسلنا وقيل ان المعنى اخذ وجعل يجادلنا ومجادلته لهم قيل انه
سمع قولهم انا مهلكوا اهل هذه القرية قال ارايتم ان كان فيهم خمسون من المسلمين اتهلكونهم قالوا
لا قال فاربعون قالوا لا قال فعشرون قالوا لا قال فعشرة فخمسة قالوا لا قال فواحد قالوا لا قال ان فيها لوطا قالوا
نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الآية وعن ابن عباس قال لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا
لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب فهذا معنى مجادلته في قوم لوط اي في
شانهم وامرهم وقيل معناه يكلمنا ويسألنا لان العبد لا يقدر ان يخاصم ربه وان كان نبيا ولهذا
قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا ثم اثنوا على ابراهيم واثنى الله عليه فقال ان ابراهيم
لحليم اي ليس بعجول في الامور ولا يوقع لها على غير ما ينبغي اواه اي كثير التاوه والرحيم منيب
اي راجع الى الله وقد تقدم في براءة الكلام على الاواه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله وقال
قتادة المنيب المخلص وفي الآية ما يشير الى ان المراد بالمجادلة فيما تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب
كما قاله الجمهور والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط رحمته فطلب
تاخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي يا ابراهيم اعرض
عن هذا هذا قول الملائكة له اي اعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال في امر قد فرغ منه وجف
به القلم وحق به القضاء انه قد جاء امر ربك الضمير للشان والمعنى جاء عذابه الذي قدره عليهم
وسبق به قضاؤه في ازله وانهم آتيهم عذاب غير مردود اي لا يرده دعاء ولا جدال بل هو

واقع بهم لا محالة ونازل بهم على كل حال لدين مصروف ولا مدفوع ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾
اي لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط اربعة فراسخ جاؤا الى لوط
فلما راهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ اي ساءه مجيئهم اليه يقال ساءه
يسوءه اوساءظنه بقومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قال الازهري الذرع يوضع موضع الطاقة واصله
ان البعير يذرع بيديه في سيره على قدر سعة خطوه اي يبسطها فاذا احمل عليه اكثر من
طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الامر
وقيل هو من ذرعه القيء اذا غلبه وضاق عن حبسه والمعنى انه ضاق صدره لما راى الملائكة
في تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد
مخلصا قال ابن عباس ساء ظنا بقومه وضاق ذرعا باضيافه وقيل ضاق بهم قلبا وصدرا
ولا يعرف اصله ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه ﴿وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ اي شديد كانه قد عصب به الشر والبلاء اي شد به ماخوذ من العصابة
التي يشد بها الراس يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير اي يوم مكروه يجتمع
فيه الشر ومنه عصبة وعصابة اي مجتمعوا الكلمة ورجل معصوب اي مجتمع الخلق ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ
إِلَيْهِ﴾ اي جاؤا لوطا يسرعون اليه قاله قتادة وقال الكسائي والفراء وغيرهما من اهل اللغة لا يكون
الاهراع الا اسراعا مع رعدة يقال اهرع الرجل اهراعا اي اسرع في رعدة من برد او غضب او حمى
وقيل يهرولون قاله مجاهد وقيل هو مشي بين الهرولة والجمز قاله الحسن وقال شمر هو بين الهرولة
والخبب والجمز والمعنى ان قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة اسرعوا اليه كانما يدفعون
دفعا لطلب الفاحشة من اضيافه ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ اي ومن قبل مجيء الرسل ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾
اي ياتون الرجال في ادبارهم وكانت ذلك عادتهم فلا حياء عندهم منها فلما جاؤا
الى لوط وقصدوا اضيافه لذلك العمل قام اليهم لوط مدافعا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ مخاطبا لهم وهم الخطاب
وهم من وراء الباب خارجه ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ اي تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة
باضيافي وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه ان يزوجهم بهن فيمتنع
لخبثهم ولعدم كفاءتهم وكان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما بنتيه والمراد بالجمع ما فوق

الواحد وقيل اراد بقوله هؤلاء بناتي النساء جملة لان نبي القوم اب لهم قاله ابن عباس وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال الكرخي وهذا القول اولى لان اقدام الانسان على عرض بناته على الاوباش والفجار مستبعد لا يليق باهل المروة فكيف بالانبياء وايضا فبناته لا تكفي الجمع العظيم اما بنات امته ففيهن كفاية للكل انتهى لكن فيه مخالفة لظاهر النظم وقيل كان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة المراد بناته لصلبه وفي اضيافه ببناته وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقالت طائفة انما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة وعن حذيفة بن اليمان قال عرض عليهم بناته تزويجا واراد ان يقي اضيافه بتزويج بناته ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ اي احل وانزه والتطهر التنزه عما لا يحل وليس في صيغة اطهر دلالة على التفضيل بل هي مثل الله اكبر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ اي لا تذلوني ولا تفضحوني وتجلبوا علي العار يقال خزى الرجل خزاية اي استحيى او ذل او هان وخزي خزيا اذا افتضح ﴿فِي ضَيْفِي﴾ الضيف في الاصل مصدر يطلق على الطارق ليلا الى المضيف ولذلك يقع على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث وقد يثنى فيقال ضيفان ويجمع فيقال اضياف والاول اكثر والمعنى في شأن ضيفي وحقهم فخزي الضيف خزي للضيف وذلك من عراقة الكرم واصالة المروة ثم وبخهم فقال ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يرشدكم الى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قاله ابو مالك وقال ابن عباس يعني واحد يقول لا اله الا الله والاستفهام للتوبيخ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ اي ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة لان من احتاج الى شيء فكانه حصل له فيه نوع حق ومعنى ما نسبوه اليه من العلم انه قد علم منهم المكالبة على اتيان الذكور وشدة الشهوة اليهم فهم من هذه الحيثية كانهم لا حاجة لهم الى النساء ويمكن ان يريدوا به انه لا حق لنا في نكاحهن لانه لا ينكحهن ولا يتزوج بهن الا رجل مؤمن ونحن لا نؤمن ابدا وقيل انهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم وكان من سنتهم ان من خطب فرد فلا تحل له المخطوبة ابدا ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من اتيان الذكور والرجال قاله السدي وما مصدرية او موصولة والعلم

بمعنى العرفان ولذلك تعدى لواحد اي لتعرف ما اردتنا او الذي نريد ويجوز ان تكون
استفهامية وهي معلقة للعلم قبلها ثم لما علم تصميمهم على الفاحشة وانهم لا يتركون ما قد
طلبوه قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً جواب لو محذوف اي لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ولبطشت
بكم وهذا منه عليه السلام على طريق التمني اي لو وجدت ناصرا ومعينا فسمى ما يتقوى به قوة
أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ مراده بالركن الشديد العشيرة وما يمتنع به عنهم هو ومن معه وانما
قال ذلك لانه لم يكن من قومه نسبا بل كان غريبا فيهم لانه كان اولا بالعراق مع ابراهيم فلما
هاجر الى الشام ارسله الله الى اهل سذوم وهي قرية عند حمص قال ابو هريرة ما بعث
الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته وقيل اراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير
ولده وقيل اراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي الى جند شديد لقاتلتكم وقد ثبت في الصحيحين
وغيرهما من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للوط ان كان ليأوي الى ركن
شديد وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة وقال النووي المراد بالركن الشديد
هو الله عز وجل فانه اشد الاركان واقواها وامنعها انتهى وهو يخالف ظاهر الاية والحديث المتقدم
ولما سمعت الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم قَالُوا يَا
لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ اخبروه اولا انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ وهذه
الجملة موضحة لما قبلها لانهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء
ولم يقدروا عليه ثم امروه ان يخرج عنهم فقالوا له فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ قرئ بالوصل والقطع
من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان قال تعالى والليل اذا يسر وقال سبحان الذي
اسرى وهل هما بمعنى واحد او بينهما فرق خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول
ابي عبيدة وقيل ان اسرى للسير من اول الليل وسرى للسير من اخره وهو قول الليث واما سار
فمختص بالنهار وليس مقلوبا من سرى والباء للتعدية او للمصاحبة والاهل هم بنتاه فلم يخرج
من القرية الا هو وبنتاه فقط وفي القرطبي خرج لوط وطوى الله له الارض في وقته حتى نجا ووصل
الى ابراهيم بِقِطْعٍ اي مصاحبين بقطع مِنَ اللَّيْلِ القطع الطائفة منه قال ابن الاعرابي
بساعة منه وقال الاخفش بجنح من الليل وقال الفضائل ببقية الليل وقال قتادة بعد مضي

اوله وقيل انه السحر الاول وقيل بنصف منه لانه قطعه منه مساوية لباقيه وقيل بظلمة
منه وقيل بعد هدو من الليل وقال ابن عباس بطائفة الليل وبسواده وقيل ان الباء بمعنى في
وقد تقدم الكلام على القطع في يونس باشبع من هذا وقيل ان السرى لا يكون الا في الليل فما وجه
زيادة بقطع من الليل قيل لو لم يقله لجاز ان يكون في اوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك
بمراد ﴿ولا يلتفت منكم احد﴾ اي بقلبه الى ما خلف او لا ينظر الى ما وراءه او لا يشتغل بما خلف
من مال او غيره قيل وجه النهي عن الالتفات ان لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحموهم
ويرقوا لهم او لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لا بد للملتفت
من فترة في سيره ﴿الا امرأتك﴾ بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فاسر باهلك اي اسر باهلك
جميعا الا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة وانكر قراءة الرفع جماعة منهم ابو عبيدة قال النحاس
الرفع على البدل له معنى صحيح اي لا يلتفت منكم احد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك وقيل ان
الرفع على البدل من احد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف فكانه قال ولا يتخلف
منكم احد الا امرأتك فانها تتخلف والملجئ الى هذا التاويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ﴿انه﴾
اي الشان انه ﴿مصيبها ما اصابهم﴾ من العذاب وهو رميهم بالحجارة والجملة تعليل للاستثناء
﴿ان موعدهم الصبح﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من الامر بالاسراء والنهي عن الالتفات والمعنى
ان موعد عذابهم اي وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة روي انه قال لهم متى موعد
هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال اريد اسرع من ذلك فقالوا ﴿اليس الصبح بقريب﴾ الهمزة للانكار
التقريري على حد الزمخشري للحصر لك والجملة تاكيد التعليل ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون
النفوس فيه اسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا الى اعمالهم ﴿فلما جاء امرنا﴾ اي الوقت المضروب لوقوع
العذاب فيه او المراد بالامر نفس العذاب والاول اولى ﴿جعلنا عاليها﴾ اي عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾
والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك
لان جبريل ادخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الارض حتى ادناها من السماء ثم قلبها عليهم
قال مجاهد لما اصبحوا غدا جبريل على قريتهم فقطعها من اركانها ثم ادخل جناحه ثم حملها
على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء حتى سمع اهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم

ثم قلبها فكان اول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوما ما اصابهم ثم ان الله طمس على اعينهم ثم
قلبت قريتهم وهي خمس مدائن اكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها
اربعة الاف الف وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا اي على المدن حين رفعها جبريل او على شذاذها وعلى من
كان خارجا عنها من مسافريها او من بعد قلبها قيل انه يقال امطرنا في العذاب ومطرنا في الرحمة
وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وامطرت حكى ذلك الهروي حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ هو الطين
المتحجر بطبخ او غيره وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة وقيل هو الكثير وقيل ان السجيل لفظة
غير عربية اصله سج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا وقال
سعيد معناه سنگ گل فارسي معرب لان العرب اذا تكلمت بالشيء من الفارسي صار لغة للعرب
ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق فكل هذه الفاظ فارسية تكلمت بها العرب
واستعملتها في الفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة هو الحجر الطين دليله قوله تعالى
في موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد اولها حجر وآخرها طين وقال الحسن اصل الحجارة
طين فشددت وقال الضحاك يعني الآجر وقيل هو من لغة العرب وذكر الهروي ان السجيل اسم لسماء
الدنيا قال ابن عطية وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود وقيل هو بحر معلق في الهوى بين
السماء والارض وقيل هي جبال في السماء الدنيا وقال الزجاج هو من التسجيل لهم اي ما كتب لهم من
العذاب فهو في معنى سجين ومنه قوله تعالى وما ادراك ما سجين كتاب مرقوم وقيل هو من
اسجلته اذا اعطيته فكانه عذاب اعطوه والاول اولى مَنْضُودٍ اي نضد بعضه فوق بعض
ومنه وطلح منضود اي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة وقيل بعضه في اثر بعض يقال نضدت
المتاع اذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد اي متتابع او مجموع معد للعذاب نعت
لسجيل مُسَوَّمَةً معلمة اي التي لها علامة حال من حجارة وسوغ مجيئها من النكرة تخصيص النكرة
بالوصف والتسويم العلامة قيل كان عليها امثال الخواتيم قاله الحسن والسدي وقيل مكتوب على كل
حجر اسم من رمي به وقال الفراء زعموا انها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها
قال ابن جريج عليها سيماء لا تشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على
هيئة الجزع عِنْدَ رَبِّكَ اي في خزائنه او في حكمه والخطاب للنبي صلعم وَمَا هِيَ اي الحجارة الموصوفة

وقيل العقوبة المفهومة من السياق والاول اولى لانه اقرب مذكور ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهم قوم
لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فانهم بظلمهم حقيق بان تمطر عليهم وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة ومنهم كفار
قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير للقرى اي هي قريبة من ظالمي مكة
ممن كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فانها بين الشام والمدينة يمرون بها في اسفارهم وتذكير البعيد على
تاويل الحجارة بالحجر او اجراءله على موصوف مذكر اي شيء بعيد او مكان بعيد او لكونه مصدرا
كالزفير والصهيل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث وعن مجاهد قال يرهب بها قريشا
ان يصيبهم ما اصابهم وعن السدي قال من ظلمة العرب ان لم يؤمنوا فيعذبوا بها وعن قتادة
قال من ظالمي هذه الامة وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة
متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر
طويل لا يتيسر له في مثله اسناد صحيح وغالب ذلك ماخوذ عن اهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف
وقد أمرنا بان لا نصدقهم ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحذفنا كثيرا من هذه الروايات
الكائنة في قصص الانبياء ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسما ع
للقبيلة من اولاده وهو الملائم هنا وقيل هو في الاصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير
الى اهل مدين قال المقريزي في الخطط ان مدين امة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وامهم
قطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم امم ومدين على بحر
القلزم محاذي تبوك على نحو ست مراحل وهي اكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة
شعيب وعمل عليها بيت قال الفراء مدين اسم بلد وقطر والجمهور على ان مدين اعجمي وقيل عربي
فان كان عربيا فانه يحتمل ان يكون فيعلا من مدن بالمكان اقام به وهو بناء نادر وقيل هو مفعل
من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال سواء كان اسما للارض او اسما للقبيلة عجميا او عربيا
انتهى به قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف باسط مما هنا وهم قوم شعيب ﴿أَخَاهُمْ﴾
في النسب لان ﴿شُعَيْبًا﴾ بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وقد تقدم تفسير قوله
﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ في اول السورة وهذه الجملة مستانفة كانه قيل
ماذا قال لهم شعيب عليه السلام لما ارسله الله تعالى اليهم وقد كان شعيب عليه السلام يسمى

خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه وهذه عادة الانبياء عليهم السلام يبدءون بالاهم فالاهم ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته اهم الاشياء بدأهم اليه ثم نهاهم عن ان ينقصوا المكيال والميزان لانهم كانوا مع كفرهم اهل تطفيف وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن كانوا اذا جاءهم البائع بالطعام اخذوا بكيل زائد وكذلك اذا وصل اليهم الموزون اخذوا بوزن زائد واذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ اي لا عند الاخذ ولا عند الدفع والنقص فيهما على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان الموزون به وهذا ابلغ في الامر بوفائهما إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ اي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده وهذه النعمة حقها ان تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا ان تنقصوا حقوقهم وهو في الجملة علة النهي ثم ذكر بعد هذه العلة علة اخرى فقال وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ فهذه العلة فيها الانذار لهم بعذاب الاخرة كما ان العلة الاولى فيها الانذار لهم بتعجيل الدنيا ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في اليوم فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم ومعنى احاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشذ منهم احد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا واليوم هو يوم القيامة وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة قال ابن عباس الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر ثم اكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ الايفاء هو التمام والقسط العدل وهو عدم الزيادة والنقص وان كانت الزيادة على الايفاء فضل وخير ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل والنهي عن النقص وان كان يستلزم الايفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتاكيد حسن وشدة اهتمام فلذا كرر ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل والمعنى اتموهما ولا تطففوا فيهما وقيل القسط تقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ثم زاد ذلك تاكيدا ثالثا فقال وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وقد مر تفسير هذا في الاعراف وعم فيه النهي عن البخس على العموم والاشياء اعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولا اوليا فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير وقيل البخس المكس خاصة ثم قال وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ بتطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم وقد مر ايضا تفسيره في البقرة والعثي في الارض يشمل كل ما يقع فيها من الاضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في

السياق من نقص المكيال والميزان وعثى مصدر قياسي وعثو سماعي وقيده بالحال وهو قوله
مُفْسِدِينَ ليخرج ما كان صورته من العثي في الارض والمراد به الاصلاح كما وقع من الخضر في
السفينة بَقِيَّتُ اللَّهِ اي ما يبقيه لكم من الحلال بعد ايفاء الحقوق بالقسط خَيْرٌ لَكُمْ اي اكثر خيرا
وبركة مما تبقونه لانفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الارض ذكر معناه ابن جرير وغيره من
المفسرين وقال مجاهد بقية الله طاعته وقال الربيع وصيته وقال الفراء مراقبته وقال قتادة
حظكم من ربكم وقال ابن عباس رزق الله وقيل ثوابه في الآخرة وبقيت يرسم بالتاء المجرورة واذا
وقف عليه اضطرارا يصح الوقف بالمجرورة والمربوطة وليس في القرآن غيرها وانما قيد ذلك بقوله
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لان ذلك انما ينتفع به المؤمن لا الكافر والمراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه
السلام وفي البيضاوي بشرط ان تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط
بالايمان وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ احفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما واحفظ عليكم
اعمالكم واحاسبكم بها واجازيكم عليها وانما انا ناصح مبلغ وقد اعذرت حين انذرت او لست بحافظ
عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ مستانفة كأنه قيل
فماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لان الصلوة عندهم
ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان
كثير الصدقة اذا فعل ما لا يناسب الصواب صدقتك امرتك بهذا وقيل المراد بالصلوة هنا
القراءة قاله الاعمش وقيل المراد بها الدين وقيل المراد بها الاتباع منه المصلي الذي يتلو السابق قال
الاحنف ان شعيبا كان اكثر الانبياء صلوة فلذلك قالوا هذه المقالة وانما ذكر الصلوة لانها من
اعظم شعائر الدين أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا اي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل
شعيب وهو المأمور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف وهذا فعله
اي هل هي تامرك بتكليفك لنا بان نترك عبادة الاصنام وهذا منهم جواب لشعيب عن امره لهم
لعبادة الله وحده وقوله أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ جواب له عن امرهم بايفاء الكيل والوزن
ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثي في الارض معطوف على ما يعبد فالترك مسلط عليه
واو بمعنى الواو والمعنى هل تامرك بتكليفك لنا ترك ان نفعل في اموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء

والزيادة والنقص وهذا لف ونشر مرتب وقرئ نفعل بالنون وما نشاء بالفوقية اي نفعل فيها ما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا وعن ابن زيد في الآية قال نهاهم عن قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا انما هي اموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا احرقناها وان شئنا طرحناها وعن محمد بن كعب وزيد بن اسلم وابن المسيب نحوه ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ عند نفسك وفي اعتقادك ومعنا ان هذا الذي نهيتنا عنه وامرتنا به يخالف ما تعتقده في نفسك من الحلم والرشد وقيل انهم قالوا ذلك لا على طريق الاستهزاء بل هو عندهم كذلك وانكروا عليه الامر والنهي منه نهو يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم وقد تقدم تفسير الحلم والرشد وقال ابن عباس يقولون انك لست بحليم ولا رشيد اي اراد والسفيه الغاوي لان العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل السخرية قال قتادة استهزاء به وقيل هو على بابه من الصحة والمعنى انك فينا حليم رشيد فلا يجمل بك شق عصى قومك ومخالفتهم في دينهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما امرتكم به ونهيتكم عنه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ اي من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعانته بلا كد مني ولا تعب في تحصيله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ اي كثيرا واسعا حلالا طيبا فاشوبه بالحرام من البخس والتطفيف وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة وقيل اراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره اترك امركم ونهيكم او تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء او هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لانت الحليم الرشيد اي كيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف امر ربه وله عليه نعم كثيرة ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ بنهيي لكم عن التطفيف والبخس ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ﴾ نهيتكم ﴿عَنْهُ﴾ فافعله دونكم يقال خالفه الى كذا اذا قصده وهو مولى عنه وخالفه عن كذا في عكس ذلك قال الزجاج معناه لست انهاكم عن شيء وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسي قال ابن الانباري بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو

ما يرتضيه لنفسه ولا ينطوي الا عليه فكان هذا غرض النصح لهم وقال قتادة لم اكن لانهاكم عن امر
وارتكبه إِنْ أُرِيدُ اي ما اريد بالامر والنهي إِلَّا الْإِصْلَاحَ لكم ودفع الفساد عن دينكم ومعاملاتكم مَا
اسْتَطَعْتُ ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ اي ما صرت موفقا
هاديا نبيا مرشدا الا بتاييد الله سبحانه واقداري عليه ومنحي اياه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في جميع اموري
التي منها امركم ونهيكم وَإِلَيْهِ أُنِيبُ اي اليه ارجع في كل ما ناتي من الامور وافوض جميع اموري
الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه ارجع في الاخرة وقيل ان الانابة الدعاء ومعناه
وله ادعو وعن علي قال قلت يا رسول الله اوصني قال قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله
وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب قال ليهنك العلم يا ابا الحسن لقد شربت العلم شربا ونهلته
نهلا اخرجه ابو نعيم في الحلية وفي اسناده محمد بن يوسف الكديمي وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي
قال الزجاج معناه لا يكسبنكم والشقاق العداوة وقال قتادة لا يحملنكم فراقي وعن السدي لا يحملنكم
عداوتي وعن مجاهد نحوه أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ من الحجارة وغيرها وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من
مكانكم او ليس زمانهم ببعيد من زمانكم او ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق
الكفر وافرد لفظ بعيد لمثل ما سبق وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ وقال الزمخشري
يجوز ان يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر
التي هي كالصهيل والنهيق ونحوهما وقال قتادة انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود
ثم بعد ترهيبهم بالعذاب امرهم بالاستغفار والتوبة فقال وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ من عبادة الاوثان
ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة
عليه في اول السورة إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ بالمؤمنين وَدُودٌ للتائبين وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا
انه عظيم الرحمة والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يوده ودا وودادا وودادة اي
احبه واثره قال في الصحاح وددت الرجل اوده ودا اذا احببته والود والود والود المحبة والمشهور
وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل اي يود عباده ويرحمهم وقيل بمعنى مفعول
بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون اولياءه فهم بمنزلة المواد مجازا والاول اولى والمعنى هنا انه يفعل

بعباده فضل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي
هذا تعليل لما قبله من الامر بالاستغفار والتوبة وجملة قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
مستانفة كالجمل السابقة والمعنى انك تاتينا بما لا عهد لنا به من الاخبار بالامور الغيبية كالبعث
والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الامور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة
لا مجازا او قيل قالوا ذلك اعراضا عن سماعه وايذانا بقلة المبالاة به واحتقار الكلامه مع كونه
مفهوما لديهم معلوما عندهم فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازا يقال فقه يفقه اذا فهم
فقها وفُقها وحكى الكسائي فقهانا ويقال فقه فقها اذا صار فقيها وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا اي
لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا ومهينا لا عز لك وهذا اقرب
من الاول وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصابا ببصره قال
النحاس وحكى اهل اللغة ان حمير تقول للاعمى ضعيفا اي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال
له ضرير اي قد ضر بذهاب بصره وقال الزجاج الاعمى يسمى ضعيفا وعن سعيد بن جبير قال كان
اعمى وانما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن اوس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي اخرجه ابن عساكر والواحدي قال السكن معناه انما انت
واحد وقال علي كان مكفوفا فنسبوه الى الضعف وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف وقال
الحسن ومقاتل يعني ذليلا والاول اولى ويدل لصحته قوله وَلَوْلَا رَهْطُكَ رهط الرجل جماعته
وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم ومنه الراهط لجحر اليربوع لانه يتوثق به ويخبأ فيه ولده
والرهط والراهط يقع على الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة قاله الزمخشري ولا يقع الرهط والعصبة
والنفر الا على الرجال ويجمع على ارهط وارهط على اراهط وانما جعلوا رهطه مانعا من ايقاع الضرر
به مع كونهم في قلة والكفار الوف مؤلفة لانهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا
منهم وقال علي فوالله الذي لا اله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا الا العشيرة لَرَجَمْنَاكَ اي
لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة اسوء القتلات واشرها وقيل معناه لشتمناك واغلظنا لك
القول والاول اظهر ثم اكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ اي كريم
مكرم معظم حتى نكف عنك لاجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا

لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ مستأنفة وإنما
قال من الله ولم يقل مني لأن نفي العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي
استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم
من الله فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه
بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى
والضمير في وَاتَّخَذْتُمُوهُ راجع إلى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم
بنبيه الذي أرسله إليكم وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا أي منبوذا وراء الظهر لا تبالون به وقيل المعنى
واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشيء الملقى
الذي لا يلتفت إليه يقال جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه وظهريا منسوب إلى الظهر والكسر
من تغييرات النسب والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس إمسي بكسر الهمزة وإلى الدهر دهري
بضم الدال قال مجاهد نبذتم أمره وقال قتادة لا تخافونه وقال الضحاك تهاونتم به وقيل
إن الضمير يعود إلى العصيان أي واتخذتم العصيان عونا على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى
المعين المقوي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم فمجازيكم بها
يوم القيامة وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين
آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم
يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ تمكن إِنِّي عَامِلٌ على حسب ما يمكنني ويقدره الله لي ثم بالغ في التهديد
والوعيد بقوله سَوْفَ تَعْلَمُونَ أينا الجاني على نفسه المخطئ في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم
عليه من عبادة غير الله والإضرار بعباده وقد تقدم مثله في الأنعام قال الزمخشري وصل
سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف
لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل انتهى يعني حذف الفاء هنا لأنه جواب سائل هو المسمى في علم البيان
بالاستئناف البياني كأن قائلا قال فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة
والعار وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ في زعمكم ومن هو المعذب وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك

لرجمناك وما انت علينا بعزيز وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال امره و
ارتقبوا إني معكم رقيب اي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا ولما جاء امرنا باهلا
كهم او عذابنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا لهم بسبب ايمانهم او هدايتهم
للايمان وأخذت الذين ظلموا غيرهم بما اخذوا من اموالهم بغير وجه وظلموا انفسهم بالتصميم
على الكفر الصيحة التي صاح بهم جبريل حتى خرجت ارواحهم من اجسادهم وفي الاعراف فاخذتهم
الرجفة وكذا في العنكبوت وقد قدمنا ان الرجفة الزلزلة وانها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء
المفضي اليها وهذا في اهل قريته واما اصحاب الايكة فاهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء
احرقتهم فاصبحوا في ديارهم جاثمين ميتين باركين على الركب وقد تقدم تفسيره وتفسير
كأن لم يغنوا فيها قريبا وكذا تفسير ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود قال المهدوي من ضم العين
من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير والشر وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة
وهي هنا بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد بفتح
العين والمعنى هلاكا لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث ان هلاك كل بالصيحة قال ابن الانباري
من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب قيل لم يعذب امتان قط بعذاب
واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم
الصيحة من فوقهم ولقد ارسلنا موسى هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة
نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط ومدين على هذا الترتيب وهذه قصة موسى بآياتنا اي بالتوراة
حال كونه متلبسا بها وسلطان مبين اي المعجزات الباهرات وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة
في غير هذا الموضع منها ثمانية في الاعراف والتاسعة في يونس وليس من الآيات المرادة هنا التوراة
لانها انزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما
كانت اعظم الآيات وابهرها للعقول واشدها خرقا للعادة افردت بالذكر وقيل المراد بالآيات
ما يفيد الظن والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعا عبارة عن شيء واحد
اي ارسلناه بما يجمع وصف كونه آية وكونه سلطانا بينا وقيل ان السلطان المبين ما اورده موسى
على فرعون في المحاورة بينهما الى فرعون وملئه اي ارسلناه بذلك الى هؤلاء وقد تقدم

اي الملأ اشراف القوم وانما خصهم بالذكر دون سائر القوم لانهم اتباع لهم في الاصدار والايراد وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ اي امره لهم بالكفر لان حال فرعون في الكفر امر واضح اذ كفر قومه من الاشراف وغيرهم انما هو مستند الى كفره ويجوز ان يراد بامر فرعون شانه وطريقه فيعم الكفر وغيره وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ اي ليس فيه رشد قط بل هو غي وضلال والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي او بمعنى ذي رشد وفيه تعريض بان الرشد في امر موسى يَقْدُمُ قَوْمَهُ تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه اي يصير متقدما لهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ سابقا لهم الى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ اي انه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى ادخلهم البحر في الدنيا ويوردهم النار في الآخرة والورود الدخول قاله ابن عباس ولا محل لاوردهم لاستينافه وهو ماض لفظا مستقبل معنى لانه عطف على ما هو نص في الاستقبال والهمزة في اورد للتعدية لانه قبلها يتعدى لواحد قال تعالى ولما ورد ماء مدين وقيل بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل وذلك انه اوردهم في الدنيا النار قال تعالى النار يعرضون عليها وقيل اوردهم موجباتها واسبابها وفيه بعد لاجل العطف بالفاء قال قتادة يمضي فرعون بين ايدي قومه حتى يهجم على النار وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمي اتيانها ورودا ففي النار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء واثبات الورود لها تخييل ثم ذم الورد الذي اوردهم اليه فقال وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ اي المدخل المدخول فيه الذي وردوه لان الوارد الى الماء الذي يقال له الورد انما يرده ليطفئ حر العطش ويذهب ظماه والنار على ضد ذلك والورد يكون مصدرا بمعنى الورود فلابد من حذف مضاف تقديره وبئس مكان الورد المورود وهو النار وانما احتيج الى هذا التقدير لان تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصهما شرط فلا يقال نعم الرجل الفرس ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال وَأُتْبِعُوا اي اتبع قوم فرعون مطلقا او الملأ خاصة او هم وفرعون فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً عظيمة اي طردا وابعادا من الامم بعدهم وَأُتبعوا لعنة يَوْمَ الْقِيَامَةِ يلعنهم اهل المحشر جميعا ثم انه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقال بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ اي العون المعان والعطاء المعطى قال الكسائي وابو عبيدة رفدته ارفده رفدا اعنته واعطيته واسم العطية الرفد اي بئس العطاء والاعانة

ما أعطوهم إياه وأعانوهم به والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة التي أتبعوها في الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمد الأخرى الأولى وتؤيدها وسميت اللعنة عونا لأنها إذا أتبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا أي عونا لهذا المعنى على التهكم وكذا اللعنة إذلال لهم وإنزال بهم إلى الحضيض الأسفل وسميت معانة لأنها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين إلى طريق الجحيم وذكر الماوردي حكاية عن الأصمعي أن الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما فيه من الشراب فكأنه ذم ما يسقونه في النار وهذا أنسب بالمقام وقيل أن الرفد الزيادة أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق وهو الزيادة قاله الكلبي وأصل الرفد العون والعطاء والصلة والإرفاد أيضا الإعطاء والإعانة ذَٰلِكَ أي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ أي من أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بأنبيائهم نَقُصُّهُ عَلَيْكَ أي هو مقصوص عليك نخبر به قومك لعلهم يعتبروا وقد تقدم تحقيق معنى القصص مِنْهَا أي من القرى التي أهلكنا أهلها قَائِمٌ وَحَصِيدٌ القائم ما كان قائما على عروشه والحصيد ما لا أثر له وقيل القائم العامر والحصيد الخراب وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود شبه ما بقي من آثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد قال ابن عباس يعني قرى عامرة وقرى خامدة وقال قتادة قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له أثر وقال ابن جريج قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالأرض والمعنى بعضها باق وبعضها عاف والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه لما ذكر أنباء القرى اتجه لسائل أن يقول ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بما فعلنا بهم من العذاب والإهلاك أو بإهلاكهم بغير ذنب وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ أي فما دفعت عنهم أصنامهم وما نفعت قاله أبو عاصم الَّتِي يَدْعُونَ يعبدونها مِن دُونِ اللَّهِ أي غيره مِن شَيْءٍ أي شيئا من العذاب وبأس الله ومن زائدة لَّمَّا جَاءَ أي حين جاء أَمْرُ رَبِّكَ أي عذابه وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ أي هلاك وخسران قال ابن عمر أي هلكة وقال ابن زيد أي تخسير وقيل تدمير والتتبيب اسم من تبّبه بالتشديد وكلمة تبّ بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتبا له أي هلاكا واستتب الأمر تهيأ ويستعمل لازما ومتعديا يقال تبه

او تتبيب هو نفسه والمعنى ما زادتهم اصنامهم التي يعبدونها الا هلاكا وخسرانا وقد كانوا يعتقدون
انها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار وكذلك اي ومثل ذلك الاخذ اخذ ربك اذا
قرئ على انه فعل وعلى انه مصدر اخذ القرى وهي ظالمة اي اهلها وهم ظالمون بالكفر
والمعاصي فلا يغني عنهم من اخذه شيء ان اخذه اي عقوبته للكافرين اليم شديد اي موجع غليظ
للمأخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي موسى الاشعري
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك
اخذ ربك الآية ولا تظن ان الآية حكمها مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده
بعضده الحديث ان في ذلك اي فيما ذكره الله سبحانه لاهل القرى او في القصص السبعة التي قصها
الله على رسوله لآية لعبرة وموعظة لان القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة
وقد حصل الاول فيعلم العاقل ان القادر على انزال الاول قادر على انزال الثاني لمن خاف
عذاب الآخرة لانهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ قال ابن زيد يقول انا سوف
نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للانبياء انا لننصرهم ذلك اي يوم القيامة المدلول
عليه بذكر الآخرة يوم مجموع له صفة ليوم وجرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر
وهو الناس من الاولين والآخرين للمحاسبة والمجازاة وذلك اي يوم القيامة يوم مشهود
يشهده اهل المحشر او مشهود فيه الخلائق او يشهده اهل السماء والارض فاتسع في الظرف
باجرائه مجرى المفعول وما نؤخره اي ذلك اليوم الا لأجل اللام للتعليل اي لانتهاء اجل اي وقت
معدود معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد عين سبحانه وقوع الجزاء بعده
وعبارة ابي السعود الا لانتهاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة يوم يأت حين يأت
يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا ان يأتيهم الله او يأتي ربك لا تكلم اي لا تتكلم فيه
نفس بما ينفع وينجي من جواب او شفاعة الا باذنه اي باذن الله لها من الكلام وقيل لا تكلم بحجة ولا شفاعة
الا باذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقوله تعالى من ذا
الذي يشفع عنده الا باذنه وقد جمع بين هذا وبين قوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها
وقوله اخبارا عن بعضهم والله ربنا ما كنا مشركين وقوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون

باختلاف احوالهم باختلاف مواقف القيامة وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع وقد
اشتملت هذه الآية على ثلاثة انواع من البديع الجمع في قوله لا تكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم
شقي وسعيد والتقسيم في قوله فاما الذين شقوا فَمِنْهُمْ اي من الانفس او من اهل الموقف ولم
يذكرهما قال الزمخشري لان ذلك معلوم ولان قوله لا تكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن عطية
شَقِيٌّ هو من كتبت عليه الشقاوة وَسَعِيدٌ اي من كتبت له السعادة وتقديم الشقي على السعيد
لان المقام مقام تحذير اخرج الترمذي وحسنه وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم
وابو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول
الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه او على شيء لم يفرغ منه قال بل على شيء قد فرغ منه وجرت به
الاقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له وقد استدل بهذه الآية على ان اهل الموقف قسمان لا ثالث لهما
وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته و
سيئاته او لا حسنات لهم ولا سيئات كالمجانين والاطفال فهم تحت مشيئته يحكم فيهم بما شاء
وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا اي الذين سبقت لهم الشقاوة في
علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وان تقدم منهم ايمان فَفِي النَّارِ اي فمستقرون فيها
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ قال الزجاج الزفير من شدة الانين وهو المرتفع جدا قال وزعم اهل
اللغة من البصريين والكوفيين ان الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير والشهيق بمنزلة آخره وقيل
الزفير للحمار والشهيق للبغل وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقيل الزفير
اخراج النفس والشهيق رده وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق وقيل الزفير ترديد النفس في
الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد او رد النفس الى
الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر
فيه روحه وقال الليث الزفير ان يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق
ان يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء والجملة اما مستأنفة او حالية خَالِدِينَ
لابثين فِيهَا اي في النار مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ما مصدرية اي مدة دوامهما في الدنيا
وهذه المدة غير ما يزيد الله مما لا نهاية له ودام هنا تامة لانها بمعنى بقيت وقد اختلف العلماء

في بيان معنى هذا التوقيت لانه قد علم بالادلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم وثبت ايضا ان السموات والارض تذهب عند انقضاء ايام الدنيا فقالت طائفة ان هذا الاخبار جار على ما كانت العرب تعتاده اذا ارادوا المبالغة في دوام الشيء قالوا هو دائم ما دامت السموات والارض ومنه قولهم لا اتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها ابدا لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له وقيل ان المراد سموات الاخرة وارضها فقد ورد ما يدل على ان للاخرة سموات وارضا غير هذه الموجودة في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الاخرة وايضا لا بد لهم من موضع يقلهم واخر يظلهم وهما ارض وسماء قال ابن عباس لكل جنة ارض وسماء وروي نحوه عن السدي والحسن إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ قد اختلف اهل العلم في معنى هذا الاستثناء على اقوال الاول انه من قوله ففي النار كانه قال الا ما شاء ربك من تاخير قوم عن ذلك روي هذا عن ابي سعيد الخدري الثاني ان الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه فاما الذين شقوا عاما في الكفرة والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ويكون ما بمعنى من وبهذا قال قتادة والضحاك وابو سنان وغيرهم قال البيضاوي هو استثناء من الخلود في النار لان بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف في صحة الاستثناء لان زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المرادون بالاستثناء الثاني فانهم مفارقون عن الجنة ايام عذابهم فان التابيد من مبدا معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم انتهى وقد ثبت بالاحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بانه يخرج من النار اهل التوحيد فكان ذلك مخصصا لكل عموم الثالث ان الاستثناء من الزفير والشهيق اي لهم فيها ذلك الا ما شاء ربك من انواع العذاب غير الزفير والشهيق قاله ابن الانباري الرابع ان معنى الاستثناء انهم خالدون فيها ما دامت السموات والارض لا يموتون فيها الا ما شاء ربك فانه يامر النار فتاكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم روي ذلك عن ابن مسعود الخامس ان الا بمعنى سوى ولكن الاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والارض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود كانه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب اطول منه ثم زاد عليه الدوام

الذي لا آخر له حكاه الزجاج وقيل سوى ما أعد لهم من عذاب غير عذاب النار كالزمهرير وغيره
السادس ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من أن هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك
والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التي
شاء الله فالمشيئة قد حصلت جزماً وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً السابع أن المعنى خالدين
فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب حكاه
الزجاج أيضاً الثامن أن المعنى خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة
العذاب لأهل الجحيم حكاه الزجاج أيضاً واختاره الحكيم الترمذي التاسع أن إلا بمعنى الواو
قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة قال مكي وهذا القول بعيد عند البصريين
أن يكون إلا بمعنى الواو والعاشر أن إلا بمعنى الكاف والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ولا تنكحوا
ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف أي كما قد سلف الحادي عشر أن هذا الاستثناء إنما هو
على سبيل الاستثناء الذي ندب إليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله لتدخلن المسجد الحرام
إن شاء الله آمنين قاله ابن عطية ورد نحو هذا أبو حيان ولا يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا منقطع
وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت
بدفوعات وقد أوضح الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة جمعها في جواب سؤال ورد من بعض
الأعلام قال السيوطي وما تقدم من التأويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف والله أعلم بمراده
انتهى قال في الجمل ليس التفسير للاستثناء وحاصله أن إلا في المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء
منقطع فكأنه قيل خالدين فيها ما دامت السموات والأرض وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها
وقوله هو الذي ظهر أي ظهر له اختياره من ثلاثة عشر وجهاً للمفسرين في هذا المقام وهو وجه
حسن لأن فيه التأبيد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا وأما التأبيد
بدوام سموات الآخرة وأرضها كما قيل ففيه أنه غير معلوم للمخاطبين خصوصاً من ينكر البعث
وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة ولنقتصر على نقل بعضها لكونه أقرب من غيره انتهى وذكر
الوجه الثاني والخامس والحادي عشر كما مر وقال ابن حجر الهيتمي المكي في الزواجر عن اقتراف الكبائر
دلت الآيات والأحاديث على أن عذاب الكفار في جهنم دائم مؤبد وما ورد مما يخالف ذلك يجب

تاويله فمن ذلك قوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك
فعال لما يريد فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والارض الا ما شاء الله من هذه
المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها وقد اوله العلماء بنحو عشرين وجها يرجع بعضها الى حكمة
التقييد بمدة دوام السموات والارض وبعضها الى حكمة الاستثناء ومعناه فمن الاول ان المراد
سموات الجنة وارضها اذ السماء كل ما علاك والارض كل ما استقرت عليه وكون الجنة والنار
لهما سماء وارض بهذا الاعتبار امر قطعي لا يخفى على احد فاندفع التنظير في هذا القول بانه لا يجوز
حمل ما في الاية عليه لانه غير معروف للمخاطبين او سموات الدنيا وارضها واجرى ذلك على عادة
العرب في الاخبار عن دوام الشيء وتابيده بذلك ونحوه كقولهم لا اتيك ما سال سيل وما جن ليل
وما طما البحر وما قام جبل لانه تعالى يخاطب العرب على عرفهم في كلامهم وهذه الالفاظ في عرفهم
تفيد الابد والدوام وعن ابن عباس ان جميع الاشياء المخلوقة اصلها من نور العرش وان السموات
والارض في الاخرة تردان الى النور الذي خلقتا منه وهما دائمتان ابدا من نور العرش ثم هذا الجواب انما
يحتاج اليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والارض انهم لا يبقون في النار الا بقدر
مدة دوامهما من حين ايجادهما الى اعدامهما ومنع بعضهم ذلك بان المفهوم من الاية انهما
متى كانتا دائمتين كان كونهم في النار باقيا وقضية ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامهما
حصل المشروط وهو بقاؤهم في النار ولا يقتضي انه اذا عدم الشرط يعدم المشروط فاذا قلنا
ما دامتا بقي عقابهم ثم قلنا لكنهما دائمتان لزم دوام عقابهم او لكنهما ما بقيتا لم يلزم
عدم دوام عقابهم لا يقال اذا دام عقابهم بقيتا او عدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامهما لانا نقول
بل فيه اعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهرا دائما طويلا لا يحيط العقل بقدر
طوله وامتداده فاما انه هل لذلك العذاب اخر ام لا فذلك يحصل من ادلة اخرى وهي الايات
المصرحة بتابيد خلودهم المستلزم انه لا اخر له ومن الثاني انه استثناء من فيها لانهم يخرجون
من النار الى الزمهرير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها ابدا الا في تلك الاوقات
فانها وان كانت اوقات عذاب ايضا الا انهم ليسوا فيها حقيقة او ان مثل يعقل كانكحوا
ما طاب لكم من النساء فيكون استثناء ايضا او المؤمنين من ضمير خالدين متصلا بناء على

شمول شقوا لهم او منقطعا بناء على عدم شموله لهم وهو الاظهر او انه منقطع والا بمعنى سوى اي ما دامتا سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها ولا ينافي ذلك ما رواه احمد عن عبد الله بن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد وذلك بعد ما يلبثون فيها احقابا لان في سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب اكاذيب كثيرة عظيمة ثم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وابي هريرة قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وابي هريرة وانس واليه ذهب الحسن البصري وحماد بن سلمة وبه قال علي بن طلحة الوالبي وجماعة من المفسرين انتهى ويرد ما نقله عن الحسن قول غيره قال العلماء قال ثابت سألت الحسن عن هذا فانكره والظاهر ان هؤلاء الذين ذكرهم لم يصح عنهم من ذلك شيء وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها احد من عصاة المؤمنين اما مواضع الكفار فهي ممتلئة بهم لا يخرجون عنها ابدا كما ذكره الله في آيات كثيرة وفي تفسير الرازي قال قوم ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية واستدلوا بهذه الآية وبلابثين فيها احقابا وبان معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى والجواب عن الآية وقوله تعالى احقابا لا يقتضي ان له نهاية لما مر ان العرب يعبرون به وبنحوه عن الدوام ولا ظلم في ذلك لان الكافر كان عازما على الكفر ما دام حيا فعوقب دائما فهو لم يعاقب بالدائم الا على دائم فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقا واعلم ان التقييد والاستثناء في اهل الجنة ليس المراد بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى غير مجذوذ فيأول بنظير ما مر ويكون المراد بما اذا جعلناها بمعنى من اهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ اي غير مقطوع ولم يخبرنا بالذي يشاء لاهل النار انتهى كلام ابن حجر وفي الذي تحامل به على ابن تيمية نظر فقد اوضح البحث الحافظ ابن القيم رح في حادي الارواح الى بلاد الافراح مستوفيا بما له وعليه فمن شاء فليرجع اليه اخرج ابو الشيخ عن قتادة انه تلا هذه الآية فقال حدثنا انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال اهل حروراء ان من دخلها بقي فيها وعن جابر قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال ان شاء الله ان يخرج اناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل اخرجه ابن مردويه وعن خالد بن معدان

في الآية قال انها في التوحيد من اهل القبلة وعن جابر بن عبد الله او ابي سعيد الخدري
قال هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تاتي عليه وعن
ابن عباس في قوله الا ما شاء ربك قال فقد شاء ربك ان يخلد هؤلاء في النار وان يخلد هؤلاء
في الجنة وعنه قال استثنى الله من النار ان تاكلهم وعن السدي في الآية قال فجاء بعد ذلك من
مشيئة الله ما نسخها فانزل بالمدينة ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
طريقا الى آخر الآية فذهب الرجاء لاهل النار ان يخرجوا منها واوجب لهم خلود الابد وقوله اما
الذين سعدوا الآية فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها فانزل بالمدينة والذين آمنوا وعملوا
الصالحات سندخلهم جنات الى قوله ظلا ظليلا فاوجب لهم خلود الابد وعن ابي نضرة قال
ينتهي القرآن كله الى هذه الآية يعني إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير
ما نصه تنبيه ما ذكرته آنفا من ان عذاب الكفار في جهنم دائم ابدا ما دلت عليه الآيات والاخبار
واطبق عليه جمهور الامة سلفا وخلفا وراء ذلك قول عجيبا ويلها فمنها ما ذهب اليه الشيخ
محي الدين بن عربي انهم يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون
بها لموافقتها لطبيعتهم فالثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز وقال فلا تحسبن
الله مخلف وعده رسله ولم يقل وعيده بل قال ونتجاوز عن سيئاتهم مع انه توعد على ذلك واثنى
على اسمعيل بانه كان صادق الوعد وقال في موضع آخر ان اهل النار اذا دخلوها لا يزالون خائفين
مترقبين ان يخرجوا منها فاذا اغلقت عليهم ابوابها اطمأنوا لانها خلقت على وفق طباعهم قال الحافظ
ابن القيم وهذا في طرف اي جهة والمعتزلة القائلون بانه يجب على الله تعذيب من توعده بالعذاب
في طرف آخر فاولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها ابدا والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار
ان الرسول جاء به واخبر به عن الله ومنها قول جمع النار تفنى فانه تعالى جعل لها امدا تنتهي اليه
ثم يزول عذابها لهذه الآية وقوله تعالى لابثين فيها احقابا قال هؤلاء وليس في القرآن دلالة على
بقاء النار وعدم فنائها انما الذي فيه ان الكفار خالدين فيها وانهم غير خارجين منها وانه
لا يفتر عنهم عذابها وانهم لا يموتون وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم وهذا لا نزاع فيه
من الصحابة والتابعين انما النزاع في امر آخر وهو ان النار ابدية او مما كتب عليه الفناء واما كون

الكفار لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه احد من اهل السنة وقد نقل شيخ الاسلام
ابن تيمية رح القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين وقد نصر هذا القول ابن القيم كشيخه
ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لا يصار اليه ولا يعول عليه وقد اول ذلك كله الجمهور
واجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجها وعما نقل عن اولئك الصحب بان معناه ليس فيها
احد من عصاة المؤمنين اما مواضع الكفار فهي ممتلئة منهم لا يخرجون عنها ابدا كما ذكره الله
في آيات كثيرة انتهى كلامه قلت و بالله التوفيق اخرج ابن المنذر عن عمر قال لو لبث اهل النار
في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه وروى عبد بن حميد باسناد كلهم
ثقات عن عمر نحوه واخرج ابن راهويه عن ابي هريرة قال سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها احد و
قرأ فاما الذين شقوا واخرج ابن المنذر وابو الشيخ عن ابراهيم قال ما في القران آية ارجى لاهل النار من
هذه الآية خالدين فيها الخ قال وقال ابن مسعود ليأتين عليها زمان تخفق ابوابها وروى احمد عن ابن عمرو
بن العاص ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد وحكاه البغوي وغيره
عن ابي هريرة وغيره واخرج ابن جرير عن الشعبي قال جهنم اسرع الدارين عمرانا واسرعهما خرابا
وعن قتادة قال الله اعلم بتثنيته على ما وقعت وقد روي عن جماعة من السلف مثل ما ذكره ابن
مسعود وعمر وابو هريرة كابن عباس وابن عمر وجابر وابي سعيد من الصحابة وعن ابي مجلز و
عبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهما من التابعين وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير
عن ابي امامة صدي بن عجلان الباهلي واسناده ضعيف وقد ثبت بذلك صحة ما نقله شيخ
الاسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ ابن القيم ووضح وهن ما قاله ابن حجر والمناوي
عليهما وان كان لا شك في ان الراجح هو الاول ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما
كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال ولا يخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء
خروج اهل الكبائر من النار فان الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم وما ظنك
بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمرو ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه
ابوابها ليس فيها احد ثم قال واقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن ابي طالب
رضي الله تعالى عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى قال الشوكاني واقول اما الطعن على من قال

بخروج اهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه في دواوين الاسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما انت عنه في مسافة بعيدة واي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الادلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف واما ما ظننته من ان الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة واي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الامة فالاستثناء الاول يحمل على معنى الا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الامة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى الا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم وذلك لتاخر خلودهم اليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من اهل العلم من قدمنا ذكره وبه قال ابن عباس حبر الامة واما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فالى اين يا محمود اتدري ما صنعت وفي اي واد وقعت وعلى اي جنب سقطت ومن انت حتى تصعد الى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء اما كان لك في مكسري طلبتك من اهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدري فيا لله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها الى ابعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا اوقفها حيث اوقفها الله سبحانه واما الذين سعدوا اي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم منهم كفر او غيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها قال سيبويه لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه مما لا يتعدى قال النحاس ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لا يجوز قال السمين قرأ الاخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالاولى من قولهم سعده الله اي اسعده وحكى الفراء عن هذيل انها تقول كذلك قال الازهري سعد فهو سعيد كسلم فهو سليم وسعد فهو مسعود وقال ابو عمرو بن العلاء يقال سعد الرجل كما يقال حسن وقيل سعده لغة مهجورة وقد ضعف جماعة قراءة الاخوين وفي المصباح سعد فلان يسعد من باب تعب في دين او دنيا

سعد او بالمصدر سمي والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة في لغة فيقال سعده الله
يسعده بفتحتين فهو مسعود وقرئ في السبعة بهذه اللغة في هذه الآية بالبناء للمفعول والاكثر
ان يتعدى بالهمزة فيقال اسعده الله وسعد بالضم خلاف شقي فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا
مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ معنى الآية كما مر في قوله واما الذين شقوا إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ من
الزيادة التي لا منتهى لها فالمعنى خالدين فيها ابدا وقد عرفت من الاقوال المتقدمة ما يصلح
لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التاويل المذكور في الوجه الخامس والسابع
وما بعده عَطَاءً اسم مصدر والمصدر في الحقيقة الاعطاء او يكون مصدرا على حذف
الزوائد كقوله انبتكم من الارض نباتا وهو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت غَيْرَ
مَجْذُوذٍ من جذه يجذه اذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم افصح والجذاذات
القراضات والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعني انه ممتد الى غير نهاية ولما فرغ الله
سبحانه من اقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والاشقياء سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشرح احوال الكفرة من قومه في ضمن النهي عن الامتراء فقال فَلَا تَكُ حذف النون لكثرة
الاستعمال ولان النون اذا وقعت طرفا للكلام لم يبق عند التلفظ بها الا مجرد الغنة فلا جرم
اسقطوها قاله الكرخي فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلَاءِ اي ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تاثير
له في شيء والمرية الشك والاشارة بهؤلاء الى كفار عصره صلى الله عليه وسلم من قريش وقيل المعنى
لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام وقيل لا تك في شك من سوء عاقبتهم
ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله
شيء من الشك فانه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك ابدا ثم بين له سبحانه بقوله مَا يَعْبُدُونَ
إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ان معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وان عبادتهم كعبادة آبائهم
مِّن قَبْلُ وفي هذا الاستيناف تعليل النهي عن الشك والمعنى انهم سواء في الشرك بالله
وعبادة غيره فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف
الشرك في الخازن يعني انه ليس لهم في عبادة هذه الاصنام مستند الا تقليد آبائهم انتهى
وجاء بالمضارع في كما يعبد لاستحضار الصورة ثم بين له انه مجازيهم باعمالهم فقال وَإِنَّا

لموفوهم نصيبهم من العذاب غير منقوص لا ينقص من ذلك شيء والتوفية لا تستلزم
النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل قال القاضي كالزمخشري
فانك تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازا انتهى وانت خبير بانه اذا لم تكن قرينة
المجاز قائمة كما في هذا المقام لا تكون الحال الا للتاكيد لان التوفية تقتضي الاكمال فقد استفيد
معناها من عاملها وهو شان المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز قال بعضهم وجعلها مقيدة
له لدفع احتمال كونه منقوصا في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية
تامل قاله الكرخي وقيل المراد نصيبهم من الرزق وقيل ما هو اعم من الخير والشر ولقد آتينا
موسى الكتاب اي التوراة فاختلف فيه اي في شانه وتفاصيل احكامه فآمن به قوم وكفر به
آخرون وعمل باحكامه قوم وترك العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع
من هؤلاء في القرآن وقيل في سببية اي هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على ولولا كلمة اي الانظار
الى يوم القيامة اي الحكم الازلي بتاخير عذابهم سبقت من ربك لما علم في ذلك من الصلاح
لقضي بينهم اي بين قومك او بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فاثيب المحق وعذب
المبطل وحل بواقي الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هي ان رحمته سبحانه سبقت
غضبه فامهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هي انهم لا يعذبون بعذاب الاستيصال
وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم ثم وصفهم بانهم في شك من الكتاب فقال وانهم
لفي شك منه اي من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم او من التوراة ان حمل على قوم موسى
مريب موقع في الريبة من اراب اذا حصل الريب لغيره او صار هو في نفسه ذا ريب ثم جمع الاولين
والآخرين في حكم توفيتهم العذاب لهم او هو والثواب فقال وان كلا اي كل الخلائق لما
ليوفينهم ربك اعمالهم اي جزاءها وفي ان وكلا ولما اقوال مخالفة هل ان مخففة ام
مثقلة والتنوين في كلا مع النصب عوض عن المضاف اليه ام نصبه بان ولما خفيفة ام
ثقيلة وهي بمعنى الا ام لا واحسن هذه الاقوال انها بمعنى الا الاستثنائية وقد روي ذلك
عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج وقرأ ابي ان كلا الا ليوفينهم وقرئ بالتنوين بمعنى جميعا
وبسط الكلام في ذلك الشيخ على قال السمين هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديما وحديثا

وغيرهم الى الزم تلخيصها قراءة وتخريجا وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت اقاويلهم وما هو الراجح منها فاقول قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خففان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شددان وخفف لما فهذه اربع قراأت في هذين الحرفين وكلها متواترة سبعية قال والرابعة وهي تشديدان وتخفيف لما واضحة جدا وقرئ شاذا وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد وهي قراءة الحسن البصري وعليها فلما بمعنى الا انتهى ملخصا وقرئ ايضا شاذا قراأت أخر فليراجع في السمين وغيره انه بما تعملون ايها المختلفون خبير لا يخفى عليه منه شيء والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذبين الكافرين ثم امر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لانواع الطاعة له سبحانه فقال فاستقم كما أمرت اي كما امرك الله فيدخل في ذلك جميع ما امره به وجميع ما نهاه عنه لانه قد امره بتجنب ما نهاه عنه كما امره بفعل ما تعبده بفعله وامته اسوته في ذلك قال قتادة امره ان يستقيم على امره ولا يطغى في نعمته وقال سفيان استقم على القران وعن الحسن قال لما نزلت هذه الاية قال شمروا شمروا فما رؤي ضاحكا قال ابو السعود وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود ومن تاب معك اي امن ورجع عن الكفر الى الاسلام وشاركك في الايمان وما اعظم موقع هذه الاية واشد امرها فان الاستقامة كما امر الله لا تقوم بها الا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم شيبتني هود كما تقدم وعن سفيان الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسأل عنه احدا بعدك قال قل امنت بالله ثم استقم اخرجه مسلم اقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتاويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللاراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان ولا تطغوا الطغيان مجاوزة الحد لما امر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده وللقدر الذي

قدرة ممنوع منه منهي عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال
الذي اذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه اما انا فاصوم
وافطر وا قوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
ولامته تغليب لحالهم على حاله او النهي عن الطغيان خاص بالامة قال ابن عباس لا تطغوا
لا تظلموا وقال العلاء بن عبد الله لم يرد اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم انما عنى الذين يجيئون من بعدهم
وعن ابن زيد الطغيان خلاف امره وارتكاب معصيته إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيجازيكم على
حسب ما تستحقون والجملة تعليل لما قبلها قيل ما نزلت اية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي اشد عليه
من هذه الاية وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قرئ بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة
اهل الحجاز قال ابو عمرو ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما
كان من باب علم يعلم قال الازهري وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالاصل بل
من تداخل اللغتين وقال الراغب والصحيح انه يقال بالفتح فيهما او بالكسر في الماضي والفتح في المضارع وبالفتح
في الماضي والضم في المضارع وقرئ على البناء للمفعول من اركنه وقال في الصحاح ركن اليه يركن
بالضم وحكى ابو زيد ركن اليه بالكسر يركن ركونا فيهما اي مال اليه وسكن قال الله تعالى ولا تركنوا
الى الذين ظلموا واما بالفتح فيهما فانما هو على الجمع بين اللغتين انتهى وقال في شمس العلوم الركون
السكون وقال في القاموس ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركونا مال وسكن انتهى فهؤلاء الائمة من
رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث
قال فان الركون هو الميل اليسير وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد
الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ومن المفسرين من ذكر في تفسير
الركون قيودا لم يذكرها ائمة اللغة قال القرطبي في تفسيره الركون حقيقة الاستناد والاعتماد و
السكون الى الشيء والرضاء به ومن ائمة التابعين من فسر الركون بما هو اخص من معناه اللغوي
فروي عن قتادة وعكرمة ان معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم وقال عبد الرحمن بن زيد الركون
هنا الادهان وذلك ان لا ينكر عليهم كفرهم وقال ابو العالية معناه لا ترضوا اعمالهم وقال
ابن عباس الركون الى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تدهنوا وعن عكرمة لا تصطنعوهم

وقد اختلف ايضا الائمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين او عامة فقيل
خاصة وان معنى الآية النهي عن الركون الى المشركين وانهم المرادون بالذين ظلموا وقد روي ذلك
عن ابن عباس وقيل انها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من
الآية ولو فرضنا ان سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فان
قلت وقد وردت الادلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا
يخفى على من له ادنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الائمة والسلاطين والامراء حتى ورد
في بعض الفاظ الصحيح اطيعوا السلطان وان كان عبدا حبشيا راسه كالزبيبة وورد وجوب
طاعتهم ما اقاموا الصلوة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله وظاهر ذلك
انهم وان بلغوا في الظلم الى اعلى مراتبه وفعلوا اعظم انواعه مما لم يخرج به الى الكفر البواح فان
طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما امروا به من معصية الله ومن جملة ما يامرون به تولي الاعمال
لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به
الجهاد واخذ الحقوق الواجبة من الرعايا واقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على
من وجبت عليه وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت امرهم ونهيهم في كل ما يامرون
به مما لم يكن من معصية الله ولابد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك
مما لابد منه ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر
الادلة الواردة به بل قد ورد به الكتاب العزيز واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم
بل ورد انهم يعطون الذي لهم من الطاعة وان منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الاحاديث
الصحيحة اعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم بل ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك
النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال وان اخذ مالك وضرب ظهرك فان اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد
هذه الطاعة المامور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون وان اعتبرنا الميل والسكون
ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لامر يقتضي ذلك شرعا كالطاعة
او للتقية ومخافة الضرر منهم او لجلب مصلحة عامة او خاصة او دفع مفسدة عامة او خاصة اذا
لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بافعالهم قلت اما الطاعة على عمومها بجميع اقسامها

حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بالاحاديث
التي قدمنا الاشارة اليها ولا شك في هذا ولا ريب فكل من امروه ابتداء ان يدخل في شيء من الاعمال
التي امرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما
وكل اليه فذلك واجب عليه فضلا عن ان يقال جائز له واما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة
فذلك مقيد بعدم وقوع الامر ممن تجب طاعته من الائمة والسلاطين والامراء جمعا بين الادلة او مع
ضعف المامور عن القيام بما امر به كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث
الصحيحة واما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة او خاصة او دفع مفسدة عامة او خاصة
مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب
تلك المصلحة او دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة
على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد والاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ولا تخفى على الله خافية
وبالجملة فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم فعليه ان يزن اقواله وافعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع
فان زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ومن قدر على الفرار منهم قبل ان يؤمر من جهتهم بامر يجب
عليه طاعته فهو الاولى له والاليق به يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اجعلنا من عبادك
الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره
لنا واعنا عليه قال القرطبي في تفسيره وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى
وقال النيسابوري في تفسيره قال المحققون الركون المنهي عنه هو الرضاء بما عليه الظلمة او تحسين الطريقة
وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الابواب فاما مداخلتهم لرفع شيء من الضرر
واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون قال واقول هذا من طريق المعاش والرخصة
ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية أليس الله بكاف عبده انتهى فتمسكم النار بسبب
الركون اليهم وفيه اشارة الى ان الظلمة اهل النار او كاهل النار ومصاحبة النار توجب لا محالة مس
النار قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم والجملة حالية او مستأنفة قال ابو السعود واذا كان
حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين
في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم

ومعاشرتهم ويبتهج بالتزي بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما اوتوا من القطوف
الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن ان تميل اليه القلوب
ضعف الطالب والمطلوب والآية ابلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله
عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل الى احد طرفي الافراط
والتفريط ظلم على نفسه او على غيره انتهى ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ان ركنتم اليهم والمعنى انها
تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ونفي الاولياء ليس بطريق نفي ان يكون لكل
واحد منهم اولياء حتى يصدق ان يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن
لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي ان يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام
﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم
عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا والجملة حالية او مستأنفة معترضة واتى بثم هنا تنبيها على
تراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما اوعدهم بالعذاب واوجبه عليهم و
يجوز ان يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين ان الله تعالى معذبهم وان غيره
لا ينقذهم انتج انهم لا ينصرون اصلا ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص
من انواعها اقامة الصلوة لكونها راس الايمان والمراد صلوة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر قاله
الحسن وقيل الظهر موضع العصر وقيل الطرفان الصبح والمغرب قاله ابن عباس وقيل هما الظهر والعصر
وقال مجاهد صلوة الفجر والظهر والعصر ورجح ابن جرير انهما الصبح والمغرب قال والدليل عليه اجماع الجميع
على ان احد الطرفين الصبح فدل على ان الطرف الآخر المغرب قال الرازي كثرت المذاهب في تفسير طرفي
النهار والاشهر انهما الفجر والعصر لان احد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الاول
هو صلوة الفجر والطرف الثاني لا يجوز ان يكون صلوة المغرب لانها داخلة تحت قوله وزلفا من الليل فيجب
حمل الطرف الثاني على صلوة العصر ﴿وَزُلَفًا﴾ اي في زلف ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ والزلف الساعات القريبة بعضها
من بعض ومنه سميت المزدلفة لانها منزل بعد عرفة بقرب مكة وقرئ زلفا بضم اللام جمع زليف
ويجوز ان يكون واحد زلفة وقرئ باسكان اللام وقرأ مجاهد زلفى على وزن فعلى وقرأ الباقون زلفا
بفتح اللام كغرفة وغرف قال ابن الاعرابي الزلف الساعات واحدتها زلفة وقال قوم الزلفة اول ساعة من الليل

بعد مغيب الشمس في القاموس الزلفة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل الآخرة من النهار وساعات النهار الآخرة من الليل قال الاخفش معنى زلفا من الليل صلوة الليل قال ابن عباس صلوة العتمة وقال الحسن هما زلفتان صلوة المغرب وصلوة العشاء وعن مجاهد و الحسن نحوه وقال ايضا ساعة بعد ساعة يعني صلوة العشاء الآخرة إِنَّ الْحَسَنَاتِ كالصلوات الواجبة والمندوبة وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات عن ابن مسعود قال هي الصلوات الخمس وقال ابن عباس والباقيات الصالحات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ على العموم وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن يكفرنها حتى كانها لم تكن اخرج البخاري ومسلم واهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود ان رجلا اصاب من امرأة قُبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كانه يسأل عن كفارتها فانزلت عليه واقم الصلوة طرفي النهار الآية فقال الرجل يا رسول الله الي هذه قال هي لمن عمل بها من امتي واخرج احمد ومسلم وابو داؤد وغيرهم عن ابي أُمامة ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اقم فيّ حد الله مرة او مرتين فاعرض عنه ثم اقيمت الصلوة فلما فرغ قال اين الرجل قال انا ذا قال اتممت الوضوء وصليت معنا آنفا قال نعم قال فانك من خطيئتك كيوم ولدتك امك فلا تعد وانزل الله حينئذ على رسوله واقم الصلوة طرفي النهار وفي الباب احاديث كثيرة بالفاظ مختلفة وقد وردت احاديث صحيحة ايضا ان الصلوات الخمس كفارات لما بينهن وقال مجاهد الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر والاول اولى وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين اي الصلوات الخمس وله تدل الاحاديث ذَلِكَ اشارة الى قوله فاستقم وما بعده وقيل الى القرآن ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ اي موعظة للمتعظين عن الحسن قال هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية و البلاء وعن ابن جريج قال لما نزع الذي قبل المرأة تذكرة ذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين وَاصْبِرْ على ما امرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون الى الذين ظلموا وقيل ان المراد الصبر على ما أُمر به دون ما نهي عنه لانه لا مشقة في اجتنابه وفيه نظر فان المشقة في اجتناب المنهي عنه كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الامر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ اي يوفيهم اجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص قيل المحسنون المصلون فَلَوْلَا كَانَ هذا عود الى حوال الامم الخالية وبيان ان سبب حلول عذاب الاستيصال

بهم انه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد فقال فلولا اي فهلا وكان تامة مِنَ الْقُرُونِ
الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ من الراي والعقل والدين والبقية في الاصل
اسم لما يستبقيه الرجل مما يخرجه وهو لا يستبقي الا اجوده وافضله فصار لفظ البقية مثلا في الجودة
يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير والمراد بها حينئذ جيد الشيء وخياره من قولهم فلان بقية
الناس وبقية الكرام وانها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها وقيل
معناه اولو ابقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة ومنه
قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا وقيل انها مصدر بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى
اي فهلا كان منهم ذوو ابقاء على انفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه وقرئ بتخفيف الياء و
هي اسم فاعل من بقي والتقدير اولو طائفة بقية اي باقية وقرئ بضم الباء وسكون القاف اخرج
ابن مردويه عن ابي بن كعب قال اقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم اولو بقية واحلام يَنْهَوْنَ قومهم
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة
الدين وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله إِلَّا قَلِيلًا منقطع اي لكن قليلا
مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ اي من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء نهوا عن الفساد في الارض وسائرهم
تركوا النهي وقيل هو متصل لان في حرف التحضيض معنى النفي فكانه قال ما كان في القرون اولو بقية
ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم الا انه يؤدي الى النصب في غير الموجب وان كان
غير النصب اولى قال الزمخشري ان جعلته متصلا كان المعنى فاسدا لان الكلام يؤل الى ان الناجين
لا يحضوا على النهي ومن في ممن بيانية لانه لم ينج الا الناهون قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله
فيما مر الا قوم يونس وقيل هم اتباع الانبياء اهل الحق من الامم على العموم وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
انفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه مَا أُتْرِفُوا فِيهِ اي انعموا من الشهوات فاهتموا
بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي ابطرته النعمة يقال صبي مترف منعم
البدن وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك
وترف كفرح تنعم واترفته النعمة اطغته واترف فلان اصر على البغي والمترف كمكرم المتروك
يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه اي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين

من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق واثروا ذلك على الاشتغال باعمال الآخرة و
استغرقوا عمرهم في الشهوات النفسانية وقيل المراد بالذين ظلموا تاركوا النهي ورد بانه يستلزم
خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهو اشد ظلما ممن لم يباشر وكان ذنبه ترك النهي وقرئ
واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما اترفوا فيه قال مجاهد واتبع الذين ظلموا اي في ملكهم
وتجبرهم وتركهم الحق وقال ابن عباس اترفوا ابطروا وجملة وَكَانُوا مُجْرِمِينَ متضمنة لبيان سبب اهلاكهم
اي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما اترفوا فيه مجرمين كافرين ولا اجرام الآثام والمعنى انهم اهل اجرام
بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الامور التي يحق الاشتغال بها ويجوز ان تكون
معطوفة على واتبع الذين اي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى اي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها
حسب ما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتاكيد النفي بِظُلْمٍ
اي متلبسا به قيل هو حال من الفاعل اي ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بان اهلاك المصلحين
ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى
والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة اهل السنة قال الزجاج يجوز
ان يكون المعنى وما كان ربك ليهلك احدا وهو يظلمه وان كان على نهاية الصلاح لان تصرفه
في ملكه دليله قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيئا وقوله ان الله ليس بظلام للعبيد وَأَهْلُهَا
مُصْلِحُونَ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله اعني
بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون اهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا
عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية اي لا يهلك القرى بسبب اشراك اهلها اي بمجرد
الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد في الارض ومتابعة الهوى كما اهلك قوم شعيب بنقص المكيال
والميزان وبخس الناس اشياءهم واهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون
يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيئا وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى
ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغني الحميد
وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وانت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي اقبحها

الاشراك بالله لا يلاقيه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا اوليا ولذا نهى كل من
الرسل الذين قصت انباؤهم امته اولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها
فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من اصناف المعاصي وحمل
الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين
الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من انواع الفساد وقيل المعنى وما
كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون في الايمان فالظلم المعاصي على هذا اخرج الطبراني و
ابو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير
هذه الآية فقال واهلها ينصف بعضهم بعضا وروي موقوفا على جرير قيل والمراد بالهلاك
عذاب الاستيصال في الدنيا واما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ اي اهل دين واحد اما اهل ضلالة او اهل هدى وقيل معناه جعلهم مجتمعين على
الحق غير مختلفين فيه او مجتمعين على دين الاسلام دون سائر الاديان ولكنه لم يشاء ذلك
فلم يكن ولهذا قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على اديان شتى ما بين يهودي و
نصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في اديانهم اختلافا كثيرا لا ينضبط
وقيل مختلفين في الحق او دين الاسلام وقيل مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير
وعن ابن عباس في الآية قال اهل الحق واهل الباطل عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة او اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق
امتي على ثلاث وسبعين فرقة اخرجه ابو داؤد والترمذي بنحوه عن معاوية قال قام فينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين
فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في
الجنة وهي الجماعة اخرجه ابو داؤد وقال الخطابي فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة
عن الملة والدين اذ جعلهم من امته وقال غيره المراد بها اهل البدع والاهواء الذين تفرقوا
واختلفوا وظهروا ابدعة كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة
هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا احدا في خلافه إلا

مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ اي الا اهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء بن ابي رباح قال لا يزالون مختلفين اي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك وقال الحسن الناس مختلفون على اديان شتى الا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف وعن مجاهد قال طـا مختلف اهل الباطل ومن رحم اهل الحق فمن الله عليهم بالتوفيق والهداية الى الدين الحق فانهم لم يختلفوا والا من رحم ربك من المختلفين في الحق او دين الاسلام بهدايته الى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره او الا من رحم ربك بالقناعة و الاولى تفسير لجعل الناس امة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في الا من رحم واخواتها غير محتاج الى تكلف وَلِذَٰلِكَ اي ولما ذكر من الاختلاف او ولرحمته وصح تذكير الاشارة الى الرحمة لكون تانيثها غير حقيقي والضمير في خَلَقَهُمْ ان كان راجعا الى الناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة او اليه والى الرحمة وان كان الى مَنْ فالى الرحمة وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الاشارة بها الى شيئين كما في قوله عوان بين ذلك وقوله وابتغ بين ذلك سبيلا وقوله فبذلك فليفرحوا قال مجاهد خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف وفريقا لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد وقال الحسن وعطاء خلقهم للاختلاف وقال اشهب سألت مالك بن انس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير وقال الفراء خلق اهل الرحمة للرحمة واهل الاختلاف للاختلاف وحاصل الآية ان الله خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم الى الجنة وهم اهل الاتفاق ويدل لصحة هذا قوله وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ اي ثبتت كما قدره في ازله واذا تمت حقت ووجبت امتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ اي الجن والتاء للمبالغة وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ اي ممن يستحقها من الطائفتين وَكُلًّا اي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه نَّقُصُّ عَلَيْكَ اي نخبرك به مما تحتاج اليه قوله مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ بيان لكلا وقوله مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ بدل منه والاظهر ان يكون المضاف اليه

المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص اي كل اقتصاص اي كل اسلوب من اساليبه نقص
عليك من انباء الرسل وقوله ما نثبت مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص
زيادة يقينه عليه السلام وطمانينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة واحتمال اذية الكفار
بالوقوف على تفاصيل احوال الامم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من
مكابدة المشاق لان تكاثر الادلة اثبت للقلب وارسخ في النفس واقوى للعلم وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
اي السورة قاله ابن عباس وابو موسى الاشعري وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر او في
هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر وقيل في هذه الآية او في هذه الانباء
الْحَقُّ اي البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد وقيل النبوة وعلى الاول يكون
تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لا بيان كونه موجودا
فيها دون غيرها وقيل لانها جمعت من هلاك الامم وشرح حالهم ما لم يجمع غيرها وقيل خصها بالذكر تشريفا لها و
التعريف في الحق اما للجنس او للعهد واما عرفه ونكر تاليه تفخيما له لكونه يطلق على اسمه جل وعلا وتاليه مَوْعِظَةٌ يتعظ بها
الواقف عليها اذا تذكر احوال الامم الماضية وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ اي يتذكر بها من تفكر فيها منهم
خص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق ولا
يتعظون ولا يتذكرون اعْمَلُوا حال كونكم قارين وثابتين عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ على تمكنكم وحالكم و
جهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه وقال قتادة على منازلكم إِنَّا عَامِلُونَ على مكانتنا
وحالنا وجهتنا من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر وفي هذا تشديد للوعيد وتهديد
لهم وَانتَظِرُوا عاقبة امرنا وقال ابن جريج انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على ما يزين لكم إِنَّا
مُنتَظِرُونَ عاقبة امركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد
ما لا يخفى وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اي علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب
مع كونه يعلم بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره وقيل
ان غيب السموات والارض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الارض والاول اولى وبه قال
ابو علي الفارسي وغيره واضاف الغيب الى المفعول توسعا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ بالبناء للفاعل وعود و
للمفعول يرد الْأَمْرُ كُلُّهُ اي امر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة يوم القيامة فيجازي كلا بعمله

فينتقم ممن عصى ويثيب من اطاع وقال ابن جريج فيقضي بينهم بحكم العدل فاعبده وتوكل
عليه فانه كافيك كلما تكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على
كون مرجع الامور كلها الى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفي
تاخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها وما ربك بغافل عما تعملون ع
بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه ان خيرا فخير وان شرا فشر وقرأ اهل المدينة والشام وحفص
بالفوقية على الخطاب وهي سبعية والباقون بالتحتية وهو الجمهور واخرج عبد الله بن احمد
وابن الضريس وابن جرير وابو الشيخ عن كعب الاحبار قال فاتحة التوراة فاتحة الانعام و
خاتمة التوراة خاتمة هود ولله غيب السموات والارض الى آخر الآية

سورة يوسف عليه السلام

قيل هي مائة واحدى عشرة آية وهي مكية كلها وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة
وقال ابن عباس وقتادة الا اربع آيات قال القرطبي قال العلماء ذكر الله اقاصيص الانبياء في
القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بالفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد
ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة ما لم
يكرر بسم الله الرحمن الرحيم الر قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس تلك آيات
الكتاب المبين اي تلك الآيات التي انزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر امرها
في اعجاز العرب وتبكيتهم والمبين من ابان بمعنى بان اي الظاهر امره في كونه من عند الله و
في اعجازه والمبين بمعنى الواضح بحيث لا يلتبس على قاريه وسامعه او المبين لما فيه من الاحكام
او المبين فيه قصص الاولين وشرح احوال المتقدمين او الواضحة التي لا تشتبه على العرب
معانيها لنزولها بلسانهم او قد ابين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف قال قتادة
مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان اي ظهر وقال الزجاج مبين للحق من الباطل
والحلال من الحرام فهذا من ابان بمعنى اظهر قال مجاهد بين الله حلاله وحرامه وعن معاذ
قال بين الله الحروف التي سقطت عن السن الاعاجم وهي ستة احرف انا انزلناه اي الكتاب

المبين حال كونه قُرْآنًا فعلى تقدير ان الكتاب السورة يكون تسميتها قرآنا باعتبار ان القرآن
اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض وعلى تقدير ان المراد به كل القرآن فتكون تسميته قرآنا
واضحة وعَرَبِيًّا صفة لقرآنا اي على لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل
ومشكوة واليم واستبرق ونحو ذلك قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وانكرها
ابو عبيدة محتجا بهذه الآية والجمع انها لما تكلمت به العرب نسبت اليهم وصارت من لغتهم
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ اي لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لانه نازل بلغتكم اخرج الحاكم عن
جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قرآنا عربيا ثم قال ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي الهاما
وعن مجاهد قال نزل القرآن بلسان قريش وهو كلامهم نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى وقالت لاخته قصيه اي تتبعي اثره وهو مصدر سميت الحكاية قصة
لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والتقدير نقص عليك قصصا احسن
القصص فيكون بمعنى الاقتصاص او هو بمعنى المفعول اي المقصوص والظاهر انه احسن ما يقتص
في بابه قال ابن عباس قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه الآية وعن ابن مسعود
مثله وقال قتادة نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وامور الله السابقة في الامم
احسن البيان واختلف في وجه كون هذه السورة او القرآن هو احسن القصص فقيل لان ما في
هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن
المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على اذاهم وعفوه عنهم وقيل لان فيها ذكر
الانبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والانعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار
والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن وقيل لان فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما
وقيل ان احسن هنا بمعنى اعجب وقيل ان كل من ذكر فيها كان ماله السعادة قال خالد بن معدان
سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما اهل الجنة في الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا
استراح اليها بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ اي من قبل ايحائنا
اليك لَمِنَ الْغَافِلِينَ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط اذ اي اذكر وقت قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ قرأ الجمهور يوسف بضم السين وقرئ بكسرها مع الهمز مكان الواو وحكي الهمز وفتح

السمين وهو اسم عبراني غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو عربي والاول اولى بدليل عدم صرفه
وابوه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وعاش يوسف من العمر مائة وعشرين سنة ذكره السيوطي
في التحبير يَا أَبَتِ بكسر تاء التانيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة واصله يا ابي وهذا
التعويض مختص بلفظين يا ابت ويا امت ولا يجوز في غيرهما من الاسماء وممن نص على كونها للتانيث
سيبويه والخليل ويدل عليه كتبهم اياها هاء وقياس من وقف بالتاء ان يكتبها تاء كبنت واخت
وجاز الحاقها بالمذكر كما جاز حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة إِنِّي رَأَيْتُ من الرؤيا النومية
لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه لا تقصص رؤياك على اخوتك قال ابن عباس رؤيا الانبياء
حق وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر فرأى ان احد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها
الشمس والقمر فسجدوا له وكان يوسف اذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل
سبع سنين أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وهي جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح
والصروخ والفرغ ووثاب وذو الكتفين قاله البيضاوي وهذه النجوم غير مرصودة خصصها بالذكر
لغيبتهم عنه قاله الشهاب وورد في حديث اسماؤها هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور وفيه الضعفاء والمتروكون
وقال ابن الجوزي هو موضوع قال ابن عباس احد عشر كوكبا اخوته والشمس امه والقمر ابوه وعن قتادة
والسدي وابن زيد نحوه وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ اخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما
كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وقيل ان الواو بمعنى مع رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ مستانفة
لبيان الحالة التي رآهم عليها واجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف
العقلاء وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل اذا
نزلوه منزلته وقيل كررت للتاكيد لما طال الفصل بالمفاعيل والاول اولى واليه نحا الزمخشري
لانه متى دار الكلام بين الحمل على التاكيد او التاسيس فحمله على الثاني اولى والمراد حقيقة السجود
لانه كان التحية فيما بينهم السجود وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت امره والاول
اولى ولم تظهر رؤيا يوسف الا بعد اربعين سنة وهو قول اكثر المفسرين وقال الحسن البصري
كان بينهما ثمانون سنة حين اجتمع عليه ابواه واخوته وخروا له ساجدين قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ
رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى والفها للتانيث

فلذلك لم يصرف نهى يعقوب ابنه يوسف عن ان يقص رؤياه على اخوته لانه قد علم تاويلها وخاف ان يقصها عليهم فيفهمون تاويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ وهذا جواب النهي اي فيفعلوا لاجلك كيدا مثبتا راسخا لا تقدر على الخلوص منه او كيدا خفيا عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من ان يقال فيكيدوك كيدا وقيل انما جيء باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعا الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين ان يقدر احدهما اصلا والآخر حالا ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مستانفة كان يوسف قال كيف يقع ذلك منهم فنبه بان الشيطان يحملهم على ذلك لانه عدو للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت احاديث صحيحة في بيان الرؤيا الصالحة وانها من الله والسوء وانها من الشيطان وفي ان رؤيا المؤمن جزء من اربعين جزءا من النبوة وليس لها تعلق بهذه الآية بل هي تتمة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ اي ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي رايته في المنام من سجود الكواكب والشمس والقمر الدالة على شرف وعز وكمال نفس ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ويحقق فيك تاويل تلك الرؤيا فيجعلك نبيا ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما تحضرت لك تلك الاجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك قال النحاس الاجتباء اصله من جبيت الشيء اذا حصلته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته ومعنى الاجتباء الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه اياه بفيض الهي يحصل منه انواع المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالانبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ومنها ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ اي تاويل الرؤيا قال مجاهد عبارة الرؤيا وقال ابن زيد تاويل العلم والحلم وكان يوسف من اعبر الناس وسمى الرؤيا احاديث لانها احاديث الملك ان كانت صادقة واحاديث الشيطان ان كانت كاذبة قال القرطبي واجمعوا ان ذلك في تاويل الرؤيا وقد كان يوسف اعلم الناس بتاويلها وقيل المراد تاويل احاديث الامم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به احواج اخوته اليه وقيل انجاؤه من كل مكروه وقيل انجاؤه من القتل خاصة والاحاديث جمع تكسير فقيل لواحد ملفوظ به وهو حديث ولكنه شذ جمعه على احاديث وله نظائر في الشذوذ كاباطيل واقاطيع

واعاريض في باطل وقطيع وعريض وزعم ابو زيد ان لها واحدا مقدرا وهو احدوثه ونحوه
وليس باسم جمع لان هذه الصيغة مختصة بالتكسير واذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لم يصرح له
بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وابابيل ففي احاديث اولى قاله السمين ويتم نعمته
عليك فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي اراك الله او يجمع لك بين خيري
الدنيا والآخرة وعلى آل يعقوب وهم قرابته من اخوته واولاده ومن بعدهم وذلك ان
الله سبحانه اعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد ان يكون اشارة الى ما حصل
لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم انبياء وبه قال اكثر المفسرين
كما اتمها على ابويك اي اتماما مثل اتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون ابراهيم اتخذه
الله خليلا ومع كون اسحاق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لهما الذرية الطيبة وهم
يعقوب ويوسف وسائر الاسباط من قبل اي من قبل هذا الوقت الذي انت فيه او من قبلك
ابراهيم واسحق عطف بيان لابويك او بدل منه او على اضمار اعني وعبر عنهما بالابوين مع كون
احدهما جدا وهو ابراهيم لان الجد اب ان ربك عليم بمصالح خلقه حكيم في افعاله والجملة غ
مستانفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلا له اي فعل ذلك لانه عليم حكيم واشارة الى قوله تعالى
الله اعلم حيث يجعل رسالته وانه لا يضع النبوة الا في نفس قدسية وكان هذا الكلام من يعقوب
مع ولده يوسف تعبير الرؤيا على طريق الاجمال او علم ذلك من طريق الوحي او عرفه بطريق
الفراسة وما تقتضيه المخائل اليوسفية لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين اي
لقد كان في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس
عنها او غيرهم ففيه اكتفاء وقرأ اهل مكة آية على التوحيد قال النحاس وآية ههنا قراءة حسنة
وقيل المعنى لقد كان في يوسف واخوته آيات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للسائلين له من
اليهود فانه روي انه قال له جماعة منهم وهو بمكة اخبرنا عن رجل من الانبياء كان بالشام
أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي ولم يكن بمكة احد من اهل الكتاب ولا من يعرف خبر
الانبياء وانما وجهوا اليه من اهل المدينة من يسأله عن هذا فانزل الله سورة يوسف جملة
واحدة كما في التوراة وقيل معنى آيات للسائلين عجب وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين

قال هذه القصة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه امرهم ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل اليه امره من الملك ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه امره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات قال القرطبي واسماؤهم يعني اخوة يوسف وهم احد عشر روبيل وهو اكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويشجر وامهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين نفتالي وبلهه اربعة وهم دان وتفتونا وجاد واوشير ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب اختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا وقال السهيلي ان ام يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو اكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وانبأكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحاق قال انما قص الله على محمد صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي اخوته عليه وحسدهم اياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم اياه حين اكرمه الله بنبوته ليأتسي به إذ اي وقت ان ﴿قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو اصغر من يوسف وخصوه بكونه اخاه مع انهم جميعا اخوته لانه اخوه لابويه كما تقدم واللام لام القسم اي والله ليوسف ووحد الخبر فقال ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ مع تعدد المبتدأ لان افعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه اذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياسا فصيح استعمالا لوروده في افصح الفصيح واذا بنيت فعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى الى الفاعل المعنوي بالى والى المفعول المعنوي باللام او بفي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة وانما قالوا هذا لانه بلغهم خبر الرؤيا فاجمع رايهم على كيده ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة الى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة الى الاربعين قاله قتادة وللمادة تدل على الاحاطة من العصابة لاحاطتها بالراس وقيل الاصل فيه ان كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط

وقد كانوا عشرة إن أبانا لفي ضلال مبين أي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما
علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في
دينه في ضلال إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد أي لفي خطأ من رأيه اقتلوا
يوسف أو اطرحوه أرضا أي في أرض وإليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري أي
أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ولإبهامها من
هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل إنها مفعول ثان والمعنى أنزلوه أرضا والطرح
الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا افعلوا به أحد الأمرين إما القتل أو الطرح في
أرض والمشير بالقتل بعضهم والمشير بالطرح البعض الآخر أو كان المتكلم بذلك واحد منهم
فوافقه الباقون فكانوا كالقائل في نسبة هذا القول إليهم وجواب الأمر يخل لكم وجه أبيكم
أي يصفو ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملا لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه
وتكونوا من بعده أي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه وقيل من بعد الذنب
الذي اقترفتموه في يوسف قوما صالحين في أمور دينكم وطاعة أبيكم أو صالحين في أمور
دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم
هو وأخوه أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه أو المراد بالصالحين التائبون من الذنب في
المستقبل قال قائل منهم أي من الإخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والأول أولى
قيل وجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه فلم ير هذا القائل القتل ولا الطرح
في أرض خالية قفراء بل قال وألقوه في غيابت الجب أي في بئر يشرب منها الماء فإنه أقرب خلاصا
فحصل بذلك أنه اختار خصلة ثالثة هي أرفق بيوسف من تينك الخصلتين قرأ الجماعة غيابة
بالإفراد وغيرهم بالجمع وأنكر أبو عبيد الجمع لأن الموضع الذي ألقوه فيه واحد قال النحاس وهذا
تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شيء غيب عنك شيئا وقيل للقبر غيابة والمراد بها هنا
غور البير الذي لا يقع عليه البصر أو طاقة فيه قال الهروي الغيابة سد أو طاق في البير قريب الماء
يغيب ما فيه من العيون وقال الكلبي الغيابة تكون في قعر الجب لأن أسفله واسع ورأسه ضيق
فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري هي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من

اسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فاذا طويت قيل لها بئر وسميت جبا لانها قطعت في الارض قطعا او لكونه محفورا في جبوب الارض اي ما غلظ منها وجمع الجب جبب وجباب واجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في ان يلقوه في مكان اسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر ببيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايليا وقيل بالاردن قاله وهب وقيل بالشام وعن ابن زيد قال بحذاء طبرية بينه وبينها اميال وقال مقاتل هو على ثلثة فراسخ من منزل يعقوب وجواب الامر **يلتقطه بعض السيارة** قرئ بالتحتية وبالفوقية ووجهه ان بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار اي المبالغ في السير والالتقاط هو اخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق او من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كانهم ارادوا ان بعض السيارة اذا التقطه حمله الى مكان بعيد بحيث يخفى عن ابيه ومن يعرفه ولا يحتاجون الى الحركة بانفسهم الى المكان البعيد فربما ان والدهم لا ياذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفا يرد عليه كثير من المسافرين **ان كنتم فاعلين** اي عاملين بما اشرت به عليكم في امره كانه لم يجزم بالامر بل وكله الى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره وفي هذا دليل على ان اخوة يوسف ما كانوا انبياء فان الانبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما وبغيا وقيل كانوا انبياء وكان ذلك منهم زلة قدم اوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم ورد بان الانبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب وقلة الرافة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد قيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وقيل انهم لم يكونوا في ذلك الوقت انبياء بل صاروا انبياء من بعد وكان كل ذلك قبل ان نبأهم الله ولما اجمع رايهم على ان يلقوه في غيابات الجب جاؤا الى ابيهم وخاطبوه بلفظ الابوة استعطافا له وتحريكا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للابناء وتوسلا بذلك الى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لامر ينبغي ان يكون الواقع على خلافه **قالوا يا ابانا ما لك لا تامنا على يوسف** اي اي شيء لك لا تجعلنا امناء عليه وكانهم قد كانوا سالوه قبل ذلك

ان يخرج معهم يوسف فابى قرئ تامنا بالاظهار وبالادغام من غير اشمام واتفق الجمهور على الاخفاء
او الاشمام وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ في حفظه وحيطته عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده اليك
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا اي في غد الى الصحراء التي اراد والخروج اليها وغد الظرف والاصل عند سيبويه
غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا يقال له بكرة والغد اليوم
الذي بعد يومك الذي انت فيه يَرْتَعْ هذا جواب الامر قرئ بالنون واسكان العين وبها
وكسر العين اسنادا للاكل والاولى ماخوذة من قول العرب رتع الانسان او البعير اذا اكل كيف
شاء والمعنى يتسع في الخصب وكل مخصب راتع والرتع التمتع في اكل الفواكه ونحوها والثانية ماخوذة
من رعي الغنم وقرئ بالتحتية فيهما ورفع يلعب على الاستيناف والضمير ليوسف وقال القتيبي معنى نرتع
نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضا من قولهم رعاك الله اي حفظك وَيَلْعَبْ من اللعب قيل لابي
عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء وقيل المراد به اللعب المباح
وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه
وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الاعداء كما في قولهم انا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور
الذي هو ضد الحق وسماه لعبا لشبهه به ولذا لم ينكر عليهم يعقوب لما قالوا او نلعب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر فهلا
بكرا تلاعبها وتلاعبك وقال ابن عباس نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهو وَالحال إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ من ان يناله
مكروه قَالَ اي فاجابهم يعقوب بقوله إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ اي ذهابكم به واللام لام
الابتداء للتاكيد ولتخصيص المضارع بالحال اخبرهم بانه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له
وحنوه عليه والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب وَمع ذلك أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ قال
هذا يعقوب تخوفا عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب وقيل انه خاف ان ياكله الذئب حقيقة
لان ذلك المكان كان كثير الذياب ولو خاف منهم عليه ان يقتلوه لارسل معهم من يحفظه
قال ثعلب الذئب ماخوذ من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل وجه قال والذئب مهموز لانه
يجيء من كل وجه وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ لاشتغالكم بالرتع واللعب او لكونكم غير مهتمين بحفظه
اخرج ابو الشيخ وابن مردويه والسلفي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تلقنوا الناس
فيكذبون فان بني يعقوب لم يعلموا ان الذئب ياكل الناس فلما لقنهم ابوهم كذبوا فقالوا

اكله الذئب قالوا جوابا عن عذره الثاني وهو قوله اخاف ان ياكله الذئب واما عذره الاول
وهو قوله اني ليحزنني فلم يجيبوا عنه اما لكون الحزن زمنه قصيرا لانقضائه برجوعهم واما لانه
ليس غرضهم ازالة الحزن عنه بل ايقاعه فيه والثاني هو المتعين لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ اللام هي
الموطئة للقسم والمعنى والله لئن اكله الذئب والحال ان نَحْنُ عُصْبَةٌ جماعة كثيرة عشرة رجال
إِنَّا إِذًا اي في ذلك الوقت وهو اكل الذئب له لَخَاسِرُونَ لهالكون ضعفا وعجزا او مستحقون
للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة على ايسر شيئ واقله او مستحقون لان يدعى
علينا بالخسار والدمار وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر في
الجملة التي قبلها فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ من عند يعقوب وَأَجْمَعُوا امرهم اي عزموا لان اصل معنى
الاجماع العزم والصمم أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ قد تقدم تفسيرهما قريبا وجواب لما محذوف
لظهوره ودلالة المقام عليه اي فعلوا به ما فعلوا من الاذى وقيل جوابه قالوا يا ابانا
انا ذهبنا نستبق وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب اوحينا والواو مقحمة ومثله
قوله تعالى فلما اسلما وتله للجبين وناديناه اي ناديناه قال ابن عباس كان يوسف في الجب ثلثة ايام وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ اي الى يوسف تبشيرا له وتانيسا لوحشته مع كونه صغيرا اجتمع على انزال الضرر به عشرة
رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرافة فان الطبع البشري
دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن ايسر شيئ
يراد منه فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو اخ لهم وله ولهم اب مثل يعقوب فلقد ابعد
من قال انهم كانوا انبياء في ذلك الوقت فما هكذا عمل الانبياء ولا فعل الصالحين وفي هذا
دليل على انه يجوز ان يوحي الله الى من كان صغيرا ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى
ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الالهام كقوله تعالى واوحى ربك الى النحل واوحينا الى ام موسى
والاول اولى وقد قيل انه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجال وهو بعيد جدا فان من كان قد
بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه ان ياكله الذئب لَتُنَبِّئَنَّهُمْ اي لتخبرن اخوتك بِأَمْرِهِمْ هَذَا الذي
فعلوه معك بعد خلوصك مما ارادوه بك من الكيد وانزلوه عليك من الضرر وَالحال
هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بانك اخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقائهم لك في غيابة الجب ولبعد

عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه
منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد ان صار اليه ملك مصر وقال مجاهد وهم
لا يشعرون بذلك الوحي وقال قتادة نهون ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال
وهم لم يعلموا اوحي الله اليه وجاءوا اباهم عشاء يبكون وهو اخر النهار وقيل في الليل ليكونوا
في الظلمة اجرأ على الاعتذار بالكذب اي جاءوا باكين او متباكين لانهم لم يبكوا حقيقة بل فعلوا
فعل من يبكي ترويجا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا الى ابيهم قالوا يا ابانا انا
ذهبنا نستبق اي نتسابق في العدو او في الرمي وقيل ننتضل بالسهام ويؤيده قراءة ابن مسعود
ننتضل قال الزجاج وهو نوع من المسابقة وقال الازهري النضال في السهام والرهان في الخيل
والمسابقة تجمعهما قال القشيري نستبق اي في الرمي او على الفرس او على الاقدام والغرض
من المسابقة التدرب بذلك في القتال وقال السدي يعني نشتد ونعدو وقال مقاتل نتصيد
اي نستبق الى الصيد وتركنا يوسف عند متاعنا اي ثيابنا ليحرسها فأكله الذئب الفاء
للتعقيب اي اكله عقب ذلك وقد اعتذروا اليه بما خافه سابقا عليه ورب كلمة تقول
لصاحبها دعني وما انت بمؤمن لنا اي بمصدق لنا في هذا العذر الذي ابديناه والكلمة التي قلناها
وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق ولو كنا عندك او في الواقع
صادقين لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له قال الزجاج والمعنى
ولو كنا عندك من اهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف
وكذا ذكره ابن جرير وغيره وجاءوا على قميصه بدم كذب وصف الدم بانه كذب مبالغة
كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكانه نفسه صار كذبا وقيل المعنى بدم ذي
كذب او بدم مكذوب فيه قال ابن عباس ومجاهد كان دم سخلة وقرأ الحسن وعائشة
بدم كدب بالدال المهملة اي بدم طري يقال للدم الطري كدب وقال الشعبي انه المتغير والكدب
ايضا البياض الذي يخرج في اظفار الاحداث فيجوز ان يكون شبه الدم في القميص بالبياض
الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم
متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ثم ذكر سبحانه ما اجاب به يعقوب عليه السلام

قال قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ اي زينت وسهلت وامرت لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا قال النيسابوري التسويل تقرير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الأمنية قال الازهري واصله مهموز غير ان العرب استثقلوا فيه الهمزة وفي الشهاب من السول بفتحتين وهو استرخاء العصب ونحوه فكان المسول بذله فيما حرص عليه فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال الزجاج اي فشأني او الذي اعتقده صبر جميل وقال قطرب اي فصبري صبر جميل وقيل فصبر جميل اولى بي قيل الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لاحد غير الله وعنه صلى الله عليه وسلم قال لا شكوى فيه من بث لم يصبر اخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد ليس فيه جزع وقرئ فصبرا جميلا وكذا في مصحف انس قال المبرد بالرفع اولى من النصب لان المعنى رب عندي صبر جميل وانما النصب على المصدر اي فلاصبرن صبرا جميلا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ اي المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبار منه عَلَى اي على اظهار حال او على احتمال مَا تَصِفُونَ اي تذكرون من امر يوسف عليه السلام وقال قتادة على ما تكذبون وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا ذكر على المعنى مكان ارسلت وَارِدَهُمْ هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره وقد تقدم تفسير السيارة اي جماعة مسافرون سموا سيارة لسيرهم في الارض والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام او من مدين الى مصر فاخطؤا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب وكان في قفرة بعيدة من العمران ترده للمارة والرعاة وكان ماؤه ملحا والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر الخزاعي من العرب العاربة فَأَدْلَى دَلْوَهُ يقال ادلى دلوه اذا ارسلها ليملأها ودلاها اذا اخرجها قاله الاصمعي والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذي يستقى بها فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج الدلو من البئر ابصره الوارد قَالَ يَا بُشْرَايَ ومعنى مناداته للبشرى انه اراد حضورها في ذلك الوقت فكانه قال هذا وقت مجيئك واوان حضورك وقيل انه نادى رجلا اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم الا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرئ يا بشراه وعليها اهل المدينة واهل مصر واهل البصرة واهل الشام قرأوا باضافة البشرى الى الضمير فالاول اولى قال النحاس والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو اوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجبا اي يا عجب هذا من ايامك

فاحضر قال وهذا مذهب سيبويه هٰذَا غُلَامٌ وكان يوسف احسن ما يكون من الغلمان وقد
اعطي شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد اعطيت سدس الحسن فكان
حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين
والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم ظهر النور من ضواحكه واذا تكلم ظهر من ثناياه
ولا يستطيع احد وصفه قال الضحاك فاستبشروا بانهم اصابوا غلاما لا يعلمون علمه ولا منزلته
من ربه وقال قتادة تباشروا به حين استخرجوه من البير وهي بيت المقدس معلوم مكانها وَأَسَرُّوهُ
اي اسر الوارد واصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن اخفوا
وجدانهم له في الجب وزعموا انه دفعه اليهم اهل الماء ليبيعوه لهم بمصر وقيل ضمير الفاعل
في اسروه لاخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك انه كان ياتيه اخوه يهوذا كل يوم بطعام
فاتاه يوم خروجه من البير فاخبر اخوته فاتوا الرفقة وقالوا هذا غلام ابق منا فاشتروه منهم
وسكت يوسف مخافة ان ياخذوه فيقتلوه وعن ابن عباس يعني اخوة يوسف اسروا شانه
وكتموا ان يكون اخاهم وكتم يوسف شانه مخافة ان يقتله اخوته واختار البيع فباعه
اخوته بثمن بخس وقال مجاهد اسره التجار بعضهم من بعض والاول اولى بِضَاعَةً اي اخفوه
حال كونه بضاعة اي متاعا للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال اي يقطع منه لانها قطعة
من المال الذي يتجر به قيل قاله لهم الوارد واصحابه انه بضاعة استبضعناها من الشام
مخافة ان يشاركوهم فيه وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ اي بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من
الاسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه فان هذا البلاء الذي فعلوه به كان سببا للوصول الى
مصر وتنقله في اطوار حتى صار ملكها فرحم الله به العباد والبلاد خصوصا في سني القحط الذي
وقع بها كما سياتي وفيه وعيد شديد لمن كان فعله سببا لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار
فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن
يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في وصفه بذلك وَشَرَوْهُ يقال شراه بمعنى
اشتراه وشراه بمعنى باعه والواو هنا الثاني اي باعه الوارد واصحابه او اشتراه السيارة من اخوته
بِثَمَنٍ بَخْسٍ ناقص او زيف وقيل ظلم وقيل حرام لان ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخسا لانه ممحوق البركة

اي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا اكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل دَرَاهِمَ بدل من ثمن
اي لا دنانير مَعْدُودَةٍ قيل باعوه بعشرين درهما وقيل باربعين درهما وفيه اشارة الى انها
قليلة تعد ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون ما دون اوقية وهي اربعون درهما اخرج الطبراني
والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال انما اُشْتُرِيَ يوسف بعشرين درهما وكان اهله حين ارسل
اليهم بمصر ثلثمائة وتسعين انسانا رجالهم انبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع
موسى حتى كانوا ستمائة الف وسبعين الفا وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار
مما لا حاجة الى التطويل بذكره وَكَانُوا الضمير يرجع الى ما قبله على حسب اختلاف الاقوال فيه
اي في يوسف مِنَ الزَّاهِدِينَ اصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها عُ
قال سيبويه والكسائي قال اهل اللغة زهد فيه اي رغب عنه وزهد عنه اي رغب فيه والمعنى انهم
كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس لان غرضهم
ابعاده عنهم لا تحصيل ثمنه وقيل ذلك لانهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به ولما دخلوا مصر
وعرضوه للبيع تدافع الناس في ثمنه وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ هو العزيز الذي كان على خزائن
مصر وكان وزيرا لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل ان الملك هو فرعون موسى
وقال ابن عباس كان اسم المشتري قطفير وعن محمد بن اسحاق اطفير بن روحب وكان اسم
امرأته راعيل بنت عابيل واسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر قيل اشتراه بعشرين
دينارا وقيل تزايدوا في ثمنه فبلغ اضعاف وزنه مسكا وعنبرا وحريرا وورقا وذهبا ولآلي وجواهر
وكان وزنه اربعمائة رطل روي انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث
عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلثين سنة واتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلث وثلثين
سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة فلما اشتراه العزيز قال لِامْرَأَتِهِ عن شعيب الجبائي
ان اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام وللمد كما في القاموس او بضم الزاي وفتح اللام كما قال الشهاب
أَكْرِمِي مَثْوَاهُ اي منزله الذي يثوى فيه بالطعام والطيب واللباس الحسن يعني احسني تعهده
حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا ويقال للرجل كيف ابو مثواك وام مثواك لمن
ينزل به من رجل او امرأة يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده وهل يراعي حق نزولك وقال ابن عباس وقتادة اكرمي منزلته

وعن ابن مسعود قال افرس الناس ثلثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته اكرمي مثواه الآية والمرأة التي اتت موسى فقال لابيها يا ابت استاجره وابو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ يكفينا بعض المهمات مما نحتاج فيه الى مثله او ان اردنا بيعه بعناه بربح أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا اي نتبناه فنجعله ولدا لنا قيل كان العزيز حصورا لا يولد له وقيل كان لا ياتي النساء او كان عقيما كما جرى عليه القاضي والاصفهاني تبعا للكشاف وقد كان تفرس فيه انه ينوب عنه فيما اليه من امر المملكة وَكَذَٰلِكَ اشارة الى ما تقدم من انجائه من اخوته واخراجه من الجب وعطف قلب العزيز عليه اي مثل ذلك التمكين البديع مَكَّنَّا لِيُوسُفَ يقال مكنه فيه اي اثبته فيه ومكن له فيه اي جعل له فيه مكانا ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يعني نعطيه مكانة ورتبة عالية فِي الْأَرْضِ اي في ارض مصر حتى صار متمكنا من الامر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة وَلِنُعَلِّمَهُۥ هو علة لمعلل محذوف كانه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه او كان ذلك الانجاء لهذه العلة او معطوف على مقدر وهو ان يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ اي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتاويل قيل فهم اسرار الكتب الالهية وسنن من قبله من الانبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ اي على امر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيده ذلك اضافة اسم الجنس الى الضمير ما يتعلق بيوسف من الامور التي ارادها الله سبحانه في شانه وقيل المعنى انه كان من امر يعقوب ان لا يقص رؤياه على اخوته فغلب امر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جدا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اي لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الاسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالاكثر الجميع لانه لا يعلم الغيب الا الله وقيل ان الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما في قوله فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول وقيل المعنى لا يعلمون ان الله غالب على امره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه ولما بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ قال سيبويه الاشد جمع واحده شدة نحو نعمة وانعم قال الكسائي واحده شد نحو قتل

وقال ابو عبيدة انه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب وخالفه الناس في ذلك وهو من
الشد وهو الربط على الشيء والعقد عليه والاشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان
قيل هو ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثماني عشر سنة قاله سعيد بن جبير
وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل اربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلثون سنة قاله السدي وقيل بلوغ الحلم
وبه قال ربيعة والشعبي وقيل عشرون سنة قاله الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمناه في
النساء والانعام قال الراغب وفيه تنبيه على ان الانسان اذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي
هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شان موسى في سورة القصص لان موسى كان قد
بلغ اربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل اعباء الرسالة واسرار النبوة واما
يوسف فلم يكن اذ ذاك بلغ هذا السن آتيناه حكماً هو ما كان يقع منه من الاحكام في سلطان
ملك مصر وعلماً هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقه قاله مجاهد
وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن قال انه اوتي النبوة صبيا
قال المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاهما الله هو الزيادة فيهما وكذلك اي مثل ذلك الجزاء
العجيب نجزي المحسنين فكل من احسن في عمله احسن الله جزاءه وجعل عاقبة الخير من جملة
ما يجزيه به وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا اوليا قال الطبري هذا
وان كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم
اعطيته ما اعطيته كذلك انجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وامكن لك في
الارض والاولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري
قيل معنى المحسنين المؤمنين وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين وراودته
اي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد
ما امر امرأته باكرام مثواه وقوله وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جيء به انموذجا للقصة
ليعلم السامع من اول الامر ان ما لقيه يوسف من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة
وعاقبة حميدة وانه محسن في جميع احواله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته
ولا يخفى ان مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز

والمراودة الارادة والطلب برفق ولين وقيل هي مأخوذة من الرود اي الرفق والتأني يقال ارودني اي امهلني وقيل مأخوذة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء كأن المعنى انها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلاء وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وهي عبارة عن التمحل في مواقعته اياها وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الداين ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظايرها مما يكون من احد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه ان سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان اي كما تجزي تجزى فان فعل البادي وان لم يكن جزاء اطلق عليه اسمه لكونه سببا للجزاء وهذه قاعدة مطردة مستمرة فكان يوسف عليه السلام لما كان ما اعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن والجمال سببا لمراودة امرأة العزيز له مراودا او المراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى انها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك وانما قال التي هو في بيتها ولم يقل امرأة العزيز او زليخا قصدا الى زيادة التقرير فان كونه في بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما انت عليه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه في اعلى معارج العفة والنزاهة والعدول عن اسمها للمحافظة على الستر او للاستهجان بذكره قال قتادة هي امرأة العزيز وغلقت الابواب اي اطبقتها قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال وهي الابواب فيقال غلق الابواب ولا يقال غلق الباب بل يقال اغلق الباب وقد يقال اغلق الابواب قيل وكانت الابواب سبعة كما في البيضاوي وغيره وانما غلقتها للشدة [illegible] فيها وقالت هيت لك قرأ ابو عمرو وعاصم والاعمش والكسائي بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء [illegible] اقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة كليف وليت قال ابن مسعود لا تنطعوا في [illegible] ة فانما هو مثل قول احدكم هلم وتعال وقرأ ابو اسحاق النحوي بكسر التاء وقرأ ابن كثير و[illegible] بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ ابو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه [illegible] سبعية وقرأ علي وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن [illegible] واهل

الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء وهذه كلها لغات في هذه الكلمة وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم
وتعال اي اقبل الا في قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فانها بمعنى تهيأت لك وانكرها
ابو عمرو وقال باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي الى اليمن هل تعرف
احداً يقول هكذا وانكرها ايضا الكسائي وقال النحاس هي جيدة عند البصريين لانه يقال هاء الرجل
ويهيئ هيأة ورجح الزجاج القراءة الاولى وتكون اللام في لك على القراءات الاولى التي هي فيها
بمعنى اسم الفعل للبيان اي لك اقول هذا كما في هلم لك قال النحويون هيت جيء بالحركات الثلاث
فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيها بحيث واذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت
قائم مقام المصدر كافٍ له اي لك اقول هذا وان لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر
الفعل فيكون اسم فعل اما خبر اي تهيأت واما امر اي اقبل وقال في الصحاح يقال هوّت به و
هيت به اذا صاح به ودعاه وقد روي عن ابن عباس والحسن انها كلمة سريانية معناها
انها تدعوه الى نفسها وقال الكسائي هي لغة لاهل حوران وقعت الى اهل الحجاز معناها تعال
قال ابو عبيدة فسألت شيخا عالما من حوران فذكر انها لغتهم وعن ابن عباس معناه هلم لك بالقبطية
وقال الحسن اي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال انها بغير لغة العرب يقول ان
العرب وافقت اصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب
الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب
الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد انها
لغة عربية تدعوه بها الى نفسها قال مَعَاذَ اللهِ اي اعوذ بالله معاذا مما دعوتني اليه يقال عاذ
يعوذ عياذا ومعاذا وعوذا مصدر بمعنى الفعل إِنَّهُ اي الذي اشتراني رَبِّيٓ تعليل للامتناع
الكائن منه ببعض الاسباب التي هي اقرب الى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن اي الشأن
انه ربي يعني العزيز اي سيدي الذي رباني أَحْسَنَ مَثْوَايَ حيث امرك بقوله اكرمي مثواه فكيف
اخونه في اهله وأجيبك الى ما تريدين من ذلك وقال الزجاج ان الضمير لله سبحانه اي ان الله
ربي تولاني بلطفه فلا اركب ما حرمه قال مجاهد والسدي وابن اسحق يبعد جدا ان يطلق نبي كريم
على مخلوق انه ربه ولو بمعنى السيد لانه ليس مملوكا في الحقيقة والاول فيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن اجابتها والفلاح الظفر والمعنى انه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف اي انه لا يسعد الزناة ﴿وَلَقَدْ﴾ لام قسم ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ المعنى انه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد الى ذلك اختيارا كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله وان ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا ولا عزم ولا تصميم والقصد على هذا الوجه لا مواخذة فيه فلا خلاف في ان يوسف لم يأت بفاحشة وانما الخلاف في وقوع الهم ولما كان الانبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد اليها ايضا تكلم اهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله ابو حاتم قال كنت اقرأ على ابي عبيدة غريب القرآن فلما اتيت على قوله ولقد همت به وهم بها قال هذا على التقديم والتاخير كانه قال ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها وقال احمد بن يحيى ثعلب اي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق فهذا انما هو حديث نفس من غير عزم يقال هممت بالشيء اذا اردته وحدثتك نفسك به قال الزمخشري هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر

هممت ولم افعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

وقيل هم بها اي هم بضربها وقيل هم بها بمعنى تمنى ان يتزوجها وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف الى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي ويدل على هذا قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وقوله وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء ومجرد الهم لا ينافي العصمة فانها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب قال الشهاب المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال او ميل الطبع كالصائم يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل اليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وفي البيضاوي المراد بهمه عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام الهم وقيل انه هم بالفاحشة واتى ببعض مقدماتها وقد افرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم ايضا وقد اطنب الرازي في هذا المقام وذكر كلاما مبسوطا حاصله ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة

هم يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين وابليس وكلهم قالوا ببراءته عن الذنب فلم يبق لمسلم توقف في هذا الباب فتقرر ان يوسف كان بريا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت على عصمة الانبياء عليهم السلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض المفسرين عن الائمة المتقدمين انتهى وتبعه الخازن وغيره في ذلك والاولى ما ذكرناه اولا وجواب لو في لَوْلَآ اَنْ رَّاٰى بُرْهَانَ رَبِّهٖ محذوف اي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو فقيل ان زليخا قامت عند ان همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين قال استحي من الهي هذا ان يراني على هذه الصورة فقال يوسف انا اولى ان استحي من الله تعالى روي معنى هذا عن علي بن ابيطالب في رواية عن علي بن الحسين وقيل انه رأى في سقف البيت مكتوبا ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وقيل رأى كفا مكتوبا عليها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وقيل ان البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما اخذه على عباده وقيل نودي يا يوسف انت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء وقيل رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على انملته يتوعده وبه قال قتادة واكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل ان كل ذلك الاخرافات واباطيل تمجها الاذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها او سمعها وصدقها والحاصل انه رأى شيئا حال بينه وبين ما هم به والله اعلم ما هو وقد اطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت اقوالهم في ذلك اختلافا كثيرا كَذٰلِكَ اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه او الى التثبيت المفهوم من ذلك اي مثل تلك الاراءة اريناه او مثل ذلك التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْٓءَ اي كل ما يسوءه وَالْفَحْشَآءَ هو كل امر مفرط القبح وقيل السوء الخيانة للعزيز في اهله والفحشاء الزنا وقيل السوء الشهوة والفحشاء المباشرة وقيل السوء الثناء القبيح والاولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا اوليا وفيه اية بينة وحجة قاطعة على انه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا

لتميل لتصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتامل قال ابو السعود إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ تعليل لما قبله قرئ بكسر اللام وفتحها وهي سبعية والمعنى على الاولى ان يوسف كان ممن اخلص طاعته لله وعلى الثانية انه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد كان عليه السلام مخلصاً مستخلصا وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من اول امره بقضية الجملة الاسمية لا ان ذلك حدث له بعد ان لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية وَاسْتَبَقَا الْبَابَ اي تسابقا اليه وهذا كلام متصل بقوله ولقد همت به وهم بها الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام ووجه تسابقهما ان يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد ان تسبقه اليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم لان تسابقهما كان الى الباب البراني الذي يخلص منه الى خارج الدار قال السيوطي بادر اليه يوسف للفرار وهي للتشبث به فامسكت ثوبه وَقَدَّتْ اي جذبت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ من ورائه فانشق الى اسفله والقد القطع واكثر ما يستعمل فيما كان طولا والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا قال الشهاب في الريحانة القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لان القد قطع الشيء من نصفه وقطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكانه لكونه قليلا من القطع نقص منه العين انتهى واسناد القد اليها خاصة مع ان لقوة يوسف ايضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ اي وجدا العزيز هنالك وعنيا لسيد الزوج لان القبط يسمون الزوج سيدا وانما لم يقل سيدهما لان ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا من الزنا ونحوه والجملة مستانفة كانه قيل فما كان منهما عند ان الفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها الى يوسف اي اي جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم اجابت عن استفهامها بقولها إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ اي ما جزاؤه الا ان يسجن ويحتمل ان تكون ما نافية اي ليس جزاؤه الا السجن وانما بدأت بذكر السجن لان المحب لا يشتهي

ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن عندها يوما او يومين ولم ترد السجن الطويل قال الخازن
وهذه لطيفة فافهمها وقال ابن الخطيب واما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال
يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لاجعلنك من المسجونين ذكره الكرخي أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ قيل هو الضرب بالسياط والظاهر انه ما يصدق عليه العذاب الاليم من ضرب وغيره و
في الابهام للعذاب زيادة تهويل قيل اخرت ذكر العذاب لان المحب لا يسعى في ايلام المحبوب وايضا
لم تقل ان يوسف يجب ان يقابل باحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب
عن الذكر بالشر فلما سمع يوسف مقالتها واراد ان يبرهن عن نفسه قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي
يعني طلبت مني الفحشاء فابيت وفررت والجملة مستانفة كالجملة الاولى وقد تقدم معنى بيان
المراودة اي هي التي طلبت مني ذلك ولم ارد بها سوء ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه
وهو ادب حسن حيث اتى بلفظ الغيبة دون الحضور ولم يكن يريد ان يذكر هذا القول ولا
يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه
فقال ما قال وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا اي من قرابتها ليكون الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه
من التثبت والتامل قيل لما التبس الامر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق
من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفا مع العزيز في الباب وقيل ابن خال لها وقيل انه طفل
في المهد تكلم قال السهيلي وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر من تكلم في
المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف وقيل انه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في اموره وكان
من قرابة المرأة قال ابن عباس صبي انطقه الله كان في الدار وعنه قال كان رجلا ذا لحية من
خاصة الملك وعن الحسن قال هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال انه ليس بانسي ولا جني هو
خلق من خلق الله قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من اهلها وانما كان الشاهد من اهل المرأة
وقرابتها ليكون اقوى في نفي التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على
صدقه إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ اي من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على
بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بان قميص يوسف ان كان مقطوعا من قبل
اي من جهة القبل فَصَدَقَتْ اي فقد صدقت بانه اراد بها سوء وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ في قوله

انهاواودته عن نفسه وقرئ من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلاهما غايتين
وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ اي من ورائه فَكَذَبَتْ في دعواها عليه وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ في دعواه عليها ولا يخفى ان هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما
وتاليهما لا عقلا ولا عادة وليستا من الشهادة في شيء وانما ذكرتا توسيعا للدائرة وارخاء
للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى ان يحتمله الحال في الجملة فليس ههنا الا امر امارة غير
مطردة اذ من الجائز ان تجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وان تجذبه وهو
مدبر عنها فينقد القميص من قبل فَلَمَّا رَأَى العزيز قَمِيصَهُ اي قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ
كانه لم يكن رأى ذلك بعد اولم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته
وبراءة يوسف عليه السلام قَالَ إِنَّهُ اي الامر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما اوان قولك
ما جزاء من اراد باهلك سوءا مِنْ جنس كَيْدِكُنَّ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ
عَظِيمٌ خاطب الجنس لان الحيل والمكايد لا تختص بها وانما وصف الكيد بالعظيم لان كيدهن
اعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه الطف واعلق
بالقلب واشد تاثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني اخاف من النساء ما لا اخاف من الشيطان
فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان
يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال وقيل هذا من قول الشاهد والاول اولى قال
الحفناوي هذا فيما يتعلق بامر الجماع والشهوة لا عظيم على الاطلاق اذ الرجال اعظم منهن في الحيل
والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا الامر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به حتى لا يفشو ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكترث
به ولا تهتم فقد بان عذرك ثم اقبل عليها بالخطاب فقال وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا لِذَنبِكِ الذي
وقع منك قال الكرخي كان العزيز قليل الغيرة بل قال في البحر ان تربة مصر تقتضي هذا وطن لا ينشأ
فيها الاسد ولو دخل فيها لا يبقى إِنَّكِ كُنتِ بسبب ذلك مِنَ الْخَاطِئِينَ اي من جنسهم يقال خطئ
بالخطيئة والجملة تعليل لما قبلها من الامر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للذكر
على المؤنث كما في قوله وكانت من القانتين ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ

اذا اذنب متعمدا وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز
بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما وَقَالَ نِسْوَةٌ قرئ نسوة بضم النون قاله ابو البقا وبكسرها
والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند اليهن كما يجوز التانيث ولا واحد له من
لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة ايضا ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمسا وهن
امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه
فِي الْمَدِينَةِ هي مصر وقيل مدينة الشمس امْرَأَةُ الْعَزِيزِ يعني زليخا تُرَاوِدُ فَتَاهَا الفتى في كلام
العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد به هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي اي
غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيها على ان المراودة صارت سجية لها ودينا دون الماضي
فلم يقلن راودت عَنْ نَفْسِهِ وهو يمتنع منها قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا اي غلبها حبه وقيل دخل حبه في
شغافها قال ابو عبيدة شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه وقيل هو وسط القلب وعلى
هذا يكون المعنى دخل حبه الى شغافها فغلب عليه وقرئ شعفها بالعين المهملة قال ابن الاعرابي
معناه اجرى حبه عليها قال الجوهري شعفه الحب احرق قلبه وقال ابو زيد امرضه وقال
النحاس معناه عند اكثر اهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لان شعاف الجبال اعاليها
وقد شغف بذلك شغفا باسكان الغين المعجمة اذا ولع به وقرأ الحسن قد شغفها بضم الغين
وحكي بكسرها قال النحاس ولا يعرف ذلك في كلام العرب الا شغفا بفتح الغين ويقال ان الشغاف
الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكانه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد
وقيل المعنى ان حبه دخل الجلدة حتى اصاب القلب وقيل ان حبه قد احاط بقلبها كاحاطة
الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى صارت لا تعقل شيئا سواه وقال السمين خرق
شغاف قلبها اي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب وقيل داء يصل الى القلب
من اجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليست محيطة به والمعنى خرق حجابه
واصابه فاحرقه بحرارة الحب يقال شغفه الهوى قلبه شغفا وشغفه المال زين له فاحبه
فهو مشغوف به وعن ابن عباس شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف قال قد علقها قال
اذ في صحة المرجان ولا استبعاد في اظهار العشق من جانب المرأة اما ترى في القرآن الكريم غزلو

امرأة العزيز بيوسف عليه السلام والاهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة الى الرجل خلاف العرب وسببه ان المرأة في دينهم لا تنكح الا زوجا واحدا فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج واذا مات تحرق نفسها معه والعشق بين الرجل والمرأة وضع الهي فتارة يكون من الطرفين وتارة يكون من احدهما واذا الوحظ الوضع الالهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق معشوق واهل الهند وافقوا العرب في التغزل بالنساء خلافا الفرس والترك فان تغزلهم بالامارد فقط ولا ذكر من المرأة في اغزالهم ولعمر المحبة انهم لظالمون حيث يضعون الشيئ في غير موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد والعرب في التغزل بالامارد متقلدون لهم والاصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن واما الاهاند فلا يعرفون التغزل بالامارد قطعا انتهى هذا وقد عقد رح الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان اقسام المعشوقات والعشاق واورد لكل قسم منها اشعارا عجيبة وابياتا غريبة باعتبار الجهات المتنوعة والحيثيات المتلونة ان رأها السالي تذوب طبيعته الجامدة او العاذل تشعل ناره الخامدة اِنَّا لَنَرٰىهَا جملة مقررة لمضمون ما قبلها اي نعلمها في فعلها هذا وهو المراودة لفتاها فِيْ ضَلٰلٍ عن طريق الرشد والصواب مُّبِيْنٍ واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب على امثالها من العفاف والستر فَلَمَّا سَمِعَتْ امرأة العزيز بِمَكْرِهِنَّ اي بغيبتهن اياها سميت الغيبة مكرا لاشتراكهما في الاخفاء وقيل اردن ان يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا سمي قولهن مكرا وقيل انها اسرت عليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكرا عن سفيان قال اي بعملهن وكل مكر في القران فهو العمل اَرْسَلَتْ اِلَيْهِنَّ اي تدعوهن اليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن الى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت اربعين امرأة من اشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها وَاَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَاً اي هيأت لهن مجالس يتكئن عليها من نمارق ووسائد واعتدت من الاعتداد وهو كلما جعلته عدة للشيئ وقرئ متكأ مخففا غير مهموز والمتك هو الاترج بلغة القبط قاله مجاهد وعن عكرمة قال هو كل شيئ يقطع بالسكين وعن الضحاك مثله وقيل ان ذلك هو لغة ازدشنوءة وقيل حكي ذلك عن الاخفش قال الفراء انه

ماء الورد وقرأ الجمهور متكأ بالهمز والتشديد بدون واصح ما قيل فيه انه المجلس وقيل هو الطعام وبه
قال ابن جبير والحسن وقتادة وسمي متكأ على الاستعارة قاله الخازن اي للاتكاء عند الطعام على عادة
المتكبرين في اكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته المجاورة وقيل المتكأ كل ما اتكي عليه عند
طعام او شراب او حديث وحكى القتيبي انه يقال اتكأنا عند فلان اي اكلنا ويؤيد هذا قوله
وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا فان ذلك انما يكون لشيء ياكلنه بعد ان يقطعنه والسكين
تذكر وتؤنث قاله الكسائي والفراء قال الجوهري والغالب عليه التذكير والمراد من اعطائها كل
واحدة سكينا ان يقطعن ما يحتاج الى التقطيع من الاطعمة قيل وكان من عادتهن ان ياكلن
اللحم والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن انها ارادت بذلك ما يقع منهن
من تقطيع ايديهن وَقَالَتِ ليوسف اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ اي في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء
والاكل وتقطيع ما يحتاج الى التقطيع من الطعام فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ اي اعظمنه قاله مجاهد
واحترمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله وقيل امذين ومنه قول الشاعر ٥
اذا ما رأين الفحل من فوق قلة * صهلن واكبرن المني المقطرا * وقال الازهري اكبرن بمعنى حضن
والهاء للسكت يقال اكبرت المرأة اي دخلت في الكبر بالحيض ووقع منهن ذلك دهشا وفزعا
لما شاهدنه من جماله الفائق وحسنه الرائق وانكر ذلك ابو عبيدة وغيره وقالوا ليس ذلك في كلام
العرب قال الزجاج يقال اكبرنه ولا يقال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض وقيل أمنين وقال
ابن عباس حضن من الفرح واجاب الازهري فقال يجوز ان يكون هاء الوقف لا هاء الكناية وقد
زيف هذا بان هاء الوقف تسقط في الوصل قال ابن الانباري ان الهاء كناية عن مصدر الفعل
اي اكبرن اكبارا بمعنى حضن حيضا وقال الرازي وعندي انه يحتمل وجها آخر هو انهن انما
اكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية وهي عدم الالتفات
الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم اكبرنه واعظمنه و
حمل الآية على هذا اولى انتهى قلت الاولى هو الاول وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ اي جرحنها حتى سال الدم
وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة
كما قال النحاس يقال قطع يد صاحبه اذا خدشها وقيل المراد بالايدي هنا اناملهن وقيل كما

والمعنى انه لما خرج يوسف عليهن اعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت ايديهن
فوقع القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الاحلام وتضطرب له
الابدان وتزول العقول قال مجاهد فما احسسن الا بالدم وقال قتادة ابنّ ايديهن حتى القينها
والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وعن منبه عن ابيه قال ماتت من النسوة اللاتي قطعن ايديهن
تسع عشرة امرأة كمدا وَقُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ قرئ باثبات الالف وحذفها باسكان الشين حاش سمع في
حاش الاله وحاشا لله قلت اثبات الالف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق ولما
رسم المصحف فلا تكتب فيه الف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج اصل الكلمة من الحاشية
بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان اي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا اي تباعد منه
وقال ابو علي هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل وكلام اهل النحو في هذه الكلمة معروف
ومعناها هنا التنزيه كما تقول اسيء القوم حاشا زيد فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيهه اي عن صفة
العجز عن خلق هذا وامثاله قال مجاهد حاشا لله معاذ الله مَا هٰذَا بَشَرًا اعمال ما عمل ليس هي لغة اهل
الحجاز وبها نزل القران كهذه الاية وكقوله سبحانه ما هن امهاتهم اما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال
الكوفيون اصله ما هذا ببشر واما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد اعملوها عمل ليس وبه قال
البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهده وحججه وقرأ الحسن ما هذا بشرا على ان الباء حرف جر
والشين مكسورة اي ما هذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله ان
هذا الا ملك كريم وانما نفين عنه البشرية لانه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم
يعهد على احد من البشر ولا ابصر المبصرون ما يقاربه في جميع الشمائل البشرية ثم لما نفين عنه البشرية
لهذه العلة اثبتن له الملكية وان كن لا يعرفن الملائكة وقلن اِنْ هٰذَا اِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ على الله لانه قد تقرر
في الطباع وركز في النفوس انهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وان لا شيء احسن من الملك
وانهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها ان الشياطين على العكس من ذلك ولا اقبح منهم والمقصود من هذا
اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف فاعلموا انه لا يلزم من قول النسوة هذا ان الملائكة صورهم احسن
من صور بني ادم فانهن لم يقلنه لدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك
ممنوع فان الله سبحانه يقول لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم وظاهر هذا انه لم يكن شيء مثله من

انواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة
تعصباته لما رسخ في عقله من اقوال المعتزلة على ان هذه المسئلة اعني مسئلة المفاضلة بين الملائكة
والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فما اغنى عباد الله عنها واحوجهم الى غيرها من
مسائل التكاليف قال قتادة قلن ملك من الملائكة من حسنه وغرابة جماله واخرج احمد وغيره
عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اعطي يوسف وامه شطر الحسن وقد وردت روايات عن جماعة
من السلف في وصف حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها انه اعطي نصف الحسن وفي
بعضها ثلثه وفي بعضها ثلثيه قالت فذلكن الذي لمتنني فيه الاشارة الى يوسف والخطاب
للنسوة اي عيرتنني فيه قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف اظهارا لعذر نفسها ومعنى فيه
في حبه وقيل الاشارة الى الحب والضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب والاول اولى ورجحه ابن جرير ونحوه وان يكون
اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الذي صورتن في انفسكن ثم لمتنني فيه قال الزمخشري
قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق ان يحب ويفتتن به فلام البعد هنا لتعظيم رتبته او لبعد رتبته
وحالته عن رتبة البشر وحصل اللوم الوصف بالقبيح ثم لما اظهرت عذرها عند النسوة بما شاهدنه مما وقعن فيه عند ظهوره
لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه فاقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة
له فقالت ولقد اللام لام قسم راودته عن نفسه فاستعصم اي استعف وامتنع واستعصى مما
اريد طالبا العصمة نفسه عن ذلك وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن
قد اصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم توعدته ان لم يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة
لستر العفاف فقالت ولئن لام قسم لم يفعل ما آمره اي ما قد امرته فيما تقدم ذكره عند ان
اغلقت الابواب وقالت هيت لك ليسجنن اي ليعتقل في السجن وليكونا من الصاغرين من صغر
بكسر الغين يصغر صغرا وصغارا والصغير من صغر بالضم صغرا اي من الاذلاء لما يناله من الاهانة
ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه وعرف انها عزمة منها مع ما
قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجيا لربه سبحانه يا رب السجن اي دخوله الذي
اوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه سجنا احب الي اي آثر عندي لانه
مشقة قليلة نافدة اثرها راحات جليلة ابدية مما يدعونني اليه من مواتاتها التي تؤدي الى

الشقا والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة وهذا الكلام منه عليه السلام
مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست
على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران اهونهما واقربهما الى الايثار
السجن بان كان في احدهما مشقة وفي الآخر لذة قال بعضهم لو لم يقل هذا لم يبتل به فالاولى
للعبد ان يسال الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسال الصبر والتعبير عن
الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان
الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه في مطاوعتها
وخوفنه من مخالفتها وقيل انهن جميعا دعونه الى انفسهن او لانه كان بحضرتهن والاول اولى ثم
جرى على هذا في نسبة الكيد اليهن جميعا فقال وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ في تحبيب ذلك
الي وتحسينه لدي بان تثبتني على ما انا عليه من العصمة والعفة اما الكيد من امرأة العزيز فما
قد قصه الله سبحانه في هذه السورة واما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة
والتخويف من المخالفة وقيل انها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي
فانا خير لك من امرأة العزيز وقيل انه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما
لها او عدولا عن التصريح الى التعريض والكيد الاحتيال وجزم أَصْبُ إِلَيْهِنَّ على انه جواب الشرط اي
امل اليهن واتبعهن واطاوعهن من صبا يصبو اذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر ـ الى هند
صبا قلبي ، وهند حبها يصبي ، والصبوة الميل الى الهوى ومنه ريح الصبا لان النفس تستطيبها وتميل
اليها الطيب نسيمها وروحها وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ اي ممن يجهل ما يحرم فارتكابه ويقدم عليه او ممن
يعمل عمل الجهال او ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة
قال ابو السعود وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء الى الطاف الله جريا على سنن الانبياء والصالحين في
قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن انفسهم
مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن باظهار ان لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث
ادركني والا هلكت لا انه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه الى
هواهن فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لما قال وان لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرضا للدعاء وكأنه

قال اللهم اصرف عني كيدهن فالاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لانه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف **فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** حسب دعائه والمعنى انه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لانه اذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه منه ووجه اسناد الكيد قد تقدم **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** تعليل لما قبلها من صرف الكيد اي انه هو السميع لدعوات الداعين له العليم باحوال الملتجئين اليه وفيه انه لا يقدر احد على الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به وهو معنى قوله لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ** اي ظهر للعزيز واصحابه الذين يدبرون الامر معه ويشيرون عليه في الرأي واما فاعل بدا فقال سيبويه هو ليسجننه اي ظهر لهم ان يسجنوه قال المبرد وهذا غلط لان الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدا وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأي اي وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه **مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ** قيل هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الايدي وقيل هي البركات التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف اليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف وانفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها وان لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس الآيات قد القميص واثرها في جسده واثر السكين وقالت امرأة العزيز ان انت لم تسجنه ليصدقنه الناس وعن ابن زيد قال من الآيات كلام الصبي وقال قتادة الآيات حزهن ايديهن وقد القميص واقول ان كان المراد بالآيات الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع ايدي النسوة منها لانه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ما البسه الله سبحانه من الجمال الذي ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عند رؤيته قوى التجلد وان كان المراد بالآيات الدالة على انه قد اعطي من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ويذهب بادراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الايدي من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا **لَيَسْجُنُنَّهُ** اللام جواب قسم محذوف اي قائلين والله ليسجننه وقرئ بالفوقية على الخطاب اما للعزيز ومن معه او له وحده على طريق التعظيم وفي الخطط للمقريزي قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة اجمع

اهل المعرفة من اهل مصر على صحة هذا المكان وفيه اثنتين احدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر ان مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بنى على اثره مسجد يعرف بمسجد موسى انتهى ثم اطال في بيان حال ذلك السجن وموضعه وما يصنع هناك قيل وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف ارادوا واستر المقالة وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه وقيل ان العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم انها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بما تحمل نفسها عليه على اي صفة كانت حَتَّى حِينٍ الى مدة غير معلومة كما قاله اكثر المفسرين وقيل الى انقطاع ما شاع في المدينة وقال سعيد بن جبير الى سبع سنين وقيل الى خمس وقيل الى ستة اشهر وقد تقدم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى الى قال السدي جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة وعن ابن عباس قال عوقب يوسف ثلاث مرات اما اول مرة فبالحبس لما كان من همه بها والثانية لقوله اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين عوقب بطول الحبس والثالثة حيث قال ايتها العير انكم لسارقون فاستقبل في وجهه ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ التقدير فسجنوه ودخل معه ومع للمصاحبة وفتيان تثنية فتى وذلك يدل على انهما عبدان له ويحتمل ان يكون الفتى اسما للخادم وان لم يكن مملوكا قال ابن عباس احدهما خازن الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما اهل مصر مالا في مقابلة ذلك ثم ان الساقي رجع من ذلك وقال للملك لا تاكل الطعام فانه مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل فابى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل بعده قال ابن جرير انهما سألا يوسف عن علمه فقال اني اعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا اي رايتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى اني اراني اعصر عنبا فسماه باسم ما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود واني اعصر عنبا لا تدل على الترادف لارادتهما التفسير لا التلاوة قال الاصمعي اخبرني المعتمر بن سليمان انه لقي اعرابيا ومعه عنب فقال له ما معك قال خمر وقيل معناه اعصر عنب خمر فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذي يسأله

هذه الرؤيا هو الساقي وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستأنفة
بتقدير سؤال وكذلك الجملة التي بعدها وهي وقال الآخر اي الخباز إني أراني أحمل فوق رأسي
خبزا ثم وصف الخبز هذا بقوله تأكل الطير منه ثم قالا ليوسف جميعا بعد ان قصا
رؤياهما عليه نبئنا بتأويله اي بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين او بتأويل المذكور
لك من كلامنا وقيل ان كل واحد منهما قال له عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعا
الى ما رآه كل واحد منهما وقيل ان الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الاشارة بطريق الاستعارة
فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد والتقدير بتأويل ذلك إنا نراك من المحسنين اي من الذين
يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء ان معناه من العالمين الذين احسنوا العلم وقال ابن اسحاق
من المحسنين الينا ان فسرت ذلك ومن المحسنين الى اهل السجن فقد روي انه كان كذلك
قال قتادة كان يعزي حزينهم ويداوي مريضهم ورأوا منه عبادة واجتهادا فاحبوه وعن
الضحاك قال كان احسانه انه اذا مرض انسان في السجن قام عليه واذا ضاق عليه المكان اوسع
له واذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال دعا يوسف لاهل السجن فقال اللهم لا تعم عليهم الاخبار وهون عليهم الايام قال لا
يأتيكما طعام ترزقانه من جهة الله والملك والجملة صفة لطعام الا نبأتكما بتأويله
قبل أن يأتيكما مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى ذلك انه يعلم شيئا من الغيب بالهام الله تعالى له
وانه لا يأتيهما الى السجن طعام في اليقظة الا اخبرهما بماهيته قبل ان يأتيهما وقيل اراد به في النوم
والاول هو الاظهر وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام مقدمة
قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته في العلم وانه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن
وتخمين فهو كقول عيسى عليه السلام وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم وانما قال
يوسف لهما بهذا ليحصل الانقياد له منهما فيما يدعوهما اليه بعد ذلك من الايمان بالله والخروج
من الكفر والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا يأتيكما في حال من الاحوال
الا حال ما نبأتكما اي بينت لكما ماهيته وكيفيته وسماه تأويلا بطريق المشاكلة
لان الكلام في تأويل الرؤيا او للمعنى لا نبأتكما بما يؤول اليه الكلام من مطابقة ما اخبركما به للواقع ذلكما اي
التأويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما مما علمني ربي مما اوحاه الي وألهمني اياه لا من قبل

الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ثم بين لهما ان ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو سبب ترك الملة التي لا يؤمن اهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الانبياء من آبائه فقال ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهو كلام مستانف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الاصل وعدم الالتفات اليه بالكلية لا انه قد كان تلبس به ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا ان نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه فقال ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ اي هم مختصون بذلك دون غيرهم لافراطهم في الكفر بالله ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وسماهم آباء جميعا لان الاجداد آباء وقدم الجد الاعلى ثم الجد الاقرب ثم الاب لكون ابراهيم هو اصل هذه الملة التي كان عليها اولاده ثم تلقاها عنه اسحاق ثم يعقوب وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الايمان وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية ﴿مَا كَانَ﴾ اي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ اي شيء كان من ملك او جني او انسي فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي لفظة من زائدة موكدة كقولك ما جاءني من احد ﴿ذَلِكَ﴾ اي الايمان والتوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ اي ناش من تفضلاته ﴿عَلَيْنَا﴾ ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ﴿وَ﴾ من فضل الله ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ كافة ببعثة الانبياء اليهم وهدايتهم الى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله سبحانه على نعمه التي انعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدونه ويعملون بما شرعه لهم او لا يستدلون بما نصب لهم من الدلائل وانزل الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها او لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من ادلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية قال قتادة ان المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ويشكر ما بالناس من نعمة ذكر لنا ان ابا الدرداء كان يقول يا رب شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ويا رب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم الى الاسلام صريحا فقال ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ جعلهما مصاحبين السجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد يا صاحبي في السجن لان السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وان ذلك من باب يا سارق

الليلة وعلى الاول يكون من باب الاضافة الى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن كقوله اصحاب
الجنة واصحاب النار قال قتادة لما عرف يوسف ان احدهما مقتول دعاهما الى حظهما من ربهما
والى نصيبهما من اخرتهما فقال ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ الاستفهام للانكار مع التوبيخ والتقريع ومعنى
التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد اي هل الارباب المتفرقون في ذواتهم
المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم خَيْرٌ لكما يا صاحبي السجن أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ اي المعبود
بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك الْقَهَّارُ الذي لا يغالبه مغالب ولا
يعانده معاند وقيل استفهام تقرير اي طلب الاقرار بجواب الاستفهام اي اقروا واعلموا ان الله هو
الخير والاول اولى اورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لانهما كانا ممن يعبد
الاصنام وقد قيل انه كان بين ايديهما اصنام يعبدونها عند ان خاطبهما بهذا الخطاب ولهذا
قال لهما مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً فارغة لا مسميات لها وان كنتم تزعمون ان لها مسميات
وهي الالهة التي تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الاسماء كانها لا مسميات
لها وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله الا مسميات اسماء وقيل خطاب لاهل السجن جميعا لا
لخصوص الصاحبين وهذا هو الاظهر وكذلك ما بعده من الضمائر لانه قصد خطاب صاحبي السجن
ومن كان على دينهم سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ من تلقاء كم بمحض جهلكم وضلالتكم وليس لها من الالهية
شيء الا مجرد الاسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها الهة من عند
انفسكم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا اي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة مِنْ سُلْطَانٍ من حجة تدل على صحتها
إِنِ اي ما الْحُكْمُ في امر العبادة المتفرعة على تلك التسمية إِلَّا لِلَّهِ عز سلطانه لانه المستحق لها بالذات
اذ هو الذي خلقكم وخلق هذه الاصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان أَمَرَ أَلَّا
اي بان لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ حسبما تقتضيه به قضية العقل ايضا والجملة مستانفة او حالية والاول
هو الظاهر والمعنى انه امركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون انه معبود ثم بين ان
عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال ذَلِكَ اي تخصيصه تعالى بالعبادة
الدِّينُ الْقَيِّمُ اي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق او لا

يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان
جهل اذا امكن له العلم بطريقه ثم بعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيان عظم مقدار الرفيع ومرتبة
علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب
فقال يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا اي الساقي وانما ابهمه لكونه مفهوما ولكراهة التصريح للخباز
بانه الذي سيصلب فَيَسْقِي رَبَّهُ اي مالكه خَمْرًا وهي عهدته التي كان قائما بها في خدمة الملك
فكانه قال اما انت ايها الساقي فستعود بعد ثلاث من الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك و
يطلقك من الحبس وَأَمَّا الْآخَرُ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
تعبير لما رآه من انه حمل فوق رأسه خبزا فتأكل الطير منه قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ
وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه اذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما اشكل عليه
وهما قد سألاه تعبير ما اشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالامر ما يؤول اليه امرهما ولذلك وحده
قاله البيضاوي وقال الزمخشري المراد بالامر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من اجله عن ابن مسعود
قال ما رأى صاحبا يوسف شيئا انما تحالما ليجربا علمه فلما اول رؤياهما قالا انما كنا نلعب ولم نر شيئا
فقال قضي الامر الآية يعني رفعت العبارة فصار الامر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا
رؤيا حقيقة وعن ابي مجلز قال كان احد الذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبا وكان هذا
التعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله قضي الامر وقيل هو بالاجتهاد وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا
اي قال يوسف والظان هو ايضا يوسف والمراد بالظن العلم لانه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي
وهلاك الخباز هكذا قال جمهور المفسرين وقيل الظاهر على معناه لان عابر الرؤيا انما يظن ظنا و
والاول اولى وانسب بحال الانبياء ولا سيما وقد اخبر عن نفسه عليه السلام بانه قد اطلعه الله
على شيء من علم الغيب كما تقدم اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ هي مقول القول امره بان يذكره عند سيده
ويقول له ان في السجن غلاما محبوسا ظلما منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده منه من جودة
التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب لخروجه فَأَنْسَاهُ اي الساقي الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ وكانت هذه
المقالة منه صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان فيكون ضمير المفعول في انساه
عائدا الى يوسف هكذا قال اكثر المفسرين ويكون المراد بربه في قوله ذكر ربه هو الله سبحانه اي

انسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال فقال للذي ظن انه ناج منهما يذكره عند سيده ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما اوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد ان رأى من الآيات ما يدل على برائته وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر وان كانت جائزة الا انه لما كان مقام يوسف اعلى المقامات في رتبته اعلى المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار موأخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيئات المقربين وذهب جماعة من المفسرين الى ان الذي انساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين وهو الشرابي والمعنى انسى الشرابي الشيطان ذكر سيده اي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما اوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ويكون المعنى فانساه الشيطان ذكر اخباره بما امره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الانبياء واجيب بأن النسيان وقع من يوسف ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز والانبياء غير معصومين عن النسيان الا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انما انا بشر مثلكم انسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني ورجح ايضا بان النسيان ليس بذنب فلو كان الذي انساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين واجيب بان النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف ما بعده من قوله فلبث في السجن بضع سنين ويؤيد رجوعه الى الذي نجى من الغلامين قوله فيما سيأتي الذي نجا منهما وادكر بعد امة فلبث يوسف في السجن بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين او بسبب ذلك الانساء اخرج ابن ابي الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله وعن عكرمة مرفوعا نحوه وهو مرسل بِضْعَ سِنِينَ البضع ما بين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروي عن العرب وبه قال قتادة وحكى عن ابي عبيدة ان البضع ما دون نصف العقد يعني ما بين واحد الى اربعة وقيل ما بين ثلاث الى سبع قاله مجاهد وقيل هو ما دون العشرة وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس وقد اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن فقيل سبع سنين قاله ابن جريج

وقتادة ووهب بن منبه وقيل ثنتي عشرة سنة قاله ابن عباس وقيل اربع عشرة سنة قاله
الضحاك وقيل خمس سنين وعن انس قال اوحي الي يوسف من استنقذك من القتل حين هم
اخوتك ان يقتلوك قال انت يا رب قال فمن استنقذك من الجب اذ القوك فيه قال انت يا رب
قال فمن استنقذك من المرأة اذ همت بك قال انت يا رب قال فما لك نسيتني وذكرت آدميا قال
جزعا وكلمة تكلم بها لساني قال وعزتي لالبثنك في السجن بضع سنين فلبث فيه سبع سنين
اخرجه ابن ابي شيبة وعبد الله بن احمد وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ فالبضع مدة العقوبة
لا مدة الحبس كله ولما دنى فرج يوسف قَالَ الْمَلِكُ اي الملك الاكبر وهو الريان بن الوليد الذي
كان العزيز وزيرا له إِنِّي أَرَىٰ اي رأيت في منامي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خرجن من نهر يابس يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ اي مهازيل في غاية الضعف والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة
والسمان جمع سمين وسمينة يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس
جمعه عجف لان فعلى وافعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملا على السمان لانه نقيضه
وَرأيت سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ قد انعقد حبها وَرأيت سبعا أُخَرَ يَابِسَاتٍ وهي التي قد بلغت
حد الحصاد وانما حذف اسم العدد لان التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان
قد رأى ان السبع السنبلات اليابسات قد ادركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ولم يبق
من خضرتها شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات
وذلك انه لما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره اراد ان
يعرف ذلك فقال يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ الخطاب للاشراف من قومه وقيل هم السحرة
والكهنة والمعبرون للرؤيا والمعنى اخبروني بحكم هذه الرؤيا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ اي تعلمون
عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها واصل العبارة
مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه فعابر الرؤيا يخبر بما يؤل
اليه امرها قال الزجاج اللام في للرؤيا للبيان وقيل هو لتقوية العامل وتاخير الفعل العامل
فيه لرعاية الفواصل قَالُوا هذه أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ مستانفة وهي جمع ضغث وهو كل مختلط من
اخلاط من بقل وحشيش او غيرهما فاستعير للرؤيا الكاذبة وانما جمعوا المبالغة في وصف الحلم

بالبطلان ولتضمنه اشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر
اليابسات فتامل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شان التنزيل والمعنى هي اخاليط احلام
والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس
الشيطان والاضافة بمعنى من اي هي اضغاث من احلام اخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة
تؤل اليها ويعتني بامرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم
فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة ويجوز ان يكون راى
مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا قال ابن عباس اضغاث احلام يقول مشتبهة
وعنه قال الكاذبة وعن الضحاك مثله وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ المختلطة بِعَالِمِينَ يريدون
بالاحلام المنامات الباطلة خاصة اي ليس لها تاويل عندنا وانما التاويل للمنامات الصادقة
كانه مقدمة ثانية للعذر بجهلهم بتاويله نفوا عن انفسهم علم ما لا تاويل له لا مطلق العلم
بالتاويل وقيل انهم نفوا عن انفسهم علم التاويل مطلقا ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا
وقيل انهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم
حقيقة وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا اي من الغلامين وهو الساقي الذي قال له يوسف اذكرني
عند ربك وَادَّكَرَ بالدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة وقرئ بالمعجمة اي تذكر الساقي
يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا بَعْدَ أُمَّةٍ مدة طويلة وحين بعيد ومنه الى امة
معدودة اي وقت قال ابن درستويه والامة لا تكون على الحين الا على حذف مضاف واقامة
المضاف اليه مقامه كانه قال والله اعلم وادكر بعد حين امة او بعد زمن امة وسمي الحين من الزمان
امة لانه جماعة ايام والامة الجماعة الكثيرة من الناس قال الاخفش هو في اللفظ واحد وفي المعنى
جمع وكل جنس من الحيوان امة وقرئ بعد اَمَهٍ اي بعد نسيان وامة بكسر الهمزة اي بعد نعمة
وهي نعمة النجاة وعن الحسن بعد امة من الناس وقال ابن عباس بعد سبع سنين وقيل تسع
سنة وقيل سنتين أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ اي اخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتاويله وهو يوسف
او احلكم عليه او اخبركم بمن عنده تاويله فَأَرْسِلُونِ خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم او خاطبه
ومن كان معه من الملأ طلب منهم ان يرسلوه الى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره

بتأويلها فيعود بذلك الى الملك او الى السجن فاتى السجن وجملة مجيء الرسول ليوسف في السجن اربع مرات كما يأتي يُوسُفُ اي يا يوسف أَيُّهَا الصِّدِّيقُ انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن أَفْتِنَا اخبرنا وبيّن لنا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ وترك ذكر الرؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بان ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها ولما عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه اولا نبئنا بتأويله وفي قوله افتنا مع انه المستفتي وحده اشعار بان الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بامور العامة وانه في ذلك معبر وسفير كما اذن بذلك حيث قال لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ اي الى الملك ومن عنده من الملأ بتأويل هذه الرؤيا او الى اهل البلد اذ قيل ان السجن لم يكن فيه لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا او يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك لفن الرؤيا وانما لم يبت الكلام فيهما لانه لم يكن جازما بالرجوع فربما اخترمته المنية دونه ولا بعلمهم قَالَ تَزْرَعُونَ مستأنفة كغيرها مما يرد هذا المورد سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا اي متوالية متتابعة وقرئ بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر داب في العمل اذا جد فيه وتعب قال الفراء حرك لان فيه حرفا من حروف الحلق وكذلك كل حرف فتح اوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة واصل معنى الدأب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لانها تنشأ عن مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر اي تدأبون دأبا كما قاله سيبويه او على انه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الاوجه المعروفة اما المبالغة واما وقوعه موقع الصفة واما على حذف مضاف اي دائبين او ذوي دأب اوجعلهم نفس الدأب مبالغة فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب واول ابتلاع العجاف السمان باكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله فَمَا حَصَدْتُمْ في كل سنة من السنين المخصبة فَذَرُوهُ اي ذلك المحصود فِي سُنْبُلِهِ وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها وهذه نصيحة منه لهم خارجة عن التعبير وما شرطية او موصولة وسنبل

فعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة يقال سنبل الزرع اي اخرج سنبله إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ
في هذه السنين المخصبة فانه لابد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها واقتصر على استثناء
المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في اموالهم لانه قد علم من قوله تزرعون
ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ السبع لسنين المخصبة سَبْعٌ شِدَادٌ اي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة
يصعب مرها على الناس وهي تاويل السبع العجاف والسبع اليابسات يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها في السنين المخصبات واسناد الاكل الى السنين مجازي
تطبيقا بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم وفيه تلويح بانه تاويل لاكل العجاف السمان واللام في
لهن ترشيح لذلك فكان ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيئ وقدم لهن كالذي
يقدم للنازل والا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن او يأكل اهلهن
ما قدمتم اي ما ادخرتم لهن إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ اي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لان
في استبقاء البذر تحصين الاقوات وقال ابو عبيدة معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل
تخزنون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع اخرج
عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو
كنت مكانه ما اخبرتهم حتى اشترط عليهم ان يخرجوني ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه
والله يغفر له حين اتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه اراد ان يكون له العذر
ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ السنين المجدبات عَامٌ سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا
ولعله علم ذلك بالوحي او بان انتهاء الجدب بالخصب على العادة الالهية حيث يوسع على عباده بعد
تضييقه عليهم فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ من الاغاثة او الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث
المطر وقد غاث الغيث الارض اي اصابها وغاث الله البلاد يغيثها غوثا امطرها فمعنى يغاث
الناس يمطرون وَفِيهِ يَعْصِرُونَ الاشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون وقيل اراد حلب
الالبان وقيل معناه ينجون ماخوذ من العصرة وهي النجاة قال ابو عبيدة والعصر بالتحريك الملجأ
والمنجأ واعتصرت بفلان التجأت به وقرئ بتاء الخطاب وقرئ يعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه

يعطرون ومنه قوله تعالى وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا قال ابن عباس يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب من كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال اخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كان الله قد علمه اياه وفيه يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار وقال الملك في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فاخبره بما اخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا وقال الملك لمن بحضرته ائتوني به اي بيوسف رغب الي رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه فلما جاءه اي الى يوسف الرسول واستدعاه الى حضرة الملك وامره بالخروج من السجن قال يوسف للرسول قاصدا اظهار براءته ارجع الى ربك اي سيدك فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن امره بان يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى اجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا قال ابن عباس اراد يوسف العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد اعطي عليه السلام من الحلم والصبر والاناءة ما تضيق الاذهان عن تصوره ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعي يعني الرسول الذي جاء يدعوه الى الملك قال ابن عطية هذا الفعل من يوسف اناءة وصبرا وطلبا للبراءة ساحته وذلك انه خشي ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن امر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وانما قال فاسأله ما بال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز او خوفا منه من كيدها وعظيم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الايدي ولم يذكر مراودتهن له تنزها منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز الا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله ان ربي بكيدهن عليم فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيا عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له والاول اولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه مستانفة كانه قيل فماذا قال الملك بعد ان ابلغه الرسول ما قال يوسف والخطب

الشان العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه خاصة وانما يخطب في الامور العظام قال الازهري
تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شأنكن وكانت النسوة اربعين كما تقدم وقد تقدم
معنى المراودة وانما نسب اليهن المراودة لان كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ومن جملة
من شمله خطاب الملك امرأة العزيز واراد بنسبة ذلك اليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان
من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز فاجبن
عليه بقولهن قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ اي معاذ الله تنزيها له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف
مثل هذا مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوٓءٍ اي من امر سيئ ينسب اليه من خيانة في شيء من الاشياء وغير
ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات انما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء
وصرحت بما هو الواقع وقَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ منزهة لجانبه مقرة على نفسها بالمراودة له الْـَٔانَ
حَصْحَصَ الْحَقُّ اي تبين وظهر بعد خفائه واصله حص فقيل حصحص كما قيل في كبوا كبكبوا قاله الزجاج
واصل الحص استيصال الشيء يقال حص شعره اذا استاصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل
بظهوره وبيانه وقيل هو مشتق من الحصة والمعنى بانت حصة الباطل قال الخليل معناه ظهر الحق
بعد خفائه وقال ابن عباس تبين وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله
ثم لما علمت ان يوسف راعى جانبها حيث قال ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها انما
نشأت من جهتها كافأته على ذلك باعترافها بان الذنب منها واوضحت ذلك بقولها أَنَا رَاوَدتُّهُ
عَن نَّفْسِهِ ولم تقع منه المراودة لي اصلا وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المراودة
اليها وارادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فاخبر الرسول يوسف بجواب النسوة المذكورة فقال
ذَٰلِكَ اي الحادثة الواقعة منه ومنهن تثبته وتانيه ذهب اكثر المفسرين الى ان هذا الكلام من كلام
يوسف قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة الصارفة
لكل منهما الى ما يليق به وهذه هي المرة الثانية من مرات مجيء الرسول ليوسف في السجن والمعنى
فعلت ذلك لِيَعْلَمَ العزيز أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ في اهله بِالْغَيْبِ والمعنى بظهر الغيب اي وهو غائب عني
او وانا غائب عنه قال الزمخشري اي مكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الابواب السبعة
المغلقة قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان اخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته

امرأة العزيز وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والاول اولى وذهب الاكثرون من المفسرين
الى ان هذا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمراودة
ليعلم يوسف اني لم اخنه فانسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني او وانا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ اي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده او لا يهديهم في كيدهم حتى
يوقعوه على وجه يكون له تاثير يثبت به ويدوم واذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة
العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه
بعد ان علم براءته ونزاهته ولعل المراد منه اني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة وحيث
خلصني منها ظهر اني كنت بريئا مما نسبوني اليه ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾

وهذا ان كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم
هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس واقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل
ونزهته النسوة اللاتي قطعن ايديهن وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على
الحقيقة لانها قد اقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف وقد قيل ان هذا
من قول العزيز وهو بعيد جدا ومعناه وما ابرئ نفسي من سوء الظن بيوسف والمساعدة
على حبسه بعد ان علمت براءته ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ اي ان هذا الجنس من الانفس البشرية
شانه الامر بالسوء لميله الى الشهوات وتاثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك ﴿إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ اي الا من رحم من النفوس فعصمها عن ان تكون امارة بالسوء او الا وقت رحمة ربي
وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن ان تكون امارة
بالسوء ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما قبله اي ان من شانه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم والمعنى
اجعله خالصا لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصا للعزيز والاستخلاص طلب خلوص
الشيء من شوائب الشركة قال ذلك لما كان يوسف نفيسا وعادة الملوك ان يجعلوا الاشياء النفيسة

خالصة لهم دون غيرهم قال ابن عباس فاتاه الرسول فقال الق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا
وقم الى الملك فدعى له اهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلثين سنة فلما اتاه رأى غلاما حدثا
فقال ايعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة واقعده قدامه وقال لا تخف والبسه طوقا من ذهب
وثياب حرير واعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف خليفة
الملك وعنه قال قال الملك ليوسف اني احب ان تخالطني في كل شئ الا في اهلي وانا آنف ان تاكل
معي فغضب يوسف فقال انا احق ان آنف انا ابن ابراهيم خليل الله وانا ابن اسحق ذبيح الله وانا ابن يعقوب
نبي الله فَلَمَّا كَلَّمَهُ في الكلام حذف وتقديره فاتوه به فلما كلمه اي الملك ويحتمل ان يكون
المعنى فلما كلم يوسف الملك قيل والاول اولى لان مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء الا هم دون من
يدخل عليهم وقيل الثاني اولى لقول الملك قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ فان هذا يفيد
انه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حببه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة
ومعنى مكين ذو مكانة وامانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك يامنه الملك على ما يطلع عليه من
امره او على ما يكله اليه من ذلك وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفنا امانتك ومنزلتك
وصدقك وبراءتك مما نسبت اليك ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب
في امر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما
احترازا عن احتمال كونهما بعد حين قيل انه لما وصل الى الملك اجلسه على سريره وقال له اني احب
ان اسمع تاويل رؤياي منك فعبرها له باكمل بيان واتم عبارة فلما سمع الملك منه ذلك قال له
انك اليوم لدينا مكين امين فلما سمع يوسف منه ذلك قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
اي ولني امر الارض التي امرها اليك وهي ارض مصر او اجعلني على حفظ خزائن الارض وهي الامكنة
التي تخزن فيها الاموال والطعام جمع خزينة وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشئ طلب يوسف
عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ورفع الظلم ويتوسل به الى دعاء اهل مصر الى
الايمان بالله وترك عبادة الاوثان وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في امر من
امور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم ما امكنه من الباطل ان يطلب ذلك لنفسه ويجوز له ان
يصف نفسه بالاوصاف التي لها ترغيبا فيما يرومه وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بالقاء مقاليد

الأمور إليه وجعلها منوطة به ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن
طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها وكان يوسف طلبه ابتغاء لوجه الله
لا لحب الملك والدنيا وبعد الجمع بينهما {إني حفيظ} وهو الذي يحفظ الشيء أي إني حفيظ لما جعلته
إلي من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها ولا أصرفها في غير مصارفها {عليم} بوجوه جمعها
وتفريقها ومدخلها ومخرجها ومصالحها عن شيبة بن نعامة الضبي قال يقول اجعلني على جميع
الطعام إني حفيظ لما استودعتني عليم بسنين المجاعة وقيل حفيظ لما استودعتني عليم لما وليتني
وقيل حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتيني {وكذلك} أي مثل ذلك التمكين العجيب {مكنا
ليوسف} أي جعلنا له مكانا {في الأرض} أي أرض مصر روي أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين
والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار
الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع وصار الناس يعملون
على أمره ونهيه {يتبوأ منها حيث يشاء} أي ينزل منها حيث أراد بعد الضيق والحبس ويتخذه
مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها إلى سلطان
مصر كما يتصرف الرجل في منزله وفي القصة أن الملك توجه وختمه وولاه مكان العزيز وعزله
ومات بعد فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين وأقام العدل بمصر ودانت له الرقاب
قاله السيوطي وعن ابن زيد أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرا وكان زوجها عنينا
وقد استدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من
نفسه بالقيام بالحق وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا في قوله سبحانه ولا تركنوا إلى الذين ظلموا قال
مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك
قوله وكذلك مكنا {نصيب برحمتنا من نشاء} من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام
عليه وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار {ولا نضيع أجر المحسنين} في أعمالهم الحسنة التي
هي مطلوبنا منهم أي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها {ولأجر الآخرة} أي أجرهم في الآخرة وأضيف الأجر إلى
الآخرة للملابسة واللام للقسم وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفد
نعيمها ولا ينقضي مدتها {خير للذين آمنوا وكانوا يتقون} الوقوع فيما حرمه عليهم والمراد بهم

المحسنون الذين تقدم ذكرهم وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الايمان والتقوى وفي الكلام اظهار في مقام الاضمار للتوصل الى وصفهم بالايمان والتقوى بعد وصفهم بالاحسان وجاء اخوة يوسف اي جاؤا الى مصر من ارض كنعان ليمتاروا لما اصابهم القحط وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من ارض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا اهل بادية وشياه فدخلوا عليه اي على يوسف وهو في مجلس ولايته فعرفهم لقوة فهمه وعدم مباينة احوالهم السابقة لحالهم يومئذ لانه فارقهم رجالا قيل باول نظرة نظر اليهم عرفهم وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه قاله الحسن والاول اولى وهو ظاهر النظم القرآني وبه قال ابن عباس ومجاهد وهم له منكرون لم يعرفوه لانهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم في ايدي السيارة بعد ان اخرجوه من الجب ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه ابهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم وقيل انهم انكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه وقيل كانوا بعيدي العهد منه فلم يعرفوه قيل كان بين ان قذفوه بالجب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة فلذلك انكروه وقيل غير ذلك وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ولما كان انكارهم له مستمرا في حالتي المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام ولما جهزهم بجهازهم المراد به هنا انه اعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاج اليها المسافر يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز السفر قال الازهري القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة وقيل بالعكس وفي الآية تضمين ضمن جهز معنى اكرم اي ولما اكرمهم بجهازهم اي بتحصيله لهم قيل حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام واكرمهم في النزول واحسن ضيافتهم وجميع ما فعله يوسف معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين قال ائتوني باخ لكم من ابيكم يعني اخاه بنيامين الذي تقدم ذكره وهو اخو يوسف لابيه وامه ولم يقل باخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك وبغلام لك فان الاول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي واتى باللام لانه كان لهم اخ لابيهم لا لامهم وهذا احسن من الاول ولعله عليه السلام

انما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فاعطاهم ذلك و
شرطهم ان يأتوه به لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من انتم فاني انكركم فقالوا له
نحن قوم من اهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله
نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الانبياء اسمه يعقوب قال كم انتم قالوا كنا اثني
عشر فذهب اخ لنا الى البرية فهلك وكان احبنا الى ابينا فقال كم انتم ههنا قالوا عشرة قال فاين
الحادي عشر قالوا هو عند ابيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولون
حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها احد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينا وائتوني باخيكم
من ابيكم وهو يحمل رسالة من ابيكم حتى اصدقكم فاقترعوا فاصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده
اذ لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان في
الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لاجل
رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند ابيهم ارسال اخيهم بمنع الكيل
من غير ذكر الرسالة على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة يشق عندها كل قيل وقال
ثم قال لهم أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ اي اتممه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة
بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة اخرى
ثم اخبرهم بما يزيدهم وثوقا به وتصديقا لقوله فقال وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ اي والحال اني خير من
نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الانزال قال الزجاج قال يوسف ذلك حين انزلهم
واحسن ضيافتهم وقال ابن عباس انا خير من يضيف بمصر قال الرازي وهذا الكلام يضعف قول
من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق
به ان يقول لهم الا ترون الخ وايضا يبعد من يوسف مع كونه صديقا ان يقول لهم ذلك مع انه
يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا يليق بالصديق ثم توعدهم اذا لم يأتوه به فقال
فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ اذا عدتم مرة اخرى اي باخيكم الذي من ابيكم فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي اي فلا ابيعكم
شيئا فيما بعد فضلا عن ايفائه واما في الحال فقد اوفاهم كيلهم وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا
محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن الا من عنده فاذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم وَلَا تَقْرَبُونِ اي

لا تدخلوا بلادي فضلا ان احسن اليكم وقيل معناه لا انزلكم عندي كما انزلتكم هذه المرة
ولم يردانهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوم وما عطفان لا ناهية او على
انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كانه قال فان لم تاتوني به تحرموا ولا تقربوا
فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ اي سنطلبه منه ونجتهد
في ذلك بما نقدر عليه وقيل معنى المراودة هنا المخادعة منهم لابيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه
منه وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ هذه المراودة غير مقصرين فيها وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك
لا نتعانى به ولا نتعاظمه وَقَالَ يوسف لِفِتْيَتِهِ اي لغلمانه واتباعه قرأ به اهل المدينة وابو عمرو
وعاصم من رواية شعبة وابن عامر واختار هذه القراءة ابو حاتم والنحاس وغيرهما وقرأ
سائر الكوفيين لفتيانه واختار هذه القراءة ابو عبيد وبه قرأ ابن مسعود قال النحاس لفتيانه
مخالف للسواد الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع وايضا فان فتية اشبه
من فتيان لان فتية عند العرب لاقل العدد والامر القليل بان يجعلوا البضاعة في الرحال اشبه
والجملة مستانفة جواب سؤال كانه قيل فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك فاجيب بانه
قال لفتيته قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك وقال الثعلبي هما لغتان جيدتان
مثل الصبية والصبيان قال الكرخي وكلاهما جمع فتى كاخوة واخوان جمع اخ الاول للقلة والثاني
للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا
بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعالا وادما وقال ابن عباس اوراقا فِي رِحَالِهِمْ وكل
لكل رحل واحدا من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل و
الرحال جمع رحل وهي الاوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرحل معه
من الاثاث قال الواحدي الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس
ورسن انتهى والمراد هنا الاوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام قال ابن الانباري يقال للوعاء
رحل وللبيت رحل فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم وقيل ليستعينوا بها على الرجوع
اليه لشراء الطعام وقيل ليرجعوا اليه مرة اخرى لعلمه انهم لا يقبلون الطعام الا بثمن
قاله الفراء وجرى عليه الجلال وقيل انه خاف ان لا يكون عند ابيه شيء آخر من المال لان

الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب
وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم وقيل اراد ان يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته
على شدة الزمان وقيل غير ذلك وقيل انه استقبح ان يأخذ من ابيه واخوته ثمن الطعام
ثم علل يوسف ما امر به من جعل البضاعة في الرحال وهي معرفتهم لها فقال لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا
اي بضاعتهم إِذَا انْقَلَبُوا رجعوا إِلَى أَهْلِهِمْ لانهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند
تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام وهم لا يفرغونها الا عند الوصول الى اهلهم ثم علل معرفتهم
للبضاعة المردودة اليهم المجعولة في رحالهم بقوله لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الينا فانهم اذا عرفوا ذلك
وعلموا انهم اخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضا عنه قد رجع اليهم وتفضل به
من وصلوا اليه عليهم نشطوا الى العود ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة
الى الطعام وعدم وجوده لديهم فان ذلك من اعظم ما يدعوهم الى الرجوع وبهذا يظهر ان
يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصد وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل
ردها بغير ذلك فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ اي رجع تسعة منهم قَالُوا يَا أَبَانَا انا قدمنا على خير رجل
انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤا عليه مني السلام
وقولوا ان ابانا يدعو لك بما اوليتنا فقالوا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ارادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف
لهم فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي اي منع الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل
على ان الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل
ان يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد فلما فتحوا متاعهم الآية
ثم ذكروا له ما امرهم به يوسف فقالوا فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بنيامين نَكْتَلْ بسبب ارساله معنا ما
نريده من الطعام وهو مجزوم في جواب الامر واصله نكتيل بوزن نفتعل ووزنه الآن نفتل وبحسب
الاصل نفتعل قرأ سائر الكوفيين بالتحتية واختار ابو عبيد قراءة النون قال ليكونوا كلهم داخلين
فيمن يكتال وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده اي يكتال اخونا بنيامين واعترضه النحاس
بما حاصله ان اسناد الكيل الى الاخ لا ينافي كونه للجميع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعا والقراءتان
سبعيتان قال الزجاج اي ان ارسلته اكتلنا والا منعنا الكيل وَإِنَّا لَهُ اي لبنيامين لَحَافِظُونَ من

ان يصيبه سوء او مكروه قَالَ يعقوب لما قالوا له هذه المقالة هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة والمعنى انه لا يأمنهم على بنيامين الا كما امنهم على اخيه يوسف، وقد قالوا له في يوسف وانا له لحافظون كما قالوا هنا ثم خانوه في يوسف فهو ان امنهم في بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه في يوسف فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا منصوب على الحالية وقرئ حفظا على التمييز وفي هذا اضمار والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظا والمعنى ان حفظ الله اياه خير من حفظهم له وانما ارسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف او ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فارجو ان ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وارجعه اليه ولما قال في يوسف واخاف ان يأكله الذئب وقع له من الامتحان ما وقع قال كعب لما قال ذلك قال الله تعالى وعزتي وجلالي لاردن عليك كليهما وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ بحضرة ابيهم مَتَاعَهُمْ اي اوعية الطعام او ما هو اعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذي فيه طعاما او غير طعام وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمُ التي حملوها الى مصر ليمتاروا بها وهي ثمن الطعام وقد تقدم بيانها رُدَّتْ إِلَيْهِمْ وجملة قَالُوا يَا أَبَانَا مستأنفة كما تقدم مَا نَبْغِي ما للاستفهام الانكاري والمعنى اي شيء نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان برد البضاعة والاكرام عند القدوم اليه وتوفير ما اردناه من الميرة واراد وا بهذا الكلام تطييب قلب ابيهم وقال قتادة ما نبغي وراء هذا وقيل ان ما نافية اي ما نبغي في القول وما نزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا واكرامه لنا وقرئ بالفوقية خطابا ليعقوب اي اي شيء تطلب وراء هذا الاحسان او اي شيء تطلب من الدليل على صدقنا ثم برهنوا على ما تقدم من التزيد في وصف الملك بقولهم هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا فان من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم مستحق لما وصفوه به وهي جملة مقررة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شيء مع كونها قد ردت اليهم والتقدير فنحن نستعين بها على الرجوع وَنَمِيرُ أَهْلَنَا اي نجلب اليهم الميرة وهي الطعام يقال مار اهله يميرهم اذا حمل اليهم الطعام وجلبه من بلد اخر اليهم والمائر الذي يأتي بالطعام وقرأ السلمي بضم النون

ونحفظ أخانا بنيامين مما نخافه عليه ونزداد بسبب إرساله معنا كيل حمل بعير زائد على ما
جئنا به هذه المرة لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير قال مجاهد حمل حمار وهي لغة قال أبو عبيد يعني
أن الحمار يقال له في بعض اللغات بعير ذلك أي زيادة كيل بعير لأخينا كيل يسير يسهل على
الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه وقيل إن المعنى ذلك
المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا واختار الزجاج الأول وقيل إن هذا من
كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده ونزداد كيل بعير يعني أن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لأجله
بالولد وهو ضعيف لأن جواب يعقوب هو قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله العطوني موثقاً
ما أثق به وأركن إليه من جهة الله سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو
المؤكد بإشهاد الله عليه واللام في لتأتنني به جواب القسم أي تحلفوا بالله لتردن بنيامين
أي لتأتي به والاستثناء بقوله إلا أن يحاط بكم مفرغ من أعم الأحوال لأن لتأتنني به وإن كان
كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي فكأنه قال لا تمتنعون من إتياني به على حال إلا حال الإحاطة بكم أو من
أعم العلل أي لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو
ومن أحاط به العدو فقد غلب وهلك تقول العرب أحيط بفلان إذا هلك أو قارب هلاكه
فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن يغلبوا عليه أو يهلكوا دونه جميعاً فيكون
ذلك عذراً لهم عنده فلما آتوه موثقهم أي أعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد قال الله
على ما نقول وكيل أي قال يعقوب الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما
طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في
الحلف به أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد
وادخلوا من أبواب متفرقة لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أن تصيبهم
العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد فنهاهم أن يدخلوا
مجتمعين من باب واحد لأن في ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم والعين حق فأمرهم أن يدخلوا
من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب قال السدي أراد الطرق لا الأبواب
ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الأولى ولم يكتف سبحانه بقوله لا تدخلوا

من باب واحد من قوله وادخلوا من ابواب متفرقة لانهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين امرهم ان يدخلوا من ابواب متفرقة قال النخعي احب يعقوب ان يلقى اخاه في خلوة قيل وكان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله لم يأذن له في اظهار ذلك فلما بعث ابناءه اليه قال لهم ذلك القول والاول اولى اعني انه خاف عليهم العين وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين وقد انكر بعض المعتزلة كأبي هاشم والبلخي ان للعين تأثيرا وقالا لا يمتنع ان صاحب العين اذا شاهد الشيء واعجب به كانت المصلحة له في تكليفه ان يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف به معلقا به وليس هذا بمستنكر من هذين واتباعهما فقد صار دفع ادلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم واي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك وقد وردت الاحاديث الصحيحة بأن العين حق واصيب بها جماعة في عصر النبوة ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره فانه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالادلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الامة سلفا وخلفا وبما هو مشاهد في الوجود فكم من شخص من هذا النوع الانساني وغيره من انواع الحيوان هلك بهذا السبب وقد اختلف العلماء في من عرف بالاصابة بالعين فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس او غيره من لزوم بيته وقيل ينفى وابعد من قال انه يقتل الا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فانه اذا قتل كان له حكم القاتل ثم قال يعقوب لاولاده وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ اي لا ادفع عنكم ضررا ولا اجلب اليكم نفعا بتدبيري هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الانباري لو سبق في علم الله ان العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وقال آخرون ما كان يغني عنهم يعقوب شيئا قط حيث اصابهم ما اصابهم مع تفرقهم من

اضافة السرقة اليهم قال ابو السعود ولم يرد عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال
تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة وقال تعالى خذوا حذركم بل اراد بيان ان ما وصاهم به
ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وانما التاثير وترتب المنفعة عليه من العزيز
القدير وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه ثم صرح يعقوب
بانه لا حكم الا لله سبحانه فقال إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك عَلَيْهِ
لا على غيره تَوَكَّلْتُ اي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار وَعَلَيْهِ لا على غيره فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ على العموم
ويدخل فيه اولاده دخولا اوليا وَلَمَّا دَخَلُوا المدينة مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ اي من الابواب
المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد وجواب لما مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ ذلك الدخول ورأى
يعقوب واتباعهم لهم مِنَ اللَّهِ اي من جهته مِنْ شَيْءٍ من الاشياء مما قدره الله عليهم اي الذي
اراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة واخذ منهم بنيامين وتضاعفت المصيبة على يعقوب
لان الحذر لا يدفع القدر والاستثناء بقوله إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا منقطع والمعنى
ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم اظهرها يعقوب لهم
ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذي دبر لهم تاثيرا في دفع ما قضاه الله عليهم وقيل انه
خطر ببال يعقوب ان الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة
اوقع بهم حسدا وحقدا وخوفا منهم فامرهم بالتفرق لهذه العلة وقد اختار هذا النحاس وقال
لا معنى لغيره هنا وفيه ان هذا لو كان السبب لامرهم بالتفرق لم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع
عند الدخول من باب واحد لان هذا الحسد او الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما
يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد وقيل ان الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول
لا الى يعقوب والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئا ولكنه قضى ذلك الدخول
حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته وَإِنَّهُ اي وان يعقوب لَذُو عِلْمٍ جليل لِمَا عَلَّمْنَاهُ
اي لتعليمنا اياه بالوحي ونصب الادلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ
من التاثير حتى يتبين الخلل في رايه عند تخلف الاثر وعلم ان ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة
وقيل غير ذلك وهذا اولى وفي تاكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته

بما انه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته لا يخفى
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ بذلك كما ينبغي وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وان كان لا
يغني من القدر شيئاً والسياق يدفعه وقيل المراد بأكثر الناس المشركون وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ
اي في محل حكمه آوَى ضم إِلَيْهِ أَخَاهُ بنيامين قيل انه امر بانزال كل اثنين في منزل فبقي اخوه
منفرداً فضمه اليه وقال إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يوسف قال له ذلك سراً من دون ان يطلع عليه اخوته
فَلَا تَبْتَئِسْ اي فلا تحزن والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
اخوتك من الاعمال الماضية التي عملوها وقيل انه لم يخبره بانه يوسف بل قال له اني انا اخوك مكان
اخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفا حسداً وبغياً وقيل انه اخبره بما سيدبره
معهم من جعل السقاية في رحله فقال لا ابالي فدس الصاع في رحله وهو المراد بالسقاية في قوله
فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ واصلها المشربة التي كان الملك يشرب بها جعلت صاعاً
يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب وقيل كانت من فضة وقيل من ذهب وقيل
من زبرجد وقيل مرصعة بالجوهر وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل وعبر بالفاء
هنا اشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لان الغرض منه قد حصل وقد عرفت
حالهم بخلاف المرة الاولى كان المطلوب طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم والمعنى انه جعل
السقاية التي هي الصواع فِي رَحْلِ أَخِيهِ الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من
مصر ثُمَّ بعد ذلك أَذَّنَ نادى مُؤَذِّنٌ مناد واعلم معلم والاذان في اللغة الاعلام وكان ذلك
النداء مع رفع الصوت مراراً كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم عن مجلس يوسف حتى انطلقوا
وخرجوا من العمارة ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بثم التي للتراخي
بل قيل انهم وصلوا الى بلبيس وردوا من عندها أَيَّتُهَا الْعِيرُ قال الزجاج معناه يا اصحاب العير
اي الابل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين وفي المصباح العير بالكسر اسم للابل التي
تحمل الميرة في الاصل ثم غلب على كل قافلة انتهى وكلما امتير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير
قاله الهيثم وقيل قافلة الحمير وقال ابو عبيدة العير الابل المرحولة المركوبة ثم كثر ذلك في الاستعمال
حتى قيل لكل قافلة عير لانه يعير اي يذهب ويجيء إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ نسبة السرق اليهم على حقيقتها لان

للنادي غير عالم بما دبره يوسف وقيل ان المعنى ان رحالكم رحال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضى من الملك وليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بامر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم وغلب على ظنهم انهم الذين اخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم وقيل غير ذلك وهذا اولى قالوا اي اخوة يوسف وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ اي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم للنادي من اصحاب الملك اي التفتوا اليهم وخاطبوهم بقولهم مَاذَا تَفْقِدُونَ اي ما الذي فقدتموه والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياع او نحوه فكانهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة قَالُوا في جوابهم نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وقرئ بالغين المعجمة وقرئ صوع وصياع وصاع وقال الزجاج الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية قال ابن عباس كل شيء شربت منه فهو صواع وقيل الصواع الذي يكال به وجمعه اصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قراءات كثيرة وهي ثمانية كلها لغات في هذا الحرف والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذ هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من اخذ من وجد في رحله وهذا قول المؤذن وحده فهو الذي كفل وضمن والبعير الجمل وفي لغة بعض العرب انه الحمار والمراد بالحمل ههنا ما يحمله البعير من الطعام ثم قال المنادي وَأَنَا بِهِ اي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للاوعية زَعِيمٌ كفيل قاله ابن عباس اي بلسان اهل اليمن وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ولعل القائل بفقد صواع الملك هو المنادي وانما نسب القول الى الجماعة لكونه واحدا منهم ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادي وحده لانه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة في شرعهم في ذلك الزمان قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور وقيل من الباء وقيل اصل بنفسها وايما كان ففيه التعجب ولا تدخل الا على هذا الاسم الشريف دون سائر اسمائه سبحانه وقد دخلت نادرا على الرب وعلى الرحمن والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب

وجعلوا القسم عليه هو علم يوسف واصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر
الفساد في الارض الذي من اعظم انواعه السرقة لانهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه
المرة الاولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم
الجازم بانهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من انواع الفساد ولو لم يكن من ذلك الا ردهم
لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم والمراد بالارض هنا ارض مصر ثم اكدوا هذه الجملة التي اقسموا
بالله عليها بقولهم وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ لزيادة التبري مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة
الخسيسة الرذيلة الشنعاء قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ هذه الجملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها
والقائلون هم اصحاب يوسف او المنادي منهم وحده كما مر والضمير في جزاؤه للصواع على
حذف مضاف اي فما جزاء سرقة الصواع عندكم او الضمير للسارق إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فيما
تدعونه لانفسكم من البراءة عن السرقة وذلك بان يوجد الصواع معكم فاجاب اخوة يوسف
قَالُوا جَزَاؤُهُ اي جزاء سرقة الصواع او جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع
اخذ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ واسترقاقه وتكون جملة فَهُوَ جَزَاؤُهُ لتاكيد الجملة الاولى وتقريرها
وقال الزجاج هو زيادة في البيان اي جزاءه اخذ السارق فهو جزاؤه لا غير قال المفسرون
وكان حكم السارق في آل يعقوب ان يسترق سنة ثم يخلى سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه
كَذَلِكَ اي مثل ذلك الجزاء الكامل نَجْزِي الظَّالِمِينَ لغيرهم من الناس بسرقة امتعتهم وهذه
الجملة مؤكدة لما قبلها اذا كانت من كلام اخوة يوسف ويجوز ان تكون من كلام اصحاب يوسف
اي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق ثم لما ذكروا جزاء السارق ارادوا ان يفتشوا امتعتهم
حتى يتبين الامر فاقبل يوسف على ذلك فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ يعني بتفتيش اوعية اخوته العشرة
وقيل ان المنادي واصحابه هم الذين تولوا تفتيشهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل
بنيامين قَبْلَ تفتيش وِعَاءِ أَخِيهِ بنيامين دفعا للتهمة ورفعا لما دبره من الحيلة ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
اي السقاية او الصواع لانه يذكر ويؤنث مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ فنكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء
ولاموا بنيامين فاخذوه وردوه الى يوسف كَذَلِكَ اي مثل ذلك الكيد العجيب كِدْنَا اي
دبرنا قاله القتيبي او اردنا قاله ابن الانباري لِيُوسُفَ يعني علمناه اياه واوحينا اليه واللام زائدة

واليه نحا السيوطي وفي ابي السعود ما يقتضي ان اللام للتعليل اي صنعناله ودبرنا لاجل تحصيل غرض
من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدأه السعي في الحيلة والخديعة
ونهايته القاء المخدوع من حيث لا يشعر في امر مكروه لا سبيل الى دفعه وهو محمول في حق الله
سبحانه على النهاية لا على البداية وقال ابن الاعرابي الكيد التدبير بالباطل وبالحق وقيل الكيد هنا
جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والاول اولى وفي الآية دليل
على جواز التوصل الى الاغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة اذا لم يخالف ذلك شرعا
ثابتا ما كان ليوسف ليأخذ اخاه بنيامين في دين الملك اي ملك مصر وفي شريعته التي كان
عليها بل كان دينه وقضاؤه ان يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة
كما هو دين يعقوب وشريعته وحاصله ان يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على اخيه
مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره واراده حتى وجد السبيل اليه وهو
اجراه على السن اخوته من قولهم ان جزاء السارق الاسترقاق فكان قولهم هذا هو بمشية الله وتدبيره
وهذه الجملة تعليل لما ... من الكيد ليوسف او تفسير له يعني ان ذلك الامر كله كان الهاما
من امر الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد وهو معنى قوله الا ان يشاء الله اي الا حال
مشيئته واذنه بذلك وارادته له والاستثناء منقطع اي لكن اخذه بدين الملك لا يشمل المراد به فالمعنى ولكن اخذه
بشريعة يعقوب نرفع درجات من نشاء بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما
رفعنا درجة يوسف بذلك والآية تدل على ان العلم اشرف المقامات واعلى الدرجات لان الله
تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم وقرئ درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان
وفوق كل ذي علم ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين عليم ارفع رتبة منه واعلى درجة لا
يبلغون مداه ولا يرتقون شاوه وقيل معنى ذلك ان فوق كل اهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى
الله وهو سبحانه فوق كل عالم عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس فحدث بحديث فقال رجل
عنده وفوق كل ذي علم عليم فقال ابن عباس بئس ما قلت الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم وعن
محمد بن كعب قال سأل رجل عليا عن مسئلة فقال فيها فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا فقال
علي اصبت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم وعن عكرمة قال علم الله فوق علم كل عالم

قال ابن الأنباري يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه الغلبة
لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم
منهم {قالوا إن يسرق} أي بنيامين الصواع {فقد سرق أخ له من قبل} يعنون يوسف وكان
غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة
لأنهما من أم أخرى غير أمنا وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي
فقيل إنه كان ليوسف عمة هي أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة إسحاق لكونها أسن أولاده
وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنا من ذكر أو أنثى وكانت قد حضنت يوسف وأحبته حبا
شديدا فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمي يوسف إلي فأشفقت من فراقه واحتالت في بقائه لديها
فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ثم قالت قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقها
فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل
إبراهيم ذكره محمد بن إسحاق وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة وقيل إن يوسف أخذ صنما كان
لجده أبي أمه فكسره وألقاه على الطريق تغييرا للمنكر فعيره بذلك إخوته وقد روي معناه عن ابن
عباس مرفوعا وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع وقد روي نحوه عن جماعة من
التابعين وحكي عن الزجاج أنه كان صنما من ذهب وقيل من فضة وقال عطية سرق في صباه
ميلين من ذهب وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته وقيل كان في المنزل دجاجة فأعطاها
لسائل قاله سفيان بن عيينة وقيل كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء قال ابن الأنباري وليس في
هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وحكى الواحدي عن الزجاج
أنه قال الله أعلم أسرق أخ له أو لا وحكى القرطبي في تفسيره عنه أنه قال كذبوا عليه فيما نسبوه إليه
قلت وهذا أولى فما هذه الكذبة بأول كذباتهم وقد قدمنا ما يدفع قول من قال إنهم قد كانوا أنبياء
عند صدور هذه الأمور منهم قال الزجاج وغيره الضمير في {فأسرها} يعود إلى الكلمة التي بعدها
أو الجملة كأنه قيل فأسر الجملة المذكورة {يوسف في نفسه} وهذا هو الأولى والمعنى أي لا احتجاج عليهم
في ادعائهم عليه السرقة {ولم يبدها لهم} أي هذه المقالة التي أسرها في نفسه بأن يذكر لهم صحتها أو بطلانها
ثم فسر الكلمة بقوله {قال أنتم شر مكانا} وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال إن هذا النوع من الإضمار على

شريطة التفسير غير مستعمل وعلى هذا يكون في الكلام رجوع الضمير على متاخر لفظاً ورتبة
وفيه ايضا اطلاق الكلمة على الكلام والاول سائغ في مقام التفسير كما هنا والثاني سائغ في اللغة
قاله الحفناوي وقيل الضمير عائد الى الاجابة اي اسر يوسف اجابتهم في ذلك الوقت وهذه
الجملة مفسرة على القول الاول مستانفة على القولين الاخيرين كانه قيل فماذا قال يوسف لما قالوا
هذه المقالة والمعنى انتم شر موضعا ومنزلا ممن نسبتموه الى السرقة ورميتموه بها وهو بريء فانكم
قد فعلتم من القاء يوسف في الجب والكذب على ابيكم وغير ذلك من افاعيلكم ولم يكن من يوسف
سرقة حقيقة ففي الكلام تقديم وتاخير تقديره قال في نفسه انتم شر مكانا واسرها اي هذه الكلمة
واليه نحا ابو البقاء ولم يرتضه الحلبي ورجعه الى الحزازة التي حصلت من قولهم فقد سرق اخ له
من قبل قال شهاب الدين ومثل هذا ينبغي ان لا يقال فان القران ينزه عنه ذكره الكرخي ثم قال
وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ من الباطل بنسبة السرقة الى يوسف وانه لا حقيقة لذلك ثم ارادوا
ان يستعطفوه ليطلق لهم اخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى ابيهم لما تقدم من اخذ
الميثاق عليهم بان يردوه اليه فـ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ اي لبنيامين هذا أَبًا متصفا بكونه شَيْخًا كَبِيرًا
في السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه وقيل كبيرا في القدر لانه نبي
من اولاد الانبياء وفيه بعد ظاهر والاول اولى فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ يبقى لديك فان له منزلة
في قلب ابيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق احدنا كما يتضرر بفراق بنيامين ثم عللوا ذلك بقولهم
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الى الناس كافة والينا خاصة فاتم احسانك الينا باجابتنا الى هذا الطلب
فاجاب عليهم يوسف وقَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ اي نعوذ بالله معاذا فهو مصدر والمستعيذ بالله هو
المستعصم به أَنْ اي من ان نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ وهو بنيامين لانه الذي وجد
الصواع في رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التي افتيتمونا بقولكم جزاؤه من وجد في رحله
فهو جزاؤه ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان اخاه ليس بسارق وفيه جواز التوصل
الى الاغراض بالحيل اذا لم تخالف شريعة ولا هدمت اصلا ولعل اعلام يوسف بذلك تشديد المحنة على
يعقوب ونهاه عن العفو والصفح واخذ البدل كما امر صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر قاله
ابن عادل في اللباب وفي ملوع الكتاب جزم صاحب الكشاف بان هذه الواقعة كانت بوحي كما مر وانا
إِنَّا إِذًا اي اذا اخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لَظَالِمُونَ في دينكم وما تقتضيه فتواكم

فلما استيأسوا منه اي يئسوا من يوسف واجابته اياهم ولسعافهم منه بما طلبهم الذي طلبوه والسين والتاء للمبالغة قاله الزمخشري والبيضاوي قال ابن اسحق اي ايسوا منه ورأوا شدته في امره قال ابو عبيدة استيأسوا اي استيقنوا ان الاخ لا يرد عليهم وقيل ايسوا من اخيهم ان يرد اليهم والاول اولى خلصوا نجيا اي انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على حدة حال كونهم متناجين متفرقين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم في التشاور في امر هذه القضية وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله وقربناه نجيا قال الزجاج معناه انفردوا وليس معهم اخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم الى ابيهم من غير اخيهم وقال قتادة وحدهم قال كبيرهم قيل هو روبيل لانه الاسن وهو الذي كان نهاهم عن قتله وكان اكبر القوم في الميلاد قاله قتادة وقيل كبيرهم في العقل والعلم لا في السن وقيل يهوذا لانه الاوفر عقلا وقيل شمعون لانه رئيسهم ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا اي عهدا من الله في حفظ ابنه ورده اليه ومعنى كونه من الله انه باذنه ذكره النحاس وغيره ومن قبل ما فرطتم في يوسف اي ولعلموا ان تفريطكم في امر يوسف كان من قبل تفريطكم في بنيامين او من قبل اخذ كم العهد في شانه على ان ما مصدرية ويجوز ان تكون زائدة والاول اولى والمعنى قصرتم في شانه ولم تحفظوا عهد ابيكم فيه فلن ابرح الارض يقال برح براحا وبروحا اي زال فاذا دخله النفي صار مثبتا اي لن ابرح من ارض مصر بل الزمها ولا افارقها ولا ازال مقيما فيها على ان ابرح هنا تامة حتى يأذن لي ابي في مفارقتها والخروج منها بالعود اليه وانما قال ذلك لانه يستحيي من ابيه ان ياتي اليه بغير ولده الذي اخذ عليهم الميثاق بارجاعه اليه الا ان يحاط بهم كما تقدم او يحكم الله لي بمفارقتها والخروج منها وقيل المعنى او يحكم الله لي بخلاص اخي من الاسر حتى يعود الى ابي واعود معه وقيل المعنى او يحكم الله لي بالنصر على من اخذ اخي فاحاربه واخذ اخي منه او اعجز فانصرف بعد ذلك قال مجاهد اقاتل بسيفي حتى اقتل وعن ابي صالح نحوه وهو خير الحاكمين لان احكامه لا تجري الا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده يعقوب ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق على البناء للفاعل وذلك لانهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه وقرئ على البناء للمفعول قال الزجاج ان

سرق يحتمل معنيين احدهما علم منه السرق والآخر اتهم بالسرق امرهم بهذا القول فيه مبالغة
في ازالة التهمة عن انفسهم عند ابيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب وقعة يوسف وما شهدنا
إلا بما علمنا من استخراج الصواع من وعائه وقيل المعنى ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق
الا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك وما كنا للغيب حافظين حتى يتضح لنا هل الامر على
ما شاهدناه او على خلافه فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم
بذلك وقيل المعنى ما كنا وقت اخذنا له منك ليخرج معنا الى مصر للغيب حافظين بانه سيقع منه
السرق الذي افتضحنا به وقيل الغيب هو الليل ومرادهم انه سرق وهم نيام وقيل مرادهم انه فعل
ذلك وهو غائب عنهم فخفي عليهم فعله قال عكرمة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق وعن قتادة نحوه
وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين واسأل القرية التي كنا فيها اي
قولوا لابيكم اسأل القرية اي مصر قاله قتادة وابن عباس والمراد اهلها وقيل هي قرية من قرى مصر
نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فيها حديث السرقة والتفتيش وقيل المعنى واسأل القرية نفسها
وان كانت جمادا فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك ومما يؤيد هذا انه قال سيبويه
لا يجوز كلم هندا وانت تريد غلام هند والاول اولى لان مثل هذا النوع من المجاز مشهور في
كلام العرب والعير التي أقبلنا فيها اي اصحابها وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب من
كنعان حمل العير هنا على الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج الى تقدير المضاف
وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس اصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف وإنا لصادقون
فيما قلنا جاؤوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التاكيد لان ما قد تقدم منهم مع ابيهم يعقوب يوجب
كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع وهذا آخر الكلام الذي علمه لهم اخوهم الكبير فلما قالوا هذا
ليعقوب قال بل سولت زينت او خيلت لكم أنفسكم أمرا لا اصل له الامر هنا قولهم ان ابنك
سرق وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالامر اخراجهم بنيامين والمضي به الى مصر طلبا
للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة وقيل هذا الامر فتياهم بان السارق يؤخذ بسرقته والاضراب
هنا هو باعتبار ما ادعوه من البراءة لانفسهم لا باعتبار اصل الكلام فانه صحيح والجملة مستأنفة
مبنية على سؤال مقدر كنظائرها فصبر جميل اي فامري صبر او فصبر جميل اجمل بي او اولى بي

والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض امره الى الله ويسترجع وقد ورد
ان الصبر عند اول الصدمة ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ اي بيوسف واخيه بنيامين والاخ
الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم وانما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل
لانه قد كان عنده ان يوسف لم يمت وانه باق على الحياة وان غاب عنه خبره واذا اشتد
البلاء وعظم كان اسرع الى الفرج قال تعالى سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾
فيما يقضي به ﴿وَتَوَلَّى﴾ اي اعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر بنيامين ولما ساء حزنه
واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه ﴿قَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ قال الزجاج الاصل يا اسفي فابدل
من الياء الفا لخفة الفتحة والاسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن عن ابن عباس اي يا حزنا
وعن قتادة مثله وعن مجاهد يا جزعا قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبلغه
بسبب فراقه ليوسف وانضمام فراقه لاخيه بنيامين وبلوغ ما بلغه من كونه اسيرا عند ملك
مصر فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم بما اثاره من الخبر الاخير وقد روي عن
سعيد بن جبير ان يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب
ولو كان عنده ذلك لما قال يا اسفا على يوسف يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الامة ومعنى
المناداة للاسف طلب حضوره كانه قال تعالى يا اسفي واقبل علي وفيه شكوى الى الله لا منه
﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ اي انقلب سواد عينه بياضا من كثرة البكاء قيل انه زال ادراكه
بحاسة البصر بالمرة قال مقاتل لم يبصر شيئا ست سنين والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا
على الانبياء بعد التبليغ وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا قال بعض اهل اللغة الحزن بالضم
والسكون البكاء وبفتحتين ضد الفرح وقال اكثر اهل اللغة هما لغتان بمعنى والبكاء بالمد رفع
الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو احد قولين والذي جرى
عليه المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في ان كلا يستعمل في كليهما وقد قيل في توجيه ما
وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي الى ذهاب بصره كلا او بعضا انه انما
وقع منه ذلك لانه علم ان يوسف حي فخاف على دينه مع كونه بارض مصر واهلها حينئذ كفار
وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وانما المحرم ما يفضي منه الى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده ابراهيم تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما
يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون ويؤيد هذا قوله فَهُوَ كَظِيمٌ اي مكظوم فان معناه
انه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ومنه كظم الغيظ وهو اخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه
طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس يقال اخذ باكظامه
وقيل الكظيم بمعنى الكاظم اي المشتمل على حزنه الممسك له ومنه والكاظمين الغيظ وقال الزجاج
معنى كظيم محزون وعن ابن عباس قال كظيم حزين وعن قتادة قال كظم على الحزن وحزنه
في جوفه فلم يقل الا خيرا وعن عطاء الخراساني قال مكروب وعن عكرمة مثله وعن الضحاك
الكظيم الكميد وعن مجاهد نحوه قال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر ابيه الى يوم التقيا
ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ اكرم على الله منه والله
اعلم قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ اي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس قال الفراء
ان لا مضمرة قال النحاس والذي قال صحيح وعن خليل وسيبويه مثل قول الفراء قال الكسائي
فتأت وفتيت افعل كذا اي ما زلت عن ابن عباس تفتؤ اي لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر
عن حبه حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا اي دنفا من المرض قاله ابن عباس وقال قتادة هرما والحرض مصدر
يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة حرض بكسر الراء كدنَف ودنِف
واصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن او العشق او الهرم حكي ذلك عن ابي عبيدة
وغيره وقيل الحرض ما دون الموت وقيل الحارض البالي الداثر وقال الفراء الحارض الفاسد الجسم
والعقل وكذا الحرض وقال مؤرج هو الذائب من الهم ويقال رجل محرض قال النحاس وحكى اهل
اللغة احرضه الهم اذا اسقمه ورجل حارض اي احمق وقال الاخفش الحارض الذاهب وقال ابن
الانباري هو الهالك وفي المصباح حرض حرضا من باب تعب اشرف على الهلاك والاولى تفسير
الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ اي من
الميتين قاله مجاهد وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والاسف شفقة عليه وان
كانوا هم سبب احزانه ومنشأ همومه وغمومه قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي بضم الحاء وسكون
الزاي وقرئ بفتحهما إِلَى اللَّهِ هذه الجملة مستانفة كانه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا

ما يرد على الانسان من الاشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال اهل
اللغة وهو ماخوذ من بثثته اي فرقته فسميت المصيبة بثا مجازا قال ابن قتيبة البث اشد الحزن
وقد ذكر المفسرون ان الانسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا وهما
وان لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثا فالبث على هذا اعظم الحزن واصعبه و
قيل البث الهم وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى واما على
تفسير البث بالحزن العظيم فكانه قال انما اشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل الى الله
لا الى غيره من الناس ولا اليكم وعن مسلم بن يسار يرفعه قال من بث لم يصبر ثم قرأ هذه الآية
اخرجه ابن جرير وعبد الرزاق قال ابن عباس بثي همي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ اي من لطفه واحسانه
وثوابه على المصيبة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ انتم وانه ياتي بالفرج من حيث لا احتسب وقيل اراد علمه
بان يوسف حي لكنه لم يعرف اين هو وقيل اراد علمه بان رؤياه صادقة واني لا بد له قاله
ابن عباس وقيل اعلم من اجابة المضطرين الى الله ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ التحسس بمهملات طلب
الشيء بالحواس ماخوذ من الحس او من الاحساس اي اذهبوا فتعرفوا ﴿مِنْ خَبَرِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾
بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه وقرئ بالجيم وهو ايضا التطلب وقيل بالحاء في الخير وبالجيم في
الشر ومنه الجاسوس ومن هنا بمعنى عن لانه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان او هي
للتبعيض اي تحسسوا خبرا من اخبارهما ولم يقل واخويه لانه كان يعلم ان الثالث مقيم بمصر
فليس حاله مجهولا عنده بخلافهما ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ اي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته
قال الاصمعي الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه والتركيب يدل على الحركة الهزة فكلما
يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح وحكى الواحدي عنه ايضا الروح الاستراحة من غم
القلب وقال ابو عمرو الروح الفرج وعن ابن زيد قال من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي انتم فيه وقال ابن عباس
الروح الرحمة يعني انه استعير الروح للرحمة وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفي الطافه والمؤمن يصبر
عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيرا ويحمد الله عند الرخاء والكافر بضد ذلك ﴿فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ اي على يوسف والتقدير فذهبوا كما امرهم ابوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف واخيه

فلما دخلوا على يوسف قالوا يا ايها العزيز اي الملك الممتنع القادر وكان العزيز لقب ملك مصر
يومئذ مسنا واهلنا الضر اي الجوع والحاجة قال قتادة الضر في المعيشة وصلوا الى الشكوى لان
المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرق القلب
فقالوا نختبره بهذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا المقصود والا سكتنا وفيه دليل على انه يجوز
الشكوى عند الضرورة اذا خاف من اصابته على نفسه كما يجوز للعليل ان يشكو الى الطبيب ما
يجده من العلة وعبارة ابي السعود وانما لم يبدؤا بما امروا به استجلابا للرافة والشفقة ليبعثوا بما
قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهى وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده
ما تقدم من سياق الكتاب العزيز وجئنا ببضاعة مزجاة البضاعة هي القطعة من المال يقصد
بها شراء شيء يقال ابضعت الشيء واستبضعته اذا جعلته بضاعة وفي المثل كمستبضع التمر الى
هجر والازجاء السوق بدفع وقال الواحدي في اللغة السوق والدفع قليلا قليلا ومنه قوله تعالى
الم تر ان الله يزجي سحابا والمعنى انها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار قال ثعلب البضاعة المزجاة الناقصة
غير التامة قال ابو عبيد انما قيل للدراهم الردية مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة قال
ابن عباس دراهم مزجاة اي كاسدة وعنه ايضا مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء
وايضا الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها وفي القاموس زجاه ساقه ودفعه ومزجاة
قليلة او لا يتم صلاحها وفي المصباح زجيته بالتثقيل دفعته برفق واختلف في هذه البضاعة ما
هي فقيل كانت قديدا وحيسا وقيل صوف وسمن وقيل الحبة الخضراء والصنوبر وقيل دراهم ردية
زيوف وقيل النعال والادم ثم طلبوا منه بعد ان اخبروه بالبضاعة التي معهم ان يوفي لهم الكيل
اي يجعله تاما لا نقص فيه وان يتصدق عليهم فقالوا فاوف لنا الكيل وتصدق علينا
اما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم او بالاغماض عن رداءة البضاعة التي جاؤا بها وان
يجعلها كالبضاعة الجيدة في ايفاء الكيل لهم بها وبهذا قال اكثر المفسرين وقد قيل كيف يطلبون
التصدق عليهم وهم انبياء والصدقة محرمة عليهم واجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وقال ابن جريج معنى قولهم رد علينا اخانا وبه قال الضحاك وقال ابن الانباري وكان الذي يسألونه
من المسامحة يشبه الصدقة لا نفس الصدقة ان الله يجزي المتصدقين بما يصل لهم من الثواب

الأخروي أو التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك ولم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن

ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف أن عرفهم نفسه حيث قال هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ الاستفهام للتوبيخ والتقريع وقد كانوا عالمين بذلك ولكنه أراد ما ذكرناه ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه وما أقبح ما أقدمتم عليه كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت والذي فعلوه بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأما ما فعلوا بأخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى قال الواحدي ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيما له ورفعا من قدره وعلما بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم وقيل إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم فكأنه قال إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر اعتذارا لهم ودفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كبارا وهذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قرئ بالاستفهام التقريري وبدونه وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ما فعلتم بيوسف وأخيه أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو وقيل إنه لما قال لهم هذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه وقيل إنه تبسم فعرفوا ثناياه قَالَ أَنَا يُوسُفُ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه قال ابن الأنباري أظهر الاسم فقال أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما وقع له من ظلم إخوته كأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعاني وقال

وَهَذَا أَخِي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بالخلاص عما ابتلينا به وقيل من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق ولا

بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من ارادة جميع ذلك إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ قرئ بالجزم على
ان من شرطية وقرئ باثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل
التقوى او يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة وقيل
يتقي المعصية ويصبر على السجن وقيل يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله وقيل يتقي الفحشاء و
يصبر على الطاعة والعموم اولى ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
على العموم فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا اوليا وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمر اي
اجرهم للدلالة على ان الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ
اختارك وفضلك اللَّهُ عَلَيْنَا بما خصك به من صفات الكمال او بالعلم والعقل او بالملك قاله الضحاك
او بالصبر قاله ابو صالح او بالحلم والصفح بالحسن وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي اعطاها
الله له دون اخوته واللفظ اوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولا اوليا وهذا اعتراف منهم
بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك ان لا يكونوا انبياء فان درج الانبياء متفاوتة قال
الله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ويستعار الاثر للفضل والايثار للتفضيل وَإِن كُنَّا
لَخَاطِئِينَ اي وان الشان لذلك قال ابو عبيدة خطأ واخطأ واحد وقال الازهري المخطئ من
اراد الصواب فصار الى غيره ومنه قولهم المجتهد يخطئ ويصيب والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي قالوا هذه
المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابا للعفو واستجذابا للصفح وقيل اثر لفظ خاطئين
على مخطئين موافقة لرؤس الآي قَالَ لَا تَثْرِيبَ التثريب التعيير والتوبيخ اي لا لوم عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ قال
الاصمعي ثربت عليه قبحت عليه فعله وقال الزجاج المعنى لا افساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق
الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو واصل التثريب الافساد وهي لغة اهل الحجاز وقال ابن الانباري
معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب قال ثعلب ثرب فلان على فلان اذا عدد
عليه ذنوبه واصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه ازالة التثريب
كما ان التجليد والتقريع ازالة الجلد والقرع اي لا تثريب مستقرا وثابت عليكم وقد جوز الاخفش
الوقف على عليكم فيكون اليوم متعلقا بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الانباري عن عكرمة قال
لا تثريب لا تعيير واخرج ابو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم

مكة التفت الى الناس فقال ما ذا تقولون وما ذا تظنون فقالوا ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم
يغفر الله لكم ثم دعا لهم بقوله يغفر الله لكم على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التعليل او اخبرهم
بان الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم وهو ارحم الراحمين يرحم عباده رحمة
لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم قال عطاء الخراساني طلب الحوائج
الى الشباب اسهل منها عند الشيوخ الم تر الى قول يوسف لا تثريب عليكم اليوم وقال سوف
استغفر لكم ربي اقول وفي هذا الكلام نظر فانهم طلبوا من يوسف ان يعفو عنهم لقولهم لقد
آثرك الله علينا فقال لا تثريب عليكم اليوم لان مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا
من ابيهم يعقوب ان يستغفر الله لهم وهو لا يكون الا بطلب ذلك منه الى الله عز وجل وبين
المقامين فرق فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما اذا صح ما تقدم من
انه اخر ذلك الى وقت الاجابة فانه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول واخرج الحكيم
الترمذي وابو الشيخ عن وهب بن منبه قال لما كان من امر اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب
الى يوسف وهو لا يعلم انه يوسف بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الى عزيز آل
فرعون سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فانا اهل بيت مولع بنا
اسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله القي في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه بردا وسلاما
وامر الله جدي ان يذبح له ابي ففداه الله بما فداه وكان لي ابن وكان احب الناس الي ففقدته
فاذهب حزني عليه نور بصري وكان له اخ من امه كنت اذا ذكرته ضممته الى صدري فاذهب
عني بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة واني اخبرك اني لم اسرق ولم الد سارقا فلما قرأ
يوسف الكتاب بكى وصاح وقال اذهبوا بقميصي هذا الباء للتعدية اي اذهبوا معكم قميصي وهذا
نعت له او بيان او بدل قيل هو القميص الذي البسه الله ابراهيم لما القي في النار وكساه ابراهيم
اسحق وكساه اسحق يعقوب وكان يعقوب ادرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف
لما كان يخاف عليه من العين فاخبر جبريل يوسف ان يرسل به الى يعقوب ليعود عليه بصره
لان فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم الا شفي ولا مبتلى الا عوفي قال ابن عباس ولو علم اخوته اذ القوه
في الجب لاخذوه فلما اراد الله ان يرد يوسف على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيرها اربعون سنة

امر البشير ان يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من
عاهات الدنيا الا ابرأها باذن الله فألقوه على وجه ابي يأت بصيرا المعنى يصير بصيرا على ان
يأت هي التي من اخوات كان قال الفراء يرجع بصيرا وقال السدي يعود بصيرا او يشهد له فارتد
بصيرا قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه لزوال بكاؤه وينشرح صدره قال يهوذا
انا احمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر الى كنعان
وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا وقيل معناه يأت الي الى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ويؤيده
قوله وأتوني باهلكم اجمعين اي جميع من شمله لفظ الاهل من النساء والذراري قيل كانوا
نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين ولما فصلت العير اي خرجت منطلقة من عريش مصر او من
مصر الى الشام يقال فصل فصولا وفصلته فصلا لازم ومتعد ويقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل
عنه وخرج منه وجاوز حيطانه قال ابوهم يعقوب لمن عنده في ارض كنعان من اهله اني لاجد
ريح يوسف اي ادركها بحاسة الشم اي اشمها اي ريح الجنة من قميص يوسف فالاضافة لادنى ملابسة
قيل انها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص الى
يعقوب مع طول المسافة فاخبرهم بما وجد قال ابن عباس وجد ريحه من مسيرة ثمانية ايام وقيل
من مسيرة عشرة ايام وقيل من مسيرة ثمانين فرسخا ثم قال لولا ان تفندون اي لولا ان تنسبوني
الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم يقال فند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد وقال
ابو عبيدة لولا ان تسفهون فجعل الفند السفه وقال الزجاج وابن عباس لولا ان تجهلون فجعل
الفند الجهل وقال ابو عمرو الشيباني التفنيد التقبيح وقيل هو الكذب قاله ابن عباس وقال ابن الاعرابي
لولا ان تضعفوا رأيي وروي مثله عن ابي عبيدة وقال الاخفش التفنيد اللوم وضعف الرأي وكل
هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الراي يقال فنده تفنيدا اذا عجزه وافند اذا تكلم بالخطأ والفند
الخطأ من الكلام وعن الربيع قال لولا ان تحمقون اخبرهم يعقوب بان الصبا قد حملت اليه ريح
حبيبه وانه لولا ما يغشاه من التفنيد لما شك في ذلك ؎ فان الصبا ريح اذا ما تنفست على
نفس مهموم تجلت همومها ؎ اذا قلت هذا حين اسلو يهيجني نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر
؎ ولقد تهب لي الصبا من ارضها فيلذ مس هبوبها ويطيب قيل ان ريح الصبا

استأذنت ربها في ان تاتي يعقوب بريح يوسف قبل ان ياتيه البشير قال اهل المعاني ان الله اوصل اليه ريح يوسف عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في مدة المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل قالوا اي قال الحاضرون عنده من اهله تالله انك يا يعقوب لفي ضلالك ذهابك القديم عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديما من افراط حبك ليوسف ورجاء لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه ولسان حال يعقوب يقول لهم

لا يعرف الشوق الا من يكابده ۞ ولا الصبابة الا من يعانيها

لا تعذل المشتاق في اشواقه ۞ حتى تكون حشاك في احشائه

وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير وقيل انك في محبتك القديمة قاله مجاهد وقال ابن عباس في خطائك القديم قالوا له ذلك لانه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم ان يوسف قد مات وهلك فلما ان جاء البشير بين يدي العير قال ابن عباس البشير البريد وعن الضحاك مثله قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لاخيه انا جئته بالقميص ملطخا بالدم فاعطني اليوم قميصك لاخبره انك حي فافرحه كما احزنته وبه قال سفيان القاه على وجهه اي القى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب او القاه يعقوب على وجه نفسه فارتد الارتداد انقلاب الشيء الى حال قد كان عليها والمعنى عاد بصيرا ورجع الى حالته الاولى من صحة بصره وقوته وسروره عن الحسن قال لما ان جاء البشير الى يعقوب فالقى عليه القميص قال على اي دين خلفت يوسف قال على الاسلام قال الآن تمت النعمة قال يعقوب لمن كان عنده من اهله الذين قال لهم اني لاجد ريح يوسف الم اقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم ويكون قوله اني اعلم من الله ما لا تعلمون كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول ويجوز ان تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك اخبارهم بما قاله لهم سابقا انما اشكو بثي وحزني الى الله والمعنى اعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين طلبوا منه ان يستغفر لهم واعترفوا بالذنب وفي الكلام حذف والتقدير ولما رجعوا من مصر ووصلوا الى ابيهم قالوا هذا القول اعتذارا عما حصل منهم ووعدهم بما طلبوه منه و قال سوف استغفر لكم ربي قال الزجاج اراد يعقوب ان يستغفر لهم في وقت السحر لانه اخلق باجابة الدعاء لا انه بخل عليهم بالاستغفار وقال ابن مسعود وقال

ابن عباس اخرهم الى السحر وكان يصلي بالسحر لان دعاء السحر مستجاب واخرج ابن جرير وابو الشيخ عنه

ايضا قال قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة هو قول اخي يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربي يقول حتى تاتي

ليلة الجمعة قيل اخره الى ليلة الجمعة لانها اشرف الاوقات وقيل اخره الى ان يستحلهم من يوسف

ولم يعلم انه قد عفا عنهم او ليعرف حالهم في صدق التوبة وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تعليل

لما قبلها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لعل في الكلام محذوفا مقدرا وهو فرحل يعقوب واولاده واهله

الى مصر فلما دخلوا على يوسف وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا

ثلثة وسبعين قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة الف

وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية الف الف ومائتي الف قاله القرطبي

فقد بورك فيهم كثيرا حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع ان بينه وبين يوسف اربعمائة سنة كما

في التحبير قال ابو هريرة دخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش

في ملكه ثلثين سنة ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة قال ابو هريرة وبلغني انه كان عمر

ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ اي ضمهما وانزلهما عنده قال

المفسرون المراد بالابوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف لان امه قد كانت ماتت في ولادتها

لاخيه بنيامين وقيل احيى الله له امه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة

قال الخازن وهذا هو المعتمد قال الحفناوي وهذا قول ضعيف فان الراجح ان ليا ماتت قبل ان يتزوج

راحيل وعلى هذا فلعله كانت لها اخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدهما وادركت هذه القصة انتهى

وقيل كانت امه باقية وهو الاولى بظاهر النظم القرآني ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ اي للاقامة بها ﴿إِن شَاءَ

اللَّهُ آمِنِينَ﴾ على انفسكم واهليكم مما تكرهونه من القحط واصناف المكاره وقد كانوا فيما مضى يخافون

ملوك مصر ولا يدخلونها الا بجواز منهم قيل والتقييد بالمشية عائد الى الدخول مع الامن ولا مانع من عوده

الى الجميع لان دخولهم لا يكون الا بمشية الله سبحانه كما انهم لا يكونون امنين الا بمشيته وقيل ان التقييد

بالمشية راجع الى قوله سوف استغفر لكم ربي وهو بعيد جدا وظاهر النظم القرآني ان يوسف قال لهم

هذه المقالة اي ادخلوا مصر قبل دخولهم وقد قيل في توجيه ذلك انه تلقاهم الى خارج مصر

ووقف منتظرا لهم في مكان او خيمة فدخلوا عليه فآوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ودخلوا عليه

دخولا آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الاول ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط منها ان الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء وقال ابن عباس سميت مصر بالارض كلها في عشرة مواضع من القرآن وقد جاء في فضل مصر احاديث اوردها المقريزي في تاريخه ومن اراد ان يذكر الفردوس او ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى ارض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء ان يطلع على مواقع مصر ومآثرها فعليه ان ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اي اجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس العرش السرير والرفع النقل الى العلو ﴿وَخَرُّوا﴾ اي الابوان والاخوة ﴿لَهُ﴾ اي ليوسف ﴿سُجَّدًا﴾ وكان ذلك جائزا في شريعتهم منزلا منزلة التحية وقيل لم يكن ذلك سجودا بل هو مجرد ايماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجدا فان الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون الا بوضع الوجه على الارض وقيل الضمير في له راجع الى الله سبحانه اي وخروا لله سجدا وهو بعيد جدا وقيل ان الضمير ليوسف واللام للتعليل اي وخروا لاجله وفيه ايضا بعد قال عدي بن حاتم في الآية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فاعطاكم الله السلام مكانها وعن قتادة نحوه وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بامر الله لتحقيق رؤياه وفيه نبوة ايضا واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي تقدم ذكرها ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ اي من قبل هذا الوقت في حال الصغر ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ اي صدقا بوقوع تأويلها في اليقظة على ما دلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتأويل اربعون سنة او ثمانون او ست وثلاثون او ثنتان وعشرون وقيل خمس وثلاثون وقيل سبعون حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزي والله اعلم كم كان بينهما ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ الاصل ان يتعدى فعل الاحسان بالى وقد يتعدى بالباء كما في قوله وبالوالدين احسانا ويقال لي والي بمعنى واحد وقيل انه ضمن احسن معنى لطف اي لطف بي محسنا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي﴾ تعليل لما قبله ﴿مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر اخراجه من الجب لان في ذكره نوع تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال لا تثريب عليكم اليوم وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه وقد قيل ان وجه عدم ذكر اخراجه من الجب ان المنة كانت في اخراجه من السجن اكبر من المنة في اخراجه من الجب لان دخوله فيه كان بسبب امر

ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من اعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف
وقيل لان اخراجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك ولان مصيبة السجن عنده كانت اعظم لطول
مدتها ولمصاحبة الاوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها
جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ اي البادية وهي ارض كنعان بالشام
وكانوا اهل مواشي وبرية فسكنوا البادية وقيل ان الله لم يبعث نبيا من البادية وان كان المكان
الذي كان فيه يعقوب يقال له بدو ولانه يتحول اليه ويسكنه وفيه نظر والبدو هو البسيط من الارض
يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة مِنۢ بَعْدِ أَن
نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ اي بعد ان افسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزغه اذا
نخسه واصله من نخس الدابة ليقوى مشيها واحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرما
منه وتادبا إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ قال الازهري هو من اسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف
فلان بفلان يلطف اذا رفق به وقال عمرو بن ابي عمرو اللطيف الذي يوصل اليك اربك بلطف
قال الخطابي اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقيل اللطيف العالم بدقائق
الامور قال قتادة لطف ليوسف وصنع له حين اخرجه من السجن وجاء باهله من البدو ونزع من
قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على اخوته لِّمَا يَشَآءُ اي لاجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْعَلِيمُ بامور ٱلْحَكِيمُ في افعاله ولما اتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة
وبما خوله من الملك وعلمه من العلم تاقت نفسه الى الخير الاخروي الدائم الذي لا ينقطع فقال
رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ من للتبعيض اي بعض الملك لانه لم يؤت كل الملك انما اوتي ملكا
خاصا وهو ملك مصر في زمن خاص وقيل زائدة وقيل لبيان الجنس والملك عبارة عن الاتساع
في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع اقطار الارض الاربعة اثنان مسلمان اسكندر
وسليمان واثنان كافران بختنصر وشداد بن عاد قلت وسيملك خامس وهو عيسى بن مريم حين
ينزل من السماء الى الارض كما وردت به الاحاديث الصحيحة وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ اي بعضها
لانه لم يعط جميع علم التاويل سواء اريد به مطلق العلم والفهم او مجرد تاويل الرؤيا وقيل من للجنس كما
في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وقيل زائدة كما تقدم فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

اي يا فاطرهما ومنتصب باضمار اعني او على انه صفة لرب او بدل او بيان في الفاطر الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع أَنْتَ وَلِيِّي اي ناصري ومتولي اموري فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تتولاني فيهما تَوَفَّنِي مُسْلِمًا اي على الاسلام لا يفارقني حتى اموت قيل انه دعا بذلك مع علمه بان كل نبي لا يموت الا مسلما اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليما لغيره وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى قال الخطيب والكرخي قال ابن عباس ما سأل نبي الوفاة غير يوسف اشتاق الى لقاء الله واحب ان يلحق بصوبابائه فدعا الله ان يتوفاه ثم قال وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من النبيين من ابائي وغيرهم فاظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك قال الضحاك يعني ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وقال عكرمة يعني اهل الجنة قيل انه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يات عليه اسبوع بعد هذا الدعاء قيل كان عمره عند ان القي في الجب سبع عشرة سنة وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة الى قدوم ابيه يعقوب ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سياتي وتوفاه وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفات في الحال وبهذا ذهب الجمهور الى انه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وانما دعى ربه ان يتوفاه على دين الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور اجله وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة وولد له من امرأة العزيز ثلاثة اولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة ايوب ولما مات دفنوه في اعلى النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه فسبحان من لا انقضاء لملكه فبقي اربعمائة سنة الى ان اخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب ابائه بالشام في الارض المقدسة فهو الآن هناك ذَٰلِكَ المذكور من امر يوسف اي قصته وما جرى له مع اخوته وما صار اليه من الملك بعد الرق مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ اخباره ثم نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر ثان قال الزجاج ويجوز ان يكون ذلك بمعنى الذي اي الذي من انباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بان هذا الذي قصه عليه من امر يوسف واخوته من الاخبار التي كانت غائبة عنه فاوحاه الله اليه واعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لانهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحودا وعنادا وحسدا مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم لانه كان اميا لم يقرأ الكتب

ولم يلق العلماء ولم يسافر الى غير بلده الذي نشأ فيه ومع ذلك اتى بهذه القصة الطويلة على
احسن تركيب وافصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بوحي من الله سبحانه وتعالى وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ اي
لدى اخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ اجماع الامر العزم عليه اي اذ
عزموا جميعا على القائه في الجب وَهُمْ اي بنو يعقوب في تلك الحالة يَمْكُرُونَ بيوسف في هذا
الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل او يمكرون بيعقوب حين جاؤه بقميص ملطخا بالدم
وقالوا اكله الذئب واذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لديهم عندان فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك
مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم باحوال الامم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه فانتفى علمه بذلك
بطريق الرواية عن الغير فلم يبق لعلمه بذلك طريق الا مجرد الوحي من الله سبحانه فهذا يستلزم
الايمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من حاضره من الكفار قال الله سبحانه ذاكرا لهذا وَمَا أَكْثَرُ
النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ على هدايتهم وبالغت في ذلك بِمُؤْمِنِينَ بالله لتصميمهم على الكفر الذي
هو دين آبائهم يقال حرص يحرص مثل ضرب يضرب وفي لغة ضعيفة مثل حمد يحمد والحرص
طلب الشيء باجتهاد والاسم الحرص بالكسر وحرص حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة
وقال الزجاج معناه ما اكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم لانك لا تهدي من احببت
ولكن الله يهدي من يشاء قال ابن الانباري ان قريشا واليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة
يوسف واخوته فشرحها شرحا شافيا واتى بها على وفق ما عندهم في التوراة وهو يأمل ان يكون
ذلك سببا لاسلامهم فخالفوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله
وما اكثر الناس الاية وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ اي على القرآن وما تتلوه عليهم منه او على الايمان و
حرصك على وقوعه منهم او على ما تحدثهم به من هذا الحديث مِنْ أَجْرٍ من مال يعطونك اياه و
يجعلونه لك كما يفعله احبارهم إِنْ هُوَ اي القرآن او الحديث الذي حدثتهم به إِلَّا ذِكْرٌ
لِلْعَالَمِينَ كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لان الوعظ العام ينافي اخذ
الاجر من البعض وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ قال الخليل وسيبويه ان كاين اصلها اي دخل عليها كاف التشبيه
لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الافرادي وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية التكثيرية والاكثر
ادخال من في مميزه وهو تمييز عن الكاف لا عن اي كما في مثلك رجلا والمعنى كم من اية تدلهم على

على توحيد الله كائنة في السموات من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة
والثوابت والأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه
وأنه الخالق لذلك والرازق له المحيي المميت قال الضحاك كم من آية في السماء يعني شمسها وقمرها ونجومها
وسحابها وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور ولكن أكثر الناس يمرون
عليها أي على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود
خالقها وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها وفي مصحف عبد الله يمشون عليها و
المراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآثار والعبر وهم عنها معرضون وإن
نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهي التفكر والاعتبار والاستدلال
وما يؤمن أي ما يصدق أكثرهم أي أكثر الناس بالله من كونه الخالق الرازق المحيي المميت إلا وهم
مشركون بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية فإنهم مقرون بالله سبحانه و
بأنه الخالق لهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله كما قالوا ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ومنه المعتقدون
في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور
ولا ينافي هذا ما قيل من أن الآية نزلت في قوم مخصوصين فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما
يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم قال ابن عباس في الآية سلهم من
خلقهم ومن خلق السموات والأرض فسيقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره و
قال عطاء كانوا يعلمون أن الله ربهم وهو خالقهم وهو رازقهم وكانوا مع ذلك يشركون و
قال الضحاك كانوا يشركون في تلبيتهم يقولون لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك
تملكه وما ملك وقال الحسن ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله أفأمنوا أن تأتيهم
غاشية من عذاب الله الاستفهام للإنكار والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله
يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم قيل هي الساعة وقيل الصواعق والقوارع وقيل وقعة تغشاهم
قاله قتادة وقيل نقمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم أو تأتيهم الساعة بغتة أي فجأة قال المبرد

جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قوله وقع امر بغتة يقال بغتهم الامر بغتا وبغتة اذا فاجأهم
وهم لا يشعرون باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في اسواقهم غير مستعدين لها قل يا محمد
للمشركين هذه الدعوة التي ادعو اليها والطريقة التي انا عليها سبيلي طريقي وسنتي وفسر ذلك
بقوله ادعوا الى الله على بصيرة اي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل
انا ومن اتبعني اي ويدعو اليها من اتبعني واهتدى بهديي قال الفراء والمعنى ومن اتبعني يدعو
الى الله كما ادعو وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حق عليه ان يقتدي به
في الدعاء الى الله اي الدعاء الى الايمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده قال ابن الانباري ويجوز ان يتم الكلام
عند قوله ادعو الى الله ثم ابتدأ فقال على بصيرة انا ومن اتبعني قال قتادة على بصيرة اي على هدى
وسبحان الله اي وانزه الله تنزيها عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد و
ما انا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه اندادا وما ارسلنا من قبلك هذا رد على
من قال لولا انزل عليه ملك اي لم نبعث من الانبياء الى من قبلهم الا رجالا لا ملائكة اي ليسوا
من اهل السماء كما قلتم قاله ابن عباس فكيف ينكرون ارسالنا اياك وتدل الاية على ان الله سبحانه
لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن وهذا يرد على من قال ان في النساء اربع نبيات حواء وآسية
وام موسى ومريم وقد كان بعثة الانبياء من الرجال دون النساء امرا معروفا عند العرب حتى
قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبية شعر اضحت نبيتنا انثى نطيف بها ، واصبحت انبياء الله
ذكرانا ، فلعنة الله والاقوام كلهم على سجاح ومن باللوم اغرانا ، نوحي اليهم كما نوحي اليك وقرئ
بالياء مبنيا للمفعول من اهل القرى اي المدائن والامصار دون اهل البادية لغلبة الجفاء و
القسوة على البدو ولكون اهل الامصار اتم عقلا واكمل حلما واحسن علما واجل فضلا قال
قتادة ما نعلم ان الله ارسل رسولا قط الا من اهل القرى لانهم كانوا اعلم واحلم من اهل العمود
قال الحسن لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء افلم يسيروا في الارض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم اي افلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
فينظروا الى مصارع الامم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزجروا عما هم
فيه من التكذيب قال الحسن اي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والامم التي عذب

ولدار الساعة الآخرة او الحالة الآخرة او الحياة الآخرة على حذف الموصوف وقال الفراء ان الدار
هي الآخرة واضيف الشيء الى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلوة الاولى ومسجد الجامع و
الكلام في ذلك مبين في كتب الاعراب والمراد بهذه الدار الجنة وقرئ للدار الآخرة خير من دار الدنيا
للذين اتقوا افلا تعقلون على الخطاب وقرئ بالتحتية اي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا
حتى غاية لمحذوف دل عليه الكلام وتقديره وما ارسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا ولم نعاجل اممهم
الذين لم يؤمنوا بما جاؤا به بالعقوبة حتى اذا استيئس الرسل عن النصر بعقوبة قومهم او حتى اذا استيأسوا
من ايمان قومهم لانهماكهم في الكفر وقدره القرطبي الا رجالا ثم لم نعاقب امتهم حتى اذا وقدره ابن
الجوزي الا رجالا فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى اذا وقدره الزمخشري
الا رجالا فتراخى نصرهم حتى واحسنها ما قدمته وقال الواحدي حتى هنا من حروف الابتداء
يستانف بعدها وظنوا انهم قد كذبوا قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسائي والفراء بالتخفيف
اي ظن القوم ان الرسل قد كذبوهم فيما اخبروا به من العذاب ولم يصدقوا وقيل المعنى ظن القوم
ان الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر وقيل المعنى وظن الرسل انها قد كذبتهم انفسهم حين حدثتهم
بانهم ينصرون عليهم او كذبهم رجاؤهم النصر وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد والمعنى عليها واضح اي
ظن الرسل بان قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ويجوز في هذا ان يكون فاعل ظن
القوم المرسل اليهم على معنى انهم ظنوا ان الرسل قد كذبوا فيما جاؤا به من الوعد والوعيد وقرأ مجاهد
وحميد قد كذبوا بالتخفيف مبنيا للفاعل على معنى وظن قوم الرسل ان الرسل قد كذبوا وقد قيل ان الظن في هذه
الآية بمعنى التوهم والحسبان والذي ينبغي ان الظن في مثل هذه الصورة بمعنى اليقين ويفسر بمعناه
الاصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة وقد اطال الخازن في بيان معنى الظن هنا
وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ جاءهم نصرنا اي فجاء الرسل نصر الله فجاءة او جاء قوم الرسل الذين كذبوهم
نصر الله لرسله بايقاع العذاب على المكذبين واخرج البخاري وغيره من طريق عروة انه سأل عائشة
عن قول الله سبحانه حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا قال قلت اكذبوا ام كذبوا يعني هل هذه
الكلمة مخففة او مشددة فقالت بل كذبوا يعني بالتشديد قلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم
فما هو بالظن قالت اجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها كذبوا مخففة قالت معاذ الله لم تكن

الا يسل لتظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم وطال
عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان
اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك وقال ابن عباس كذبوا مخففة يقول اخلفوا وكانوا
بشرا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال عروة عن عائشة انها خالفت ذلك وابته
وقالت والله ما وعد الله رسوله من شيء الا علم انه سيكون قبل ان يموت ولكنه لم يزل البلاء بالرسل
حتى ظنوا ان من معهم من المؤمنين قد كذبوهم وكانت تقرأها مثقلة وعن ابن عباس كان يقرأ
كذبوا مخففة وقال يئس الرسل من قومهم ان يستجيبوا لهم وظن قومهم ان الرسل قد كذبوهم بما جاؤهم
به جاءهم نصرنا اي الرسل وبها قرأ ابن مسعود قال استيأس الرسل من ايمان قومهم ان يؤمنوا بهم
وظن قومهم حين ابطأ النصر قد كذبوا وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة يوسف
انهم قد كذبوا مخففة وللسلف في هذا كلام يرجع الى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة فَنُجِّيَ مَنْ
نَشَاءُ من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم وهلك
المكذبون وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا اي عذابنا عند نزوله عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ المشركين قال ابن عباس وذلك
ان الله بعث الرسل يدعون قومهم فاخبروهم ان من اطاع الله نجا ومن عصاه عذب وغوى
وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدى هؤلاء المجرمين لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ
اي قصص الرسل ومن بعثوا اليهم من الامم او في قصص يوسف واخوته وابيه قاله مجاهد عِبْرَةٌ
هي الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم
الى الطرف المجهول لِأُولِي الْأَلْبَابِ هم ذووا العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه
مصالح دينهم وانما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة
بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف واخوته وابوه مع كونه لم يطلع
على اخبارهم ولا اتصل باحبارهم وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم انه قال في اول السورة نحن
نقص عليك احسن القصص ثم قال ههنا لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب وفي ذلك تنبيه
على ان حسن هذه القصة انما هو لاجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة مَا كَانَ هذا
القصص الذي يدل عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله انا انزلناه قرآنا عربيا

حَدِيثًا يُفْتَرَى قال قتادة الفرية الكذب وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه ان جميعه حق من عند الله وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ من الشرائع المجملة المحتاجة الى تفصيلها لان الله سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف مع اخوته وابيه وقيل وليس المراد به ما يقتضيه من العموم بل المراد به الاصول والقوانين وما يؤول اليها قال قتادة فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته . وقيل ما من شيء من امر ديني الا وله مستند في القرآن بواسطة او بغير واسطة وَهُدًى في الدنيا يهتدي به كل من اراد هدايته وَرَحْمَةً في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره واما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه

سورة الرعد وهي ثلث وقيل اربع وخمس وست واربعون اية

وقد وقع الخلاف هل هي مكية او مدنية وممن ذهب الى الاول سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر وابن زيد والى الثاني ابن الزبير والكلبي ومقاتل والقول الثالث انها مدنية الا ايتين فانهما نزلتا بمكة وهما قوله تعالى ولو ان قرانا سيرت به الجبال وقيل قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة وقيل هو الذي يريكم البرق الى قوله له دعوة الحق وعن جابر بن زيد كان يستحب اذا حضر الميت ان يقرأ عنده سورة الرعد فان ذلك يخفف عن الميت وانه اهون لقبضه وايسر لشأنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المر قد تقدم الكلام في الحروف الواقعة في اوائل السور بما يغني عن الاعادة قال ابن عباس المعنى انا الله ارى وقال مجاهد فواتح يفتتح بها كلامه والحق ان الله تعالى اعلم بمراده او هو اسم للسورة والتقدير هذه السورة اسمها هذا تِلْكَ اي آيات هذه السورة وقيل اشارة الى ما قص عليه من انباء الرسل وقيل القرآن وعليه جرى الزمخشري وجمهور المفسرين آيَاتُ الْكِتَابِ والمراد بالكتاب السورة اي تلك آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن والاضافة بمعنى من وقال مجاهد الكتاب التوراة والانجيل وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

المراد به القرآن كله قاله قتادة وغيره اي هو الحق البالغ في اتصافه بهذه الصفة لا شك فيه
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يعني مشركي مكة لَا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق الذي انزل الله اليك قال الزجاج لما ذكر
انهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ العمد الاساطين والدعائم جمع عماد اي على غير قياس والقياس ان يجمع على عُمُد بضم العين
والميم وقيل ان عمد جمع عماد في المعنى اي انه اسم جمع لا جمع صناعي وهو صادق بان لا عماد اصلا
وهذا هو اصح القولين اي قائمات بغير عمد تعتمد عليها وقيل لها عمد ولكن لا نراها وهذا قول مجاهد
وعكرمة قال الزجاج العمد قدرته التي يمسك بها السموات وهي غير مرئية لنا وقرئ عُمُد على انه جمع عمود يعتمد به
اي يسند اليه وجملة تَرَوْنَهَا مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك وقيل هي صفة لعمد
وهو اقرب مذكور ورجحه الزمخشري وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير رفع السموات ترونها
بغير عمد ولا ملجئ الى مثل هذا التكلف قال ابن عباس وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها وقال
يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني الاعماد قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة
وبه قال الحسن وقتادة وجمهور المفسرين وعن ابن عباس قال السماء على اربعة املاك كل زاوية
موكل بها ملك قال السمين في هذا الكلام وجهان احدهما انتفاء العمد والرؤية جميعا اي لا عمد فلا
رؤية يعني لا عمد لها فلا ترى واليه ذهب الجمهور والثاني ان لها عمدا ولكن غير مرئية ثُمَّ هنا
لمجرد العطف لا للترتيب لان الاستواء عليه غير مرتب على رفع السموات اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ استواء
يليق به هذا مذهب السلف وقال المعتزلة استولى عليه بالحفظ والتدبير او استوى امره واقبل
على العرش وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى والحق ان الاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف
كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ اي ذللهما لما يراد منهما من منافع
الخلق ومصالح العباد فالحركة المستمرة على حد من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها
كُلٌّ من الشمس والقمر يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى اي الى وقت معلوم معين وهو فناء الدنيا وزوالها وقيام
الساعة التي تكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر وقيل المراد بالاجل المسمى
درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان اليها لا يجاوزانها وهي سنة للشمس وشهر للقمر لا يختلف جري واحد
منهما قيل وهذا هو الحق في تفسير الآية يُدَبِّرُ الْأَمْرَ اي امر العالم العلوي والسفلي يعني يقضيه ويمضيه

وهذا قاله مجاهد والمعنى يصرفه على ما يريد وهو امر ملكوته وربوبيته يدبره على اكمل الاحوال
واتم الافعال لا يشغله شان عن شان وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ولا وجه
للتخصيص بشيء دون شيء فان اللفظ اوسع من ذلك قال الكرخي وحمل التدبير على العموم اولى من
حمله على نوع من احوال العالم كما جرى عليه جمع من المفسرين وهذا التدبير والانفاذ والامضاء
هو من فوق العرش وهو ظاهر نظم القرآن الكريم يُفَصِّلُ اي يبين الْآيَاتِ الدالة على كمال قدرته
وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لاجل مسمى والمراد
بهذا تنبيه العباد على ان من قدر على هذه الاشياء فهو قادر على البعث والاعادة ولهذا قال
لَعَلَّكُمْ عند مشاهدة هذه الآيات بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه
ولما ذكر الدلائل السماوية اتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ على وجه
الماء قال الفراء بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان وقال الاصم ان
المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه اه قال الكرخي فقوله مد الارض يشعر بانه تعالى جعل الارض
حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاها انتهى قيل وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كريتها في نفسها لتباعد
اطرافها وبه قال اهل الهيئة والله اخبر انه مد الارض وانه دحاها وبسطها وانه جعلها فراشا
وكل ذلك يدل على كونها مسطحة كالاكف وهو اصدق قيلا وابين دليلا من اصحاب الهيئة وفي
الجامع الصغير حديث رواه البيهقي عن ابن عباس ولفظه اول بقعة وضعت من الارض موضع البيت
ثم مدت منها الارض وان اول جبل وضعه الله على وجه الارض ابو قبيس ثم مدت منه الجبال
وعن ابن عمر قال الدنيا مسيرة خمسمائة عام اربعمائة عام خراب ومائة عمران في ايدي المسلمين
من ذلك مسيرة سنة وقد روي عن جماعة من السلف في ذلك تقديرات لم يات عليها دليل
يصح وعن علي بن ابي طالب قال لما خلق الله الارض قمصت وقالت اي رب تجعل علي بني آدم يعملون
علي الخطايا ويجعلون علي الخبث فارسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون فكان اقرارها
كاللحم ترجرج وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اي ثوابت تمسكها عن الاضطراب واحدها راسية لان الارض
ترسو بها اي تثبت والرسو الثبوت وَأَنْهَارًا اي مياها جارية في الارض فيها منافع الخلق او المراد جعل
فيها مجاري الماء وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ من كل نوع اثْنَيْنِ اي من كل الثمار نوعين

اي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر اذ الزوج يطلق على الاثنين
وعلى الواحد المزاوج للآخر والمراد هنا بالزوج الواحد ولهذا اكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم
انه اريد بالزوج هنا الاثنان الشفعان وقد تقدم تحقيق هذا مستوفى وهذا بيان لاقل مراتب
التعدد والا فالتعدد قد يكون باكثر من ذلك اي جعل كل نوع من انواع ثمرات الدنيا صنفين
اما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما او في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما او في القدر كالصغر
والكبر او في الكيفية كالحر والبرد ولكن اثنينية ذلك اعتبارية قال الفراء يعني بالزوجين هنا الذكر
والانثى من كل صنف فتمثله عنهما والاول يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ اي يلبسه مكانه فيصير اسود مظلما
بعد ما كان ابيض منيرا شبه ازالة نور الهواء بالظلمة بتغطية الاشياء الحسية بالاغطية التي
تسترها وطمس الليل ضوء النهار اي يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس ايضا بالحمل على
تقدير المفعول الثاني على الاول فان ضوء النهار ايضا ساتر لظلمة الليل الا ان الانسب بالليل ان يكون
هو الغاشي ونظم هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا اعتبارا
ظهوره في الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل اصلا وقد سبق تفسيره في
الاعراف إِنَّ فِي ذَلِكَ المذكور من مد الارض واثباتها بالجبال وما جعل الله فيها من الثمرات
المتزاوجة وتعاقب النور والظلمة لَآيَاتٍ بينة لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ اي للناظرين المتفكرين المعتبرين
فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب في طلب الاشياء و
قال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر
العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يكون له صورة في القلب ولهذا
روي تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله اذ الله منزه ان يوصف بصورة وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ
مُتَجَاوِرَاتٌ اي بقاع مختلفة وهذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من انواع الآيات قيل
وفي الكلام حذف اي قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله سرابيل تقيكم الحر اي والبرد
وقيل المتجاورات المدن وما كان عامرا وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير معمور وقيل المعنى
متجاورات متدانيات ترابها واحد وماؤها واحد وفيها زرع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون
البعض حلوا والبعض حامضا او البعض طيبا والبعض غير طيب والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع

نحوه وعن ابن عباس قال يريد الارض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها باذن ربها تجاورها
السبخة الخبيثة المالحة التي لا يخرج منها نباتها وهما ارض واحدة وماؤها شيء واحد ملح او عذب
ففضلت احداهما على الاخرى قال قتادة قرى متجاورات قريب بعضها من بعض وقال ابن
عباس الارض تنبت حلوا والارض تنبت حامضا وهي متجاورات تسقى بماء واحد وقيل متلاصقة
فيها طيب وسبخ وقليل الريع وكثيره وهو من دلائل قدرته تعالى سبحانه وَفِي الارض او بينها
جَنَّاتٌ اي بساتين وعلى النصب تقديره جعل فيها جنات والجنة كل بستان ذي شجر من
نخيل واعناب وغير ذلك سمي جنة لانه يستر باشجاره الارض واليه الاشارة بقوله مِنْ أَعْنَابٍ
جمع عنب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ذكر سبحانه الزرع بين الاعناب والنخيل لانه يكون في الخارج كثيرا
كذلك ومثله في قوله سبحانه جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا
بينهما زرعا والنخل والنخيل بمعنى والواحد نخلة لكن النخل يذكر ويؤنث والنخيل مؤنث لا غير
صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ قرئ بالرفع عطفا على جنات وبالجر عطفا على اعناب وبضم الصاد
وكسرها وهما لغتان والاولى لغة قيس وتميم والثانية لغة العامة وقرئ بفتحها وهو اسم جمع لا
تكسير لانه ليس من ابنية فعلان بالفتح ونظير صنوان بالفتح سعدان قال ابو عبيدة جمع صنو وهو
ان يكون الاصل واحدا ثم يتفرع فيصير نخيلا ثم يحمل وهذا قول جميع اهل اللغة والتفسير ففي
النخلات تفسير للصنوان الذي هو الجمع فالصنو المفرد واحد هذه النخلات قال ابن الاعرابي
الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وسلم عم الرجل صنو ابيه فمعنى الاية على هذا ان اشجار النخيل قد تكون
متماثلة وقد لا تكون قال في الكشاف جمع صنو وهي النخلة لها راسان واصلها واحد وقيل الصنوان
المجتمع وغير الصنوان المتفرق قال النحاس وهو كذلك في اللغة يقال للنخلة اذا كانت فيها نخلة اخرى
والاكثر صنوان والصنو المثل ولا فرق بين التثنية والجمع الا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الاعراب
في الجمع وعن البراء بن عازب قال الصنوان ما كان اصله واحدا وهو متفرق وغير الصنوان التي
تنبت وحدها وفي لفظ الصنوان النخلة في النخلة ملتصقة وغير الصنوان النخل المتفرق وعن ابن
عباس هي مجتمع النخل في اصل واحد وغيرها المتفرق وفي السمين والصنو الفرع يجمعه وفرعا آخر
اصل واحد والمثل وفي المختار اذا خرج نخلتان او ثلاث من اصل واحد فكل واحدة منهن صنو

الاشنان صنوان بكسر النون والجمع صنوان برفعها يُسقى بالتحتية اي يسقى ذلك كله يعني اشجار
الجنة وزروعها بِمَاءٍ وَاحِدٍ والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل في حده هو جوهر سيال
به قوام الارواح وقرئ تسقى بالفوقية بارجاع الضمير الى جنات وقال ابو عمرو والتانيث احسن لقوله
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ اي في الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام ولو
يقل بعضه قرئ بالنون على تقدير ونحن نفضل وقرئ بالياء ومن قرء الاول بالتاء جاز في
الثاني الياء والنون ومن قرء الاول بالياء تعين في الثاني النون لا غير فالقراآت ثلثة لا اربعة
كما توهم وكلها سبعية وانت خبير بأن القراء يتبعون فيما اختاروه من القراآت الاثر لا الرأي فانه لا
مدخل له فيها قاله الكرخي اخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال الدقل والفارسي والحلو والحامض قال مجاهد هذا كمثل بني آدم
صالحهم وخبيثهم وابوهم واحد وعن ابن عباس قال هذا حامض وهذا حلو وهذا دقل وهذا
فارسي والاكل بضمتين واسكان الثاني للتخفيف المأكول والمراد به ما يوكل منها وهو الثمر والحب فالثمر من
النخيل والاعناب والحب من الزرع كانه قال ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعما وشكلا ورائحة
وقدرا وحلاوة وحموضة وعفاصة وغير ذلك من الطعوم وفضلها ايضا في غير ذلك كاللون
والنفع والضرر وانما اقتصر على الاكل لانه اعظم المنافع إِنَّ فِي ذَلِكَ المذكور لَآيَاتٍ دلالات على بديع
صنعه وعظيم قدرته فان القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على انواع النبات مع كونها
تسقى بماء واحد تتفاضل في الثمرات في الاكل فيكون طعم بعضها حلوا والآخر حامضا وهذا في غاية
الجودة وهذا ليس بجيد وهذا فائق في حسنه وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر
نظر العقلاء ان السبب المقتضي لاختلافها ليس الا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه
لان تاثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء الا لسببين اما اختلاف
المكان الذي هو المنبت او اختلاف الماء الذي تسقى به فاذا كان المكان متجاورا وقطع الارض متلاصقة
والماء الذي تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل الا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ اي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات
والاعتبار في العبر الموجودات اي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها خص هذا بالعقل والاول بالتفكر

الاستدلال باختلاف الثمار اسهل ولان التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب فناسب تقديم التفكر على التعقل قال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بني ادم فالناس خلقوا من ادم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال ايضا والله ما جالس القرآن احد الا قام من عنده بزيادة او نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فَعَجَبٌ اي فاعجب منه قَوْلُهُمْ اي تكذيبهم بالبعث والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لانه تغير النفس بشيء تخفى اسبابه وذلك في حق الله تعالى محال قاله القرطبي وقيل العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وانما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله واتباعه قال الزجاج اي هذا موضع عجب ايضا انهم انكروا البعث وقد بان لهم من خلق السموات والارض ما يدل على ان البعث اسهل في القدرة وقد تقرر في النفوس ان الاعادة اهون من الابداء فهذا موضع التعجب وقيل الآية في منكري الصانع مع الادلة الواضحة بان المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب والاولى اولى لقوله أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ والعجب كلامهم او تكلمهم بذلك اولا يرون انه خلقهم من نطفة فالخلق منها اشد من الخلق من تراب وعظام والعامل في اذا نبعث او نعاد والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال الاستبعاد وفي هذا الاستفهام المكرر اختلف القراء اختلافا منتشرا وهو في احد عشر موضعا في تسع سور من القرآن ولا بد من تعيينها فاولها هنا والثاني والثالث في الاسراء بلفظ واحد ائذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا والرابع في المؤمنون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون والخامس في النمل ائذا كنا ترابا وآباؤنا ائنا لمخرجون والسادس في العنكبوت ائنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين ائنكم لتأتون الرجال والسابع في الم السجدة ائذا ضللنا في الارض ائنا لفي خلق جديد والثامن والتاسع في الصافات ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون وائنا لمدينون والعاشر في الواقعة مثل الصافات والحادي عشر في النازعات ائنا لمردودون في الحافرة ائذا كنا عظاما نخرة فهذه هي المواضع المختلف فيها ثم الوجه في قراءة من استفهم في الاول والثاني المبالغة في الانكار فاتى به في الجملة الاولى واعاد في الثانية تأكيدا له والوجه في قراءة من اتى به مرة واحدة

حسن لما القصد ح لان كل جملة مرتبطة بالاخرى فاذا انكر في احداهما حصل الانكار في الاخرى وكرره السمين وتقديم الظرف في قوله لفي خلق لتاكيد الانكار بالبعث وكذلك تكرير الهمزة في قوله ائنا والمعنى اي نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بامور ثلثة الاول أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ اي اولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه وفيه دليل على كفر منكري البعث والثاني وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ الاغلال جمع غل بالضم وهو طوق من حديد يجعل في العنق او تشد به اليد الى العنق اي يغلون بها يوم القيامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل وقيل الاغلال اعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الاطواق للاعناق والثالث وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا ينفكون عنها بحال من الاحوال وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ نزل في استعجالهم العذاب استهزاء والسيئة العقوبة المهلكة والحسنة العافية والسلامة قالوا هذه المقالة لفرط انكارهم وشدة تصميمهم وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ جمع مثلة كسمرة وهي العقوبة الفاضحة سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه وهو الذنب من المماثلة في ان كلا منهما مذموم قال ابن الانباري المثلة العقوبة التي تبقي في المعاقب شينا بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان اذا شان خلقه بقطع انفه وسمل عينيه وبقر بطنه وقرئ بفتح الميم واسكان الثاء تخفيفا لثقل الضمة قيل وهي لغة الحجاز وفي لغة تميم بضم الميم والثاء جميعا واحدتها على لغتهم مثلة مثل غرفة وغرفات وقرئ بفتحهما وقيل المثلة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالا يرتدع غيره به قال قتادة المثلات العقوبات يعني وقائع الله في الامم فيمن خلا قبلكم وقال ابن عباس المثلات ما اصاب القرون الماضية من العذاب والمعنى ان هؤلاء يستعجلونك بانزال العقوبة بهم وقد مضت من قبلهم عقوبات امثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حل بهم وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ اي لذو تجاوز عظيم والمراد بها الامهال وتاخير العذاب لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ اي مع ظلمهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي

ان تابوا عن ذلك ورجعوا الى الله سبحانه اي حال كونهم ظالمين وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء
كبير لان من المعلوم ان الانسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبا فيجوز المغفرة قبل التوبة وهذا
قيل انها في عصاة الموحدين خاصة وقيل المراد بالمغفرة هنا تاخير العقاب الى الآخرة كما تقدم
ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار العقوبة وكما يفيده قوله تعالى وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ
فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ما تقتضيه مشيئته في
الدار الآخرة فتاخير ما استعجلوه ليس للاهمال عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل احد وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا من اهل مكة لَوْلَا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ اي على محمد صلى الله عليه وسلم آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ غير ما
قد جاء به من الآيات كالعصا واليد والناقة وهؤلاء القائلون هم المستعجلون للعذاب وانما
عدلوا عن الاضمار الى الموصول ذما لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال حيث لم يرفعوا لها راسا ولم
يعدوها من جنس الآيات وهذا مكابرة من الكفار وعناد والا فقد انزل الله على رسوله من الآيات
ما يغني البعض منه قال الزجاج طلبوا غير الآيات التي اتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى
فقال الله تعالى إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ تنذرهم بالنار وليس اليك من الآيات من شيء وفيه ازالة لرغبته
صلى الله عليه وسلم في حصول مقترحهم فانه كان شديد الرغبة في ايجاب مقترحاتهم لشدة التفاته
الى ايمانهم قاله الخطيب وجاء في انما انت بصيغة الحصر لبيان انه صلى الله عليه وسلم مرسل لانذار العباد
وبيان ما يحذرونه من عاقبته وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه وانذر وابلغ وليس اليه من الآيات
شيئا ما يحصل به ذلك الا ما اتى به واوضحه وكرره فجزاه الله عن امته خيرا وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ اي نبي يدعوهم
الى ما فيه هدايتهم ورشادهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وان لم يقع الهداية لهم بالفعل
ولم يقبلوها وآيات الرسل مختلفة هذا ياتي بآية وآيات لم يات بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها
ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت الى مكان عظيم فليس المراد من
الآيات الا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية وذلك لا يختص بفرد منها ولا بافراد
معينة قال الرازي فهذا هو الوجه الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما
انتهى وقيل ان المعنى ولكل قوم هاد هو الله عز وجل فانه القادر على ذلك وليس على انبيائه الا

عجزوا الانذار قال ابن عباس هاد اي داع وقال مجاهد المنذر محمد صلى الله عليه وسلم ولكل قوم هاد نبي
يدعوهم الى الله وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس نحوه وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
هو المنذر وهو الهادي اخرجه ابن مردويه وعن عكرمة وابي الضحى نحوه وقيل الهادي هو العمل
الصالح وقيل الهادي هو القائد الى الخير لا الى الشر وهو يعم الرسل واتباعهم الى آخر الدهر وعن
ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال انا المنذر
وأومى بيده الى منكب علي فقال انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي اخرجه ابن جرير و
ابو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار قال ابن كثير في تفسيره وهذا الحديث فيه نكارة
شديدة وجملة اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى مستانفة مسوقة لبيان احاطته سبحانه بالعلم وعلمه بالغيب
الذي هذه الامور منه وقيل الاسم الشريف خبر اي لكل قوم هاد هو الله وجملة يعلم ما تحمل كل انثى
تفسير لهاد على الوجه الاخير وهذا بعيد جدا والعلم هنا متعد لواحد بمعنى العرفان وما موصولة
اي يعلم الذي تحمله كل انثى في بطنها من علقة او مضغة او ذكر او انثى او صبيح او قبيح او سعيد
او شقي او طويل او قصير او تام او ناقص او استفهامية اي يعلم اي شيء في بطنها وعلى اي حال
هو او مصدرية اي يعلم حملها وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وما في الموضعين محتملة للاوجه
المتقدمة وغاض وازداد سمع تعديهما ولزومهما ولك ان تدعي حذف العائد على القول بتعديهما
وان تجعلها مصدرية على القول بمصدريتها والغيض النقص وعليه اكثر المفسرين اي يعلم
الذي تغيضه الارحام اي تنقصه ويعلم ما تزداده لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من اوقاته
واحواله فقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص اصبع او زيادتها وقيل ان المراد نقص مدة
الحمل عن تسعة اشهر او زيادتها وقيل اذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصا في ولدها قاله
ابن عباس واذا لم تحض يزداد الولد وينمو فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام
خلقه باستمساك الدم وقال سعيد بن جبير الغيض ما تنقصه الارحام من الدم والزيادة ما تزداد
منه وقيل النقصان في الغذاء والزيادة في مدة الحمل واذا حاضت في وقت حملها ورأت خمسة ايام دما
وضعت لتسعة اشهر وخمسة ايام وقال الضحاك ما تغيض السقط وما تزداد ما زادت في الحمل على ما
غاضت حتى ولدته تماما وذلك ان من النساء من تحمل عشرة اشهر ومنهن من تحمل تسعة اشهر

ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله كل ذلك يعلمه الله وقال مجاهد الغيض خروج الدم والزيادة استمساكه ومدة الحمل اكثرها عند قوم سنتان وبه قالت عائشة وابو حنيفة وقالوا ان الضحاك ولد لسنتين وقيل اكثرها اربع سنين واليه ذهب الشافعي وقيل خمس سنين وبه قال مالك واقلها ستة اشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش وَكُلُّ شَيْءٍ من الاشياء التي من جملتها الاشياء المذكورة عِندَهُ سبحانه بِمِقْدَارٍ هو القدر الذي قدره الله وهو معنى قوله سبحانه انا كل شيء خلقناه بقدر اي كل الاشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه لا يخرج عن ذلك شيء وهذا مذهب السلف وقيل هذه عندية علم اي يعلم كيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين ويحتمل ان يكون المراد بالعندية انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية ويدخل في هذه الآية افعال العباد واحوالهم وخواطرهم وهي من ادل الدلائل على بطلان قول المعتزلة عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ اي عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر وكل معدوم وموجود وقال الضحاك عالم السر والعلانية ولا مانع من حمل الكلام على ما هو اعم من ذلك الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ اي العظيم الذي كل شيء دونه المتعالي عما يقوله المشركون او المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره او المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومباينته عن خلقه وهو الاولى ثم لما ذكر سبحانه انه يعلم تلك المغيبات لا يغادر شيئا منها بين انه عالم بما يسرونه في انفسهم وبما يجهرون به لغيرهم وان ذلك لا يتفاوت عنده فقال سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ فهو يعلم ما اسره الانسان كعلمه بما جهر به من خير او شر اي سواء ما اضمرت به القلوب او نطقت به الالسن وسر من اسر وجهر من جهر وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ اي مستتر في الظلمة الكائنة في الليل المتواري عن الاعين يقال خفي الشيء واستخفى اي استتر وتوارى وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ قال الكسائي سرب يسرب سربا وسروبا اذا ذهب وقال القتيبي اي متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم انسرب الماء قال الاصمعي خل سربه اي طريقته والسرب بالكسر النفس يقال هو واسع السرب اي رخي البال والسرب بفتحتين بيت في الارض لا منفذ له وهو الوكر وقال الزجاج معنى الآية الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعا سواء وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر والسارب البارز

فظاهرهم وباطنهم ما قال بعضهم شعر يا من يرى مد البعوض جناحها * في ظلمة الليل البهيم الاليل *
ويرى عروق نياطها في نحرها * والمخ في تلك العظام النحل * اغفر لعبد تاب من فرطاته * ما كان
منه في الزمان الاول * وقيل مستخف راكب رأسه في المعاصي وسارب ظاهر بالنهار بالمعاصي قال هو صاحب
ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار ارى الناس انه بريء من الاثم له الضمير راجع الى من في قوله
من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف اي لكل من هؤلاء مُعَقِّبَاتٌ هي المتناوبات التي يخلف
كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة تعتقبه في قول عامة المفسرين
قال الزجاج المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض قيل هم خمسة بالليل وخمسة بالنهار وفي
الخطيب انهم عشرون لكل انسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار وهو الذي في شرح الجوهرة وانما قال
معقبات مع كون الملائكة ذكورا لان الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ثم جمع معقبة على معقبات
ذكر معناه الفراء كما قيل ابناوات سعد ورجالات بكر وقيل انث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة
قال الجوهري والتعقيب العود بعد البدء قال الله تعالى ولى مدبرا ولم يعقب وقرئ معاقيب جمع معقب
وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار و
يجتمعون في صلوة الفجر وصلوة العصر الحديث بطوله اخرجه الشيخان وقال ابن عباس هذه للنبي
صلى الله عليه وسلم خاصة قلت العموم اولى ويدخل فيه سبب النزول دخولا اوليا مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
اي من بين يدي من له المعقبات والمراد ان الحفظة من الملائكة يتعاقبون من جميع جوانبه وقيل
المراد بالمعقبات الاعمال ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ
اللَّهِ وقيل يحفظونه من بأس الله اذا اذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب وقيل يحفظون
عليه الحسنات والسيئات وقيل من شر طوارق الليل والنهار قال الفراء في هذا قولان احدهما
انه على التقديم والتأخير اي له معقبات من امر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه والثاني
ان كون الحفظة يحفظونه هو مما امر الله به قال الزجاج المعنى حفظهم اياه من امر الله اي مما امرهم به
لا انهم يقدرون ان يدفعوا امر الله قال ابن الانباري وفي هذا قول آخر وهو ان من بمعنى الباء اي يحفظونه
بامر الله واعانته واستظهره السفاقسي وقيل ان من بمعنى عن اي يحفظونه عن امر الله بمعنى من عند الله
لا من عند انفسهم كقوله اطعمهم من جوع اي عن جوع وقيل يحفظونه من ملائكة العذاب وقيل يحفظونه

من الجن والانس فهي على بابها واختار ابن جرير ان المعقبات المواكب بين يدي الامراء على معنى ان ذلك لا يدفع عنه القضاء وقال ابن عباس ذلك الحفظ من امر الله بامر الله وباذن الله لانه لا قدرة للملائكة ولا لاحد من الخلق ان يحفظ احدا من امر الله ومما قضاه الله عليه الا بامره واذنه وعن قتادة مثله وعنه ايضا قال ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه يقول يحفظونه من امري فاني اذا اردت بقوم سوءا فلا مرد له وقال ايضا الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من امامهم وعن خلفهم وعن شمائلهم يحفظونهم من القتل الم تسمع ان الله يقول اذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له اي اذا اراد سوءا لم تغن الحرس عنه شيئا وعن عكرمة قال هؤلاء الامراء وعن ابن عباس قال هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه وعن علي قال ليس من عبد الا ومعه ملائكة يحفظونه من ان يقع عليه حائط او يتردى في بئر او يأكله سبع او يغرق او يحرق فاذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالانسان احاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من طاعة الله والحالة الجميلة بالحالة القبيحة والمعنى انه لا يسلب قوما نعمة انعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بانفسهم من الخير والاعمال الصالحة او يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها قيل وليس المراد انه لا ينزل باحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سائل فقال انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ اي هلاكا وعذابا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ اي فلا رد له وقيل المعنى اذا اراد بقوم سوءا اعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يلي امرهم ويلتجئون اليه فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقوبات او من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله والمعنى انه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه ولما خوف سبحانه عباده بانزال ما لا مرد له اتبعه بامور ترجى من بعض الوجوه وتخاف من بعضها وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة وقد مر في اول البقرة تفسير هذه الالفاظ واسبابها فقال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ هو لمعان يظهر من خلال السحاب وعن علي بن ابي طالب قال البرق مخاريق من نار بايدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ اي لتخافوا خوفا ولتطمعوا طمعا وقيل المعنى

العلة بتقدير ارادة الخوف والطمع او على الحالية من البرق او بتقدير ذوي خوف وقيل غير ذلك مما لا حاجة اليه قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق وبالطمع هو الحاصل بالمطر وقال الزجاج الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر والطمع للحاضر لانه اذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب قال قتادة خوفا للمسافر يخاف اذاه ومشقته وطمعا للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته وعن الحسن خوفا لاهل البحر وطمعا لاهل البر وعن الضحاك قال الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع الغيث ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ التعريف للجنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة والسحاب الغيم المنسحب في الهواء والمراد ان الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ نفسه متلبسا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ وليس هذا بمستبعد ولا مانع من ان ينطقه الله بذلك وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم واما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد بذلك ويكون ذكره على الانفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به والمسموع لنا منه هو نفس صوته اذا سبح التسبيح المذكور وقيل هو صوت الآلة التي يضرب بها السحاب اي الصوت الذي يتولد عند الضرب وقيل المراد ويسبح سامعوا الرعد اي يقولون سبحان الله وبحمده والاول اولى اخرج احمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله ينشئ السحاب فينطق احسن النطق ويضحك احسن الضحك وقيل والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق وقد ثبت عند احمد والترمذي والنسائي في اليوم والليلة والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك واخرج العقيلي وضعفه وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شيء احسن من ضحكه ولا شيء احسن من نطقه ومنطقه الرعد وضحكه البرق واخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ان خزيمة بن ثابت وليس بالانصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منشأ السحاب فقال ان ملكا موكلا يلم القاصية ويلحم الدانية بيده مخراق فاذا رفع برقت واذا زجر رعدت واذا ضرب صعقت وعن ابن عباس قال اقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا اخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من ملائكة الله سبحانه موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث امره الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال صوته قالوا صدقت اخرجه الترمذي وغيره واخرج البخاري في الادب المفرد وابن ابي الدنيا في المطر وابن جرير عن

ابن عباس انه كان اذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له وقال ان الرعد ملك ينعق
بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه وقد روي نحو هذا عنه من طرق وعن ابي هريرة ان الرعد صوت
الملك وعن ابن عمر نحوه وعن ابن عباس قال الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه فاذا اشتد
زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه وعن ابي عمران الجوني قال ان
بحورا من نار دون العرش تكون منها الصواعق وعن السدي قال الصواعق نار ﴿وَيُسَبِّحُ
الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ سبحانه اي هيبته وجلاله وقيل من خيفة الرعد وقد ذكر جماعة من
المفسرين ان هؤلاء الملائكة هم اعوان الرعد وان الله سبحانه جعل له اعوانا ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه فيهلكه وسياق هذه الامور هنا للغرض الذي سيقت له
الايات التي قبلها وهو الدلالة على كمال قدرته والصواعق جمع صاعقة وهي العذاب النازل
من البرق وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار او عذاب او موت وهي في
ذاتها شيء واحد ينشأ منها قال الكرخي وامر الصاعقة عجيب جدا لانها نار تتولد في السحاب واذا
نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر واحرقت الحيتان قال محمد بن علي الباقر الصاعقة تصيب
المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿وَهُمْ﴾ اي الكفار المخاطبون في قوله هو الذي يريكم البرق
﴿يُجَادِلُونَ فِي شَأْنِ اللَّهِ﴾ فينكرون البعث تارة ويستعجلون بالعذاب اخرى ويكذبون الرسل و
يعصون الله وقيل الضمائر راجع الى من واعاد عليها الضمير جمعا باعتبار معناها ثم المجادلة المفاوضة
على سبيل المنازعة والمغالبة واصله من جدلت الحبل اذا احكمت فتله والجملة مستانفة ﴿وَهُوَ
شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ اي المماحلة والمكايدة لاعدائه من محل بفلان اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل
اذا تكلف استعمال الحيلة ولعل اصله المحل بمعنى القحط والجملة حالية من الجلالة الكريمة ويضعف
استينافها قال ابن الاعرابي المحال المكر والمكر من الله التدبير بالحق وقال النحاس المكر من الله ايصال
المكروه الى من يستحقه من حيث لا يشعر وقال الازهري المحال فعال من المحل بمعنى القوة والشدة
والميم اصلية وماحلت فلانا محالا اينا اشد وقال ابو عبيدة المحال العقوبة والمكروه قال الزجاج يقال
ماحلته محالا اذا قاويته حتى يتبين ايكما اشد والمحل في اللغة الشدة قال ابن قتيبة اي شديد
الكيد واصله مفعل من الحول او الحيلة جعل الميم كميم المكان واصله من الكون ثم يقال تمكنت فاعل

غير قياس ويعضده انه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال قال الازهري غلط
ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي اصلية واذا رأيت الحرف على مثال فعال اوله ميم مكسورة فهي اصلية
مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف وفي القاموس المحال ككتاب الكيد وروم الامر
بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعاداة كالمماحلة والقوة والشدة
والهلاك والاهلاك ومحل به مثلثة الحاء محلا ومحالا كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة
ومحالا حتى يتبين ايهما اشد انتهى وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا اقوال ثمانية الاول العداوة الثاني
الحول الثالث الاخذ وبه قال ابن عباس الرابع الحقد الخامس القوة السادس الغضب السابع الهلاك الثامن
الحيلة لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ الاضافة للملابسة اي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها
بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق والمعنى انها دعوة مجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه وقيل
الحق هو الله سبحانه والمعنى ان لله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب وقيل المراد بدعوة
الحق ههنا كلمة التوحيد والاخلاص والمعنى لله من خلقه ان يوحدوه ويخلصوا له وقيل معنى كونها
له تعالى انه شرعها وامر بها وجعلها افتتاح الاسلام بحيث لا يقبل بدونها وقيل دعوة الحق دعاؤه
سبحانه عند الخوف فانه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى ضل من تدعون الا اياه وقيل الدعوة العبادة
فان عبادة الله هي الحق والصدق والآلهة الَّذِينَ يَدْعُونَ بالياء متواترة وبالتاء شاذة لا من السبعة
ولا من العشرة وعليها فيقرأ كباسط بالتنوين مِنْ دُونِهِ اي غير الله عز وجل وهم الاصنام لَا يَسْتَجِيبُونَ اي لا يجيبون
لَهُمْ بِشَيْءٍ مما يطلبونه منهم كائنا ما كان إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ اي استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه
اليه من بعيد فانه لا يجيبه لانه جماد لا يشعر بحاجته اليه ولا يقدر ان يجيب دعاءه ولا يدري انه
طلب منه لِيَبْلُغَ فَاهُ بارتفاعه من البئر اليه ولهذا قال وَمَا هُوَ اي الماء بِبَالِغِهِ اي ببالغ فيه وقيل ما
الفم ببالغ الماء اذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال وقيل وما باسط كفيه الى الماء ببالغ الماء ذكره السمين
والاول اولى ا علم الله سبحانه ان دعاءهم الاصنام كدعاء العطشان الى الماء يدعوه الى بلوغ فمه وما الماء ببالغه
وقيل انه كباسط كفيه الى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه وقد ضربت العرب لمن سعى فيما
لا يدركه مثلا بالقبض على الماء وقال الفراء ان المراد بالماء هنا ماء البئر لانها معدن الماء وانه شبهه
بمن مد يده الى البئر بغير رشاء ضربه الله سبحانه مثلا لمن يدعو غيره من الاصنام عن علي قال كالرجل

العطشان يمد يده الى البئر ليرتفع الماء اليه وما هو ببالغه وعن ابن عباس قال هذا مثل المشرك
الذي عبد مع الله غيره فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر الى خياله في الماء من بعيد وهو يريد
ان يتناوله ولا يقدر عليه وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ اي عبادتهم الاصنام او حقيقة الدعاء والاول هو
الظاهر والثاني قول ابن عباس إِلَّا فِي ضَلَالٍ اي يضل عنهم ذلك الدعاء اذا احتاجوا اليه لان
اصواتهم محجوبة عن الله تعالى فلا يجدون منه شيئا ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ان كان المراد بالسجود معناه الحقيقي وهو وضع الجبهة على
الارض للتعظيم مع الخضوع والتذلل فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن واما في الكفار
فلا يصح تاويل السجود بهذا في حقهم فلا بد ان يحمل السجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود
ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره وجاء بمن تغليبا للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم
تبعا لسجودهم ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص فان سجود
الكفار لاصنامهم معلوم ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الامور التي يقرون على انفسهم بانها من
الله كالخلق والحياة والموت وغير ذلك او يفسر السجود بالانقياد لان الكفار وان لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون
لامره وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحيوة والموت والفقر والغنى ويدل على ارادة هذا المعنى قوله
طَوْعًا وَكَرْهًا فان الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا وهما منتصبان على المصدرية اي انقياد
طوع وانقياد كره او على الحال اي طائعين وراضين وكارهين غير راضين وقال الفراء الآية خاصة
بالمؤمنين فانهم يسجدون طوعا وبعض الكفار يسجدون اكراها بالسيف وخوفا كالمنافقين فالآية
محمولة على هؤلاء وقيل الآية في المؤمنين فمنهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود ومنهم من يثقل عليه
لان التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة ايمانا بالله واخلاصا له والمراد بالسجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية
وكل من فيهما من ملك وانس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى
ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والاول اولى وَظِلَالُهُمْ جمع ظل والمراد به من له ظل
منهم كالانسان لا الجن ولا الملك اذ لا ظل لهما والمراد سجوده حقيقة تبعا لصاحبه حيث صار لازما
لا ينفك عنه قال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله وقال ابن الانباري
ولا يبعد ان يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال افهاما حتى اشتغلت

للهدى والبيان بنزول المطر اذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الاودية بالقلوب اذ الاودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والايمان في قلوب المؤمنين ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ احتمل بمعنى حمل فافتعل بمعنى المجرد وانما نكر الاودية وعرف السيل لان المطر ينزل على المناوبة والسيل قد فهم من الفعل قبله وهو فسالت ﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزبد هو الابيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له الغثاء والرغوة وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها وقيل الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وسخ الدسم ونحوه وهو مجاز عما يعلو الماء من الغثاء والرابي العالي المرتفع فوق الماء قال الزجاج هو الطافي فوق الماء وقال غيره هو الزائد بسبب انتفاخه من ربى يربو اذا زاد والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فانه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح فكذلك يذهب الكفر ويضمحل وعن ابي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلاء والعشب الكثير وكان منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا واصاب طائفة منها اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك راسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به اخرجه البخاري ومسلم وقد تم هنا المثل الاول ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من لابتداء الغاية اي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء او للتبعيض بمعنى وبعضه زبد مثله والضمير للناس اضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره هذا على قراءة التحتية واختارها ابو عبيد وقرئ بالفوقية على الخطاب والمعنى ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الاجسام المتطرقة الذائبة وقدت النار وقدا من باب وعد وقودا والوقود بالفتح الحطب واوقدتها ايقادا ومنه على الاستعارة كلما اوقدوا نارا للحرب والوقد بفتحتين النار نفسها والموقد موضع الوقود ﴿ابْتِغَاءَ﴾ اي لطلب اتخاذ ﴿حِلْيَةٍ﴾ يتزينون بها ويتجملون كالذهب والفضة ﴿أَوْ﴾ لطلب ﴿مَتَاعٍ﴾ اخر يتمتعون به من الاواني والالات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ المراد بالزبد هنا الخبث فانه يعلو فوق ما اذيب من تلك الاجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود الى زبد الماء اي زبد مثل زبد الماء وجه المماثلة ان كلا منهما ناشئ من الاكدار ﴿كَذَلِكَ﴾

الضرب البديع يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطلَ اي لمثل الحق اي الايمان ولمثل الباطل اي الكفر فالحق هو الماء
والجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به ثم شرع في تقسيم المثل فقال
فَأَمَّا الزَّبَدُ بقسميه فَيَذْهَبُ جُفَاءً باطلا مرميا به يقال جفا الوادي غثاءه جفاء اذا رمى به اي
يرميه الماء الى الساحل ويرمي به الكير فلا ينتفع به والجفاء بمنزلة الغثاء وكذا قال ابو عمرو بن العلاء
وحكى ابو عبيدة انه سمع رؤبة يقرأ جفالا قال ابو عبيدة اجفلت القدر اذا قذفت بزبدها واجفلت
الريح السحاب اذا قطعته قال ابو حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لانه كان يأكل الفأر والمعنى يذهب
باطلا ضائعا اي ان الباطل وان علا في وقت فانه يضمحل ويذهب وقيل الجفاء المتفرق قاله
ابن الانباري يقال جفأت الريح السحاب اي قطعته وفرقته ووجه المماثلة بين الزبدين في الزبد
الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الاجسام المتطرقة ان تراب الارض لما خالط الماء وحمله معه
صار زبدا رابيا فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الاجسام المتطرقة فان
اصله من المعادن التي تنبت في الارض فيخالطها التراب فاذا اذيبت صار ذلك التراب الذي
خالطها خبثا مرتفعا فوقها وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ منها وهو الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه
الاجسام المذابة والذائب الخالص من الخبث فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ اي يثبت فيها ويبقى ولا يذهب اما
الماء فانه يسلك في عروق الارض فينتفع الناس به واما ما اذيب من تلك الاجسام فانه يصاغ
حلية وامتعة وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول ان الباطل وان ظهر على الحق
في بعض الاحوال وعلاه فان الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذي
يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الاجسام فانه وان علا عليها فان الكير يقذفه ويدفعه
فهذا مثل الباطل واما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الارض وكذلك الصفو من
هذه الاجسام فانه يبقى خالصا لا شوب فيه وهو مثل الحق قال الزجاج فمثل المؤمن واعتقاده ونفع
الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الارض وحياة كل شيء وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر
الجواهر لانها كلها تبقى منتفعا بها ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء وكمثل خبث الحديد
وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به وقد حكينا عن ابن الانباري فيما تقدم
انه شبه نزول القرآن الى آخر ما ذكرناه فحصل من ذلك مثلا ضربه الله للقرآن كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ

الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم في الإرشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا
التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول
أو بجعل ذلك إشارة إليهما جميعًا ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال
فيمن ضرب له مثل الحق لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ خبر مقدم أي أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده
وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه الْحُسْنَى مبتدأ مؤخر أي المثوبة الحسنى وهي الجنة وبه قال جمهور
المفسرين وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع والأول
أولى وهو قول ابن عباس وقال الزمخشري الذين متعلق بيضرب والحسنى نعت لمصدر محذوف
أي الاستجابة الحسنى والأول أحسن وأولى وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُ أي لدعوته إلى ما دعاهم إليه وهم الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه والموصول
مبتدأ والخبر عنه بثلاثة أخبار الأول الجملة الشرطية وهي لَوْ أَنَّ لَهُمْ أي يتمنون أن لهم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
من أصناف الأموال التي يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء وَمِثْلَهُ مَعَهُ
أي مثل ما في الأرض جميعًا كائنًا معه ومنضمًا إليه لَافْتَدَوْا بِهِ أي بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض
ومثله والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ثم بين سبحانه ما أعد لهم فقال
أُولَئِكَ يعني الذين لم يستجيبوا وهو خبر ثان للموصول لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ من إضافة الصفة للموصوف
أي الحساب السيئ وهو أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء قال الزجاج لأن كفرهم أحبط
أعمالهم وقال غيره هو المناقشة فيه وفي الحديث من نوقش الحساب هلك وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ أي
مرجعهم إليها وَبِئْسَ الْمِهَادُ أي المستقر الذي يستقرون فيه أو الفراش الذي يفرش لهم في جهنم
والمخصوص بالذم محذوف وهو خبر ثالث للموصول المتقدم أَفَمَنْ يَعْلَمُ الهمزة للإنكار على من يتوهم
المماثلة بين من يعلم وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ولا يؤمن به أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
أي ما أنزله الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن كَمَنْ هُوَ
أَعْمَى فإن الحال بينهما متباعد جدًا كالتباعد الذي بين الماء والزبد وبين الخبيث والخالص من تلك
الأجسام قيل نزلت في حمزة وأبي جهل ومع هذا فالأولى حمل الآية على العموم وإن كان السبب خاصًا
والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه وعن قتادة قال هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب

الله وعقلوا ودعوا وهؤلاء كمن هو اعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ
اي انما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين ويتعظ اهل العقول الصحيحة ثم وصفهم
بالاوصاف المادحة فقال الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ اي بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين
ربهم او فيما بينهم وبين العباد وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ الذي وثقوه على انفسهم واكدوه بالايمان
ونحوها وهذا تعميم بعد التخصيص لانه يدخل تحت الميثاق كل ما اوجبه العبد على نفسه كالنذور
ونحوها ويجوز ان يكون الامر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على ان يراد بالعهد جميع عهود
الله وهي اوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده على السنة الرسل في الكتب الالهية ويدخل في
ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ويراد بالميثاق ما اخذه الله على عباده حين اخرجهم من
صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه واذ اخذ ربك من بني آدم الآية بان يؤمنوا اذا وجدوا
في الخارج ولا يكفروا قال قتادة ان الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ظاهره شمول كل ما امر الله بصلته ونهى عن قطعه من
حقوق الله وحقوق عباده ومنه الايمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرق بين احد منهم ويدخل تحت
ذلك صلة الارحام دخولا اوليا ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصل قرابة المؤمنين
الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرهم والذب عنهم
والشفقة عليهم وافشاء السلام وعيادة المرضى ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء
في السفر الى غير ذلك وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم واللفظ اوسع من ذلك اخرج الخطيب
وابن عساكر عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم
القيامة ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين يصلون الى سوء الحساب وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها
احاديث كثيرة وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل والخشية خوف يشوبه
تعظيم واجلال واكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وهو الاستقصاء
فيه والمناقشة للعبد فمن نوقش الحساب عذب ومن حق هذه الخيفة ان يحاسبوا انفسهم قبل
ان يحاسبوا وَالَّذِينَ صَبَرُوا قيل مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ الماضي
للتنبيه على انه ينبغي تحققه والمراد بالصبر الصبر على الاتيان بما امر الله به واجتناب ما نهى عنه وقيل على

الرزايا والمصائب وقيل عن الشهوات والمعاصي والاولى حمله على العموم كان يصبر ليقال ما اكمل صبره
واشد قوته على تحمل النوازل او لاجل ان لا يعاب على الجزع او لاجل ان لا تشمت به الاعداء ابتغاء وجه
ربهم اي ثوابه ورضاه مبتغاه ان يكون خالصا له لا شائبة فيه لغيره والصبر حبس النفس على ما
يقتضيه العقل والشرع وأقاموا الصلوة اي فعلوها في اوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في اذكارها
واركانها مع الخشوع والاخلاص والمراد بها الصلوات المفروضة وقيل اعم من ذلك وأنفقوا في
الطاعة مما رزقناهم اي بعضه سرا وعلانية المراد بالسر صدقة النفل والعلانية صدقة الفرض
وقيل السر لمن لم يعرف بالمال او لا يتهم بترك الزكوة والعلانية لمن كان يعرف بالمال ويتهم بترك
الزكوة والحمل على العموم اولى ويدرؤن بالحسنة السيئة اي يدفعون سيئة من اساء اليهم بالاحسان
اليه كما في قوله تعالى ادفع بالتي هي احسن او يدفعون بالعمل الصالح السيء فيمحوه او يدفعون الشر
بالخير او المنكر بالمعروف او الظلم بالعفو او الذنب بالتوبة او الحرمان بالاعطاء او القطع بالوصل او
الهرب بالانابة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور أولئك الموصوفون بالصفات المتقدمة
لهم عقبى الدار العقبى مصدر كالعاقبة والاضافة على معنى في اي العقبى المحمودة فيها قال الخطيب العقبى
الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير او شر والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة وقيل المراد
دار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين والنار للعصاة جنات عدن يدخلونها اي لهم جنات عدن
والعدن اصله الاقامة ثم صار علما للجنة من الجنان واسم المكان معدن مثال مجلس لان اهله يقيمون
عليه الصيف والشتاء او لان الجوهر الذي خلقه الله فيه عدن به قال القشيري وجنات عدن وسط
الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ولكن في صحيح البخاري وغيره اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس
فانه اوسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة وعن ابن مسعود قال جنات
عدن بطنان الجنة اي وسطها وعن الحسن ان عمر قال لكعب ما عدن قال هو قصر في الجنة لا يدخله
الا نبي او صديق او شهيد او حكم عدل وأخرج ابن مردويه عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان ومن صلح اي امن في الدنيا قاله مجاهد من
آبائهم اي اصولهم وهي تشمل الآباء والامهات ومن ابيك الجنس وأزواجهم اللاتي متن في عصمتهم وذرياتهم
ويدخلها هؤلاء الفرق الثلاث وان لم تعمل باعمالهم تكرمة لهم قال ابن عباس [illegible]

فليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات منها او ماتت عنه وذكر الصلاح دليل على انه لا يدخل الجنة الا من كان كذلك من قرابات اولئك ولا ينفع مجرد كونه من الاباء او الازواج او الذرية بدون صلاح ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات للتهنيه وقيل بل هو في اول دخولهم قاله السيوطي قال في الحل والتقييد هذا لم نره لغيره من المفسرين بل في كلام غيره ما يدل على عدمه ﴿مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ اي من جميع ابواب القصور والمنازل التي يسكنونها او من كل باب من ابواب الجنة او من كل باب من ابواب التحف والهدايا من الله سبحانه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ اي قائلين سلام عليكم فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه اي سلمتم من الافات او دامت لكم السلامة وقيل دعاء لهم من الملائكة اي سلمكم الله تعالى ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ اي بسبب صبركم في الدنيا على الافات وهو متعلق بالسلامة اي انما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم او متعلق بعليكم او بمحذوف اي هذه الكرامة بسبب صبركم وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ اي نعم ما اعقبكم الله من الدنيا الجنة اخرج احمد والبزار وابن جرير وابن ابي حاتم وابن حبان وابو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وابو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الايمان عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت احدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك افتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم قال الله ان هؤلاء عبادي كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت احدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وفي القرطبي عن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم اهل الصبر فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة فتقول الى اين فيقولون الى الجنة قالوا قبل الحساب قالوا نعم فيقولون من انتم فيقولون نحن اهل الصبر قالوا وما كان صبركم قالوا صبرنا انفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا قال علي بن الحسين فتقول لهم الملائكة سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار اي فنعم عاقبة الدار

علوكنتم فيها وعلم فيها ما حصل لكم هذا الذي انتم فيه فالعقبى على هذا اسم ظاهر وهي الدار وقال ابو عمران الجوني اي الجنة عن النار بعضهم الجحيم وعنه الجنة عن الدنيا وبالجملة فقد جاءتهما بخيرا الجزاء المتضمنة لمدح ما اعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق ثم اتبع احوال السعداء باحوال الاشقياء فقال ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما اوثقوه به من الاعتراف والقبول بقولهم بلى ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الايمان والرحم وغير ذلك وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الاوصاف المتقدمة لدخولها في النقض والقطع ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي والاضرار بالانفس والاموال ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿اللَّعْنَةُ﴾ اي الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ اي سوء عاقبة دار الدنيا وهي النار او عذاب النار ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ اي يوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ اي لمن كان كافرا استدراجا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ اي ويقتره على من كان مؤمنا ابتلاء وامتحانا وتكفيرا لذنوبه ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الاهانة ومعنى يقدر يضيق ومنه ومن قدر عليه رزقه اي ضيق وقيل معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية وقرأ السبعة يقدر بكسر الدال وهو افصح واستعمل بالضم ايضا على ما في الصحاح ومعنى الآية انه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ﴿وَفَرِحُوا﴾ اي مشركوا مكة ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرح بطر لا فرح سرور والفرح لذة تحصل في القلب عند حصول المشتهى وجهلوا ما عند الله والجملة مستأنفة لبيان قبح افعالهم مع ما وسعه عليهم وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام قيل وفي هذه الآية تقديم وتأخير والتقدير ويفسدون في الارض وفرحوا بالحيوة الدنيا والاول اولى لانه ماض وما قبله مستقبل وقيل العطف على ينقضون ولا يصح لانه يستلزم تخلل الفاصل بين ابعاض الصلة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ اي بالنسبة اليها وفي جنبها ففي هنا المقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وليست ظرفا للحيوة ولا للدنيا لانهما لا يكونان في الآخرة ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ اي ما هي الا شيء يستمتع به وقيل المتاع واحد الامتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما وقيل المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار اذا ارتفع فلابد من زوال وقيل زاد كزاد الراكب يتزود منها الى الآخرة وقال عبد الرحمن بن سابط كزاد الراعي يزوده اهله الكف من التمر والشيء من الدقيق

أو الشيء يشرب عليه اللبن وعن ابن عباس قال كان الرجل يخرج في الزمان الأول في ابله او غنمه فيقول لاهله متعوني فيمتعونه فلقة الخبز او التمر فهذا مثل ضربه الله الدنيا واخرج الترمذي وصححه عن ابن مسعود قال نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد اثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك فقال مالي وللدنيا ما انا في الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها واخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن المستورد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل احدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع واشار بالسبابة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اي المشركون من اهل مكة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ اي على محمد ﴿آيَةٌ﴾ اي معجزة مثل معجزة موسى وعيسى عليهما السلام ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة وقد تقدم تفسير هذا قريبا وتكرر في مواضع ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ امره الله سبحانه ان يجيب عليهم بهذا وهو ان الضلال بمشيئة الله سبحانه من شاء ان يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون لولا انزل عليه آية من ربه ولا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وان انزلت كل آية فان ذلك في اقصى مراتب المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ اي الى الحق او الى الاسلام او الى جنابه عز وجل ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ اي رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه واصل الانابة الدخول في نوبة الخير كذا قاله النيسابوري والمعنى انهم هم الذين هداهم الله وانابوا اليه او هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ اي تسكن عن القلق والاضطراب وتستأنس بذكره سبحانه بالسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد او بسماع ذلك من غيرهم عبر بالمضارع لان الطمانينة تتجدد بعد الايمان حينا بعد حين قاله الشهاب ثم قال الكرخي المضارع قد يلاحظ فيه زمان معين من حال او استقبال فيدل اذ ذاك على الاستمرار ومنه الآية انتهى قال في الجمل وهذا ينفع في مواضع كثيرة وقد سمى الله سبحانه القرآن ذكرا قال وهذا ذكر مبارك انزلناه وقال انا نحن نزلنا الذكر قال الزجاج اي اذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وقيل الذكر هنا الطاعة وقيل بوعد الله وقيل بالحلف بالله فاذا حلف خصمه بالله سكن قلبه قاله السدي وقيل بذكر رحمته وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده وقال قتادة هشت اليه واستأنست به وقال مجاهد بمحمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ولا مانع من حمل الآية على جميعها ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وحده دون غيره

من الامور التي تميل اليها النفوس من الدنيويات تطمئن القلوب والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع
صنعه وان كان يفيد طمانينة في الجملة لكن ليست كهذه الطمانينة وكذلك النظر في المعجزات من الامور
التي لا يطيقها البشر فليس افادتها الطمانينة كافادة ذكر الله فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر
واما قوله تعالى في الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمينان
فالمعنى انهم اذا ذكروا العقوبات وجلوا واذا ذكروا المثوبات سكنوا اخرج ابو الشيخ عن انس قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه حين نزلت هذه الآية هل تدرون ما معنى ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال
من احب الله ورسوله واحب اصحابي واخرج ابن مردويه عن علي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت
هذه الآية قال ذاك من احب الله ورسوله واحب اهل بيتي صادقا غير كاذب واحب المؤمنين شاهدا
وغائبا الا بذكر الله يتحابون الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مبتدأ خبره جملة طُوبَى لَهُمْ وجاز الابتداء
بطوبى اما لانها علم لشيء بعينه واما لانها نكرة في معنى الدعاء كسلام عليك وويل له قال ابو عبيدة
والزجاج واهل اللغة طوبى فعلى من الطيب فهو يائي واصله طيبى قال ابن الانباري وتاويلها الحال
المستطابة وقيل طوبى شجرة في الجنة وقيل هي الجنة وقيل هي البستان بلغة الهند وقيل هي اسم الجنة
بالحبشية وقيل معناه حسنى لهم وقيل خير لهم وقيل كرامة لهم وقيل غبطة لهم قال النحاس وهذه الاقوال
متقاربة واللام في لهم للبيان مثل سقيا لك ورعيا لك قال الازهري تقول طوبى لك وطوباك لحن
لا تقوله العرب وهو قول اكثر النحويين وقيل هو مصدر من طاب كبشرى ورجعى وزلفى والمصدر
قد يجيء على وزن فعلى ومعناه اصبت خيرا وطيبا وقيل هي شجرة في جنة عدن تظلل الجنان كلها
وقال ابن عباس طوبى لهم فرح لهم وقرة اعين وقال عكرمة نعمى لهم وقد روي عن جماعة من السلف نحو
ما قدمنا ذكره من الاقوال والارجح تفسير الآية بما روي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم كما اخرجه احمد وابن
جرير وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن عتبة بن عبد قال جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال يا رسول الله في الجنة فاكهة قال نعم فيها شجرة تدعى طوبى الحديث واخرج احمد وابو يعلى وابن جرير
وابن ابي حاتم وابن حبان والخطيب في تاريخه عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال
يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن آمن بي ورآني ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني
فقال رجل وما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وفي الباب احاديث

وأما ما روي عن السلف فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفي بعض الالفاظ انها شجرة
الخلد وفي بعضها شجرة غرسها الله بيده وَحُسْنُ مَآبٍ من آب اذا رجع اي ولهم حسن مرجع وهو الدار
الآخرة وهي الجنة قال السدي حسن منقلب وعن الضحاك مثله كَذَلِكَ اي مثل ذلك الارسال
العظيم الشان المشتمل على المعجزة الباهرة أَرْسَلْنَاكَ يا محمد ارسالا له شان وقيل شبه الانعام على
من ارسل اليه محمد صلى الله عليه وسلم بالانعام على من ارسل اليه الانبياء قبله وقيل كما هدينا الله من اناب كذلك
ارسلناك وقال ابن عطية الذي يظهر لي ان المعنى كما اجرينا العادة بان الله يضل ويهدي لا
بالآيات المقترحة فكذلك ايضا فعلنا في هذه الامة ارسلناك اليها بوحي لا بالآيات المقترحة و
قال ابو البقاء كذلك الامر كذلك وقال الحوفي اي كفعلنا الهداية والاضلال والاشارة بذلك الى
ما وصف به نفسه من ان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وكل ذلك فيه تكلف وبعد والاول اظهر ولكن
فِي أُمَّةٍ اي قرن وجماعة كثيرة قَدْ خَلَتْ مضت مِنْ قَبْلِهَا اي قبل الامة أُمَمٌ قرون او في جماعة من
الناس قد مضت من قبلها جماعات لِتَتْلُوَ لتقرأ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ اي القرآن والحال
ان هُمْ يَكْفُرُونَ او استيناف والضمير في وهم عائد على امة من حيث المعنى ولو عاد على لفظها لقيل وهي تكفر و
قيل على امة وعلى امم وقيل على الذين قالوا لولا انزل بِالرَّحْمَنِ اي بالكثير الرحمة لعباده ومن رحمته لهم
ارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه وما ارسلناك الا رحمة للعالمين عن قتادة قال ذكر لنا ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم فقالت قريش اما
الرحمن فلا نعرفه وكان اهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فقال اصحابه دعنا نقاتلهم فقال لا ولكن
اكتبوا كما يريدون وعن ابن جريج في هذه الآية نحوه وقيل حيث قالوا لما امروا بالسجود له وما الرحمن كما ذكر
في سورة الفرقان بقوله لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهذه الآية متقدمة على ما هنا في النزول وان
تاخرت عنها في المصحف والتلاوة وقال ابن العربي انما عبر بالرحمن دون لفظ الله اشارة الى جهلهم بالصفة دون الموصوف
ثم عجبوا من امره بذلك منكرين عليهم بقولهم انسجد لما تامرنا وقيل غير ذلك قُلْ هُوَ رَبِّي مستانفة بتقدير
سؤال كانهم قالوا وما الرحمن فقال سبحانه قل يا محمد هو ربي اي خالقي الذي انكرتم معرفته لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اي
لا يستحق العبادة له والايمان به سواه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في جميع اموري وَإِلَيْهِ لا الى غيره متاب اي توبتي فالله

مجاهد وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول في الاسلام ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ﴾ اي بانزاله وقراءته ﴿الْجِبَالُ﴾ عن محل استقرارها وانتقلت عن اماكنها واذهبت عن وجه الارض قيل هذا متصل بقوله لولا انزل عليه آية من ربه وان جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يسير لهم جبال مكة حتى تفسح فانها ارض ضيقة فامره الله سبحانه بان يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به واصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الالهية من عدم انزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ اي صدعت وشققت حتى صارت قطعا متفرقة من خشية الله عند قراءته وجعلت انهارا وعيونا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ اي صاروا احياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الاحياء وقد اختلف في جواب لو فقيل لكان هذا القرآن وقيل لكفروا بالرحمن اي لو فعل لهم هذا وقيل لما آمنوا كما سبق في قوله وما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله وقيل التقدير وهم يكفرون بالرحمن لو ان قرآنا الخ وكثيرا ما تحذف العرب جواب لو اذا دل عليه سياق الكلام وتذكير كلم خاصة دون الفعلين قبله لان الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء احسن والجبال والارض ليستا كذلك قاله الكرخي قال ابن عباس قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان كان كما تقول فارنا اشياخنا الاول من الموتى نكلمهم وافسح لنا هذه الجبال فنزلت هذه الآية وعن عطية العوفي قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها او قطعت لنا الارض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح او احييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه فانزل الله هذه الآية ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ اي لو ان قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء ان يؤمنوا لآمنوا واذا لم يشأ ان يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات فالاضراب متوجه الى ما يؤدي اليه كون الامر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الامر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على ان هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الكلبي يعني الم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح وقيل هي لغة هوازن وبهذا قال جماعة من السلف قال ابو عبيدة افلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج وهو مجاز لان اليائس من الشيء عالم بانه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما اياهما وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين افلم يتبين بطريق التفسير فتعمل الآية على هذا افلم يعلموا ﴿أَنْ﴾ اي انه ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

من غير أن يشاهدوا الآيات ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والمعنى أنه تعالى لم يهد جميع الناس لعدم مشيئته لذلك وقيل إن الإياس على معناه الحقيقي أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم قال ابن عباس لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل وقال ييأس يعلم وعن ابن زيد نحوه وعن أبي العالية قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً وفيه دلالة على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلق

﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ هذا وعيد للكفار على العموم وللكفار مكة على الخصوص أي لا يزال تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل والأعمال الخبيثة داهية تفجأهم وتهلكهم وتستأصلهم يقال قرعه الأمر إذا أصابه والجمع قوارع والأصل في القرع الضرب والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية والمعنى أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم نازلة وداهية مهلكة من قتل وأسر أو جدب أو حرب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل إن القارعة النكبة وقيل الطلائع والسرايا قاله ابن عباس ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك ﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم وقيل إن الضمير في تحل للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى أو تحل أنت يا محمد مكاناً قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف والأول بين وأظهر ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم فإنه إذا جاء وعد الله المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة وقيل المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار والنصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقال ابن عباس فتح مكة وكان في الثامنة وحج في العاشرة ولم يحج غيرها والأول أولى ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة ﴿ولقد استهزئ برسل﴾ التنكير للتكثير أي برسل كثيرة ﴿من قبلك﴾ كما استهزئ بك وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ الإملاء الإمهال مدة طويلة من الزمان في دعة وأمن وقد مر تحقيقه في آل عمران ﴿ثم أخذتهم﴾ في الدنيا بالعذاب الذي أنزلته بهم من القحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار ﴿فكيف كان عقاب﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد أي فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل فأمليت لهم ثم أخذتهم

هل كان ظلماً لهم او كان عدلاً اي هو واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزئ بك ثم استفهم سبحانه
استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والازراء عليهم فقال
افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت القائم الحفيظ والمتولي للامور واراد سبحانه نفسه فانه المتولي
لامور خلقه المدبر لاحوالهم بالآجال والارزاق واحصاء الاعمال على كل نفس من الانفس كائنة ما كانت
والجواب محذوف اي افمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر
قال الفراء كانه في المعنى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله
والمراد من الآية انكار المماثلة بينهما وقيل المراد بالقائم الملائكة الموكلون ببني آدم والاول اولى وبه
قال ابن عباس وقال عطاء الله قائم بالقسط والعدل على كل نفس وجعلوا لله شركاء استئناف
وهو الظاهر جيء به للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم وقيل الواو للحال واقيم الظاهر مقام المضمر
تقريراً للالهية وتصريحاً بها وقيل عطف على استهزئ اي ولقد استهزؤا وجعلوا وقال ابو البقاء
معطوف على كسبت اي وبجعلهم لله شركاء والاول اولى قل سموهم اي عينوا حقيقتهم من اي
جنس ومن اي نوع وما اسماؤهم وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ لانه انما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي
لا يستحق ان يلتفت اليه فيقال سمه ان شئت يعني انه احقر من ان يسمى وقيل ان المعنى صفوهم
وبينوا اوصافهم بما يستحقون ويستاهلون به ثم انظروا هل هي اهل لان تعبد وقيل المعنى سموهم
بالآلهة كما تزعمون فيكون ذلك تهديداً لهم ام تنبئونه اي بل اتنبئون الله بما لا يعلم في الارض
من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والارض وانما خص الارض بنفي الشريك
عنها وان لم يكن له شريك في غير الارض ايضاً لانهم ادعوا له شركاء فيها ام اي بل تسمونهم شركاء
بظاهر من القول من غير ان يكون له حقيقة كتسمية الزنجي كافوراً وقيل المعنى قل لهم اتنبئون الله
بباطن لا يعلمه ام بظاهر يعلمه فان قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤا بدعوى باطلة وان قالوا
بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم فاذا سموا اللات والعزى ونحوهما فقل لهم ان الله لا يعلم لنفسه شريكاً وقيل
المعنى ام بزائل من القول باطل قاله مجاهد وقيل بكذب من القول وقيل بظن باطل لا حقيقة له والاول اولى
وقيل المعنى بحجة من القول ظاهرة على زعمهم قال الطيبي في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من
علم البيان اولها افمن هو قائم احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما

ثانيها وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على انهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا شارك له اصلا في اسمه
ثالثها قل سموهم اي عينوا اسماءهم فتقولوا فلان وفلان فهو انكار لوجودها على وجه برهاني كما تقول ان كان
الذي تدعيه موجودا فسمه لان المراد بالاسم العلم رابعها ام تنبئونه بما لا يعلم احتجاج من باب نفي الشيء اعني
العلم بنفي لازمه وهو المعلوم وهو كناية خامسها ام بظاهر من القول احتجاج من باب الاستدراج والهمزة
للتقرير لبعثهم على التفكر المعنى اتقولون بافواهكم من غير روية وانتم الباء فتفكروا فيه لتقفوا على
بطلانه سادسها التدريج في كل من الاضرابات على الطف وجه وحيث كانت الآية مشتملة على هذه
الاساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالاعجاز وانه ليس من كلام
البشر انتهى بَلْ اضراب عن محاجتهم بالكلية فكانه قيل دع ذا فانه لا فائدة فيه لانه زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ
قرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على ان الذي زين لهم ذلك هو مكرهم وقرأ غيره على البناء للمفعول
والمزين هو الله سبحانه او الشيطان بالقاء الوسوسة ويجوز ان يسمى الشرك كفرا لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
كان كفرا واما معناه الحقيقي فهو الكيد او التمويه بالاباطيل ليه كيدهم للاسلام بشركهم وَصُدُّوا عَنِ
السَّبِيلِ اي صدهم الله او صدهم الشيطان او صدوا غيرهم عن الايمان قراءتان سبعيتان وقد يستعمل
لازما بمعنى اعرض وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ اي يجعله ضالا او يقتضي شيمته اضلاله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يهديه
الى الخير وقرأ الجمهور هاد من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة وقرئ باثباتها على اللغة
القليلة وهما سبعيتان ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بما يصابون به
من القتل والاسر وانواع المحن وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ عليهم من عذاب الحيوة الدنيا واشد واغلظ
لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي
هو الصدع وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ يقيهم عذابه ولا عاصم يعصمهم منه ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه
الكفار من العذاب في الاولى والاخرى ذكر ما اعده للمؤمنين فقال مَثَلُ الْجَنَّةِ اي صفتها العجيبة
الشأن التي هي في الغرابة كالمثل قال ابن قتيبة المثل الشبه في اصل اللغة ثم قد يصير بمعنى صورة
الشيء وصفته يقال مثلت لك كذا اي صورته ووصفته فاراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها
الانهار من تحتها كالتفسير للمثل قال سيبويه وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقال الفراء المثل
مقحم للتاكيد والمعنى الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار والعرب تفعل ذلك كثيرا وقال الخليل

وغيره ان مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري وقال الزجاج انه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة
جنة تجري من تحتها الانهار وقال عكرمة نعت الجنة ليس للجنة مثل وقيل ان فائدة الخبر ترجع الى قوله
أُكُلُهَا اي ما يؤكل فيها دَآئِمٌ اي لا ينقطع ابدا ولا يفنى ومثله قوله تعالى لا مقطوعة ولا ممنوعة قال ابراهيم
التيمي لذاتها دائمة في افواههم وقيل دائم بحسب نوعه فكل شيء اكل يجيء غيره لا بحسب شخصه
اذ عين الماكول لا ترجع وَظِلُّهَا كذلك دائم لا يتقلص ولا ينسخه الشمس لانه ليس في الجنة شمس ولا قمر
ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول وفي الآية رد على جهم واصحابه فانهم يقولون ان نعيم
الجنة يفنى وينقطع وفيها دليل على ان حركات اهل الجنة لا تنتهي الى سكون دائم كما يقوله ابو الهذيل
واستدل عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد ويرده قوله تعالى اعدت للمتقين
الى غير ذلك من الآيات والاخبار الصحيحة تِلْكَ الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة وهو مبتدأ
خبره عُقْبَى اي عاقبة الَّذِينَ اتَّقَوا المعاصي اي مآلهم ومنتهى امرهم وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ليس لهم
عاقبة ولا منتهى الا ذلك وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ اي التوراة والانجيل يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
يا محمد وهم من اسلم من اهل الكتابين لكون ذلك موافقا لما في كتبهم مصدقا له وعلى هذا يكون المراد بقوله
وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ من لم يسلم من اليهود والنصارى وعلى الثاني يكون المراد به
المشركين من اهل مكة ومن يماثلهم او يكون المراد به بعض اهل الكتابين اي من احزابهما فانهم
انكروه لما اشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ما هو موافق
لما في الكتابين وانكار من انكر منهم الى ما خالفهما وقيل المراد بالكتاب القرآن و المراد بمن يفرح
به المسلمون والمراد بالاحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واليهود والنصارى
والمراد بالبعض الذي انكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم واعترض على هذا
بان فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره واجيب عنه بان المراد زيادة الفرح
والاستبشار بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت وقال كثير من المفسرين ان
عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من اهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة
ذكره في التوراة فانزل الله قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ففرحوا بذلك قال قتادة الذين يفرحون
اولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرحوا بكتاب الله وصدقوا به وبرسله والاحزاب اليهود والنصارى

والمجوس وقال ابن زيد هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب يفرحون بذلك ومنهم
من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والانكار للبعض
صرح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وامر ان يقول لهم ذلك فقال قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وحده
وَلَا أُشْرِكَ بِهِ بوجه من الوجوه اي قل لهم يا محمد ذلك الزاما للحجة ورداً للانكار انما امرت فيما انزل الي بعبادة
الله وتوحيده وهذا امر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم انكاره جميع الملل المقتدية بالرسل
إِلَيْهِ اي الى الله لا الى غيره أَدْعُو او الى ما امرت به وهو عبادة الله وحده والاول اولى لقوله وَإِلَيْهِ مَآبِ
فان الضمير لله سبحانه اي اليه وحده لا الى غيره مرجعي يوم القيامة للجزاء قال قتادة اليه مصير كل
عبد ثم ذكر بعض فضائل القرآن واوعد على الاعراض عن اتباعه مع التعريض لرد ما انكروه من
اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال وَكَذَٰلِكَ الانزال البديع أَنزَلْنَاهُ اي القرآن مشتملا على اصول
الشرائع وفروعها وقيل المعنى وكما انزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ولسانهم كذلك انزلنا عليك
القرآن بلسان العرب حُكْمًا عَرَبِيًّا يريد بالحكم ما فيه من الاحكام والنقض والابرام او انزلناه حكمة
عربية مترجمة بلسان العرب ولغتها ليسهل عليهم فهمها وحفظها وتحكم بها بين الناس فيما يقع لهم
من الحوادث الفرعية وان خالفت ما في الكتب القديمة اذ لا يجب عليك توافق الشرائع وَلَئِنِ اللام
هي الموطئة للقسم اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه
الى قبلتهم وعدم مخالفة الشيء مما يعتقدونه بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ الذي علمك الله اياه مَا لَكَ
ساد مسد جواب القسم والشرط مِنَ اللَّهِ اي من جنابه مِن وَلِيٍّ يلي امرك وينصرك وَلَا وَاقٍ
يقيك من عذابه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض لامته لان من هو ارفع منزلة واعظم قدراً
واعلى رتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَ
جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً اي ان الرسل الذين ارسلناهم من جنس البشر لهم ازواج من النساء
ولهم ذرية توالدوا منهم ومن ازواجهم ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون
لهم ذرية وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجه بالنساء اي ان هذا شان رسل الله
المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه فانه قد كان لسليمان ثلثمائة امرأة و
سبعمائة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لابيه داؤد مائة امرأة وكانوا ينكرون عليه ما كانوا يشهدون

فكيف يجعل هذا قادحا في نبوتك وعن الحسن عن سمرة قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل اخرجه ابن ماجة والطبراني وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه وعن سعد بن هشام قال دخلت على عائشة وقلت اني اريد ان اتبتل قالت لا تفعل اما سمعت الله يقول ولقد ارسلنا رسلا الآية اخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف وقد كان لرسول الله صلعم سبعة اولاد اربع اناث وثلاثة ذكور وكانوا في الترتيب في الولادة هكذا القاسم فزينب فرقية ففاطمة فام كلثوم فعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر فابراهيم وكلهم من خديجة الا ابراهيم فمن مارية القبطية وماتوا جميعا في حياته الا فاطمة فعاشت بعده ستة اشهر وَمَا كَانَ اي لم يكن لِرَسُولٍ من الرسل أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ من الآيات إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ سبحانه فان شاء اظهرها وان شاء لم يظهرها وليس ذلك الى الرسول لان الرسل مربوبون ومقهورون ومغلوبون محكوم عليهم متصرف فيهم بتدبير امرهم لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ اي لكل امر مما قضاه الله ولكل وقت من الاوقات التي قضى الله بوقوع امر فيها كتاب لله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم وقال الفراء فيه تقديم وتاخير والمعنى لكل كتاب اجل اي لكل امر كتبه الله اجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه لكل نبأ مستقر وليس الامر على ارادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاؤه الله ويختاره وفيه رد لاستعجالهم الآجال والاعمار واتيان المعجزات والعذاب فقد كان يخوفهم بذلك فاستعجلوه عنادا فرد الله عليهم ذلك والمراد بالاجل هنا ازمنة الموجودات فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص والمراد بالكتاب صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ او اللوح نفسه يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ اي يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه يقال محوت الكتاب محوا اذا اذهبت اثره قرئ مخففا ومشددا وعن مجاهد قال قالت قريش حين انزل هذه الآية ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ الامر فانزلت هذه الآية تخويفا لهم ووعيدا لهم اني ان شئنا احدثنا له من امرنا ما شئنا ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من ارزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم وقال ابن عباس ينزل الله في كل شهر رمضان الى سماء الدنيا فيدبر امر السنة الى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والموت وعنه قال هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل

بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله وقال ايضاً هما كتابان يمحو الله ما يشاء من
احدهما ويثبت وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة
او سعادة او رزق او عمر او خير او شر ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا لا يسأل عما يفعل
وهم يسألون والى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وابو وائل وقتادة
والضحاك وابن جريج وغيرهم وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة وقيل يمحو ما يشاء من
ديوان الحفظة وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب وقيل يمحو ما يشاء من الرزق وقيل
من الاجل وقيل من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده
ويترك ما يشاء وقيل يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة وقيل
يمحو الآباء ويثبت الابناء وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة
وقيل يمحو ما يشاء من الارواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده الى
صاحبه وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة وقيل غير ذلك مما
لا حاجة الى ذكره والاول اولى كما يفيده ما في قوله ما يشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله لكل
اجل كتاب ومع قوله وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ اي جملة الكتاب قال ابن عباس والمعنى اصله وهو اللوح
المحفوظ والام اصل الشيء والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشيء اماً له ومنه ام الراس للدماغ
وام القرى لمكة فالمراد من الآية انه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما
فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما يقتضيه مشيئته وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم
من قوله جف القلم بما هو كائن وذلك لان المحو والاثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه وقيل ان
ام الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق قال ابن عباس ان لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة
من درة بيضاء له دفتان من ياقوت والدفتان لوحان لله كل يوم ثلاث وستون لحظة يمحو الله
ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وعن ابي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل
في ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الاولى منها ينظر في الذكر الذي
لا ينظر فيه احد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت الحديث اخرجه الطبراني وابن ابي حاتم وغيرهما
واخرج الطبراني باسناد قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يمحو الله

ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات وعن ابن عباس قال لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر وقال قيس بن عباد العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء وعن عمر بن الخطاب انه قال وهو يطوف بالبيت اللهم ان كنت كتبت علي شقوة او ذنبا فامحه فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب واجعله سعادة ومغفرة وعن ابن مسعود نحوه قيل ام الكتاب الذكر قاله ابن عباس وقد استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية وقالوا انه جائز على الله وهو ظاهر الفساد لان علمه سبحانه صفة قديمة ازلية لا يتطرق اليه التغيير والتبديل والمحو والاثبات من معلوماته الازلية وليسا من البداء في شيء وقد علم ما هو خالق وما خلق وما هم يعملون وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ما زائدة واصله وان نرك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ به من العذاب في حياتك كما وعدناهم بذلك بقولنا لهم عذاب في الحياة الدنيا وبقولنا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والمراد ارينك بعض ما نعدهم قبل موتك وجواب الشرط محذوف اي فذلك شافيك من اعدائك ودليل على صدقك أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ اي او توفيناك قبل اراءتك لذلك وجوابه ايضا محذوف اي فلا تقصير منك ولا لوم عليك وقوله فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ تعليل لهذا المحذوف والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ اي ليس عليك الا تبليغ احكام الرسالة ولا يلزمك حصول الاجابة منهم لما بلغته اليهم وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ اي محاسبتهم اذا صاروا الينا يوم القيامة باعمالهم ومجازاتهم عليها وليس ذلك عليك وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم واخبار له انه قد فعل ما امره الله به وليس عليه غيره وان من لم يجب دعوته ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك أَوَلَمْ يَرَوْا يعني اهل مكة والاستفهام للانكار اي انكروا نزول ما وعدناهم او شكوا اولم ينظروا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ اي ارض الكفر كمكة نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا بما ينقص من اطراف المشركين ويزيد في اطراف المؤمنين قال الزجاج اعلم الله ان بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر قال الضحاك يقول اولم يروا انا فتحنا على المسلمين ارضا بعد ارض حوالي اراضيهم ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون وهذا قول قتادة وجماعة من المفسرين وقيل ان معنى الآية ننقصها بموت العلماء والصلحاء قال القشيري وعلى هذا فالاطراف الاشراف وقد قال ابن الاعرابي الطرف الرجل الكريم قال القرطبي وهذا القول بعيد لان مقصود الآية انا

اي بنا هم النقصان في امورهم ليعلموا ان تاخير العقاب عنهم ليس عن عجز الا ان يحمل على موت احبار
اليهود والنصارى قال الواحدي التفسير الاول اولى لان هذا القول وان صح فلا يليق بهذا الموضع
وبه قال الرازي وقيل المراد خراب الارض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها قاله ابن عباس
وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي وعطاء وجماعة من المفسرين اي نخربها ونهلك اهلها افلا
تخافون ان يفعل بكم ذلك وقيل المراد بالآية هلاك من هلك من الامم وقيل المراد جور ولاتها
حتى تنقص وقال قتادة موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار اهلها وعن مجاهد نحوه وقال
ابن عباس نقصان اهلها وبركتها وعنه انما تنقص الانفس والثمرات واما الارض فلا تنقص
وَاللّٰهُ يَحْكُمُ ما يشاء في خلقه فيرفع هذا ويضع هذا ويحيي هذا ويميت هذا ويغني هذا ويفقر هذا
وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الشريف والعلم الجليل من الدلالة على
الفخامة والتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى على ذي بصيرة لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِ اي لا راد لقضائه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه بالرد
والابطال قال الفراء معناه لا راد لحكمه قال والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه ولا يستدرك احد
عليه ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يتعقب غريمه بالطلب والمعنى انه حكم للاسلام بالاقبال
وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره ومحل لا مع المنفي النصب على الحال اي يحكم نافذا حكمه
خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب احد حكمه سبحانه ببعض ولا تغيير قال ابن زيد
ليس احد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب اهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
اي الانتقام فيحاسبهم بعد زمن قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل واخرجهم من ديارهم في
الدنيا فلا تستبطئ عقابهم فانه آت لا محالة وكل آت قريب وقد تقدم الكلام في معناه قيل هذا
والمعنى فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته على السرعة وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ اي قد مكر
الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن ارسله الله اليهم من الرسل فكادوهم وكفروا بهم والمكر ايصال
المكروه الى الانسان الممكور به من حيث لا يشعر مثل مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود
بعيسى وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث اخبره ان هذا ديدن الكفار من قديم
الزمان مع رسل الله سبحانه ثم اخبره بان مكرهم هذا كالعدم ولا تاثير له وان المكر كله لله لا اعتداد

بمكر غيره فقال ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ يعني عند الله جزاء مكرهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وامان له من مكرهم وقال الواحدي يعني جميع مكر الماكرين له ومنه اي هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته فاثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر فيجازيها على ذلك ومن علم ما تكسب كل نفس واعد لها جزاءها كان المكر كله له لانه ياتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ جميعهم وقرئ الكافر على التوحيد اي جنس الكافر وقيل المراد بالكافر ابو جهل ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ اي العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا او في دار الآخرة او فيهما ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اي المشركون او جميع الكفار خطابا وشفاها ﴿لَسْتَ﴾ يا محمد ﴿مُرْسَلًا﴾ الى الناس من عند الله فامره الله سبحانه بان يجيب عليهم فقال ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هو يعلم صحة رسالتي وصدق دعواي ويعلم كذبكم ﴿وَ﴾ كذا يعلم ذلك ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ اي علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والانجيل فان اهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اخبر بذلك من اسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الاحبار وتميم الداري ونحوهم وقد كان المشركون من العرب يسألون اهل الكتاب ويرجعون اليهم فارشدهم الله سبحانه في هذه الآية الى ان اهل الكتاب يعلمون ذلك وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون فانهم يشهدون ايضا على نبوته او المراد من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه قاله مجاهد وبه قال الحسن ومثله عن ابن عمر بسند ضعيف واختار هذا الزجاج وقال لان الاشبه ان الله لا يستشهد على خلقه بغيره عن جندب قال جاء عبد الله بن سلام حتى اخذ بعضادتي باب المسجد ثم قال انشدكم بالله اتعلمون اني الذي انزلت فيه ومن عنده علم الكتاب قالوا اللهم نعم وعن ابن عباس هم اهل الكتاب من اليهود والنصارى يشهدون بالحق ويعرفونه منهم ابن سلام والجارود وعن سعيد بن جبير ما نزل في ابن سلام شيء من القرآن كيف وهذه السورة مكية وعبد الله اسلم بالمدينة وعنه قال هو جبريل

سورة إبراهيم عليه السلام

هي مكية قاله ابن عباس والزبير والحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة الا آيتين منها وقيل

الا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة
الله كفرا الى قوله فان مصيركم الى النار وعن ابن عباس قال هي مكية سوى آيتين منها نزلتا في قتلى بدر
من المشركين وهي اثنتان وخمسون آية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر﴾ قد تقدم الكلام في امثال هذا
وبيان قول من قال انه متشابه وبيان قول من قال انه غير متشابه ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي
هذا القرآن ﴿أنزلناه إليك﴾ يا محمد ﴿لتخرج الناس﴾ بدعائك اياهم الى اتباع ما تضمنه الكتاب من التوحيد وغيره
واللام في لتخرج للغرض والغاية والتعريف في الناس للجنس والمعنى انه صلى الله عليه وسلم يخرج الناس بالكتاب
المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه ﴿من الظلمات﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل و
الضلالة ﴿إلى﴾ ما صاروا اليه ﴿من النور﴾ أي نور الايمان والعلم والهداية قال الرازي فيه دليل على ان طرق
الكفر والبدعة كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه عبر عنها بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن
الحق بالنور وهو لفظ مفرد جعل الكفر بمنزلة الظلمات والايمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة و
قيل ان الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة وقيل من الشك الى اليقين ولا مانع من ارادة
جميع هذه الامور واسند الفعل الى النبي صلى الله عليه وسلم لانه الداعي والهادي والمنذر ﴿بإذن ربهم﴾ أي
بامره وعلمه وتيسيره وتسهيله قال الزجاج أي بما اذن لك من تعليمهم ودعائهم الى الايمان ﴿إلى
صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا أي لتخرج الناس من الظلمات
الى صراط العزيز الحميد وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها الله لعباده وامرهم بالمصير اليها والدخول فيها
ويجوز ان يكون مستأنفا كانه قيل ما هذا النور الذي اخرجتهم اليه فقيل صراط العزيز الحميد ولانه نود
في نفسه طريق للخلود في الجنة للمؤيد واضافة الصراط الى الله تعالى لانه المظهر له واما تخصيص
الوصفين انه لا يذل سالكه ولا يخيب قاصده والعزيز هو القادر الغالب الغني عن جميع الحاجات
والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد ﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجر على
انه عطف بيان لكونه من الاعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لان العلم لا يوصف به وقيل يجوز
ان يوصف به من حيث المعنى وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أي هو الله المتصف
بملك ما فيهما خلقا وملكا وعبيدا وكان يعقوب اذا وقف على الحميد رفع واذا وصل خفض قال ابن
الانباري من خفض وقف على وما في الارض ثم ترحم على من لا يعترف بربوبيته فقال ﴿وويل للكفر﴾

ومن عذاب شديد بهم في الآخرة وقد تقدم بيان معنى الويل واصله النصب كسائر المصادر ثم رفع
للدلالة على الثبات قال الزجاج هي كلمة تقال للعذاب والهلكة فدعى سبحانه وتعالى بذلك على من
لم يخرج من الكفار بهداية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما انزل الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور
الايمان وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به منها اليه بالويل وهو نقيض الوأل اي النجاة والويل واد في
جهنم ومن بيانية وقيل الويل بمعنى التأوه فمن للتعدية اي يولولون ويضجون من العذاب الشديد
الذي صاروا فيه قائلين يا ويلاه ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله الذين يستحبون الحيوة الدنيا اي
يؤثرونها لمحبتهم لها على الآخرة الدائمة والنعيم الابدي ويصدون اي يصرفون الناس عن سبيل الله
اي عن دينه الذي شرعه لعباده ويبغونها اي السبيل عوجا اي يطلبون لها زيغا وميلا وعدولا
وانحرافا عن الحق لموافقة اهوائهم وقضاء حاجاتهم واغراضهم وقيل الهاء راجعة الى الدنيا اي يطلبونها
على سبيل الميل عن الحق والميل الى الحرام والعوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الاعيان وقد سبق تحقيقه
واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال أولئك يعني من هذه
صفته في ضلال بعيد عن طريق الحق اي بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية او ذي بعد او فيه بعد
لان الضال قد يضل ويبعد عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا والبعد وان كان من صفة الضال
لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة كجد جده وداهية دهياء ثم لما من على المكلفين بانزال
الكتاب وارسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة ان ذلك المرسل بلسان قومه فقال وما ارسلنا من
رسول الا متلبسا بلسان قومه متكلما بلغتهم لانه اذا كان كذلك فهموا عنه المرسل اليهم ما يقوله لهم وما
يدعوهم اليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فانهم لا يدرون ما يقول ولا
يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا ومع ذلك فلا بد ان يصعب عليهم فهم
ذلك بعض صعوبة ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله ليبين لهم اي ليوضح لهم ما امرهم الله به
من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لان المراد بها اللغة عن ابن عباس ان الله فضل محمدا على
اهل السماء وعلى الانبياء قيل ما فضله على اهل السماء قال ان الله قال لاهل السماء ومن يقل منهم اني اله
من دونه فذلك نجزيه جهنم وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فكتب
له براءة من النار قيل فما فضله على الانبياء قال ان الله يقول وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم وما ارسلناك الا كافة للناس فارسله الى الانس والجن وقال عثمان بن عفان نزل القرآن بلسان قريش وعن مجاهد مثله وقد قيل في هذه الآية اشكال لان النبي صلى الله عليه وسلم ارسل الى الناس جميعا بل الى الجن والانس ولغاتهم متباينة والسنتهم مختلفة واجيب بانه صلى الله عليه وسلم وان كان مرسلا الى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب وكانوا اخص به واقرب اليه كان ارساله بلسانهم اولى من ارساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهماله كفهمهم اياه ولو نزل القرآن بجميع لغات من ارسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانه لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع لان كل امة قد تدعي من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها وربما كان ذلك ايضا مفضيا الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون قال في الجمل والاولى ان يحمل القوم على من ارسل اليهم الرسول اياكان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة اليه كل من ارسل اليه من سائر القبائل واصناف الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم وان لم يثبت انه تكلم باللغة التركية لانه لم يتفق انه خاطب احدا من اهلها ولو خاطبه لكلمه بها تأمل انتهى فيضل الله من يشاء اضلاله فيه التفات عن التكلم الى الغيبة ويهدي من يشاء هدايته والجملة مستانفة قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فان لم يكن النسق مشاكلا للاول فالرفع على الاستيناف هو الوجه يعني لايجوز نصبه عطفا على ما قبله لان المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى والرسل ارسلت للبيان لا للاضلال وقال الزجاج لو قرئ بنصبه على ان اللام لام العاقبة جاز والمعنى وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي الفوها وفهموها ومع ذلك فان المضل والهادي هو الله عز وجل والبيان لايوجب حصول الهداية الا اذا جعله الله سبحانه واسطة وسببا وتقديم الاضلال على الهداية لانه متقدم عليها اذ هو ابقاء على الاصل والهداية انشاء مالم يكن وهو العزيز الذي لايغالبه مغالب في ملكه الحكيم الذي تجري افعاله على مقتضى الحكمة في صنعه ثم لما بين ان المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو اخراج الناس من الظلمات الى النور اراد ان يبين ان الغرض من ارسال الانبياء لم يكن الا ذلك وخص موسى بالذكر لان امته اكثر الامم المتقدمة على هذه الامة المحمدية فقال ولقد ارسلنا موسى متلبسا بآياتنا التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص من الثمرات قاله مجاهد وعطاء

وعبيد بن عمير ان اخرج قومك من الظلمات الى النور المعنى اخرج لان الارسال فيه معنى القول وبان اخرج بني اسرائيل
بعد هلاك فرعون من الكفر والجهل الذي قالوا بسببه اجعل لنا الها كما لهم آلهة الى الايمان او العلم
وذكرهم بايام الله اي بوقائعه قال ابن السكيت العرب تقول الايام في معنى الوقائع يقال فلان عالم
بايام العرب اي بوقائعها وقال الزجاج بنعم الله عليهم وبنقم ايام الله التي انتقم فيها من قوم نوح
وعاد وثمود والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد واخرج النسائي والبيهقي وغيرهما
عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذكرهم بنعم الله وآلائه وبه قال ابن عباس وقال الربيع بوقائعه
في القرون الاولى ويترجح تفسير ايام الله ببلائه ونعمه وفي تفسير ابن جرير بايام الله اي بانواع عقوباته
الفائضة ونعمه الباطنة التي افاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن احاط علمه بذلك عظم
خوفه وفي القاموس وايام الله نعمه ويوم ايوم شديد وآخر يوم في الشهر وفي المختار وربما عبروا عن
الشدة باليوم ان في ذلك التذكير بايات الله او في نفس ايام الله لآيات اي لدلالات عظيمة دالة
على التوحيد وكمال القدرة لكل صبار كثير الصبر على المحن والمنح شكور كثير الشكر للنعم التي انعم الله بها
عليه لانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وافيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من
الصبر والشكر وقيل المراد بذلك كل مؤمن وعبر عنه بالوصفين لانهما ملاك الايمان وعنوان المؤمن
وقدم الصبار على الشكور لكون الشكر عاقبة الصبر قال قتادة في الآية نعم العبد عبد اذا ابتلي صبر و
اذا اعطي شكر وانما خص الصبار والشكور وان كان فيها عبرة للكافة لانهم المنتفعون بها دون
غيرهم واذ قال موسى اي اذكر وقت قول موسى لقومه المعنى اذكر يا محمد لقومك ما ذكر لعلهم يعتبرون
اذكروا نعمة الله اي انعامه عليكم اذ انجاكم اي وقت انجائه لكم من آل فرعون يسومونكم
اي يبغونكم يقال سامه ظلما اي اولاه ظلما واصل السوم الذهاب في طلب الشيء سوء العذاب مصدر
ساء يسوء والمراد جنس العذاب السيء وهو استعبادهم واستعمالهم في الاعمال الشاقة ويذبحون ابناءكم
المولودين لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون وعطف
يذبحون على يسومونكم سوء العذاب وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجا له عن مرتبة
العذاب المعتاد حتى كانه جنس آخر لما فيه من الشدة ومع طرح الواو كما في الآية الاخرى يكون التذبيح
تفسير السوء العذاب ويستحيون نساءكم اي يتركونهن في الحياة لاهانتهن واذلالهن ولذلك عد من

جملة البلاء وزاد الكرخي كانوا يستخدمونهن بالاستعباد ويفردونهن عن الازواج وذلك من اعظم المضار وفي ذلكم المذكور من افعالهم بلاء اي ابتلاء لكم بالنعم والعذاب فالله تعالى يختبر عباده تارة بالنعم وتارة بالشدائد كما قال ونبلوكم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون من ربكم عظيم وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة مستوفى واذ تأذن ربكم بمعنى اذن قاله الفراء قال في الكشاف ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كانه قيل واذ اذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم واجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول انتهى وهذا من قول موسى لقومه اي اذكروا حين تأذن ربكم وقيل هو من قول الله سبحانه اي اذكر يا محمد اذ تأذن ربكم وقرئ واذ قال ربكم والمعنى واحد كما تقدم واللام في لئن شكرتم هي الموطئة للقسم والخطاب لبني اسرائيل وقوله لأزيدنكم ساد مسد جوابي الشرط والقسم وكذا في لئن كفرتم ان عذابي لشديد لمن كفر نعمتي فلا بد ان يصيبكم منه ما يصيب وهو ساد مسد الجوابين ايضا والمعنى لئن شكرتم انعامي عليكم بما ذكر وما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح لأزيدنكم نعمة الى نعمة تفضلا مني وقيل من طاعتي قاله الحسن وقيل من الثواب والاول اظهر فالشكر سبب المزيد قال الربيع اخبرهم موسى عن ربه انهم ان شكروا النعمة زادهم من فضله واوسع لهم في الرزق واظهرهم على العالم وقال سفيان الثوري في الآية لا تذهب نفسكم الى الدنيا فانها اهون عند الله من ذلك ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه لاعذبنكم حل عليه من عذابي لشديد وانما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد لان عادة اكرم الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعا اي وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها وجواب الشرط محذوف اي فانما ضررتم بالكفر الا انفسكم حيث حرمتموها من مزيد الانعام وعرضتموها للعذاب الشديد فان الله سبحانه لغني عن شكركم لا يحتاج اليه ولا يلحقه بذلك نقص حميد اي مستوجب للحمد لذاته لكثرة انعامه وان لم تشكروه او يحمده غيركم من الملائكة وتنطق بنعمه ذرات الكائنات ولعله عليه السلام انما قال هذا عندما عاين منهم دلائل العناد ومخائل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن انه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب اخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختارة عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهم خمسة لم يحرم خمسة وفيها من الهم الشكر لم يحرم الزيادة

وعن ابي هريرة مرفوعاً من اعطي الشكر لم يمنع الزيادة اخرجه الحكيم الترمذي في النوادر ولا وجه
لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر
فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه ومن شكر الله على ما اقدره عليه من طاعته زاده
طاعة ومن شكره على ما انعم عليه من الصحة زاده الله صحة الى غير ذلك الم ياتكم نبأ الذين من قبلكم الاستفهام
تقرير يحتمل ان يكون هذا خطاباً من موسى لقومه فيكون داخلاً تحت التذكير بايام الله ويحتمل ان
يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الاولى واخبارهم ومجيء
رسل الله اليهم ويحتمل انه ابتداء خطاب من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم عن مخالفته و
النبأ الخبر والجمع الانباء قوم نوح وعاد وثمود والمقصود منه امر القرون الماضية والامم الخالية
لحصول العبرة باحوال من تقدم وهلاكهم والذين من بعدهم اي من بعد هؤلاء الامم الماضية
الثلاثة لا يعلمهم الا الله اي لا يحصي عددهم ومقاديرهم ولا يحيط بهم علماً الا الله سبحانه والجملة معترضة
وعدم العلم من غير الله اما ان يكون راجعاً الى صفاتهم واحوالهم واخلاقهم ومدد اعمارهم اي
هذه الامور لا يعلمها الا الله ولا يعلمها غيره او يكون راجعاً الى ذواتهم اي انه لا يعلم ذوات اولئك
الذين من بعدهم الا الله سبحانه ولم يبلغنا خبرهم اصلاً وعن ابن مسعود انه كان يقرأ والذين من
بعدهم لا يعلمهم الا الله ويقول كذب النسابون وعن عمرو بن ميمون مثله وعن ابي مجلز قال قال
رجل لعلي بن ابي طالب انا انسب الناس قال انك لا تنسب الناس فقال بلى فقال له علي ارايت قوله
وعاداً وثمود واصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً قال انا انسب ذلك الكثير قال ارأيت قوله والذين
من بعدهم لا يعلمهم الا الله فسكت وعن عروة بن الزبير قال ما وجدنا احداً يعرف ما وراء معد بن
عدنان وعن ابن عباس قال ما بين عدنان واسمعيل ثلاثون اباً لا يعرفون جاءتهم رسلهم بالبينات
اي المعجزات الظاهرة والدلالات الباهرة والشرائع الواضحة مستانفة وهذا في المعنى تفسير لنبأ الذين
من قبلهم فردوا ايديهم في افواههم اي جعلوا ايدي انفسهم في افواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل
كما في قوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ لان الرسل جاءتهم بتسفيه احلامهم وشتم اصنامهم
وقيل ان المعنى انهم اشاروا باصابعهم الى افواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات اي اسكتوا واتركوا
هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم وقيل المعنى انهم اشاروا الى السنتهم وما يصدر عنها من قولهم

انا كفرنا بما ارسلتم به اي لاجواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بالسنتنا هذه قيل وضعوا ايديهم على افواههم استهزاء وتعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه وقيل المعنى ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بافواههم فالضمير الاول للرسل والثاني للكفار وقيل جعلوا ايديهم في افواه الرسل ردا لقولهم فالضمير الاول على هذا للكفار والثاني للرسل وقيل معناه اوموا الى الرسل ان اسكتوا وقيل اخذوا ايدي الرسل ووضعوها على افواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم والمراد بهما على هذا هاتان الجارحتان المعلومتان وقيل ان الايدي هنا النعم يعني المراد بهما غير الجارحتين وفيه بعد اي ردوا نعم الرسل بافواههم اي بالنطق والتكذيب والمراد بالنعم هنا ما جاؤهم به من الشرائع وقال ابو عبيدة ونعم ما قال هو ضرب مثل اي لم يؤمنوا ولم يجيبوا والعرب تقول للرجل اذا امسك عن الجواب وسكت قد رد يده في فيه وهكذا قال الاخفش واعترض على ذلك القتيبي فقال لم يسمع احد من العرب يقول رد يده في فيه اذا ترك ما امر به وانما المعنى عضوا على الايدي حنقا وغيظا وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الاقوال وبه قال ابن مسعود وهو اقرب التفاسير للآية ان لم يصح عن العرب ما ذكره الاخفش وابو عبيدة فان صح ما ذكراه فتفسير الآية به اقرب ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ اي الكفار للرسل ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من البينات على زعمكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الايمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مُرِيبٍ﴾ اي موجب للريب يقال اربته اذا فعلت امرا اوجب ريبة وشكا والريب قلق النفس وعدم سكونها وان لا تطمئن الى شيء وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا امرهم على الشك واجيب بانهم ارادوا انا كافرون برسالتكم وان نزلنا عن هذا المقام فلا اقل من انا نشك في صحة نبوتكم ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم وقيل كانوا فرقتين احداهما جزمت بالكفر والاخرى شكت وقيل لم كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد فلا تخالف ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ جملة مستانفة كانه قيل فماذا قالت لهم الرسل فاجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار اي افي وحدانيته سبحانه شك وهي في غاية الوضوح والجلاء ثم ان الرسل ذكروا بعد انكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الانكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما

وما فيهما بعد العدم يدعوكم الى الايمان به وتوحيده او الى الايمان بارسالة ايانا لا انا ندعوكم اليه من تلقاء
انفسنا كما توهمه قولكم مما تدعوننا اليه ليغفر لكم من ذنوبكم اي لاجل غفران ذنوبكم اذا امنتم وصدقتم
او اللام للتعدية كقولك دعوتك لزيد قال ابو عبيدة من صلة زائدة في الايجاب ووجه ذلك قوله في
موضع اخر ان الله يغفر الذنوب جميعا واجازه الاخفش وقال سيبويه هي للتبعيض ويجوز ان يذكر البعض
ويراد منه الجميع وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة محمد صلى الله عليه وسلم
غفران جميعها لغيرهم وبهذه الآية احتج من جوز زيادة من في الاثبات وجمهور البصريين لا يجوزون
زيادتها الا في النفي اذا جرت نكرة ومن ثم جعلها بعضهم للبدل وقال ليست بزائدة ولا تبعيضية اي
ليكون المغفرة بدلا من عقوبة الذنوب ويحتمل ان يضمن يغفر معنى يخلص اي يخلصكم من ذنوبكم
ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب وهو اولى من دعوى زيادتها ويؤخركم بلا عذاب الى اجل
وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا قالوا ان اي ما انتم الا بشر مثلنا في الهيئة
والصورة تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب فلا فضل لكم علينا ولستم ملائكة تريدون ان تصدونا
وصفوهم بالبشر اولا ثم بارادة الصد لهم عما كان يعبد اباؤنا اي اباؤهم ثانيا اي تريدون ان تصرفونا
عن معبودات ابائنا من الاصنام ونحوها فأتونا ان كنتم صادقين بانكم مرسلون من عند الله
بسلطان مبين اي بحجة ظاهرة واضحة تدل على صحة ما تدعونه من المزية او النبوة وقد جاؤهم بالسلطان المبين
والحجة الظاهرة ولكن هذا نوع من تعنتاتهم ولون من تلوناتهم قالت لهم رسلهم مسلمين مشاركتهم
في الجنس ان نحن الا بشر مثلكم اي في الصورة والهيئة كما قلتم لا ننكر ذلك ولكن الله يمن ويتفضل
على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة وقيل بالتوفيق والهداية جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة
فضل الله تعالى وفيه دليل على ان النبوة امر وهبي لا كسبي كما يزعمه جهلة المتفلسفة والحكماء وما كان لنا
اي ما صح لنا ولا استقام ان نأتيكم بسلطان اي بحجة من الحجج وقيل المراد بالسلطان هنا هو ما
يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت وقيل اعم من ذلك فان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
الا باذن الله اي بمشيئته وارادته وليس ذلك في قدرتنا وقيل بامره لنا بالاتيان اي باذنه لنا فيه
والاول اولى وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في دفع شرور اعدائهم عنهم وفي الصبر على معاداتهم
وهذا امر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه وكان الرسل قصدوا بهذا الامر للمؤمنين الامر لهم

انفسهم قصدا اوليا ولهذا قالوا وَمَا لَنَا اي واي مانع وعذر لنا في أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ سبحانه
في دفع شروركم عنا وفيه التفات عن الغيبة الى التكلم والاستفهام للانكار وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا بضم
الباء وسكونها اي والحال انه قد فعل بنا ما يوجب التوكل عليه ويستدعيه من هدايتنا الى الطريق
الموصل الى رحمته وهو ما شرعه لعباده واوجب عليهم سلوكه وعرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد
وحيث كانت اذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد
القسمي مظهرين لكمال العزيمة والله لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا من وقوع التكذيب لنا منكم والعناد
والاقتراحات الباطلة وغير ذلك مما لا خير فيه وما مصدرية او موصولة اسمية وَعَلَى اللهِ وحده
دون من عداه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ قيل المراد بالتوكل الاول استحداثه وانشاؤه وبهذا السعي في
بقائه وثبوته فالتوكلان مختلفان وقيل معنى الاول ان الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم ان يتوكلوا
في حصولها على الله سبحانه لا علينا فان شاء سبحانه اظهرها وان شاء لم يظهرها ومعنى الثاني ابداء التوكل
على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وهم طائفة من المتمردين عن اجابة الرسل
لِرُسُلِهِمْ واللام في لَنُخْرِجَنَّكُمْ هي الموطئة للقسم اي والله لنخرجنكم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا
لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم اليه حتى اجترؤا عليهم بهذا وخيروهم
بين الخروج من ارضهم او العود في ملتهم الكفرية وقد قيل ان او بمعنى حتى او بمعنى الا ان كما قاله بعض
المفسرين ورد بانه لا حاجة الى ذلك بل او على بابها للتخيير بين احد الامرين قيل والعود هنا
بمعنى الصيرورة اي لتصيرن داخلين في ديننا اي في الشرك لعصمة الانبياء عن ان يكونوا
على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها وقيل ان الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على اتباعهم
وقد تقدم تفسير الآية في سورة الاعراف فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ اي الى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات
رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ الكافرين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ اي ارض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم
بما توعدوكم من الاخراج او العود مِنْ بَعْدِهِمْ اي بعد اهلاكهم ومثل هذه الآية قوله سبحانه واورثنا
القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقال واورثكم ارضهم وديارهم عن ابن عباس
قال كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم الى ان يعودوا
في ملتهم فابى الله لرسله وللمؤمنين ان يعودوا في ملة الكفر وامرهم ان يتوكلوا على الله وامرهم

ان يستفتحوا على الجبابرة ووعدهم ان يسكنهم الارض من بعدهم فانجز لهم ما وعدهم واستفتحوا كما
امرهم الله ان يستفتحوا وعن قتادة قال وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة فبين الله من يسكنها
من عباده فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان وان لله مقاما هو قائمه وان اهل الايمان خافوا ذلك
المقام ودأبوا الليل والنهار ذلك اي ما تقدم من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين في مساكنهم
لمن خاف مقامي اي موقفي وذلك يوم الحساب فانه موقف الله سبحانه والمقام بفتح الميم مكان
الاقامة وبالضم فعل الاقامة وقيل ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام اي لمن خاف قيامي عليه و
مراقبتي له كقوله تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال الاخفش مقامي بمعنى عذابي وخاف
وعيد اي خشي وعيدي بالعذاب وقيل بالقرآن وزواجره وقيل هو نفس العذاب الموعود
للكفار والوعيد اسم من الوعد وهذه الآية تدل على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان
العطف يقتضي التغاير قاله الكرخي واستفتحوا اي استنصروا بالله على اعدائهم او سألوا الله القضاء
بينهم من الفتاحة وهي الحكومة بين الخصمين ومن الاول قوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ومن
الثاني قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا اي احكم والضمير في استفتحوا للرسل وقيل للكفار وقيل للفريقين
وقيل لقريش لانهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا وهو على هذا مستأنف والاول اولى وقرئ
استفتحوا بكسر التاء الثانية على لفظ الامر امر الرسل بطلب النصرة فنصروا او سعدوا او نجوا وخاب
اي خسر وقيل هلك كل جبار هو المتكبر الذي لا يرى لاحد عليه حقا هكذا حكاه النحاس عن اهل
اللغة وقيل من تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل
الذي لا يرى فوقه احدا وقيل المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه والمعاني متقاربة عنيد هو المعاند
للحق والمجانب له قاله مجاهد وهو مأخوذ من العند وهو الناحية اي اخذ في ناحية معرضا قال
الزجاج العنيد الذي يعدل عن القصد وبمثله قال الهروي وقال ابو عبيد هو الذي عند وبغى
وقال ابن كيسان هو الشامخ بانفه وقيل المراد به العاصي وقيل الذي ابى ان يقول لا اله الا الله قاله
قتادة وقيل العنيد الناكب عن الحق قاله ابراهيم النخعي وقال مقاتل المتكبر وقال ابن عباس هو المعرض
عن الحق وقيل هو المعجب بما عنده وقيل هو الذي بما ند ويخالف ومعنى الآية انه خسر وهلك من
كان متصفا بهذه الصفة من ورائه جهنم اي من بعده جهنم والمراد بعد هلاكه على ان وراء هنا بمعنى بعد

ومثله قوله تعالى ومن ورائه عذاب غليظ اي من بعده كذا قال الفراء وقيل من ورائه اي من امامه
قال ابو عبيدة هو من اسماء الاضداد لان احدهما ينقلب الى الآخر ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك
ياخذ كل سفينة غصبا اي امامهم وبه قال قطرب وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك
اي سوف يأتيك وانا من وراء فلان اي في طلبه وقال النحاس من ورائه اي من امامه وليس من
الاضداد قال ثعلب ولكنه من توارى اي استتر عنك سواء كان خلفك او قدامك فصارت جهنم
من ورائه لانها لا ترى وحكى مثله ابن الانباري وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ اي يلقى فيها ويسقى والصديد
ما يسيل من جلود اهل النار ولحومهم واشتقاقه من الصد لانه يصد الناظرين عن رؤيته وهو دم
مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه وقال عكرمة هو القيح والدم وقال محمد بن كعب القرظي هو ما
يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر والصديد صفة لماء او بدل منه وقيل عطف بيان له يَتَجَرَّعُهُ
التجرع التحسي اي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته وقيل يتكلف تجرعه
يقهر عليه ولم يذكر الزمخشري غيره وقيل انه دال على المهلة اي يتناوله شيئا فشيئا وقيل انه بمعنى
جرعه المجرد وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا اذا كان سهلا والمعنى لا يقارب
ان يسيغه ويبتلعه فكيف يكون الاساغة بل يغص به بعد اللتيا واللتي فيشربه جرعة بعد جرعة فيطول
عذابه بالحرارة والعطش تارة ويشربه على هذه الحالة اخرى فان السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة
وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه وعبر عنه بالاساغة لما انها
المعهودة في الاشربة وقيل انه يسيغه بعد شدة وابطاء كقوله وما كادوا يفعلون اي يفعلون بعد
ابطاء كما يدل عليه قوله تعالى في اية اخرى يصهر به ما في بطونهم قيل كاد صلة وقال الزمخشري للمبالغة و
قيل معناه لا يجيزه اخرج احمد والترمذي واستغربه والنسائي وابن ابي الدنيا وابو يعلى وابن مردويه
والبيهقي وابو نعيم في الحلية وصححه عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاية قال يقرب الى فيه فيكرهه
فاذا ادني منه شوى وجهه ووقعت فروة راسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله
وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت
مرتفقا وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ اي اسبابه مِن كُلِّ مَكَانٍ اي من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه
ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله او من كل موضع من مواضع بدنه وقال الاخفش المراد بالموت

هذا البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتا لشدتها قال ابن عباس يعني انواع العذاب وليس منها نوع الا الموت يأتيه منه لو كان يموت ولكنه لا يموت لان الله يقول لا يقضى عليهم فيموتوا وقال ميمون بن مهران المعنى من كل عظم وعرق وعصب وعن محمد بن كعب نحوه وعن ابراهيم التيمي قال من موضع كل شعرة في جسده وما هو بميت اي والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح وقيل تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فيحيى ومثله قوله لا يموت فيها ولا يحيى وقيل المعنى وما هو بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه والاولى تفسير الاية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه لا يموت فيها ولا يحيى وقوله لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ومن ورائه اي من امامه او من بعده او من بين يديه قاله البيضاوي وقيل الضمير عائد على كل جبار كما في السمين عذاب غليظ اي شديد يستقبل في كل وقت عذابا اشد مما هو عليه قيل هو الخلود في النار قاله ابراهيم التيمي وقيل حبس الانفاس قاله فضيل بن عياض مثل الذين كفروا بربهم كلام مستأنف منقطع عما قبله قال سيبويه تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين وقال الزجاج والفراء التقدير مثل اعمال الذين وروي عنه انه قال بالغاء مثل والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة وقيل هو مبتدأ وخبره اعمالهم وقيل مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم الصالحة كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير واقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك او عبادتهم الاصنام في عدم الانتفاع بها او الاعمال التي اشركوا فيها غير الله كرماد اي باطلة غير مقبولة والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احتراقه بالنار وجمعه في الكثرة على رمد وفي القلة على ارمد اشتدت به الريح حملته بشدة وسرعة فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئا في يوم عاصف العصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيهما لا منهما والاسناد فيه تجوز ووجه الشبه ان الريح العاصفة تطير الرماد وتفرق اجزاءه بحيث لا يبقى له اثر فكذلك كفرهم ابطل اعمالهم واحبطها بحيث لا يبقى لها اثر وقد بين محصله بقوله لا يقدرون مما كسبوا من تلك الاعمال الباطلة على شيء منها ولا يرون له اثرا في الاخرة يجازون به ويثابون عليه بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها وهو فذلكة التمثيل وعن ابن عباس لا يقدرون على شيء من اعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد اذا ارسل في يوم عاصف ذلك اي ما دل عليه التمثيل

من هذا البطلان لاعمالهم وذهاب اثرها هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ عن طريق الحق المخالف لمنهج
الثواب او عن نيل الثواب ولما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه ولا يرجى عوده سماه بعيدا أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الرؤية هنا هي القلبية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضا لامته
او الخطاب لكل من يصلح له بِالْحَقِّ اي بالوجه الصحيح الذي يحق ان يخلقها عليه ليستدل بها على كمال
قدرته لا باطلا ولا عبثا والباء للسببية او المصاحبة ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغنائه عن
كل احد من خلقه فقال إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ايها الناس وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ سواكم فيعدم الموجودين
ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه لان القادر لا يصعب عليه شيء
وانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور والمقام يحتمل ان يكون هذا الخلق الجديد
من نوع الانسان ويحتمل ان يكون من نوع آخر وَمَا ذَلِكَ اي الاذهاب والاتيان باعدام الموجود
وايجاد المعدوم عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ اي بممتنع ومتعذر لانه سبحانه قادر على كل شيء وفيه ان الله تعالى
هو الحقيق بان يرجى ثوابه ويخاف عقابه فلذلك اتبعه بذكر احوال الآخرة فقال وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا
اي الخلائق من قبورهم يوم القيامة والبروز الظهور والبراز الفضاء المكان الواسع لظهوره ومنه امرأة
برزة اي تظهر للرجال فمعنى برزوا ظهروا وبرز حصل في البراز اي الفضا وذلك بان يظهر بذاته كلها
وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني وانما قال وبرزوا لله مع
كونه سبحانه عالما بهم لا يخفى عليه شيء من احوالهم برزوا او لم يبرزوا لانهم كانوا يستترون عن العيون عند
فعلهم للمعاصي ويظنون ان ذلك يخفى على الله تعالى فالكلام خارج على ما يعتقدونه فَقَالَ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا اي قال الاتباع الضعفاء في الرأي للرؤساء الاقوياء المتكبرين بما هم فيه من الرياسة
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا في الدنيا في الدين والاعتقاد فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم والتبع جمع تابع مثل
خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد او مصدر وصف به للمبالغة او على تقدير ذوي
تبع قال الزجاج جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع فقال الضعفاء للذين استكبروا من اكابرهم
عن عبادة الله انا كنا لكم تبعا فَهَلْ أَنْتُمْ في هذا اليوم والاستفهام للتوبيخ مُغْنُونَ اي دافعون
عَنَّا يقال اغنى عنه اذا دفع عنه الاذى واغناه اذا اوصل اليه النفع مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ اي بعض
الشيء الذي هو عذاب الله فمن الاولى للبيان والثانية للتبعيض قاله الزمخشري وقيل هما للتبعيض معا

قاله في الكشاف ايضا وقيل الاولى تتعلق بمحذوف والثانية مزيدة قالوا اي قال المستكبرون مجيبين
عن قول المستضعفين لو هدانا الله الى الايمان في الدنيا لهديناكم اليه ولكن لما اضلنا وضللنا دعوناكم
الى الضلالة واضللناكم واخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا والجملة مستأنفة كانه قيل كيف اجابوا وقيل المعنى
لو هدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها وقيل لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه سواء علينا اجزعنا
ام صبرنا اي مستو علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه
عنه والهمزة وام لتاكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم ما لنا من محيص
اي منجاة ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار يقال حاص فلان عن كذا اي فر
وزاغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا والمعنى ما لنا وجه نتباعد به عن النار ويجوز ان يكون هذا
من كلام الفريقين وان كان الظاهر انه من كلام المستكبرين وفي مجيء كل جملة مستقلة من غير عاطف
دلالة على ان كلا من المعاني مستقل بنفسه كاف في الاخبار وقال زيد بن اسلم جزعوا مائة سنة و
صبروا مائة سنة واخرج الطبراني وابن ابي حاتم وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبي صلى الله
عليه وسلم قال يقول اهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا
فلنجزع فبكوا خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا من محيص والظاهر ان
هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء
للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها
ان الله قد حكم بين العباد وقال الشيطان للفريقين لما قضي الامر اي دخل اهل الجنة الجنة واهل
النار النار على ما سيأتي بيانه في سورة مريم ان الله وعدكم وعد الحق فصدق في وعده وهو وعد
سبحانه بالبعث والحساب ومجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال الفراء وعد الحق هو من اضافة
الشيء الى نفسه كقولهم مسجد الجامع وقال البصريون وعدكم وعد اليوم الحق ووعدتكم وعد باطلا بانه لا بعث
ولا حساب ولا جنة ولا نار فاخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك وما كان لي عليكم من سلطان اي
تسلط عليكم باظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم الا ان دعوتكم اي مجرد دعائي لكم الى الغواية
والضلال بلا حجة ولا برهان ودعوته اياهم ليست من جنس السلطان حتى يستثنى منه بل الاستثناء منقطع
اي لكن دعوتكم وقيل المراد بالسلطان هنا القهر اي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم الى اجابتي وقيل هذا

الاستثناء هو من باب تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون
لي عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من سلطان وليس منه قطعا فَاسْتَجَبْتُمْ لِي اي فسارعتم الى اجابتي
فَلَا تَلُومُونِي بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل واخلافي هذا الموعد فان من صرح العداوة
لا يلام بامثال ذلك وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة فان من
قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ولما لدنه قطع ولا سيما ودعوي
هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وهو الحق ودعوته لكم الى دار
السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس الا على مخذول وقريب من هذا من يقتدي
بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويؤثرها عليهما فانه قد
استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان وترك الحجة والبرهان خلف ظهره
كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المقلدين لهم المتنكبين عن طريق الحق بسوء اختيارهم اللهم
غفرا مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخا وصرخا واستصرخ
بمعنى صرخ والمصرخ المغيث والمستصرخ المستغيث يقال استصرخني فاصرخته والصريخ صوت
المستصرخ والصريخ ايضا الصارخ وهو المغيث والمستغيث وهو من اسماء الاضداد كما في الصحاح
قال ابن الاعرابي الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث ومعنى الآية ما انا بمغيثكم ومنقذكم مما
انتم فيه من العذاب وما انتم بمغيثي ولا منقذي مما انا فيه وفيه ارشاد لهم الى ان الشيطان في تلك
الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج الى من يغيثه ويخلصه عما هو فيه فكيف يطمعون في
اغاثة من هو محتاج الى من يغيثه قال ابن عباس المعنى ما انا بنافعكم وما انتم بنافعي وقال الشعبي
في هذه الآية خطيبان يقومان يوم القيامة ابليس وعيسى فاما ابليس فيقوم في حزبه فيقول القول
المذكور في الآية واما عيسى فيقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم
شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد وقال قتادة
المعنى ما انا بمعينكم إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قد ذهب جمهور المفسرين الى ان ما مصدرية
اي باشراككم اياي مع الله في الطاعة لانهم كانوا يطيعونه في اعمال الشر كما يطاع الله في اعمال الخير
فالاشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته او لانهم لما اشركوا الاصنام ونحوها باتباعه

لهم في ذلك فكانهم اشركوه وقيل موصولة على معنى اني كفرت بالذي اشركتمونيه وهو الله عز وجل ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند ان امره بالسجود لآدم لما كشف لهم القناع بانه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئا ولا ينصرهم بنوع من انواع النصر صرح لهم بانه كافر باشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكا ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فاوضح لهم اولا ان مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وانه اخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها ثم اوضح لهم ثانيا بانهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره ثم اوضح ثالثا بانه لم يكن منه الا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن ايسر شيء مما يتمسك به العقلاء ثم نعى عليهم رابعا ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وامرهم بان يلوموا انفسهم لانهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له ادنى عقل ثم اوضح لهم خامسا بانه لا نصر عنده ولا اغاثة ولا يستطيع نفعهم ولا يدفع عنهم ضرا بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ثم صرح لهم سادسا بانه قد كفر بما اعتقدوه فيه واثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب واذا كان جملة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تتمة كلامه كما ذهب اليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به فاثبت لهم الظلم ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الاليم لا على قول من قال انه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه لما اخبر سبحانه بحال اهل النار اخبر بحال اهل الجنة فقال ﴿وَأُدْخِلَ﴾ قراءة الجمهور على البناء للمفعول وقرئ بالبناء على الفاعل اي وانا ادخل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم فقال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ثم ذكر ان ذلك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ اي بتوفيقه ولطفه وهدايته هذا على القراءة الاولى وفيه تعظيم لذلك الاجر واما على الثانية فيكون باذن ربهم متعلقا بقوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ اي تحية الملائكة في الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ باذن ربهم وقد تقدم تفسير هذا في سورة يونس ولما ذكر سبحانه مثل اعمال الكفار وانها كرماد اشتدت به الريح ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم الله به من ادخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة

ثم ذكر تعالى ههنا مثلا للكلمة الطيبة وهي كلمة الاسلام اي لا اله الا الله او ما هو اعم من ذلك
من كلمات الخير وذكر مثلا للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك او ما هو اعم من ذلك من كلمات الشر
فقال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم او لمن يصلح للخطاب ألم تر بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامي
اياك كيف ضرب الله مثلا اي اختار مثلا وضعه في موضعه اللائق به والمثل قول سائر يشبه
فيه حال الثاني بالاول كلمة طيبة وهي قول لا اله الا الله عند الجمهور او كل كلمة حسنة كالتسبيحة
والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة قاله الزمخشري كشجرة طيبة اي طيبة الثمر نعت لكلمة او
بدل قاله الزمخشري او خبر مبتدأ محذوف اي هي قاله ابن عطية ثم وصف الشجرة بقوله اصلها ثابت اي
راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الارض بعروقها وفرعها في السماء اي في اعلاها ذاهب
الى جهة السماء مرتفع في الهواء ثم وصفها سبحانه بانها تؤتي اكلها اي ثمرها كل حين اي كل وقت
والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره كما سياتي باذن ربها
اي بارادته ومشيئته وامره قيل وهي النخلة كذلك كلمة الايمان ثابتة في قلب المؤمن وعمله
يصعد الى السماء وتناله بركته وثوابه كل وقت اخرج احمد وابن مردويه قال السيوطي بسند جيد
عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال هي التي لا تنقص ورقها النخلة واخرج البخاري وغيره من حديث ابن
عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لاصحابه ان شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن قال فوقع الناس
في شجر البوادي ووقع في قلبي انها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة وفي لفظ
للبخاري اخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتي اكلها كل حين فذكر نحوه وفي لفظ لابن
جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال قال رسول صلى الله عليه سلم هل تدرون ما الشجرة الطيبة
ثم قال هي النخلة وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين وقيل غيرها والمراد تؤتي اكلها كل ساعة
من الساعات من ليل او نهار في جميع الاوقات من غير فرق بين شتاء وصيف قاله ابن عباس وقيل
المراد في اوقات مختلفة من غير تعيين وقيل كل غدوة وعشية وقيل الحين هنا سنة كاملة لان النخلة
تثمر في كل سنة مرة وقيل كل شهر وقيل كل ستة اشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن
يعني من وقت طلعها الى حين صرامها وقال علي بن ابي طالب ثمانية اشهر وقيل اربعة اشهر من حين
ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة غير متناقضة

لان الحين عند جميع اهل اللغة الا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره وقد ورد
الحين في بعض المواضع يراد به اكثر كقوله هل اتى على الانسان حين من الدهر وقد تقدم بيان اقوال
العلماء في الحين في سورة البقرة وقال الزجاج الحين الوقت طال ام قصر عن ابن عباس قال يكون اخضر
ثم يكون اصفر وعنه قال كل حين جداد النخل وقد روي عن جماعة من السلف في هذا اقوال كثيرة
ووجه الحكمة في تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق ان الشجرة لا تسمى شجرة الا بثلاثة اشياء عرق راسخ واصل
ثابت وفرع نابت وكذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة اشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان
والاركان وقيل غير ذلك وعن ابن عباس الكلمة الطيبة شهادة ان لا اله الا الله والشجرة الطيبة
المؤمن واصلها الثابت قول لا اله الا الله ثابت في القلب وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن
الى السماء وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ احوال المبدء والمعاد وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته
وفي ضرب الامثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني وتقريب لها من الحس وموعظة لمن تذكر
واتعظ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قد تقدم تفسيرها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل وضرب الله مثلا كلمة
خبيثة للايذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ اي كمثل شجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾ قيل هي شجرة
الحنظل وقيل هي شجرة الثوم وقيل الكماة وقيل الطحلبة وقيل هي كشوث بالضم واخره مثلثة وهي
شجرة لا ورق لها ولا عروق في الارض ﴿اجْتُثَّتْ﴾ اي استوصلت واقتلعت وقطعت من اصلها قال المؤرج
اخذت جثتها وهي نفسها وذاتها والجثة شخص الانسان قاعدا ونائما يقال جثه قلعه واجتثه اقتلعه
كانها اجتثت وكانها غير ثابتة بالكلية وكانها ملقاة على وجه الارض ومعنى ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾
انه ليس لها اصل راسخ وعروق متمكنة من الارض ﴿مَا لَهَا﴾ اي لهذه الشجرة ﴿مِن قَرَارٍ﴾ اي من استقرار وقيل
من ثبات لانها ليس لها اصل ثابت يغوص في الارض بل عروقها في وجهها ولا فرع لها صاعد الى السماء
بل ورقها ممتد على الارض كشجرة البطيخ وثمرها ردي كمان الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا
خير يأتي منه اصلا ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز لان الشجر
ما له ساق والنجم ما لا ساق له وهي من النجم فتسميتها شجرة للمشاكلة قال ابن عباس الكلمة الخبيثة الشرك
والشجرة الخبيثة الكافر يعني المشرك ليس له اصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم يُثَبِّتُ اللَّهُ راجع للمثل الاول الَّذِينَ
آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ اي بالحجة الواضحة عندهم وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها وقد ثبت في
الصحيح انها كلمة الشهادة يقولها المؤمن اذا قعد في قبره قال النبي صلى الله عليه وسلم فذلك قوله تعالى يثبت
الله الآية وقيل معنى تثبيت الله لهم هو ان يدوموا عليه في الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ويستمروا عليه اذا فتنوا في دينهم
لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم اصحاب الاخدود وغير ذلك وَفِي الْآخِرَةِ اي في القبر بتلقين الجواب
وتمكين الصواب قاله الجمهور وقيل يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل المراد بالحيوة الدنيا
وقت المسايلة في القبر وفي الآخرة وقت المسايلة يوم القيامة والمراد انهم اذا سئلوا عن معتقدهم
ودينهم اوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردد ولا جهل كما يقول من لم يوفق لذلك
فيقال له لا دريت ولا تليت واخرج البخاري ومسلم واهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله
يثبت الله الذين آمنوا الآية وعن البراء قال اذا جاء الملكان الى الرجل في القبر فقالا من ربك فقال ربي
الله وقالا وما دينك قال ديني الاسلام وقالا من نبيك قال نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فذلك التثبيت في
الحيوة الدنيا وعن ابن عباس نحوه وعن ابي سعيد قال في الآخرة القبر واخرج ابن مردويه عن عائشة
قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا في القبر واخرج البزار عنها ايضا قالت قلت يا رسول الله تبتلى هذه الامة
في قبورها فكيف بي وانا امرأة ضعيفة قال يثبت الله الذين آمنوا الآية وعن عثمان بن عفان
قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ عن دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم و
اسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل اخرجه ابو داود وقد وردت احاديث كثيرة في سوال
الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضع بسطها وهي معروفة
نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ راجع للمثل الثاني اي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون
على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب كما اضلهم عن اتباع الحق في الدنيا قيل والمراد بالظالمين
هنا الكفرة وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الاعراض عن البينات الواضحة فانه لا يثبت في مواقف
الفتن ولا يهتدي الى الحق وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ من التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين لا راد

لحكمه ولا اعتراض عليه قال الفراء اي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والاظهار في محل الاضمار
في الموضعين لتربية المهابة ألم تر هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل من يصلح له تعجيبا مما صنع
الكفرة من الاباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له ادنى ادراك إلى الذين بدلوا نعمة الله عليهم كفرا اي جعلوا
بدل شكرها الكفر بها وذلك بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وانعم عليهم به وقيل انهم بدلوا
نفس النعمة كفرا فالتبديل على الاول تغيير في الوصف والنعمة باقية لكنها موصوفة بالكفران وعلى الثاني
تغيير في الذات والنعمة زائلة مبدلة بالكفر فانهم لما كفروها سلبت عنهم فصاروا تاركين لها محصلين
للكفر بدلها ولفظ ابن عباس هم كفار اهل مكة اخرجه البخاري والنسائي وبه قال جمهور المفسرين
وقيل نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر قال علي هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر اخرجه النسائي
وقد روي عنه في تفسير هذه الآية عن طرق نحو هذا وعن عمر بن الخطاب قال هم الافجران من
قريش بنو المغيرة وبنو امية فاما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر واما بنو امية فمتعوا الى حين وعن
علي نحوه ايضا وعن ابن عباس قال هم جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم اخرجه
ابن ابي حاتم وفيه نظر فان جبلة واصحابه لم يسلموا الا في خلافة عمر بن الخطاب وقيل انها عامة
في جميع المشركين وأحلوا اي انزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار وهي جهنم قيل
هم قادة قريش احلوهم يوم بدر دار الهلاك وهو القتل الذي اصيبوا به والاول اولى لقوله جهنم
فانه عطف بيان لدار البوار يقال بار الشيء يبور بورا بالضم هلك وبار الشيء بوارا كسد على الاستعارة
لانه اذا ترك صار غير منتفع به فاشبه الهالك من هذا الوجه يصلونها مستأنف لبيان كيفية
حلولهم فيها اي داخلين فيها مقاسين لحرها وبئس القرار اي قرارهم فيها وبئس المقر جهنم فالمخصوص
بالذم محذوف وجعلوا لله اندادا اي امثالا واشباها اي شركاء في الربوبية او في التسمية وهي الاصنام
قال قتادة يعني اشركوا بالله وليس له تعالى شريك ولا ند ولا شبيه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ليضلوا
بفتح الياء اي انفسهم عن سبيله اي عن سبيل الله اللام للعاقبة بطريق الاستعارة التبعية اي التي تعقب
جعلهم لله اندادا اضلالهم لان العاقل لا يريد ضلال نفسه وحسن استعمال لام العاقبة هنا لانها تشبه
الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب والمشابهة احد الامور المصححة للمجاز وقرئ بضم الياء اي ليوقعوا
قومهم في الضلال عن سبيل الله فهذا هو الغرض من جعلهم لله اندادا والقراءتان سبعيتان ثم هددهم سبحانه

فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم قُلْ تَمَتَّعُوا في الدنيا بما انتم فيه من الشهوات وما زينته لكم انفسكم من كفران النعم واضلال الناس اياما قلائل وفي التهديد بصيغة الامر ايذان بان المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ اي مردكم ومرجعكم في الآخرة إِلَى النَّارِ ولما كان هذا حالهم وقد صار والفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الامر بمباشرته مكان النهي عن قربانه ايضاحا لما تكون عليه عاقبتهم وانهم لا محالة صائرون الى النار فلا بد لهم من تعاطي الاسباب المقتضية لذلك فجملة فان مصيركم الى النار تعليل للامر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره او المعنى فان دمتم على ذلك فان مصيركم الى النار والاول اولى والنظم القرآني عليه ادل كما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان اصنع ما شئت من المخالفة فان مصيرك الى السيف قُلْ لِعِبَادِيَ بثبوت الياء مفتوحة وحذفها لفظا لا خطا والقراءتان سبعيتان ويجريان في خمس مواضع من القرآن هذا وقوله في سورة الانبياء ان الارض يرثها عبادي الصالحون وقوله في العنكبوت يا عبادي الذين آمنوا وقوله في سبا وقليل من عبادي الشكور وفي سورة الزمر قل يا عبادي الذين اسرفوا الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ لما امره بان يقول للمبدلين نعمة الله كفرا الجاعلين له اندادا ما قال لهم امره سبحانه ان يقول للطائفة المقابلة لهم وهي طائفة المؤمنين هذا القول والمعنى قل لهم اقيموا الصلاة الواجبة واقامتها اتمام اركانها وانفقوا اي اخرجوا الزكاة المفروضة وقيل اراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر والحمل على العموم اولى ويدخل فيه الزكاة دخولا اوليا سِرًّا وَعَلَانِيَةً قال الفراء اي مسرين ومعلنين او انفاق سر وعلانية او وقت سر وعلانية فالانتصاب على الحال او المصدر او الظرف قال الجمهور السر ما خفي والعلانية ما ظهر وقيل السر التطوع والعلانية الفرض وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ان تبدوا الصدقات فنعما هي مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ قال ابو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر قال الواحدي هذا قول جميع اهل اللغة وقال ابو علي الفارسي جمع خلة مثل قلة وقلال وبرمة وبرام وعلبة وعلاب والمعنى ان يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك وليس هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب فامرهم سبحانه بالانفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ما داموا في الحيوة الدنيا قادرين على انفاق اموالهم من قبل

ان يأتي يوم القيامة فانهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم اذ ذاك فالجملة لتاكيد مضمون الامر بالانفاق مما رزقهم الله ويمكن ان يكون فيها ايضا تاكيد لمضمون الامر باقامة الصلوة وذلك لان تركها كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الاخلاء قيل هذه الاية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفيها بسبب ميل الطبيعة وشهوة النفس والاية الدالة على حصول الخلة وثبوتها كقوله سبحانه في الزخرف الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله الا تراه اثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة احوالا مختلفة ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله تعالى في محبته وقد تقدم تفسير البيع والخلال اَللّٰهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ اي ابدعهما واخترعهما على غير مثال سبق وخلق ما فيهما من الاجرام العلوية والسفلية وانما بدأ بذكر خلقهما لانهما اعظم المخلوقات المشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة ادلة على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً المراد بالسماء هنا جهة العلو فانه يدخل في ذلك الفلك عند من قال ان ابتداء المطر منه ويدخل فيه السحاب عند من قال ان ابتداء المطر منها ويدخل فيه الاسباب التي تثير السحاب كالرياح قيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الريح ومن الريح الى الارض وتنكير الماء هنا للنوعية اي نوعا من انواع الماء وهو ماء المطر فَاَخْرَجَ بِهٖ اي بذلك الماء مِنَ الثَّمَرٰتِ المتنوعة رِزْقًا لَّكُمْ اي لبني ادم يعيشون به ومن للبيان كقولك انفقت من الدراهم وقيل للتبعيض لان الثمرات منها ما هو رزق لبني ادم ومنها ما هو ليس برزق لهم وهو ما لا ياكلونه ولا ينتفعون به والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع ايضا كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا اثمر واتوا حقه يوم حصاده وقيل المراد به ما يشمل المطعوم والملبوس وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ اي السفن الجارية على الماء فجرت على ارادتكم لاجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد اخر فاستعملتموها في مصالحكم ولذا قال لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ كما تريدون وعلى ما تطلبون بالركوب والحمل ونحو ذلك بِاَمْرِهٖ اي بامر الله ومشيته واذنه وقد تقدم تفسير هذا في البقرة وَسَخَّرَ لَكُمُ الْاَنْهٰرَ بكل فائدة قاله مجاهد اي ذللها لكم بالركوب عليها والاجراء لها الى حيث تريدون وهو من اعظم

نعم الله على عباده وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما دَآئِبَيْنِ الدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية والدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في السير دام عليه ودأب في عمله جد وتعب وبابه قطع وخضع فهو دائب بالالف لاغير والدائبان الليل والنهار والدأب بسكون الهمزة العادة والشأن وقد يحرك ومعنى دائبين يجريان دائما في اصلاح ما يصلحانه من النبات والحيوان وازالة الظلمة لان الشمس سلطان النهار وبها يعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وقيل دائبين في السير امتثالا لامر الله قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله والمعنى تجريان الى يوم القيامة ولا تفتران ولا ينقطع سيرهما في فلكهما وهو السماء الرابعة للشمس وسماء الدنيا للقمر الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يتعاقبان فالنهار لسعيكم في امور معاشكم وما تحتاجون اليه من امور دنياكم والليل لتسكنوا فيه كما قال سبحانه ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولم يقتصر على النعم المتقدمة بل وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ نوع وصنف مَا سَأَلْتُمُوهُ قال الاخفش اي اعطاكم من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر وقيل المعنى من كل ما سألتم ومن كل ما لم تسألوه قاله ابن الانباري لان نعمه علينا اكثر من ان تحصى وقيل من زائدة وبه قال الاخفش اي آتاكم كل ما سألتموه وقيل للتبعيض اي بعض ما سألتموه وهو رأي سيبويه قال عكرمة اي من كل شيء رغبتم اليه فيه وعن مجاهد مثله وعن الحسن من كل الذي سألتموه وقرئ من كلٍّ بتنوين وعلى هذا لما نافية حرفية اي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له او مصدرية او موصولة اسمية وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا اي وان تتعرضوا لتعداد النعم التي انعم الله تعالى بها عليكم اجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الاحوال وفي السمين النعمة هنا بمعنى المنعم به واصل الاحصاء ان الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظه بها ومن المعلوم انه لو رام فرد من افراد العباد ان يحصي ما انعم الله به عليه في خلق عضو من اعضائه او حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا امكنه اصلا فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه

فكيف بأعداد ذلك من النعم الواصلة اليه في كل وقت على تنوعها واختلاف اجناسها اللهم نشكرك على كل نعمة انعمت بها علينا مما لا يعلمه الا انت ومما علمناه شكرا لا يحيط به حصر ولا يحصى عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان قال سليمان التيمي ان الله انعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم وعن بكر بن عبد الله المزني قال يا ابن آدم ان اردت ان تعلم قدر ما انعم الله عليك فغمض عينيك وعن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال من لم يعرف نعمة الله عليه الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وعن ابي ايوب القرشي قال قال داود عليه السلام رب اخبرني ما ادنى نعمتك علي فاوحى اليه يا داود تنفس فتنفس فقال هذا ادنى نعمتي عليك إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ لنفسه باغفاله لشكر نعم الله عليه وقيل الظلوم الشاكر لغير من انعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه وظاهره شمول كل انسان وقال الزجاج ان الانسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال ان الانسان لفي خسر وقيل يريد ابا جهل والاول اولى كَفَّارٌ اي شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما ينبغي ويجب عليه عن عمر بن الخطاب قال اللهم اغفر لي ظلمي وكفري فقال قائل يا امير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر قال ان الانسان لظلوم كفار وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ اي واذكر وقت قوله ولعل المراد بسياق ما قاله ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم وهي اسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة وقيل ان ذكر قصة ابراهيم ههنا لمثال الكلمة الطيبة وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد وانكار عبادة الاصنام وهذه القصة كانت بعد ما وقع له من الالقاء في النار وفي تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفي هذه قد دعا وتضرع ومقام الدعاء اجل واعلى من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قاله العارفون فيكون ابراهيم قد ترقى وانتقل من طور الى طور من اطوار الكمال رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ اي مكة آمِنًا اي ذا امن الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقدم طلب الامن على سائر المطالب المذكورة بعده لانه اذا انتفى الامن لم يفرغ الانسان لشيء آخر من امور الدنيا والدين وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى رب اجعل هذا بلدا آمنا والفرق بين ما هنا وما هنالك ان المطلوب ههنا مجرد الامن للبلد والمطلوب هنالك البلدية والامن وفي الجمل فسر الشارح البلد هنا بمكة وفي

سورة البقرة بالمكان فيقتضي ان هذا الدعاء وقع مرتين مرة قبل بنائها ومرة بعده ولذلك كتب الكرخي هناك ما نصه نكر البلد هنا وعرفه في ابراهيم لان الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلدا فطلب من الله ان يجعل ويصير بلدا آمنا وثم كانت بعد جعله بلدا انتهى وقال الزمخشري سأل في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يامن اهلها ولا يخافون وفي الثاني ان يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الامن كانه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا انتهى قلت والمعاني متقاربة والمراد من الدعاء جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر احد على تخريبها وان اغار جماعة من الجبابرة عليها واخافوا اهلها وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين من الحبشة على ما في الصحيحين فلا تعارض بين النصين او المراد جعل اهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه اكثر المفسرين وغيرهم وهذا الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها الى الآن قال السيوطي وقد اجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه احد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) يقال جنبته كذا واجنبته اي باعدته عنه ثلاثيا ورباعيا وهي لغة نجد وجنبه اياه مشددا وهي لغة الحجاز وهو المنع واصله من الجانب كانه سأله ان يبعده عن جانب الشرك بالطاف منه واسباب خفية والمعنى باعدني وباعد بني عن عبادة الاصنام قيل اراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية وقيل اراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه وبني بنيه وقيل اراد جميع ذريته ما تناسلوا قيل ويؤيد ذلك ما قيل من انه لم يعبد احد من اولاد ابراهيم صنما والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه اهل الجاهلية من الاحجار ونحوها فيعبدونه والتأييد هذا يستقيم على القولين الاولين واما القول الثالث فلا يستقيم فقريش من اولاد اسماعيل وقد عبدوا الاصنام بلا شك قال الواحدي المعنى وبني الذين اذنت لي في الدعاء لهم وقد كان من بنيه من عبد الصنم فيكون هذا الدعاء من العام المخصوص وقيل هذا مختص بالمؤمنين من اولاده بدليل قوله في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فليس منه وعن مجاهد قال فاستجاب الله لابراهيم دعوته في ولده فلم يعبد احد من ولده صنما بعد دعوته واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمنا ورزق اهله من الثمرات وجعله اماما وجعل من ذريته من يقيم الصلوة وتقبل دعاءه فاراه مناسكه وتاب عليه قيل هو دعاء لنفسه في مقام الخوف او فصل به الجمع

بينه وبين بنيه ليبقيا بهم بركته والمراد طلب الثبات والدوام على ذلك ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ اسند الاضلال الى الاصنام مع كونها جمادات لا تعقل لانها سبب لضلالهم فكانها اضلتهم وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه واعادة النداء لتاكيد النداء وكثرة الابتهال والتضرع وهذا التركيب مجاز كقولهم فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ اي من تبع ديني من الناس فصار مسلما موحدا ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ اي من اهل ديني جعل اهل ملته كنفسه مبالغة ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فلم يتابعني ولم يدخل في ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قادر على ان تغفر له قيل قال هذا قبل ان يعلم ان الله لا يغفر ان يشرك به كما وقع منه الاستغفار لابيه وهو مشرك قاله ابن الانباري وقيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك قاله مقاتل وقيل ان هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك قاله السدي وقيل تغفر له بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب والاول اولى ثم قال ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الفراء من للتبعيض اي بعض ذريتي وقال ابن الانباري انها زائدة اي اسكنت ذريتي والاول اولى لانه انما اسكن اسماعيل وهو بعض ولده وامه هاجر ﴿بِوَادٍ﴾ هو المنخفض بين الجبلين ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ اي لا زرع فيه قط وهو وادي مكة او لا يصلح للانبات لانه ارض حجرية لا تنبت شيئا نفي ان يكون اسكانهم لاجل الزراعة ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ اي الذي كان قبل الطوفان واما وقت دعائه فلم يكن وانما كان تلا من الرمل واما البيت فقد رفع الى السماء من حين الطوفان ولو جعل التجوز باعتبار ما يؤل لكان صحيحا ايضا يعني انه سيعمره او بيتك الذي جرى في سابق علمك انه سيحدث في هذا المكان والمحرم الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره ولان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه او لانه حرم على الطوفان اي منع منه كما سمي عتيقا لانه اعتق منه وقيل انه محرم على الجبابرة وقيل محرم من ان تنتهك حرمته او يستخف به وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الاعادة اخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن ابيه قال كانت سارة تحت ابراهيم فمكثت تحته دهرا لا ترزق منه ولدا فلما رأت ذلك وهبت له هاجر امة لها قبطية فولدت له اسماعيل فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر فحلفت ان يقطع منها ثلاثة اطراف فقال لها ابراهيم هل لك ان تبري يمينك قالت كيف اصنع قال اثقبي اذنيها واخفضيها والخفض هو الختان

ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في اذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا فقالت سارة انما زدتها جمالا فلم تقاره على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجدا شديدا فنقلها الى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها ثم قال رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ اللام لام كي اي ما اسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفق ومرتزق الا لاقامة الصلوة فيه متوجهين اليه متبركين به وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ولعل تكرير النداء وتوسيطه لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة وللاشعار بانها المقصودة بالذات من اسكانهم ثم والمقصود من الدعاء توفيقهم لها وقيل اللام لام الامر والمراد الدعاء لهم باقامة الصلوة كانه طلب منهم الاقامة وسال من الله ان يوفقهم لها اثبت ان الاقامة عنده للعبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر فَاجْعَلْ اَفْئِدَةً الافئدة جمع فؤاد وهو القلب عبر به عن جميع البدن لانه اشرف عضو فيه وقيل هو جمع وفد والاصل اوفدة فكانه قال واجعل وفودا مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيْ اِلَيْهِمْ من للتبعيض وقيل زائدة ولا يلزم منه ان يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس لان المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب اليهم لا توجيهها الى الحج ولو كان هذا مرادا لقال تهوي اليه وقيل من للابتداء كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي ومعنى تهوي اليهم تنزع اليهم لزيارة بيتك لا لذواتهم واعيانهم وفي هذا بيان ان حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم يقال هوى نحوه اذا مال وهوت الناقة تهوي هويا فهي هاوية اذا عدت عدوا شديدا كانها تهوي في بئر ويحتمل ان يكون المعنى تجيء اليهم او تسرع اليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق اليهم واصله ان يتعدي باللام وانما تعدي بالى لانه ضمن معنى تميل قال السدي اي امل قلوبهم الى هذا الموضع وقيل تريدهم قاله الفراء وقيل تنحط اليهم وتنحدر وتنزل وهذه اقوال اهل اللغة والمعاني متقاربة قال ابن عباس لو قال افئدة الناس لازدحمت عليه فارس والترك والروم والهند وحج اليهود والنصارى والناس كلهم ولكنه قال افئدة من الناس فخص به المؤمنين اخرجه البيهقي قال السيوطي بسند حسن وفيه دعاء للمؤمنين بان يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن ياتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم في هذا الدعاء من امر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته وَارْزُقْهُمْ في ذريتي

الذين اسكنتهم هنالك اواياهم ومن يساكنهم من الناس من انواع الثمرات التي تنبت فيه او
تجلب اليه كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة
لتحصل تلك الثمار او المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة لقوله تعالى يجبى اليه ثمرات
كل شيء وهذا اولى لعلهم يشكرون نعمتك التي انعمت بها عليهم قال محمد بن مسلم ان ابراهيم لما
دعى للحرم نقل الله الطائف من فلسطين وعن الزهري قال ان الله نقل قرية من قرى الشام
فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم واما اجابة قوله فاجعل افئدة الخ فقد حصلت بحرمهم وقد استمر
قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام الى آخر الزمان ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن اي
ما نكتمه وما نظهره لان الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان لا تفاوت فيهما قيل والمراد هنا
بما نخفي ما يقابل ما نعلن فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره وقدم الاخفاء على الاعلان للدلالة على انهما
مستويان في علم الله سبحانه وظاهر النظم القرآني عموم كل ما يظهره وما يظهر من غير تقييد بشيء
معين من ذلك وقيل المراد ما يخفيه ابراهيم من وجده باسمعيل وامه حيث اسكنهما بواد غير
ذي زرع وما يعلنه من ذلك وقيل ما يخفيه ابراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء و
المجيء بضمير الجماعة يشعر بان ابراهيم لم يرد نفسه فقط بل اراد جميع العباد فكان المعنى ان الله سبحانه
يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء
قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقا لما قاله ابراهيم من انه سبحانه يعلم ما يخفيه
العباد وما يعلنونه فقال سبحانه ما يخفى عليه شيء من الاشياء الموجودة كائنا ما كان وانما ذكر
السموات والارض لانهما المشاهدتان للعباد والا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم
وكل ما هو خارج عنه لا يخفى عليه خافية قيل ويحتمل ان يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقا
لقوله الاول وتعميما بعد التخصيص فان قيل بالاول فهو اعتراض بين كلامي ابراهيم وان قيل
بالثاني ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه فقال
الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اي على كبر سني وسن امرأتي اسماعيل واسحاق قيل ولد له
اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثني عشرة سنة وقيل
على هنا بمعنى مع اي مع كبري ويأسي عن الولد ان عن سعيد بن جبير قال بشر ابراهيم بعد

سبع عشرة ومائة سنة وهبة الولد في هذا السن من اعظم المن لانه سن اليأس فلهذا
شكر الله على هذه المنة وهذا قاله ابراهيم في وقت آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء لان الظاهر
انه دعا بذلك الدعاء المتقدم اول ما قدم بهاجر وابنها وهي ترضعه ووضعها عند البيت
واسحاق لم يولد في ذلك الوقت قال الكرخي وزمان الدعاء والحمد مختلف فان الدعاء في طفولية
اسماعيل ولم يكن اسحاق حينئذ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ اي لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه اذا
اجابه واعتد به وعمل بمقتضاه وهو من اضافة الصفة المتضمنة للمبالغة الى المفعول والمعنى
انك لكثير اجابة الدعاء لمن يدعوك وكان ابراهيم قد دعا ربه فسأله الولد بقوله رب
هب لي من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ ثم سأل الله سبحانه بان يجعله مقيم
الصلوة محافظا عليها غير مهمل لشيء منها فقال رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ اي ممن يقيمها
باركانها ويحافظ عليها في اوقاتها ثم قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي اي اجعلني واجعل بعض ذريتي مقيمين
للصلوة وانما خص البعض من ذريته لانه علم ان منهم من لا يقيمها كما ينبغي ثم سأل الله سبحانه
ان يتقبل دعاءه على العموم فقال رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام
دخولا اوليا قيل والمراد بالدعاء هنا العبادة فيكون المعنى وتقبل عبادتي التي اعبدك بها ثم طلب من
الله سبحانه ان يغفر له ما وقع منه مما يستحق ان يغفره الله وان لم يكن كبيرا لما هو معلوم من عصمة
الانبياء عن الكبائر فقال التجاء الى الله وقطعا للطمع من كل شيء الا من فضله وكرمه واعترافا بالعبودية
لله والاتكال على رحمته رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ قيل انه دعا لهما بالمغفرة قبل ان يعلم انهما عدوان
لله سبحانه وقيل بشرط الاسلام وقيل كانت امه مسلمة والاول اولى وقيل اراد بوالديه آدم وحوى
وفيه بعد وقرئ شاذا ولولدي يعني اسماعيل واسحاق وانكرها الجحدري بان في مصحف
لابوي فهي مفسرة لقراءة العامة وَلِلْمُؤْمِنِينَ ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته ام
لم يكن منهم وقيل اراد المؤمنين من ذريته فقط والاول اولى والله تعالى لا يرد دعاء خليله
ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة اللهم اغفر لي مغفرة ظاهرة وباطنة
لا تغادر ذنبا وانا من ذرية خليلك ابراهيم فاغفر لي ولمن اخلفه من المؤمنين يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ اي يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقة في

في قيام الرجل للدلالة على انه في غاية الاستقامة وقيل ان المعنى الى يوم يقوم الناس للحساب وقيل يبدو ويظهر فيه الحساب والاول اولى وَلَا تَحْسَبَنَّ بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان اي لا تظنن اللّٰهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو تعريض لامته فكانه قال ولا تحسب امتك يا محمد ويجوز ان يكون خطابا لكل من يصلح له من المكلفين وان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لامته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله ولا تكونن من المشركين ونحوه وقيل المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم او يكون المراد بالنهي عن الحسبان الايذان بانه عالم بذلك لا يخفى عليه منه خافية قال ميمون بن مهران في الاية هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم وعن سفيان بن عيينة نحوه والغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم واعلام للمشركين بان تاخير العذاب عنهم ليس للرضاء بافعالهم بل سنة الله سبحانه في امهال العصاة إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ اي يؤخر جزاءهم وعذابهم ولا يؤاخذهم بظلمهم وهذه الجملة استيناف وقع تعليلا للنهي السابق لِيَوْمٍ اي لاجل يوم فاللام للعلة وقيل بمعنى الى للغاية تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ اي ابصارهم فلا تقر في اماكنها قال الفراء المعنى ترفع فيه ابصار اهل الموقف ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم شخوص البصر حدة النظر وعدم استقراره في مكانه يقال شخص سمعه وبصره واشخصهما صاحبهما وشخص بصره اي لم يطرف جفنه ويقال شخص من بلد الى بلد بعد والشخص سواد الانسان المرئي من بعيد والمراد ان الابصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة قال قتادة شخصت فيه والله ابصارهم فلا ترتد اليهم وقيل ال للعهد وقيل لو حمل على العموم كان ابلغ في التهويل واسلم من التكرير مُهْطِعِينَ اي مسرعين قاله قتادة وزاد في الجمل الى الداعي وهو اسرافيل وقيل هو جبريل والنافخ اسرافيل قال الشهاب وهو الاصح كما دلت عليه الاثار وقيل المهطع الذي يديم النظر قاله مجاهد قال ابو عبيدة قد يكون الوجهان جميعا يعني الاسراع مع ادامة النظر وقيل المهطع الذي لا يرفع راسه وقال ثعلب المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع وقيل هو الساكت قال النحاس والمعروف في اللغة

اهطع اذا اسرع فيه قال ابو عبيد قال ابن عباس يعني بالاهطاع النظر من غير ان يطرف
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ اقناع الراس رفعه واقنع صوته اذا رفعه قال ابن عباس الاقناع رفع
الراس والمعنى انهم يومئذ رافعون رؤسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر
بعضهم الى بعض وقيل ان اقناع الراس نكسه وقيل يقال اقنع راسه اذا طأطأه ذلة وخضوعا
والاية محتملة للوجهين قال المبرد والقول الاول اعرف في اللغة لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ معناه
لا ترجع اليهم ابصارهم من شدة الخوف واصل الطرف تحريك الاجفان وسميت العين
طرفا لانه يكون لها وقال ابن عباس يعني شاخصة ابصارهم قد شغلهم ما بين ايديهم
وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ الهواء في اللغة الجوف الخالي الذي لم تشغله الاجرام والمعنى ان قلوبهم
خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش وجعلها نفس الهواء
مبالغة منه وقيل للاحمق والجبان قلبه هواء اي لا رأي فيه ولا قوة وقيل معنى الاية انها
خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر لا تخرج من افواههم ولا تعود الى
اماكنها وقيل هواء اي مترددة تهوي في اجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه وقيل المعنى
ان افئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير قال ابن عباس ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة
قال قتادة ليس فيها شيء خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم وعن مرة قال متخرقة
لا تعي شيئا وقيل المعنى وافئدتهم ذات هواء ومما يقارب معنى هذه الاية قوله تعالى
واصبح فؤاد ام موسى فارغا اي خاليا من كل شيء الا من هم موسى عليه السلام والحاصل
ان القلوب يومئذ زائلة عن اماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول
ذلك اليوم وشدته وَأَنذِرِ النَّاسَ هذا رجوع الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم امره الله سبحانه
بان ينذرهم والمراد الناس على العموم وقيل المراد كفار مكة وقيل الكفار على العموم والاول اولى
لان الانذار كما يكون للكافر يكون ايضا للمسلم ومنه قوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر يَوْمَ
يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ اي يوم القيامة قاله مجاهد اي خوفهم يوم اتيان العذاب وانما اقتصر على
ذكر اتيان العذاب فيه مع كونه يوم اتيان الثواب ايضا لان المقام مقام تهديد وقيل المراد به
يوم موتهم فانه اول اوقات اتيان العذاب وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل فيكون

الذين ظلموا المراد بهم هنا هم الناس اي فيقولون والعدول الى الاظهار مكان الاضمار
للاشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم هذا اذا كان المراد بالناس هم الكفار وعلى تقدير كون
المراد بهم من يعم المسلمين فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ربنا أخرنا اي امهلنا الى
أجل قريب اي امد من الزمان معلوم غير بعيد نجب دعوتك لعبادك على السن انبيائك
الى توحيدك ونتبع الرسل المرسلين منك الينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ونتدارك ما فرط
منا من الاهمال وانما جمع الرسل لان دعوتهم الى التوحيد متفقة فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم
وهذا منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ثم حكى
الله سبحانه ما يجاب به عنهم عند ان يقولوا هذه المقالة فقال أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم
من زوال اي فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعا من قبل الله او الملائكة والاستفهام تقريري قال
ابن عباس من زوال عما انتم فيه الى ما تقولون وقال السدي بعث بعد الموت اي الم تكونوا
اقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا وقيل انه لا قسم منهم حقيقة وانما
كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا وقيل قسمهم
هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وجواب
القسم ما لكم من زوال وانما جاء بلفظ الخطاب في ما لكم لمراعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال ما لنا من
زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم اي استقررتم يقال سكن الدار وسكن فيها وهي
بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا انفسهم بالكفر بالله والعصيان له وقال الحسن عملتم
بمثل اعمالهم وتبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا
من الذنوب قال بعض الكوفيين اي تبين لكم فعلنا العجيب بهم وقيل فاعله مضمر لدلالة الكلام
عليه اي حالهم وخبرهم وهلاكهم وضربنا لكم الامثال في كتب الله وعلى السن رسله ايضاحا لكم
وتقريرا وتكميلا للحجة عليكم وقد مكروا اي فعلنا بهم ما فعلنا والحال انهم قد مكروا في رد الحق
واثبات الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه وسعهم وقيل المراد كفار قريش الذين مكروا
برسول الله صلى الله عليه وسلم حين هموا بقتله او نفيه كما ذكر في سورة الانفال والاول اولى وعند الله
مكرهم اي علمه او جزاؤه او مكتوب مكرهم فهو مجازيهم عند الله مكرهم الذي يمكرهم به على ان

يكون المكر مضافا الى المفعول وقيل المراد ما وقع من النمرود حيث صاد ونين تصعد الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه باربعة نسور وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه باطول من هذا وروي نحو هذه القصة لبخت نصر وللنمرود من طرق ذكرها في الدر المنثور واستبعدها بعض اهل العلم وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل ان يقدم على مثل هذا الامر العظيم الذي ذكروه وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه القصة بتاويل الاية البتة ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وقرئ كاد موضع كان وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته اي وان الشان كان مكرهم معدا لذلك قال الزجاج وان كان مكرهم يبلغ في الكيد الى ازالة الجبال فان الله ينصر دينه وعلى قراءة الجمهور المعنى ومحال ان تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهور المشبهة بها في القرار والبقاء واللام لام الجحود والفعل منصوب بان مضمرة وجوبا بعدها وقال ابن عباس مكرهم شركهم وفي قراءة بفتح لام لتزول واللام الداخلة عليه هي لام الابتداء والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل المراد بالمكر كفرهم ويناسبه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ المعنى مخلف رسله وعده قال القتيبي هو من المقدم الذي يوضحه التاخير والمؤخر الذي يوضحه التقديم وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده وقال الزمخشري قدم الوعد ليعلم انه لا يخلف الوعد اصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليوذن انه اذا لم يخلف وعده احدا وليس من شانه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله انا لننصر رسلنا وكتب الله لاغلبن انا ورسلي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالبه احد ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من اعدائه لاوليائه والجملة تسليل للنهي وقد مر تفسيره في اوائل آل عمران قال قتادة عزيز والله في امره يملي وكيده متين ثم اذا انتقم انتقم بقدرة ﴿يَوْمَ﴾ اي اذكر وارتقب يوم ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ المشاهدة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم بالدنانير وقد يكون في الصفات كما في بدلت الحلقة خاتما والاية تحتمل الامرين وبالثاني قال الاكثر ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ اي وتبدل السموات غير السموات لدلالة ما قبله عليه على الاختلاف الذي مر وتقديم تبديل الارض لقربها ولكون تبديلها اعظم

اوّلاً بالنسبة الينا اخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال جاء حبر من اليهود الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال اين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظلمة
دون الجسر واخرج مسلم ايضا وغيره من حديث عائشة قالت انا اول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن هذه الآية قلت اين الناس يومئذ قال على الصراط والصحيح على هذه الزيادة بين هذه الارض
واخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الاوسط والبيهقي وابن عساكر وابن مردويه عن ابن مسعود
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله يوم تبدل الارض غير الارض قال ارض بيضاء كانها
فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل بها خطيئة قال البيهقي والموقوف اصح وفي الباب روايات قد
روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرصة النقي وفيهما
ايضا عن حديث ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة
واحدة يتكفأها الجبار بيده الحديث وقد اطال القرطبي في بيان ذلك في تفسيره وفي
تذكرته وحاصله ان هذه الاحاديث نص في ان الارض والسموات تبدل وتزال ويخلق
الله ارضا اخرى تكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس
ان تبديل الارض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد ارضها ثم قال
وذكر شيبب بن ابراهيم في كتاب الافصاح انه لا تعارض بين هذه الآثار وانهما تبدلان كرتين
احداهما هذه الاولى قبل نفخة الصعق والثانية اذا وقفوا في المحشر وهي ارض عفراء من فضة
لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى عليها ظلم ويقوم الناس على الصراط على متن جهنم ثم ذكر في
موضع آخر من التذكرة ما يقتضي ان الخلائق وقت تبديل الارض تكون في ايدي الملائكة رافعين
لهم عنها قال في الجمل فتحصل من مجموع كلامه ان تبديل هذه الارض بارض اخرى من فضة يكون
قبل الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك مرفوعة في ايدي الملائكة وان تبديل الارض بارض من خبز
يكون بعد الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك على الصراط وهذه الارض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم
الجنة وبرزوا اي السابقون والهالكون كما يفيده السياق اي ظهروا من قبورهم ليستوفوا جزاء
اعمالهم وهذه جملة الخروج او ظهروا من اعمالهم ما كانوا يكتمونه والتعبير عن المستقبل بالماضي

للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ونفخ في الصور لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ المتفرد بالالوهية
الكثير القهر لمن عانده وَتَرَى التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الْمُجْرِمِينَ اي المشركين
يَوْمَئِذٍ اي يوم القيامة مُقَرَّنِينَ اي مشدودين فِي الْأَصْفَادِ اما يجعل بعضهم مقرونا مع
بعض قاله ابن قتيبة اي بحسب مشاركتهم في العقائد والاعمال كقوله واذا النفوس زوجت
او قرنوا مع الشياطين كما في قوله نقيض له شيطانا فهو له قرين او مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة
والملكات الباطلة او جعلت ايديهم مقرونة الى ارجلهم قاله ابن زيد والمقرن من جمع في القرن
وهو الحبل الذي يربط به والاصفاد الاغلال والقيود قاله قتادة يقال صفدته صفدا
اي قيدته والاسم الصفد بفتحتين فاذا اردت التكثير قلت صفدته ويقال صفدته و
اصفدته اذا اعطيته قال ابن عباس الكبول وعنه يقول في وثاق قال سعيد بن جبير السلاسل
سَرَابِيلُهُمْ هي القمص قاله السدي وعن ابن زيد مثله واحدها سربال يقال سربلته اي البسته
السربال مِنْ قَطِرَانٍ هو قطران الابل الذي تهنا به قاله الحسن اي قمصانهم من قطران تطلى
به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه ولذعه
مع نتن رائحته ووحشة لونه وقال جماعة هو النحاس المذاب وبه قال عمر وابن عباس قال عكرمة
هذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارا وقال سعيد بن جبير القطر الصفر والآن الحار وعن عكرمة
نحوه والقطران فيه لغات بفتح القاف وكسر الطاء وهي قراءة العامة وبزنة سكران وبزنة سرحان
وهو ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الابل ليذهب جربها لحدته وقيل هو دهن يحلب من شجر الابهل
والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا اجربت وهو الهناء ولو اراد الله المبالغة في احراقهم
بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون واخرج مسلم وغيره عن ابي مالك الاشعري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع
من جرب وَتَغْشَى اي تعلو وُجُوهَهُمُ النَّارُ وتضربها وتحللها وقلوبهم ايضا وخص الوجوه لانها
اشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة لِيَجْزِيَ اي يفعل ذلك بهم ليجزي الله متعلق ببرزوا
والجمل التي بينهما اعتراض كما في السمين كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ من المعاصي اي جزاء موافقا لما
كسبت من خير او شر إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ لا يشغله عنه شيء ولا حساب عن حساب بل يحاسب

جميع الخلق في قدر نصف نهار من ايام الدنيا الحديث بذلك وقد تقدم تفسيره هٰذَا بَلَاغٌ
اي هذا الذي انزل اليك تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ومبلغ وموصل للناس الى مراتب
السعادة قيل ان الاشارة الى ما ذكره سبحانه هنا من قوله ولا تحسبن الله غافلا الى سريع الحساب
اي هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة وقيل الاشارة الى جميع السورة وقيل الى
القرآن وبه قال ابن زيد وفيه من المحسنات رد العجز على الصدر فقد افتتحت هذه السورة بقوله
كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور لِّلنَّاسِ اي للكفار او لجميع الناس على ما قيل في قوله
وانذر الناس اي انزل لتبليغهم الى ما فيه رشدهم ونفعهم اي لايصالهم الى الخير وَلِيُنذَرُوا
بِهِ اي بالقرآن قاله ابن زيد اي لينصحوا والمعنى ليخوفوا به وقرئ بفتح التحتية والذال المعجمة يقال
نذرت بالشيء انذر اذا علمت به واستعددت له وَلِيَعْلَمُوا بالادلة التكوينية المذكورة سابقا
اوبالقرآن بما فيه من الحجج أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاشريك له وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ اي وليتعظ ع
اصحاب العقول السليمة والافهام الصحيحة وهذه اللامات متعلقة بمحذوف والتقدير وكذلك
انزلنا او متعلقة بالبلاغ المذكور اي كفاية لهم في ان ينصحوا وينذروا ويعلموا بما اقام الله من الحجج و
البراهين وحدانيته سبحانه وانه لاشريك له وليتعظ بذلك ارباب العقول التي تمت

سورة الحجر

مكية بالاتفاق والاجماع كما قال القرطبي وعن ابن عباس وابن الزبير مثله وهي تسع وتسعون اية
والحجر واد بين المدينة والشام بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الر قد تقدم الكلام عليه في محله مستوفى
مرادا تِلْكَ اي ما تضمنته السورة من الآيات آيَاتُ الْكِتَابِ التعريف للتفخيم وقيل هو للجنس
والمراد جنس الكتب المنزلة المتقدمة قال مجاهد يعني التوراة والانجيل وقيل المراد به هذه السورة
والاضافة بمعنى من وقيل المراد القرآن ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب فقد قيل انه
جمع له بين الاسمين عطفا للتغاير اللفظي لاجل التعدد في الاسم بزيادة صفة وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ اي
الكامل الظاهر رشده وهداه وخيره وتنكير القرآن للتفخيم

قرئ ربما بالتخفيف والتشديد وهما لغتان قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون وتميم وربيعة يثقلون
واصلها ان تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير قال الكوفيون اي يود الكفار في اوقات كثيرة
والتكثير بالنظر للمرات من التمني لا ينافي التقليل الاخر لانها للتقليل من حيث ازمان الاقامة وقيل هي
هنا للتقليل لانهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب وقيل ان هذا التقليل
ابلغ في التهديد فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في احيان قليلة وقيل
معناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره قيل وما هنا لحقت
رب لتهيأ للدخول على الفعل وقيل نكرة بمعنى شيء وانما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها
لا تدخل الا على الماضي لان المترقب في اخباره سبحانه كالواقع المتحقق فكانه قيل ربما ود الذين كفروا
بهذا الكتاب والقرآن فهذا مرتبط بما قبله لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ اي منقادين لحكمه مذعنين له من
جملة اهله وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم او يوم القيامة والمراد انه لما انكشف لهم الامر واتضح
بطلان ما كانوا عليه من الكفر وان الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لا دين غيره حصلت منهم
هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في
جنب الله وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين وقيل عند خروج عصاة
الموحدين من النار والظاهر ان هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد
انكشاف الامر لهم ولو مصدرية او امتناعية وجوابها محذوف اي لسروا بذلك او تخلصوا مما هم فيه
والاول اولى والتعبير عن مقتاهم بالغيبة نظرا للاخبار عنهم ولو نظر لصدوره منهم لقيل لو كنا
عن ابن عباس وابن مسعود وناس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا ود المشركون يوم بدر حين ضربت
اعناقهم فعرضوا على النار انهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود قال هذا في الجهنميين اذا
رأوهم يخرجون من النار وعن ابن عباس قال لا يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول
من كان مسلما فليدخل الجنة فذلك قوله ربما يود الذين كفروا وعن ابن عباس وانس انهما تذاكرا
هذه الآية فقالا حيث يجمع الله من اهل الخطايا من المشركين والمسلمين في النار فيقول المشركون ما اغنى عنكم ما كنتم
تعبدون فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته اخرجه البيهقي في البعث وابن المبارك في الزهد واخرج الطبراني في الاوسط
بسند قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ناسا من امتي يعذبون بذنوبهم

فيكونون في النار ما شاء الله ان يكونوا ثم يعيرهم اهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه من
تصديقكم نفعكم فلا يبقى احد الا اخرجه الله من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وفي الباب
احاديث مرفوعة عن جمع من الصحابة في تبيين هذا السبب في نزول هذه الآية ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا
وَيَتَمَتَّعُوا هذا تهديد لهؤلاء الكفرة وعظم مما انتصب من الامر والنهي فهم لا يرعوون ابدا ولا يخرجون
من باطل ولا يدخلون في حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الحيوة الدنيا
ومن الهاء العلم لهم عن اتباعك فانهم كالانعام التي لا تهتم الا بذلك ولا تشتغل بغيره وهذا الامر لا يستعمل
له ماض الا قليلا استغناء عنه بترك بل يستعمل منه المضارع نحو ونذرهم في طغيانهم ومن مجيء
الماضي قوله صلى الله عليه وسلم ذروا الحبشة ما وذرتكم وترك ووذر يكونان بمعنى صير اي ذرهم مهملين
اي اتركهم كفار مكة والعموم اولى وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ اي يشغلهم طول الامل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة
الحال عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى يقال الهاه كذا اي شغله ولهى هو عن الشيء يلهى والمعنى
يشغلهم الامل عن اتباع الحق وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى اسفر الصبح لذي
عينين وانكشف الامر ورأوا العذاب يوم القيامة فعند ذلك يذوقون ما صنعوا واكثر ما يستعمل
الامل فيما يستبعد حصوله والافعال الثلاثة مجزومة على انها جواب الامر وهذه الآية منسوخة بآية
السيف فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة امرهم وسوء صنيعهم وفيه من التهديد والزجر ما لا يقادر قدره
وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين قال
بعض اهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين قال علي بن ابي طالب انما اخشى
عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان الاول ينسي الآخرة والثاني يصد عن الحق وَمَا أَهْلَكْنَا
مِنْ قَرْيَةٍ من القرى بنوع من انواع العذاب في حال من الاحوال إِلَّا وَلَهَا اي ولتلك القرية كِتَابٌ
مَعْلُومٌ اي اجل موقت مقدر لهلاكها لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه معلوم غير مجهول ولا منسي
فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه والواو فيها اوجه احدها وهو الظاهر انها واو الحال الثاني
انها مزيدة الثالث انها داخلة على الجملة الواقعة صفة تأكيدا وبه قال الزمخشري مَا تَسْبِقُ مِنْ
أُمَّةٍ من الامم أَجَلَهَا المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ والمعنى انه لا يأتي هلاكها قبل مجيء اجلها
قيل من زائدة وقيل على بابها لانها تفيد التبعيض في هذا الحكم فيكون ذلك في افادة عموم النفي آكد

وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ عنه والسين زائدة فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الاجل المضروب له وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما قبلها فكأنه قيل ان هذا الامهال لا ينبغي ان يغتر به العقلاء فان لكل امة وقتا معينا في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتاخر وقال الزهري نرى انه اذا حضره اجله فانه لا يؤخر ساعة ولا يقدم واما ما لم يحضر اجله فان الله يؤخر ما يشاء ويقدم ما شاء. قلت كلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه وقد تقدم تفسير الاجل في اول سورة الانعام ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر وتماديهم في الغي مع تضمنه لبيان كفرهم بمن انزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ اي قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومتهكمين به حيث اثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك في الواقع اشد انكار ونفيهم له ابلغ نفي إِنَّكَ بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولا لله مامورا بتبليغ احكامه لَمَجْنُونٌ فانه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون لَوْ مَا حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ومن ما المزيدة فافاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه قال الفراء الميم في لوما بدل من اللام في لولا وقال الكسائي لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام قال النحاس لوما ولولا وهلا واحد والمعنى هلا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ليشهدوا على صدقك وقيل المعنى لوما تاتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في قولك وادعائك الرسالة والحاصل انهم قالوا مقالتين تعنتا الاولى يا ايها الذي الخ والثانية لوما تاتينا فقال الله سبحانه مجيبا على الكفار لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم ورادا عليهم المقالتين على سبيل اللف والنشر المشوش مَا نُنَزِّلُ نحن الْمَلَائِكَةَ إِلَّا تنزيلا متلبسا بِالْحَقِّ الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الالهية والمشية الربانية وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة وهذا رد للثانية وقرئ من الانزال وقيل معنى بالحق بالرسالة وقيل بالقرآن وقيل بالعذاب قاله مجاهد وقيل وقت الموت وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ قال السدي اي وما كانوا لو نزلت الملائكة منظرين من ان يعذبوا فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة قال صاحب النظم لفظة اذن

مركبة من اذ وان وهي اسم بمنزلة حين ثم ضم اليها ان فصار اذان ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار اذن ومجيء لفظة ان دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ كان ما طلبوا ثم انكر سبحانه على استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم المذكور رح الاولى فقال سبحانه إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ الذي انكروه ونسبوك بسببه الى الجنون وهو القرآن واعتقدوا انه مختلق من عندك وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ عندنا عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان ونحو ذلك فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الانس والجن ان يزيد فيه او ينقص منه حرفا واحدا او كلمة واحدة وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها تلك الاشياء ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وغيرهما وفيه دليل على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر لتطرق اليه الزيادة والنقصان كما يتطرق الى كل كلام سواه وقيل المعنى نزله محفوظا من الشياطين وقيل حفظه بان جعله معجزة باقية الى آخر الدهر وقيل حفظه من المعارضة فلم يقدر احد من الخلق ان يعارضه ولو باقصر آية وقيل اعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ومن اسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في ابواب افساده وابطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان واصول الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن واخرج مسلم عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى نزلت عليك قرآنا لا يغسله الماء وايضا في الآية وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاول اولى بالمقام قال الخطابي انما لم يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض احكامه وتلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم الهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الامة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رض انتهى ذكره السيوطي في الاتقان وقد بسطنا الكلام على جمع القرآن في رسالتنا المسماة بالاكسير

في اصول التفسير فليرجع اليه ثم ذكر سبحانه ان عادة امثال هؤلاء الكفار مع انبيائهم كذلك
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رسلا كائنة مِن قَبْلِكَ وحذف المعمول
لدلالة الارسال عليه فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ اي في امهم واتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم قال الفراء
الشيع الامة التابعة بعضهم بعضا فيما يجتمعون عليه واصله من شاعه اذا تبعه وهم القوم المجتمعة
المتفقة كلمتهم وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان في المصباح الشيعة
الاتباع والانصار وكل قوم اجتمعوا على امرهم شيعة ثم صارت الشيعة اسما لجماعة مخصوصة
والجمع شيع والاشياع جمع الجمع واضافته الى الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة
او من حذف المضاف اليه عند آخرين منهم اي في شيع الامم الاولين وفي البيضاوي من قبيل
اضافة الموصوف لصفته كقوله حق اليقين وَمَا كَانَ يَأْتِيهِم اي الشيعة مِّن رَّسُولٍ من الرسل
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كَذَٰلِكَ اي مثل
ذلك الذي سلكناه في قلوب اولئك المستهزئين برسلهم نَسْلُكُهُ اي الذكر فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ
فالاشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقرونا بالاستهزاء والسلك ادخال الشيء في
الشيء كالخيط في المخيط قاله الزجاج والسلوك النفاذ في الطريق قال والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين
استهزؤا نسلك الضلال في قلوب المجرمين وقال ابن عباس الشرك نسلكه في قلوب المشركين وعن
قتادة مثله وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي ابين في ثبوت القدر لمن اذعن للحق ولم يعاند قال
الواحدي اضاف الله سبحانه الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن امن
بالقرآن فليستحسنه وقال الرازي احتجوا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب
الكفار لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ اي بالذكر الذي انزلناه او بمحمد صلى الله عليه وسلم او مستانفة لبيان ما قبلها وقيل
ان الضمير في نسلكه للاستهزاء وفي به للذكر وهو بعيد والاولى ان الضميرين للذكر وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ اي مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء
وقال قتادة مضت وقائع الله فيمن خلا من الامم فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم من العذاب
وقال الزجاج قد مضت سنة الله فيهم بان سلك الكفر والضلال في قلوبهم ثم حكى الله سبحانه اصرارهم
على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم اي على هؤلاء المعاندين

صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به بابًا من السماء من ابوابها المعهودة ومكناهم من الصعود اليه
فظلوا فيه اي في ذلك الباب يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار يعرجون يصعدون
بآلة او بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ولا يعاند عند
مشاهدتها معاند وقيل الضمير في فظلوا للملائكة اي فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب والكفار
يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب قاله ابن عباس لقالوا اي الكفار لفرط عنادهم و
زيادة عتوهم انما سكرت ابصارنا قرئ مشددا ومخففا وهما سبعيتان وهو من سكر الشراب او من
السكر وهو سدها عن الاحساس قاله مجاهد يقال سكر النهر اذا سده وحبسه عن الجري وعن قتادة
نحوه قال ابو عمرو بن العلاء سكرت غشيت وغطت وبه قال ابو عبيد وابو عبيدة وروي عنه ايضا
انه من سكر الشراب اي غشيهم ما غطى ابصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله وعلى التخفيف
بمعنى تحيرت وقيل اصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر قال النحاس
وهذه الاقوال متقاربة والتشديد لاجل التكثير والمبالغة قال ابن عباس قريش تقوله بل نحن
اضربوا عن قولهم سكرت ابصارنا وادعوا انهم قوم مسحورون اي سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذا
بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الاشياء كائنا ما كان فانهم اذا رأوا آية توجب
عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى ابصارهم ان ادراكها غير حقيقي لعارض السكر
او ان عقولهم قد سحرت فصار ادراكهم غير صحيح ومن بلغ في التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة
ولا يهتدي بآية وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بان ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل
اليهم بنوع من السحر ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز اصنامهم ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع
ليستدل بذلك على وحدانيته فقال ولقد جعلنا الجعل ان كان بمعنى الخلق فقوله في السماء
بروجا متعلق به وان كان بمعنى التصيير فهو خبره والبروج في اللغة القصور والمحال والطرق و
المنازل والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة السبعة وهي الاثنا عشر المشهورة كما
يدل على ذلك التجربة والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من اجل العلوم ويستدلون بها
على الطرقات والاوقات والخصب والجدب وقالوا الفلك اثنا عشر برجا واسماء هذه البروج
الحمل الثور الجوزاء السرطان الاسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدي الدلو الحوت

كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الاربعة عند المشتغلين بهذا العلم ويسمون الحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة ارضية والجوزاء والدلو والميزان هوائية والسرطان والعقرب والحوت مائية وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد له الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو ذكره السيوطي وهي مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما واصل البروج الظهور ومنه تبرج المرأة باظهار زينتها وقال الحسن وقتادة البروج النجوم وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها وقيل السبعة السيارة منها قاله ابو صالح وقيل هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس قاله عطية وقال مجاهد البروج الكواكب ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ اي السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ اليها والمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها اذا كان من النظر وهو الاستدلال اي بابصارهم او بصائرهم وفي السمين النظر عيني وقيل قلبي وحذف متعلقه ليعم ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ اي السماء بالشهب ﴿مِنْ﴾ دخول ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قال ابو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم كما في قوله رجوما للشياطين والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة ثم قيل للعن والطرد والابعاد رجم لان الرمي بالحجارة يوجب هذه المعاني وقال قتادة الرجيم الملعون ﴿إِلَّا﴾ اي لكن ﴿مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ من غير دخول وهذا وجه الانقطاع والسمع بمعنى المسموع وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا الى السماء فيسترقوا السمع من الملائكة وقيل الاستثناء متصل اي الا من استرق فانها لا تحفظ منه قال ابو السعود محله النصب على الاتصال ان فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع من دخولها والتصرف فيها انتهى قال ابن عباس اراد ان يخطف السمع كقوله الا من خطف الخطفة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ والمعنى حفظنا السماء من الشياطين ان تسمع شيئا من الوحي وغيره الا من استرق السمع فانه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله او تخبله او تحرقه او تثقبه ومعنى فاتبعه تبعه ولحقه او ادركه والشهاب الكوكب نفسه او النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله بشهاب قبس وصنيع البيضاوي يقتضي ان

الشهاب بمعنى الشعلة هو الحقيقة والكثير وبمعنى الكوكب هو القليل وسمي الكوكب شهابا لبريقه
شبه النار وانفصاله منها والمبين الواضح الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم قال القرطبي
واختلف في الشهاب هل يقتل ام لا فقال ابن عباس يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل يقال خبلته
خبلا من ضرب اذا افسدت عضوا من اعضائه او اذهبت عقله والخبال بالفتح يطلق على الفساد
والجنون وقال الحسن وطائفة يقتل فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل القاء السمع الى الجن
قولان احدهما انهم يقتلون قبل القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل اخبار السماء الى غير
الانبياء ولذلك انقطعت الكهانة والثاني انهم يقتلون بعد القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من
الجن قال ذكره الماوردي ثم قال والقول الاول اصح قال واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث فقال
الاكثرون نعم وقيل لا وانما ذلك بعد المبعث قال الزجاج والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم
مما حدث بعد مولده لان الشعراء في القديم لم يذكروه في اشعارهم والجمع بين هذين القولين ان
الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء
وحراستها صونا لاخبار الغيوب وعن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء
ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال
ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف
سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته
حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن فربما ادركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان يدركه
فيكذب معها مائة كذبة فيقال اليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء
اخرجه البخاري قال كثير من اهل العلم نحن نرى انقضاض الكواكب فيجوز ان يكون ذلك كما نرى
ثم تصير نارا اذا ادركت الشيطان ويجوز ان يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل الينا انه نجم يسرى
والارض نصب على الاشتغال ولم يقرأ بغيره لانه ارجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها مددناها
اي بسطناها وفرشناها على وجه الماء كما في قوله والارض بعد ذلك دحاها وفي قوله والارض
فرشناها فنعم الماهدون وفيه رد على من زعم انها كالكرة والقينا فيها اي جعلنا ووضعنا فيها رواسي
اي جبالا ثابتة لئلا تتحرك باهلها جمع راسية كما في المختار وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ تبعيضية وهو الصحيح او مزيدة عند الكوفيين والاخفش كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ اي مقدر
معلوم فعبر عن ذلك بالوزن لانه مقدار تعرف به الاشياء وقيل موزون مقسوم وقيل معدود و
المقصود من الانبات الانشاء والايجاد قال ابن زيد الاشياء توزن وقيل الضمير راجع الى الجبال اي انبتنا
في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والكحل والرصاص ونحو ذلك وقيل موزون
بميزان الحكمة ومقدر بقدر الحاجة وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون اي حسن
وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا اي في الارض مَعَايِشَ تعيشون بها من
المطاعم والمشارب جمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا وقيل هي الملابس
وقيل هي التصرف في اسباب الرزق مدة الحياة قال الماوردي وهو الظاهر قلت والاول اظهر قال
النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ وقرئ بالهمز على التشبيه
بشمائل وقد ذكر في الاعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء لانها في المفرد اصلية لان مفرد معيشة
من العيش فالياء اصلية والمد في المفرد لا يقلب همزا في الجمع الا اذا كان زائدا في المفرد قاله في الجمل
وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والاولاد الذين رازقهم في
الحقيقة هو الله وان ظن بعض العباد انه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب وهذا في غاية الامتنان
وقيل المعنى وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش وهم من تقدم ذكره ويدخل في ذلك الدواب
على اختلاف اجناسها وقيل اراد الوحش قاله منصور وقال مجاهد الانعام وقيل الطيور ومنه قوله
وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ان هي النافية ومن مزيدة
للتاكيد وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ومع لفظ شيء المتناول لكل
الموجودات الصادق على كل فرد منها فافاد ذلك ان جميع الاشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها
شيء والخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الامور وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره
على كل مقدور والمعنى ان كل الممكنات مقدورة ومملوكة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار
كيف شاء وقال جمهور المفسرين ان المراد بما في الآية هو المطر لانه سبب الارزاق والمعايش وعن ابن مسعود
وابن عباس ما نقص المطر منذ انزله الله ولكن تمطر ارض اكثر مما تمطر اخرى ثم قرءا وما ننزله الآية
قال ابن الخطيب وتخصيص قوله هذا بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شيء يتناول جميع الاشياء الا ما خصه الدليل

وقيل الخزائن المفاتيح اي ما من شيء الا عندنا في السماء مفاتيحه والاولى ما ذكرناه من العموم لكل
موجود بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك وقيل في العرش تمثال
جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تاويل هذه الآية واخرج البزار وابو الشيخ عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خزائن الله الكلام فاذا اراد شيئاً قال له كن فكان وَمَا نُنَزِّلُهُ من السماء الى
الارض او نوجده للعباد إِلَّا بِقَدَرٍ اي بمقدار مَعْلُومٍ والمعنى ان الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً
من تلك الاشياء المذكورة الا متلبساً ذلك الايجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار
حاجة العباد اليه كما قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء
وقد فسر الانزال بالاعطاء وبالانشاء وبالايجاد والمعنى متقارب وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ جمع ريح وهو جسم
لطيف منبث في الجو سريع المرور لَوَاقِحَ اي حوامل لانها تحمل السحاب اي تقله وتصرفه ثم تمر به فتنزله
قال تعالى اذا اقلت سحاباً ثقالاً اي حملت وناقة لاقح اذا حملت الجنين في بطنها قاله الازهري وبه
قال الفراء وابن قتيبة وقيل لواقح بمعنى ملقحة قال ابن الانباري تقول العرب ابقل النبت فهو باقل اي مبقل
والمعنى انها تلقح الشجر اي تقويها وقيل معنى لواقح ذوات لقح قال الزجاج معناه ذوات لقحة لانها تعصر السحاب
وتدره كما تدر اللقحة يقال رامح اي ذو رمح ولابن اي ذو لبن وتامر اي ذو تمر قال ابو عبيدة لواقح بمعنى
ملاقح ذهب الى انها جمع ملقحة وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل ولقاح الشجر بلقاح
الحمل قال ابن مسعود يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وعن ابن عباس
نحوه وعن عبيد بن عمير قال يبعث الله المبشرة فتقم الارض قماً ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب
فتجعله كسفاً ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه فتجعله ركاماً ثم يبعث الله اللواقح فتلقحه فيمطر واخرج ابن
جرير وابن ابي الدنيا وابو الشيخ والديلمي بسند ضعيف عن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه قال ابو بكر بن عياش لا تقطر قطرة
من السماء الا بعد ان تعمل الرياح الاربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور
تفرقه فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ اي من السحاب وكل ما علاك فاظلك فهو سماء وقيل من جهة السماء مَاءً
المراد هنا ماء المطر فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ اي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وارضكم قال
ابو علي يقال سقيته الماء اذا اعطيته قدر ما يروي واسقيته نهراً اي جعلته شرباً له وعلى هذا

فاسقيناكموه ابلغ من سقيناكموه وقيل سقى واسقى بمعنى واحد وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ بل نحن الخازنون له فنفى عنهم سبحانه ما اثبته لنفسه في قوله وان من شيء الا عندنا خزائنه وقيل ان المعنى ما انتم له بخازنين بعد ان انزلناه عليكم اي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ اي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا وان واللام تفيد ان الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا وبيدنا احياء الخلق واماتتهم والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الامور على كمال قدرته عز وجل وانه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته وهذا قال وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ اي للارض ومن عليها لانه سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه الحي الذي لا يموت الدائم الذي لا ينقطع وجوده ومصير الخلق اليه ولله ميراث السموات والارض وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ المراد علمنا من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر فيهما وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر وقيل المستقدمون هم الامم المتقدمون على امة محمد صلى الله عليه وسلم من لدن آدم والمستأخرون هم امة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد والمستأخرون من لم يقتل وقيل من خلق ومن لم يخلق بعد وقيل من اسلم اولا ومن يسلم اخرا واللفظ اوسع من ذلك واللام في نحو ضمير هي الموطئة للقسم واخرج احمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من احسن النساء فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الاول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فانزل الله هذه الآية وقد رواه عبد الرزاق وابن المنذر من قول ابي الجوزاء عن ابن عباس قال الترمذي وهذا اشبه ان يكون اصح وقال ابن كثير في هذا الحديث نكارة شديدة وعن ابن عباس قال المستقدمين الصفوف المتقدمة والمستأخرين الصفوف المؤخرة وقد وردت احاديث كثيرة في ان خير صفوف الرجال اولها وشرها اخرها وخير صفوف النساء اخرها وشرها اولها وعن مقاتل وعطاء ان الآية في صفوف [illegible] وقال الحسن المستقدمين في طاعة الله والمستأخرين في معصية الله وعن ابن عباس [illegible]

بالمستقدمين من مات وبالمستأخرين من هو حي لم يمت وقال ايضا المستقدمين آدم ومن مضى
والمستأخرين في اصلاب الرجال وعن قتادة نحوه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ اي هو المتولي
لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر وفيه انه سبحانه يجازي
المحسن باحسانه والمسيء باساءته لانه الامر المقصود من الحشر ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ يجري الامور على ما تقتضيه
حكمته البالغة ﴿عَلِيمٌ﴾ احاط علمه بجميع الاشياء لا يخفى عليه شيء منها ومن كان كذلك فله القدرة
البالغة على كل شيء مما وسعه علمه وجرى فيه حكمه سبحانه لا اله الا هو ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾
اي آدم عليه السلام لانه اصل هذا النوع ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية او للتبعيض ﴿صَلْصَالٍ﴾ اي طين يابس
اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع واذا نقرته سمعت له صلصلة اي صوتا قال ابو عبيدة
هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل اذا حرك فاذا طبخ بالنار فهو الفخار وهذا قول اكثر المفسرين
وقال الكسائي هو الطين المنتن ماخوذ من قول العرب صل واصل اذا انتن مطبوخا كان او نيّا
وهذا الطور آخر اطوار آدم الطينية واول ابتدائه انه كان ترابا متفرق الاجزاء ثم بل فصار طينا ثم
انتن واسود فصار حمأ مسنونا اي متغيرا ثم يبس فصار صلصالا وعلى هذه الاطوار والاحوال تتخرج
الآيات الواردة في اطواره الطينية كآية خلقه من تراب وآية بشرا من طين وهذه الآية التي نحن فيها
﴿مِنْ﴾ ابتدائية ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الحمأ الطين الاسود المتغير او الطين الاسود من غير تقييد بالمتغير
قال ابن السكيت تقول منه حمأت البير حمأ بالتسكين اذا نزعت حماها وحميت البير حمأ بالتحريك
كثرت حماها واحميتها احماء القيت فيها الحمأة قال ابو عبيدة الحمأة بسكون الميم مثل الكماة يعني
بالتحريك والجمع حمأ مثل تمرة وتمر والحمأ مصدر مثل الهلع والجزع ثم سمي به المسنون قال الفراء هو المتغير
واصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ويقال
اسن الماء اذا تغير ومنه قوله لم يتسنه وقوله من ماء غير آسن وكلا الاشتقاقين يدل على التغير
لان ما يخرج بين الحجرين لا يكون الا منتنا وقال ابو عبيدة المسنون المصبوب وهو من قول العرب
سننت الماء على الوجه اذا صببته والسن الصب قال سيبويه المسنون المصور ماخوذ من سنة
الوجه وهي صورته وقال الاخفش المسنون المنصوب القائم من قولهم وجه مسنون اذا كان فيه طول والحاصل
على هذه الاقوال ان التراب لما بل صار طينا فلما انتن صار حمأ مسنونا فلما يبس صار صلصالا فاصل

الصلصال هو الحمأ المسنون ولهذا وصف بهما وعن ابن عباس قال خلق الانسان من ثلاث من طين
لازب وصلصال وحمأ مسنون فالطين اللازب اللازم الجيد والصلصال المدقق الذي يصنع
منه الفخار والحمأ المسنون الطين الذي فيه الحمأة وقال ايضا الصلصال الماء يقع على الارض
الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق وعنه قال الصلصال هو التراب اليابس
الذي يبل بعد يبسه وقال ايضا طين خلط برمل وقال ايضا الذي اذا ضربته صلصل وعنه قال
الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين اصابعك وقال حمأ مسنون من طين رطب وقال من طين منتن
وَالْجَانَّ منصوب على الاشتغال وهو ابو الجن عند جمهور المفسرين وقال الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل
هو ابليس ابو الشياطين وسمي جانا لتواريه عن الاعين يقال جن الشيء اذا ستره فالجان يستر نفسه
عن اعين بني ادم فهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا وفي الجن مسلمون وكافرون وهم يأكلون
ويشربون ويحيون ويموتون كبني ادم واما الشياطين فليس منهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات
ابليس ابوهم ذكره الخازن قال ابن عباس الجان مسيخ الجن كالقردة والخنازير مسيخ الانس وقيل
كان ابليس من حي الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن
من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ اي من قبل خلق ادم مِنْ نَارِ السَّمُومِ
وهي الريح الحارة النافذة في المسام لشدة لطفها وقوة حرارتها يكون بالنهار وقد يكون بالليل كذا
قال ابو عبيدة وقال ابو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين
السماء وبين الحجاب فاذا احدث الله امرا اخرقت الحجاب فهوت الى ما امرت به فالهدة التي تسمعون
خرق ذلك الحجاب قاله الخطيب وقيل السموم نار جهنم وقيل هي جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق
منها الجان وفي السمين السموم ما يقتل من افراط الحر من شمس او ريح او نار لانها تدخل في المسام
وقيل السموم ما كان ليلا والحرور ما كان نهارا وقيل هو من باب اضافة الموصوف لصفته
وذكر خلق الجان والانسان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الالهية وبيان ان القادر على
النشأة الاولى قادر على النشأة الاخرى قال ابن عباس من نار السموم من احسن النار الحارة التي تقتل
وعن ابن مسعود قال السموم التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم واخرجه
ابن مردويه عنه مرفوعا وَاِذْ كر اذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ بين سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع له

عند خلقه وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ماخوذ من البشرة وهي ظاهر الجلد مِنْ صَلْصَالٍ قد تقدم تفسيره قريبا مستوفى وكذا تفسير مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ اي سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وخلقته البشرية واكملت اجزاءه واتممت خلقه او سويت اجزاء بدنه بتعديل طبائعه وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم آخر صالح لامساكها والامتلاء بها فمن قال ان الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ومن قال انه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به ومن زائدة او تبعيضية قال النيسابوري ولا خلاف في ان الاضافة في روحي للتشريف والتكريم مثل ناقة الله وبيت الله قال القرطبي والروح جسم لطيف اجرى الله العادة بان يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم وحقيقته اضافة خلق الى خالق فالروح خلق من خلقه اضافه الى نفسه تشريفا وتكريما قال ومثله روح منه وقد تقدم في النساء قال ابو السعود وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فيه وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فاذا اكملت استعداده وافضت عليه ما يحييه من الروح التي هي من امري فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ وهذا وان كان معنى صحيحا لكن يخالفه ظاهر النظم القرآني والاولى ما دل عليه ظاهر اللفظ والفاء تدل على ان سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ وهو امر بالوقوع من وقع يقع اي اسقطوا وخروا وفيه دليل على ان المامور به هو السجود الحقيقي اي وضع الجبهة على الارض لا مجرد الانحناء كما قال السيوطي وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ولله ان يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبلة لهم تشريفا له والاول اولى والخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشرا فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ عند امر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ قال المبرد قوله كلهم ازال احتمال ان بعض الملائكة لم يسجد فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم هل سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت فلما قال اجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة وهو ايضاح لما سبق ورجح هذا الزجاج قال النيسابوري وذلك لان اجمع معرفة فلا يقع حالا ولو صح ان يكون حالا لكان منتصبا قال الكرخي فيه تاكيد ان لزيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ولا يكون تحصيلا للحاصل لان نسبة اجمعون الى كلهم كنسبة كلهم الى اصل الجملة او اجمعون يفيد معنى الاجتماع

وقيل هما تاكيدان للمبالغة وزيادة الاعتناء . ثم استثنى ابليس من الملائكة فقال إِلَّا إِبْلِيسَ قيل هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ استكبارا واستعظاما لنفسه وحسدا لآدم فحقت عليه كلمة الله وقيل أنه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم وبينهم فغلب اسم الملائكة عليه قلت غير المامور لا يصير بالترك ملعونا قال الزمخشري امر بما امروا به فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا زاد ابو السعود اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لأن من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقيل ان الاستثناء منقطع منفصل بناء على عدم كونه منهم وعدم تغليبهم عليه اي ولكن ابليس ابى من السجدة وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة وهذه الجملة استيناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء لان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد فبين سبحانه انه كان على وجه الاباء والاستكبار قَالَ يَا إِبْلِيسُ مستانف ايضا وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم بل على سبيل الاهانة والاذلال والتقريع والتوبيخ وظاهره يقتضي ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة لانه قال في الجواب لم اكن لاسجد لبشر خلقته فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة فقول بعض المتكلمين انه تعالى اوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله ضعيف مَا لَكَ قيل معنى اي غرض لك واي سبب حملك على أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ لآدم مع الملائكة وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها وعلى هذا فليست لا زائدة واليه مال البيضاوي وقيل زائدة بدليل ما في سورة ص ما منعك ان تسجد قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مستانفة كالتي قبلها اي لا ينبغي لي ولا يصح مني ولا يليق بحالي فاللام لتاكيد النفي جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشرا مخلوقا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ زعما منه انه مخلوق من عنصر نار وهي اشرف من عنصر آدم عليه السلام وهو الطين المتغير المنتن لانها نيرة والطين كثيف مظلم وفيه اشارة اجمالية الى كونه خيرا منه وقد صرح بذلك في موضع آخر فقال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين وقال في موضع آخر اأسجد لمن خلقت طينا ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما فضله الله تعالى قال الكرخي وحاصل كلامه ان كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا فكانه يقول البشر الجسماني الكثيف دون حالا من الروحاني اللطيف فكيف يسجد الاعلى للادنى وايضا فآدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون وهذا الاصل في غاية الدناءة واصل ابليس هو النار وهي

اشرف العناصر فكان اصل ابليس اشرف من اصل آدم والاشرف يقبح ان يؤمر بالسجود للادون
فهذا مجموع شبه ابليس فاجاب الله سبحانه عليه بقوله قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا اي فحيث عصيت وتكبرت
فاخرج منها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ والضمير في منها قيل عائد الى الجنة وقيل الى السماء وقيل الى زمرة الملائكة
والرجيم المرجوم بالشهب وقيل معناه ملعون اي مطرود لان من يطرد يرجم بالحجارة وفي القاموس
الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران وفي المصباح الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر سمي بذلك لما يجمع عليه
من الاحجار ورجمته رجما من باب قتل ضربته بالرجم وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ اي الطرد والابعاد من
رحمة الله سبحانه مستمرا عليك لا تزال إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وهو يوم القيامة والجزاء وقيل هو ملعون
في السموات والارض وجعل يوم الدين غاية للعنه لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت لان المراد
دوامها من غير انقطاع وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى ما دامت السموات والارض او ان المراد انه
في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو اشد من اللعن من انواع العذاب بما ينسى اللعن معه فكانه لا
يجد له ما كان يجده قبل ان يمسه العذاب قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي اي اخرني وامهلني ولا تمتني إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ اي آدم وذريته طلب ان يبقى حيا الى هذا اليوم لانه لما سمع ذلك علم ان الله قد اخر
عذابه الى الدار الآخرة وكانه طلب ان لا يموت ابدا لانه اذا اخرته الى ذلك اليوم وامهل الى يوم البعث
الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك لانقطاع الموت من حين النفخة الاولى فهو يوم لا موت فيه
وفي البيضاوي اراد بهذا السؤال ان يجد فسحة في الاغواء ونجاة عند الموت اذ لا موت بعد وقت
البعث فاجابه الى الاول دون الثاني وقيل انه لم يطلب ان لا يموت بل طلب ان يؤخر عذابه الى يوم
القيامة ولا يعذب في الدنيا قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ لما سأل الانظار اجابه الله سبحانه الى ما طلبه
واخبره بانه من جملة المنظرين ممن اخر آجالهم من مخلوقاته او من جملة من اخر عقوبتهم بما اقترفوا
ولم يكن اجابة الله اياه في الامهال اكراما له بل زيادة في بلائه وشقائه وعذابه ثم بين سبحانه الغاية
التي امهله اليها فقال إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ الذي عينت وهو يوم القيامة فان يوم الدين ويوم
يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن القيامة وسمي معلوما لان ذلك لا يعلمه الا الله سبحانه
وتعالى فهو معلوم عنده وقيل ان جميع الخلائق تموت فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل المراد بالوقت المعلوم
هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت وقال ابن عباس هو النفخة الاولى يموت فيها ابليس وبين

النفختين اربعون سنة وهي مدة موته قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي الباء للقسم وما مصدرية اي اقسم
باغوائك اياي واختار البيضاوي في الاعراف كونها للسببية ونقل كونها للقسم بصيغة التمريض
لانه وقع في مكان اخر قال فبعزتك والقصة واحدة الا ان احدهما اقسام بصفة ذاته والثاني
اقسام بفعله والفقهاء قالوا الاقسام بصفات الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال فمنهم
من فرق بينهما ولان جعل الاغواء مقسما به غير متعارف قاله الكرخي قلت واقسامه هنا باغواء
الله له لاينافي اقسامه في موضع اخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره لان الاغواء له هو من
جملة مايصدق عليه العزة وقال اهل العراق الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة
يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين قيل والاصح ان الايمان مبنية على العرف
فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا ومالا فلا وجواب القسم لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ اي لذرية ادم وان
لم يجر لهم ذكر للعلم بهم فِي الْأَرْضِ اي ما داموا في الدنيا والتزيين منه اما بتحسين المعاصي لهم وايقاعهم
فيها او بشغلهم بزينة الدنيا وحبها عن فعل ما امرهم الله به فلا يلتفتون الى غيرها وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ اي لاضلنهم عن طريق الهدى واوقعهم في طريق الغواية واحملهم عليها بالقاء الوسوسة
في قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر
واغوائهم وفي الاية حجة على المعتزلة في خلق الافعال وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ اي الذين استخلصتهم من العباد او الذين اخلصوا لك العبادة والطاعة
فلم يقصدوا بها غيرك وانما استثناهم لانه علم ان كيده ووسوسته لاتعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة
الاخلاص جعل الشيء خالصا عن شائبة الغير قَالَ الله تعالى هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ لاعوج فيه
وقرأ ابن سيرين وقتادة عليٌّ على انه صفة مشبهة ومعناه رفيع والمعنى حق علي ان اراعيه و
احفظه وهو ان لايكون لك على عبادي سلطان فالكلام على التشبيه عند اهل السنة كما في
قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين اذ لا تجب رعاية الاصلح عندنا وقيل قال
الكسائي هذا على الوعد والتهديد كقولك لمن تهدده طريقك علي ومصيرك الي
وكقوله ان ربك لبالمرصاد فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه الي فاجازي كلا بعمله وقيل
علي هنا بمعنى الي وقيل المعنى علي ان ادل على الصراط المستقيم بالبيان والحجة وقيل بالتوفيق والهداية

وقيل عائد الى الاخلاص اي ان الاخلاص طريق علي والي يؤدي الى كرامتي ورضواني
قال ابو السعود والاظهر ان ذلك رد لما وقع في عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك
المستقيم ثم لاتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم الاية إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
المراد بالعباد هنا هم المخلصون والمراد انه لا تسلط انت عليهم بايقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون
منه فلا ينافي هذا ما وقع من ادم وحواء ونحوهما فانه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه قال اهل
المعاني معنى عليهم على قلوبهم وقال سفيان بن عيينة معناه ليس لك عليهم قوة وقدرة على
ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصة اي الذين هداهم واجتباهم من عباده
إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لابليس مِنَ الْغَاوِينَ عن طريق الحق
الواقعين في الضلال وهو موافق لما قاله ابليس اللعين من قوله لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم
المخلصين ويمكن ان يقال بين الكلامين فرق فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان ابليس على جميع عباده
الا من اتبعه من الغاوين فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع ابليس وكلام
ابليس اللعين يتضمن اغواء الجميع الا المخلصين فدخل فيهم من لم يكن مخلصا ولا تابعا لابليس غاويا
والحاصل ان بين المخلصين والغاوين التابعين لابليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة
لابليس وقد قيل ان الغاوين المتبعين لابليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى انما سلطانه
على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال ابو السعود وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين
تفخيم لشان المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وان اغواءه للغاوين ليس
بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم ثم قال الله تعالى متوعدا لاتباع ابليس
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اي موعد المتبعين الغاوين أَجْمَعِينَ تاكيد للضمير او حال لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ
يدخل اهل النار منها وانما كانت سبعة لكثرة اهلها لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ اي من الاتباع الغواة
جُزْءٌ مَقْسُومٌ اي نصيب وقدر معلوم متميز عن غيره والجزء بعض الشيء وجزأته جعلته اجزاء
والمراد هنا بالجزء الحزب والطائفة والفريق وقيل المراد بالابواب الاطباق طبق فوق طبق قال ابن
جريج النار سبع دركات وهي جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية فاعلاها
للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة

المشركين والسابعة للمنافقين فجهنم اعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ثم كذلك كذا قيل والمعنى ان الله تعالى يجزئ اتباع ابليس سبعة اجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الخطيب تخصيص هذا العدد لان اهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيئات فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من اعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت ابواب الجنان ثمانية انتهى وقول الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر بل الاولى تفويضها الى جاعلها وهو الله سبحانه الا ان يرد به خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب المصير اليه وعن علي قال اطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الاول ثم الثاني ثم الثالث حتى يملأ كلها واخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل السيف على امتي واخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية جزء اشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله وقد وردت في صفة النار واهوالها احاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ اي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه كما قاله جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي وبه قال الجبائي وجمهور المعتزلة والاول اولى واجمعت الامة على ان التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة وليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا ان يكون اتيا بجميع انواع التقوى لان الاتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون اتيا بالتقوى كما ان الضارب هو الاتي بالضرب ولو مرة واحدة والقاتل هو الاتي بالقتل ولو مرة واحدة وكل فرد من افراد الماهية يجب ان يكون مشتملا على تلك الماهية وبهذا التحقيق استدلوا على ان الامر لا يفيد التكرار ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ هي البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ هي الانهار الجارية مستقرين فيها والتركيب يحتمل ان يكون لجميعهم جنات وعيون او لكل واحد منهم جنات وعيون اي عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان او لكل واحد منهم جنة وعين تجري في قصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه قال الرازي يحتمل ان يكون منها ما ذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن الآية ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار ﴿ادْخُلُوهَا﴾ اي قيل لهم

ادخلوها وقرئ على انه فعل مبني للمفعول اي ادخلهم الله اياها وقد قيل انهم اذا كانوا في جنات وعيون فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور فان الامر لهم بالدخول يشعر بانهم لم يكونوا فيها واجيب بان المعنى انهم لما صاروا في الجنات فاذا انتقلوا من بعضها الى بعض يقال لهم عند الوصول الى التي ارادوا الانتقال اليها ادخلوها والقائل هو الله تعالى او بعض ملائكته بِسَلَامٍ آمِنِينَ اي بسلامة من جميع الآفات وامن من المخافات او من زوال هذا النعيم او مسلمين على بعضهم بعضا او مسلما عليهم من الملائكة او من الله عز وجل وقال الضحاك امنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ هو الحقد والعداوة والشحناء والبغضاء والحسد وكل ذلك مذموم داخل في الغل لانها كامنة في القلب وقد مر تفسيره في الاعراف وعن الحسن البصري عن علي فينا والله اهل الجنة نزلت وعنه قال نزلت في ثلاثة احياء من العرب في بني هاشم وبني تيم وبني عدي وفي ابي بكر وعمر وعنه قال اني لارجو ان اكون انا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله ونزعنا ما في صدورهم من غل وعن ابن عباس قال نزلت في عشرة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وفي الباب روايات إِخْوَانًا حال مقدرة قاله ابو البقاء يعني من فاعل ادخلوها ولا حاجة الى هذا بل هي حال مقارنة من ضمير صدورهم والمعنى حال كونهم اخوة في الدين والتعاطف والمحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه اخوة النسب بل حتى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وصاروا اخوانا حال كونهم عَلَى سُرُرٍ من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت قال ابو البقاء ويجوز ان يتعلق بنفس اخوانا لانه بمعنى متصافين اي متصافين على سرر وفيه نظر من حيث تأويل باسم مشتق بعيد منه والسرر جمع سرير وهو مثل ما بين صنعاء الى الجابية وقيل هو المجلس العالي الرفيع المهيأ للسرور ومنه قولهم سر الوادي لافضل موضع منه مُتَقَابِلِينَ اي ينظر بعضهم الى وجه بعض قال مجاهد لا يرى بعضهم قفا بعض وعن ابن عباس نحوه فاذا اجتمعوا وتلاقوا ثم ارادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده وقفاه الى الجهة التي يسير اليها السرير وهذا ابلغ في الانس والاكرام واخرج الطبراني والبغوي وابن ابي حاتم وغيرهم عن زيد بن ابي اوفى قال

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الاية قال المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم الى بعض
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا اي في الجنة مستأنفة او حالية نَصَبٌ اي تعب واعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه
ذلك في الجنة لانها نعيم خالص ولذة محضة تحصل لهم بسهولة وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد
بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا قال السدي النصب المشقة
والاذى وَمَا هُمْ مِنْهَا اي من الجنة بِمُخْرَجِينَ ابدا وهذا نص من الله الكريم في كتابه العزيز على خلود
اهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان وفي
هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم فان علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها
بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته ثم قال سبحانه بعد ان قص علينا ما للمتقين عنده من
الجزاء العظيم والاجر الجزيل نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي بفتح الياء فيهما وسكونها فيهما سبعيتان اي اخبر يا محمد
كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي
أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ اي انا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسي ان رحمتي سبقت
غضبي اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة وادخلتهم تحت واسع الرحمة اخرج
ابن المنذر وابن ابي حاتم عن مصعب بن ثابت قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على ناس من اصحابه يضحكون
فقال اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت هذه الاية واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده تسعة وتسعين رحمة وارسل
في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ولو يعلم
المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار ثم ان الله سبحانه لما امر رسوله ان يخبر عباده
بهذه البشارة العظيمة امره بان يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجمع الرجاء والخوف ويتقابل
التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ اي الكثير الايلام
وعند ان جمع الله لعباده بين هذين الامرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا بين اليأس
والرجاء وخير الامور اوسطها وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف وبين حالتي الانس والهيبة قيل
لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لما اقدم على ذنب وفي هذه الاية
لطائف منها انه اضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادي وهذا تشريف لهم وتعظيم كما اضاف في قوله

اسرى بعبده ليلا ولم يزد عليه ومنها انه اكد ذكر الرحمة والمغفرة بمؤكدات ثلاثة اولها قوله اني ثانيها انا وثالثها التعريف في الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولم يقل في ذكر العذاب اني انا المعذب ولم يصف نفسه بذلك بل قال على سبيل الاخبار ان عذابي هو العذاب الاليم ورابعها انه امر رسوله ان يبلغ عباده هذا المعنى فكانه اشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة ثم اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات السعداء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وذكر هنا اربع قصص قصة ابراهيم ثم قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة صالح وسياتي تفصيلها وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه السلام فقال وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ اي اخبرهم بما جرى على ابراهيم من الامر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا انها سنة الله في عباده وايضا لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم وان عذابه هو العذاب الاليم واصل الضيف الميل يقال اضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وهو في الاصل مصدر ولذلك وحد وان كانوا جماعة ملائكة اثني عشر او ثلاثة منهم جبريل على صورة غلمان حسان ارسلهم الله اليه ليبشروه بالولد ويهلكوا قوم لوط عليه السلام وقد مر تفسير القصة مفصلا في سورة هود عليه السلام وسمي الضيف ضيفا لاضافته الى المضيف وقد يجمع فيقال اضياف وضيوف وضيفان إِذْ دَخَلُوا اي اذكر لهم دخولهم عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا اي هذا اللفظ قالوه تحية لابراهيم وفي الشهاب يجوز ان يكون سلاما منصوبا بفعل مقدر اي سلمنا او نسلم سلاما ويجوز نصبه بقالوا ولم تذكر هنا تحية ابراهيم لهم وقد ذكرت في سورة هود فالقصة هنا مختصرة قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ اي خائفون فزعون وانما قال هذا بعد ان قرب اليهم العجل فراهم لا ياكلون منه كما تقدم في سورة هود فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة وقيل انكر السلام منهم لانه لم يكن في بلادهم وقيل انكر دخولهم عليه بغير استئذان قَالُوا اي الملائكة لَا تَوْجَلْ اي لا تخف قاله عكرمة وقرئ لا تاجل وتوجل من اوجله اي اخافه إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ مستانفة لتعليل النهي عن الوجل لان المبشر لا يخاف منه والعليم كثير العلم وقيل هو الحليم كما وقع في موضع اخر من القرآن وهذا الغلام هو اسحاق كما تقدم في هود

ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف قال أبشرتموني قرئ بالف الاستفهام وبغيرها
على أن مسني الكبر اي مع حالة الكبر والهرم فبم تبشرون استفهام انكار وتعجب كانه عجب من حصول
الولد له مع ما قد صار اليه من الهرم الذي جرت العادة بانه لا يولد لمن بلغ اليه والمعنى فبأي شيء
تبشرون فان البشارة بما لا يكون عادة لا تصح قالوا بشرناك بالحق اي بما يكون لا محالة او باليقين
الذي لا لبس ولا خلف فيه فان ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء فانه القادر
على كل شيء فلا تكن من القانطين اي الآيسين من ذلك الذي بشرناك به فانه تعالى قادر على
ان يخلق بشرا من غير ابوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وكان تعجب ابراهيم باعتبار العادة دون
القدرة ولذلك قال ومن يقنط من رحمة ربه قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرها وهما لغتان
سبعيتان وحكي فيه ضم النون شاذا والقنوط الياس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قانط وقنوط
الا الضالون اي المكذبون او المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب والمعرفة فلا يعرفون سعة
رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال الله تعالى انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون
اي اني انما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي ثم سألهم عما لاجله ارسلهم الله سبحانه
قال فما خطبكم ايها المرسلون الخطب الامر الخطير والشأن العظيم اي فما امركم وشأنكم وما الذي
جئتم به غير ما قد بشرتموني به وكان قد فهم ان مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله ارسلوا
لانهم كانوا عددا والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام
او لانهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت البشارة تمام المقصود لابتدؤوه بها
قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين اي الى قوم لهم اجرام فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه
وهؤلاء القوم هم قوم لوط عليه السلام ثم استثنوا منهم من ليسوا مجرمين فقالوا الا آل لوط وهو
استثناء متصل لانه من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى اجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ولو كان
من قوم لكان منقطعا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين وليس آل لوط مجرمين البتة ويجب فيه على هذا النصب
ثم ذكروا ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في اجرامهم فقالوا انا لمنجوهم اي آل
لوط اجمعين وهم اتباعه واهل بيته ودينه لايمانهم قرئ من التنجية والانجاء ومعناهما التخليص مما
وقع فيه غيرهم وهذا الكلام استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين

ولا آل لوط لا هلاك اولئك ولا انجاء هؤلاء وعلى انه منقطع جرى هذا الكلام مجرى خبر لكن في اتصاله

بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجيهم إِلَّا امْرَأَتَهُ فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه لكفرها وهذا الاستثناء

من الضمير في لمنجوهم اخراجاً لها من التنجية وقيل من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية والمعنى

انها من الهالكين لان الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي ومنعه الزمخشري فقال كيف يكون

استثناء من استثناء وقد اختلف الحكمان قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ اي قضينا وحكمنا انها من الباقين

في العذاب مع الكفرة والغابر الباقي والماضي وهو من الاضداد وبابه دخل قال الزجاج معنى قدرنا

دبرنا وهو قريب من معنى قضينا واصل التقدير جعل الشيء على مقدار الكفاية وقرئ قدرنا بالتخفيف

قال الهروي هما بمعنى وقيل ضمن قدرنا معنى العلم فلذلك علق باللام مع كون التعليق من خصائص افعال

القلوب فكسرت ان وقيل هذا لا يصلح علة لكسرها انما يصلح علة لتعليقها الفعل قبلها فقط والعلة

في كسرها وجود اللام ولولاها لفتحت وانما اسند التقدير الى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه مجازاً لما لهم

من القرب عند الله او انهم رسل الله وواسطة بينه وبين خلقه فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ مستأنفة

لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة وفي الكلام حذف اي فخرجوا من عند ابراهيم وساروا

من قريته الى قرية لوط وكان بينهما اربعة فراسخ ولفظة آل زائدة بدليل ولما جاءت رسلنا لوطاً قال

لوط مخاطباً لهم إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لا اعرفكم بل انكركم واخاف ان تصيبوني بمكروه ولا اعرف غرضكم ولا من

اي القبائل انتم قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ اي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه فالاضراب

هو عن مجيئهم بما ينكره كأنهم قالوا ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه بل جئناك بما فيه سرورك وهو

عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه وَأَتَيْنَاكَ متلبسين بِالْحَقِّ اي باليقين الذي لا مرية

فيه ولا تردد او متلبساً انت به لابصارك له وهو العذاب النازل بهم لا محالة وَإِنَّا لَصَادِقُونَ في ذلك

الخبر الذي اخبرناك وقد تقدم تفسير قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ في سورة هود اي سر

في جزء من الليل بهم وهم بنتاه فلم يخرج من قريته الا هو وبنتاه وفي القرطبي في سورة هود فخرج

لوط وطوى الله له الارض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ اي كن من ورائهم وامش

خلفهم تذودهم لئلا يتخلف منهم احد فيناله العذاب ولاجل ان تطلع عليهم وتعرف انهم ناجون

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ اي انت ولا احد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب فيشتغل بالنظر في ذلك

ويتباطئ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين وقيل معنى لا يلتفت لا يتخلف وَامْضُوا حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ اي الى الجهة التي امركم الله سبحانه بالمضي اليها وهي جهة الشام وقيل مصر وقيل قرية من
قرى لوط وقيل ارض الخليل عليه الصلوة والسلام وقيل الاردن وزعم بعضهم ان حيث هنا ظرف
زمان مستدلا بقوله بقطع من الليل ثم قال وامضوا حيث تؤمرون اي في ذلك الزمان وهو ضعيف
ولو كان كما قال لكان التركيب وامضوا حيث امرتم على انه لو جاء التركيب هكذا لم يكن فيه دلالة
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ اي اوحينا الى لوط عليه السلام ذَلِكَ الْأَمْرَ هو اهلاك قومه ثم فسره بقوله أَنَّ دَابِرَ
هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ الدابر هو الآخر اي ان آخر من يبقى منهم يهلك مُصْبِحِينَ اي حال كونهم داخلين في
وقت الصبح ومثله فقطع دابر القوم الذين ظلموا وقدره الفراء وابو عبيدة اذا كانوا مصبحين قال الكرخي
فان كان تفسير معنى فصحيح واما الاعراب فلا ضرورة تدعو اليه قال ابن عباس يعني استيصال هلاكهم
ثم ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريتهم فقال وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ اي اهل
مدينة قوم لوط وهي سدوم بسين مهملة فدال معجمة على وزن فعول واخطأ من قال مهملة مدينة
من مدائن قوم لوط كما سبق وتقدم ان هذا المجيء قبل قول الملائكة فاسر باهلك كما في سورة هود على
الترتيب الواقعي وما هنا على خلافه والواو لا تفيد ترتيبا قال الكرخي ذكر القصة في هود بترتيب الوقوع وهنا
اخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل بل جئناك مع تقدمه ليستقل الاول ببيان كيفية نصرة الصابرين و
الثاني بتساوي الآلام يَسْتَبْشِرُونَ اي مستبشرين باضياف لوط طمعا في ارتكاب الفاحشة منهم و
الاستبشار اظهار الفرح والسرور قَالَ لهم لوط إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي وحد الضيف لانه مصدر كما تقدم
والمراد اضيافي وسماهم ضيفا لانه رآهم على هيئة الاضياف وقومه رأوهم مردا حسان الوجوه في غاية
الحسن ونهاية الجمال فلذلك طمعوا فيهم فَلَا تَفْضَحُونِ يقال فضحه يفضحه فضيحة وفضحا اذا اظهر من امره
ما يلزمه العار باظهاره وفي المختار فضحه فافتضح اي كشف مساويه وبابه قطع والاسم الفضيحة والفضوح
ايضا بضمتين والمعنى لا تفضحوني عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون اني عاجز عن حماية من نزل بي
او لا تفضحوني بفضيحة ضيفي فان من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف وَاتَّقُوا اللَّهَ في امرهم
من ركوب الفاحشة وَلَا تُخْزُونِ يجوز ان يكون من الخزي وهو الذل والهوان اي لا تذلوني ويجوز ان يكون
من الخزاية وهي الحياء والخجل وقد تقدم تفسير ذلك في سورة هود قَالُوا اي قوم لوط مجيبين له

أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر اي الم نتقدم اليك وننهك عن ان تكلمنا في شأن احد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة وقيل نهوه عن ضيافة غرباء الناس قال قتادة يقولون اولم ننهك ان تضيف احدا او تؤويه في قريتنا ويجوز حمل ما في الآية على ما هو اعم من ذلك قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي فتزوجوهن حلالا ان اسلمتم ولا تركبوا الحرام وقيل اراد ببناته نساء قومه لكون النبي بمنزلة الاب لقومه او انه كان في شريعته يحل تزوج الكافر بالمسلمة والاول اولى وقد تقدم تفسير هذا في هود إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي او ما امركم به لَعَمْرُكَ العَمر والعُمر بالفتح والضم واحد لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فانه كثير الدور على السنتهم ذكر ذلك الزجاج وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وعيشه والبقاء مدة حياته في الدنيا والمعنى لعمرك قسمي وهو مبتدأ محذوف الخبر لدلالة الكلام عليه قال القاضي عياض اتفق اهل التفسير في هذا انه قسم من الله جل جلاله بمدة حيوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذا حكى اجماع المفسرين على هذا المعنى ابو بكر بن العربي فقال قال المفسرون باجمعهم اقسم الله تعالى ههنا بحيوة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له قال ابو الجوزاء ما اقسم الله سبحانه بحياة احد غير محمد صلى الله عليه وسلم لانه اكرم البرية عنده وعن ابن عباس قال ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا اكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله اقسم بحياة احد غيره قال لعمرك الآية يقول وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا وعيشك بها وعن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما حلف الله بحياة احد الا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال لعمرك الآية اخرجه ابن مردويه كذا في الدر المنثور للسيوطي قال ابن العربي ما الذي يمنع ان يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء وكل ما يعطيه الله سبحانه للوط من فضل يؤتي ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه اكرم على الله منه اولا تراه سبحانه اعطى ابراهيم الخلة وموسى التكليم واعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم قال فاذا اقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد صلى الله عليه وسلم ارفع قال القرطبي ما قاله حسن فانه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط عليه السلام فان قيل قد اقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ونحو ذلك فما فيهما من فضل قيل اجيب بانه ما من شيء اقسم الله به الا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه وقيل الاقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به اي وخالق التين وكذلك ما بعده وفي قوله لعمرك اي وخالق عمرك وذكر صاحب الكشاف وتابعه

ان هذا القسم هو من الملائكة على ارادة القول اي قالت الملائكة للوط لعمرك ثم قال وقيل الخطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه اقسم بحياته وما اقسم بحياة احد قط كرامة له انتهى وقد كره كثير من
العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الاحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس
لعباده ان يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون
إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ اي انهم لفي غوايتهم وشدة غلتهم التي ازالت عقولهم وتمييزهم
بين خطائهم والصواب الذي يشار به اليهم يتحيرون جعل الغواية لكونها تذهب بعقل
صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على ان القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض
او لقوم لوط على ان القسم بلوط قال قتادة اي في ضلالهم يلعبون وقال الاعمش لفي غفلتهم يترددون
وعمه من باب تعب كما في المختار فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ العظيمة او صيحة جبريل والصيحة العذاب
قال ابن جريج الصيحة مثل الصاعقة وكل شيء اهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة مُشْرِقِينَ اي
حال كونهم داخلين في وقت الشروق يقال اشرقت الشمس اي اضاءت وشرقت اذا طلعت وقيل هما لغتان
بمعنى واحد واشرق القوم اذا دخلوا في وقت شروق الشمس وقيل اراد شروق الفجر وقيل اول
العذاب كان عند شروق الفجر حين اصبحوا وامتد تمامه الى طلوع الشمس حين اشرقوا فلذلك قال
اولا مقطوع مصبحين وقال ههنا مشرقين فَجَعَلْنَا مرتب على اخذ الصيحة عَالِيَهَا اي المدينة
يعني قرى قوم لوط سَافِلَهَا وقال الزمخشري الضمير لقراهم ورجح الاول بانه تقدم ما يعود اليه لفظا بخلاف الثاني
والمراد بعاليها وجه الارض وما عليه رفعها جبريل الى السماء من الارض السفلى واسقطها مقلوبة الى
الارض وكانت اربعة قرى فيها اربعمائة الف مقاتل وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ اي على من كان خارجا عن
قراهم بان كان غائبا في سفر او غيره حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ اي من طين متحجر طبخ بالنار وقد تقدم الكلام
مستوفى على هذا في سورة هود إِنَّ فِي ذَلِكَ المذكور من قصتهم وبيان ما اصابهم لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ
اي للمتفكرين الناظرين في الامر يستدلون بها وقال ابو عبيدة للمتبصرين وقال قتادة للمعتبرين وقيل
للمتأملين كانهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهره وقال مجاهد المتفرسين واخرج البخاري في التاريخ
والترمذي وابن جرير وابن ابي حاتم وابن السني وابو نعيم وابن مردويه والخطيب عن ابي سعيد الخدري
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان في ذلك لآيات للمتوسمين

وقال ثعلب الواسم الناظر اليك من فرقك الى قدمك والمعنى متقارب واصل التوسم التثبت و
التفكر تفعل ماخوذ من الوسم وهو التاثير بحديدة في جلد البعير او البقر وقيل اصله استقصاء التعرف
يقال توسمت اي تعرفت مستقصيا وجوه التعرف وقيل هو من الوسم بمعنى العلامة والفراسة على
نوعين احدهما مايوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك احوال الناس باصابة الحدس والنظر
والظن والتثبت والثاني مايحصل بدلائل التجارب والاخلاق وللناس في هذا العلم تصانيف قديمة
وحديثة وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يعني قرى قوم لوط او مدينتهم على طريق ثابت والباء بمعنى في
وهي الطريقة من المدينة الى الشام فان السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ويشاهدها
ويرى اثر حذاب الله وغضبه لانه لم يندثر ولم يخف ولم يزل وعن ابن عباس معنى لبسبيل لبهلاك
وعن مجاهد لبطريق معلم ليس بخفي وعن قتادة لبطريق واضح إِنَّ فِي ذَٰلِكَ المذكور من المدينة او
القرى او ما انزل بهم من العذاب لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ يعتبرون بها فان المؤمنين بالله والانبياء والمرسلين
من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الاثار ويعرفون ان ذلك انما كان لانتقام
الله من الجهال لاجل مخالفتهم واما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم وحصول القرانات
الكوكبية والاتصالات الفلكية وجمع الايات اولا باعتبار تعدد ماقص من حديث لوط وضيف
ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما كان من اهلاكهم وقلب المدائن على من فيها وامطار الحجارة على من
غاب عنها ووحدها ثانيا باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم فلا يرد
كيف جمع الاية اولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ شروع في قصة
شعيب وذكرت ههنا مختصرة وسياتي بسطها في سورة الشعراء والايكة الغيضة وهي جماع الشجر
ومجمع الشيئ والجمع الايك وفي الاصل اسم للشجر الملتف والمراد بها هنا البقعة التي فيها شجر مزدحم ففي الكلام
مجاز من اطلاق الحال على المحل ويروى ان شجرهم كان دوما وهو المقل فالمعنى وان كان اصحاب
الشجر المجتمع ولا يلب بقعة الاشجار باعتبار اقامتهم فيها وملازمتهم لها لَظَالِمِينَ بتكذيبهم شعيبا وقصر
الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق واللام فيه للتاكيد وقيل الايكة
اسم القرية التي كانوا فيها قال ابو عبيدة ايكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة واصحابها هم قوم شعيب وقد
تقدم خبرهم وقد اخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان مدين واصحاب الايكة امتان بعث الله اليهما شعيبا وعن ابن عباس قال اصحاب الايكة هم قوم شعيب والايكة ذات آجام وشجر كانوا فيها فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ اي اهلكناهم بالعذاب وذلك ان الله سلط عليهم شدة الحر سبعة ايام حتى اخذ بانفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه لهم سحابة كالظلة فالتجأوا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل يلتمسون الروح فبعث نارا فاحرقتهم جميعا وَإِنَّهُمَا الضمير يرجع الى مدينة قوم لوط ومكان اصحاب الايكة اي وان المكانين لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ اي لبطريق واضح ظاهر قاله ابن عباس وقيل يعود على الخبرين خبر اهلاك قوم لوط وخبر اهلاك قوم شعيب وقيل يعود على اصحاب الايكة واصحاب مدين لانه مرسل اليهما فذكر احدهما مشعر بالآخر والراجح الاول هو الاول والامام اسم لما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك قال الفراء والزجاج سمي الطريق اماما لانه يؤتم به ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده وقيل الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان ينسب اليهما ثم ان الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ قال قتادة هم اصحاب الوادي كانوا ثمود قوم صالح والحجر اسم لديار ثمود قاله الازهري وهي ما بين مكة وتبوك وقال ابن جرير هي ارض بين الحجاز والشام وآثارها موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وبالعكس وانما قال الله سبحانه الْمُرْسَلِينَ ولم يرسل اليهم الا صالحا لان من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة الى الله وقيل كذبوا صالحا ومن تقدمه من الانبياء وقيل كذبوا صالحا ومن معه من المؤمنين وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا المنزلة على نبيهم ومن جملتها الناقة فان فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها وانما اضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات فَكَانُوا عَنْهَا اي عن الآيات مُعْرِضِينَ اي غير معتبرين بها ولا ملتفتين اليها بل تاركين لها ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما امرهم به نبيهم قال الكرخي وذلك يدل على ان النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم وَكَانُوا يَنْحِتُونَ النحت في كلام العرب البري والنجر نحته ينحته بالكسر نحتا اي براه وفي التنزيل اتعبدون ما تنحتون اي تنجرون وكانوا يتخذون لانفسهم مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا بضم الباء وكسرها سبعيتان اي يخرقونها في الجبال آمِنِينَ اي حال كونهم آمنين من الخراب ونقب اللصوص لما الشدة احكامها او من ان يقع عليهم الجبل او السقف قاله الفراء وقيل آمنين من الموت وقيل من العذاب ركونا منهم على قوتها ووثاقتها وقال بعضهم المراد انهم يتخذون بيوتا في الجبال بنقرها

وقطع الصخر منها بالمعاول حتى تصير مساكن من غير بنيان ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي العذاب وهو الرجفة
او الزلزلة الشديدة من الارض ﴿مُصْبِحِينَ﴾ اي داخلين في وقت الصبح وقد تقدم ذكر الصيحة في الاعراف وفي هود وتقدم
ايضا قريبا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ اي لم يدفع ﴿عَنْهُمْ﴾ شيئا من عذاب الله ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الاموال والحصون
في الجبال او من الشرك والاعمال الخبيثة اخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لاصحاب الحجر لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم
ان يصيبكم مثل ما اصابهم واخرج ابن مردويه عنه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة
تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها
ونصبوا القدور باللحم فامرهم باهراق القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل على البير التي كانت
تشرب منها الناقة ونهاهم ان يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال اني اخشى ان يصيبكم مثل الذي
اصابهم فلا تدخلوا عليهم ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ متلبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو ما فيهما
من الفوائد والمصالح ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك امثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى
الصلاح وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته كما في قوله سبحانه ولله ما في السموات
وما في الارض ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى وقيل المراد بالحق الزوال
لانها مخلوقة وكل مخلوق زائل ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ وعند اتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن
الى من يستحق الاحسان وفيه وعيد للعصاة وتهديد ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يصفح عن قومه
فقال ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ اي تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا وقيل فاعرض عنهم اعراضا جميلا
ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم قال علي الصفح الجميل الرضاء بغير عتاب وعن ابن
عباس مثله وعن مجاهد قال هذه الآية قبل القتال وعن عكرمة مثله يعني هذا منسوخ باية السيف وفيه
بعد لان الله امر نبيه ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والامر
بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ اي الخالق للخلق جميعا ﴿الْعَلِيمُ﴾ باحوالهم وبالصالح و
الطالح منهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ من للتبعيض او للبيان على اختلاف الاقوال في المراد ذكر
معنى ذلك الزجاج فقال هي للتبعيض اذا اردت بالسبع الفاتحة او الطوال وللبيان اذا اردت الاسباع
واختلف اهل العلم فيها ما هي فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة قال الواحدي واكثر المفسرين على انها

فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي وزاد القرطبي ابا هريرة وابا العالية وزاد النيسابوري الضحاك وسعيد بن جبير وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه فتعين المصير اليه وقيل هي السبع الطوال البقرة وآل عمران والنسا والمائدة والانعام والاعراف والسابعة الانفال والتوبة لانهما كسورة واحدة اذ ليس بينهما تسمية روي هذا عن ابن عباس وقيل السابعة هي سورة يونس وقيل المراد بها السبعة الاحزاب فانها سبع صحائف وقيل هي السور التي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين والمثاني جمع مثناة من التثنية وهي التكرير او جمع مثنية وقال الزجاج يثنى بما يقرأ بعدها معها فعلى القول الاول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني انها تثنى اي تكرر في كل صلوة وعلى القول بانها السبع الطوال فوجه التسمية ان العبر والاحكام والحدود كررت فيها وعلى القول بانها السبعة الاحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها وقد ذهب الى ان المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاوس وابو مالك وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى كتابا متشابها مثاني وقيل المراد بالسبع المثاني اقسام القرآن وهي الامر والنهي والتبشير والانذار وضرب الامثال وتعريف النعم وانباء القرون الماضية قاله زياد بن ابي مريم ولا يخفى عليك ان تسمية الفاتحة مثاني لا يستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم وقد تقرر انها المرادة بهذه الآية فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ المراد به سائر القرآن قاله ابن مسعود فيكون من عطف العام على الخاص لان الفاتحة بعض من القرآن وكذلك ان اريد بالسبع المثاني السبع الطوال لانها بعض من القرآن واما اذا اريد بها السبعة الاحزاب او جميع القرآن او اقسامه فيكون من باب عطف احد الوصفين على الآخر او من عطف الكل على البعض ان اريد بالقرآن المجموع الشخصي ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة ان هذه السورة مكية واكثر السبع الطوال مدنية وكذلك اكثر القرآن واكثر اقسامه وظاهر قوله ولقد آتيناك الخ انه قد تقدم ايتاء السبع على نزول هذه الآية وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابي سعيد بن المعلى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج فذكرت فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم واخرج البخاري ايضا من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ام القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم وفي حديث

المصير الى القول بانها فلقة الكتاب و لكن تسميتها بذلك لاينافي تسمية غيرها به كما قدمنا وعن الضحاك قال المثاني القران يذكر الله القصة الواحدة مرارا وعن زياد بن ابي مريم في الاية قال اعطيتك سبعة اجزاء مُرْ وانْهَ و بَشِّر وانْذِر واضْرِب الامثال واعْدُد النعم وآتِلْ نبأ القران ثم لما بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما انعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره الله عن اللذات العاجلة الزائلة فقال لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ اي لاتطمح ببصرك الى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمن لها قال الواحدي انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا ادام النظر نحوه و ادامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه وقال بعضهم المعنى لاتحسدن احدا على ما اوتي من الدنيا ورُد بان الحسد منهي عنه مطلقا وانما قال في هذه السورة لاتمدن بغير واو لانه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه وعن ابن عباس قال في قوله لاتمدن عينيك نهى الرجل ان يتمنى مال صاحبه والازواج الاصناف قاله ابن قتيبة وقال الجوهري الازواج القرناء وقيل يعني اليهود والنصارى والمجوس وعن مجاهد في قوله ازواجا منهم قال الاغنياء الامثال والاشباه وعن سفيان بن عيينة قال من اعطي القران فمد عينيه الى شيء مما صغر القران فقد خالف القران الم تسمع قوله ولقد اتيناك سبعا من المثاني الى قوله ورزق ربك خير وابقى وقد فسر ابن عيينة ايضا الحديث الصحيح ليس منا من لم يتغن بالقران فقال ان المعنى لم يستغن به ثم لما نهاه عن الالتفات الى اموالهم وامتعتهم نهاه عن الالتفات اليهم فقال وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد وقيل المعنى لاتحزن على ما متعوا به في الدنيا وفاتك من مشاركتهم فيها فان لك الاخرة والاول اولى روى البغوي بسنده عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتغبطن فاجرا بنعمته فانك لاتدري ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لايموت قيل وما هو قال النار وعنه عند مسلم مرفوعا انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لاتزدروا نعمة الله عليكم قال عون كنت اصحب الاغنياء فما كان احد اكثر هما مني كنت ارى دابة خيرا من دابتي وثوبا خيرا من ثوبي فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ثم لما نهاه عن ان يمد عينيه الى اموال الكفار وان يحزن عليهم وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم امره ان يتواضع للمؤمنين فقال وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ومنه قوله سبحانه واخفض لهما جناح الذل

واصله ان الطائر اذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفاً لتواضع الانسان لاتباعه ويقال فلان خافض الجناح اي وقور ساكن والجناحان من ابن آدم جانباه ومنه واضمم يدك الى جناحك **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** اي المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ** عذاباً اي اني انا النذير لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي انزلناه عليهم كقوله تعالى انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقيل ان الكاف زائدة وقيل متعلق بمحذوف والتقدير انزلنا اليك انزالاً مثل ما انزلنا قاله الكرخي وقيل هو متعلق بقوله لقد آتيناك اي انزلنا عليك مثل ما انزلنا على اهل الكتاب وهم المقتسمون قاله الزمخشري والاولى ان يتعلق بقوله اني انا النذير المبين لانه في قوة الامر بالانذار وقيل ان العذاب المنذر به ينبغي ان يشبه بشيء قد وقع يعرفه المنذرون حتى يحصل لهم تخويف والمشبه به هنا قد علمت انه غير واقع فكانه قال انذركم بعذاب مشابه بعذاب سيقع قاله ابو السعود وقد اختلف في المقتسمين من هم على اقوال سبعة فقال مقاتل والفراء هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة ايام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وانقابها وفجاجها يقولون لمن دخل مكة لا تغتروا بهذا الخارج فينا فانه مجنون وربما قالوا ساحر وربما قالوا شاعر وربما قالوا كاهن فقيل لهم المقتسمون لانهم اقتسموا هذه الطرق وقيل انهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً وبعضه سحراً وبعضه كهانة وبعضه اساطير الاولين قاله قتادة وقيل هم اهل الكتاب وسموا مقتسمين لانهم كانوا يقسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك روي هذا عن ابن عباس وقيل انهم اقتسموا كتابهم وفرقوه وبددوه وحرفوه وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى تقاسموا بالله لنبيتنه واهله وقيل تقاسموا ايماناً تحالفوا عليها قاله الاخفش قلت وفي هذا الوجه قرب من حيث المقاسمة وبعد من حيث وصفهم بجعلهم القرآن عضين واما الاوجه الاخرة فهي مستقيمة وقيل انهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل بن هشام وابو البختري والنضر بن الحارث وامية بن خلف وشيبة بن الحجاج ذكره الماوردي **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** جمع عضة واصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها اعضاء واجزاء فيكون المعنى على هذا الذين جعلوه اجزاء متفرقة بعضه شعر وبعضه سحر وبعضه كهانة ونحو ذلك وقيل هو مأخوذ من عضهته اذا بهته فالمحذوف منه الهاء

لا الواو وجمعت العضة على العضين جمع العقلاء وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم
ببعض وقيل العضة والعضين في لغة قريش السحر وهم يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة
وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة وفسر بالساحرة والمستسحرة والمعنى
انهم اكثروا البهت على القرآن وسموه سحرا وكذبا واساطير الاولين ونظير عضه في النقصان شفه
والاصل شفهة وكذلك سنة اصلها سنهة قال الكسائي العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون
وقال الفراء انه ماخوذ من العضاه وهي شجرة تؤذي وتجرح كالشوك ويجوز ان يراد بالقرآن التوراة
والانجيل لكونهما مما يقرأ ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى اي جعلوهما اجزاء متفرقة وهو
احد الاقوال المتقدمة فوربك اقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة لنسألنهم اي هؤلاء الكفرة
اجمعين يوم القيامة سؤال توبيخ عما كانوا يعملون في الدنيا من الاعمال التي يحاسبون عليها ويسألون
عنها وقيل ان المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد وقد اخرج الترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن المنذر
وابن ابي حاتم عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال عن قول لا اله الا الله وروي عن انس موقوفا
وعن ابن عمر مثله والعموم يفيد ما هو اوسع من ذلك وقيل ان المسؤلين ههنا هم جميع المؤمنين والعصاة
والكفار ويدل عليه قوله ثم لتسألن يومئذ عن النعيم وقوله وقفوهم انهم مسؤلون وقوله ان الينا
ايابهم ثم ان علينا حسابهم ويمكن ان يقال ان قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف
العموم اليهم لا ينافي سؤال غيرهم فاصدع بما تؤمر قال الزجاج يقول اظهر ما تؤمر به من الشرائع
اخذا من الصديع وهو الصبح انتهى واصل الصدع الفرق والشق يقال صدعته فانصدع اي انشق
وتصدع القوم اي تفرقوا ومنه يومئذ يصدعون اي يتفرقون قال الفراء اراد فاصدع بالامر
اي اظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر وقال ابن الاعرابي معناه اقصد وقيل فرق
جمعهم وكلمتهم بان تدعوهم الى التوحيد فانهم يتفرقون والاولى ان الصدع الاظهار كما قاله الزجاج
والفراء وغيرهما قال الواحدي قال المفسرون اي اجهر بالامر اي بامرك بعد اظهار الدعوة وما زال
النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو واصحابه وقال ابن عباس هذا امر من الله
لنبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالته قومه وجميع من ارسل اليه واصدع بمعنى امضه واعلن ثم امره
الله سبحانه بعد امره بالصدع بالاعراض وعدم الالتفات الى المشركين فقال واعرض عن

المشركين اي لاتبال بهم ولا تلتفت اليهم اذا لاموك على اظهار الدعوة قال ابن عباس نسخه قوله تعالى فاقتلوا المشركين وليس للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا ثم اكد هذا الامر وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ مع انهم كانوا من اكابر الكفار واهل الشوكة فيهم فاذا كفاه الله امرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه امر من هو دونهم بالاولى وهؤلاء المستهزءون كانوا خمسة من رؤساء اهل مكة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث والحرث بن الطلاطلة كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين وقد اهلكهم الله جميعا يوم بدر وكفاه امرهم في يوم واحد وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء بل لهم ذنب اخر وهو الشرك بالله سبحانه ثم توعدهم فقال فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه ثم ذكر تسلية اخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التسلية الاولى بكفايته شرهم ودفعه مكرهم فقال وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ من الاقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة والكذب وقد كان يحصل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانساني وان كان مفوضا جميع اموره لربه ثم امره سبحانه بان يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ اي افزع الى الله فيما نابك وافعل التسبيح المتلبس بالحمد او فنزهه عما يقولون حال كونك حامدا له على ان هداك للحق وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ اي من المصلين فانك اذا فعلت ذلك كشف الله همك واذهب غمك وشرح صدرك وفي الكلام مجاز ثم امره بعبادة ربه فقال وَاعْبُدْ رَبَّكَ من عطف العام على الخاص اي دم على عبادته الى غاية هي قوله حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ــــ قال الواحدي قال جماعة المفسرين يعني الموت لانه موقن به متيقن الوقوع والنزول لا يشك فيه احد وقال ابو حيان ان اليقين من اسماء الموت ولانه يزول كل شك ووقت العبادة بالموت اعلاما بانها ليس لها نهاية دون الموت فلا يرد ما قيل اي فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات ثم ايضاح الجواب ان المراد واعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من العبادة والله اعلم بمراده ٭

قال الزجاج المعنى اعبد ربك ابدا لانه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز اذا عبد الانسان مرة ان يكون مطيعا فاذا قال حتى ياتيك اليقين فقد امره بالاقامة على العبادة ابدا ما دام حيا ومثله قوله تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلوة والزكوة ما دمت حيا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر فزع الى الصلوة اخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن ابي مسلم الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اوحي الي ان اجمع المال واكن من التاجرين ولكن اوحي الي ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى ياتيك اليقين وروي بطرق كثيرة

سُوْرَةُ النَّحْلِ مِائَةٌ وَثَمَانٌ وَعِشْرُوْنَ اٰيَةً

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن عبد الله وروي عن ابن عباس وابن الزبير انها نزلت بمكة سوى ثلاث ايات من اخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من احد وهي قوله تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله تعملون وقال قتادة هي مكية الا خمس ايات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله وان عاقبتم الى اخر السورة وزاد مقاتل قوله من كفر بالله من بعد ايمانه الاية وضرب الله مثلا قرية وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية والاول اولى وتسمى هذه سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

اَتٰى اَمْرُ اللّٰهِ اي جاء ودنا وقرب عقابه للمشركين بالقتل بالسيف والتعبير بالماضي للتحقق وعن قال جماعة من المفسرين الامر القيامة قال الزجاج هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ولما نزلت هذه الاية قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت انا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما اخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد وقيل ان المراد بالامر حكمه بذلك وقد وقع واتى فاما المحكوم به فانه لا يقع لانه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود وقيل المراد باتيانه اتيان مباديه ومقدماته وقال الضحاك يعني الاحكام والحدود والفرائض فَلَا تَسْتَعْجِلُوْهُ اي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت فانه واقع لا محالة ولا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه وقد كان المشركون يستعجلون العذاب كما قال النضر بن الحارث اللهم ان كان

هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية والمعنى قرب امر الله فلا تستعجلوه
وقد كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة وفي نهيهم عن
الاستعجال تهكم بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ اي تنزه الله وترفع عن اشراكهم او عن ان يكون له
شريك وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب وقيام الساعة استهزاء وتكذيبا فانه
يتضمن وصفهم له سبحانه بانه لا يقدر على ذلك وانه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات
المخلوق لا من صفات الخالق فكان ذلك شركا وهذه الجملة تنازع فيها العاملان وفيه التفات
من الخطاب الى الغيبة تحقير الشأنهم وحطا لدرجتهم عن رتبة الخطاب وفي قراءة سبعية بالتاء
وما مصدرية فلا عائد لها عند الجمهور او موصولة كما قاله السمين اي عما يشركونه به وما عبارة عن
الاصنا يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ قرئ بالياء التحتية والفاعل هو الله سبحانه وقرئ تنزل من التفعل والاصل
تتنزل فالفعل مسند الى الملائكة وقرئ تنزل على البناء للمفعول وننزل بالنون والمراد بالملائكة
هنا جبريل وعبر عنه بالجمع تعظيما له بِالرُّوحِ هو الوحي قاله ابن عباس ومثله يلقي الروح من امره
وسمي الوحي روحا لانه يحيي قلوب المؤمنين فان من جملة الوحي القرآن وهو نازل من الدين منزلة
الروح من الجسد وبه قال الحسن فالتعبير بالروح عن الوحي على طريق الاستعارة التصريحية
بجامع ان الروح به احياء البدن والوحي به احياء القلوب من الجهالات وقيل المراد ارواح الخلائق
وقيل الرحمة وقيل الهداية لانها تحيى بها القلوب كما تحيى الابدان بالارواح قال الزجاج الروح ما كان فيه من الله
حياة بالارشاد الى امره وقال ابو عبيدة الروح هنا جبريل ويكون الباء على هذا بمعنى مع وعن ابن
عباس قال الروح امر من امر الله وخلق من خلق الله صورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك الا ومعه
واحد من الروح ثم تلى يوم يقوم الروح والملائكة صفا ومن في مِنْ أَمْرِهِ بيانية اي ناشئا ومبتدئا
من امره او صفة للروح او متعلق بينزل عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يعني من يصطفيه للنبوة والرسالة
وتبليغ الوحي الى الخلق وهم الانبياء ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها انه صلى الله عليه وسلم لما اخبرهم عن الله
انه قد قرب امره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا في الطريق التي علم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فاخبر
انه علم بها بالوحي على السن رسل الله سبحانه من ملائكته أَنْ أَنْذِرُوا قال الزجاج اي بان انذروا
او المعنى بان الشان اقول لكم انذروا اي اعلموا الناس عبارة البيضاوي وان مفسرة لان الروح بمعنى

لان الروح بمعنى الوحي الدال على القول او مصدرية في موضع الجر بدلا من الروح او النصب على
الخافض او مخففة من الثقيلة أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا اي مروهم بتوحيدي واعلموهم ذلك مع تخويفهم
لان في الانذار تخويفا وتهديدا والضمير في انه للشان فَاتَّقُونِ رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود و
الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله والفاء فصيحة وفي الشهاب
اذا كان الانذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول فاتقون في المنذر به لانه هو المنذر به في الحقيقة
واذا كان بمعنى الاعلام فالمقصود بالاعلام هو الجملة الاولى وهذا متفرع عليها انتهى وفيه تنبيه
على الاحكام الفرعية بعد التنبيه على الاحكام العلمية بقوله انه لا اله الا انا فقد جمعت هذه الآية
بين الاحكام الاصلية والفرعية ثم انه سبحانه لما ارشدهم الى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ اي اوجدهما على هذه الصفة التي هما عليها بِالْحَقِّ اي للدلالة على قدرته
ووحدانيته وقيل المراد بالحق هنا الفناء والزوال تَعَالَىٰ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ اي تقدس وترفع عن اشراكهم او
عن شريكه الذي يجعلونه شريكا له وما اسمية موصولة او موصوفة وقيل عما يشركونه من الاصنام
او منهما اي السموات والارض ثم لما كان نوع الانسان اشرف انواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه
بالذكر فقال خَلَقَ الْإِنسَانَ وهو اسم لجنس هذا النوع مِن نُّطْفَةٍ اي من جماد يخرج من حيوان وهو المني
فقلبه اطوارا الى ان كملت صورته ونفخ فيه الروح واخرجه من بطن امه الى هذه الدار فعاش فيها
ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخي والنطفة القطرة من الماء يقال نطف راسه
ماء اي قطر وقيل هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل
للنطفة فعل من لفظها فَإِذَا هُوَ بعد خلقه على هذه الصفة خَصِيمٌ كثير الخصومة والمجادلة والمعنى انه
كالمخاصم لله سبحانه في قدرته مُّبِينٌ ظاهر الخصومة وواضحها وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به
من الباطل والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من
نطفة فاذا هو خصيم مبين قيل نزلت في ابي بن خلف والاولى انها عامة في كل ما يقع من الخصومة
في الدنيا ويوم القيامة فانه لا اعتبار بخصوص السبب اذا اقتضى المقام العموم كما تقرر قال الكرخي
ان هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في
الغي والكفر ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الانعام لما فيها من النفع لهذا النوع وللامتنان بها اكمل

من الامتنان بغيرها فقال وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا وهي الابل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز واكثر ما يقال نعم وانعام للابل ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة وقال الجوهري والنعم واحد الانعام واكثر ما يقع هذا الاسم على الابل ثم لما اخبر سبحانه بانه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم قال الواحدي تم الكلام عند هذا ثم ابتدأ فقال لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ويجوز ان يكون تمامه عند قوله لكم والاول اولى واحسن والدفء السخانة وهو ما استدفئ به من اصوافها واوبارها واشعارها قال ابن عباس دفء الثياب اي من الاكسية والاردية قال بعض المفسرين ان في الآية التفاتا من الغيبة في الانسان الى الخطاب في لكم فيقتضي ان المخاطب مطلق بني آدم المندرجين تحت الانسان وَمَنَافِعُ اي ما ينتفعون به من الاطعمة والاشربة قاله ابن عباس وهي درها وركوبها ونتاجها والحراثة ونحو ذلك وقد قيل ان الدفء النتاج واللبن قال في الصحاح الدفء نتاج الابل والبانها وما ينتفع به منها ثم قال والدفء ايضا السخونة وعلى هذا فان اريد بالدفء المعنى الاول فلا بد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها وان حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا وقيل المراد بالمنافع النتاج خاصة وقيل الركوب وَمِنْهَا اي من لحومها وشحومها تَأْكُلُونَ وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لانها اعظمها وقيل خصها لان الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للاشارة الى ان الاكل منها هو الاصل وغيره نادر فالاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر يجري مجرى التفكه به وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر ولما كانت منفعة اللباس اعظم من منفعة الاكل قدمه على الاكل وَلَكُمْ فِيهَا مع ما تقدم ذكره جَمَالٌ هو ما يتجمل به ويتزين والحسن والمعنى هنا لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين اليها حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ اي في هذين الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها اليها فالرواح والاراحة رجوعها بالعشي وردها من المراعي والسراح مسيرها الى مراعيها بالغداة يقال سرحت الابل اسرحها سرحا وسروحا اذا غدوت بها الى المرعى وقدم الاراحة على التسريح مع انه خلاف الواقع لان منظرها عند الاراحة اجمل وذواتها احسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الاكل والشرب فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها فيفرح اهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون

متامرة الضروع وخص هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين اليها لانها عند استقرارها في
الحظائر لا يراها احد وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب وانما
تكون هذه الاراحة ايام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلاء وخرجت العرب للنجعة واحسن ما تكون
النعم في هذا الوقت فانه يسمع للابل رغاء وللبقر خوار وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا وَتَحْمِلُ اي
الانعام والمراد بها هنا الابل خاصة أَثْقَالَكُمْ جمع ثقل وهو متاع المسافر من طعام وغيره وسمي
ثقلا لانه يثقل الانسان حمله وقيل المراد ابدانهم إِلَى بَلَدٍ غير بلدكم لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ اي واصلين
اليه لو لم يكن معكم ابل تحمل اثقالكم إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ لبعده عنكم وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه في
السفر وظاهره يتناول كل بلد بعيد من غير تعيين وقيل المراد بالبلد مكة قاله ابن عباس وقيل اليمن
ومصر والشام لانها متاجر العرب بشق الانفس مشقتها قرئ بكسر الشين وبفتحها قال الجوهري الشق
المشقة ومنه قوله تعالى الا بشق الانفس وحكى ابو عبيدة فتح الشين وهما بمعنى ويجوز ان يكون المفتوح
مصدرا من شققت عليه اشق شقا والمكسور بمعنى النصف يقال اخذت شق الشاة وشقة الشاة
ويكون المعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بذهاب نصف الانفس من التعب وقد امتن الله سبحانه على
عباده بخلق الانعام على العموم ثم خص الابل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الاثقال دون البقر والغنم و
الاستثناء من اعم العام لم تكونوا بالغيه بشيء من الاشياء الا بشق الانفس قال ابن عباس لو تكلفتموه
لم تطيقوه الا بجهد شديد إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ اي وخلق لكم هذه الثلاثة الاصناف وسميت الخيل خيلا لاختيالها في
مشيها وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن وقيل اسم جنس لا واحد له من لفظه بل من
معناه وهو الفرس والبغال جمع بغل وهو المتولد من الخيل والحمير والحمير جمع حمار ثم علل سبحانه خلق
هذه الانواع الثلاثة بقوله لِتَرْكَبُوهَا وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها لان الانتفاع بها في
غير الركوب معلوم كالتحميل عليها وَزِينَةً عطف على محل لتركبوها لانها في محل نصب على انه علة
لخلقها ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها لان الركوب فعل المخاطبين والزينة فعل الزائن و
هو الخالق والتحقيق فيه ان الركوب هو المعتبر في المقصود بخلاف الزينة فانه لا يلتفت اليه اهل الهمم العالية
لانه يورث العجب فكانه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا بواسطتها عن انفسكم ضرر الاعياء

والمشقة واما التزين بها فهو حاصل في نفس الامر ولكنه غير مقصود بالذات وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بان التعليل بالركوب يدل على انها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها قالوا ويؤيد ذلك افراد هذه الانواع الثلاثة بالذكر واخراجها عن الانعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الاكل قالوا ولو كان اكل الخيل جائزا لكان ذكره والامتنان به اولى من ذكر الركوب لانه اعظم فائدة منه وقد ذهب الى هذا مالك وابو حنيفة واصحابهما والاوزاعي ومجاهد وابو عبيد وغيرهم وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم الى حل لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الشافعي واحمد واسحق ولا حجة لاهل القول الاول في التعليل بقوله لتركبوها لان ذكر ما هو الاغلب من منافعها لا ينافي غيره ولا نسلم ان الاكل اكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره اقدم من ذكر الركوب وايضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الاهلية وح لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر وقد قدمنا ان هذه السورة مكية والحاصل ان الادلة الصحيحة قد دلت على حل اكل لحوم الخيل فلو سلمنا ان في هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ودافعة لهذا الاستدلال وقد اوضح الشوكاني هذه المسئلة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه الى غيره وقد ورد في حل اكل لحوم الخيل احاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث اسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فاكلناه واخرج ابو عبيد وابن ابي شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن ابي حاتم عن جابر قال اطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الاهلية واخرج ابو داود نحوه من حديثه ايضا وهما على شرط مسلم وثبت ايضا في الصحيحين من حديث جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الاهلية واذن في الخيل واما ما اخرجه ابو عبيد وابو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمار ففي اسناده صالح بن يحيى بن ابي المقدام وفيه مقال ولو فرضنا ان الحديث صحيح لم يقو على معارضة احاديث الحل على انه يمكن ان هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر فيكون منسوخا وعامة المفسرين والمحدثين على ان الحمر الاهلية حرمت عام خيبر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الاشياء العجيبة والغريبة مما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا وقيل المراد من انواع الحشرات والهوام

في اسافل الارض وفي البحر مالم يره البشر ولم يسمعوه وقيل هو ما اعد الله لعباده في الجنة وفي النار مما
لم تر عين ولم تسمع به اذن ولا خطر على قلب بشر وقيل هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه
وقيل عين تحت العرش وقيل نهر من النور وقيل ارض بيضاء ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه
الآية على نوع من هذه الانواع بل المراد انه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد فيشمل كل شيء لا يحيط
علمهم به والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة لانه سبحانه قد خلق مالم يعلم به
العباد ولا يأتي عليه الحصر والعد واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان مما خلق الله ارضا من لؤلؤ بيضاء ثم ساق من اوصافها ما يدل على ان الحديث موضوع
ثم قال في آخره فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل
فالمعنى وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع وقيل هو على
حذف مضاف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل والسبيل الاسلام وبيانه بارسال الرسل
وانزال الكتب واقامة الحجج والبراهين والقصد في السبيل هو كونه موصلا الى المطلوب فالمعنى وعلى
الله بيان الطريق الموصلة الى المطلوب ﴿وَمِنْهَا﴾ الضمير راجع الى السبيل بمعنى الطريق لانها تذكر وتؤنث
او لانها في معنى سبل فانث على معنى الجمع وقيل راجع اليها بتقدير مضاف اي ومن جنس السبيل ﴿جَائِرٌ﴾
مائل عن الحق والجور العدول عن الاستقامة وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها والمعنى ومنهم
جائر عن سبيل الحق اي عادل عنه فلا يهتدي اليه قيل وهم اهل الاهواء المختلفة وقيل اهل
الملل الكفرية فقصد السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل
الكفر وقيل قصد السبيل السنة المطهرة والجائر البدع المحدثة المضلة قال ابن عباس على الله ان
يبين الهدى والضلالة ومنها جائر قال السبل المتفرقة وقال قتادة وعلى الله بيان حلاله وحرامه
وطاعته ومعصيته ومنها جائر قال من السبل ناكب عن الحق وعن علي كان يقرأ ومنكم جائر
﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اي ولو شاء ان يهديكم جميعا هداية موصلة الى الطريق الواضح الصحيح
والمنهج الحق الصريح لفعل ذلك ولكنه لم يشأ بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة
عليها كما قال وهديناه النجدين واما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم ان لا يوجد في العباد كافر
ولا من يستحق النار من المسلمين وقد اقتضت المشيئة الربانية بكون البعض مؤمنا والبعض كافرا

كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب احوال الحيوانات اراد ان يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب احوال النبات فقال هُوَ الَّذِيٓ اَنْزَلَ مِنَ جهة السَّمَآءِ وهي السحاب مَآءً اي نوعا من انواع الماء وهو المطر لَكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم والمعنى ان الماء النازل من السماء قسمان قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فانه من المطر لقوله فسلكه ينابيع في الارض وَقسم يحصل مِنْهُ شَجَرٌ ترعاه المواشي قال الزجاج كل ما نبت من الارض فهو شجر لان التركيب يدل على الاختلاط ومنه تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم بالبعض ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلاء وفيما له ساق وقال ابن قتيبة المراد من الشجر في الآية الكلاء وقيل الشجر كل ما له ساق كقوله تعالى والنجم والشجر يسجدان والعطف يقتضي التغاير فلما كان النجم ما لا ساق له وجب ان يكون الشجر ما له ساق واجيب بان عطف الجنس على النوع جائز وقيل المراد بالشجر هنا مطلق النبات سواء كان له ساق او لا فِيْهِ تُسِيْمُوْنَ اي في الشجر ترعون مواشيكم يقال سامت السائمة تسوم سوما رعت فهي سائمة واسمتها اي اخرجتها الى الرعي فانا مسيم وهي مسامة وسائمة واصل السوم الابعاد في المرعى قال الزجاج اخذ من السومة وهي العلامة لانها تؤثر في الارض علامات برعيها يُنْۢبِتُ الله لَكُمْ بِهِ اي بذلك الماء الذي انزله من السماء استينافا في جواب عن منافع الماء وهذه الآية مبنية على مكارم الاخلاق وهو ان يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده اكمل من اهتمامه بنفسه واما الآية الاخرى فمبنية على قوله صلعم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول وقدم الزَّرْعَ لانه اصل الاغذية التي يعيش بها الناس وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما وذكر الزَّيْتُوْنَ بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه وادامًا من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة وَذكر النَّخِيْلَ لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب اشرف الفواكه وَجمع الْاَعْنَابَ لاشتمالها على الاصناف المختلفة وهي تشبه النخلة في المنفعة من التفكه و التغذية ثم اشار الى سائر الثمرات اجمالا فقال وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرٰتِ كما اجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية اذ كلها انما يوجد في الجنة وما انبت الارض بعض من كلها للتذكرة اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ الانزال والانبات لَاٰيَةً عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد

بالربوبية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته فقد ذكر لفظ
الآية في هذه السورة سبع مرات خمس بالافراد وثنتان بالجمع قال الكرماني ما جاء بلفظ الافراد
فلوحدة المدلول وهو الله تعالى وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات وختم هذه الفاصلة
بالتفكر لان النظر في ذلك يعني نبات النبات بالماء يحتاج الى مزيد تأمل واستعمال فكر الا ترى
ان الحبة الواحدة اذا وضعت في الارض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الارض فانها تنتفخ
وينشق اعلاها فتصعد منه شجرة الى الهواء واسفلها تغوص منه عروق في الارض ثم ينمو الاعلى
ويقوى ويخرج منه الاوراق والازهار والاكمام والثمار المشتملة على اجسام مختلفة الطباع في الطعوم
والالوان والروائح والاشكال والمنافع ومن تفكر في ذلك علم ان من هذه افعاله وآثاره لا يمكن
ان يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلا عن ان يشاركه اخس الاشياء في اخص صفاته
التي هي الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ذكره الخازن وابو السعود وَ
سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم تستدعيه
حاجاتهم يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن ارادته ولا يهمل
السعي في نفعه وكذا الكلام في تسخير الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وقوله وَالنُّجُومُ قرأ حفص عن عاصم برفعه
على انه مبتدأ وخبره مُسَخَّرَاتٌ أي مذللات مقهورات بِأَمْرِهِ تعالى تجري على نمط متحد يستدل بها
العباد على مقادير الاوقات ويهتدون بها ويعرفون اجزاء الزمان ولا تصرف لها في نفسها
فضلا عن غيرها وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة
المتصرفة في العالم السفلي فاخبر سبحانه انها مذللات تحت قهره وارادته إِنَّ فِي ذَٰلِكَ التسخير
وما بعده لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ اي يعملون عقولهم في هذه الآيات الدالة على وجود الصانع
وتفرده وعدم وجود شريك له وختم الفاصلة الثانية بالعقل لان الآثار العلوية اظهر دلالة
على القدرة الباهرة وابين شهادة للكبرياء والعظمة وجمع الآيات ليطابق قوله مسخرات وقيل
ان وجه الجمع هو ان كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما
تقدم من الانبات فانه آية واحدة ولا يخلو كل هذا عن تكلف والاولى ان يقال ان هذه المواضع
الثلاثة التي افرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد

باعتبار فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا وتنبيها على جواز الامرين وحسن كل واحد منهما
وما ذرأ لكم في الارض اي خلق لكم في الارض يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا فهو ذارئ ومنه الذرية وهي
نسل الثقلين وقد تقدم تحقيق هذا اي وسخر لكم ما ذرأ في الارض من الدواب والانعام والاشجار
والثمار فالمعنى انه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الارضية مختلفا الوانه اي
هيئاته ومناظره فان ورود هذه الاشياء على اختلاف الالوان والاشكال مع تساوي الكل في الطبيعة
الجسمية اية عظيمة دالة على وجود صانع سبحانه وتفرده قال قتادة مختلفا من الدواب والشجر
والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله ان في ذلك التسخير لهذه الامور مع اختلاف طبائعها
واشكالها مع اتحاد موادها لاية واضحة لقوم يذكرون فان من تذكر اعتبر ومن اعتبر استدل على
المطلوب قيل وانما خص المقام الاول بالتفكر لامكان ايراد الشبهة وخص الثاني بالعقل لذكره
بعد اماطة الشبهة وازاحة العلة فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له وخص الثالث بالتذكر
لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له وفي هذا من التكلف ما لا يخفى والاولى ان يقال هنا
كما قلنا فيما تقدم في افراد الاية في البعض وجمعها في البعض الاخر وبيانه ان كلا من هذه المواضع
الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان في التعبير
في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة وهو
الذي سخر البحر امتن الله سبحانه بتسخير البحر بامكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد و
جواهر لكونه من جملة النعم التي انعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب
سبحانه وكمال قدرته وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير باياته الارضية
والسماوية والبحرية فارشدهم الى النظر والاستدلال بالايات المتنوعة المختلفة الامكنة اتماما للحجة
وتكميلا للانذار وتوضيحا لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ومواضع النظر والاعتبار ثم ذكر العلة
في تسخير البحر فقال لتأكلوا منه لحما طريا المراد به السمك ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والاشارة
الى المسارعة باكله لكونه مما يفسد بسرعة قال قتادة يعني حيتان البحر وقال السدي وما فيه من الدواب
وبدأ بذكر الاكل لانه اعظم المقصود وبه قوام البدن وتسميته لحما هو مذهب المالكية خلافا
للشافعية والحنفية وعلى هذا فلو حلف لا ياكل لحما لا يحنث باكل السمك ولاظهار قدرته في خلقه

خلقه عند بأطريا في ماء ملح والطراوة ضد اليبوسة اي غضا جديدا و يقال طريت كذا اي
جددته واطريت فلانا مدحته باحسن ما فيه ويقال بالغت في مدحه وجاوزت وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ اي من البحر وهو الملح فقط حِلْيَةً اي لؤلؤا ومرجانا كما في قوله سبحانه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان
والحلية اسم لما يتحلى به واصلها الدلالة على الهيئة كالعمة وفي المصباح حلي الشيء بعيني وبصدري
من باب تعب حلاوحسن عندي واعجبني وحليت المرأة حليا ساكن اللام لبست الحلي وجمعه
حلي والاصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلى مقصور وتضم الحاء
وتكسر وحلية السيف زينته قال ابن فارس ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي واتخذته وحليتها
بالتشديد البستها الحلي او اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيئا حلوا حتى حلا
وظاهر قوله تَلْبَسُونَهَا انه يجوز للرجال ان يلبسوا اللؤلؤ والمرجان اي يجعلونهما حلية لهم
كما يجوز للنساء ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تاويل قوله تلبسونها بقولهم يلبسه
نساؤهم لانهن من جملتهم او لكونهن يلبسنها لاجلهم وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع
الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان مالم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها الا النساء خاصة فان
ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبها بهن لا من جهة كونه حلية لؤلؤا ومرجانا
وعن ابي جعفر قال ليس في الحلي زكوة ثم قرأ هذه الاية اخرجه ابن ابي شيبة اقول وفي هذا
الاستدلال نظر والذي ينبغي التعويل عليه ان الاصل البراءة من الزكوة حتى يرد الدليل بوجوبها
في شيء من انواع المال فتلزم وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ولم يرد في الجواهر
على اختلاف اصنافها ما يدل على وجوب الزكوة فيها وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ اي ترى السفن
شواق الماء تمخره بصدورها قاله عكرمة ومخر السفينة شقها الماء بصدرها قال الجوهري
مخر السابح اذا شق الماء بصدره ومخر الارض شقها للزراعة وقيل مواخر جواري قاله ابن عباس
واصل المخر الجري في المختار مخرت السفينة من باب قطع ودخل اذا جرت تشق الماء مع صوت
وقيل معترضة وقيل تذهب وتجيء قال الضحاك السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة
وقيل مواقر اي مملوءة متاعا وقال ابو عبيدة صوائح وقيل ملججة قال ابن جرير المخر في اللغة صوت
هبوب الريح عند شدتها ولم يقيد بكونه في الماء وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ اي لتنتفعوا بذلك

لم يقال ... السفن اي ... الصحاح

ولتبتغوا من فضله لتبتغوا اي التجارة والتي يحصل لكم منها من فضل الله سبحانه قال السدي هي التجارة وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ اي اذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والاركان قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع احمال ثقيلة من غير مزاولة اسباب السفر بل من غير حركة اصلا مع انها في تضاعيف المهالك ويمكن ان يضم الى ما ذكر من قطع للمسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كون فيه اطيب ماكول وانفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من اعظم الاسباب المستدعية للشكر الموجبة له ثم اردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة اخرى واية كبرى فقال وَاَلْقٰى فِي الْاَرْضِ رَوَاسِيَ اي جبالا ثابتة يقال رسى يرسو اذا ثبت واقام اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ اي كراهة ان تميد بكم على ما قاله البصريون اولئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون والميد الاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد الشيء يميد ميدا تحرك ومادت الاغصان تمايلت وماد الرجل تبختر قال قتادة حتى لا تميد بكم كانوا على الارض تمور بهم لا تستقر فاصبحوا صبحا وقد جعل الله سبحانه الجبال وهي الرواسي اوتادا في الارض وَجَعَلَ فيها اَنْهَارًا لان الالقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله والقيت عليك محبة مني وذكر الانهار عقب الجبال لان معظم عيون الانهار واصولها تكون من الجبال قال السيوطي كالنيل ولم يذكر في المثال غير هذا لانه من اهل مصر وَجَعَلَ فيها سُبُلًا واظهرها وبينها لاجل ان تهتدوا بها في اسفاركم الى مقاصدكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان وهي الطرق وقال السدي هي الطرق في الجبال لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون او الى توحيد ربكم وَجَعَلَ فيها عَلَامَاتٍ هي معالم الطرق جمع علامة وفي المصباح اعلمت على كذا بالالف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة واعلمت الثوب جعلت له علما من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم اعلام مثل سبب واسباب وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له امارة يعرفها والمعنى انه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها وَبِالنَّجْمِ المراد به الجنس هُمْ يَهْتَدُوْنَ به في سفرهم ليلا وقرئ النجم بضمتين والمراد النجوم وهو جمع نجم كسقف وسقف وقيل المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء وقيل الثريا وبنات نعش وقيل العلامات الجبال وقيل هي النجوم لان من النجوم ما يهتدى به ومنها

علامة لا يهتدي بها وذهب الجمهور الى ان المراد في الاية الاهتداء في الاسفار وقيل هو
الاهتداء الى القبلة ولا مانع من حمل ما في الاية على ما هو اعم من ذلك قال الاخفش تم الكلام
عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم الخ كلام منفصل عن الاول قال السدي علامات النهار الجبال
وعلامات الليل النجوم وقال ابن عباس معالم الطرق بالنهار الجبال ويهتدون بالنجم بالليل قال قتادة
انما خلق الله النجوم لثلاثة اشياء لتكون زينة للسماء ومعالم الطرق ورجوما للشياطين فمن قال
غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به ثم لما عدد الايات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته
اراد ان يوبخ اهل الشرك والعناد فقال أَفَمَنْ يَخْلُقُ هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات
الغريبة الجليلة ويفعل هذه الافاعيل العجيبة المرئية بالعيان كَمَنْ لَا يَخْلُقُ شيئا منها ولا يقدر على
ايجاد واحد منها وهي هذه الاصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه واطلق عليها
لفظ من اجراء لها مجرى اولي العلم جريا على زعمهم بانها الهة او مشاكلة لقوله افمن يخلق لوقوعها
في صحبته او هو من عكس التشبيه وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى وما احقهم
بذلك فانهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه تعالى الله عما يشركون أَفَلَا تَذَكَّرُونَ مخلوقات الله
الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك فانها لوضوحها
يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها لا يحتاج الى دقيق الفكر والنظر قال قتادة في الاية الله هو
الخالق الرازق وهذه الاوثان التي تعبد من دون الله تُخلق ولا تَخلق شيئا ولا تملك لاهلها ضرا
ولا نفعا ثم لما فرغ من تعديد الايات التي هي بالنسبة الى المكلفين نعم قال وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ولو اجتهدتم في ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه فضلا ان تطيقوا القيام
بحقها من اداء الشكر وهذا تذكيرا جمالي بنعمه تعالى وقد مر تفسير هذا في سورة ابراهيم قال
العقلاء ان كل جزء من اجزاء الانسان لو ظهر فيه ادنى خلل وايسر نقص لنغص النعم على الانسان
وتمنى ان ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل فهو سبحانه يدبر بدن هذا
الانسان على الوجه الملائم له مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر نعم الله عليه
او يقدر على احصائها او يتمكن من شكر ادناها يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك
معترفة بالعجز عن تادية الشكر لشيء منها لا نحصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك ولا نطيق

التعبير بالشكر لك فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فانك ان لا تفعل ذلك
تهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك فكيف بما قد فرطنا من التساهل في الائتمار باوامرك والانتهاء
عن مناهيك وما احسن ما قال من قال العفو يرجى من بني ادم . فكيف لا يرجى من الرب
وما احسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على انسان مشيرا الى عظيم غفرانه وسعة رحمته
فقال إِنَّ اللّٰهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ اي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه
والقصور عن احصائها والعجز عن القيام بادناها ومن رحمته ادامتها عليكم وادرارها في
كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها اللهم اني اشكرك عدد ما شكرك ويشكرك
الشاكرون بكل لسان في كل زمان فلقد خصصتني بنعم لم اردها على كثير من خلقك من انسان وحيوان
وان رأيت منها شيئا على بعض خلقك لم ار عليه بقيتها فاني اطيق شكرك وكيف استطيع تادية
ادنى شكر ادناها فكيف استطيع اعلاها فكيف استطيع شكر نوع من انواعها ثم بين لعباده انه
عالم بجميع ما يصدر منهم لا يخفى عليه خافية فقال وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّوْنَ اي ما تضمرونه من
العقائد والاعمال وَمَا تُعْلِنُوْنَ اي ما تظهرونه منها وحذف العائد لمراعاة الفواصل اي يستوي بالنسبة
الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه وعيد وتوبيخ وتعريض وتنبيه على ان الاله يجب ان يكون عالما
بالسر والعلانية لا كالاصنام التي تعبدونها فانها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلا عن
الضمائر والسرائر فكيف تعبدونها وقراءة التحتية شاذة فيهما كما نبه عليه السمين ثم شرع سبحانه
في تحقيق كون الاصنام التي اشار اليها بقوله كمن لا يخلق عاجزة عن ان يصدر منها خلق شيء فلا
تستحق عبادة فقال وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ بالياء والتاء سبعيتان اي الالهة الذين يدعوهم الكفار مِنْ
دُوْنِ اللّٰهِ سبحانه صفتهم هذه الصفات الثلاثة المذكورة المنافية للالوهية وهي انهم لَا يَخْلُقُوْنَ
شَيْئًا من المخلوقات اصلا لا كبيرا ولا صغيرا ولا جليلا ولا حقيرا وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ اي وصفهم انهم
يخلقون فكيف يتمكن المخلوق من ان يخلق غيره ففي هذه الاية زيادة بيان لانه اثبت لهم صفة
النقصان بعد ان سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله افمن يخلق كمن لا يخلق فانه اقتصر على مجرد
سلب صفة الكمال ثم ذكر صفة اخرى من صفاتهم فقال اَمْوَاتٌ يعني ان هذه الاصنام جثثهم
جمادات ميتة لا حياة بها اصلا فزيادة قوله غَيْرُ اَحْيَآءٍ لبيان انها ليست كبعض الاجساد التي تموت

بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه اصلا فكيف يعبدونها وهم افضل منها لانهم احياء وَمَا يَشْعُرُونَ اي الآلهة أَيَّانَ يُبْعَثُونَ اي الكفار الذين يعبدون الاصنام والمعنى ما تشعر هذه الجمادات من الاصنام ايان يبعث عبدتهم من الكفار ويكون هذا على طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد مستحيل بما هو من الامور الظاهرة فضلا عن الامور التي لا يعلمها الا الله سبحانه وقيل معناه ما يشعر هذه الاصنام ايان تبعث ومتى يبعثها الله وبه بدأ القاضي تبعا للكشاف ويؤيد ذلك ما روي ان الله يبعث الاصنام ويخلق لها ارواحا معها شياطينها فيؤمر بكلها الى النار ويدل على هذا قوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقيل الضمير للكفار وعلى القول بأن الضميرين او احدهما للاصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من عبدها بانها تعقل وايان بفتح الهمزة وكسرها لغتان وفي الآية قول آخر وهو ان ايان ظرف لقوله إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ يعني ان الاله يوم القيامة واحد ولم يدع احد تعدد الآلهة في ذلك اليوم بخلاف ايام الدنيا فانه قد وجد فيها من ادعى ذلك وعلى هذا فقد تم الكلام على قوله يشعرون الا ان هذا القول مخرج لايان عن موضوعها وهو اما الشرط واما الاستفهام الى محض الظرفية بمعنى وقت مضاف للجملة بعده والظاهر تفسيره بمتى يبعثون كما في الكشاف وغيره فانه لما زيف سبحانه طريقة عبدة الاصنام صرح بما هو الحق في نفس الامر وهو وحدانيته سبحانه وهو نتيجة ما قبله ثم ذكر ما لاجله اصر الكفار على شركهم فقال فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ جاحدة للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق متعظمون عن الاذعان للصواب مستمرون على الجحد لَا جَرَمَ قال الخليل هي كلمة تحقيق ولا يكون الا جوابا اي حقا قلت لا نافية وجرم بمعنى بد وهذا بحسب الاصل واما الآن فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى كلمة واحدة وتلك الكلمة مصدر او فعل معناه حق وثبت وقوله أَنَّ اللَّهَ فاعل لا جرم وقد مر تحقيق الكلام في لا جرم بابسط من هذا قال ابو مالك لا جرم يعني الحق وقال الضحاك لا كذب يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ من اقوالهم وافعالهم وَمَا يُعْلِنُونَ من ذلك إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ اي لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لانبيائه والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم اخرج مسلم وابو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة

من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان
فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال ان الله جميل يحب الجمال
الكبر من بطر الحق وغمط الناس وفي ذم الكبر ومدح التواضع احاديث كثيرة وكذلك في اخراج
محبة حسن الثوب وحسن النعل ونحو ذلك من الكبر احاديث كثيرة فقد روي عن الحسين بن علي
انه مر بمساكين قد قدموا كسرا لهم وهم ياكلون فقالوا الغداء يا ابا عبد الله فنزل وجلس معهم وقال انه
لا يحب المستكبرين ثم اكل فلما فرغوا قال قد اجبتكم فاجيبوني فقاموا معه الى منزله فاطعمهم و
سقاهم واعطاهم فانصرفوا قال العلماء كل ذنب يمكن ستره واخفاؤه الا التكبر فانه فسق يلزمه
الاعلان وهو اصل العصيان كله وفي الحديث الصحيح ان المتكبرين امثال الذر يوم القيامة تطؤهم
الناس باقدامهم لتكبرهم او كما قال صلعم تصغر لهم اجسامهم في المحشر حين يضرهم تصغيرها وتعظم
لهم في النار حين يضرهم عظمها ذكره القرطبي والحاصل ان النبي صلعم قد بين ماهية الكبر انه بطر الحق
وغمط الناس فهذا هو الكبر المذموم وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الاية احاديث كثيرة
ليس هذا مقام ايرادها بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز ثم شرع في ذكر شيء من
قبائح المشركين فقال وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اي واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل مَاذَا اي اي
شيء او ما الذي أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قيل القائل النضر بن الحارث وكانت عنده كتب التواريخ ويزعم ان حديثه
اجمل واتم مما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم والاية نزلت فيه فيكون هذا القول منه على طريق التهكم وقيل
القائل هو من يفد عليهم وبعضهم لبعض وقيل القائل المسلمون فاجاب المشركون المنكرون المستكبرون و
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ بالرفع اي ما تدعون ايها المسلمون اساطير الاوائل واحاديثهم واباطيلهم
او ان المشركين ارادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم اساطيرهم وعلى هذا فلا يرد ما قيل
من ان هذا لا يصلح ان يكون جوابا من المشركين والا لكان المعنى الذي انزله ربنا اساطير الاولين والكفار
لا يقرون بالانزال ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه وقيل هو كلام مستانف اي ليس ما تدعون انزاله
ايها المسلمون منزلا بل هو اساطير الاولين والاساطير الاباطيل والترهات التي يتحدث الناس بها عن
القرون الاولى وليس من كلام الله في شيء ولا مما انزله اصلا في زعمهم وهي جمع اسطورة كاحاديث
اضاحيك واعاجيب جمع احدوثة واضحوكة واعجوبة لِيَحْمِلُوا اي قالوا هذه المقالة لكي يحملوا أَوْزَارَهُمْ

كاملة يوم القيامة لم يكفر منها شيء لعدم اسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب وقيل ان اللام هي
لام العاقبة لانهم لم يصفوا القرآن بكونه اساطير لاجل ان يحملوا الاوزار ولكن لما كان عاقبتهم ذلك
حسن التعليل به كقوله ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل هي لام الامر قال الرازي في الآية وهذا يدل على
انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص
هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة ومن أوزار الذين يضلونهم اي ويحملون بعض اوزار الذين اضلوهم لان
من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها كما ورد في الحديث وقيل من للجنس لا للتبعيض
اي يحملون كل اوزار الذين يضلونهم قاله الواحدي بغير علم المعنى ان الرؤساء يضلون الناس جاهلين
غير عالمين بما يدعونهم اليه ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام وقيل انه حال من المفعول اي يضلون
من لا يعلم انهم ضلال قاله الزمخشري وعليه جرى القاضي وفائدتها الدلالة على ان جهلهم لا يعذرهم
اذ كان عليهم ان يبحثوا ويميزوا بين الحق والباطل ولا يقنعوا بالتقليد البحت العمي وقال غيره انه حال
من الفاعل ورجح هذا بانه من المحدث عنه والمسند اليه الاضلال على جهة الفاعلية والمعنى انهم
يقدمون على الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلته ومثل هذه الآية
قوله وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وقوله ولنحمل خطاياكم وقد تقدم في الانعام الكلام على قوله
ولا تزر وازرة وزر اخرى فمعناه وزرا لا مدخل لها فيه ولا تعلق لها بها بتسبب ولا غيره قال ابن
عباس يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وعن مجاهد نحوه وزاد ولا يخفف ذلك
عمن اطاعهم من العذاب شيئا ألا ساء ما يزرون اي بئس شيئا يزرونه ويحملونه وفي ذلك
وعيد وتهديد لهم ثم حكى سبحانه حال اضرابهم من المتقدمين فقال قد مكر الذين من قبلهم
ذهب اكثر المفسرين الى ان المراد به نمرود بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل طوله في السماء
خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان ورام الصعود الى السماء ليقاتل اهلها فاهب الريح فخر ذلك
البناء عليه وعلى قومه فهلكوا وكان اعظم اهل الارض تجبرا في زمن ابراهيم عليه السلام ونمروذ بضم
النون والذال المعجمة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة والاولى ان الآية عامة في جميع المبطلين
الماكرين الذين يحاولون الحاق الضرر بالمحقين المؤمنين ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا
يطابق الحق وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بان مكرهم سيعود عليهم كما عاد

مكر من قبلهم على انفسهم فَأَتَى ٱللَّهُ اي اتى امر الله وهو الريح التي اخربت بُنْيَانَهُمْ قال المفسرون
ارسل الله ريحا فالقت رأس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي بالزلزلة من اسفله فاهلكهم وهم تحته
مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ قال الزجاج اي من الاساطين وقيل من اصوله واساسه بكسر الهمزة جمع اس واما بالفتح
فجمعه اسس بضمتين قيل لما سقط تبلبلت السن الناس بالفزع فتكلموا يومئذ بثلاث وسبعين
لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر
لان صالحا كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عربا منهم جرهم الذي نشأ اسماعيل
بينهم وتعلم منهم العربية وكان قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم كل هؤلاء عرب ويدل على
صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والمعنى انه اتاها امر الله من جهة قواعدها فزعزعها
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ بفتح السين وضمها وبضمها وضم القاف اي سقط عليهم السقف لانه بعد
سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها قال ابن الاعرابي وانما قال مِن فَوْقِهِمْ ليعلمك
انهم كانوا حالين تحته والعرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط اذا كان يملكه وان لم
يكن وقع عليه فجاء بقوله من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال من فوقهم اي
عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما افلتوا وقيل هو للتأكيد لان السقف لا يخر الا من فوق وقيل ان المراد
بالسقف السماء اي اتاهم العذاب من السماء التي فوقهم وقيل ان هذه الآية تمثيل لهلاكهم والمعنى
اهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه والاول اولى وقد اختلف في هؤلاء الذين خر عليهم السقف
فقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح قاله ابن عباس وعن مجاهد نحوه وقيل انه بخت
نصر واصحابه وقيل هم المقتسمون الذين تقدم ذكرهم في سورة الحجر وقيل المعنى على العموم يعني
انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على انبياء الله واهل الحق من عباده اهلكهم الله وجعل
هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط
عليهم فاهلكهم فهو مثل ضربه لمن مكر بآخر فاهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على السنة
الناس من حفر بئرا لاخيه اوقعه الله فيه وهذا ما اختاره القاضي كالكشاف والاول اولى ومع ذلك
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قال قتادة اتاها امر الله من اصلها فخر عليهم السقف من فوقهم
والسقف اعالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم فاهلكهم الله ودمرهم وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ اي الهلاك

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ به بل من حيث انهم في امان لا يخطر ببالهم ثم بين سبحانه ان عذابهم غير
مقصور على عذاب الدنيا فقال ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ اي الكفار بادخالهم النار ويفضحهم بذلك
ويذلهم ويهينهم اي هذا عذابهم في الدنيا ثم يوم القيمة يخزيهم وَيَقُولُ لَهُمْ مع ذلك توبيخا وتقريعا
أَيْنَ شُرَكَائِيَ كما تزعمون وتدعون ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ اي
تخاصمون الانبياء والمؤمنين فِيهِمْ والمعنى على قراءة كسر النون على الاضافة تخاصمونني وتعادونني
وتخالفونني وقد ضعف ابو حاتم هذه القراءة والمشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق
غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم
قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وهم في الموقف قيل هم العلماء قالوا لاممهم الذين كانوا يعظمونهم ولا يلتفتون
الى وعظهم وقيل هم الانبياء وقيل الملائكة والظاهر الاول لان ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وان
كان الانبياء والملائكة هم من اهل العلم بل هم اعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو اشرف
من هذا والاستدلال على الظهور فقط إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ اي الذل والهوان والفضيحة يوم القيمة
وَالسُّوءَ اي العذاب عَلَى الْكَافِرِينَ مختص بهم يقولون شماتة بهم الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ بالتاء والياء وهما
سبعيتان لكنه مع الياء يقرأ بالامالة في الموضعين والتذكير على ان الملائكة ذكور والتانيث لان
لفظ الجمع مؤنث الْمَلَائِكَةُ وهم ملك الموت عزرائيل واعوانه ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ بالكفر وقد تقدم تفسيره
فَأَلْقَوُا السَّلَمَ اي اقروا بالربوبية وانقادوا عند الموت ومعناه الاستسلام قاله قطرب وقيل معناه
المسالمة اي سالموا وتركوا المشاقة قاله الاخفش وقيل معناه الاسلام اي اقروا بالاسلام وتركوا ما كانوا
فيه من الكفر مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ تفسير للسلم على ان يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه ويجوز
ان يكون المراد بالسوء هنا الشرك ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب او من شدة
الخوف ومن لم يجوز الكذب على اهل القيامة حمله على انهم ارادوا انهم لم يعملوا سوءا في اعتقادهم وعلى
حسب ظنونهم ومثله قوله والله ربنا ما كنا مشركين فلما قالوا هذا اجاب عليهم اهل العلم
بقولهم بَلَى كنتم تعملون السوء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا اي بالذي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيجازيكم عليه ولا ينفعكم
هذا الكذب شيئا وقال عكرمة عني بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
يقال لهم ذلك عند الموت وقد تقدم ذكر الابواب وان جهنم درجات بعضها فوق بعض اي ليدخل

كل صنف الى الطبقة التي هو موعود بها وانما قيل لهم ذلك لانه اعظم في الخزي والغم وفيه
دليل على ان الكفار بعضهم اشد عذابا من بعض خالدين فيها حال مقدرة لان خلودهم مستقبل
فلبئس مثوى المتكبرين هي فالمخصوص بالذم محذوف والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان و
العبادة كما في قوله انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ثم اتبع اوصاف الاشقياء باوصاف
السعداء فقال وقيل للذين اتقوا وهم المؤمنون ماذا انزل ربكم قالوا خيرا اي انزل خيرا ورفع
الاول ونصب هذا فرقا بين جواب المقر وجواب الجاحد للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة
قيل هذا من كلام الله عز وجل وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا فيكون هذا بدلا من خيرا قاله
الزمخشري وعلى الاول يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين والمعنى للذين احسنوا اعمالهم
بالايمان في الدنيا مثوبة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة
وقال قتادة احسنوا اي امنوا بالله وكتبه ورسله وامروا بطاعة الله وحثوا عباد الله على الخير
ودعوهم اليه قال الضحاك هي النصر والفتح وقال مجاهد هي الرزق الحسن وقيل الحياة الطيبة وهي
استحقاق المدح والثناء او فتح ابواب المشاهدات والمكاشفات قاله الكرخي والاولى اولى ولدار
الاخرة اي مثوبتها وهي الجنة خير مما اوتوا في الدنيا ولنعم دار المتقين دار الاخرة فحذف المخصوص
بالمدح لدلالة ما قبله عليه جنات عدن اي بساتين اقامة من عدن بالمكان اذا قام به يجوز
ان يكون هو المخصوص بالمدح فيجيء فيها ثلاثة اوجه رفعها بالابتداء والجملة المتقدمة خبرها او رفعها
خبر لمبتدأ مضمر او رفعها بالابتداء والخبر محذوف وهو اضعفها ويجوز ان يكون جنات عدن خبر
مبتدأ مضمر لا على ما تقدم بل يكون المخصوص محذوفا تقديره ولنعم دارهم هي جنات وقدره الزمخشري
ولنعم دار المتقين دار الاخرة ويجوز ان يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله للذين احسنوا في هذه الدنيا
حسنة قاله السمين يدخلونها اي تلك الجنات فلا يرحلون عنها ولا يخرجون منها تجري من تحتها
اي من تحت دورها وقصورهم ومساكنهم الانهار لهم فيها اي في الجنات ما يشاؤن له
ما يقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك وهذه الحالة لا تحصل الا في الجنة وذلك
يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا كذلك اي الامر كذلك او مثل ذلك الجزاء يجزي
الله المتقين المراد بهم كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي الذين تتوفاهم اي تقبض ارواحهم

الملائكة طيبين حال من المفعول والفاعل مقارنة او مقدرة وفيه اقوال اي طاهرين من دنس الشرك والكفر والنفاق او صالحين او زاكية افعالهم واقوالهم او من ظلم انفسهم بالمعاصي قاله البيضاوي او طيبين الانفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله او طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله او طيبين الوفاة اي هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها وقال مجاهد طيبين احياء وامواتا قدر الله لهم ذلك او فرحين ببشارة الملائكة اياهم بالجنة او طيبين بقبض ارواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس وقيل طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فحملها على العموم فدخل فيه جميع ما ذكر يقولون اي قائلين لهم يعني الملائكة حال مقارنة ان كان القول واقعا منهم في الدنيا او مقدرة ان كان واقعا في الآخرة سلام عليكم معناه يحتمل وجهين احدهما ان يكون السلام انذارا لهم بالوفاة الثاني ان يكون تبشيرا لهم بالجنة لان السلام امان وفي الكرخي يقولون لهم عند الموت سلام عليكم اي لا يلحقكم بعد مكروه فهي حال مقارنة واستشهد له في الدر المنثور بما اخرجه مالك وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال اذا استنقع العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي الله الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ونحوه في الكشاف وقال ابو حيان الظاهر ان السلام انما هو في الآخرة ولذلك جاء بعده ادخلوا الجنة فهو من قول خزنة الجنة وعليه فهي حال مقدرة ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون اي بسبب عملكم قيل يحتمل هذا وجهين الاول يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت الثاني ان يكون ذلك لهم في الآخرة ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح سددوا وقاربوا واعلموا انه لن يدخل احد الجنة بعمله قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته وقد قدمنا البحث عن هذا هل ينظرون هذا جواب شبهة اخرى لمنكري النبوة فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال هل ينظرون في تصديق نبوتك الا ان تأتيهم بالتاء والياء سبعيتان الملائكة شاهدين بذلك ويحتمل ان يقال انهم لما طعنوا في القرآن بانه اساطير الاولين اوعدهم الله بقوله هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة لقبض ارواحهم او يأتي امر ربك اي عذابه في الدنيا المستاصل لهم او المراد بامر الله القيامة والمراد بكونهم ينظرون انهم ينتظرون اتيان الملائكة او اتيان امر الله على التفسير الاخر انهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظرا له وليس المراد انهم ينتظرون ذلك حقيقة فانهم لا يؤمنون بذلك

ولا يصدق قرينه قبل او مانعة خلو فان كلا من الموت والعذاب ياتيهم وان اختلف الوقت وانما
عبر باو دون الواو اشارة الى كفاية كل واحد من الامرين في تعذيبهم كما افاده ابو السعود كذلك
اي مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فعل الذين من قبلهم من طوائف
الكفار فاتاهم امر الله فهلكوا وما ظلمهم الله بتدميرهم بالعذاب فانه انزل بهم ما استحقوه بكفرهم ولكن
كانوا انفسهم يظلمون بما ارتكبوه من القبائح وفيه ان ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما يؤول اليه
فاصابهم سيئات ما عملوا اي جزاء اعمالهم السيئة او جزاء سيئات اعمالهم معطوف على فعل
الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض وحاق اي نزل بهم على وجه الاحاطة والحيق لا يستعمل
الا في الشر قاله البيضاوي فلا يقال حاقت به النعمة بل النقمة قاله الشهاب ما اي العذاب الذي
كانوا به يستهزؤن او عقاب استهزائهم وقال الذين اشركوا هذا نوع آخر من كفرهم الذي
حكاه الله تعالى عنهم والمراد بالذين اشركوا هنا اهل مكة لو شاء الله عدم عبادتنا لشيء غيره
ما عبدنا من دونه من شيء اي لحصل ذلك جئنا او لم نجئ ولو شاء منا الكفر لحصل جئنا او لم نجئ
واذا كان كذلك فالكل من عند الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم ومن الاولى بيانية والثانية
زائدة لتاكيد الاستغراق نحن تاكيد لضمير عبدنا لا لتصحيح العطف لوجود الفواصل وان كان محسنا له
ولا آباؤنا الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من الكفر والشرك بالله قال الزجاج انهم قالوا هذا على
وجه الاستهزاء ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين انتهى وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة
الانعام ولا حرمنا من دونه من شيء من السوائب والوصائل والبحائر ونحوها ومقصودهم بهذا
القول المتعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة اي لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير الله
والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكيا ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما اراده منا فانه قد شاء ذلك
وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك دليلا على ان
ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته مع انهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به لكنهم قصدوا
ما ذكرنا من الطعن على الرسل والظاهر ان من الاولى والثانية ههنا زائدتان اي ولا حرمنا شيئا حال
كونتا ونحليه دون الله اي مستقلين بتحريمه قاله الخفاجي كذلك فعل الذين من قبلهم من طوائف
الكفر فانهم اشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسلهم بالباطل واستهزؤا بهم ثم قال فهل على الرسل

الذين يرسلهم الله الى عباده بما شرعه لهم من الشرائع التي راسها توحيده وترك الشرك به إلا
البلاغ المبين الى من ارسلوا اليهم بما امروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم
والبلاغ مصدر بمعنى الابلاغ ثم انه سبحانه اكد هذا وزاده ايضاحا فقال ولقد بعثنا في كل امة
رسولا كما بعثنا في هؤلاء لاقامة الحجة عليهم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وان في قوله ان اعبدوا
الله اما مصدرية اي بعثنا بان اعبدوا الله وحده او مفسرة لان في البعث معنى القول والوجهان حكاهما
السمين وغيره واجتنبوا الطاغوت اي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل
من دعى الى الضلال وهو من الطغيان يذكر ويؤنث ويقع على الواحد كقوله يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت
وقد امروا ان يكفروا به وعلى الجمع كقوله تعالى اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجمع طواغيت وفي التقدير
واجتنبوا عبادتها فالكلام على حذف المضاف فمنهم اي فمن هذه الامم التي بعث الله اليها برسله
من هدى الله اي ارشده الى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت فآمن ومنهم من
حقت عليه الضلالة اي وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الازل لاصراره على الكفر والعناد فلم
يؤمن قال الزجاج اعلم الله انه بعث الرسل بالامر بالعبادة وهو من وراء الضلال والهداية ومثل هذه الآية
قوله تعالى فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وفي هذه الآية التصريح بان الله امر جميع عباده
بعبادته واجتناب الشيطان وكل ما يدعو الى الضلال وانهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى
ومنهم من حقت عليه الضلالة فكان في ذلك دليل على ان امر الله سبحانه لا يستلزم موافقة ارادته
فانه يامر الكل بالايمان ولا يريد الهداية الا للبعض اذ لو ارادها للكل لم يكفر احد وهذا معنى ما حكيناه
عن الزجاج هنا فسيروا في الارض سير المعتبرين المتفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب
منازلهم بالعذاب والهلاك وفي الفاء اشعار بوجوب المبادرة الى النظر والاستدلال فانظروا كيف
كان عاقبة المكذبين رسلهم من الامم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود اي كيف صار
آخر امرهم الى خراب الديار بعد هلاك الابدان بالعذاب ثم خصص الخطاب برسوله صلى الله عليه وسلم مؤكدا لما تقدم
فقال ان تحرص يا محمد على هداهم اي تطلب بجهدك ذلك وقد اضلهم الله لا تقدر على ذلك وفي
المصباح حرص عليه حرصا من باب ضرب اذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا وحرص
حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة وفي السمين قراءة العامة ان تحرص بكسر الراء

مضارع حرص بفتحها وهي اللغة العالية لغة الحجاز وقرئ بكسر الراء مضارع حرص بكسرها وهي
لغة لبعضهم فَإِنَّ اللَّهَ تعليل للجواب لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قرئ يَهدي بفتح حرف المضارعة على انه
فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه اي فان الله لا يرشد من اضله وقرئ بضم حرف المضارعة على
انه مبني للمجهول على انه لا يهديه هاد كائناً من كان وهما سبعيتان فهذه الآية كقوله في الآية
الاخرى من يضلل الله فلا هادي له وقال الفراء معنى لا يهدي لا يهتدي كقوله تعالى أمّن
لا يهدّي الا ان يهدى بمعنى يهتدي قال النحاس حكي عن المبرد معنى لا يهدي من يضل من علم ذلك
منه وسبق له عنده وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ينصرونهم على الهداية لمن اضله الله او ينصرونهم بدفع
العذاب عنهم ومن زائدة ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث فقال وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ اي حلفوا وسمي
الحلف قسماً لانه يكون عند انقسام الناس الى مصدق ومكذب جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ اي جاهدين في غاية
اجتهادهم فيها وذلك انهم كانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الامر عظيماً اقسموا بالله والجهد
بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة وانتصابه على المصدرية وظاهره انه استئناف اخبار وجعله
الزمخشري نسقاً على وقال الذين اشركوا لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ من عباده زعموا ان الله سبحانه
عاجز عن بعث الاموات عن ابي العالية قال كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين
فاتاه يتقاضاه فكان مما يتكلم به والذي ارجوه بعد الموت انه لكذا وكذا فقال له المشرك انك
لتزعم انك تبعث من بعد الموت فاقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فانزل الله سبحانه
هذه الآية وعن علي قال نزلت فيّ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا هذا اثبات لما بعد النفي اي بلى يبعثهم ووعداً
مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لان البعث وعد من الله والتقدير وعد البعث وعداً عليه
وحقه حقاً لا خلف فيه وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ان ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير اما لعدم
علمهم بانه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها واما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع
البعث لِيُبَيِّنَ لَهُمُ اي ليظهر لهم وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير في لهم راجع الى من يموت
الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ اي الامر الذي وقع الخلاف بينهم فيه وبيانه اذ ذاك يكون بما جاءتهم به
الرسل ونزلت عليهم فيه كتب الله وقيل ليبين متعلق بقوله ولقد بعثنا وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بالله سبحانه وانكروا البعث أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ في جدالهم وانكارهم البعث بقولهم لا يبعث الله من يموت

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ جملة مستانفة لبيان كيفية الابداء والاعادة مسوقة لهذا المقصد بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه قال الزجاج اعلمهم بسهولة خلق الاشياء عليه فاخبر انه متى اراد الشيء كان وهذا كقوله فاذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون قال ابن الانباري اوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق لانه بمنزلة ما قد وجد وشوهد قال الزجاج ان معنى لشيء لاجل شيء فجعل اللام سببية وليس بواضح وقيل هي لام التبليغ قال ابو السعود اي شيء كان مما عز وهان كما في قولك قلت له قم فقام وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى انه لا يمتنع عليه شيء وان وجوده عند ارادته كوجود المامور به عند امر الامير المطاع اذا ورد على المامور المطيع وليس هناك قول ولا مقول له ولا امر ولا مامور ولا كاف ولا نون حتى يقال انه يلزم منه احد محالين اما خطاب المعدوم او تحصيل الحاصل قلت هكذا قال اكثر المفسرين وهو يخالف ظاهر النظم القرآني والحق ما دلت عليه الآية من القول وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى وَالَّذِينَ هَاجَرُوا قد تقدم معنى الهجرة في سورة النساء وهي ترك الاهل والاوطان اي انتقلوا من مكة الى المدينة لاقامة دين الله سبحانه ومعنى فِي اللَّهِ في شان الله سبحانه وفي رضاه وقيل في دين الله وقيل في بمعنى لام التعليل اي لله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا اي عذبوا واهينوا وقد اختلف في سبب نزول الآية فقيل نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار واعترض بان السورة مكية وذلك يخالف قوله والذين هاجروا واجيب بانه يمكن ان تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها وقيل نزلت في ابي جندل بن سهيل وقيل نزلت في اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة واخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم انصارا من المؤمنين لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قيل المراد نزول المدينة قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة وقيل المراد الرزق الحسن قاله مجاهد وقيل النصر على عدوهم قاله الضحاك وقيل ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات وقيل ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لاولادهم من الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور والمعنى لنبوأنهم مباءة حسنة او تبوأة حسنة وهي المدينة فحسنة صفة مصدر محذوف وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ اي جزاء اعمالهم الكائن في الآخرة

وهو النعيم الكائن في الجنة التي هي المراد بالآخرة أكبر واعظم من ان يعلمه احد من خلق الله قبل ان يشاهده ومنه قوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا لو كانوا اي هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك وقيل ان الضمير راجع الى المؤمنين المهاجرين اي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا انه اكبر من حسنة الدنيا وهو اسكانهم المدينة الذين صبروا على اذى المشركين او على مفارقة الوطن والهجرة او على الجهاد وبذل الانفس والاموال في سبيل الله واللفظ اعم من ذلك وعلى ربهم وحده خاصة يتوكلون في جميع امورهم معرضين عما سواه والصبر مبدأ السلوك الى الله تعالى والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه والظاهر والله اعلم ان المعنى على المضي والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل وجواب الموصول محذوف اي فيز فهو من حيث لا يحتسبون وما ارسلنا من قبلك رد على قريش حيث زعموا ان الله سبحانه اجل من ان يرسل رسولا من البشر فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته ان لا يرسل الا رجالا من البشر نوحي اليهم وزعم ابو علي الجبائي ان معنى الآية ان الله سبحانه لم يرسل الى الانبياء بوحيه الا من هو على صورة الرجال من الملائكة ويرد عليه ان جبرئيل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صور مختلفة ولما كان كفار مكة مقرين بان اليهود والنصارى هم اهل العلم بما انزل الله في التوراة والانجيل صرف الخطاب اليهم وامرهم ان يرجعوا الى اهل الكتاب فقال فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون اي فاسئلوا ايها المشركون ان شككتم فيما ذكر مؤمني اهل الكتاب فانهم سيخبرونكم بان جميع الانبياء كانوا بشرا وانما اسألوا اهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فانهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه وقيل المعنى فاسئلوا اهل القرآن عن سعيد بن جبير قال نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من اهل التوراة وقد استدل مجوزو التقليد بهذه الآية وقالوا امر سبحانه من لا علم له ان يسأل من له علم والجواب ان هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص خارج عن محل النزاع كما يفيده السياق المذكور وقبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده وبه قال ابن جرير والبغوي واكثر المفسرين ذا ستوفاه السيوطي في الدر المنثور وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق والسباق وعلى فرض ان المراد السؤال العام فالمأمور بسؤالهم هم اهل الذكر والذكر هو كتاب الله وسنة رسوله لا غيرهما ولا اظن مخالفا يخالف في هذا لان هذه الشريعة المطهرة هي اما من الله عز وجل

وذلك هو القران الكريم او من رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك واذا
كان المامور بسؤالهم هم اهل القران والحديث فالاية الكريمة حجة على المقلدة لا لهم لان المراد انهم
يسالون اهل الذكر فيخبرونهم به فالجواب من المسئولين ان يقولوا قال الله كذا وقال رسوله
صلى الله عليه وسلم كذا فيعمل السائلون بذلك وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بها فانه انما استدل بها
على جواز ما هو فيه من الاخذ باقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل فان هذا هو التقليد ولهذا
رسموه بانه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة فحاصل التقليد ان المقلد لا يسال عن كتاب الله
ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل يسال عن مذهب امامه فقط فاذا جاوز ذلك الى السؤال عن
الكتاب والسنة فليس بمقلد وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره واذا تقرر ان المقلد اذا سال اهل الذكر
عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مقلدا علمت ان هذه الاية الشريفة على تسليم ان السؤال
ليس عن الشيء الخاص الذي يدل عليه السياق بل عن كل شيء من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع
في وجهه وترغم انفه وتكسر ظهره فان معنى هذا السؤال الذي شرعه الله تعالى هو السؤال عن الحجة
الشرعية وطلبها من العالم فيكون هذا راويا وهذا السائل مسترويا والمقلد يقر على نفسه بانه يقبل
قول العالم ولا يطالبه بالحجة فالاية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد وبهذا ظهر لك ان هذه الحجة
التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض ان المراد المعنى الخاص وهي عليه لا له على فرض
ان المراد المعنى العام ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ اي ارسلناهم بهما ذكره الحوفي والزمخشري وغيرهما وبه بدأ
في الكشاف وقيل ما ارسلنا بهما الا رجالا حكاه ابن عطية وقيل فاسئلوهم ان كنتم لا تعلمون بهما
وقيل اي رجالا متلبسين بالبينات والزبر وهو وجه حسن ذكره الزمخشري ولا محذور فيه وقيل
يوحي اليهم بهما ذكره الزمخشري وابو البقاء وقيل منصوب بتقدير اعني والباء زائدة وقال الزجاج اسألوا
كل من يذكر بعلم وقيل متعلق بمحذوف كانه قيل بم ارسلوا فقيل ارسلوا بهما كذا قدره الزمخشري
قال السمين وهو احسن من تقدير ابي البقاء يعني لموافقته للدال عليه لفظا ومعنى والبينات
الحجج الواضحة والبراهين الساطعة والزبر الكتب والصحف وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الذِّكْرَ﴾ اي القران وسماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين
ثم بين الغاية المطلوبة من الانزال فقال ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ جميع ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الذكر من الاحكام

الشرعية والوعد والوعيد وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قيل متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقيل المحكم مبين والمتشابه مجمل يطلب بيانه من السنة فهذه الآية محمولة على ما اجمل فيه دون المحكم المبين المفسر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ اي ارادة ان يتاملوا ويعملوا افكارهم فيتعظوا ويعملوا بها ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ الاستفهام للتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ اي المكرات السيئات ولم يذكر الزمخشري غيره والمعنى عملوا وفعلوا السيئات او من الماكرون العقوبات السيئات او مكروا بالسيئات قال مجاهد يعني نمروذ بن كنعان وقومه وعن قتادة قال مكرهم الشرك وقال الضحاك تكذيبهم الرسل وعملهم بالمعاصي او هو سعيهم في اذى رسول الله صلى الله عليه وسلم واذى اصحابه على وجه الخفية واحتيالهم في ابطال الاسلام وكيد اهله في دار الندوة من تقييده او قتله او اخراجه كما ذكر في الانفال ﴿أَنْ﴾ اي ﴿أَمِنوا من ان يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون وقرون من قبلهم يقال خسف المكان يخسف خسوفا ذهب في الارض وخسف الله به الارض خسوفا اي غاب به فيها ومنه قوله فخسفنا به وبداره الارض وخسف هو في الارض وخسف به ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به اي في حال غفلتهم عنه ومن جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وغيرهم وقيل يريد يوم بدر فانهم اهلكوا في ذلك اليوم ولم يكن في حسابهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها فقيل المراد في اسفارهم ومتاجرهم فانه سبحانه قادر على ان يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الارض وبعدهم عن الاوطان والتقلب الحركة اقبالا وادبارا وقيل المراد في حال تقلبهم في قضاء اوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم وقيل في حال تقلبهم في الليل على فرشهم وقيل في اختلافهم وقيل في حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار والتقلب بالمعنى الاول ماخوذ من قوله لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد وبالمعنى الثاني ماخوذ من قوله وقلبوا لك الامور ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ اي بفائتين ولا ممتنعين ولا السابقين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ على حال تخوف وتوقع للبلايا بان يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه فهو خلاف ما تقدم من قوله او ياتيهم

العذاب من حيث لا يشعرون وقال ابن الاعرابي على تنقص من الاموال والانفس والثمرات حتى اهلكهم
كلهم قال الواحدي قال عامة المفسرين معنى على تخوف على تنقص اما بقتل او بموت يعني بنقص
من اطرافهم ونواحيهم يأخذهم الاول فالاول حتى يأتي الاخذ على جميعهم قال والتخوف التنقص يقال هو
يتخوف المال اي يتنقصه ويأخذ من اطرافه انتهى يقال تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون تنقصه
قال الهيثم بن عدي التخوف بالفاء التنقص لغة لازد شنوءة وقال ابن قتيبة هذه لغة هذيل وقيل
على تخوف على عجل قاله الليث بن سعد وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم روي ذلك عن
ابن عباس وقيل على تخوف ان يعاقب ويتجاوز قاله قتادة وعن ابن عباس على اثر موت صاحبه
وعنه ايضا تنقص من اعمالهم وعن عمر انه سالهم عن هذه الاية فقالوا ما نرى الا انه عند تنقص
ما يردده من الايات فقال عمر ما ارى الا انه على ما يتنقصون من معاصي الله فخرج رجل ممن
كان عند عمر فلقي اعرابيا فقال يا فلان ما فعل ربك قال قد تخيفته يعني انتقصته فرجع الى عمر
فاخبره فقال قدر ايته ذلك وعبارة البيضاوي روي ان عمر قال على المنبر ما تقولون فيها فسكتوا
فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال هل تعرف العرب ذلك في اشعارها
فقال نعم قال شاعرنا ابو بكر يصف ناقته ~ تخوف الرحل منها تامكا قردا + كما تخوف عود النبعة
السفن + فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فان فيه تفسير
كتابكم ومعاني كلامكم انتهى قال الشهاب الرحل رحل الناقة والتامك السنام والقرد هو المرتفع او
المتراكم والنبع شجر يتخذ منه القسي والسفن هو المبرد والقدوم يصف ناقته بانها اثر الرحل في سنامها
فاكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود انتهى وعن مجاهد قال على تخوف ياخذهم بنقص بعضهم
بعضا وقال الضحاك والكلبي هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الاخرون ان يصيبهم ما اصابهم
والحاصل انه سبحانه خوفهم بخسف يحصل في الارض او بعذاب ينزل من السماء او بآفات تحدث
دفعة او بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتي الهلاك على اخرهم ثم انه سبحانه ختم الاية بقوله
فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ لا يعاجل بالعذاب بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم للعقوبة
ثم لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف اتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير العالم العلوي
والسفلي ومكانهما مصدرا بالاستفهام الانكاري فقال أَوَلَمْ يَرَوْا بالتحتية بارجاع الضمير الى الذين مكروا السيئات

وقرئ بالفوقية على انه خطاب لجميع الناس وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد بها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر الى الشيء ليتامل احواله ويتفكر فيه ويعتبر به الى ما خلق الله ما مبهمة مفسرة بقوله من شيء له ظل وهي الاجسام فهو عام اريد به الخاص وخرج به الملك والجن يتفيأ ظلاله اي تميل وتدور وتنتقل من جانب الى جانب ويكون اول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة اخرى قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والقمر والذي يكون بالغداة هو الظل وهو ما لم تنله وقال ثعلب اخبرت عن ابي عبيدة ان روبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل وفي السمين التفيؤ تفعل من فاء يفيء اذا رجع وفاء قاصر فاذا اريد تعديته عدي بالهمزة كقوله ما افاء الله على رسوله او بالتضعيف نحو فيأه الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ فهو لازم واختلف في الفيء فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال او بعده وهو الموافق لمعنى الآية ههنا وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفيء فالظل اعم وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفيء بما بعده والظلال جمع ظل وهو مضاف الى مفرد لانه واحد يراد به الكثرة عن اليمين والشمائل اي عن جهة ايمان الفلك وهو جهة المشرق وعن شمائله اي عن جانبي كل واحد منها وهي جهات المغرب يعني اول النهار وآخره قال الفراء وحد اليمين لانه اراد واحدا من ذوات الاظلال وجمع الشمال لانه اراد كلها لان ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جمع وقال الواحدي وحد اليمين والمراد به الجمع ايجازا في اللفظ كقوله ويولون الدبر وبه قال الزمخشري ودلت الشمائل على ان المراد بها الجمع وقيل ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احدهما بلفظ الواحد كقوله وجعل الظلمات والنور وختم الله على قلوبهم وسمعهم وقيل المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس وانها واحدة والشمائل عبارة عن الانحراف في فلك الاظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة قيل اذا طلعت الشمس من المشرق وانت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا استوت الشمس في وسط السماء كان ظلك في خلفك فاذا مالت الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمال فآخر النهار دائما وانما عبر عن المشرق باليمين لان اقوى جانبي

ه نسان يمينه ومنه تطهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس اشمل كذراع
واذرع سُجَّدًا جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع اي حال كون الظلال ساجدة لِلَّهِ قال الزجاج
يعني ان هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال ايضا سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من اثر الصنعة
قال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء لله وقيل ان الظلال ملتصقة بالارض كالساجد عليها
فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجدين اطلق الله عليها هذا اللفظ وَهُمْ اي والحال ان الظلال دَاخِرُونَ اي خاضعون
صاغرون والدخور الصغار والذل يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله نزلوا منزلة العقلاء في
التعبير عنهم بصيغة جمع العقلاء لما وصفها بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر
عنها بلفظ من يعقل وَلِلَّهِ وحده لا لغيره يَسْجُدُ اي يخضع وينقاد والسجود على نوعين سجود طاعة
وعبادة وسجود انقياد وخضوع كسجود الانسان وسجود الظلال والاية تحتمل النوعين مَا فِي السَّمَاوَاتِ
جميعا وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ اي حيوان جسماني ونسمة تدب وتتحرك على الارض والمراد به كل
دابة قال الاخفش هو كقولك ما اتاني من رجل مثله وما اتاني من الرجال مثله وقد دخل في عموم
ما فيهما جميع الاشياء الموجودة فيهما قال قتادة لم يدع شيئا من خلقه الا عبده له طائعا او كارها
وعن الحسن قال يسجد من في السموات طوعا ومن في الارض طوعا وكرها وانما خص الدابة بالذكر
لانه قد علم من قوله او لم يروا الى ما خلق الله من شيء انقياد الجمادات والجمادات تدل على قدرة
الصانع الحكيم فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التامل والتدبر من بيانية بيانا لما في الشقين او بيانا
لما الثانية فقط وَالْمَلَائِكَةُ عطف على ما قبلها وهو من عطف الخاص على العام تشريفا لهم وتعظيما لدخولهم في المعطوف عليه وقيل افرد الملائكة لانهم
ذوو اجنحة يطيرون بها او يكونون في السماء خلق بدون وَهُمْ اي والحال انهم لَا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادة ربهم والمراد الملائكة ويحتمل
ان تكون الجملة مستانفة وفي هذا رد على قريش حيث زعموا ان الملائكة بنات الله والمعنى يسجد له ما في السموات وما في الارض
والملائكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود يَخَافُونَ اي حال كونهم خائفين رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ او
جملة مستانفة لبيان نفي استكبارهم ومن اثار الخوف عدم الاستكبار اي يخافون عذاب ربهم
كائنا من فوقهم او يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة
بائنا عنهم بالاستواء على العرش وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف اي يخافون
ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه وانما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة

المحاماة على مذاهب قد رسخت في الاذهان وتقررت في القلوب قيل وهذه المخافة هي مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخبارا عن فرعون وانا فوقهم قاهرون وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ به من طاعة الله يعني الملائكة او جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجمل على الملائكة اولى لان في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وابليس وجنوده وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقاري والمستمع ان يسجد عند قراءتها وسماعتها ولما بين سبحانه ان مخلوقاته السماوية والارضية منقادة له خاضعة لجلاله اتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَتَّخِذُوْٓا اِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ اِنَّمَا هُوَ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ فنهى سبحانه عن اتخاذ الهين ثم اثبت ان الالهية منحصرة في اله واحد وهو الله سبحانه وقد قيل ان التثنية في الالهين قد دلت على الاثنينية والافراد في اله قد دل على الوحدة فما وجه وصف الهين باثنين ووصف اله بواحد فقيل في الجواب ان في الكلام تقديما وتاخيرا والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين وفيه بعد وقال ابو البقاء هو مفعول ثان وهذا كالغلط اذ لا معنى لذلك التثنية وقيل ان التكرير لاجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل انه تاكيد لالهين وعليه اكثر الناس وكلام الزمخشري هنا يفهم انه ليس بتاكيد وقيل ان فائدة زيادة اثنين هي ان يكون النهي راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم ان المراد اثبات الالهية دون الواحدية مع ان الالهية له سبحانه مسلمة في نفسها وانما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فَاِيَّايَ فَارْهَبُوْنِ اي ان كنتم راهبين شيئا فاياي فارهبون لا غيري فالتركيب افاد الحصر وقيل التقدير اياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية ارهبوا اياي فارهبون قال الشيخ وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في اول البقرة ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وانه الذي يجب ان يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر ان الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال وَلَهٗ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الارض وتقديم الخبر لافادة الاختصاص وفي التفت فيه من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله انما هو اله واحد او على

الخبر او مستانف وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا اي ثابتا واجبا دائما لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص
قال الفراء واصبا معناه دائما وروي عنه ايضا الواصب الخالص والاول اولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب
واصب اي دائم وقال الزجاج اي طاعته واجبة ابدا ففسر الواصب بالواجب قال ابن قتيبة
في تفسير الواصب اي ليس احد يطاع الا انقطع ذلك بزوال او هلكة غير الله تعالى فان الطاعة تدوم
له ففسر الواصب بالدائم واذا دام الشيء دواما لا ينقطع فقد وجب وثبت يقال وصب الشيء يصب وصوبا
فهو واصب اذا دام ووصب الرجل على الامر اذا واظب عليه وقيل الوصب التعب والاعياء اي
يجب طاعة الله سبحانه وان تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الاية قال مجاهد الدين الاخلاص
وواصبا دائما وقال ابو صالح يعني لا اله الا الله وعن ابن عباس دائما واجبا وفي البيضاوي واصبا
لازما وقال الشهاب الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام وفي القاموس وصب يصب دام
وثبت كاوصب وعلى الامر واظب وفي المصباح وصب الشيء وصوبا دام ووصب الدين وجب والاستفهام
في قوله أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ للتقريع والتوبيخ او للتعجب والانكار والفاء للتعقيب والمعنى اذا كان الدين اي
الطاعة واجبا له دائما لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم ايقاعها لغيره فكيف
يعقل ان يكون للانسان رغبة او رهبة في غير الله ثم امتن سبحانه عليهم بان جميع ما هم متقلبون
فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ اي ما يلابسكم من النعم على
اختلاف انواعها فهي منه سبحانه والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لاجل العمل به
واما دنيوية نفسانية او بدنية او خارجية كالسعادات المالية وغيرها وكل واحدة من هذه
جنس تحته انواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل ان لا يشكر الا اياه وما موصولة وللبشر جيد
او شرطية واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وابو البقاء والفاء زائدة ثم بين تلون الانسان بعد استغراقه
في بحر النعم فقال ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ اي الشدة والامراض والاسقام او اي ضيم كان والضر المرض والبلاء
والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان فَإِلَيْهِ سبحانه لا الى غيره تَجْأَرُونَ تتضرعون وتستغيثون
وتضجون في كشفه فلا كاشف له الا هو يقال جأر يجأر جؤارا اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع قال
مجاهد تتضرعون بالدعاء وقال السدي تضجون بالدعاء وفي القاموس جأر جأرا وجؤارا بوزن غراب
رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبات طال والارض طال نبتها

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ أي اذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر إِذَا فَرِيقٌ أي جماعة مِّنكُم بِرَبِّهِمْ الذي رفع الضر عنهم يُشْرِكُونَ فيجعلون معه الهاً آخر من صنم او نحوه واذا الاولى شرطية والثانية فجائية جوابها وفي الآية دليل على ان اذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها لان ما بعد اذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها والآية مسوقة للتعجب من فعل هؤلاء حيث يضعون الاشراك بالله الذي انعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له وهذا المعنى قد تقدم في الانعام ويونس ويأتي ان شاء الله تعالى في سبحان قال الزجاج هذا خاص بمن كفر وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر وعلى هذا فتكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً والفريق هم الكفرة وان كان الخطاب موجهاً الى الكفار فمن للبيان وبه قال الزمخشري كأنه قيل اذا فريق كافر وهم انتم قال السمين واللام في لِيَكْفُرُوا لام كي اي لكي يكفروا يعني اشراكهم سببه كفرهم وقيل انها لام الصيرورة اي صار امرهم الى ذلك وقيل انها لام الامر واليه نحا الزمخشري وقيل انها لام العاقبة اي فعاقبة اشراكهم بالله غيره كفرهم بِمَا آتَيْنَاهُمْ من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كان هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرضاً لهم ومقصداً من مقاصدهم وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة الى الخطاب فَتَمَتَّعُوا بما انتم فيه من ذلك فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة امركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون اليه في الدار الآخرة قال الحسن هذا وعيد ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح اعمالهم فقال وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ اي يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما تعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيباً من اموالهم يتقربون به اليه وقيل المعنى انهم اي الكفار يجعلون للاصنام وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات ففي يعلمون ضمير يرجع الى الاصنام واجراها مجرى العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار فيها وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للاصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من اموالهم التي رزقهم الله اياها قال مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون انه يضرهم وينفعهم نصيباً مما رزقناهم وقال قتادة هم مشركو العرب جعلوا لاوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزؤا من اموالهم جزءاً فجعلوه لهم وعن السدي قال هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ اقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وفي هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب

وهو من بديع الكلام وبليغه وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ اي تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم وقد كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله فنزه سُبْحَانَهُ نفسه عما نسبه اليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا افهام مستقيمة قال ابن عباس يقول تجعلون لي البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن لانفسكم وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا ولد للرجل منهم جارية امسكها على هوان او دسها في التراب وهي حية ان هم الا كالانعام بل هم اضل وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ اي ويجعلون لانفسهم ما يشتهونه من البنين والجملة مستانفة او في محل النصب على الحال من الواو في يجعلون هذا ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى اي اذا اخبر احدهم بولادة بنت له ظَلَّ صار وَجْهُهُ مُسْوَدًّا اي متغيرا وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم والحزن والغيظ والكراهة والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا قاله الزجاج وقال الماوردي بل المراد سواد اللون حقيقة قال وهو قول الجمهور والاول اولى فان المعلوم بالوجدان ان من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه الا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي وَهُوَ كَظِيمٌ اي ممتلئ من الغم غيظا وحنقا يقال كظمت الغيظ كظما وكظوما امسكت على ما في نفسك منه على صفح او غيظ وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فانا كظيم ومكظوم وكظم البعير كظوما لم يجتر قال الاخفش هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره وقيل انه المغموم الذي يطبق فاه من الغم ماخوذ من الكظامة وهو سد فم البير قاله علي بن عيسى وقد تقدم في سورة يوسف يَتَوَارَى اي يتغيب ويختفي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ اي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له تعلق هنا جاران بلفظ واحد لاختلاف معناهما فان الاول للابتداء والثانية للعلة اي من اجل سوء وسوءها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ومن حيث كونها لا تكتسب ومن حيث غير ذلك أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ قال اليزيدي الهون الهوان بلغة قريش وكذا حكي عن الكسائي وحكي عنه ايضا انه البلاء والشقة وقال الفراء الهون القليل بلغة تميم وعن الاعمش انه قرأ أيمسكه على سوء أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ اي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعل العرب

والدس اخفاء الشيء في الشيء فلا يزال الذي بشر بحدوث الانثى مترددا بين هذين الامرين والتذكير
في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الانثى لرعاية اللفظ وقرأ الجحدري ايمسكها ام يدسها ويلزمه ان يقرأ
ايمسكها وقيل دسها اخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالدسوس لاخفائه عن الابصار ألا ساء
ما يحكمون حيث اضافوا البنات التي يكرهونها الى الله سبحانه واضافوا البنين المحبوبين عندهم الى انفسهم
ومثله قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى قال السدي بئسما حكموا يقول شيء لا يرضونه
لانفسهم فكيف يرضونه لي لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ اي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه
بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة
والولد وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق وقيل
العذاب والنار وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى هي اضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم
الواسع او التوحيد واخلاص العبادة او انه خالق رازق قادر مجاز منزه عن الولد وقيل شهادة ان لا اله
الا الله قاله قتادة وقيل الله نور السموات والارض مثل نوره الآية وقيل ليس كمثله شيء قاله ابن
عباس وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغالب فلا يضره نسبتهم اليه ما لا يليق به الْحَكِيمُ في اقواله وافعاله ثم لما ذكر
سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال وَلَوْ يُؤَاخِذُ
اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ المراد بالناس هنا الكفار او جميع العصاة والباء للسببية مَا تَرَكَ عَلَيْهَا اي على
الارض وان لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس او الدابة مِنْ دَابَّةٍ قط بل اهلكها بالمرة بشؤم ظلم
الظالمين فان الجميع مستقرون على الارض والمراد بالدابة الكافر وقيل كل ما دب وقد قيل على هذا كيف
يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له واجيب بان اهلاك الظالم انتقاما منه واهلاك غيره ان كان
من اهل التكليف فلاجل توفير اجره وان كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة
لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ومثل هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة
وفي معنى هذه الآية احاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول اذا اراد الله بقوم عذابا اصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم وكذلك حديث
الجيش الذي يخسف بهم في البيداء وفي اخره انهم يبعثون على نياتهم وقد قدمنا عند تفسير قوله
سبحانه واتقوا فتنة الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له قال سعيد بن جبير ما ترك عليها من دابة ما سقاهم

المطر وعن السدي نحوه اي يمسك المطر بسبب ظلمهم وانقطاعه يوجب انقطاع النسل وقيل لو
اهلك الآباء بكفرهم لم تكن الابناء وذلك يستلزم ان لا يبقى في العالم احد من الناس وقال قتادة قد
فعل ذلك في زمن نوح اهلك الله ما على الارض من دابة الا ما حمل في سفينته وهذا ايذان بان ما
من القبائح فقد تناهى الى امد لا غاية وراءه وعن ابن مسعود قال ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره
ثم قال اي والله زمن غرق قوم نوح وعنه قال كاد الجعل ان يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ
هذه الآية وعن انس نحوه وعن ابي هريرة انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه قال ابو هريرة
بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا في وكرها من ظلم الظالم ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معلوم معين
عنده تعالى وهو منتهى حياتهم وانقضاء اعمارهم او اجل عذابهم وفي هذا التاخير حكمة بالغة منها
الاعذار اليهم وارخاء العنان معهم ومنها حصول من سبق في علمه من اولادهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾
الذي سماه لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ اي حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك
الوقت من دون تقدم عليه ولا تاخر عنه والساعة للمدة القليلة وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه
ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم فقال ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ اي ينسبون الى الله سبحانه ما
يكرهون نسبته الى انفسهم من البنات والشريك في الرياسة واهانة الرسل وهو تكرير لما تقدم لقصد
التاكيد والتقرير او لزيادة التوبيخ والتقريع قال الضحاك اي يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لانفسهم
ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائحهم فقال ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ والذي
تصفه السنتهم من الكذب هو قولهم ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ الخصلة او العاقبة ﴿الْحُسْنَى﴾ قال الزجاج يصفون ان لهم
مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن اي الجنة كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقرئ
الكذب بضمتين على انه صفة للالسن وهو جمع كذوب فيكون المفعول على هذا ان لهم الحسنى قال
مجاهد قول كفار قريش لنا البنون ولله البنات وعن قتادة نحوه ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿لَا جَرَمَ﴾
وتركيب مزجي من لفظ لا ولفظ جرم ومعناه الفعل اي ثبت او المصدر اي حقا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكان ما جعلوه
لانفسهم من الحسنى ﴿النَّارَ﴾ كالوقود والعذاب الدائم هذا ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء مخففا اي مقدمون الى
النار قال ابن الاعرابي وابو عبيدة اي متروكون منسيون في النار وبه قال مجاهد وعن سعيد بن جبير
نحوه وبه قال الكسائي والفراء فيكون مشتقا من افرطت فلانا خلفي اذا خلفته ونسيته وقال قتادة

والحسن يعجلون اليها مقدمون في دخولها من افرطته الى قرنته في طلب الماء والفارط هو الذي يتقدم الى الماء والفراط المتقدمون في طلبه والوراد المتاخرون ومنه قوله صلى الله عليه وسلم انا فرطكم على الحوض متفق عليه وفي القاموس افرط فلانا تركه وتقدمه وجاوز الحد والعجل بالامر وقرء مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومعناه مسرفون في الذنوب والمعاصي يقال افرط فلان على فلان اذا اربى عليه وقال له اكثر مما قال من الشر وقرء مفرطون بكسر الراء وتشديدها اي مضيعون امر الله فهو من التفريط في الواجب ثم بين سبحانه ان مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الامم فقال مسليا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم تَاللّٰهِ لَقَدْ اَرْسَلْنَا اِلٰى اُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ رسلا فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ اَعْمَالَهُمْ الخبيثة من الكفر فكان شانهم مع رسلهم التكذيب والمزين هو الله سبحانه والشيطان اغا له الوسوسة فقط فمن اراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ لفظ اليوم المعرف بال انما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم كالآن وحينئذ فلفظ اليوم في الآية يحتمل ان يكون عبارة عن زمان الدنيا فيكون المعنى هو قرينهم في الدنيا ويحتمل ان يكون عبارة عن يوم القيامة وما بعده فيكون الحال الآتية ويكون الولي بمعنى الناصر والمراد نفي الناصر عنهم على ابلغ الوجوه لان الشيطان لا يتصور منه النصرة اصلا في الدار الآخرة واذا كان الناصر منحصرا فيه لزم ان لا نصرة من غيره ويحتمل ان يراد باليوم بعض زمان الدنيا وهو على وجهين الاول ان يراد البعض الذي قد مضى وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للامم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية الثاني ان يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في وليهم لكفار قريش اي فهو ولي هؤلاء اليوم او على حذف مضاف اي فهو ولي امثال اولئك الامم اليوم ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ في الآخرة وهو عذاب النار ثم ذكر سبحانه انه ما اهلك من هلك الا بعد اقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم فقال وَمَآ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء في الا مفرغ من اعم الاحوال اي ما انزلنا عليك لحال من الاحوال ولا لعلة من العلل الا لتبين لهم اي للناس وانما جر هذا باللام لاختلاف فاعله

الانسان بعينه ومنه تظهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس اشمل كذراع
واذرع سُجَّدًا جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع اي حال كون الظلال ساجدة لِلّٰهِ قال الزجاج
يعني ان هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال ايضا سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من اثر الصنعة
قال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء لله وقيل ان الظلال ملتصقة بالارض كالساجد عليها
فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجد اطلق الله عليها هذا اللفظ وَهُمْ اي والحال ان الظلال دَاخِرُوْنَ اي خاضعون
صاغرون والدخور الصغار والذل يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله نزلوا منزلة العقلاء في
التعبير عنهم بصيغة جمع العقلاء لما وصفها بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر
عنها بلفظ من يعقل وَلِلّٰهِ وحده لا لغيره يَسْجُدُ اي يخضع وينقاد والسجود على نوعين سجود طاعة
وعبادة وسجود انقياد وخضوع كسجود الانسان وسجود الظلال والآية تحتمل النوعين مَا فِي السَّمٰوٰتِ
جميعا وَمَا فِي الْاَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ اي حيوان جسماني ونسمة تدب وتتحرك على الارض والمراد به كل
دابة قال الاخفش هو كقولك ما اتاني من رجل مثله وما اتاني من الرجال مثله وقد دخل في عموم
ما فيهما جميع الاشياء الموجودة فيهما قال قتادة لم يدع شيئا من خلقه الا عبده له طائعا او كارها
وعن الحسن قال يسجد من في السموات طوعا ومن في الارض طوعا وكرها وانما خص الدابة بالذكر
لانه قد علم من قولهم اولم يروا الى ما خلق الله من شيء انقياد الجمادات والجمادات تدل على قدرة
الصانع الحكيم فيدعو العاقلين الى السجود لله عند التامل والتدبر من بيانية بيانا لما في الشقين او بيانا
لما الثانية فقط وَالْمَلٰٓئِكَةُ عطف على ما قبلهم وسطع خاص على عام تشريفا لهم وتعظيما لدخولهم في المعطوف عليه وقيل افرد الملائكة لانهم
ذوو اجنحة يطيرون بها او يكون في السماء خلق يدبون وَهُمْ اي والحال انهم لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عن عبادة ربهم والمراد الملائكة ويحتمل
ان تكون الجملة مستانفة وفي هذا رد على قريش حيث زعموا ان الملائكة بنات الله والمعنى يسجد لله ما في السموات وما في الارض
والملائكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود يَخَافُوْنَ اي حال كونهم خائفين رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ او
جملة مستانفة لبيان نفي استكبارهم ومن آثار الخوف عدم الاستكبار اي يخافون عذاب ربهم
كائنا من فوقهم او يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة
بائنا عنهم بالاستواء على العرش وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف اي يخافون
ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه وانما اقتضى مثل هذه التاويلات البعيدة

المماماة على مذاهب قد رسخت في الاذهان وتقررت في القلوب قيل وهذه المخافة هي مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخبارا عن فرعون وانا فوقهم قاهرون ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ به من طاعة الله يعني الملائكة او جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجمل على الملائكة اولى لان في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وابليس وجنوده وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقاري والمستمع ان يسجد عند قراءتها وسماعها ولما بين سبحانه ان مخلوقاته السماوية والارضية منقادة له خاضعة لجلاله اتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فنهى سبحانه عن اتخاذ الهين ثم اثبت ان الالهية منحصرة في اله واحد وهو الله سبحانه وقد قيل ان التثنية في الالهين قد دلت على الاثنينية والافراد في اله قد دل على الوحدة فما وجه وصف الهين باثنين ووصف اله بواحد فقيل في الجواب ان في الكلام تقديما وتاخيرا والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين وفيه بعد وقال ابو البقاء هو مفعول ثان وهذا كالغلط اذ لا معنى لذلك التثنية وقيل ان التكرير لاجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل انه تاكيد لالهين وعليه اكثر الناس وكلام الزمخشري هنا يفهم انه ليس بتاكيد وقيل ان فائدة زيادة اثنين هي ان يعلم ان النهي راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم ان المراد اثبات الالهية دون الواحدية مع ان الالهية له سبحانه مسلمة في نفسها وانما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ اي ان كنتم راهبين شيئا فاياي فارهبون لا غيري فالتركيب افاد الحصر وقيل التقدير اياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية ارهبوا اياي فارهبون قال الشيخ وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في اول البقرة ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وانه الذي يجب ان يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر ان الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الارض وتقديم الخبر لافادة الاختصاص مع التفت من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله انما هو اله واحد او على

الخبر او مستانف وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا اي ثابتاً او واجباً دائماً لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص قال الفراء واصبا معناه دائماً وروي عنه ايضا الواصب الخالص والاول اولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب واصب اي دائم وقال الزجاج اي طاعته واجبة ابدا ففسر الواصب بالواجب قال ابن قتيبة في تفسير الواصب اي ليس احد يطاع الا انقطع ذلك بزوال او بهلكة غير الله تعالى فان الطاعة تدوم له ففسر الواصب بالدائم واذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت يقال وصب الشيء يصب وصوبا فهو واصب اذا دام ووصب الرجل على الامر اذا واظب عليه وقيل الوصب التعب والاعياء اي يجب طاعة الله سبحانه وان تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية قال مجاهد الدين الاخلاص وواصبا دائما وقال ابو صالح يعني لا اله الا الله وعن ابن عباس دائماً واجباً وفي البيضاوي واصبا لازما وقال الشهاب الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام وفي القاموس وصب يصب دام وثبت كاوصب على الامر واظب وفي المصباح وصب الشيء وصوبا دام ووصب الدين وجب والاستفهام في قوله أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ للتقريع والتوبيخ او للتعجب والانكار والفاء للتعقيب والمعنى اذا كان الدين اي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم ايقاعها لغيره فكيف يعقل ان يكون للانسان رغبة او رهبة في غير الله ثم امتن سبحانه عليهم بان جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ اي ما يلابسكم من النعم على اختلاف انواعها فهي منه سبحانه والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لاجل العمل به واما دنيوية نفسانية او بدنية او خارجية كالسعادات المالية وغيرها وكل واحدة من هذه جنس تحته انواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل ان لا يشكر الا اياه وما موصولة وللبس بعيد او شرطية واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وابو البقاء والفاء زائدة ثم بين تلون الانسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ اي الشدة والامراض والاسقام او اي ضر كان والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان فَإِلَيْهِ سبحانه لا الى غيره تَجْأَرُونَ تتضرعون وتستغيثون وتضجون في كشفه فلا كاشف له الا هو يقال جأر يجأر جؤاراً اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع قال مجاهد تتضرعون بالدعاء وقال السدي تضجون بالدعاء وفي القاموس جأر جأراً وجؤاراً بوزن غراب رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبات طال والارض طال نبتها

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ اي اذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر إِذَا فَرِيقٌ اي جماعة مِّنكُم بِرَبِّهِمْ الذي رفع الضر عنهم يُشْرِكُونَ فيجعلون معه الها آخر من صنم او نحوه اذا الاولى شرطية والثانية فجائية جوابها وفي الآية دليل على ان اذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها لان ما بعد اذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الاشراك بالله الذي انعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له وهذا المعنى قد تقدم في الانعام ويونس ويأتي ان شاء الله تعالى في سبحان قال الزجاج هذا خاص بمن كفر وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر وعلى هذا فتكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا والفريق هم الكفرة وان كان الخطاب موجها الى الكفار فمن للبيان وبه قال الزمخشري كانه قيل اذا فريق كافر وهم انتم قال السمين واللام في لِيَكْفُرُوا لام كي اي لكي يكفروا يعني اشراكهم سببه كفرهم وقيل ان اللام الصيرورة اي صار امرهم الى ذلك وقيل انها لام الامر واليه نحا الزمخشري وقيل انها لام العاقبة اي فعاقبة اشراكهم بالله غيره كفرهم بِمَا آتَيْنَاهُمْ من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كان هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة الى الخطاب فَتَمَتَّعُوا بما انتم فيه من ذلك فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة امركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون اليه في الدار الآخرة قال الحسن هذا وعيد ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح اعمالهم فقال وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ اي يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما تعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا من اموالهم يتقربون به اليه وقيل المعنى انهم اي الكفار يجعلون للاصنام وهي لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات واجراها مجرى العقلاء جريا على اعتقاد الكفار فيها وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للاصنام التي لا تعقل شيئا نصيبا من اموالهم التي رزقهم الله اياها قال مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون انه يضرهم وينفعهم نصيبا مما رزقناهم وقال قتادة هم مشركو العرب جعلوا لاوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزؤا من اموالهم جزءا فجعلوه لهم وعن السدي قال هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ اقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب

وهو من بديع الكلام وبليغه وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ عما كنتم تفترون اي تختلقونه من
الكذب على الله سبحانه في الدنيا ويجعلون لله البنات هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم وقد
كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله فنزه سبحانه نفسه عما نسبه اليه هؤلاء الجفاة الذين
لا عقول لهم صحيحة ولا افهام مستقيمة قال ابن عباس يقول تجعلون لي البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن
لانفسكم وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا ولد للرجل منهم جارية امسكها على هوان او دسها
في التراب وهي حية ان هم الا كالانعام بل هم اضل وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ولهم ما
يشتهون اي ويجعلون لانفسهم ما يشتهونه من البنين والجملة مستأنفة او في محل النصب على الحال
من الواو في يجعلون هذا ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال واذا بشر
احدهم بالانثى اي اذا اخبر احدهم بولادة بنت له ظل صار وجهه مسودا اي متغيرا وليس
المراد السواد الذي هو ضد البياض بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم والحزن
والغيظ والكراهة والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا قاله الزجاج وقال
الماوردي بل المراد سواد اللون حقيقة قال وهو قول الجمهور والاول اولى فان المعلوم بالوجدان
ان من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه الا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد
الحقيقي وهو كظيم اي ممتلئ من الغم غيظا وحنقا يقال كظمت الغيظ كظما وكظوما امسكت على ما في
نفسك منه على صفح او غيظ وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فانا كظيم ومكظوم وكظم
البعير كظوما لم يجتر قال الاخفش هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره وقيل انه المغموم الذي يطبق
فاه من الغم مأخوذ من الكظامة وهو سد فم البير قاله علي بن عيسى وقد تقدم في سورة يوسف
يتوارى اي يتغيب ويختفي من القوم من سوء ما بشر به اي من سوء الحزن والعار والحياء الذي
يلحقه بسبب حدوث البنت له تعلق هنا جاران بلفظ واحد لاختلاف معناهما فان الاول للابتداء
والثانية للعلة اي من اجل سوء وسوءها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ومن حيث كونها
لا تكتسب ومن حيث غير ذلك ايمسكه على هون قال اليزيدي الهون الهوان بلغة قريش
وكذا حكي عن الكسائي وحكي عنه ايضا انه البلاء والمشقة وقال الفراء الهون القليل بلغة تميم وعن
الاعمش انه قوم ايمسكه على سوء ام يدسه في التراب اي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعله العرب

والدس اخفاء الشيء في الشيء فلا يزال الذي بشر بحدوث الانثى مترددا بين هذين الامرين والتذكير
في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الانثى لرعاية اللفظ وقرأ الجحدري ايمسكها ام يدسها ويلزمه ان يقرأ
ايمسكها وقيل دسها اخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالدسوس لاخفائه عن الابصار ألا ساء
ما يحكمون حيث اضافوا البنات التي يكرهونها الى الله سبحانه واضافوا البنين المحبوبين عندهم الى انفسهم
ومثله قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى قال السدي بئسما حكموا يقول شيء لا يرضونه
لانفسهم فكيف يرضونه لي للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء اي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه
بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة
والولد وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق وقيل
العذاب في النار ولله المثل الاعلى هي اضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل والعلم
الواسع او التوحيد واخلاص العبادة او انه خالق رازق قادر مجاز منزه عن الولد وقيل شهادة ان لا اله
الا الله قاله قتادة وقيل الله نور السموات والارض مثل نوره الآية وقيل ليس كمثله شيء قاله ابن
عباس وهو العزيز الذي لا يغالب فلا يضره نسبتهم اليه ما لا يليق به الحكيم في اقواله وافعاله ثم ذكر
سبحانه عن القوم عظم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال ولو يؤاخذ
الله الناس بظلمهم المراد بالناس هنا الكفار او جميع العصاة والباء للسببية ما ترك عليها اي على
الارض وان لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس او الدابة من دابة قط بل اهلكها بالمرة بشؤم ظلم
الظالمين فان الجميع مستقرون على الارض والمراد بالدابة الكافر وقيل كل ما دب وقد قيل على هذا كيف
يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له واجيب بان اهلاك الظالم انتقاما منه واهلاك غيره ان كان
من اهل التكليف فلاجل توفير اجره وان كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة
لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ومثل هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة
وفي معنى هذه الآية احاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول اذا اراد الله بقوم عذابا اصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم وكذلك حديث
الجيش الذي يخسف بهم في البيداء وفي آخره انهم يبعثون على نياتهم وقد قدمنا عند تفسير قوله
سبحانه واتقوا فتنة الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له قال سعيد بن جبير ما ترك عليها من دابة ما سقاهم

مع فاعل الفعل فان المنزل هو الله والمبين هو النبي صلى الله عليه وسلم وانما انتصب الثلاثة بعد لاتحاد فاعل مع فاعل الفعل لان الهادي والراحم هو الله كما انه المنزل الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ من التوحيد والشرك والجبر والقدر واحوال البعث واثبات المعاد وسائر الاحكام الشرعية وَهُدًى عطف على لتبين وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب لانهم هو المنتفعون به ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرده بالالهية بذكر آياته العظام وبيناته الفخام فقال وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ اي من السحاب او من جهة العلو كما مر مَاءً اي نوعا من انواع الماء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اي احياها بالنبات والزرع بعد ان كانت يابسة لا حيوة بها إِنَّ فِي ذَٰلِكَ الانزال والاحياء لَآيَةً اي علامة دالة ودلالة واضحة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ كلام الله سماع تدبر وانصاف ويفهمون ما يتضمنه من العبر ويتفكرون في خلق السموات والارض فالمراد سمع القلوب لا سمع الآذان لان من لم يسمع بقلبه فكانه لم يسمع وكانه اصم وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً الانعام هي الابل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز والعبرة اصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه فاعتبروا يا اولي الابصار والظاهر ان في سببية اي بسبب الانعام وقال ابو بكر الوراق العبرة في الانعام تسخيرها لاربابها وطاعتها لهم و الظاهر ان العبارة هي قوله نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة قرئ من سقى يسقي ومن اسقى يسقي قيل هما لغتان وقرئ بالتاء على ان الضمير راجع الى الانعام وبالتحتية على ارجاع الضمير الى الله سبحانه وهما ضعيفان وجميع القراء على القراءتين الاوليين والفتحة لغة قريش والضم لغة حمير وقيل ان بين سقى واسقى فرقا فاذا كان الشراب من يد الساقي الى فم المسقي فيقال سقيته وان كان بجرح عرضه عليه وتهيئته له قيل اسقاه ومن تبعيضية او ابتدائية والضمير في بطونه راجع الى الانعام قال سيبويه العرب تخبر عن الانعام بخبر الواحد وقال الزجاج لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث فيقال هو الانعام وهي الانعام جاز عود الضمير بالتذكير وقال الكسائي معناه مما في بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور قال الفراء وهو صواب وقال المبرد هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله الشمس هذا ربي يعني هذا الشيء الطالع وكذلك في مرسلة اليهم بهدية ثم قال فلما جاء سليمان ولم يقل جاءت لان المعنى جاء الشيء الذي ذكرنا انتهى ومن ذلك قوله ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره

وحكى الكسائي ان المعنى مما في بطون بعضه وهي الاناث لان الذكور لا البان لها وبه قال ابو عبيدة
وحكي عن الفراء انه قال النعم والانعام واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد
فرجع الضمير الى لفظ النعم الذي هو بمعنى الانعام وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربي فقال انما يرجع
التذكير الى معنى الجمع والتانيث الى معنى الجماعة فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وانثه في سورة
المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ الفرث الزبل الذي ينزل الى الكرش فاذا
خرج منه لم يسم فرثا بل يسمى روثا وهو ثفل الكرش يقال فرثت الكرش اذا اخرجت ما فيها وفي
البيضاوي الفرث الاشياء الماكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش والمعنى ان الشيء الذي
تاكله يكون منه ما في الكرش وهو الفرث ويكون منه الدم فيكون اسفله فرثا واعلاه دما واوسطه
لَبَنًا فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش كما هو فسبحان من هذه بعض
حكمته خَالِصًا من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد ان جمعهما وعاء واحد ونحو ذلك ان الحيوان اذا
اكل العلف طبخه الكرش ثم انقسم الى اقسام ثلثة ثفل وفوقه اللبن وفوقه الدم ثم تسلط الكبد عليها
فترسل الدم الى العروق واللبن الى الضروع ويبقى الثفل في الكرش حتى ينزل الى الخارج والحاصل
ان الله تعالى خلق اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ اي لذيذا هنيئا لا يغص
به من شربه يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا اي سهل مدخله في الحلق وفي ذلك عبرة لمن اعتبر
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ اي ما تتخذون وقيل التقدير وان لكم من ثمرات النخيل والاعناب
لعبرة وقيل نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل وقيل نسقيكم من ثمرات النخيل قدره الزمخشري
ويكون على هذا تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا بيانا للاسقاء وكشفا عن حقيقته وقيل تقديره ومن ثمرات
النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه سكرا ويكون تكرير منه للتاكيد وانما ذكر الضمير في منه لانه يعود
الى المذكور او الى المضاف المحذوف وهو العصير كانه قال من عصير ثمرات تتخذون منه والسكر
بفتحتين ما يسكر من الخمر وقيل انه من اسماء الخمر وقيل انه في الاصل مصدر سمي
به الخمر وَرِزْقًا حَسَنًا هو جميع ما يوكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل والدبس قال
ابن عباس السكر ما حرم من ثمرتهما والرزق الحسن ما حل وعنه قال السكر الحرام والرزق زبيبه
وخله وعنبه ومنافعه وايضا قال السكر النبيذ والرزق الزبيب فنسختها آية انما الخمر والميسر وعنه

قال فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لانه منه ثم قال ورزقا حسنا فهو الحلال من الخل
والزبيب والنبيذ واشباه ذلك فاقره الله وجعله حلالا للمسلمين وعن ابن عمر انه سئل عن السكر
فقال الخمر بعينها وعن ابن مسعود قال السكر الخمر وبالجملة فقد كان نزول هذه الاية قبل تحريم الخمر وبه
جزم السيوطي اعتمادا على قولهم في السورة انها مكية الا ثلاث ايات من اخرها والمائدة مدنية وتحريم الخمر
فيها وهي اخر القران نزولا كما ثبت في الحديث وقيل ان السكر الخل بلغة الحبشة والرزق الطعام من
الشجرتين وقيل الرزق الدبس بالكسر وبكسرتين في القاموس هو عسل التمر وعسل النحل وبالفتح الاسود
من كل شيء وقال الخفاجي والعادة الان جارية باطلاقه على ما يتخذ من العنب فلعله يستعمل
فيهما وقيل السكر العصير الحلو الحلال وسمي سكرا لانه قد يصير مسكرا اذا بقي فاذا بلغ الاسكار حرم
والقول الاول اولى وعليه الجمهور وقد صرح اهل اللغة بان السكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك الا
ابو عبيدة فانه قال السكر الطعم ورجح هذا ابن جرير فقال ان السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه
من ثمار النخيل والاعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل انما اشكو بثي
وحزني الى الله قال الزجاج قول ابي عبيدة هذا لا يعرف واهل التفسير على خلافه وقد حمل السكر
جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الانبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ قالوا وانما امتن الله على
عباده بما احله لا بما حرمه عليهم وهذا مردود بالاحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تاخره عن اية
تحريم الخمر **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ** المذكور من اخراج اللبن واتخاذ السكر والرزق من الثمرات **لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**
اي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الايات التكوينية **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ**
إِلَى النَّحْلِ قد تقدم الكلام في الوحي وانه يكون بمعنى الالهام وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير
سبب ظاهر ومنه قوله سبحانه ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ومن ذلك الهام البهائم
لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس ممن له عقل
وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته
وقدرته وقرئ النحل بفتح الحاء قال الزجاج وسمي نحلا لان الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه
قال الجوهري والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والانثى وقيل اسم جنس يفرق بينه وبين واحده
بالتاء ويذكر ويؤنث والنحل بالضم مصدر قولك نحلته من العطية انحله نحلا والنحل العطية على فعلى

أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا اي بأن اتخذي على ان ان هي المصدرية ويجوز ان تكون تفسيرية
لان في الايحاء معنى القول وبهذا قال الزمخشري وغيره ومن منع وهو ابو عبد الله الرازي قال لا نسلم
انها مفسرة كيف وقد انتفى شرط التفسير بان المراد من الايحاء هو الالهام اتفاقا وليس فيه معنى القول
وحينئذ فهي مصدرية كانه قيل اوحى ربك باتخاذ بعض الجبال بيوتا ورده في المغني بان الالهام
فيه معنى القول من حيث الدلالة على المعنى وانث الضمير في اتخذي لكونه احد الجائزين كما
تقدم او للحمل على المعنى او لكون النحل جمعا واهل الحجاز يؤنثون النحل والمعنى سخرها لما خلقها له والهمها
رشدها وقدر في نفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبني بيوتا
على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت
مدورة او مثلثة او مربعة او غير ذلك من الاشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة ولما حصل
المقصود فالهمها الله تعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة
خالية والهمها ايضا ان يجعلوا عليهم اميرا كبيرا نافذ الحكم فيهم وهو يطيعونه ويمتثلون امره ويكون هذا
الامير اكبرهم جثة واعظمهم خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكهم كذا حكاه الجوهري والهمها ايضا
ان جعلوا على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير اهلها من الدخول اليها والهمها ايضا انها تخرج من بيوتها
فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة
الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي ومن في من الجبال وكذا في مِنَ الشَّجَرِ وَ
كذا في مِمَّا يَعْرِشُونَ للتبعيض اي مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر وفي
العروش التي يعرشها بنو آدم من الاجباح والحيطان وغيرها واكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب
يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها وهما سبعيتان وبابه نصر وضرب كما في المختار والظاهر ان
من في ما بمعنى في اذ لا معنى لكونها تبني من بناء الناس بل الظاهر انما تبني في بنائهم ويكون المراد من بنائهم
الكوارة ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل فان المشاهد انها تبني لها بيتا داخل الخلية من
الشمع ثم تمج فيه العسل شيئا فشيئا والظاهر ان من في الموضعين الاولين بمعنى في ايضا كما صرح به الشهاب
ويكون المراد ببيوتها ما تبنيه من الشمع كما تقدم فالشمع تارة تبنيه في الجبال وتارة في الاشجار وهذا
في النحل الوحشي وتارة تبنيه في الخلايا وهذا في النحل الاهلي فان النحل قسمان كما ذكره الخازن ثُمَّ كُلِي

البجيرمي ... ج ١٠ ص ... ج ١٢ ... ١٩٠٢

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ من للتبعيض لانها تاكل النور من الاشجار فاذا اكلتها فَاسْلُكِي اي فادخلي سُبُلَ رَبِّكِ
اي الطرق التي فهمك الله وعلمك واضافها الى الرب لانه خالقها وملهم النحل ان تسلكها اي ادخليها
لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر او اسلكي ما اكلت في سبل ربك اي في مسالكه التي يستحيل فيها
بقدرته النور عسلا واذا اكلت الثمار في الامكنة البعيدة فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك
لا تضلين فيها ذُلُلاً حال من السبل وهي جمع ذلول اي مذللة غير متوعرة واختار هذا الزجاج وابن
جرير وقيل حال من النحل يعني مطيعة للتسخير واخراج العسل من بطونها واختار هذا ابن قتيبة قال
مجاهد طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته وعن قتادة قال مطيعة قال السدي ذليلة يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا مستانفة عدل به عن خطاب النحل تعديدا للنعم وتعجيبا لكل سامع وتنبيها على العبر
وارشادا الى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الضعيف الشبيه بالذباب شَرَابٌ المراد به في الآية
هو العسل قاله ابن عباس مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ يعني بان بعضه ابيض وبعضه احمر وبعضه ازرق وبعضه
اصفر باختلاف ذوات النحل والوانها وماكولاتها وذلك على قدر ما تاكل من الثمار والازهار و
يستحيل في بطونها عسلا وفي هذا دليل على قدرته وفي البيضاوي مختلف الوانه بسبب اختلاف
سن النحل والفصل فالابيض لفتيها والاصفر لكهلها والاحمر لمسنها قال الشهاب في لا يخفى انه مما
لا دليل عليه وجمهور المفسرين على ان العسل يخرج من افواه النحل ويسيل كاللعاب وقيل من اسفلها
وقيل لا يدرى من اين يخرج منها فِيهِ اي في الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل والى
هذا ذهب الجمهور شِفَاءٌ لِلنَّاسِ قال مجاهد العسل فيه الشفاء وفي القرآن وقال الفراء وابن
كيسان وجماعة من السلف ان الضمير راجع الى القرآن ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات
والبراهين شفاء للناس ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين وعن
ابن مسعود قال ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وعنه مرفوعا قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالشفاءين العسل والقرآن وقد وردت احاديث في كون العسل
شفاء منها ما اخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشفاء في ثلاث في
شرطة محجم او شربة عسل او كية بنار وانا انهى امتي عن الكي واخرج البخاري ومسلم وغيرهما
من حديث ابي سعيد ان رجلا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان اخي استطلق

بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه عسلا ثم جاء فقال سقيته عسلا فما زاده الا استطلاقا قال اذهب
فاسقه عسلا فذهب فسقاه ثم جاء فقال ما زاده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق
الله وكذب بطن اخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه فبرأ وقد اختلف اهل العلم هل هذا
الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء او خاص ببعض الامراض فقالت طائفة هو على العموم
في كل حال ولكل احد وقالت طائفة ان ذلك خاص ببعض الامراض ولا يقتضي العموم في كل علة
وفي كل انسان وليس هذا باول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى
الخاص والخاص بمعنى العام ومما يدل على هذا ان العسل نكرة في سياق الاثبات فلا يكون عاما باتفاق
اهل اللسان ومحققي اهل الاصول وتنكيره ان اريد به التعظيم لا يدل الا على ان فيه شفاء عظيما لمرض او امراض
لا لكل مرض فان تنكير التعظيم لا يفيد العموم والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب انه اذا
استعمل مفردا كان دواء لامراض خاصة وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء
لكثير من الامراض قلت وفي حديث البخاري ان اخي استطلق بطنه الحديث وضح دليل على ما ذهبت اليه
طائفة من تعميم الشفاء لان قوله صلى الله عليه وسلم صدق الله اي انه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر
الامر بالسقيا وقد اعترض على هذا الحديث بعض الملحدين ومن في قلبه مرض بكونه خلاف ما اجمع عليه
الاطباء من ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال واجاب عنه الخازن على الطريق الجاري
على صناعة الطب واورده الشيخ سليمان الجمل ثم قال ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث
بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك انتهى وعن ابن عمر انه كان لا يشكو قرحة
ولا شيئا الا جعل عليه عسلا حتى الدمل اذا خرج طلى عليه العسل وعن ابي وجرة انه كان
يكتحل بالعسل ويستنشق ويتداوى به ذكره القرطبي وفي الباب آثار عن جماعة من السلف وقال
البيضاوي شفاء للناس اما بنفسه كما في الامراض البلغمية او مع غيره كما في سائر الامراض اذ قلما
يكون معجون الا والعسل جزء منه وقيل ان هذا القول خرج مخرج الاغلب وانه في الاغلب فيه شفاء
ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء لكنه في الجملة دواء وان نفعه اكثر من مضرته ومنافعه كثيرة
جدا قال السدي شفاء للاوجاع التي شفاؤها فيه وبالجملة فهو من اعظم الاغذية وانفع
الادوية وقليلا ما يجتمع هذان الامران في غيره ان في ذلك المذكور من امر النحل

لآية لقوم يتفكرون اي يعملون افكارهم عند النظر في صنيع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فان امر النحل من اعجبها واغربها وادقها واحكمها ومن تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة حتى التدبر علم قطعا انه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه ولما ذكر سبحانه بعض احوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة وخصائص القدرة القاهرة اتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر فقال والله خلقكم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبابا واما كهولا ومنكم من يرد الى ارذل العمر اي اضعفه واردأه واخسه وهو الهرم يقال رذل يرذل رذالة والارذل والرذالة الرديء من الشيء واخسه واحقره واوضعه قال النيسابوري ان العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان في اربع اولها سن النشو والنماء وهو من اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد وثانيها سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين الى اربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل وثالثها سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة تشرع الانسان الى النقص لكنه يكون النقص خفيا لا يظهر ورابعها سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال علي ارذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقيل تسعون سنة قاله قتادة ومثل هذه الآية قوله تعالى لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين وعن السدي قال هو الخرف وعن عكرمة قال من قرأ القرآن لم يرد الى ارذل العمر وعن طاؤس العالم لا يخرف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح وغيره انه كان يتعوذ بالله ان يرد الى ارذل العمر ثم علل سبحانه رد من يرده الى ارذل العمر بقوله لكي لا اللام لام التعليل وكي حرف مصدري ونصب ولا نافية وقيل اللام هنا للصيرورة والعاقبة يعلم بعد علم كان قد حصل له شيئا منه لا كثيرا ولا قليلا وشيئا من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم وقيل المراد بالعلم هنا العقل وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك وقيل لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته انه كما قدر على اماتته واحيائه قادر على نقله من العلم الى الجهل وانه قادر على احيائه بعد اماتته فيكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت ان الله عليم بحكمة التحويل الى ارذل من الاكمل او الى الافناء من الاحياء قدير على تبديل ما يشاء من الاشياء وعلى ما يريد

ثم لما بين سبحانه خلق الانسان وتقلبه في اطوار العمر ذكر طرفا من احواله لعله يتذكر عند ذلك
فقال وَاللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلٰى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك اي فجعلكم متفاوتين
فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي الوفا مؤلفة من بني آدم وضيق
على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت الا بسؤال الناس والتكفف لهم وكثر لواحد وقلل على
واحد وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة اسبابها وكما
جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والخَلق والخُلق والجهل و
قوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الاحوال وعن ابن عباس في الآية
قال لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في اموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني وعن
مجاهد قال هذا مثل لآلهة الباطل مع الله وقيل معنى الآية ان الله سبحانه اعطى الموالي افضل مما اعطى
مماليكهم بدليل قوله فَمَا الَّذِيْنَ فُضِّلُوْا اي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم كالموالي والسادة
بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ الذي رزقهم الله اياه عَلٰى مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُمْ من المماليك فَهُمْ اي المالكون والمماليك
فِيْهِ اي في الرزق سَوَآءٌ اي لا يردونه عليهم بحيث يساووهم فالفاء على هذا للدلالة على ان التساوي
مترتب على الترداد اي لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوي وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا
وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الاصنام كما تقدم والمعنى اذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون
بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال ان عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية
فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في اموالكم فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم
معه او كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالاصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير ومثل هذه
الآية قوله سبحانه ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم وفي
هذه الجملة اوجه احدها تقديره افهم فيه سواء ومعناه النفي اي ليسوا مستوين فيه والثاني انها
اخبار بالتساوي اي انما هو رزقي اجريته على ايديهم فهم فيه سواء قال ابو البقاء انها واقعة موقع فعل
وقيل ان الفاء في فهم بمعنى حتى اَفَبِنِعْمَةِ اللّٰهِ يَجْحَدُوْنَ حيث يفعلون ما يفعلون من الشرك والنعمة
هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك وقراءة الغيبة اولى لقرب المخبر عنه ولانه لو كان
خطابا لكان ظاهره المسلمين والاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر اي يشركون

يجحدون نعمته ويكون المعنى على قراءة الخطاب ان المالكين ليسوا برادي رزقهم على مماليكهم
بل انا الذي ارزقهم واياهم فلا تظنوا انكم تعطونهم شيئا وانما هو رزقي اجريه على ايديكم وهم جميعا
في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى كأن يقال
لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله ثم ذكر سبحانه الحالة الاخرى من احوال الانسان فقال وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا قال المفسرون يعني النساء فانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام قال
قتادة خلق آدم ثم خلق زوجته منه او المعنى خلق لكم من جنسكم ازواجا لتستانسوا بها لان الجنس يأنس
الى جنسه ويستوحش من غير جنسه وبسبب هذه الانسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب النسل
الذي هو المقصود بالزواج ولم يذكر البنات لكراهيتهم لهن فلم يمتن عليهم الا بما يحبونه ولهذا قال وَ
جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً جمع حافد يقال حفد يحفد حفدا وحفودا اذا اسرع فكل
من اسرع في الخدمة فهو حافد ومنه اليك نسعى ونحفد اي نسرع الى طاعتك قال ابو عبيد العمل والخدمة
وهذا اصله في اللغة قال الخليل بن احمد الحفدة عند العرب الخدم والاعوان وبه قال الحسن وعكرمة
والضحاك وقال الازهري قيل الحفدة اولاد الاولاد وروي هذا عن ابن عباس والحفيد ولد الابن ذكرا كان
او انثى وولد البنت كذلك وتخصيصه بولد الذكر وتخصيص ولد الانثى بالسبط عرف طارئ على اصل اللغة
وقيل الحفدة الاختان قاله ابن مسعود وعلقمة وابو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وقيل الحفدة
الاصهار قال الاصمعي الختن من كان من قبل المرأة كابيها واخيها وما اشبههما والاصهار منهما جميعا يقال
اصهر فلان الى بني فلان فهو صاهر وقيل هم اولاد امرأة الرجل من غيره وقيل اولاد الرجل الذين يخدمونه
وقيل البنات الخادمات لابيهن وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ورجح
كثير من العلماء انهم اولاد الاولاد لانه سبحانه امتن على عباده بان جعل لهم من الازواج بنين وحفدة
فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين وان كان يجوز ان يكون المعنى جعل لكم من ازواجكم بنين وجعل
لكم حفدة ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر ان يراد بالبنين من لا يخدم وبالحفدة من يخدم الاب
منهم او يراد بالحفدة البنات فقط ولا يفيد انهم اولاد الاولاد الا اذا كان تقدير الآية وجعل لكم من ازواجكم
بنين ومن البنين حفدة وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ التي تستطيبونها وتستلذونها ومن انواع
الثمار والحبوب والحيوانات والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ومن للتبعيض لان الطيبات

لا تكون مجتمعة إلا في الجنة والمرزوق في الدنيا أنموذج منها ثم ختم سبحانه الآية بقوله أفبالباطل يؤمنون الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر أي يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل وفي تقديم الباطل على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما وبنعمة الله أي بما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر هم يكفرون بإضافتها إلى غيره وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد وعن ابن جريج الباطل هو الشيطان ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم ويعبدون من دون الله داخل تحت الإنكار التوبيخي إنكارًا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام وهي لا تنفع ولا تضر ولهذا قال ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا المعنى أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقًا أي رزق كائنًا منهما عن قتادة قال هذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقًا من السموات والأرض ولا خيرًا ولا حيوة ولا نشورًا وفي شيئًا ثلاثة أوجه أحدها أنه منصوب على المصدر أي لا يملك لهم ملكًا أي شيئًا من الملك والثاني أنه بدل من رزقًا وهذا غير مفيد إذ ليس فيه بيان ولا تأكيد الثالث أنه منصوب برزقًا على أنه اسم مصدر وهو يعمل عمل المصدر وعلى خلاف في ذلك وبه قال الفارسي ورد عليه ابن الطراوة بأن الرزق اسم المرزوق كالرعي والطحن ورد عليه بأن الرزق أيضًا مصدر ولا يستطيعون الضمير راجع إلى ما وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئًا قد يكون موصوفًا باستطاعة التملك بطريق من الطرق فبين سبحانه أنه لا يملك ولا يستطيع والمعنى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حيوة لها ولا تستطيع التصرف ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه فقال فلا تضربوا لله الأمثال فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد قاله قتادة فإن ضرب المثل يشبه حالًا بحال وقصة بقصة قال الزجاج لا تجعلوا لله مثلًا فإنه واحد لا مثل له وكانوا يقولون إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك وعلل النهي بقوله إن الله يعلم ما عليكم من العبادة وأنتم لا تعلمون ما في عبادتها

من سوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سبحانه او يعلم ما انتم عليه من ضرب الامثال له او يعلم انه لا مثل له في الخلق ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بشيء من ذلك وفعلكم هذا ناشئ عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختل وعن ابن عباس قال يعني اتخاذهم الاصنام يقول لا تجعلوا معي الها غيري فانه لا اله غيري

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ اي ذكر شيئا يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبين ما جعلوه شريكا له من الاصنام والمثل في الحقيقة هي حالة العبد عارضة له وهي المملوكية والعجز عن التصرف فقوله ﴿عَبْدًا﴾ تفسير للمثل وبدل منه ووصفه بكونه ﴿مَّمْلُوكًا﴾ لان العبد والحر مشتركان في كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه قال عطاء هو ابو جهل بن هشام ووصفه بكونه ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لان المكاتب والماذون يقدران على بعض التصرفات فهذا الوصف لتمييزه عنهما واحتج الفقهاء بهذا على ان العبد لا يملك شيئا ﴿وَمَن﴾ اي الذي وقيل موصوفة واختاره الزمخشري كانه قيل وحرا من الاحرار الذين يملكون الاموال ويتصرفون بها كيف شاؤا ﴿رَّزَقْنَاهُ﴾ ليطابق عبدا ﴿مِنَّا﴾ اي من جهتنا وهو ابو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قاله عطاء ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ المراد به ما يحسن في عيون الناس لكونه رزقا كثيرا مشتملا على اشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ في وجوه الخير ويصرف منه الى انواع البر والمعروف ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ اي في حال السر وحال الجهر والمراد بيان عموم الانفاق للاوقات وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وان الثواب فيه اكثر

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ اي الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة وجمع الضمير لمكان من لانه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث وقيل انه اريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحر الجنس اي من اتصف بتلك الاوصاف من الجنسين والاستفهام للانكار اي هل يستوى العبيد والاحرار مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ومن المعلوم انهم لا يستوون فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه وحاصل المعنى انه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من امره على شيء ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الاصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر وقيل المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته والآخر هو المؤمن وقال ابن عباس معناه باطول من هذا والغرض انهما لا يستويان في الرتبة والشرف

وقيل العبد هو الصنم والثاني عابد الصنم والمراد انهما لا يستويان في القدرة والتصرف لان الاول جماد
والثاني انسان الْحَمْدُ كله لِلَّهِ وحده وحمد نفسه لانه المنعم المستحق لجميع المحامد لا يستحق غيره من العباد
شيئا منه فكيف تستحق الاصنام منه شيئا ولا نعمة منها اصلا لا بالاصالة ولا بالتوسط وقيل اراد
الحمد لله على ما انعم به على اوليائه من نعمة التوحيد وقيل اراد قل الحمد لله والخطاب اما لمحمد صلى الله عليه وسلم
او لمن رزقه الله رزقا حسنا وقيل انه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال الحمد لله
اي على قوة هذه الحجة بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم
بالنعم الجليلة ونفي العلم عنهم اما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم او هم
يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له وخص الاكثر بنفي العلم اما لكونه يريد الخلق
جميعا واكثرهم المشركون او ذكر الاكثر وهو يريد الكل او المراد اكثر المشركين لان فيهم من يعلم ولا يعمل
بموجب العلم ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية
وللاصنام التي هي اموات لا تضر ولا تنفع فقال وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا آخر اوضح مما قبله واظهر منه للدلالة
على بعد ما بين رتبة المؤمن ورتبة الكافر رَّجُلَيْنِ بدل من مثل وتفسير له أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ
اي العيي المفحم وقيل هو الاقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام وقيل هو الذي ولد اخرس فكل ابكم
اخرس وليس كل اخرس ابكم والابكم الذي لا يفهم ولا يُفهم وروى ثعلب عن ابن الاعرابي انه الذي
لا يسمع ولا يبصر ثم وصف الابكم فقال لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ من الاشياء المتعلقة بنفسه او بغيره لعدم
فهمه وعدم قدرته على النطق وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل وَهُوَ كَلٌّ اي ثقيل
عَلَىٰ مَوْلَاهُ اي على وليه وقرابته وعيال على من يلي امره ويعوله ووبال على اخوانه وقد يسمى اليتيم
كلا لثقله على من يكفله وفي هذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته
على شيء مطلقا ثم وصفه بصفة رابعة فقال أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ اي يرسله ويصرفه في طلب حاجة او كفاية
المهم لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ قط لانه عاجز اخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه ان يقول هَلْ يَسْتَوِي
هُوَ في نفسه مع هذه الاوصاف التي اتصف بها وَمَن يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْعَدْلِ مع كونه في نفسه ينطق
بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الاشياء وهو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ورشد
وديانة وَهُوَ في نفسه عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ اي على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل الى احد جانبي

الافراط والتفريط وانما قابل الاوصاف الاول بهذين الوصفين المذكورين للاخر لان حاصل اوصاف
الاول عدم استحقاقه لشيء وحاصل وصفي هذا انه مستحق اكمل استحقاق والمقصود الاستدلال بعدم
تساوي هذين الامرين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له قال ابن عباس
يعني بالابكم الكافر وبالامر بالعدل المؤمن وهذا المثل في الاعمال وعلى هذا تكون الاية على العموم في
كل مؤمن وكافر وقيل هي على الخصوص والذي يامر بالعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم والابكم هو ابو جهل
وقيل الابكم ابي بن خلف والامر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون وقال ابن عباس هذه الاية نزلت
في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو اسيد بن ابي العيص كان يكره الاسلام وكان عثمان ينفق عليه و
يكفله ويكفيه المؤنة وكان الاخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما ولما فرغ سبحانه من ذكر
المثلين مدح نفسه بقوله وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اي يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره
ولا يستقل به والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما واراد بغيبهما يوم القيامة لان علمه غائب عن
العباد ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما والمراد التوبيخ للمشركين والتقريع لهم اي ان العبادة انما
يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلا عاجزا لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من انواع
العلم وَمَآ اَمْرُ السَّاعَةِ التي هي اعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه وهو
اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والاخرين وتبديل صور الاكوان اجمعين والمعنى ما
امر قيام الساعة في سرعته وسهولته اِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ اي كرجع طرف من اعلى الحدقة الى اسفلها
وانما ضرب به المثل لانه لا يعرف زمان اقل منه واللمح النظر بسرعة ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة
نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزية ولذا قال اَوْ هُوَ اي بل امرها اَقْرَبُ منه بان يكون في زمان نصف
تلك الحركة بل في الان الذي تبتدأ فيه فالله تعالى يحيي الخلق دفعة وما يوجد دفعة كان في ان اي
جزء غير منقسم وليس هذا من قبيل المبالغة بل هو كلام في غاية الصدق لان مدة ما بين الخطاب وقيام
الساعة متناهية ومنها الى الابد غير متناه ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي او يقال ان الساعة لما
كانت اتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر وقال الزجاج لم يرد ان الساعة تاتي في لمح البصر وانما وصف
سرعة القدرة على الاتيان بها لانه يقول للشيء كن فيكون وقيل المعنى هي عند الله كذلك وان لم تكن
عند المخلوقين بهذه الصفة ومثله قوله سبحانه انهم يرونه بعيدا ونريه قريبا ولفظ او

ليس للشك بل للتمثيل او التخيير وقيل دخلت لشك المخاطب وقيل هي بمنزلة بل إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته ثم انه سبحانه ذكر حالة اخرى للانسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا معطوف على قوله والله جعل لكم من انفسكم ازواجا منتظم معه في سلك ادلة التوحيد اي اخرجكم من بطون امهاتكم اطفالا لا علم لكم بشيء ولا تعلمون شيئا مما اخذ عليكم من الميثاق وقيل مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة وقيل شيئا من منافعكم والاولى التعميم لتشمل الآية هذه الامور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ فان شيئا نكرة واقعة في سياق النفي وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ اي ركب فيكم هذه الاشياء وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الاخراج لما ان مدلول الواو هو مطلق الجمع و المعنى جعل لكم هذه الاشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوبا عنكم عند اخراجكم من بطون امهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه ونكتة تأخيره ان السمع ونحوه من آلات الادراك انما يعتد به اذا احس وادرك وذلك بعد الاخراج وقدم السمع على البصر لانه طريق تلقي الوحي او لان ادراكه اقدم من ادراك البصر والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر وقد قدمنا الوجه في افراد السمع وجمع الابصار والافئدة وهو ان افراد السمع لكونه مصدرا في الاصل يتناول القليل والكثير لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اي لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له فعند ذلك تعرفون مقدار ما انعم الله به عليكم فتشكرونه او ان هذا الصرف هو نفس الشكر ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته فقال أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ اي الم ينظروا اليها حال كونها مذللات للطيران بما خلق الله لها من الاجنحة وسائر الاسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهوى والهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء فِي جَوِّ السَّمَاءِ اي في الهواء المتباعد من الارض في سمت العلو واضافته الى السماء لكونه في جانبها قال كعب ان الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك مَا يُمْسِكُهُنَّ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن في الجو إِلَّا اللَّهُ سبحانه بقدرته الباهرة فان ثقل اجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لانها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها إِنَّ فِي ذَٰلِكَ التسخير على تلك الصفة لَآيَاتٍ ظاهرة تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله وَاللَّهُ جَعَلَ اي صير لَكُم مِّن

بُيُوتِكُمْ التي هي من الحجر والمدر وغيرها ومن ابتدائية سَكَنًا مصدر يوصف به الواحد والجمع
واليه ذهب ابن عطية ومنعه الشيخ ولم يذكر وجه المنع وهو بمعنى مسكون اي تسكنون فيها وتهدأ
جوارحكم من الحركة وهذا من جملة تعديد الله نعمه على الانسان فان الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطربا
دائما كالافلاك ولو شاء لخلقه ساكنا ابدا كالارض وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا لما ذكر
سبحانه بيوت المدن وهي التي للاقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة وهي الانطاع
والادم جعلها بيوتا كالخيام والقباب والاخبية والفساطيط قال مجاهد وهي خيام العرب وقيل
ذلك في بعض الناس كالسودان فانهم يتخذون خيامهم من الجلود ويجوز ان يتناول المتخذة من الصوف
والوبر والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها تَسْتَخِفُّونَهَا اي
يخف عليكم حملها في الاسفار وغيرها ولهذا قال يَوْمَ ظَعْنِكُمْ اي في يوم سيركم ورحيلكم في اسفاركم
والظعن بفتح العين وسكونها وهما لغتان قرئ بهما كالنهَر والنهْر وهو سير اهل البادية للانتجاع
والتحول من موضع الى موضع والظعن الهودج ايضا قال ابن عباس بعض بيوت السيارة بنيانه في
ساعة وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ اي حضركم والمعنى لا يثقل عليكم حملها في الحالين وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ
أَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا والانعام تعم الابل والبقر والغنم كما تقدم والاصواف للغنم والاوبار للابل و
الاشعار للمعز وهي من جملة الغنم فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها الثلاثة لواحد من
اصناف الابل ونوعي الغنم ولم يذكر القطن والكتان لانهما لم يكونا ببلاد العرب أَثَاثًا هو متاع البيت واصله
الكثرة والاجتماع ومنه شعر اثيث اي كثير مجتمع يقال اث اي كثر وتكاثف وقيل للمال اثاث اذا
كثر قال الخليل اثاثا اي منضما بعضه الى بعض من اث اذا كثر قال الفراء لا واحد له وَمَتَاعًا هو ما يتمتع
بانواع التمتع قال الخليل الاثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما وعلى قول ابي زيد
الانصاري ان الاثاث المال اجمع الابل والغنم والعبيد والمتاع يكون عطف المتاع على الاثاث من عطف الخاص
على العام وقيل ان الاثاث ما يكتسي به الانسان ويستعمله من الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش في المنازل
من الفرش والاكسية ويتزين به وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ اي الى ان تقضوا اوطاركم منه او الى ان يبلى ويفنى او
الى الموت او الى القيامة ثم لما كان الانسان قد لا يكون له خيام وابنية يستظل بها لفقر او لعارض من العوارض
فيحتاج الانسان ان يستظل بشجر او جدار او غمام او نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ

مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا اي اشياء تستظلون بها من شدة الحر والبرد كالاشياء المذكورة وهي ظلال
الابنية والجدران والاشجار والحاصل ان الظلال تعم الاشياء التي تظل ثم لما كان المسافر قد يحتاج
الى كن يأوي اليه في نزوله والى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال وَ
جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفي المختار الكن
السترة والجمع اكنان والاكنة الاغطية وقال الكسائي كن الشيء ستره وبابه رد وفي القاموس
الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان بكسرهما والكن البيت جمعه اكنان واكنة وكنه
كنا وكنونا واكنه وكننه اكنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط او سقيفة فوق باب الدار او ظلة هنالك
او مخدع انتهى وهي هنا الغيران والاسراب في الجبال ونحوها جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق
فيها لان الانسان غني او فقير فالغني يستصحب معه الخيام في سفره ليسكن فيها واليه الاشارة في الآية
المتقدمة والفقير يسكن في ظلال الاشجار والحيطان والكهوف والى هذا الاشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب
شديدة الحرارة وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته اكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني
في معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ جمع سربال وهي
القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال تَقِيكُمُ
الْحَرَّ اي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه اكثر المفسرين من انه من حذف المعطوف للعلم به
قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهو انه انما اقتصر على الحر لانه اهم هنا لما
عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم ان ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر انما
هي لتحصيل البرد وهذا فيه من اللطف ما هو الطف من النسيم فلله در التنزيل فكم فيه من اسرار انتهى
ونظيره بيدك الخير اي والشر لان الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر ولتقدم وقاية البرد
في قوله لكم فيها دفء وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ وهي الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من
السلاح تتقون بها الطعن والضرب والرمي والمعنى انها تقيكم البأس الذي يصل من بعضكم
الى بعض في الحرب كَذَلِكَ الاتمام البالغ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فانه سبحانه قد من على عباده بصنوف
النعم المذكورة هنا وبغيرها وهو بفضله واحسانه سيتم نعمة الدين والدنيا لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ اي ارادة
ان تسلموا فان من امعن النظر في هذه النعم لم يسعه الا الاسلام والانقياد للحق وقرأ ابن عباس وعكرمة

من السلامة من الجراح وقرأ الباقون من الاسلام قال ابو عبيد والاختيار قراءة العامة لان ما انعم الله به علينا من الاسلام افضل مما انعم به من السلامة من الجراح وقيل الخطاب لاهل مكة اي لعلكم يا اهل مكة تخلصون لله الربوبية والحمل على العموم اولى وافراد النعمة هنا لان المراد بها المصدر فَإِنْ تَوَلَّوْا اي اعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عذرك وفيه التفات وجواب الشرط محذوف اي فلا لوم عليك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم والتعبير بالتولي للاشارة الى ان كل مولود يولد على فطرة الاسلام وخلافها عارض متجدد والمعنى ان داموا على التولي لظهور توليهم ثم استانف لبيان توليهم فقال فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لما ارسلت به اليهم وقد فعلت ذلك بهم الْمُبِينُ اي الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له وهذا قبل الامر بالقتال فتكون الآية منسوخة الحكم وهو لا يظهر الا لو قدر جواب الشرط فاعرض عنهم ولا تقاتلهم مع ان اكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مواخذة في عدم ايمانهم لانك بلغت ما امرت بتبليغه وهدايتهم من الله لا اليك وهذا لا ينافي ان يكون مامورا بقتالهم يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ التي عددها في هذه السورة ويعترفون بانها من عند الله سبحانه ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا بما يقع عنهم من افعالهم القبيحة من عبادة غير الله وباقوالهم الباطلة حيث يقولون هي من الله ولكنها بشفاعة الاصنام وحيث يقولون انهم ورثوا تلك النعم من آبائهم وايضا كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه وفي وجوه الخير التي امرهم الله بصرفها فيها وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم ثم ينكرون نبوته وقيل هي الاسلام وجيء بثم للدلالة على ان انكارهم امر مستبعد بعد حصول المعرفة لان من عرف النعمة حقه ان يعترف لا ان ينكر وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ بالله والجاحدون لنعم الله وعبر هنا بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجميع والى اشار في التقرير او اراد بالاكثر العقلاء دون الاطفال ونحوهم او اراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان كفر بعضهم كفر جهل وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ولما بين سبحانه من حال هؤلاء انهم عرفوا نعمة الله ثم انكروها وان اكثرهم كافرون اتبعه باصناف وعيد يوم القيامة فقال وَيَوْمَ نَبْعَثُ اي نحيي ونخرج مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا او المعنى يوم نبعث في تحوالها وقراها وشهيد كل امة نبيها يشهد لهم

بالايمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب قال ابن عباس شهيدها نبيها على انه قد بلغ رسالات ربه قال الله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا في الاعتذار اذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ولا يؤذن لهم فيعتذرون او في كثرة الكلام اصلا او في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف او في حالة شهادة الشهود بل يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود او لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بالقاء معذرة او ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك وايراد ثم ههنا للدلالة على ان ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي اشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ اي لا يطلب منهم العتبى اي الرجوع الى ما يرضي الله من العبادات لان العتاب انما يطلب لاجل العود الى الرضاء فاذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب والمعنى انهم لا يسترضون اي لا يكلفون ان يرضوا ربهم لان الآخرة ليست بدار عمل ولا تكليف ولا يتركون الى رجوع الدنيا فيتوبون واصل الكلمة من العتب وهو الموجدة يقال عتب عليه يعتب اذا وجد عليه وبابه ضرب ونصر فاذا فاض عليه ما عتب فيه عليه قيل عاتبه فاذا رجع الى مسرته قيل اعتبه والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب قاله الهروي فالاستعتاب التعرض لطلب الرضاء وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة وفي الخطيب اي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا اي ازلت عتباه واستفعل بمعنى افعل غير مستنكر قال الخليل العتاب مخاطبة الادلال ومذاكرة الموجدة وعاتبه معاتبة وعتابا واعتبه سره بعد ما ساء واستعتب واعتب بمعنى واستعتب ايضا طلب ان يعتب اي استرضاه فارضاه وَإِذَا رَأَى اي ابصر الَّذِينَ ظَلَمُوا اي اشركوا وكفروا الْعَذَابَ الذي يستحقونه بشركهم وهو عذاب جهنم فَلَا يُخَفَّفُ ذلك العذاب عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ اي لا يمهلون ولا يؤخرون ليتوبوا اذ لا توبة هنالك وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا يوم القيامة شُرَكَاءَهُمْ مفعول به والاضافة لادنى ملابسة باعتبار ادعائهم شركتها لله اي اصنامهم واوثانهم التي عبدوها في الدنيا لما تقرر من انهم يبعثون مع المشركين يقال لهم من كان يعبد شيئا فليتبعه كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا اي نعبدهم ونتخذهم آلهة مِنْ دُونِكَ ونطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم قال ابو مسلم الاصفهاني مقصود المشركين

بهذا القول احالة الذنب على تلك الاصنام تعللا بذلك واسترواحاً مع كونهم يعلمون ان العذاب
واقع بهم لا محالة ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ اي القى اولئك الشركاء من الاصنام
والاوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين والكفار الْقَوْلَ وعن مجاهد قال حدثوهم وقالوا لهم إِنَّكُمْ
ايها المشركون لَكَاذِبُونَ فيما تزعمون من احالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول او في
تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا بل عبدتم اهواءكم فان قيل ان المشركين اشاروا الى الاصنام
ونحوها ان هؤلاء شركاؤنا وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الاصنام ونحوها فالجواب بان
مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا هؤلاء شركاء الله في المعبودية فكذبتهم الاصنام في دعوى هذه الشركة والاصنام
والاوثان وان كانت لا تقدر على النطق فان الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم وهذا
كما قالت الملائكة بل كانوا يعبدون الجن يعنون ان الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم قال الكرخي
ان المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها والمنفي عنهم في الكهف النطق بالاجابة
الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ اي القى المشركون يوم القيامة
الاستسلام والانقياد لعذاب الله والخضوع لعزته وبه قال ابن جريج وعن قتادة نحوه وقيل المعنى
استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ اي ضاع وبطل وزال ما افتروا من ان لله سبحانه شركاء وما كانوا
يزعمون من شفاعتهم لهم وان عبادتهم لهم تقربهم الى الله سبحانه الَّذِينَ كَفَرُوا في انفسهم وَصَدُّوا
غيرهم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ اي عن طريق الحق وهي طريق الاسلام والايمان بان منعوهم من سلوكها وحملوهم
على الكفر وقيل المراد به الصد عن المسجد الحرام والعموم اولى زِدْنَاهُمْ عَذَابًا لاجل الاضلال لغيرهم فَوْقَ
الْعَذَابِ الذي استحقوه لاجل ضلالهم وقيل المعنى زدنا القادة عذابا فوق عذاب اتباعهم اي اشد منه وقيل
ان هذه الزيادة هي اخراجهم من حر النار الى برد الزمهرير وغير ذلك وعن ابن مسعود قال زيدوا عقا
رب انيابها كالنخل الطوال ينهشونهم في جهنم وروي مثله عن البراء مرفوعا اخرجه الخطيب وغيره وقال
سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب امثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها المها
اربعين خريفا وعن ابن عباس قال خمسة انهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل و
ببعضها بالنهار وقد روى ابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الزيادة خمسة انهار تجري

من تحت العرش على رؤس اهل النار ثلاثة انهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار فذلك قوله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون بصدهم الناس عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر ويوم نبعث في كل امة شهيدا اي نبيا يشهد عليهم من انفسهم اي من جنسهم اتماما للحجة وقطعا للمعذرة وهو اعدل شاهد عليها وهذا تكرير لما سبق لقصد التاكيد والتهديد وقال الخطيب كرر سبحانه التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما افهمته الاية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الامم لا لهم وتكون بحضورهم وجئنا بك يا محمد شهيدا تشهد على هؤلاء اي على هذه الامم وتشهد لهم وقيل على امتك وقومك هكذا قال الجلال وسبق قوله سابقا ويوم نبعث من كل امة شهيدا الخ ومثله في البيضاوي وفي الشهاب عليه وقيل الاية مسوقة لشهادته على الانبياء فتخلو من التكرار ورد بان المراد بشهادته على امته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الانبياء وهذا لم يعلم مما هو الوارد في الحديث وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء ونزلنا عليك في الدنيا الكتاب اي القران والجملة مستانفة تبيانا لكل شيء اي بيانا له والتاء للمبالغة فالتبيان اخص من مطلق البيان على قاعدة ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ونظيره من المصادر التلقاء ولم يات غيرهما وفي الاسماء كثير نحو التمساح والتمثال ومثل هذه الاية قوله سبحانه ما فرطنا في الكتاب من شيء ومعنى كونه تبيانا لكل شيء ان فيه البيان البليغ لكثير من الاحكام والاحالة فيما بقي منها على السنة وامرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما ياتي به من الاحكام وطاعته كما في الايات القرانية الدالة على ذلك وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اني اوتيت القران ومثله معه وعن ابن مسعود قال تبيانا لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القران وعنه قال من اراد العلم فليثور القران فان فيه علم الاولين والاخرين قال الكرخي اما بتبيينه في نفس الكتاب او باحالته على السنة لقوله تعالى وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا او باحالته على الاجماع كما قال تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين الاية او على القياس كما قال فاعتبروا يا اولي الابصار والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه اربعة طرق لا يخرج شيء من احكام الشريعة عنها وكلها مذكورة في القران فكان تبيانا لكل شيء فاندفع ما قيل كيف قال الله ذلك ونحن نجد كثيرا من احكام الشريعة لم يعلم من القران نصا كعدد ركعات الصلوة ومدة المسح والحيض ومقدار حد الشرب ونصاب السرقة وغير ذلك ومن ثم اختلفت الائمة في كثير من الاحكام انتهى وفي هذا التقرير بحث ونظر لا يخفى على اهله فليراجع

وقد احتج بهذه الآية جمع من أهل العلم على منع التقليد {وَهُدًى} للعباد من الضلالة {وَرَحْمَةً} لهم
{وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} خاصة دون غيرهم أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة لهم لأنهم المنتفعون ع
بذلك ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك
فقال {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ} أي فيما أنزله تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى {بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} وإيثار صيغة الاستقبال
فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان فقيل العدل
شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض وقيل العدل الفرض والإحسان النافلة وقيل العدل
استواء العلانية والسريرة والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية وقيل العدل التوحيد
والإحسان التفضل وقيل العدل خلع الأنداد والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقيل العدل التوحيد
والإحسان الإخلاص وقيل العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل ولا يقول إلا ما هو
حسن وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره والعدل هو المساواة في كل شيء من غير شطط ولا وكس والأولى
تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن تكون عباده
في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو الغلو المذموم في الدين ولا إلى جانب التفريط
وهو الإخلال بشيء مما هو من أمر الدين كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك والقول بالكسب
المتوسط بين محض الجبر والقدر وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقاً
كالجود المتوسط بين البخل والتبذير وأما الإحسان فمعناه اللغوي يرشد إلى أنه التفضل بما لم
يجب كصدقة التطوع ومن الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات
وغيرها ولم يذكر متعلقات العدل والإحسان والبغي ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به وإليه
وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه فقال في
حديث ابن عمر في الصحيحين والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذا هو
المعنى للإحسان شرعاً {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} ما تدعو إليه حاجتهم وفي الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام
وترغيب في التصدق عليهم وهو من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب قد
دخل تحت العدل والإحسان وقيل من باب عطف المندوب على الواجب ومثل هذه الآية قوله {وَآتِ ذَا
الْقُرْبَى حَقَّهُ} وإنما خص ذوي القربى لأن حقهم آكد فإن الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه الشريف

وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من قطيعته فيستحب ان يصلهم من فضل ما رزقه الله فان
لم يكن له فضل فدعاء حسن وتودد وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول او فعل
وقيل هي الزنا وقيل البخل وَالْمُنكَرِ وهو ما انكره الشرع بالنهي عنه وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف انواعها
وقيل هو الشرك وَالْبَغْيِ قيل هو الكبر وقيل هو الظلم وقيل الحقد وقيل التعدي وحقيقته تجاوز الحد
فيشمل هذه المذكورة ويندرج جميع اقسامه تحت المنكر وانما خص بالذكر اهتماما به لشدة ضرره
ووبال عاقبته وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه انما بغيكم على انفسكم وهذه
الاية من الايات الدالة على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعن عبد الملك بن عمير ان
هذه الاية لما بلغت اكثم بن صيفي حكيم العرب قال اني اراه يامر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها ثم قال
لقومه كونوا في هذا الامر رؤساء ولا تكونوا فيه اذنابا وكونوا فيه اولا ولا تكونوا فيه اخرا وعن ابن عباس
قال اعظم اية في كتاب الله الله لا اله الا هو الحي القيوم واجمع اية في كتاب الله للخير والشر التي في النحل ان
الله يامر بالعدل والاحسان واكثر اية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث
لا يحتسب واشد اية في كتاب الله رجاء يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الاية
وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الاية فقال له يا ابن اخي اعد علي فاعادها
عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو
بقول البشر وعن الحسن انه قرأ هذه الاية الى اخرها ثم قال ان الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في
اية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئا الا جمعه وامر به ولا ترك الفحشاء والمنكر
والبغي من معصية الله شيئا الا جمعه وزجر عنه وفي المستدرك عن ابن مسعود وهذه اجمع اية في
القران للخير والشر قال البيضاوي وبسببها اسلم عثمان بن مظعون ولو لم يكن في القران غير هذه الاية
لصدق عليه انه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة ولعل ايرادها عقب قوله ونزلنا عليك الكتاب للتنبيه عليه
ثم ختم سبحانه هذه الاية بقوله يَعِظُكُمْ بما ذكره في هذه الاية مما امركم به ونهاكم عنه لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
اي ارادة ان تتذكروا لما ينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به فانه كاف في باب الوعظ والتذكير
وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ثم خص الله سبحانه الايفاء من جملة المامورات التي تضمنها قوله ان الله
يامر بالعدل والاحسان وظاهره العموم في كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة

وغيره وخص هذا العهد المذكور في الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم
على الاسلام وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف الى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله
ولو فرض ان السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب فالاعتبار بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب فسره بعضهم باليمين وهو مدفوع بذكر الوفاء بالايمان بعده حيث قال سبحانه
وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا اي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الاسماء والصفات
وقيل ان تاكيد اليمين هو حلف الانسان على الشيء الواحد مرارا وحكى القرطبي عن ابن عمر ان التوكيد هو ان
يحلف مرتين فان حلف واحدة فلا كفارة عليه وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالايمان المؤكدة
لا بغيرها مما لا تاكيد فيه فان تحريم النقض يتناول الجميع ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الاثم فوق
الاثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها يقال وكد واكد توكيدا وتاكيدا وهما لغتان وقال الزجاج الاصل
الواو والهمزة بدل منها وقيل ليست الهمزة بدلا من الواو كما زعمه ابو اسحاق لان الاستعمالين في المادتين
متساويان فليس ادعاء كون احدهما اصلا اولى من الآخر وتبع مكي الزجاج في ذلك ثم قال ولا يحسن
ان يقال الواو بدل من الهمزة وكذلك تبعه الزمخشري ايضا وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الاحاديث
الصحيحة من قوله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين فراى غيرها خيرا منها فليات الذي هو خير وليكفر
عن يمينه حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وسلم فقال والله لا احلف على يمين فارى غيرها خيرا منها الا
اتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني وهذه الالفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما ويخص ايضا من
هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ويمكن ان لا يكون التقييد بالتوكيد
هنا لاخراج ايمان اللغو وقد تقدم بسط الكلام على الايمان في البقرة وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا
اي شهيدا اما على التشبيه فهو استعارة او باستعماله في لازم معناه فهو مجاز مرسل والعبارة محتملة
لهما وقيل حافظا وقيل ضامنا وقيل رقيبا لان الكفيل يراعي حال المكفول له إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر وفيه ترغيب وترهيب ثم اكد
وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال وَلَا تَكُونُوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا
اي ما غزلته مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ اي ابرام الغزل واحكامه عن ابن عباس ان سعيدة الاسدية كانت تجمع
الشعر والليف فنزلت فيها هذه الآية وعن ابي بكر بن حفص مثله وفي الروايتين جميعا انها كانت مجنونة

وعن السدي في سبب نزولها قال كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء بمكة كانت تغزل فاذا ابرمت غزلها
نقضته وعن عبد الله بن كثير معناه وقيل هي امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم قرشية
فالمشبه به معين على هذا وفي الكرخي المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لان
القصد بالامثال صرف المكلف عن الفعل اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان حسنا وذلك يتم بدون
التعيين اذ لا يلزم في التشبيه ان يكون المشبه به موجودا في الخارج انكاثا جمع نكث بكسر النون ما
ينكث فتله ليغزل بمعنى منكوث اي منقوض يقال نكث الرجل العهد نكثا من باب قتل نقضه ونبذه
فانتكث قال ابن قتيبة هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير واوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الايمان
فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا واحكمته ثم جعلته انكاثا اي اقطاعا واجزاء تتخذون
ايمانكم دخلا بينكم قال الجوهري الدخل المكر والخديعة وقال ابو عبيدة كل امر لم يكن صحيحا فهو دخل
وقيل الدخل ما ادخل في الشيء على فساده وقال الزجاج غشا وغلا وقيل اصل الدخل العيب والعيب
من الشيء الذي يدخل فيه ان تكون امة اي بان تكون جماعة او لاجل وجود ان تكون امة هي اربى من
امة جماعة اي اكثر عددا منها واوفر مالا يقال ربا الشيء يربو اذا كثر قال الفراء المعنى لا تغدروا بقوم
لقلتهم وكثرتكم او لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالايمان قيل وقد كانت قريش اذا رأوا شوكة في
اعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا اعداءهم قاله مجاهد وقيل هو تحذير للمؤمنين ان يغتروا
بكثرة القريش وسعة اموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم انما يبلوكم الله به اي يختبركم بكونكم
اكثر واوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء ام تنقضون اغترارا بالكثرة فالضمير في به راجع الى مضمون
الجملة المتقدمة اي انما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون او انما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم
وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل
والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه او يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة
والنار وفي هذا انذار وتحذير من مخالفة الحق والركون الى الباطل ثم بين سبحانه انه قادر على ان يجمع
المؤمنين والكافرين على الوفاء او على الايمان فقال ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة متفقة على
الحق ولكن بحكم الالهية يضل من يشاء خذلانا لهم اياهم عدلا منه فيهم ويهدي من يشاء بتوفيقه
اياهم فضلا منه عليهم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولهذا قال ولتسألن يوم القيامة سؤال تبكيت

لا سؤال استفسار وتفهم وهو المنفي في غير هذه الآية عما كنتم تعملون من الاعمال في الدنيا والمجازاة
عليها واللام في ليبين وفي لتسألن هي الموطئة للقسم ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الايمان
نهاهم عن نقض ايمان مخصوصة فقال ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم قال الشهاب وغيره ولما كان
اتخاذ الايمان دخلا قيد المنهي عنه كان منهيا عنه ضمنا فصرح به هنا تاكيدا ومبالغة في قبح
المنهي عنه قال في الجمل وعلى هذا فهو تاسيس لا تاكيد ولا تكرير قال ابو حيان لم يتكرر النهي وانما الذي سبق
اخبار بانهم اتخذوا ايمانهم دخلا معللا بشيء خاص هو ان تكون امة هي اربى من امة وجاء النهي بقوله
هذا استئنافا للنهي عن اتخاذ الايمان دخلا على العموم اي في كل حال فيشمل جميع الصور من الخديعة
في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك قال الواحدي قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد على الاسلام ونصرة الدين واستدلوا على هذا التخصيص بما في
قوله فتزل قدم بعد ثبوتها من المبالغة وبما في قوله وتذوقوا السوء بما صددتم لانهم اذا نقضوا العهد
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صدوا غيرهم عن الدخول في الاسلام وعلى تسليم ان هذه الايمان مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هذه الآية فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتزل قدم اي قدم
من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها قيل وافراد القدم وتنكيرها
للايذان بان زلل قدم واحدة اية قدم كانت عزت او هانت محذور عظيم فكيف باقدام كثيرة وهذا
استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه لان القدم اذا زلت نقلت الانسان من حال خير
الى حال شر ويقال لمن اخطأ في شيء زلت به قدمه وتذوقوا السوء يعني العذاب السيء في الدنيا او في
الآخرة او فيهما بما صددتم اي بسبب منعكم وصدودكم عن سبيل الله وهو الاسلام او بسبب
صدكم لغيركم عن الاسلام فان من نقض البيعة وارتد اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة
سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال ولكم عذاب عظيم اي متبالغ في العظم وهو عذاب
الآخرة ان كان المراد بما قبله عذاب الدنيا ثم نهاهم سبحانه عن الميل الى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لاجله
فقال ولا تشتروا بعهد الله الذي تركتموه ثمنا قليلا اي لا تاخذوا في مقابلة عهدكم عوضا يسيرا
حقيرا وكل عرض دنيوي وان كان في الصورة كثيرا فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير ولهذا ذكر سبحانه بعد
تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال انما عند الله وفي رسم ان هذه اختلاف بين المصاحف العثمانية

ففي بعضها وصلها بما وفي بعضها فصلها عنها كما ذكره ابن الجزري اي ما عندكم من النصر في الدنيا
والغنائم والرزق الواسع وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
ثم علل النهي عن ان يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا وان ما عند الله هو خير لهم بقوله إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
وتميزون بين الاشياء ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ والنفاد الفناء والذهاب يقال نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفادا ونفودا واما نفذ
بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح ينفذ بالضم ويقال انفد القوم اذا فني زادهم وباق بثبوت الياء وحذفها
مع سكون القاف وهما سبعيتان ومعلوم لكل عاقل ان ما ينفد ويزول وان بلغ في الكثرة الى اي مبلغ
فهو حقير يسير وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل اما نعيم الآخرة فظاهر واما نعيم الدنيا الذي
انعم الله به على المؤمنين فهو وان كان زائلا لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية
في حكم الباقي الذي لا ينقطع ثم قال وَلَنَجْزِيَنَّ بالنون ففيه التفات وقرئ بالياء واللام هي الموطئة
للقسم اي والله لنجزين الَّذِينَ صَبَرُوا بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف ومفارقة وجهاد الكافرين
والصبر على ما ينالهم منهم من الاذى أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الطاعات قيل وانما
خص احسن اعمالهم لان ما عداه وهو الحسن مباح والجزاء انما يكون على الطاعة وقيل معنى
ولنجزينهم بجزاء اشرف واوفر من اعمالهم كقوله من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وقيل الاحسن
هنا ليس للتفضيل بل بمعنى الحسن او لنجزينهم بحسب احسن افراد اعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة
الفرد الادنى من اعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الاعلى منها من الجزاء الجزيل لا انا نعطي
الاجر بحسب افرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بان نجزي الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن
بالاحسن كذا قيل وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من
بعض جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل مَنْ عَمِلَ صَالِحًا هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح
وتعميم للوعد والمعنى من عمل عملا صالحا اي عمل كان مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ زيادة التمييز بذكر وانثى مع كون لفظ
من شاملا لهما لقصد التاكيد وللمبالغة في تقرير الوعد وقيل ان لفظ من ظاهر في الذكور فكان في
التنصيص على الذكر والانثى بيان لشموله للنوعين وَهُوَ مُؤْمِنٌ جعل سبحانه الايمان قيدا في الجزاء
المذكور لان عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ثم ذكر

سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وقد وقع الخلاف في الحياة
الطيبة بماذا تكون فقيل بالرزق الحلال في هذه الحيوة الدنيا واذا صار الى ربه جازاه باحسن
ما كان يعمل روي ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك وقيل بالقناعة قاله
الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه وروي ايضا عن علي وابن عباس قال وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف على كل غائبة لي بخير
واخرج احمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن ابن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد افلح من اسلم ورزق
كفافا وقنعه الله بما آتاه واخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد انه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول قد افلح من هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقيل بالكسب الطيب والعمل
الصالح قاله ابن عباس وقيل بالتوفيق الى الطاعة قاله الضحاك وقيل هي حيوة الجنة روي هذا عن
مجاهد وقتادة وغيرهما وحكي عن الحسن انه قال لا تطيب الحياة لاحد الا في الجنة وقيل الحيوة الطيبة
هي السعادة روي ذلك عن ابن عباس وقيل هي المعرفة بالله حكي ذلك عن جعفر الصادق رضي الله
تعالى عنه وقال ابو بكر الوراق هي حلاوة الطاعة وقال مقاتل هي العيش في الطاعة وقيل رزق يوم
بيوم وقال السدي انما هي تحصل في القبر لان المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال سهل
بن عبد الله التستري هي ان ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره الى الحق وقيل هي الاستغناء
عن الخلق والافتقار الى الحق واكثر المفسرين على ان الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة لان حيوة الآخرة
قد ذكرت بقوله وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ وقد قدمنا قريبا تفسير الجزاء بالاحسن
ووحد الضمير في لنحيينه وجمعه في لنجزينهم حملا على لفظ من وعلى معناه ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح و
الجزاء عليه اتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الاعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال فَإِذَا
قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح وقيل هذه الآية متصلة بقوله
ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء والتقدير فاذا اخذت في قراءته فاستعذ بالله قال الزجاج
وغيره من ائمة اللغة معناه اذا اردت ان تقرأ القرآن فاستعذ وهذا على مذهب الاكثرين من الفقهاء
والمحدثين من ان الاستعاذة تطلب قبل القراءة وليس معناه استعذ بعد ان تقرأ القرآن ومثله اذا
اكلت فقل بسم الله قال الواحدي وهذا اجماع الفقهاء ان الاستعاذة قبل القراءة الا ما روي عن ابي هريرة

وابن سيرين ـــــ ومالك وحمزة من القراء فانهم قالوا الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا الى ظاهر
الاية واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وداؤد الظاهري وبه ومذهب
الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار انها قبل القراءة كما تقدم
ومعنى فاستعذ بالله اسأله سبحانه ان يعيذك مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ اي من وساوسه لئلا يوسوسك
في القراءة وفيه دليل على ان المصلي يستعيذ في كل ركعة لان الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياسا و
تعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه ايذان بان الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وتخصيص
قراءة القران من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لسائر الاعمال الصالحة
عند ارادتها اهم لانه اذا وقع الامر بها عند قراءة القران الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه كانت عند ارادة غيره اولى كذا قيل وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للاشعار
بان غيره اولى منه بفعل الاستعاذة لانه صلى الله عليه وسلم اذا امر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته
فكيف بسائر امته قال السيوطي في الاية اي قل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى وهذا بيان للافضل
والا فاصل السنة يحصل باي صيغة كانت من صيغ الاستعاذة وقد ذهب الجمهور الى ان الامر في الاية
للندب وروي عن عطاء الوجوب اخذا بظاهر الامر والضمير في إِنَّهُ للشأن او للشيطان لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ اي تسلط تعليل لمحذوف هو جواب الامر تقديره فان استعذت كفيت شره عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وحكى الواحدي عن جميع المفسرين انهم فسروا السلطان بالحجة وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين
في اغوائهم ودعائهم الى الضلالة وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ اي يفوضون امورهم اليه في كل قول وفعل
فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم وان وسوس لاحد منهم لا تؤثر
فيه وسوسته وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس الا عبادك منهم
المخلصين وقال الله فيهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ثم حصر سبحانه
سلطان الشيطان فقال إِنَّمَا سُلْطَانُهُ اي تسلطه عَلَى اغواء الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ اي يتخذونه وليا ويطيعونه
في وساوسه يقال توليته اذا اطعته وتوليت عنه اذا اعرضت عنه وهذا مقابل لقوله وعلى ربهم يتوكلون
وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ اي بالله والباء للتعدية مُشْرِكُونَ وقيل الضمير يرجع الى الشيطان والباء للسببية اي ع
والذين هم من اجله وبسبب وسوسته مشركون بالله وهذا مقابل لقوله على الذين آمنوا اوانا

بدلنا آية مكان آية هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع
الشي مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها باخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قال مجاهد
هو كقوله ما ننسخ من آية او ننسها الخ وقد تقدم الكلام على النسخ في البقرة والله اعلم بما ينزل اعتراض
دخل في الكلام اي انه اعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو اصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من احكامه
هذا نوع توبيخ وتقريع للكفار وقيل الجملة حالية وليس بظاهر وجواب اذا قوله قالوا اي كفار قريش الجاهلون
للحكمة في النسخ انما انت يا محمد صلى الله عليه وسلم مفتر اي كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث
تزعم انه امرك بشي ثم تزعم انه امرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال بل اكثرهم
لا يعلمون شيئا من العلم اصلا او لا يعلمون حقيقة القرآن وهو انه اللفظ المنزل من عند الله على محمد
صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته او لا يعلمون بالحكمة في النسخ فانه مبني على المصالح التي لا
يعلمها الا الله سبحانه فقد تكون في شرع هذا الشي مصلحة موقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت
في شرع غيره وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا ان ذلك وجه الصواب
ومنهج العدل والرفق واللطف ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين ان ذلك لم يكن من
عند الله وان رسوله صلى الله عليه وسلم افتراه فقال قل نزله اي القرآن المدلول عليه بذكر الآية روح
القدس بضم الدال وسكونها سبعيتان والقدس التطهير والطهارة والمعنى نزله الروح المطهر من ادناس
البشرية وهو جبريل عليه السلام فهو من اضافة الموصوف الى الصفة كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير
من ربك اي ابتداء تنزيله من عنده سبحانه بالحق اي متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة
ليثبت الذين آمنوا على الايمان فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ولانهم ايضا اذا عرفوا
ما في النسخ من المصالح ثبتت اقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم وقرئ من الاثبات وهدى وبشرى
للمسلمين اي تثبيتا لهم وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصائل لغيرهم ثم ذكر
سبحانه شبهة اخرى من شبههم فقال ولقد نعلم علما مستمرا انهم يقولون انما يعلمه بشر وليس
هو من عند الله كما يزعم واللام هي الموطئة اي والله لقد نعلم ان هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمد القرآن
بشر من بني آدم غير ملك وقد اختلف اهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا
فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا حدادا روميا فاسلم وكان قريش اذا سمعوا

من النبي صلى الله عليه وسلم اخبار القرون الاول مع كونه اميا قالوا انما يعلمه جبر وقيل اسمه عايش او يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الاعجمية وقيل غلام لبني عامر بن لؤي وقيل عنوا سلمان الفارسي وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه ابا ميسرة يتكلم بالرومية وفي رواية اسمه عداس وقيل اراد وا بالبشر غلامين اسم احدهما يسار واسم الآخر جبر وكانا صيقليين يعملان السيوف بمكة وكانا يقرأن كتابا لهم وقيل كانا يقرأن التوراة والانجيل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرأنه فقال المشركون انما يتعلم منهما قاله عبد الله بن مسلم الحضرمي قال النحاس وهذه الاقوال غير متناقضة لانه يجوز انهم زعموا انهم جميعا يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال انه سلمان لان هذه الآية مكية وهو انما اتى الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ثم اجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ اي لغته وكلامه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ والالحاد الميل يقال لحد والحد اي مال عن القصد ومنه لحد القبر لانه حفرة مائلة عن وسطه وقد تقدم في الاعراف والمعنى لسان الذي يميلون اليه ويشيرون ويزعمون انه يعلمك اعجمي يقال رجل اعجم وامرأة عجماء اي لا يفصحان والعجمة الاخفاء وهي ضد البيان والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها اعجميا قال الفراء والراغب الاعجم الذي في لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمي هو الذي اصله من العجم وقال ابو علي الفارسي العجمي المنسوب الى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب او من العجم وكذلك الاعجم والاعجمي المنسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الامصار من بلاد العرب ﴿وَهَذَا﴾ اي القرآن ﴿لِسَانٌ﴾ اي كلام ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وسماه لسانا لان العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا او اراد باللسان البلاغة فكانه قال وهذا قرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون ان بشرا يعلمه من العجم واين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون اليه وقد عجزتم انتم عن معارضة سورة منه وانتم اهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة فثبت بهذا ان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي اوحاه الله اليه وليس هو من تعليم البشر الذي تشيرون اليه ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لابطال طعنهم ودفع كذبهم ولما ذكر سبحانه جوابهم وبختهم وهددهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ اي لا يصدقون بها في علم الله ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ الى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب

لما حلوبن شقاوتهم ولهم في الآخرة عذاب أليم بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليهم بقوله إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رأس المؤمنين بها والداعي الى الايمان بها وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها فهم المفترون للكذب قال الزجاج المعنى انما يفتري الكذب الذين اذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها الا الله كذبوا هؤلاء اكذب الكذبة ثم سماهم الكاذبين فقال وأولئك المتصفون بذلك هم الكاذبون اي ان الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم فهم الكاملون في الكذب اذ لا كذب اعظم من تكذيبهم بآيات الله وقولهم انما يعلمه بشر والتأكيد بالتكرار وان وغيرهما رد لقولهم انما انت مفتر من كفر بالله من بعد إيمانه اي تلفظ وتكلم بالكفر او فعل فعل كفر سواء كان مختارا في ذلك او مكرها عليه فالاستثناء في قوله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان متصل وقال القرطبي اجمع المفسرون واهل العلم على ان من اكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل انه لا اثم عليه ان كفر وقلبه مطمئن بالايمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر وحكي عن محمد بن الحسن انه اذا اظهر الكفر كان مرتدا في الظاهر وفيما بينه وبين الله على الاسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه ان مات ولا يرث اباه ان مات مسلما وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة وذهب الحسن البصري والاوزاعي والشافعي وسحنون الى ان هذه الرخصة انما جاءت في القول واما في الفعل فلا رخصة مثل ان يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية فانها عامة فيمن اكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم والمعنى الا من كفر باكراه والحال ان قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يهاجر الى المدينة قال لاصحابه تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب اول الليل فاذا سمعتم بي قد استقررت في الارض فالحقوا بي فاصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت اسلمت فاخذهم المشركون وابو جهل فعرضوا على بلال ان يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها اياه فاذا البسوها اياه قال احد احد واما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك واما عمار فقال لهم كلمة اعجبتهم تقية واما الجارية فوتد لها ابو جهل اربعة اوتاد ثم مدها فادخل الحربة في قبلها حتى قتلها ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه بامرهم واشتد على عمار الذي كان تكلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان قلبك حين قلت اكان منشرحا بالذي قلت ام لا فانزل الله الا
من اكره وقلبه مطمئن بالايمان وقيل نزلت في اناس من اهل مكة وقيل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي
اكرهه سيده على الكفر والاول اولى والحق ان الآية عامة في كل من اكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان
وان كان السبب خاصا وفيه دليل على ان محل الايمان هو القلب ولكن الاستدراك واضح لان قوله الا من
اكره قد يسبق الوهم الى الاستثناء مطلقا فاستدرك هذا وقوله مطمئن لا ينفي ذلك الوهم ومن موصولة او
شرطية والاول اولى شرح بالكفر صدرا اي اختاره ورضي به وطابت به نفسه فعليهم فيه مراعاة
معنى من ولو راعى لفظها لافرد وقال فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم في الآخرة
عن ابن عباس قال اخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير
فتركوه فلما اتى النبي صلى الله عليه وسلم قال ما وراءك قال شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال كيف
تجد قلبك قال مطمئنا بالايمان قال ان عادوا فعد فنزلت الا من اكره الخ قال فذلك عمار بن ياسر ولكن
من شرح بالكفر صدرا عبد الله بن ابي سرح اخرجه البيهقي والحاكم وصححه وفي اللباب روايات مصرحة
بانها نزلت فيه وعن محمد بن سيرين قال نزلت هذه الآية في عياش بن ابي ربيعة وعن ابن عباس قال
هو عبد الله بن ابي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فازله الشيطان فلحق بالكفار فامر به النبي
صلى الله عليه وسلم ان يقتل يوم فتح مكة فاستجار له عثمان بن عفان فاجاره النبي صلى الله عليه وسلم وعن الحسن
وعكرمة مثله وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه وعيد
ذلك اي الكفر بعد الايمان او الوعيد بالغضب والعذاب بانهم استحبوا الحيوة الدنيا اي ذلك بسبب
تأثيرهم للحيوة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية الدائمة وان الله لا يهدي القوم الكافرين في علمه
الى الايمان به ولا يعصمهم من الزيغ ثم وصفهم بقوله اولئك الموصوفون بما ذكر من الاوصاف القبيحة
الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا ابصروا الآيات التي
يستدل بها على الحق وقد سبق تحقيق الطبع في اول البقرة ثم اثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة
فقال واولئك هم الغافلون عما يراد بهم من العذاب في الآخرة وضمير الفصل يفيد انهم متناهون في الغفلة
اذ لا غفلة اعظم من غفلتهم هذه لا جرم قد تقدم تحقيق الكلام في معناها اي حقا انهم في الآخرة هم
الخاسرون اي الكاملون في الخسران البالغون الى غاية منه ليس فوقها غاية لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم

والموجب لخسرانهم ان الله وصفهم بست صفات تقدمت الاولى انهم استوجبوا غضب الله الثانية انهم
استحقوا عذابه العظيم الثالثة انهم استحبوا الحيوة الدنيا الرابعة انهم حرمهم الله من الهداية الخامسة
انه طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
هَاجَرُوا من دار الكفر الى دار الاسلام وخبره محذوف اي لغفور رحيم وقيل الخبر هو للذين هاجروا
اي ان ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم وفيه بعد قال في الكشاف ثم هنا للدلالة على تباعد حال
هؤلاء يعني الذين نزلت الاية فيهم عن حال اولئك وهم عمار واصحابه ويدل على ذلك ما روي انها نزلت في ابن ابي
السرح قال ابن عباس كان قوم من اهل مكة اسلموا وكانوا يستخفون بالاسلام فنزلت فيهم هذه الاية
فكتبوا بذلك اليهم ان الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فادركهم المشركون فقاتلوهم فنجى من نجى وقتل من قتل
مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا اي فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر وقرئ فتنوا على البناء للفاعل
ايضا وهي سبعية اي للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الاسلام ثُمَّ جَاهَدُوا في سبيل الله وَصَبَرُوا على ما
اصابهم من الكفار وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا اي من بعد الفتنة التي
فتنوها او بعد المهاجرة او الجهاد او الصبر او جميع ذلك لَغَفُورٌ رَحِيمٌ اي كثير الغفران والرحمة لهم ع
ومعنى الاية على قراءة البناء للفاعل واضح ظاهر اي ان ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من اسلم وعذبوهم ثم جاهدوا
وصبروا لغفور رحيم واما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور فالمعنى ان هؤلاء المفتونين الذين تكلموا
بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر اذا صلحت اعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على
المكاره لغفور لهم رحيم بهم واما اذا كان سبب الاية هو عبد الله بن ابي سرح الذي ارتد عن الاسلام
ثم رجع بعد ذلك اليه فالمعنى ان هذا المفتون في دينه بالردة اذا اسلم وجاهد وصبر فالله غفور
له رحيم به يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا اي تخاصم وتسعى في خلاصها وقد استشكل اضافة
ضمير النفس الى النفس ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه واجيب بان المراد بالنفس الاولى جملة
بدن الانسان وبالنفس الثانية الذات فكانه قيل يوم تاتي كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيرها بل
يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو
ذلك من المعاذير الكاذبة فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة وَتُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ جزاء مَا عَمِلَتْ في الدنيا من خير او شر وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ من جزاء اعمالهم بل يوفون ذلك

كاملا من غير زيادة ولا نقصان (وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا قَرْيَةً) قد قدمنا ان ضرب مضمن معنى جعل
وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة او المراد قرية غير معينة قال الزمخشري
بل كل قوم انعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته ونحوه في البيضاوي قال
القرطبي انه مثل مضروب لاي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز ان تراد قرية مقدرة
على هذه الصفة ويجوز ان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا
من مثل عاقبتها وقيل هي المدينة وذهب الاكثرون الى الاول وصرحوا بانها مكة وذلك لما دعا عليهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلوا
بالقحط حتى اكلوا العظام والثاني ارجح لان تنكير قرية يفيد ذلك ومكة تدخل في هذا العموم البدلي
دخولا اوليا وايضا يكون الوعيد ابلغ والمثل اكمل وغير مكة مثلها وعلى فرض ارادتها ففي المثل انذار
لغيرها من مثل عاقبتها وعن ابن عباس قال يعني مكة وعن عطية مثله وزاد فقال الا ترى انه قال
ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه قال الواقدي ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين
والآية عند عامة المفسرين نازلة في اهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة
بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم اي بين الله لها شبها ثم وصف
القرية بانها (كَانَتْ آمِنَةً) غير خائفة (مُطْمَئِنَّةً) غير منزعجة اي لا يخاف اهلها ولا ينزعجون وعن ابن
شهاب قال القرية التي كانت آمنة مطمئنة هي يثرب قلت ولا ادري اي دليل على هذا التعيين ولا اي
قرينة قامت له على ذلك ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الانصار بانعم الله واي وقت اذاقها الله لباس
الجوع والخوف وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صح ذلك عن الصادق المصدوق وصح
عنه صلى الله عليه وسلم انه قال والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا) اي ما يرتزق به اهلها (رَغَدًا) اي واسعا
يقال رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغد ورغيد ورغد ورغد مثل امن بابه تعب لغة فهو راغد وهو في رغد من
العيش اي رزق واسع وارغد القوم بالالف اخصبوا والرغيد الزبد (مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) من الامكنة التي يجلب ما فيها اليها اي من
نواحيها من البر والبحر (فَكَفَرَتْ) اي كفر اهلها (بِأَنْعُمِ اللّٰهِ) التي انعم بها عليهم وهي جمع نعمة على ترك
الاعتداد بالتاء كالاشد جمع شدة وقيل جمع نعم مثل بؤس وابؤس ويحتمل انه جمع نعماء بفتح النون والمد
وهي بمعنى النعمة وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله (فَأَذَاقَهَا اللّٰهُ) اي اهلها (لِبَاسَ)

الجوع والخوف وهي اي اثرهما فقحطوا سبع سنين وسمي ذلك لباسا لانه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة
اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه واوقع عليه الاذاقة واصلها الذوق بالفم ثم
استعيرت لمطلق الاتصال مع انبائها بشدة الاصابة لما فيها من اجتماع الادراكين ادراك اللمس والذوق
روي ان ابن الراوندي الزنديق قال لابن الاعرابي امام اللغة والادب هل يذاق اللباس فقال له ابن
الاعرابي لا باس ايها النسناس هب ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان نبيا اما كان عربيا كانه طعن في الاية بان
المناسب ان يقال فكساها الله لباس الجوع او فاذاقها الله طعم الجوع فرد عليه ابن الاعرابي وقد اجاب
علماء البيان ان هذا من تجريد الاستعارة وذلك انه استعار اللباس لما غشي الانسان من بعض
الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له
وهو الجوع والخوف لان اطلاق الذوق على ادراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة
فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة
قيل والترشيح الاستعارة وان كان مستحسنا من جهة المبالغة الا ان للتجريد ترجيحا من حيث انه روعي
جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحا قال الرازي والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه
المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها والتقدير ان الله عرفها لباس
الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة واصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع
موضع التعرف والاختبار قال الشاعر ؎ ومن يذق الدنيا فاني طعمتها • وسيق الينا عذبها وعذابها
او يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة اي فاذاقها الله مساس الجوع بما كانوا يصنعون اي فعلناهم
ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين اظهرهم ولم يقل صنعت لانه اراد
اهل القرية قال الفراء كل الصفات اجريت على القرية الا قوله يصنعون تنبيها على ان المراد في الحقيقة اهلها
ولقد جاءهم يعني اهل مكة رسول منهم اي من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه فامرهم بما فيه
نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم فكذبوه فيما جاء به فاخذهم العذاب النازل بهم من الله سبحانه
وهم اي والحال انهم في حال اخذهم العذاب لهم ظالمون لانفسهم بايقاعها في العذاب الابدي
ولغيرهم بالاضرار لهم وصدهم عن سبيل الله وهذا الكلام من تمام المثل المضروب وقيل ان المراد بالعذاب
هنا هو الجوع الذي اصابهم وقيل القتل يوم بدر والاولى اولى ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال

اهل القرية المذكورة امرهم بان يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها وقال فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلٰلًا طَيِّبًا جاء بالفاء للاشعار بان ذلك متسبب عن ترك الكفر والمعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنائم واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم قيل الخطاب للمسلمين وبه قال جمهور المفسرين وقيل للمشركين من اهل مكة حكاه الواحدي وغيره والاول اولى وقيل ان الفاء في فكلوا داخلة على الامر بالشكر وانما دخلت على الامر بالاكل لان الاكل ذريعة الى الشكر وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ التي انعم بها عليكم واعرفوا حقها اِنْ كُنْتُمْ اِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ ولا تعبدون غيره وان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة التي زعمتم عبادة الله تعالى اِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيْرِ وحرم الله مَاۤ اُهِلَّ اي ما رفع الصوت لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهٖ سواء كان صنما او وثنا او نصبا او روحا خبيثا من جن او روحا طيبا من انس كالنبي والولي والصالح حيا كان او ميتا فهو حرام وقد ورد في الحديث ملعون من ذبح لغير الله اي سواء سمى الله عند ذبحه او لم يسم لان ما اشتهر انه لغيره سبحانه وتعالى ورفع الصوت باسم الفلاني لا ينفع بعد ذلك ذكر اسمه تعالى عند ذبحه لان هذا الحيوان قد انتسب الى ذلك الغير وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة فانها لم يذكر عليه اسم الله وهذا الحيوان قد عين روحه لغير خالقه ثم ذبح له وهو الشرك بعينه وحين سرى هذا الخبث واثر فيه لا يحل بحال وان ذكر اسم الله عليه كما لو ذبح الكلب او الخنزير على اسمه سبحانه وتعالى لا يحل والسر في ذلك ان نذر الروح لغير خالق الروح لا يجوز وان كان حكم جميع الماكولات والمشروبات والاموال المنذورة للتقرب الى غير الله سبحانه هكذا فانها شرك وحرام ولكن ثوابها الذي كان يعود الى الناذر جاز جعله للغير كما جاز للانسان ان يعطي ماله من شاء بخلاف روح الحيوان فانه ليس بمملوك للانسان حتى يعطيه لاحد غير الله وانما وجب الاجر في انفاق المال لان المال شيء ينتفع به في الحال ولما كان الموتى لا ينتفعون بعين المال جعل طريق ايصال النفع اليهم ان تجعل الاموال المعطاة باهل الاستحقاق لهم فيعود ثوابها اليهم واما روح الحيوان فلا يصلح للانتفاع في حيوة الانسان فكيف بعد مماته ومضي الازمان واما الاضحية عن الميت التي ورد بها الحديث فمعناها ان الاجر الذي كان يثبت في ازهاق الروح لله سبحانه وتعالى يعطي لذلك الميت لا انه يذبح له ويرفع به الصوت للتقرب اليه وهذه الآية الكريمة جاءت في اربعة مواضع من التنزيل ومعناها ما رفع به الصوت لغير الله لا ما ذبح باسم غير الله فمن رفع الصوت بحيوان لغيره تعالى ثم ذكر اسم الله

عند ذبحه لا ينجح له هذا الذكر شيئا ولا يأتي بفائدة ولا يعود بعائدة ولا يحل اكله بهذا الذكر عند
الذبح وانما الاهلال في لغة العرب بمعنى رفع الصوت لا بمعنى الذبح كيف ولم يرد به حرف ولا وقع في
شعر قط هذه كتب اللسان العربي ودفاتر اللغات على وجه البسيطة ليس في احد منها الاهلال بمعنى
الذبح وانما يقال الاهلال لرؤية الهلال ولبكاء الطفل وللتلبية بالحج لا للذبح فليس معنى اهللت بحجة او عمرة
له في القاموس استهل الصبي رفع صوته بالبكا كاهل وكذا كل متكلم رفع صوته او خفض و اهل نظر الى
الهلال والملبي رفع صوته بالتلبية وقال الجوهري استهل الصبي اي صاح عند الولادة واهل المعتمر اذا
رفع صوته بالتلبية واهل بالتسمية على الذبيحة وقوله تعالى وما اهل به لغير الله اي نودي عليه
بغير اسم الله واصله رفع الصوت انتهى ولو سلم ان معناه ذبح لغير الله فاين هذا من معنى ذبح باسم
غير الله حتى تنتهض به الحجة فالقول بان الاهلال في هذه الآية ونظائرها بمعنى الذبح وغير الله بمعنى
اسم غير الله يفر بتحريف كلامه سبحانه وتعالى حاشاه عن ذلك وقد حكى النظام النيسابوري في
تفسيره اجماع اهل العلم على ان ذبيحة مسلم التي قصد بذبحها التقرب الى غير الله ذبيحة مرتد
وقد صار هو مرتدا ايضا وكان الكفار في الجاهلية اذا خرجوا من ديارهم رفعوا الاصوات باسماء الاصنام
في الطرق والشوارع واذا وصلوا الى مكة المكرمة طافوا الكعبة مع ان طوافهم هذا لم يكن يقبل عند الله
ولهذا نزل قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فكذلك فيما نحن فيه اذا رفع احد الصوت
بحيوان انه لفلان او لاجله او يذبح له ثم ذكر عليه اسم الله عند الذبح فههنا لا تترتب عليه الحلة
اصلا نعم ان يغير النية ويبدل الامنية ويزيل قصد التقرب به الى غير الله ويرفع به الصوت خلاف
ما رفع به اولا ويقول تبت عنه ثم يذبح ويذكر عليه اسم الله تعالى يحل اكله واذا تقرر لك ان الاهلال
بمعنى رفع الصوت في اللغة لا بمعنى الذبح علمت ان الذي فسره بالذبح قد غلط غلطا بينا او تجوز ولا يصار
الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة او تاول رفع الصوت بالذبح بناء على سبب النزول وانما العبرة بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب قد فسرنا الاهلال في البقرة والمائدة والانعام بما فسره جمهور المفسرين وهو تسامح
سبق به القلم وانما الحق في المقام تفسيره برفع الصوت والغاء قيد الذبح ليتناول النظم الكريم كل حيوان
رفع به الصوت لغير الله سبحانه وتعالى سواء ذبح باسم الله او باسم غيره وعليه تدل اللغة العربية
وهي الاصل المقدم في تفسير كلام الله العزيز على الجميع ما لم يعارضه نص مقدم او نقل صريح او دليل مساو

والذي فسرنا به الآية هنا قد فسرها به الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي رح في تفسيره وهو الصواب والله
التوفيق ثم ذكر الله سبحانه الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال فَمَنِ اضْطُرَّ اي دعته ضرورة المخمصة الى
تناول شيء من ذلك حال كونه غَيْرَ بَاغٍ على مضطر آخر وَلَا عَادٍ متعد قدر الضرورة وسد الرمق
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يؤاخذه بذلك وقيل معناه غير باغ على الوالي ولا متعد على الناس بالخروج
لقطع الطريق فعلى هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية ثم زيف طريقة الكفار في
الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال وَلَا تَقُولُوا
لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ قال الكسائي والزجاج اي لا تقولوا الكذب لاجل
وصف السنتكم ومعناه لا تحللوا ولا تحرموا لاجل قول تنطق به السنتكم من غير حجة وقيل لا تقولوا
للذي تصف السنتكم الكذب فيه قال مجاهد في البحيرة والسائبة وقيل يعني قولهم ما في بطون
هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي قيل في
الكلام حذف بتقدير القول اي فتقول هذا حلال وهذا حرام او قائلة هذا حلال وهذا حرام وقيل
لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف السنتكم الكذب وقرئ كُذُب بضم الثلاثة على انه نعت للالسنة
وقيل معناه ولا تقولوا الكذب الذي تصفه السنتكم هذا حلال وهذا حرام عن ابي نضرة قال قرأت هذه الآية
في سورة النحل فلم ازل اخاف الفتيا الى يومي هذا قلت صدق رحمه الله فان هذه الآية تتناول بعموم لفظها
فتيا من افتى بخلاف ما في كتاب الله او في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأي
المقدمين له على الرواية او الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وانهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين
فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم فانهم افتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا واضلوا فهم
من يستفتيهم كما قال القائل شعر كبهيمة عمياء قاد زمامها ... اعمى على عوج الطريق الحائر واخرج
الطبراني عن ابن مسعود قال عسى رجل يقول ان الله امر بكذا او نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت او
يقول ان الله حرم كذا واحل كذا فيقول الله له كذبت لِتَفْتَرُوا اللام هي لام العاقبة لا لام الغرض اي
فيتعقب ذلك افتراؤكم عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير ان يكون منه إِنَّ
الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ اي افتراء كان لَا يُفْلِحُونَ بنوع من انواع الفلاح والفوز بالمطلوب
لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل ما بعده مَتَاعٌ قَلِيلٌ قال الزجاج متاعهم متاع قليل وقيل لهم متاع قليل

ولهم عذاب اليم يردون اليه في الآخرة ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال وعلى الذين هادوا
اي على اليهود خاصة دون غيرهم حرمنا ما قصصنا عليك بقولنا حرمنا عليهم كل ذي ظفر
من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية من قبل متعلق بقصصنا او بحرمنا قال الحسن يعني في سورة
الانعام وعن قتادة مثله وقال حيث يقول وعلى الذين هادوا الى قوله وانا لصادقون وتحريم الشيء
اما للضرر فيه واما للبغي المحرم عليهم فقوله انما حرم عليكم الخ اشارة للقسم الاول وهذا اشارة للقسم الثاني
وما ظلمناهم بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون حيث فعلوا اسباب ذلك
فحرمنا عليهم تلك الاشياء عقوبة لهم ثم بين سبحانه ان الافتراء على الله سبحانه ومخالفة امره لا يمنعهم
من التوبة وحصول المغفرة فقال ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة اي متلبسين بجهالة اي جاهلين
غير عارفين بالله وبعقابه اي غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم وعن السلف كل من
عصى الله فهو جاهل ولا يصدر العمل السوء الا من الجاهل بالعاقبة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح وفيه
بيان سعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وقد تقدم
تفسير هذه الآية في سورة النساء ثم تابوا من بعد ذلك اي من بعد عملهم للسوء وفيه تاكيد فان ثم
قد دلت على البعدية فاكدها بزيادة ذكر البعدية واصلحوا اعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه
ثم كرر ذلك تاكيدا وتقريرا فقال ان ربك من بعدها اي من بعد التوبة لغفور كثير الغفران رحيم ع
اي واسع الرحمة ولما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وابطال مطاعنهم وكان ابراهيم عليه السلام
من الموحدين وهو قدوة كثير ممن ذكره الله في آخر هذه السورة قال ان ابراهيم كان امة قال ابن الاعرابي
يقال للرجل العالم امة والامة الرجل الجامع للخير قال الواحدي قال اكثر المفسرين معنى الامة المعلم للخير وبه
قال ابن مسعود وعلى هذا فمعنى كون ابراهيم امة انه كان معلما للخير او جامعا لخصال الخير او عالما
بما علمه الله من الشرائع وقيل انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان امة وحده
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله امة وحده لانه كان فارق الجاهلية قال مجاهد
وقيل لانه قام مقام امة في عبادة الله وقيل يعني مأموم اي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال تعالى
اني جاعلك للناس اماما وحكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال ان هذا مثل قول العرب فلان رحمة
وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة

على الجماعة وعلى الواحد كقوله فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمي ابراهيم امة لانه
اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في امة ﴿ ﴾ ليس على الله بمستنكر ان
يجمع العالم في واحد ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ اي مطيعا له قائما باوامره قال ابن مسعود هو الذي يطيع الله ورسوله
وعن ابن عباس قال كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه احد على الاسلام غيره فلذلك ما
قال الله كان امة قانتا لله وعن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد تشهد له امة الا
قبل الله شهادتهم والامة الرجل فما فوقه ان الله يقول ان ابراهيم كان امة اخرجه ابن مردويه وقد تقدم
معنى القنوت في البقرة ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف المائل عن الاديان الباطلة الى دين الحق اي مسلما مقيما على دين الاسلام
وقد تقدم بيانه في الانعام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش انه كان على دينهم
الباطل بل كان من الموحدين المخلصين لله تعالى من صغره الى كبره ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ التي انعم الله بها عليه
وان كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالاولى ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اي اختاره للنبوة واختصه
بها ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ملة الاسلام ودين الحق ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اي خصلة
حسنة او حالة حسنة قيل هي الولد الصالح وقيل الثناء الجميل وقيل النبوة وقيل الصلوة منا عليه في
التشهد وقيل لسان الصدق وقيل قبول العامة في جميع الامم فانه يتولاه جميع اهل الاديان ويثنون
عليه ولا يكفر به احد ورزقه اولادا طيبة وعمرا طويلا في السعة والطاعة ولا مانع ان يكون ما اتاه
الله شاملا لذلك كله ولما عداه من خصال الخير وفيه التفات عن الغيبة ونكتة الالتفات زيادة
الاعتناء بشانه عليه السلام ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ اي في اعلى مقاماتهم في الجنة وقيل من معنى
مع وهذا حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال والحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الاخرين و
اجعلني من ورثة جنة النعيم اللهم اني اسالك ان تجعلني ممن يصدق عليه هذا الدعاء فاني من ذرية خليلك
ابراهيم وما ذلك عليك بعزيز وآتني في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقني عذاب النار انك انت
التواب الرحيم وحاصل ما ذكر من الصفات هنا تسعة بل عشرة اذ قوله سبحانه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد
مع علو درجتك وسمو منزلتك وكونك سيد ولد آدم يرجع لوصف ابراهيم وتعظيمه بان محمدا امر باتباعه
﴿أَنِ﴾ مفسرة او مصدرية ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ اي دينه واصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي
من انبيائه من امللت الكتاب اذا امليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيق ذلك

ان الوضع الالهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما ان الملة لا تضاف الا الى النبي ولا تكاد توجد مضافة الى الله ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته الاسلام الذي عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم وقيل المراد اتباعه صلى الله عليه وسلم لملته عليه السلام في التوحيد والدعوة اليه وقال ابن جرير في التبري من الاوثان والتدين بدين الاسلام وقيل في مناسك الحج وقيل في الاصول دون الفروع وقال ابو السعود في الاصول والعقائد واكثر الفروع دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار انتهى. وقيل في جميع شريعته الا ما نسخ وهذا هو الظاهر وفي الكرخي انما جاز اتباع الافضل المفضول لسبقه الى القول والعمل به قال القرطبي وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الافضل للمفضول فيما يؤدي الى الصواب ولا درك على الفاضل في ذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم افضل الانبياء عليهم السلام وقد امر بالاقتداء بالانبياء مع كونه سيدهم فقال تعالى فبهداهم اقتده ﴿حَنِيفًا﴾ حال من ابراهيم وجاز مجيء الحال منه لان الملة كالجزء منه وقد تقرر في علم النحو ان الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف اليه او كان جزءا او كالجزء من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الاول اذ يصح ان يقال ان اتبع ابراهيم حنيفا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها اي كرر ردا على زعم المشركين انهم على دينه ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ اي وبال السبت وهو المسخ في زمن داود عليه السلام او فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهم اليهود لا على غيرهم من الامم وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت فقالت طائفة ان موسى امرهم بيوم الجمعة وعينه لهم واخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا ان السبت افضل فقال الله له دعهم وما اختاروا لانفسهم وقيل ان الله سبحانه امرهم بتعظيم يوم في الاسبوع فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت لان الله سبحانه فرغ فيه من الخلق وعينت النصارى يوم الاحد لان الله بدأ فيه الخلق فالزم الله كلا منهم ما ادى اليه اجتهاده وعين لهذه الامة الجمعة من غير ان يكلهم الى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان اليهود كانوا يزعمون ان السبت من شرائع ابراهيم عليه السلام فاخبر الله سبحانه انه انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره وانما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة قال الواحدي هذا مما اشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت ان بعضهم قال هو اعظم الايام حرمة

قال آخرون ان الاحد افضل وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فرقتين في السبت وانما اختار الاحد
النصارى بعدهم بزمان طويل وعن مجاهد في الآية قال ارادوا الجمعة فاخذوا السبت مكانها وعن
ابي مالك وسعيد بن جبير في الآية قالا باستحلالهم اياه ورأى موسى عليه السلام رجلا يحمل حطبا
يوم السبت فضرب عنقه وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد انهم اوتوا الكتاب من قبلنا واوتيناه من بعدهم ثم هذا
يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا و
النصارى بعد غد اخرجه مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ اي بين
المختلفين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي فيه كلا بما يستحقه ثوابا وعقابا كما وقع
منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لاخرى ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ان يدعو امته الى الاسلام
فقال ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة او المعنى افعل الدعاء والاول
اولى وكأن المعنى وخاطب الناس في دعائك لهم وسبيل الله هو الاسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ اي بالمقالة المحكمة
الصحيحة الموضحة للحق المزيلة للشبهة والشك قيل وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾
وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع
السامع بها وقيل المراد بها القرآن والنبوة قيل وهي الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات
مقبولة قيل وليس للدعوة الا هاتان الطريقتان ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الالد الى استعمال
المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قال سبحانه ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ اي بالطريق
التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وايثار الوجه الايسر والمقدمات
التي هي اشهر فان ذلك انفع في تسكين شرهم وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين وانما امر سبحانه بالمجادلة
الحسنة لكون الداعي محقا وغرضه صحيحا وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا قيل ان الناس خلقوا و
جبلوا على ثلاثة اقسام الاول هم العلماء وهم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والثاني
هم اصحاب النظر السليم والخلقة الاصلية وهم غالب الناس وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة والثالث
هم اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم المشار اليهم بقوله وجادلهم الخ وقال مجاهد في الآية اعرض عن
اذاهم اياك ولا تقصر في تبليغ الرسالة والحرص عليهم فالآية منسوخة بآية السيف قال بعضهم لا حاجة الى دعوى النسخ

اذا الامر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين ان الرشد والهداية ليس الى النبي صلى الله عليه وسلم وانما ذلك الى الله تعالى وهو الاعلم بمن يضل وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ اي بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت وانما شرع لك الدعوة وامرك بها قطعا للمعذرة وتتميما للحجة وازاحة للشبهة وليس عليك غير ذلك وفي ايثار الفعلية في الضالين والاسمية في مقابليهم اشارة الى انهم غيروا الفطرة وبدلوها باحداث الضلال ومقابلوهم استمروا عليها وتقديم ارباب الضلال لان الكلام وارد فيهم ولما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع الى الحق فان ابوا قوتلوا امر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ اي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك قال ابن جرير نزلت هذه الآية فيمن اصيب بظلامة ان لا ينال من ظالمه اذا تمكن الا مثل ظلامته لا يتعداها الى غيرها ونحوه في البيضاوي وهذا صواب لان الآية وان قيل ان لها سببا خاصا كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره وسمى سبحانه الفعل الاول الذي هو فعل البادي بالشر عقوبة مع ان العقوبة ليست الا فعل الثاني وهو المجازي للمشاكلة وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز ثم حث سبحانه على العفو فقال وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ عن المعاقبة بالمثل وعن الانتقام بتركه بالكلية لَهُوَ بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان اي فالصبر خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ من الانتصاف ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بانهم صابرون على الشدائد وقد ذهب الجمهور الى ان هذه الآية محكمة لانها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم وفي تعليم حسن الادب في كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة ولا تعلق لها بالنسخ وقيل هي منسوخة بآيات القتال وبه قال ابن عباس والضحاك ولا وجه لذلك اخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي بن كعب قال لما كان يوم احد اصيب من الانصار اربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن اصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة انزل الله تعالى وان عاقبتم الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم الا اربعة واخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شيء قط كان اوجع لقلبه منه ونظر اليه قد مثل به فقال رحمة الله عليك فانك كنت ما علمت وصولا للرحم فعولا للخيرات ولولا حزن

لئن بعدك عليك لنرى فيهم ان اتركك حتى يحشرك الله من ارواح شتى اما والله لامثلن بسبعين
منهم مكانك فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل وان عاقبتم الآية فكفّر النبي
صلى الله عليه وسلم عن يمينه وامسك عن الذي اراد وصبر وعن ابن عباس مرفوعا نحوه اخرجه الطبراني
وابن المنذر وغيرهما وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم كانه كان باجتهاد منه وعليه فلينظر هل قوله
تعالى ولئن صبرتم الى آخره نسخ لهذا الاجتهاد او تنبيه على خطائه تأمل وعنه قال هذا حين امر الله
نبيه ان يقاتل من قاتله ثم نزلت براءة وانسلاخ الاشهر الحرم فهذا منسوخ ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله
عليه وسلم بالصبر فقال واصبر على ما اصابك من صنوف الاذى وما صبرك الا بالله اي بتوفيقه وتثبيته
والاستثناء مفرغ من اعم الاشياء اي وما صبرك مصحوبا بشيء من الاشياء الا بتوفيقه لك وفيه تسلية
للنبي صلى الله عليه وسلم ثم نهاه عن الحزن فقال ولا تحزن عليهم اي على الكافرين في اعراضهم عنك واستحقاقهم
للعذاب الدائم او لا تحزن على قتلى احد فانهم قد افضوا الى رحمة الله ولا تك في ضيق اي ضيق صدر
قرئ بفتح الضاد وكسرها وهما سبعيتان قال ابن السكيت هما سواء وقال الفراء الضيق بالفتح ما ضاق عنه
صدرك وبالكسر ما يكون في الذي يتسع كالدار والثوب وكذا قال الاخفش وهو من الكلام المقلوب
لان الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه وكانه اراد وصف الضيق بالعظم حتى صار
كالشيء المحيط بالانسان من جميع جوانبه وقال هنا تك بحذف النون ليكون ذلك مبالغة في التسلية وتنبيها
في النمل على القياس ولان الحزن ثم دون الحزن هنا والى ذلك اشار في التقرير مما يمكرون اي من مكرهم
بك فيما يستقبل من الزمان وما مصدرية او بمعنى الذي ثم ختم هذه السورة باية جامعة لجميع المامورات والمنهيات فقال
ان الله مع الذين اتقوا المعاصي على اختلاف انواعها وقيل اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي والعموم اولى
وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة والذين هم محسنون بتادية الطاعات والقيام بما امروا به منها او بالعفو
عن الجاني وقيل المعنى محسنون في اصل الانتقام فيكون الاول اشارة الى قوله فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به والثاني
اشارة الى قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقيل الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله والذين هم محسنون
اشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى وعن الحسن قال اتقوا فيما حرم عليهم واحسنوا فيما افترض
عليهم والعموم اولى وقيل لهرم بن حيان عند الموت اوص فقال انما الوصية في المال ولا مال
لي ولكني اوصيك بخواتيم سورة النحل ٭٭٭

ع

سورة بني اسرائيل

وتسمى سورة سبحان وسورة الاسراء مأئة واحدى عشرة اية وهي مكية وبه قال ابن عباس وعن ابن الزبير مثله الا ثلاث ايات قوله وان كادوا ليستفزونك نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بارض الانبياء وقوله رب ادخلني مدخل صدق وقوله ان ربك احاط بالناس وزاد مقاتل قوله ان الذين اوتوا العلم من قبله وقيل الايات الثمان وعن ابن مسعود قال في هذه والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي وعن عايشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان

هو مصدر سماعي لسبح او اسم مصدر يقال سبح يسبح تسبيحا وسبحانا ومصدر قياسي لسبح المخفف فانه يقال سبح في الماء ومعناه التنزيه والبعد والبراءة لله سبحانه من كل نقص وسوء وعلى كل فهو علم جنس للتنزيه والتقديس وقال سيبويه العامل فيه فعل لا من لفظه والتقدير انزه الله تنزيها فوقع سبحان مكان تنزيها فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء وقيل هو علم للتسبيح كعثمان للرجل اي اسبح الله سبحان ثم نزل منزلة الفعل وسد مسده ودل على التسبيح البليغ والتنزيه الكامل ولذا لا يستعمل الا فيه تعالى **الَّذِيٓ أَسْرٰى بِعَبْدِهٖ** الاسراء قيل هو سير الليل يقال سرى واسرى كسقى واسقى لغتان بمعنى سار في الليل وهما لازمان لكن مصدر الاول الاسراء ومصدر الثاني سرى بضم السين كهدى فالهمزة ليست للتعدية الى المفعول وانما جاءت التعدية هنا من الباء ومعنى اسرى به صيره ساريا في الليل وقيل هو سير اول الليل خاصة واذا كان الاسراء لا يكون الا في الليل فلابد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة فقيل اراد بقوله ليلا تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به في بعض الليل من مكة الى الشام مسافة اربعين ليلة ووجه دلالة ليلا على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ما اذا قلت سريت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلا للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة من الليل اي في جزء قليل من الليل قيل قدر اربع ساعات وقيل ثلاث وقيل اقل من ذلك والتقليل والتبعيض متقاربان فاستعمل في التبعيض ما هو للتقليل وقال الزجاج معنى الاية سير عبده يعني محمد صلى الله عليه وسلم ليلا وعلى هذا معنى اسرى سير فيكون

للتقييد بالليل فائدة وقد اجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون على ان المراد بالعبد محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف
احد من الامة في ذلك وقال بعبده ولم يقل بنبيه او برسوله او بمحمد تشريفا له صلى الله عليه وسلم قال اهل العلم
لو كان غير هذا الاسم اشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية شعر
اذا نوديت باسمي وانني + اذا قيل لي يا عبدها السميع + شعر لا تدعني الا بيا عبدها + فانه اشرف اسمائي
عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الاول
قبل الهجرة بسنة وعن ابن شهاب قال اسري به الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة وعن عروة
نحوه وقال السدي قبل مهاجره بستة عشر شهرا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قال الحسن وقتادة يعني المسجد نفسه
وهو ظاهر القرآن وقال عامة المفسرين اسري به صلى الله عليه وسلم من دار ام هانئ فحملوا المسجد الحرام على
مكة او الحرم لاحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام اولان الحرم كله مسجد وفي حديث مالك بن صعصعة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا انا في المسجد الحرام في الحجر وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر
سبحانه الغاية التي اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم اليها فقال إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وهو بيت المقدس وسمي الاقصى
لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام اولانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد واول من بناه آدم بعد ان بنى الكعبة
باربعين سنة كما في المواهب فهو اول مسجد بني في الارض بعد الكعبة وتمام حاله في كتابنا لقطة العجلان
فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان وكان الاسراء به ببدنه في اليقظة وكان قبلها في المنام كما انه رأى
فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان والحكمة في اسرائه الى بيت المقدس دون العروج به من مكة
لانه محشر الخلائق فيطاء بقدمه ليسهل على امته يوم القيامة وقوفهم ببركة اثر قدمه او لانه مجمع ارواح
الانبياء فاراد الله ان يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وسلم او ليخبر الناس بصفاته فيصدقوه في الباقي قاله الكرخي والوجه
الاخير اظهر والله اعلم ثم وصف المسجد الاقصى بقوله الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ بركة دنيوية وهي ليست الا حول
الاقصى واما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين بل هي في الحرم اتم وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما
وعبارة الخازن يعني بالثمار والانهار والاشجار وبالانبياء والصالحين لانه مقرهم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه
مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي واليه تحشر الخلق يوم القيامة فقد بارك الله سبحانه حول
المسجد الاقصى ببركات الدنيا والآخرة قال السدي المعنى انبتنا حوله الشجر وجعل الاسراء اليه كالتوطية لمعراجه
الى السماء ثم ذكر العلة التي اسرى به لاجلها فقال لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا اي ما اراه الله سبحانه في تلك الليلة

من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ومن ثمة تبعيضية وانما اتي بها تعظيما لآيات الله فان الذي راه صلى الله عليه وسلم وان كان جليلا عظيما فهو بعض بالنسبة الى آيات الله تعالى وعجائب قدرته وجليل حكمته قاله ابو شامة والرؤية هنا بصرية وقيل قلبية واليه نحا ابن عطية إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ بكل مسموع ومن جملة ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الْبَصِيرُ بكل مبصر ومن جملة ذلك ذات رسوله وافعاله قيل في هذه الآية اربعة التفاتات وذلك انه التفت اولا من الغيبة في قوله أسرى بعبده الى التكلم في قوله باركنا حوله ثم التفت ثانيا من التكلم في باركنا الى الغيبة في ليريه على قراءة الحسن بالياء ثم التفت ثالثا من هذه الغيبة الى التكلم في آياتنا ثم التفت رابعا من هذا التكلم الى الغيبة في قوله انه هو على الصحيح في الضمير انه لله تعالى واما على قول نقله ابو البقاء ان الضمير في انه هو للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجيء ذلك ويكون في قراءة العامة التفات واحد وفي قراءة الحسن ثلاثة وهذا موضع غريب واكثر ما ورد الالتفات ثلاث مرات على ما قال الزمخشري في قول امرء القيس تطاول ليلك بالاثمد الابيات والخامس الالتفات من قوله انه هو الى التكلم في قوله الآتي وآتينا موسى وقد اختلف اهل العلم هل كان الاسراء بجسده صلى الله عليه وسلم مع روحه او بروحه فقط فذهب معظم السلف والخلف الى الاول وذهب الى الثاني طائفة من اهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحاق وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان وذهبت طائفة الى التفصيل فقالوا كان الاسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح واستدلوا على هذا التفصيل بقوله الى المسجد الاقصى فجعله غاية للاسراء بذاته صلى الله عليه وسلم فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء وقع بذاته لذكره والذي دلت عليه الاحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف من ان الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس ثم الى السموات ولا حاجة الى التاويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من الفاظ الاحاديث الى ما يخالف الحقيقة ولا مقتضي لذلك الا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من انه لا يستحيل عليه سبحانه شيء ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم ان الاسراء كان بالروح فقط وان رؤيا الانبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدرا فان الانسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد بل ما هو محال ولا ينكر ذلك احد واما التمسك لمن قال بان هذا الاسراء انما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس فعلى تسليم ان المراد بهذه

الرؤيا هو هذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحان الذي اسرى بعبده ليلا والتصريح في الاحاديث الصحيحة
الكثيرة بانه اسرى به لا يقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين فانه قد يقال
لرؤية العين رؤيا وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الاحاديث الصحيحة بان النبي صلى الله عليه وسلم ركب البراق
وكيف يصح وصف الروح بالركوب وهكذا كيف يصح حمل الاسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وسلم بانه كان عند ان اسرى
به بين النائم واليقظان فالاولى ما ذهب اليه الجمهور ولا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم وقد اختلف ايضا في تاريخ الاسراء
فروي ان ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة وروي ان الاسراء كان قبل الهجرة باعوام ووجه ذلك ان خديجة صلت
مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل باربع ولم تفرض الصلوة الا ليلة الاسراء وقد استدل
بهذا ابن عبد البر على ذلك وقد اختلفت الرواية عن الزهري وممن قال ان الاسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في رواية عنه
وكذلك الحربي فانه قال اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الاول قبل الهجرة بسنة وقال ابن القاسم في تاريخه
كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا قال ابن عبد البر لا اعلم احدا من اهل السير قال بمثل
هذا وروي عن الزهري انه اسري به قبل مبعثه بسبعة اعوام وروي عنه انه قال كان قبل مبعثه
بخمس سنين وروى يونس عن عروة عن عائشة انها قالت توفيت خديجة قبل ان تفرض الصلوة
والحاصل انه قد اطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الاحاديث الواردة
في الاسراء على اختلاف الفاظها وما يتعلق بها من الاحكام وما قال اهل العلم فيه وما ظهر بعد المعراج
من الآيات الدالة على صدقه وليس في ذلك كثير فائدة فهي معروفة في مواضعها من كتب الحديث
وهكذا اطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الاقصى وهو مبحث آخر والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق
بتفسير الفاظ الكتاب العزيز وذكر اسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية وما عدا ذلك
فهو فضلة لا تدعو اليه حاجة (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) اي التوراة قيل والمعنى كرمنا محمدا بالمعراج واكرمنا موسى
بالكتاب قال الشهاب عقبت آية الاسراء بهذه استطرادا لما جمع ان موسى اعطي التوراة بمسيره الى الطور
وهو بمنزلة معراجه لانه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم والواو استئنافية او عاطفة على جملة سبحان الذي اسرى
لا على اسرى لبعده وتكلفه (وَجَعَلْنَاهُ) اي ذلك الكتاب وقيل موسى (هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) يهتدون به (أَلَّا
تَتَّخِذُوا) قرئ بالتحتية ولا نافية وان مصدرية ولام التعليل مقدرة وبالفوقية ولا ناهية وان زائدة
والمعنى على الاولى آتيناه الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا وعلى الثانية قلنا لهم لا تتخذوا

والاولى ان تكون ان مفسرة لان هذا ليس من مواضع زيادة بل ذلك في نحو ولما ان جاءت رسلنا مِنْ
دُونِي وَكِيلًا اي كفيلا بامورهم قاله الفراء وروي عنه انه قال كافيا وقيل معناه متوكلون عليه
في امورهم وقيل شريكا ومعنى الوكيل في اللغة من توكل اليه الامور ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
نصب على الاختصاص وبه بدأ الزمخشري او النداء اي يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا كما كان نوح
في العبودية والانقياد وفي كثرة الشكر لله تعالى بفعل الطاعات ذكرهم سبحانه انعامه عليهم في ضمن
انجاء آبائهم من الغرق وقيل المعنى ولا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلا كقوله ولا يأمركم
ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا والمراد بالذرية هنا جميع من في الارض لانهم من ذرية من كان
في السفينة وقيل موسى وقومه وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص والرفع
على البدل او على الخبر فانها كلها راجعة الى بني اسرائيل المذكورين واما على جعل النصب على ان ذرية هي
المفعول الاول لقوله لا تتخذوا فالاولى تفسير الذرية بجميع من في الارض من بني آدم اخرج ابن مردويه
عن عبد الله بن زيد الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرية من حملنا مع نوح قال ما كان مع نوح الا اربعة
اولاد حام وسام ويافث وكوش فذلك اربعة اولاد انتسلوا هذا الخلف إِنَّهُ اي ان نوحا كَانَ عَبْدًا
شَكُورًا وصفه الله بكثرة الشكر في السراء والضراء وذلك انه كان لا ياكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال
الحمد لله وجعله كالعلة لما قبله ايذانا بكون الشكر من اعظم اسباب الخير ومن افضل الطاعات حثا
لذريته على شكر الله سبحانه وَقَضَيْنَا اي اعلمنا واخبرنا قاله ابن عباس او حكمنا واتممنا واصل القضاء
الاحكام للشيء والفراغ منه وقيل اوحينا ويدل عليه قوله إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ولو كان بمعنى الاعلام والاخبار
لقال قضينا بني اسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني اسرائيل ولو كان بمعنى اتممنا لقال لبني اسرائيل
فِي الْكِتَابِ اي التوراة ويكون انزالها على نبيهم موسى كانزالها عليهم لكونهم قومه وقيل المراد بالكتاب
اللوح المحفوظ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ اي والله لتفسدن قرئ بفتح الفوقية ومعناها قريب من معنى قراءة الجمهور
لانهم اذا افسدوا افسدوا في نفوسهم والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة والمراد بالارض
ارض الشام وبيت المقدس وقيل ارض مصر واللام جواب قسم محذوف قال النيسابوري او اجرى
القضاء المبتوت مجرى القسم كانه قيل واقسمنا لتفسدن مَرَّتَيْنِ تثنية مرة وهي الواحدة من المر اي
المرور على حد فعلة للمرة كجلسة وفي القاموس مر مرا ومرورا جاز وذهب كاستمر ومره وبه جاز عليه

والمرة الفعلة الواحدة والجمع مر بالضم ومرار بالكسر ومرر كعنب ولقيه ذات مرة لا يستعمل الا ظرفا
وذات المرار اي مرارا كثيرة وجئته مرا او مرتين اي مرة او مرتين والمرة الاولى قتل شعيا وحبس ارميا
ومخالفة احكام التوراة والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى وقيل الاولى قتل زكريا والثانية قتل
يحيى وذكر ابن اسحاق ان بعض العلماء اخبره ان زكريا مات موتا ولم يقتل قال ابن مسعود كان اول الفساد
قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك النبط ثم ان بني اسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فاصابوا منهم فذلك
قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم وعن ابن عباس قال بعث الله في الاولى جالوت وبعث عليهم في المرة
الاخرى بخت نصر فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا هذه اللام كاللام التي قبلها
اي لتستكبرن عن طاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين الحد في ذلك وتبغون
بغيا عظيما فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا اي وقت وعد اولاهما اي المرتين المذكورتين والمراد بالوعد الوعيد
والمراد بالوعيد المتوعد به اي وعد عقاب اي حان وقت العقاب الموعود به بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ اي قوة في الحروب وبطش عند اللقاء قيل هو بخت نصر وجنوده
وقيل جالوت وقيل جند من فارس وقيل جند من بابل وقيل هو سنحاريب من اهل نينوى
فقتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
اي عاثوا وترددوا يقال جاسوا وحاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن عزيز والقتيبي قال الزجاج معناه
طافوا هل بقي احد لم يقتلوه قال والجوس طلب الشيء باستقصاء قال الجوهري الجوس مصدر قولك
جاسوا خلال الديار اي تخللوها كما يجوس الرجل للاخبار اي يطلبها وكذا قال ابو عبيدة وقال ابن جرير
معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين وقال الفراء معناه قتلوهم بين
بيوتهم وقال قطرب معناه نزلوا وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة قال ابو زيد الحوس والجوس والعوس
الطوف بالليل وقيل الطوف بالليل هو الجوسان محركا كذا قال ابو عبيدة وقال ابن عباس جاسوا مشوا
ومعنى خلال الديار وسط الديار فهو على هذا اسم مفرد بمعنى الوسط ويؤيده قراءة الحسن خلل
الديار والثاني انه جمع خلل بفتحتين كجبل وجبال وجمل وجمال قاله السمين وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا
اي كائنا لا محالة لازما لا خلف فيه ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ اي الدولة والغلبة والرجعة عَلَيْهِمْ وذلك
عند توبتهم قيل وذلك حين قتل داود جالوت وقيل حين قتل بخت نصر ووضع رد هنا موضع نرد

لانه لم يقع وقت الاخبار لكن لتحققه عبر بالماضي والكرة في الاصل مصدر كر يكر اي رجع ثم عبر
بها عن الدولة والقهر وامددناكم باموال وبنين بعد نهب اموالكم وسبي ابنائكم حتى عاد امركم
كما كان وجعلناكم اكثر نفيرا قال ابو عبيدة النفير العدد من الرجال فالمعنى اكثر رجالا من عدوكم
والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ويجوز ان يكون النفير
جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو ان احسنتم افعالكم واقوالكم على الوجه المطلوب منكم
احسنتم لانفسكم لان ثواب ذلك عائد عليكم وان اساتم افعالها فاوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم
فلها اي فعليها اساءتها وانما عبر بها للمشاكلة قاله الكرماني قال ابن جرير اللام بمعنى الى اي فاليها
ترجع الاساءة كقوله تعالى بان ربك اوحى لها اي اليها وقيل المعنى فلها الجزاء والعقاب وقال الحسين
بن الفضل فلها رب يغفر الاساءة وقال الكرخي اجرى اللام على بابها قال ابو البقاء وهو الصحيح لان اللام
للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة وسيئة انتهى وهذا الخطاب قيل هو لبني اسرائيل
الملابسين لما ذكر في هذه الآيات وقيل لبني اسرائيل الكائنين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ومعناه
اعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك وقيل هو خطاب لمشركي قريش فاذا جاء وعد
الآخرة اي حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا
كما سبق وقصة قتله مستوفاة في الانجيل واسمه فيه يوحنا قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة
حملته على قتله واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة وقال ابن جرير هيردوس فسلط عليهم الفرس والروم
فسبوهم وقتلوهم وقيل هو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وجواب اذا محذوف
تقديره بعثناهم لدلالة جواب الاولى عليه ليسوءوا وجوهكم اي ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم
حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة وقيل المراد بالوجوه السادة منهم وقرئ
لنسوء بالنون على ان الضمير لله سبحانه وقرئ لنسوأن بنون التاكيد وقرئ ليسوء بالتحتية وافراد الضمير
[illegible] للوعد وقرئ ليسوءوا على ان الفاعل عبادنا وفي عود الواو على العباد نوع استخدام اذ المراد
بهم اولا جالوت وجنوده والمراد بهم في ضمن الضمير بختنصر وجنوده وليدخلوا المسجد اي بيت المقدس
ونواحيه فيخربوها كما دخلوه اول مرة اي وقت افسادهم الاول وليتبروا اي يدمروا ويهلكوا
قاله ابن عباس قال قطرب يهدموا قال الزجاج كل شيء كسرته وفتتته فقد تبرته ما علوا اي ما غلبوا عليه

من بلادكم اول مرة علوهم تتبيرا اي تدميرا ذكر المصدر ازالة للشك وتحقيقا للخبر عسى ربكم يا
بني اسرائيل ان يرحمكم بعد انتقامه منكم في المرة الثانية فيرد الدولة اليكم وان عدتم الى المعصية
ثالثا عدنا الى عقوبتكم قال اهل السير ثم انهم عادوا الى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم
وكتمان ما ورد من نعته في التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على ايدي العرب فجرى على بني قريظة
والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والاجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم وضرب
الذلة والمسكنة قال الضحاك كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم فعادوا فبعث الله عليهم
محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون فسلط عليهم المؤمنون الى يوم القيامة
وقد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين وفي تعيين من سلطه الله عليهم وفي كيفية
الانتقام منهم ولا يتعلق بذلك كثير فائدة وجعلنا جهنم للكافرين منهم ومن غيرهم حصيرا
اي سجنا ومحبسا جعل الله ماواهم فيها قاله ابن عباس والحصير هو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل
او مفعول والمعنى انهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها ابدا قال الجوهري حصره يحصره حصروا
ضيق عليه واحاط به ويقال للسجن محصر وحصير وقيل فراشا ومهادا قاله الحسن واراد على هذا
بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس ان هذا القرآن يهدي الناس للتي اي للطريقة التي هي اقوم
واصوب من غيرها من الطرق وهي ملة الاسلام وقال الزجاج للحال التي هي اقوم الحالات وهي
توحيد الله والايمان برسله وكذا قال الفراء وقيل للكلمة التي هي اصل وهي شهادة ان لا اله الا الله
فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا وهم الكافرون ويبشر المؤمنين بما اشتمل عليه
من الوعد بالخير اجلا وعاجلا الذين يعملون الصالحات التي ارشد الى عملها القرآن ان لهم اي بان
لهم اجرا كبيرا وهو الجنة ويخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة واحكامها المبينة في القرآن اعتدنا
لهم عذابا اليما وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلا في حيز البشارة وعليه جرى السفاقسي والبيضاوي
والسيوطي وقيل يراد بالتبشير مطلق الاخبار سواء كان بخير او شر او معناه الحقيقي ويكون الكلام مشتملا
على تبشير المؤمنين ببشارتين الاولى ما لهم من الثواب والثانية ما لاعدائهم من العقاب ولا شك
ان ما يصيب عدوهم سرورهم وفي المسئلة خلاف مشهور الا ان الظاهر من مذهب الزمخشري انه لا يجيز
الجمع بين الحقيقة والمجاز ولا استعمال المشترك في معنييه ويدع الانسان بالشر اي ويدع ولانه مرفوع

الا انه لما وجب سقوطها لفظا لاجتماع الساكنين سقطت في الخط ايضا على خلاف القياس ونظيره سندع الزبانية ﴿الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ المراد بالانسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض افراده وهو دعاء الرجل على نفسه وماله وولده عند الضجر بما لا يحب ان يستجاب له نحو اللهم اهلكه اللهم العنه ونحو ذلك ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ اي مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولاهله كطلب العافية والرزق ونحوهما فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر لهلك لكنه لم يستجب تفضلا منه ورحمة ومثل ذلك ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير وقد تقدم في سورة يونس انه يستجاب له بالخير ولا يستجاب له في الشر فراجعه وقيل المراد بالانسان القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم وقال ابن عباس قوله اللهم العنه واغضب عليه وقيل هو ان يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ اي مطبوعا على العجلة يسارع الى كل ما يخطر بباله لا ينظر الى عاقبته ومن عجلته انه يسأل الشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء والمراد بالانسان الجنس لان احدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها اصلح في الدين والدنيا وقيل اشارة الى آدم عليه السلام حين نهض قبل ان يكمل فيه الروح فعن سلمان الفارسي قال اول ما خلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه فلما كان بعد العصر قال يا رب اعجل قبل الليل فذلك قوله وكان الانسان عجولا والمناسب للسياق هو الاول ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد اكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ وذلك لما فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الاحلام ومعنى كونهما آيتين انهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى انفاذ الحكم بتعاقبهما على نسق واحد مع امكان غيره وقدم الليل على النهار لكونه الاصل وثنى الآية ههنا وافردها في قوله وجعلناها وابنها آية لتباين الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسبهما التثنية بخلاف عيسى مع امه فانه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسب فيهما الافراد قاله الكرخي ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ اي طمسنا نورها وقد كان القمر كالشمس في الانارة والضوء قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر وقيل المراد بمحوها انه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة مظلمة لا يستبين فيه شيء وليس المراد انه محاها بعد ان لم تكن كذلك والفاء تفسيرية لان المحو

المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقب جعل الليل والنهار آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته وعن علي قال في الآية هو السواد الذي في القمر وعن ابن عباس نحوه واخرج البيهقي وابن عساكر عن سعيد المقبري ان عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال كانا شمسين ـــــ فالسواد الذي رايت هو المحو وعن ابن عباس مرفوعا نحوه باطول منه اخرجه ابن مردويه قال السيوطي واسناده واه وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ اي الشمس مُبْصِرَةً اي مضيئة تبصر فيها الاشياء رؤية بينة قال الكسائي وغيره هو من قول العرب ابصر النهار اذا صار بحالة يبصر بها واشار بهذا الى ان الكلام مجازا عقليا لان النهار لا يبصر بل يبصر فيه فهو من اسناد الحدث الى زمانه وقيل مبصرة للناس من قوله ابصره فبصر فالاول وصف لها بحال اهلها والثاني وصف لها بحال نفسها واضافة آية الى الليل والنهار بيانية اي فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة كقولهم نفس الشيء وذاته لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ اي لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في وجوه المعاش والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا فضلا اي رزقا اذ غالب تحصيل الارزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ثم ذكر مصلحة اخرى في ذلك الجعل فقال وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وهذا متعلق بالفعلين جميعا اعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا باحدهما فقط كالاول اذ لا يكون علم عدد السنين والحساب الا باختلاف الجديدين ومعرفة الايام والشهور والسنين والفرق بين العدد والحساب ان العدد احصاء ماله كمية بتكرير امثاله من غير ان يتحصل منه شيء والحساب احصاء ماله كمية بتكرير امثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص فالسنة مثلا ان وقع النظر اليها من حيث عدد ايامها فذلك هو العدد وان وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة اشهر قد تحصل كل شهر من عدة ايام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فذلك هو الحساب ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ولتعطلت الامور ولو يدرالصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم والصلوة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار اذ العدد موضوع الحساب وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا اي كل ما تفتقرون اليه في امر دينكم ودنياكم بيناه تبيينا واضحا لا يلتبس فهو كقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء

وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء واما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تاكيد الكلام وتقريره فكانه قال فصلناه حقا على الوجه الذي لامزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الاعذار ليهلك من هلك عن بينة ولهذا قال وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال ابو عبيدة الطائر عند العرب الحظ ويقال له البخت فالطائر ما وقع للشخص في الازل بما هو نصيبه من العقل والفهم والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كان طائرا يطير اليه من وكر الازل وظلمات عالم الغيب طيرا لا نهاية له ولا غاية الى ان انتهى الى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص وقال الازهري الاصل في هذا ان الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي فكتب ما علمه منهم اجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعا وشقاوة من علمه عاصيا فطار لكل منهم ما هو صائر اليه عند خلقه وانشائه وذلك قوله وكل انسان الزمناه طائره في عنقه اي ما طار له في علم الله وقيل ان العرب كانوا اذا ارادوا الاقدام على عمل من الاعمال وارادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او شر اعتبروا احوال الطير فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه وفي عنقه عبارة عن شدة اللزوم وكمال الارتباط قال الزجاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس قال مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي او سعيد فالطائر له تفسيران الاول العمل والثاني الكتاب الحقيقي اخرج احمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول طائر كل انسان في عنقه وقال ابن عباس طائره سعادته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه اين كان وعن انس قال طائره كتابه وَنُخْرِجُ بنون التعظيم لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا وقرئ يخرج بالتحتية وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر فيصير كتابا وقرئ يُخرج والفاعل هو الله سبحانه وقرئ على البناء للمفعول اي يخرج له الطائر كتابا والمعنى مكتوبا فيه اعماله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذي عن يسارك فيحفظ عليك سيئاتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وانما قال سبحانه يلقاه منشورا تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة قال ابن عباس هو عمله الذي احصي عليه فاخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشورا والمعنى يلقاه الانسان او يلقى الانسان اِقْرَأْ كِتَابَكَ

اي يقال له اقرأ وقائلين له اقرأ قيل يقرأ في ذلك اليوم الكتاب من كان قارئا ومن لم يكن قارئا قاله قتادة كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اي بشخصك الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا اي حاسبا او كافيا والحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس والخليط قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ بين سبحانه ان ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه الى غيره فمن اهتدى بفعل ما امره الله به وترك ما نهاه الله عنه وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام فانما تعود منفعة ذلك الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لم يهتد وَمَن ضَلَّ عن طريق الحق فلم يفعل ما امر به ولم يترك ما نهي عنه فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا اي فان وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل احد محاسب عن نفسه مجزي بطاعته معاقب بمعصيته وهذا حاصل ما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطريق ولزوم الاعمال لصاحبها ثم اكد هذا الكلام بابلغ تاكيد فقال وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ الوزر الاثقال وزر يزر وزرا ووزرة اي اثما والجمع اوزار والوزر الثقل ومنه يحملون اوزارهم على ظهورهم اي اثقال ذنوبهم ومعنى الآية لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس اخرى حتى تخلص الاخرى عن وزرها وتوخذ به الاولى وقد تقدم مثل هذا في الانعام قال الزجاج في تفسير هذه الآية ان الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وهذا تحقيق معنى قوله وكل انسان الزمناه طائره في عنقه واما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئتها فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء اصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال وانما خص التاكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون انهم ان لم يكونوا على الحق فالشفاعة على الذين قلدوهم اخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت سالت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولاد المشركين فقال هم من آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال الله اعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحكم الاسلام

[illegible]

ثم بين سبحانه كمال رافته وشمول رحمته فقال كُلًّا اي كل واحد من الفريقين من يريد الدنيا ومن

الصحيحين وغيرهما ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له يا رسول الله انا نصيب في البيات من ذراري المشركين قال هم منهم وفي ذلك احاديث كثيرة وبحث طويل وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الاحاديث الواردة في اطفال المشركين ثم نقل كلام اهل العلم في المسئلة فليرجع اليه

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته والضال بضلاله وعدم مواخذة الانسان بجناية غيره ذكر انه لا يعذب عباده الا بعد الاعذار اليهم بارسال رسله وانزال كتبه فبين سبحانه انه لم يتركهم سدى ولا اخذهم قبل اقامة الحجة عليهم والظاهر انه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة الا بعد الاعذار اليهم بارسال الرسل وبه قالت طائفة من اهل العلم وذهب الجمهور الى ان المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع لا بالعقل وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً اختلف المفسرون في معنى أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا على قولين الاول ان المراد به الذي هو نقيض النهي وعلى هذا اختلفوا في المامور فالاكثر على انه الطاعة والخير وقال في الكشاف معناه امرناهم بالفسق فَفَسَقُوا فِيهَا واطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل امرته فعصاني فان كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا ان المامور به شيء غير المعصية لان المعصية منافية للامر مناقضة له فكذلك امرته ففسق يدل على ان المراد به شيء غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المامور به فكونه فسقا ينافي كونه مامورا به ويناقضه القول الثاني ان معنى امرنا مترفيها اكثرنا فساقها قال الواحدي تقول العرب امر القوم اذا كثروا وامرهم الله اذا كثرهم وقد قرئ امّرنا بتشديد الميم اي جعلناهم امراء مسلطين وقرئ آمرنا بالمد والتخفيف اي اكثرنا جبابرتها وامراءها قاله الكسائي وقال ابو عبيدة آمرته بالمد وامرته لغتان بمعنى كثرته ومنه الحديث خير المال مهرة مامورة اي كثيرة النتاج والنسل وكذا قال ابن عزيز وقرئ امرنا بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس قال قتادة والحسن المعنى اكثرنا وحكى نحوه ابو زيد وابو عبيد وانكره الكسائي قال لا يقال من الكثرة الا آمرنا بالمد قال في الصحاح وقال ابو الحسن امر ماله اي كثر وامر القوم اي كثروا وقرأ الجمهور امرنا من الامر ومعناه ما قدمنا في القول الاول وقد قيل في تاويل امرنا انه مجاز عن الامر الحامل لهم على الفسق وهو ادرار النعم عليهم وقيل المراد قربنا هلاك قرية وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ اليه

والمراد بالمترفين المنعمون الذين قد ابطرتهم النعمة وسعة العيش والمفسرون يقولون في تفسير
المترفين انهم الجبارون المتسلطون والملوك الجابرون قالوا وانما خصوا بالذكر لان من عداهم اتباع لهم
وفي القاموس الترفه بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم
واترفته النعمة اطغته او نعمته كترفته تتريفا والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم
لا يمنع من تنعمه وتترف تنعم فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ اي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب
بعد ظهور فسقهم وتمردهم في كفرهم فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا عظيما لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم
موقعه واهلكناها اهلاك استيصال والدمار الهلاك والخراب ثم خوف سبحانه ان هذه عادته الجارية
مع القرون الخالية فقال وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ اي كثيرا ما اهلكنا منهم فكم مفعول اهلكنا
اي من قوم كفروا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ كعاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية فحل بهم البوار ونزل بهم سوط
العذاب وفيه تخويف لكفار مكة وانما قال ذلك لانه اول من كذبه قومه ومن ثم لم يقل من بعد آدم
ومن الثانية لابتداء الغاية والاولى للبيان فلذلك اتحد متعلقهما وقال الحوفي في الثانية بدل من الاولى
وليس كذلك لاختلاف معنييهما ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو ردع للناس كافة فقال وَكَفَى بِرَبِّكَ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا قال الفراء انما يجوز دخال الباء في المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه
او يذم كقولك كفاك به واكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما ولا يقال قام باخيك وانت تريد
قام اخوك والمراد بكونه سبحانه خبيرا انه محيط بحقائق الاشياء ظاهرا وباطنا عالم بجميع المعلومات رائي
بجميع المرئيات لا تخفى عليه خافية من احوال الخلق وهو لف ونشر مرتب وفي الآية بشارة عظيمة لاهل
الطاعة وتخويف شديد لاهل المعصية لان العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة يقتضي
ايصال الجزاء الى مستحقه بحسب استحقاقه ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو اهل لذلك مَنْ كَانَ يُرِيدُ
الْعَاجِلَةَ هذا تاكيد لما سلف من جملة كل انسان الزمناه طائره وجملة من اهتدى والمراد بالعاجلة
المنفعة العاجلة او الدار العاجلة والمعنى من كان يريد باعمال البر او باعمال الآخرة ذلك فيدخل تحته
الكفرة والفسقة والمراؤن والمنافقون عَجَّلْنَا لَهُ اي لذلك المريد فِيهَا اي في تلك العاجلة ثم قيد التعجيل
والمعجل له بقيدين الاول قوله مَا نَشَاءُ اي تعجيله له منها لا ما يشاءه ذلك المريد ولهذا ترى كثيرا من هؤلاء
المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون اليه والقيد الثاني قوله لِمَنْ نُرِيدُ

التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم
ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه من
كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وقوله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها
وهم فيها لا يبخسون وقيل قرئ ما يشاء بالتحتية والضمير على هذا لله سبحانه وفيه بعد لمخالفته لما قبله
وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد وقيل الضمير راجع إلى من في قوله من كان يريد فيكون ذلك مقيدا
بقوله لمن نريد أي عجلنا له ما نشاءه لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاءه إلا إذا أراد
الله له ذلك ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين
عذاب الآخرة ولهذا قال ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ أي بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن
الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه يَصْلَاهَا أي يدخل جهنم مَذْمُومًا ملوما من الخلق مَدْحُورًا
أي مطرودا من رحمة الله مبعدا عنها في المختار دحره يدحره من باب خضع طرده فهذه عقوبته
في الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه فأين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقي فإنه
ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمينان قلبه وثقته
بربه وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال وَمَنْ أَرَادَ بأعماله
الدَّارَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا أي من أجلها وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص لأنها للاختصاص سَعْيَهَا
أي السعي الحقيق بها اللائق بطالبها وهو الإتيان بما أمر به وترك ما نهي عنه خالصا لله غير مشوب
كان الإتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى لا التقرب على ما يخترعون بآرائهم وَهُوَ
مُؤْمِنٌ بالله إيمانا صحيحا لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين إنما
يتقبل الله من المتقين والواو للحال فَأُولَٰئِكَ أي المريدون للآخرة الساعون لها سعيها وفيه مراعاة
معنى من بعد مراعاة لفظها وهو مبتدأ وخبره كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا عند الله أي مقبولا غير مردود
وقيل مضاعفا إلى أضعاف كثيرة فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكورا أمورا ثلاثة الأولى إرادة
الآخرة الثاني أن يسعى لها السعي الذي يحق لها والثالث أن يكون مؤمنا وفي الخطيب قال بعض السلف
الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية
ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال كُلًّا أي كل واحد من الفريقين من يريد الدنيا ومن

يريد الآخرة ﴿نُمِدُّ﴾ اي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ﴿هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ﴾ بدل من المفعول وهو كلا فكأنه قيل نمد هؤلاء وهؤلاء الاول للاول والثاني للثاني فهو لف ونشر مرتب اي نرزق المؤمنين والكفار واهل الطاعة واهل المعصية لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه وما به الامداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا وما انعم به في الاولى والاخرى على من يريد الآخرة وفي قوله ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ اشارة الى ان ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمد والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا كالرزق والجاه اذ لا حظ للكافر في الآخرة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ اي ممنوعا عن احد قال الضحاك يقال حظره يحظره حظرا منعه وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك قال الزجاج اعلم الله سبحانه انه يعطي المسلم والكافر وانه يرزقهم جميعا وقال الحسن كل يرزقه الله في الدنيا البر والفاجر وقال ابن عباس يرزق الله من اراد الدنيا ويرزق من اراد الآخرة ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل من له اهلية النظر والاعتبار وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد وموضحة له والمعنى انظر ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا﴾ في العطايا العاجلة ﴿بَعْضَهُمْ﴾ اي بعض العباد ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فمن غني وفقير وقوي وضعيف وصحيح ومريض وعاقل واحمق وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن ادراكها ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ اللام لام ابتداء او قسم ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ من الدنيا وذلك لان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة مقدار فلهذا كانت الآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا وقيل المراد ان المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين وحاصل المعنى ان التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب اهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما وثبت في الصحيحين ان اهل الدرجات العلى ليرون اهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في افق السماء ثم لما اجمل سبحانه اعمال البر في قوله وسعى لها سعيها وهو مؤمن اخذ في تفصيل ذلك مبتديا باشرفها الذي هو التوحيد فقال ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته تهييجا والهابا او لكل مكلف متاهل له صالح لتوجهه اليه وقيل التقدير قل لكل مكلف لا تجعل ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ﴾ اي لا يكن منك جعل فقعود ومعنى تقعد تصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة واليه ذهب الفراء والزمخشري وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخير لان السعي فيه انما يتاتى

بالقيام والعجز عنه يلزمه ان يكون قاعدا عن الطلب وقيل ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما
ع مفكرا على ما فرط منه فالقعود على هذا حقيقة مَذْمُوماً مَخْذُولاً اي من غير حمد وبغير ناصر فتصير
جامعا بين الامرين الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحي عباده والخذلان لك منه سبحانه اوحال
كونك جامعا بينهما وحاصل ما ذكر في هذه الآيات من انواع التكاليف خمسة وعشرون نوعا بعضها
اصلي وبعضها فرعي وقد ابتدأ بالاصلي في قوله لا تجعل ثم ذكر عقيبه سائر الاعمال التي يكون من عمل بها
ساعيا في الآخرة ثم لما ذكر ما هو الركن الاعظم وهو التوحيد اتبعه بسائر الشعائر والشرائع فقال وَقَضَى
رَبُّكَ اي امر امرا جزما وحكما قطعا وحتما مبرما وعن ابن عباس انه قرأ ووصّى ربك مكان قضى وقال
التزقت الواو والصاد وانكم تقرؤنها وقضى ولو نزلت على القضى ما اشرك به احد وبه قرأ الضحاك ايضا اقول
انما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الامر وهو وان كان احد معاني مطلق القضاء كما في قوله
قضي الامر الذي فيه تستفتيان وقوله فاذا قضيتم مناسككم وقوله فاذا قضيتم الصلوة ولكنه ههنا
بمعنى الامر وهو احد معاني القضاء والامر لا يستلزم ذلك فانه سبحانه قد امر عباده بجميع ما اوجبه
ومن جملة ذلك افراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم ان لا يقع الشرك من المشركين ومن معاني
مطلق القضاء معان اخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ومنه فقضاهن سبع سموات
وبمعنى الارادة كقوله اذا قضى امرا وبمعنى العهد كقوله اذ قضينا الى موسى الامر وقد روي عنه ايضا
انه قال قضى امر وقيل اوجب ربك وعن مجاهد قال عهد ربك قال الرازي هذا القول بعيد جدا لانه
يفتح باب ان التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك
يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين أَنْ لَا بان لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ قاله السيوطي
وقال في الجمل قوله هذا غير سديد حيث اثبت النون بين الهمزة ولا النافية بقلم الحمرة فيقتضي انها
من رسم القرآن مع انه ليس كذلك وقد نص في شرح الجزرية ان ما عدا المواضع العشرة يكتب موصولا
اي لا تثبت فيه النون وقيل ان مفسرة ولا تعبدوا نهي وفيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا
هو الحق ثم اردفه بالامر ببر الوالدين فقال وَبِالْوَالِدَيْنِ اي قضى بان تحسنوا بهما واحسنوا بهما إِحْسَاناً
وتبروهما قيل وجه ذكر الاحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه انهما السبب الظاهر في وجود المتولد
بينهما وفي جعل الاحسان الى الابوين قرينا لتوحيد الله وعبادته من الاعلان بتأكد حقهما والعناية

بيانهما ما لا يخفى وهكذا جعل سبحانه في آية اخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال ان اشكر لي ولوالديك
ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها الى البر من الولد احوج من غيرها فقال اِمَّا يَبْلُغَنَّ ان شرطية
وما زائدة والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التاكيد الثقيلة عِنْدَكَ الْكِبَرَ اَحَدُهُمَا اَوْ كِلاهُمَا
معنى عندك ان يكونا في كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للاشعار بان
كل فرد من الافراد منهي بما فيه النهي ومامور بما فيه الامر فَلَا تَقُلْ لَهُمَا اُفٍّ جواب للشرط والتقييد
بهذا الشرط خرج مخرج الغالب من ان الولد انما يتهاون بوالديه عند الكبر والا فلا يختص بالكبيرين والمعنى
لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد وليس المراد حالة الاجتماع فقط عن الحسين بن علي مرفوعاً لو علم الله شيئاً
من العقوق ادنى من اف لحرمه وقال مجاهد لا تقل لهما اف لما تميط عنهما من الاذى الخلا والبول كما
كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول وفي اف اربعون لغات قاله السمين ثم قال
وقد قرئ من هذه اللغات بسبع ثلاث في المتواتر واربع في الشواذ وقال الفراء تقول العرب فلان يتافف
من ريح وجدها اي يقول اف اف وقال الاصمعي الاف وسخ الاذن والتف وسخ الاظفار يقال ذلك عند
استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتاذون به وعن ابن الاعرابي ان الاف الضجر وقال القتيبي
اصله انه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل
اف ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم وقال الزجاج معناه النتن وقال ابو عمرو بن العلاء
الاف وسخ بين الاظفار والتف قلامتها والحاصل انه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال او صوت ينبئ
عن ذلك فنهي الولد عن ان يظهر منه ما يدل على التضجر من ابويه او الاستثقال لهما وقيل اف مصدر
بمعنى تباً وقبحاً وخسراناً والاول ارجح وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب او بلحنه كما هو
مقرر في الاصول وَلَا تَنْهَرْهُمَا اي لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهي والنهر والنهم اخوات بمعنى
الزجر والغلظة يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال الزجاج معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً
في وجوههما وَقُلْ لَهُمَا بدل التافيف والنهر قَوْلًا كَرِيمًا اي ليناً لطيفاً جميلاً سهلاً احسن ما يمكن التعبير عنه
من لطف القول وكرامته مع حسن التادب والحياء والاحتشام قال محمد بن زبير يعني اذا دعواك فقل
لبيكما وسعديكما وقيل هو ان يقول يا اماه يا ابتاه ولا يدعوهما باسمائهما ولا يكنيهما وَاخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الذُّلِّ قال سعيد بن جبير اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ ذكر القفال

في معنى خفض الجناح وجهين الاول ان الطائر اذا اراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما الى نفسك لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك وكنت مفتقرا اليهما والثاني ان الطائر اذا اراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا اراد النزول خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع وفي اضافة الجناح الى الذل وجهان الاول انها كاضافة حاتم الى الجود في قولك حاتم الجود فالاصل فيه الجناح الذليل والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل الذل جناحا ثم اثبت لذلك الجناح خفضا والذل الذل من ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذليل وقرئ بكسر الذال من قولهم دابة ذلول بينة الذل اي منقادة سهلة لا صعوبة فيها وقوله مِنَ الرَّحْمَةِ فيه معنى التعليل اي من اجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان افقر خلق الله اليهما بالامس قال السمين وفي من ثلاثة اوجه احدها انها للتعليل والثاني انها ابتدائية قال ابن عطية اي ان هذا الخفض يكون ناشيا من الرحمة المستكنة في النفس الثالث انها في محل نصب على الحال من جناح ثم كأنه قال له سبحانه ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ولكن قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا اي وادع الله لهما ولو خمس مرات في اليوم والليلة ان يرحمهما برحمته الباقية الدائمة واراد به اذا كانا مسلمين كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا اي رحمة مثل تربيتهما لي وقدره الحوفي اي مثل رحمتهما لي قدره ابو البقاء وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما في الوجود اي فلتقع هذه كما وقعت تلك والتربية التنمية ويجوز ان تكون الكاف للتعليل اي لاجل تربيتهما لي كقوله واذكروه كما هداكم ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود اهل العقوق وتقف عندها شعورهم حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها وان يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما وهذه خمسة اشياء كلف الانسان بها في حق الوالدين وقد ورد في بر الوالدين احاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي معروفة في كتب الحديث رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ اي بما في ضمائركم من الاخلاص وعدمه في كل الطاعات ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم والاصرار عليه ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق اندراجا اوليا وقيل ان الآية خاصة بما يجب للوالدين من البر ويحرم على الاولاد من العقوق والاول اولى

باعتبار عموم اللفظ فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ اي ابرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ اي الرجاعين عن الذنوب الى التوبة ومن السيئات الى الحسنات ومن العقوق الى البر ومن عدم الاخلاص الى محض الاخلاص ﴿غَفُورًا﴾ لما فرط منكم من قول او فعل او اعتقاد فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه فمن تاب تاب الله عليه ومن رجع الى الله رجع الله اليه وقال سعيد بن جبير يعني البادرة من الولد الى الوالد اي ان تكن النية صادقة فانه كان غفورا للبادرة التي بدرت منه كالفلتة والزلة تكون من الرجل الى ابويه او احدهما وهو لا يضمر عقوقا ولا يريد بذلك بأسا قال سعيد بن المسيب هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب وقيل الاواب الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها وقال عبيد بن عمير هو الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله وهذه الاقوال متقاربة قال ابن عباس الاوابين المطيعين المحسنين التوابين وقيل المسبحين وقيل المصلين قال عون العقيلي هم الذين يصلون صلوة الضحى وقيل من يصلي بين المغرب والعشاء والاول اولى ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الاقارب بعد التوصية بهما فقال ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ الخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهييجا والهابا لغيره من الامة او لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله وقضى ربك والامر للوجوب عند ابي حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة اقاربه اذا كانوا محارم كالاخ والاخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره الا نفقة الاصول والفروع دون غيرهما من الاقارب اقول المراد بذي القربى اولو القرابة وحقهم هو صلة الرحم التي امر الله بها والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء وكرر الوصية فيها والخلاف بين اهل العلم في وجوب النفقة للقرابة او لبعضهم كالوالدين على الاولاد والاولاد على الوالدين معروف والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما تقتضيه الحال قال ابن عباس امره باحق الحقوق وعلمه كيف يصنع اذا كان عنده وكيف يصنع اذا لم يكن عنده وقال سفيان الثوري من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ حقهما من الزكوة وهذا دليل على ان المراد بما يؤتى ذوي القربى من الحق هو تعهدهم بالمال وعن سفيان في الآية قال هو ان يصل ذا القرابة ويطعم المسكين ويحسن الى ابن السبيل وعن السدي قال والقربى قربى بني عبد المطلب وقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقول ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ولا دل عليه دليل ومعنى النظم القراني واضح ان كان

الخطاب مع كل من يصلح له من الامة لان معناه امر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بان يعطيهم
حقهم وهو الصلة التي امر الله بها وان كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فان كان على وجه التعريض لامته
فالامر فيه كالاول وان كان خطابا له من دون تعريض فامته اسوته فالامر له صلى الله عليه وسلم امر لهم ايضا. ذي القربى
حقه امر لكل فرد من افراد امته والظاهر ان هذا الخطاب ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما قبل الاية وهي
قوله وقضى ربك وما بعدها وهي قوله وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا هو تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير
تعمد لمواقعه وهو الاسراف المذموم لمجاوزته الحد المستحسن شرعا في الانفاق او هو الانفاق في غير الحق وان
كان يسيرا قال الشافعي التبذير انفاق المال في غير حقه ولا تبذير في عمل الخير قال القرطبي وهذا قول
الجمهور قال اشهب عن مالك التبذير هو اخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الاسراف وهو حرام
لقوله إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ فان هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير والمراد بالاخوة المماثلة
التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو اعم من ذلك
كما يدل عليه اطلاق المماثلة والاسراف في الانفاق من عمل الشيطان فاذا فعله احد من بني آدم فقد
اطاع الشيطان واقتدى به وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم
سنة قوم هو اخوهم قال ابن مسعود التبذير انفاق المال في غير حقه وعنه كنا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
نتحدث ان التبذير النفقة في غير حقه وعن ابن عباس قال هم الذين ينفقون المال في غير حقه و
عن علي قال ما انفقت على نفسك واهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك وما انفقت
رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان وقيل هو انفاق المال في العمارة على وجه السرف وقيل لو انفق الانسان
ماله كله في الحق لم يكن مبذرا ولو انفق درهما او مدا في باطل كان مبذرا قيل ان بعضهم انفق نفقة
في خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير ولا مانع من حمل الاية على الجميع
والعموم اولى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا اي لنعم ربه كفورا اي كثير الكفران جحود النعمة عظيم التمرد عن
الحق لانه مع كفره لا يعمل الا شرا ولا يامر الا بعمل الشر ولا يوسوس الا بما لا خير فيه وفي هذه الاية تسجيل على
المبذرين بمماثلة الشياطين ثم التسجيل على جنس الشيطان بانه كفور فاقتضى ذلك ان المبذر مماثل
الشيطان وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك قال الكرخي وكذلك
من رزقه الله جاها او مالا فصرفه الى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لانه موافق للشيطان في الصفة والفعل

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ اي ان اعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل لامر اضطرك الى ذلك الاعراض ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ اي لفقد رزق مِنْ رَبِّكَ ولكنه اقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لان فاقد الرزق مبتغ له تَرْجُوهَا اي ترجوا ان يفتح الله به عليك فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا اي قولا سهلا لينا كالوعد الجميل او الاعتذار المقبول قيل هو ان يقول رزقنا الله واياكم من فضله قال الكسائي يسرت له القول اي لينته قال الفراء معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعسارا فعدهم عدة حسنة ويجوز ان يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا وليس المراد هنا الاعراض بالوجه وفي هذه الآية تاديب من الله سبحانه لعباده اذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبما يردون ولقد احسن من قال شعر ان لا يكن ورق يوما اجود بها * للسائلين فاني لين العود * لا يعدم السائلون الخير من خلقي * اما نوال واما حسن مردود * ولما ذكر الله سبحانه ادب المنع بعد النهي عن التبذير بين ادب الانفاق فقال وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ هذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعريضا لامته وتعليما لهم او الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين والمراد النهي للانسان بان يمسك امساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى اهله ولا يوسع في الانفاق توسيعا لا حاجة اليه بحيث يكون به مسرفا فهو نهي عن جانبي الافراط والتفريط ويحصل من ذلك مشروعية التوسط وهو العدل الذي ندب الله اليه شعر ولا تك فيها مفرطا او مفرطا * كلا طرفي قصد الامور ذميم * وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه مضمومة اليه مجموعة معه في الغل بحيث لا يستطيع التصرف بها ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها مما يقبض الايدي عليه ولا يبقي شيئا في كفه وفي هذا التصوير مبالغة عظيمة بليغة ثم بين سبحانه غاية الطرفين المنهي عنهما فقال فَتَقْعُدَ تصير مَلُومًا مذموما عند الناس بسبب ما انت عليه من الشح او عند الله سبحانه لان الشح غير مرضي لديه او عند نفسك او اصحابك او يلومك سائلوك اذا لم تعطهم مَحْسُورًا بسبب ما فعلته من الاسراف اي منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر والمحسور في الاصل المنقطع عن السير من حسره السفر اذا بلغ منه اي اثر فيه والبعير الحسير هو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير اي كليل منقطع

وقيل معناه نادما على ما سلف منه فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة وفيه نظر لان الفاعل من
الحسرة حسران ولا يقال محسور الا للملوم وفي المختار الحسرة شدة التلهف على الشيء الفائت تقول حسر
على الشيء من باب طرب وحسرة ايضا فهو حسير وحسره غيره تحسيرا وعن سيار ابي الحكم قال اتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم بز من العراق وكان معطاء كريما فقسمه بين الناس فبلغ ذلك قوما من العرب فقالوا انا
نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه قد فرغ منه فانزل الله ولا تجعل يدك الآية اخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر
اقول ولا ادري كيف هذا فالآية مكية ولم يكن اذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل اليه
شيء من العراق ولا مما هو اقرب منه على ان فتح العراق لم يكن الا بعد موته صلى الله عليه وسلم ثم سلى رسوله والمؤمنين
بأن الذي يرهقهم من الاضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال إِنَّ رَبَّكَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اي يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا لكون من
وسع له رزقه مكرما عنده ومن ضيقه عليه هينا لديه ويقدر ويقتر مترادفان قيل ويجوز ان يراد
ان البسط والقبض انما هما من امر الله الذي لا تفنى خزائنه فاما عباده فعليهم ان يقتصدوا وعن الحسن في
الآية قال ينظر له فان كان الغناء خيرا له اغناه وان كان الفقر خيرا له افقره ثم علل ما ذكره من البسط
للبعض والتضييق على البعض بقوله إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا اي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا يخفى ع
عليه خافية من ذلك فهو الخبير باحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في ارزاقهم وفي هذه الآية دليل
على انه المتكفل بارزاق عباده فلذا قال بعدها وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خطاب للموسرين بدليل قوله
خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ اي فاقة وفقر يقع بكم يقال املق الرجل اذا لم يبق له الا الملقات وهي الحجارة العظام
الملس يقال املق اذا افتقر وسلب الدهر ما بيده نهاهم الله سبحانه عن ان يقتلوا اولادهم خشية الفقر وقد كانوا
يفعلون ذلك وقد تقدم في سورة الانعام نهي المعسرين بقوله ولا تقتلوا اولادكم من املاق وفي الكرخي
حاصله ان قتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو
سعي في تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم ثم
بين ان خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك الى قتل الاولاد لا وجه له فان الله سبحانه هو الرازق لعباده
يرزق الابناء كما يرزق الآباء فقال نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع
ثم علل سبحانه النهي عن قتل الاولاد لذلك بقوله إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا قرأ الجمهور بكسر الخاء

وسكون الطاء وقرئ بفتح الخاء والطاء يقال خطئ في دينه خطأ اذا اثم واخطأ اذا سلك سبيل خطأ عامدا او غير عامد قال الازهري خطئ يخطأ خطأ مثل أثم يأثم اثما اذا تعمد الخطأ واخطأ اذا لم يتعمد خطأ والخطأ الاثم يقوم مقام الاخطاء وفيه لغتان القصر وهو الجيد والمد وهو قليل وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمز قال النحاس ليس لهذه القراءة وجه ولذلك جعلها ابو حاتم غلطا ولما نهى سبحانه عن قتل الاولاد المستدعي لافناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضي الى ذلك لما فيه من اختلاط الانساب فقال ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ قربت الامر اقربه من باب تعب وفي لغة من باب قتل قربانا بالكسر فعلته او دانيته ومن الاول هذه الآية ومن الثاني لا تقرب الحمى اي لا تدن منه وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهي عنه بالاولى فان الوسيلة الى الشيء اذا كان حراما كان المتوسل اليه حراما بفحوى الخطاب والزنا فيه لغتان المد والقصر ثم علل النهي عن الزنا بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ اي قبيحا متبالغا في القبح مجاوزا للحد شرعا وعقلا ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ اي بئس طريقا طريقه وذلك لانه يؤدي الى النار ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الادلة ما هو معلوم وهو يشتمل على انواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولده من هو ولا يقوم احد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم وعن السدي في الآية قال يوم نزلت هذه لم تكن حدود فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور وعن ابي بن كعب قال ساء سبيلا الا من تاب فان الله كان غفورا رحيما فذكر لعمر فاتاه فسأله فقال اخذتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لك عمل الا الصفق بالبقيع ولما فرغ سبحانه من ذكر النهي عن القتل لخصوص الاولاد وعن النهي عن الزنا الذي يفضي الى ما يفضي اليه قتل الاولاد من اختلاط الانساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الانفس المعصومة على العموم فقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ اي التي جعلها الله معصومة بعصمة الدين او عصمة العهد والاصل في القتل هو الحرمة الغليظة وحل القتل انما يثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الاسباب العارضية فقال ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ اي الا بسبب الحق كالردة والزنا من المحصن وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ اي لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب متلبس بالحق او الا متلبسين بالحق وقد تقدم الكلام في هذا في الانعام وعن الضحاك قال هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها وهو اول شيء نزل

من القرآن في شأن القتل كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
الله من قتلكم من المشركين فلا تقتلوا الا قاتلكم وهذا قبل ان تنزل براءة وقبل ان يؤمر بقتال المشركين
فذلك قوله فلا يسرف في القتل انه كان منصورا يقول لا تقتل غير قاتلك وهي اليوم على ذلك الموضع
من المسلمين لا يحل لهم ان يقتلوا الا قاتلهم ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا
اي لا بسبب من الاسباب المسوغة لقتله شرعا وهو احد ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان و
قتل مؤمن معصوم عمدا كما في الحديث فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ اي لمن يلي امره من ورثته ان كانوا موجودين
اي لمن له سلطان ان لم يكونوا موجودين سُلْطَانًا اي تسلطا على القاتل ان شاء قتل وان شاء عفا
وان شاء اخذ الدية قال ابن عباس سلطانا بينة من الله انزلها يطلبها ولي المقتول القود او العقل
وذلك السلطان ثم لما بين اباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول او ما هو عوض عن القصاص
نهاه عن مجاوزة الحد فقال فَلَا يُسْرِفْ اي لا يجاوز الولي اباحة الله له فِي الْقَتْلِ فيقتل بالواحد الاثنين
او جماعة او يمثل بالقاتل او يعذبه وقرأ الجمهور بالتحتية وقرئ بالفوقية فهو خطاب للقاتل الاول
ونهي له عن القتل اي فلا تسرف ايها القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فان عليك القصاص مع ما
عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته وقال ابن جرير الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللائمة من بعده اي
لا تقتل يا محمد غير القاتل ولا تفعل ذلك الائمة بعدك وفي قراءة ابي لا تسرفوا قال مجاهد معنى لا يسرف
لا يكثر ولا يقاتل الا قاتل رحمه وعن زيد بن اسلم ان الناس في الجاهلية كانوا اذا قتل الرجل من القوم
رجلا لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا به رجلا اشرف منه واذا كان قتيلهم شريفا لم يقتلوا قاتلهم وحده بل قتلوا معه غيره
فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه فلا يسرف في القتل ثم علل النهي عن السرف فقال إِنَّهُ يعني ولي المقتول
كَانَ مَنْصُورًا اي مؤيدا معانا فان الله سبحانه قد نصره باثبات القصاص له او الدية بما ابرزه من
الحجج واوضحه من الادلة وامر اهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ويجوز ان يكون الضمير
راجعا الى المقتول ظلما اي ان الله نصره بوليه يعني منصورا في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي
الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله قيل وهذه الآية من اول ما نزل من القرآن في شأن
القتل لانها مكية كما تقدم ولما ذكر سبحانه النهي عن اتلاف النفوس اتبعه بالنهي عن اتلاف الاموال
وكان اهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ الخطاب لاولياء اليتيم والنهي

عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة واتلافه قال قتادة كانوا لا يخالطونهم في مال ولا ماكل ولا
مركب حتى نزلت وان تخالطوهم فاخوانكم ثم بين سبحانه ان النهي عن قربانه ليس المراد منه النهي عن مباشرته
فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم ان يفعل في مال اليتيم ما يصلحه وذلك يستلزم مباشرته فقال
إِلَّا بِالَّتِي اي الا بالخصلة التي هِيَ أَحْسَنُ من جميع الخصال وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما
يزيد به والانفاق عليه بالمعروف ثم ذكر غاية النهي عن قربان مال اليتيم فقال حَتَّىٰ يَبْلُغَ اي
لا تقربوه حتى يبلغ اليتيم أَشُدَّهُ فاذا بلغ اشده كان لكم ان تدفعوه اليه او تتصرفوا فيه باذنه لان
التصرف له حينئذ والاشد مفرد بمعنى القوة وقيل جمع لا واحد له من لفظه وقيل جمع شدة
بكسر الشين وقيل جمع شد كذلك وقيل جمع بغضها وعلى كل فالمراد به القوة وكمال عقله ورشده
بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر وان كان الاشد في الاصل عبارة عن بلوغ
ثلاث وثلثين سنة وقيل هي ثماني عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى
في الانعام وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ قد تقدم الكلام فيه في غير موضع قال الزجاج كل ما امر الله به ونهى عنه
فهو من العهد فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم لبعض والوفاء بالعهد
هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي الا اذا دل دليل خاص على جواز النقض إِنَّ الْعَهْدَ
كَانَ مَسْئُولًا عنه فالمسئول هنا هو صاحبه وقيل ان العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال فيم نقضت كالموؤدة
تسئل فيم قتلت فان كان سؤال العهد تخييلا او سؤال الموؤدة تحقيقا قال سعيد بن جبير ان الله يسأل
ناقض العهد عن عهده وعن ابن جريج قال يسأل عهده من اعطاه اياه وَأَوْفُوا الْكَيْلَ اي اتموه ولا
تخسروه عطاب للبائعين إِذَا كِلْتُمْ اي وقت كيلكم للناس واخذ من هذا بعضهم ان اجرة الكيال
على البائع لانها من تمام التسليم وكذلك عليه اجرة النقاد للثمن وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ قال الزجاج هو ميزان العدل اي ميزان كان صغيرا او كبيرا
من موازين الدراهم وغيرها وفيه لغتان ضم القاف وكسرها وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون قاله
الضحاك وقيل هو العدل نفسه قاله مجاهد وهي لغة الروم قاله ابن جبير وقيل لغة سريانية ثم
عربت ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لان العجمي اذا استعملته العرب واجرته مجرى كلامهم في الاعراب
والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا كذا قالوا لا صح انه عربي ماخوذ من القسط وهو العدل والتفاوت

الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعيا في ابقاء الاموال على اربابها ﴿ذٰلِكَ﴾ اي ايفاء الكيل والوزن بالميزان المستوي ﴿خَيْرٌ﴾ لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وَّاَحْسَنُ تَاْوِيْلًا﴾ اي عاقبة من آل اذا رجع يعني وفاء الكيل والميزان خير من النقصان ثم امر سبحانه باصلاح اللسان والقلب فقال ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهٖ عِلْمٌ﴾ اي لا تتبع ما لا تعلم وهو ماخوذ من قولك قفوت فلانا اذا اتبعت اثره ومنه قافية الشعر لانها تقفو كل بيت ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار اقدام الناس وحكى ابن جرير عن فرقة انها قالت قفى وقاف مثل عثى وعاث وقال منذر بن سعيد البلوطي قفى وقاف مثل جذب وجبذ وقيل مجزوم بحذف الواو من بابي صدا وسما اي لا تقل رايت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم معنى الآية النهي عن ان يقول الانسان ما لا يعلم او يعمل بما لا علم له وهذه قضية كلية وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بامور فقال ابن عباس لا تذم احدا بما ليس لك به علم وقيل هي في شهادة الزور قاله محمد بن الحنفية وقيل هي في القذف وقال القتيبي معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون وهذا صواب فان ما عدا ذلك هو العلم وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان او ظنيا قال ابو السعود في تفسيره واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه واقول ان هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ولكنها عامة مخصصة بالادلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا يخرج من عمومها ومن عموم ان الظن لا يغني من الحق شيئا الا ما قام دليل جواز العمل به فالعمل بالرأي في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله لمعاذ لما بعثه قاضيا بم تقضي قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال اجتهد رائي وهو حديث صالح للاحتجاج به كما اوضح الشوكاني ذلك في بحث مفرد واما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب او السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولا اوليا لانه محض رأي في شرع الله وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم تدع اليه حاجة

على ان الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل انما هو رخصة للمجتهد يجوز له ان يعمل به ولم يدل دليل على انه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع وبهذا يتضح لك اتم اتضاح ويظهر لك اكمل ظهور ان هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ظلمات بعضها فوق بعض وقد قيل ان هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك اصلا ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ اي القلب ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ اي كل واحد من الحواس الثلاثة واجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن احوالها شاهدة على اصحابها وقال الزجاج ان العرب تعبر عما لا يعقل وعما يعقل بأولئك والضمير في كان يرجع الى كل وكذا الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله لا تقف وقوله عنه في محل رفع لاسناد ﴿مَسْئُولًا﴾ اليه ورد بما حكاه النحاس من الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا قيل والاولى ان يقال انه فاعل مسئول المحذوف والمذكور مفسر له ومعنى سؤال هذه الجوارح انه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لانها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني فان استعملها في الخير استحق الثواب وان استعملها في الشر استحق العقاب وهو اختيار الزمخشري وقيل ان الله سبحانه ينطق الاعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وعليه جرى القاضي فتسئل مجازا توبيخا لاصحابها وهذا ابلغ مما قبله وفي الآية دليل على ان العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قيل هو شدة الفرح وقيل التكبر في المشي وقيل تجاوز الانسان قدره وقيل الخيلاء في المشي وقيل البطر والاشر وقيل النشاط والظاهر ان المراد به الخيلاء والفخر قال الزجاج في تفسير الآية لا تمش في الارض مختالا فخورا وذكر الارض مع ان المشي لا يكون الا عليها او على ما هو معتمد عليها تاكيدا وتقريرا ولقد احسن من قال شعر

ولا تمش فوق الارض الا تواضعا + فكم تحتها قوم هم منك ارفع +
وان كنت في عز وحرز ومنعة + فكم مات من قوم هم منك امنع +

ومرحا مصدر وقع حالا اي ذا مرح اي مارحا متلبسا بالكبر والخيلاء وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تاكيد وقرئ مرحا بفتح الراء ومرحا بكسرها على انه اسم فاعل ثم علل سبحانه هذا النهي فقال ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يقال

يقال خرق الثوب اي شقه وخرق الارض قطعها والخرق الواسع من الارض والمعنى انك لن
تخرق الارض بمشيك عليها تكبرا حتى تبلغ آخرها وفيه تهكم بالمختال المتكبر وقيل المراد بخرق الارض
نقبها لا قطعها بالمسافة وقال الازهري خرقها قطعها قال النحاس وهذا بين كانه ماخوذ من
الخرق وهو الفتحة الواسعة ويقال فلان اخرق من فلان اي اكثر سفرا ولن تبلغ الجبال طولا
اي ولن تبلغ قدرتك الى ان تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر والاختيال
فلا قوة لك حتى تخرق الارض بالمشي عليها ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بكبرك
فما الحامل لك على ما انت فيه وانت احقر واصغر من كل واحد من الجمادين فكيف يليق بك
الكبر كل ذلك اي جميع ما تقدم ذكره من الاوامر والنواهي الخمس والعشرين او ما نهي عنه فقط
من قوله ولا تقف ولا تمش كان سيئه عند ربك على اضافة سيئ الى الضمير ويؤيد هذه القراءة
قوله مكروها فان السيئ هو المكروه ويؤيدها ايضا قراءة أبي كان سيئاته وقرأ نافع وغيره سيئة
على انها واحدة السيئات ومكروها خبر كان او بدل من سيئة ورجح ابو علي الفارسي البدل وقد
قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى قال الزجاج والاضافة احسن لان ما تقدم من الآيات
فيها سيئ وحسن فسيئه المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه ومن قرأ بالتنوين جعل كل ذلك
احاطة بالمنهي عنه دون الحسن والمعنى كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروها والمكروه على هذا
بدل من السيئة وليس بنعت والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه لا انه غير
مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على ان الاشياء واقعة بارادته سبحانه وذكر مطلق الكراهة
مع ان في الاشياء المتقدمة ما هو من الكبائر اشعارا بان مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع
واجتنابه لذلك والحاصل ان في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به وما هو مكروه وهو المنهي عنه
فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله كل ذلك الى جميع الخصال حسنها ومكروهها ثم الاخبار
بما هو سيئ من هذه الاشياء وهو المنهي عنه عند الله وعلى قراءة الافراد تكون الاشارة الى المنهيات
ثم الاخبار عن هذه المنهيات بانها سيئة مكروهة عند الله ذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من قوله
لا تجعل مع الله الى هذه الغاية مما اوحى اليك ربك اي من جنسه او بعض منه وهو ثابت في جميع
الشرائع لم ينسخ وذكرها في ثمان عشرة آية اولها لا تجعل وذكر في التوراة في عشر الواح من الحكمة

حكمة لأنه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها الفساد وعند
الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به قاله البيضاوي فالتوحيد من القسم الأول
وباقي التكاليف من القسم الثاني وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريراً و
تنبيهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته ومبدأ الأمر ومنتهاه وعلى أنه ملاك الحكمة وأسها قيل
وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً وذلك إشارة إلى حال
الشرك في الدنيا ورتب على الثاني ما هو نتيجته في العقبى فقال فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا تلوم نفسك مَّدْحُورًا
مبعداً من رحمة الله مطروداً وفي القعود هناك والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة
اختيار بخلاف الآخرة أَفَأَصْفَاكُمْ أي خصكم قاله أبو عبيدة وقال المفضل أخلصكم رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا أي بنات، الخطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله وفيه توبيخ شديد وتقريع
بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل والفاء للعطف على مقدر كنظائره مما قد
كررناه إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا بالغاً في العظم والجرأة على الله إلى مكان لا يقادر قدره بإضافة الأولاد
إليه وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون
ثم بجعل الملائكة الذين هم أشرف الخلق أدونهم وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ أي بينا وكررنا ضروب
القول فيه من الأمثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والأخبار والأوامر والنواهي وغيرها وقيل في
زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة إلى جهة والتشديد
فيه للتكثير والتكرير وقيل معنى التصريف المغايرة أي غايرنا بين المواعظ ثم علل سبحانه ذلك فقال
لِيَذَّكَّرُوا أي ليتعظوا ويعتبروا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه
وَالحال أن هذا التصريف والتذكير مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا للحق تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في
الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر وهم لا ينزعون عن هذه الغواية
ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية وكان الثوري إذا قرأها يقول زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك
نفوراً قُل لهم في شأن الاستدلال على إبطال التعدد الذي زعموه وإثبات الوحدانية لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ
كَمَا أي كوناً مشابهاً لما يَقُولُونَ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة قرئ بالتحتية وبالفوقية
على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى إِذًا قال الزمخشري هي دالة على أن ما بعدها وهو

لَابْتَغَوْا جواب لمقالة المشركين وجزاء للو اِلٰى ذِي الْعَرْشِ هو الله سبحانه سَبِيْلًا طريقا للمغالبة و
للمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند
تفردهم وقيل معناه اذن لابتغت الالهة الى الله القربة والزلفة عنده لانهم دونه والمشركون
انما اعتقدوا انها تقربهم الى الله والظاهر المعنى الاول ومثله معنى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله
لفسدتا وحاصل الدليل انه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم وحذف
منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقا الى قتاله فلم يكن هناك تعدد
ثم نزه تعالى نفسه فقال سُبْحَانَهٗ والتسبيح التنزيه وقد تقدم مرارا وَتَعَالٰى اي تباعد عَمَّا يَقُوْلُوْنَ
من الاقوال الشنيعة والفرية العظيمة عُلُوًّا اي تعاليا ولكنه وضع العلو موضع التعالي كقوله والله
انبتكم من الارض نباتا كَبِيْرًا وصف العلو بالكبير مبالغة في النزاهة وتنبيها على ان بين الواجب
لذاته والممكن لذاته وبين الغني المطلق والفقير المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها ثم بين سبحانه
جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ قال فيهن
بضمير العقلاء لاسناده اليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء وقد اخبر سبحانه عن السموات و
الارض بانها تسبحه وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والانس والجن
وغيرهم من الاشياء التي لا تعقل ففيه دلالة على ان الاكوان باسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة
ولكن المشركين لا يفهمون تسبيحها فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله
مع ان كل شيء من عدادهم ينزهه عن كل نقص اخرج سعيد بن منصور وابن ابي حاتم والطبراني
وابو نعيم في الحلية والبيهقي في الاسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة اسري به الى المسجد الاقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات
العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحا في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة
مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الاعلى سبحانه وتعالى واخرج ابن مردويه عن انس ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو جالس مع اصحابه اذ سمع هدة فقال اطت السماء ويحقها ان تئط
والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر الا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده ثم زاد ذلك
تعميما وتاكيدا فقال وَاِنْ مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا يُسَبِّحُ متلبسا بِحَمْدِهٖ فيشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان

ضوء الباب ونقيض السقف وتسبيحها سبحان الله وبحمده وقيل انه يحمل قوله ومن فيهن على
الملائكة والثقلين ويحمل قوله وان من شيء على ما عدا ذلك من المخلوقات وقد اختلف اهل العلم
في هذا العموم هل هو مخصوص ام لا فقالت طائفة ليس بمخصوص وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة
لان كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بان الله خالق قادر وقالت طائفة هذا التسبيح على
حقيقته والعموم على ظاهره والمراد ان كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وان كان البشر
لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفقهونه لكونه بغير لغاتهم وهذا يقتضي ان تسبيح
الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن واثبته باحاديث متعددة قال في الجمل وهو قريب جدا
ويؤيد هذا قوله سبحانه وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ بالتاء والياء تَسْبِيحَهُمْ فانه لو كان المراد تسبيح الدلالة
لكان امرا مفهوما لكل احد واجيب بان المراد بقوله لا تفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار
وقالت طائفة هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات وقيل خاص بالاجسام
النامية فيدخل النباتات كما روي هذا القول عن عكرمة والحسن وخصا تسبيح النباتات بوقت
نموها لا بعد قطعها وقد استدل لذلك بحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على قبرين وفيه ثم دعا
بعسيب رطب فشقه باثنين وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا ويؤيد حمل الاية على العموم قوله انا
سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق وقوله وان منها لما يهبط من خشية الله وقوله وتخر
الجبال هدا ونحو ذلك من الايات وثبت في الصحيح انهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا حديث حنين الجذع وحديث ان حجرا بمكة كان يسلم على النبي
صلى الله عليه وسلم وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم ومدافعة عموم هذه الاية بمجرد
الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده قال السدي ما اصطيد
حوت في البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فمن حلمه الامهال
لكم وعدم انزال عقوبته عليكم على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ
من تاب منكم اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن جابر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الا اخبركم بشيء امر به نوح ابنه ان نوحا قال لابنه يا بني آمرك ان تقول سبحان الله فانها
صلوة الخلائق وتسبيح الخلق وبها ترزق الخلق قال الله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده واخرج البخاري

وسلم وغيرهما عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصت نملة نبيا من الانبياء فامر
بقرية النمل فاحرقت فاوحى الله اليه من اجل نملة واحدة احرقت امة من الامم تسبح واخرج
النسائي وابو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمرو قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها
تسبيح واخرج ابو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال الزرع يسبح واجره لصاحبه والثوب
يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمنا فاغسلني اذن وعنه قال كل شيء يسبح الا الكلب والحمار اخرجه ابو الشيخ
وعن الحسن قال هذه الاية في التوراة كقدر الف اية وان من شيء الا يسبح بحمده قال في التوراة تسبح
له الجبال وتسبح له الشجر ويسبح له كذا وكذا وفي الباب احاديث وروايات عن السلف فيها تصريح بتسبيح
جميع المخلوقات ولما فرغ سبحانه من الالهيات شرع في ذكر بعض من ايات القران وما يقع من سامعيه
فقال وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وهم المنكرون للبعث
حِجَابًا مَسْتُورًا يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به اي انهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك
كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك ذكر معناه الزجاج وغيره ومعنى مستورا ساترا قال
الاخفش والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول انك لمشؤم وميمون وانما هو شائم ويامن وقيل
معناه ذا ستر كقولهم سيل مفعم اي ذو افعام وقيل هو حجاب لا تراه الاعين فهو مستور عنها وقيل
حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم قال السيوطي نزل فيمن اراد
الفتك به صلى الله عليه وسلم انتهى كابي جهل وام جميل زوجة ابي لهب والمراد ما في الاية مطلق القران او ثلث ايات مشهورات من النحل والكهف
والجاثية وهي في سورة النحل اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم الاية وفي سورة الكهف
وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه الاية وفي حم الجاثية افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على
علم الاية فكان الله تعالى يحجبه ببركة هذه الايات عن عيون المشركين ذكره الخطيب في القرطبي قلت
ويزاد الى هذه الايات اول سورة يس الى قوله فهم لا يبصرون فان في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام
علي في فراشه قال وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ حفنة من تراب في يده واخذ الله على ابصارهم فلا
يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم وهو يتلو هؤلاء الايات من يس حتى فرغ ولم يبق منهم
رجل الا وقد وضع على راسه ترابا ثم انصرف الى حيث اراد ان ينصرف وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
جمع كنان وهي الاغطية وقد تقدم تفسيره في الانعام وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم

قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب أَن يَفْقَهُوهُ اي كراهة ان يفقهوه او
لئلا يفقهوه اي يفهموا ما فيه من الاوامر والنواهي والحكم والمعاني وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
اي صمما وثقلا كراهة ان يسمعوه او لئلا يسمعوه ومن قبائح المشركين انهم كانوا يحبون ان يذكر
آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فاذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس كما قال تعالى وَإِذَا ذَكَرْتَ
رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ يقال وحد يحد وحدا وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد
الحال اصله يحد وحده بمعنى واحدا وقال يونس منصوب على الظرف وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا هو مصدر
بمعنى التولية والتقدير هربوا نفورا او نفروا نفورا وقيل جمع نافر كقاعد وقعود قاله البيضاوي والشهاب
والاول اولى والمعنى ولوا نافرين قال ابن عباس ولوا نفور الشياطين نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا اي بالحال الذي
يَسْتَمِعُونَ القرآن بِهِ اي بسببه والباء بمعنى اللام وعبارة الكواشي بما يستمعون به هازئين قال
الزمخشري يستمعون بالهزء إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ متلبسين به من الاستخفاف بك وبالقرآن و
اللغو في ذكرك لربك وحده وفيه تاكيد للوعيد وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ اي ونحن اعلم بما يتناجون به
فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء إِذْ بدل من إذ قبله
يَقُولُ الظَّالِمُونَ اي الوليد بن المغيرة واصحابه إِن تَتَّبِعُونَ اي يقول كل منهم للآخرين عند
تناجيهم ما تتبعون إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا اي سحر فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال قال ابن الاعرابي
المسحور الذاهب العقل الذي افسد من قولهم طعام مسحور اذا افسد عمله وارض مسحورة اصابها من المطر
اكثر مما ينبغي فافسدها وقيل هو المخدوع لان السحر الحيلة والخديعة وذلك لانهم زعموا ان محمدا صلى الله
عليه وسلم كان يتعلم من بعض الناس وكانوا يخدعونه بذلك التعليم وقال ابو عبيدة معنى مسحورا
ان له سحرا اي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وتقول العرب للجبان قد انتفخ سحره
ولكل من كان يأكل من آدمي او غيره مسحور قال ابن قتيبة لا ادري ما حمله على هذا التفسير المستكره
مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ اي قالوا تارة انك كاهن
وتارة ساحر وتارة شاعر وتارة مجنون فَضَلُّوا عن طريق الصواب في جميع ذلك وحادوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا الى الهدى او الحق او الطعن الذي تقبله العقول السليمة ويقع التصديق له لا اصل الطعن فقد
ضلوا منه ما قدروا عليه وقيل لا يستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم ساحر كاهن مجنون شاعر

ولما فرغ سبحانه من حكاية شبهة القوم في النبوات حكى شبهتهم في امر المعاد فقال وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة وتقرير الشبهة ان الانسان اذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت بسائطها بامثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها باعيانها ثم عود الحياة الى ذلك المجموع فاجاب سبحانه عنهم كما سيأتي بان اعادة بدن الميت الى حال الحياة امر ممكن ولو فرضتم ان بدنه قد صار ابعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد فهو كقول القائل اتطمع فيّ وانا ابن فلان فيقول كن ابن السلطان او ابن من شئت فسأطلب منك حقي والرفات ما تكسر وبلي من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض قاله ابو عبيدة والكسائي والفراء والاخفش يقول منه رفت الشيء رفتا اي حطم فهو مرفوت وقيل الرفات الغبار قاله ابن عباس وقيل التراب قاله مجاهد ويؤيده انه تكرر في القرآن ترابا وعظاما وقيل الرفات هو ما بولغ في دقه وتفتيته وهو اسم لاجزاء ذلك الشيء المفتت اي اجزاء متفتتة أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تاكيدا وتقريرا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا قال ابن جرير معناه ان عجبتم من انشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا انتم حجارة في الشدة او حديدا في القوة ان قدرتم على ذلك وقال علي بن عيسى معناه انكم لو كنتم حجارة او حديدا لم تفوتوا الله عز وجل اذا اراد حكمه الا انه خرج مخرج الامر لانه ابلغ في الالزام وقيل معناه لو كنتم حجارة او حديدا لاعادكم كما بدأكم ولاماتكم ثم احياكم قال النحاس وهذا قول حسن لانهم لا يستطيعون ان يكونوا حجارة او حديدا وانما المعنى انهم قد اقروا بخالقهم وانكروا البعث فقيل لهم استشعروا ان تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة او حديدا لبعثتم كما خلقتم اول مرة فليس المراد الامر وانما عبر فيه بمادة الكون لتعبيرهم بها في سؤالهم قلت وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ اي يعظم عندكم مما هو اكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم مبعوثون لا محالة وقيل المراد به السموات والارض والجبال لعظمها في النفوس وقال جماعة من الصحابة والتابعين المراد به الموت لانه ليس شيء اكبر في نفس ابن آدم منه والمعنى لو كنتم الموت لاماتكم الله ثم بعثكم ولا يخفى ما في هذا من البعد لان معنى الآية الترقي من الحجارة الى الحديد ثم من الحديد الى ما هو اكبر في صدور القوم منه والموت نفسه ليس بشيء

يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد اليه فسيقولون من يعيدنا الى الحيوة اذا كنا عظاما ورفاتا او حجارة او حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت قل يعيدكم الذي فطركم خلقكم واخترعكم اول مرة اي عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة فمن قدر على البدء او الانشاء قدر على الاعادة بل هي اهون فسينغضون اليك رؤسهم اي يحركونها استهزاء يقال نغض راسه ينغض نغضا ونغوضا اذا اضطرب وانغض راسه حركه كالمتعجب من الشيء ويقولون استهزاء وسخرية متى هو اي البعث والاعادة قل عسى ان يكون قريبا اي هو قريب لان عسى في كلام الله واجب الوقوع ومثله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وكل ما هو آت قريب يوم يدعوكم الظرف منتصب بفعل مضمر اي اذكروا او بدل من قريبا والتقدير يوم يدعوكم كان ما كان والدعاء النداء الى المحشر بكلام يسمعه الخلائق وقيل هي الصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم الى الاجتماع في ارض المحشر وقيل ان المنادي جبريل وان النافخ اسرافيل وصورة الدعاء والنداء ان يقول ايتها العظام البالية والاوصال المنقطعة واللحوم المتفرقة والشعور المتفرقة ان الله يامركن ان تجتمعن لفصل القضاء قال الجلال المحلي في سورة ق فتستجيبون بحمده منقادين له حامدين لما فعله بكم وقيل المعنى فتستجيبون والحمد لله اوله الحمد وقد روي ان الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك قاله سعيد بن جبير وقيل المراد بالدعاء هنا البعث وبالاستجابة انهم يبعثون فالمعنى يوم يبعثكم فتبعثون منقادين والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة الا ان الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي اوكد من الاجابة وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين قال ابن عباس معنى بحمده بامره وقال قتادة بمعرفته وطاعته وتظنون عند البعث ان لبثتم ان نافية وهي معلقة للظن عن العمل وقل من يذكر ان النافية في ادوات تعليق هذا الباب اي ما لبثتم في الدنيا او في قبوركم الا زمنا قليلا وقيل بين النفختين وذلك ان العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين وذلك اربعون عاما ينامون فيها فلذلك قالوا من بعثنا من مرقدنا وقيل ان الدنيا تحقرت في اعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة قاله قتادة وقل يا محمد صلى الله عليه وسلم لعبادي المؤمنين يقولوا لمن يحاورهم من المشركين الكلمة التي هي احسن من غيرها من الكلام الخشن كان يقولوا لهم يهديكم الله فانه يحصل المقصود مع ان عاقبتهم مغيبة عنا

كقوله سبحانه ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن وقوله فقولا له قولا لينا لان المخاشنة لهم
ربما تنفرهم عن الاجابة او تؤدي الى ما قال سبحانه ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا
بغير علم وهذا كان قبل نزول اية السيف وقيل المعنى قولوا لهم يامركم الله بكذا وينهاكم عن كذا
وقيل هذه الاية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والاول اولى كما يشهد له السبب قال ابن سيرين
يعني لا اله الا الله وعن ابن جريج في الاية قال يعفون عن السيئة وعن الحسن قال يقول له يرحمك
الله يغفر الله لك إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ بالفساد والقاء العداوة والاغراء فلعل المخاشنة
معهم تفضي الى العناد وازدياد الفساد قال اليزيدي نزغ بيننا اي افسد وقال غيره النزغ الاغراء قال
قتادة نزغ الشيطان تحريشه وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه واغتابه وبينهم افسد واغرى
ووسوس إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا اي متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها وهو تعليل
لما قبله وقد تقدم مثل هذا في البقرة رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ اي بعاقبة امركم كما يدل عليه قوله إِن يَشَأْ
يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ قيل هذا خطاب للمشركين والمعنى ان يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم
او يميتكم على الشرك فيعذبكم وقيل هو خطاب للمؤمنين اي ان يشأ يرحمكم بان يحفظكم من الكفار
او يرحمكم بالتوبة والايمان وان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم وقيل ان هذا تفسير للكلمة التي هي احسن
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا اي ما وكلناك في منعهم من الكفر وقسرهم على الايمان وقيل ما
جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم قيل نسختها اية القتال وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خالقا
وحالا واستحقاقا فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء وهو رد لاستبعاد قريش ان يكون يتيم ابي طالب
نبيا وان يكون العراة الجوع اصحابه قاله البيضاوي اقول عبر بهذه العبارة حكاية عن الكفار والا فلا
يجوز اطلاقها على النبي صلعم حتى انه افتى بعض المالكية بقتل قائلها كما في الشفاء فكان ينبغي له تركها
وفي هذه الباء قولان اشهرهما انها تتعلق باعلم ولا يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما فقط والثاني
انها متعلقة بيعلم مقدرا قاله الفارسي محتجا بانه يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما وهو وهم
لانه لا يلزم من ذكر الشيء نفي الحكم عما عداه وهذا هو الذي يقول الاصوليون انه مفهوم اللقب ولم يقل به
الا ابو بكر الدقاق في طائفة قليلة والاصح خلافه فالجمهور على ان اللقب لا يحتج به قاله الكرخي وتمام هذا
البحث في كتابنا حصول المأمول من علم الاصول فارجعه وهذه الاية اعني قوله ربكم اعلم بكم الى

هذا يشمل كل ما في السموات والارض من مخلوقاته وذلك خاص ببني آدم او ببعضهم وهذا كالتوطية لقوله وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ اي ان هذا التفضيل عن علم منه بمن هو اعلى رتبة وبمن هو دونه وبمن هو يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله اي فخصهم بما شاء على قدر احوالهم قيل يعني بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع حتى داؤد عليه السلام فان شرفه بما اوحي اليه من الكتاب كما يأتي لا بما اوتيه من الملك وقيل هو اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم هذا في البقرة وقد اتخذ الله ابراهيم خليلا وموسى كليما وجعل عيسى كلمته وروحه وجعل سليمان على نبينا وعليهم الصلوة والتسليمات ملكا عظيما وغفر لمحمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر وجعله سيد ولد آدم وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل ثم ذكر ما فضل به داؤد فقال وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا اي كتابا مزبورا قال الزجاج اي فلا تنكروا تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن فقد اعطى الله داؤد زبورا وفيه دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان امته خير الامم لان ذلك مكتوب في الزبور قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهو محمد صلى الله عليه وسلم وامته وانما خص كتاب داؤد بالذكر لان اليهود زعمت انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله هذا وتعريف الزبور تارة وتنكيره اخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول او مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد ايتاء داؤد زبورا من الزبر فيه ذكره صلى الله عليه وسلم قال قتادة كنا نحدث ان الزبور دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا احكام وعن الربيع بن انس قال الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح قلت الامر كما قاله قتادة والربيع فانا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطبها داؤد عليه السلام ويخاطب بها ربه عند دخوله الكنيسة وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الاولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء ففي بعض هذه الخطب يشكو داؤد على ربه من اعدائه ويستنصره عليهم وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع له من النصر عليهم والغلبة لهم وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة وهي آلة من آلات الملاهي وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون الفاظا وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة فقد اغنى عنها

وعن غيرها مما اشتمل عليه القران من المواعظ والزواجر قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ هذا رد
على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على انها صور الملائكة وعلى طائفة من اهل الكتاب كانوا
يقولون بالهية عيسى ومريم وعزير فامر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بان يقول لهم ادعوا الذين زعمتم
انهم آلهة من دون الله وقيل اراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عبدهم ناس من العرب قال ابن عباس
كان اهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرا والشمس والقمر وانما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله
الآتي يبتغون الى ربهم الوسيلة فان هذا لا يليق بالجمادات روي معنى ذلك عن ابن مسعود فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا اي لا يستطيعون ذلك والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر وعلى
تحويله من حال الى حال ومن مكان الى مكان فوجب القطع بان هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة ثم انه
سبحانه اكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم الى الله في جلب المصالح ودفع المضار فقال أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ قرئ بالتحتية على الخبر وقرأ ابن مسعود بالفوقية على الخطاب ولا خلاف في يَبْتَغُونَ
انه بالتحتية والضمير في إِلَى رَبِّهِمُ يعود الى العابدين او المعبودين الْوَسِيلَةَ هي القربة بالطاعة والعبادة
اي يتضرعون الى الله في طلب ما يقربهم اليه اخرج الترمذي وابن مردويه عن ابي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله لي الوسيلة قالوا وما الوسيلة قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ بالوسيلة الى الله قاله الزجاج اي يتقرب اليه بالعمل الصالح او يبتغي من هو اقرب اليه
تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون اي يحرصون ايهم اقرب اليه
سبحانه بالطاعة والعبادة وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ كما يرجوها غيرهم وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ كما يخافه غيرهم فكيف
يزعمون انهم آلهة لان الاله يكون غنيا بالغنى المطلق إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا تعليل لقوله
يخافون اي ان عذابه سبحانه حقيق بان يحذره العباد من الملائكة والانبياء وغيرهم ثم بين سبحانه
مآل الدنيا واهلها فقال وَإِنْ نافية للاستغراق مِنْ اي ما من قَرْيَةٍ اي قرية كانت من قرى الكفار
إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قال الزجاج اي ما من اهل قرية الا سيهلكون اما بموت او خراب واما بعذاب مستأصلهم
وانما قال قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لان اهلاك يوم القيامة ليس يختص بالقرى الكافرة بل يعم كل قرية لانقضاء
عمر الدنيا أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا بالقتل وانواع العقاب اذا كفروا وعصوا وقيل الاهلاك
للصالحة والتعذيب للطالحة والاول اولى لقوله عز وجل وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون

قال ابن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية اذن الله في هلاكها وقد ذكر في المدارك عن مقاتل
في تفسير هذه الاية عن كتب الضحاك خراب كل قرية خاصة وبلدة معينة بنوع خاص من العذاب
وقسم مخصوص من الهلاك وليس بمرفوع حتى يعتمد عليه او يصار اليه كَانَ ذٰلِكَ المذكور من الاهلاك
والتعذيب فِي الْكِتَابِ اي اللوح المحفوظ قاله ابراهيم التيمي مَسْطُوْرًا اي مكتوبا والسطر الخط وهو في
الاصل مصدر والسطر بالتحريك مثله والسطر جمع اسطار وجمع السطر بالسكون اسطر عن عبادة
بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما اكتب قال اكتب القدر
وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد اخرجه الترمذي وَمَا مَنَعَنَآ اَنْ نُّرْسِلَ بِالْاٰيٰتِ اِلَّآ اَنْ كَذَّبَ
بِهَا الْاَوَّلُوْنَ قال المفسرون ان اهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي
عنهم جبال مكة فاتاه جبريل فقال ان شئت كان ما سأله قومك ولكنهم ان لم يؤمنوا لم يمهلوا
وان شئت استأنيت بهم فانزل الله هذه الاية روى معنى هذا احمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس
واخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن انس قال قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو جئتنا باية كما جاء بها
صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان شئتم دعوت الله فانزلها عليكم فان عصيتم هلكتم
فقالوا لا نريدها والمعنى وما منعنا من ارسال الايات التي سألوها الا تكذيب الاولين فان ارسلناها
وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده فالمنع مستعار للترك والاستثناء
مفرغ من اعم الاشياء اي ما تركنا ارسالها لشيء من الاشياء الا تكذيب الاولين فان كذب بها هؤلاء
كما كذب بها اولئك لحل بهم ما حل بهم لاشتراكهم في الكفر والعناد والحاصل ان المانع من ارسال الايات
التي اقترحوها هو ان الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستيصال وقد عزمنا على ان
نؤخر امر من بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل معنى الاية ان هؤلاء الكفار من قريش و
نحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن اولئك فيكون ارسال الايات ضائعا ثم انه
سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته فانهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها
التي قد بينت في محل اخر واعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استوصلوا بالعذاب وانما خص قوم
صالح بالاستشهاد لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وامثالهم يبصرها صادرهم
وواردهم فقال وَاٰتَيْنَا ثَمُوْدَ النَّاقَةَ اٰيَةً مُبْصِرَةً اي ذات ابصار يدركها الناس بابصارهم كقوله

وجعلنا آية النهار مبصرة او اسند اليها حال من يشاهد حالها اذا او انها جعلتهم ذوي ابصار من ابصره اذا جعله بصيرا فظلموا بها اي بتكذيبها او فجحدوا بها او كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر او الجحد فعاجلناهم بالعقوبة وما نرسل بالآيات المقترحة الا تخويفا من نزول العذاب المستأصل فان لم يخافوا انزل او بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن الا تخويفا بعذاب الآخرة فان امر من بعثت اليهم مؤخر الى يوم القيامة اختلف في تفسير الآيات على وجوه الاول ان المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على ايدي الرسل من دلائل الانذار تخويفا للمكذبين الثاني انها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي الثالث تقلب الاحوال من صغر الى شباب ثم الى تكهل ثم الى شيب ليعتبر الانسان بتقلب احواله فيخاف عاقبة امره الرابع آيات القرآن الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام تفسير الآيات المذكورة بالآيات المقترحة كما تقدم ولما ذكر سبحانه الامتناع من ارسال الآيات المقترحة على رسوله صلى الله عليه وسلم للصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال واذكر اذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس يعني انهم في قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم الى الخروج مما يريده بهم لاحاطته بهم بعلمه وقدرته وقيل المراد بالناس اهل مكة واحاطته بهم اهلاكه اياهم اي ان الله سيهلكهم وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه وذلك كما وقع في يوم بدر ويوم الفتح وقيل المراد انه سبحانه عصمه من الناس ان يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس لما بين سبحانه ان انزال الآيات يتضمن التخويف ضم اليه ذكر آية الاسراء وهي المذكورة في صدر السورة وسماها رؤيا لانها وقعت بالليل او لان الكفرة قالوا لعلها رؤيا وقد قدمنا في صدر السورة وجها آخر في تفسير هذه الرؤيا وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا اسلموا حين اخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم انه اسري به وقيل كانت رؤيا نوم وان النبي صلى الله عليه وسلم رأى انه يدخل مكة هو واصحابه وهو يومئذ بالمدينة فسار الى مكة قبل الاجل فرده المشركون فقال ناس قد رد وقد كان حدثنا انه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم فافتتن المسلمون لذلك فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقد تعقب هذا بان هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة واجيب بانه لا يبعد انه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان حقيقة بالمدينة وفيه تكلف قيل ان هذه الرؤيا هي انه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل انما هي الدنيا اعطوها فسري عنه

وفيه ضعف جدا فانه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا الا ان يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الاساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم او يحمل على انه قد كان اخبر
الناس بها فافتتنوا وقيل ان الله سبحانه اراه في المنام مصارع قريش حتى قال والله لكأني انظر
الى مصارع القوم وهو يومي الى الارض ويقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمع ذلك
قريش جعلوا رؤياه سخرية وقد تعارضت هذه الاسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى
الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الاسراء فتعين ذلك قال ابن عباس
رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة اسري به الى بيت المقدس اخرجه
البخاري وبه قال سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم
وقد حكى ابن كثير اجماع الحجة من اهل التاويل على ذلك في الرؤيا في تفسير الشجرة الآتية وانها شجرة
الزقوم فلا اعتبار بغيرهم معهم ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ عطف على الرؤيا قيل والتقدير وما
جعلنا الرؤيا التي اريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس قال جمهور المفسرين هي
شجرة الزقوم وكذا اخرجه احمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس والمراد
بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وقال الزجاج ان العرب تقول لكل طعام
مكروه ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في اصل الجحيم في ابعد مكان من الرحمة ومعنى
الفتنة فيها ان ابا جهل وغيره قالوا زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول تنبت فيه الشجر
فانزل الله هذه الآية وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة
من جنس لا تأكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت
في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها و
خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها فجاز ان يخلق في النار شجرة لا تحرقها وروي ان ابا جهل امر جارية فاحضرت
تمرا وزبدا وقال لاصحابه تزقموا وقال ابن الزبعري كثر الله من الزقوم في داركم فانه التمر والزبد بلغة
اليمن وقيل هي تلتوي على الشجرة فتقتلها وهي شجرة الكشوث وقيل هي الشيطان وقيل هي اليهود
وقيل بنو امية وعن عائشة انها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابيك
وجدك انكم الشجرة الملعونة في القرآن وفي هذا نكارة ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات وبنظائرها وايثار صيغة

الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار فما يزيدهم التخويف الا طغيانا متجاوزا للحد متماديا غاية التمادي
كبيرا فما يفيدهم ارسال الآيات الا الزيادة في الكفر فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم
من الكفار وهو عذاب الاستيصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة ولما ذكر سبحانه ان الرسول
صلى الله عليه وسلم كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة اراد ان يبين ان جميع الانبياء على نبينا
وعليهم الصلوة والسلام كانوا كذلك حتى ان هذه عادة قديمة سنها ابليس اللعين وايضا لما ذكر
ان الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب يرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر
هٰهنا ما يحقق ذلك فقال وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه
في سبعة مواضع في البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص وقد تقدم تفسيرها
مبسوطا فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا نصب بنزع الخافض اي من طين كما صرح
به في الآية الاخرى وخلقته من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من عذبها وملحها
فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي وقال الزجاج منصوب على الحال
او التمييز وتبعه ابن عطية ولا يظهر ذلك اذ لم يتقدم ابهام ذات ولا نسبة قَالَ أَرَأَيْتَكَ
اي اخبرني عن هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ اي فضلته عَلَيَّ وقد خلقتني من نار ولم يجبه عن هذا السؤال
اهمالا له وتحقيرا حيث اعترض على مولاه وسأله بل لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كلام مبتدأ
واللام موطئة للقسم وجوابه لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ اي لاستولين عليهم بالاغواء والاضلال قال الواحدي
اصله من احتناك الجراد الزرع وهو ان تستأصله باحناكها وتفسده وهذا هو الاصل ثم سمي الاستيلاء
على الشيء واخذه كله احتناكا من حنك الدابة اذا جعل الرسن في حنكها وفي المختار حنك الفرس جعل
في فيه الرسن وبابه نصر وضرب والحنك المنقار يقال اسود مثل حنك الغراب واسود حالك مثل
حالك والحنك ما تحت الذقن من الانسان والمعنى الاول انسب بمعنى هذه الآية وقال بعض اهل المعنى لاحتوينهم
وعن ابن زيد قال لاضلنهم وقيل لاقودنهم كيف شئت وانما اقسم اللعين هذا القسم على انه سيفعل
بذرية آدم ما ذكره لعلمه قد سبق اليه من سمع استرقه او انه استنبط ذلك من قول الملائكة اتجعل
فيها من يفسد فيها وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات او ظن ذلك لانه وسوس
لآدم فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما كما روي عن الحسن او قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في

بني آدم وانه يجري منهم في مجاري الدم وانهم بحيث يروج عندهم كيده ويتفق لديهم وسوسته
الا من عصم الله كالانبياء وصلحاء هذه الامة وهم المرادون بقوله إِلَّا قَلِيلًا قيل من كل الف واحد
وفي معنى هذا الاستثناء قوله تعالى سبحانه ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ويؤيد ما ذكرنا
قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فانه يفيد انه قال ما قاله هنا اعتمادا على الظن قال
الله تعالى اذْهَبْ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وانما معناه امض لشانك الذي اخترته خذلانا
وتخلية امره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف لانها كلها معاص والله
لا يأمر بها والمعنى اذهب منظرا الى وقت النفخة الاولى مع ان غرضه الامهال والانظار الى النفخة الثانية
وغرضه بذلك طلب ان لا يموت اصلا لانه يعلم انه لا موت بعد النفخة الثانية ثم عقب الذهاب
بذكر ما جره سوء اختياره فقال فَمَن تَبِعَكَ واطاعك مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ اي ابليس ومن
اطاعه غلب المخاطب الذي هو اللعين لانه سبب في الاغواء فمن تبعه مذكور في ضمن هذا الخطاب
وهذا كاف في الربط او الخطاب للتغليب لانه تقدم غائب ومخاطب في قوله فمن تبعك منهم فغلب
المخاطب ويكون الخطاب مرادا به من خاصة ويكون ذلك على سبيل الالتفات جَزَاءً مَّوْفُورًا اي وافرا
مكملا وقيل موفرا باضمار تجازون يقال وفرته افره وفرا وفر المال بنفسه يفر وفورا فهو وافر فهو مصدر
ثم ذكر سبحانه الامهال لابليس اللعين فقال وَاسْتَفْزِزْ اي استزعج واستجهل واستزل واستخف مَنِ
اسْتَطَعْتَ ان تستفزه مِنْهُمْ اي من بني آدم يقال افزه واستفزه اي ازعجه واستخفه والمعنى استفزهم
بِصَوْتِكَ داعيا لهم الى معصية الله وقيل هو الوسوسة والغناء واللهو واللعب والمزامير وَأَجْلِبْ
قال الفراء وابو عبيدة من الجلبة والصياح اي صح عَلَيْهِم وقال الزجاج اي اجمع عليهم كلما تقدر
عليه من مكائدك وحبائلك واحثهم على الاغواء فالاجلاب الجمع وقال ابن السكيت الاجلاب الاعانة
اي استعن عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر والامر للتهديد كما يقال اجتهد جهدك فسترى ما
ينزل بك بِخَيْلِكَ اي بركبان جندك والخيل يقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي و
يقع على الافراس قاله ابن السكيت قيل الباء للملابسة اي صح وصوت عليهم حال كونك متلبسا ومصحوبا
بجنودك الركاب والخيل تطلق على النوع المعروف وعلى الراكبين لها والمراد هنا الثاني قلت كونها للملابسة
بعيد من حيث المعنى المراد كما تدل عليه عبارة المفسرين واللائق بها ان تكون زائدة وقد نص الشمني

على زيادتها وفي المختار جلب على فرسه يجلب جلبا صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا
اجلب عليه وهذا يقتضي زيادة الباء والمعنى حث واسرع عليهم جنده خيلا ومشاة لتكثرهم
وتمكن منهم فليتامل ﴿وَرَجِلِكَ﴾ اي مشاتك يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من ركب
او مشى في معصية الله فهو من جند ابليس والرجل بسكون الجيم جمع راجل كتاجر وتجر وصاحب
وصحب وقال ابو زيد يقال رجل ورجل بمعنى راجل وقيل اسم لراجل بمعنى الماشي وقرئ في السبعة
بكسر الجيم وهو مفرد بمعنى الجمع فهو بمعنى المشاة فالخيل والرجل كناية عن جميع مكائد الشيطان والمراد
ضرب للمثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك والحمل على الظاهر اولى ﴿وَشَارِكْهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ اما المشاركة في الاموال فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان
اخذا من غير حق او وضعا في غير حق كالغصب والسرقة والربا ومن ذلك تبتيك اذان الانعام
وجعلها بحيرة وسائبة والمشاركة في الاولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي وتحصيله بالزنا وتسميتهم
بعبد اللات والعزى والاساءة في تربيتهم على وجه يالفون فيه خصال الشر وافعال السوء و
يدخل فيه ما قتلوا من اولادهم خشية املاق ووأد البنات وتصيير اولادهم على الملة الكفرية
التي هم عليها من الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة ومن ذلك مشاركة الشيطان
للمجامع اذا لم يسم وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار
قال ذلك من وطء الجن ثم قال ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بانهم لا يبعثون قاله الزجاج وقال الفراء اي قل لهم لا جنة
ولا نار وقيل وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من النصرة على من خالفهم وشفاعة الالهة والكرامة
على الله بالانساب الشريفة والاتكال على كرامة الله وتاخير التوبة لطول الامل وايثار العاجل على
الآجل ونحو ذلك وهذا على طريق التهديد كقوله اعملوا ما شئتم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾
اي باطلا اعتراض لبيان مواعيده فانه وقع بين الجمل التي خاطب الله بها الشيطان وفيه اظهار
في مقام الاضمار والالتفات عن الخطاب الى الغيبة وكان مقتضى الظاهر ان يقال وما تعدهم الا غرورا
واصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يعني عباده المؤمنين
كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من ان اضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لما في الاضافة من
التشريف وقيل المراد الانبياء واهل الصلاح والفضل لانه لا يقدر على اغوائهم وقيل المراد جميع العباد

بدليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع الا من اتبعك من الغاوين والمراد بالسلطان التسلط
وكفى بربك وكيلا الباء زائدة في الفاعل وكيلا يتوكلون عليه فهو الذي يدفع عنهم كيدك ويعصمهم
من غوائلك ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمته ولا قوة على طاعته الا بعونه
ربكم الذي يزجي الازجاء السوق والدفع والاجراء والتسيير ومنه قوله تعالى الم تر ان الله يزجي
سحابا وهذا تعليل لكفايته وبيان لقدرته على عصمة من توكل عليه في اموره وشروع في تذكير
بعض النعم عليهم حملا لهم على الايمان والمعنى ان الله سبحانه يسير لكم الفلك في البحر بالريح والفلك
هنا جمع بمعنى السفائن وقد تقدم والبحر هو الماء الكثير عذبا كان او مالحا وقد غلب هذا الاسم على
المشهور لتبتغوا من فضله اي من رزقه الذي تفضل به على عباده ومن الربح بالتجارة او انواع الامتعة
التي لا تكون عندكم ومن زائدة او للتبعيض وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره ولا
يشركوا به احدا انه كان بكم رحيما تعليل ثان لما تقدم اي فهداكم الى مصالح دنياكم واذا مسكم الضر يعني خوف
الغرق في البحر ضل من تدعون من الالهة وذهب عن خواطركم ولم يوجد لاغاثتكم ما كنتم تدعون
من دونه من صنم او جن او ملك او بشر او حجر في حوادثكم الا اياه وحده فانكم تعقدون رجاكم برحمته
واغاثته والاستثناء متصل ان كان المراد بمن جميع الالهة ومنقطع ان كان المراد بها غيره تعالى
ومعنى الآية ان الكفار انما يعتقدون في اصنامهم وسائر معبوداتهم انها نافعة لهم في غير هذه
الحالة فاما في هذه الحالة فان كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته ان الاصنام
ونحوها لا فعل لها فلما نجاكم من الغرق واوصلكم الى البر اعرضتم عن الاخلاص لله وتوحيده ورجعتم
الى دعاء اصنامكم والاستغاثة بها وكان الانسان كفورا اي كثير الكفران لنعمة الله وهو تعليل لقوله
اعرضتم والمعنى انهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله وفي الرخاء يعرضون عنه وترك فيه خطابهم
تلطفا بهم حيث لم يقل وكنتم كفارا ثم انكر عليهم سبحانه سوء معاملتهم قائلا افامنتم ان
يخسف بكم جانب البر الهمزة للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء عاطفة على مقدر والتقدير انجوتم من البحر
فامنتم فحملكم ذلك على الاعراض فبين لهم انه قادر على اهلاكهم في البر وان سلموا من البحر لان الجهات كلها
له وفي قدرته برا كان او بحرا والمعنى ان كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لانه تغييب تحت
الثرى كما ان الغرق تغييب تحت الماء واصل الخسف ان تنهار الارض بالشيء يقال بئر خسيف

اذا انهدم اصلها وعين خاسف اي غائرة حدقتها في الرأس وخسفت عين الماء اذا غار ماؤها
وخسفت الشمس اذا غابت عن الارض وجانب البر ناحية الارض وسماه جانبا لانه يصير بعد
الخسف جانبا وايضا فان البحر جانب من الارض والبر جانب قيل انهم كانوا على ساحل البحر وساحله
جانب البر فكانوا فيه امنين من مخاوف البحر فحذرهم ما امنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر
وقال السمين المعنى جانب البر الذي انتم فيه فيلزم من خسفه هلاككم ولولا هذا التقدير لم تكن في
التوعد به فائدة انتهى وجملة هذه الافعال خمسة وكلها تقرأ بالياء ولا التفات وبالنون التفاتا
عن الغيبة الى التكلم والقراءتان سبعيتان أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا قال ابو عبيدة والقتيبي الحصب
الرمي اي ريحا شديدة حاصبة وهي التي ترمي بالحصباء الصغار وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه
حصباء فالحاصب هو ذو الحصباء كاللابن والتامر وقيل الحاصب حجارة من السماء قاله قتادة
تحصبهم كما فعل بقوم لوط ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا اي حافظا
ونصيرا يمنعكم من باس الله أَمْ متصلة اي اي الامرين كائن او منقطعة اي بل أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ
فِيهِ اي في البحر جاء بفي ولم يقل الى البحر للدلالة على استقرارهم فيه تَارَةً اي مرة أُخْرَى بان يقوي
دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ركوبه وهو مصدر ويجمع على تيرة وتارات والفها واو او ياء فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ القاصف الريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه من باب
ضرب اي كسره بشدة والقصف الكسر او هو الريح التي لها قصف اي صوت شديد من قولهم رعد قاصف
اي شديد الصوت وقال ابن عباس الريح التي تغرق وقال ابن عمر القاصف والعاصف في البحر فَيُغْرِقَكُمْ
وقرئ بالفوقية على ان فاعله الريح بِمَا كَفَرْتُمْ اي بسبب كفركم اي بالسبب الذي كفرتم به وما مصدرية
او بمعنى الذي ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا اي نصيرا قاله ابن عباس او ثائرا يطالبنا بما فعلنا
انتصارا لكم وقال الزجاج لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم قال النحاس وهو من الثار وكذا يقال لكل
من طلب بثار او غيره تبيع وتابع وَلَقَدْ كَرَّمْنَا هذا اجمال لذكر النعمة التي انعم الله على بَنِي آدَمَ اي
كرمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة والطهارة بعد
الموت وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر انواع الحيوان
مثله وحكى ابن جرير عن جماعة ان هذا التكريم هو انهم ياكلون بايديهم وسائر الحيوانات تاكل بافواهها

وكذا حكاه النحاس وقيل ميزهم بالنطق والعقل والتمييز وقيل باعتدال القامة وامتدادها
وقيل بحسن التقويم والتصوير وقيل اكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقال ابن جرير اكرمهم بتسليطهم
على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم في امور
المعاش والمعاد وقيل بأن منهم خير امة اخرجت للناس ولا مانع من حمل التكريم على جميع هذه الاشياء
واعظم خصال التكريم العقل فانهم به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح و
توسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الاموال التي تسببوا بها الى تحصيل امور لا يقدر عليها سائر
الحيوان وبه قدروا على تحصيل الابنية التي تمنعهم مما يخافون وعلى تحصيل الاكسية التي تقيهم الحر
والبرد وقيل تكريمهم هو ان جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم واخرج الطبراني والبيهقي في الشعب والخطيب في
تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء اكرم على الله يوم القيامة من ابن
آدم قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال ولا الملائكة الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر واخرج
الطبراني عن ابن عمر وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الملائكة قالت يا رب اعطيت بني آدم الدنيا
يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا
فاجعل لنا الآخرة قال لا اجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان وَحَمَلْنَاهُمْ هذا
تخصيص وتأكيد لبعض انواع التكريم حملهم سبحانه فِي الْبَرِّ على الدواب كالابل والخيل والبغال والحمير
وَفِي الْبَحْرِ على السفن وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلناهم قادرين
فيهما بواسطة او دونها كما في السباحة في الماء وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ اي اللذيذ من المطاعم والمشارب
وسائر ما يستلذونه وينتفعون به وقيل المراد الزبد والتمر والحلواء وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى
وقيل ان جميع الاغذية اما نباتية كالثمار والحبوب واما حيوانية كاللحم والسمن واللبن ولا يتغذى
الانسان الا باطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الانسان وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا والاقرب في الفرق بين التكريم والتفضيل ان يقال ان الله كرم الانسان
على سائر الحيوان بأمور خلقية طبعية ذاتية مثل العقل ثم عرّفه بواسطة اكتساب العقائد الصحيحة و
الاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثاني هو التفضيل اجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين انواعه
فافاد ذلك ان بني آدم فضلهم الله سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل وقد شغل كثير من اهل

السلام بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة وهو مسألة تفضيل الملائكة على الانبياء او الانبياء
على الملائكة ومن جملة ما تمسك به مفضلو الانبياء عليهم السلام على الملائكة هذه الآية ولا دلالة
لها على المطلوب لما عرفت من اجمال الكثير وعدم تبيينه والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل
بعض الاشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة وهو تعسف لا حاجة
اليه وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء ولا دلالة لها على ذلك
فانه لم يقم دليل على ان الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ولو سلمنا ذلك فليس فيما
خرج عن هذا الكثير ما يفيد انه افضل من بني آدم بل غاية ما فيه انه لم يكن الانسان مفضلا عليه
فيحتمل ان يكون مساويا للانسان ويحتمل ان يكون افضل منه ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال والتأكيد
بقوله تفضيلا يدل على عظم هذا التفضيل وانه بمكان مكين فعلى بني آدم ان يتلقوه بالشكر و
يحذروا من كفرانه ﴿يَوْمَ﴾ اي اذكر يوم ﴿نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال الزجاج يعني يوم القيامة وقرئ
يدعوا بالتحتية ويدعى على المجهول والاناس من الناس اسم جمع يقع على المذكر والمؤنث والواحد و
الجمع والاناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخفيفا على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال
والباء للالصاق كما تقول ادعوك باسمك ويجوز ان تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو
كل اناس متلبسين بامامهم اي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب الامير بجنوده والاول اولى والامام في اللغة
كل ما يؤتم به من نبي او مقدم في الدين او كتاب وقد اختلف المفسرون في تعيين الامام الذي يدعى
كل اناس به فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله اي يدعى
كل انسان بكتاب عمله ويؤيد هذا قوله فاما من اوتي كتابه الآية وقال ابن زيد الامام هو الكتاب المنزل
عليهم فيدعى اهل التوراة بالتوراة واهل الانجيل بالانجيل واهل القرآن بالقرآن فيقال يا اهل التوراة يا
اهل الانجيل يا اهل القرآن وقال مجاهد وقتادة امامهم نبيهم وعن انس مثله فيقال هاتوا متبعي ابراهيم هاتوا
متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وبه قال الزجاج وروي عن ابي هريرة مرفوعا ما يفيد هذا في
سنده وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه المراد بالامام امام عصرهم فيدعى اهل كل عصر بامامهم الذي كانوا
يأتمرون بامره وينتهون بنهيه وقال الحسن وابو هريرة وابو العالية المراد بامامهم اعمالهم فيقال مثلا اين
المجاهدون اين الصابرون اين الصائمون اين المصلون ونحو ذلك وروي عن ابن عباس وابي هريرة وقال

ابو عبيدة المراد بامامهم صاحب مذهبهم فيقال مثلا اين التابعون للعالم فلان بن فلان
وهذا من البعد بمكان وايضا في هذا القول نظر فان في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان
بن فلان اخرجه البخاري ومسلم وهذا دليل على ان الناس يدعون باسمائهم واسماء آبائهم وقد رد
على من قال انما يدعون باسماء آبائهم وباسماء امهاتهم لان في ذلك سترا على آبائهم ولذا
قال الزمخشري ومن بدع التفاسير ان الامام جمع ام وانهم يدعون بامهاتهم دون آبائهم وان
الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا يفتضح اولاد الزنا وقال
محمد بن كعب بامامهم بامهاتهم بناء على ان اماما جمع ام كخف وخفاف وهذا بعيد جدا
قال القرطبي قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا يأتمون به في الدنيا ويقتدون به فيقال يا حنفي يا
شافعي يا معتزلي يا قدري ونحو ذلك وهذا كالاول بل ابعد منه وقيل الامام هو كل خلق حسن يظهر من
الانسان كالعلم والكرم والشجاعة او قبيح كاضدادها فالداعي الى تلك الافعال خلق باطن هو كالامام
ذكره الرازي في تفسيره وعن ابن عباس قال بامامهم امام هدى وامام ضلالة وعنه ايضا
بامام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم واخرج الترمذي وحسنه والبزار
وابن ابي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه
الآية انه قال يدعى احدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل
على راسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق الى اصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك
لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا واما الكافر فيسود وجهه ويمد له
جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا فيراه اصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا
اللهم لا تأتنا بهذا قال فيأتيهم فيقولون اللهم اخزه فيقول ابعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا
قال البزار بعد اخراجه لا يروى الا من هذا الوجه فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ من اولئك المدعوين
وهم السعداء اولو البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير فَأُولَٰئِكَ اشارة الى من باعتبار
معناه قيل وجه الجمع الاشارة الى انهم مجتمعون على شان جليل او الاشعار بان قراءتهم لكتبهم تكون
على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ الذي اوتوه وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا اي لا

ينقصون من اجورهم قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة او هو عبارة عن اقل شيء وفي
النواة امور ثلثة فتيل وهو الخيط الذي في الجزء الكائن فيها طولا والقطمير وهو قشرة النواة والنقير
وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها ولم يذكر اصحاب الشمال تصريحا ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على
حالهم القبيح فقال وَمَنْ كَانَ من المدعوين فِي هٰذِهٖٓ الدنيا أَعْمٰى اي فاقد البصيرة وهو الذي يعطى
كتابه بشماله فهذا فيه للمقابل من حيث المعنى ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان حسبما هو الواقع
في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى واما ان كان من المكذبين
الضالين الخ بعد قوله فاما ان كان من اصحاب اليمين والرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر
في احد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلا على شهادة
العقل كما في قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ذكره
ابو السعود قال النيسابوري لا خلاف ان المراد بهذا العمى عمى القلب لا عمى البصر واما قوله فَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ
التي لم تعاين ولم تر أَعْمٰى فيحتمل ان يراد به عمى البصر كقوله ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني
اعمى وقد كنت بصيرا وفي هذا زيادة العقوبة ويحتمل ان يراد عمى القلب وقيل المراد بالآخرة عمل
الآخرة اي فهو في عمل الآخرة او في امرها اعمى وقيل المراد من عمي عن النعم التي انعم الله بها عليه في
الدنيا فهو عن نعم الآخرة اعمى وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة اعمى فهو في الآخرة التي لا
توبة فيها اعمى وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله اعمى فهو في الآخرة اعمى وقد قيل ان قوله فهو في
الآخرة اعمى افعل تفضيل اي اشد عمى وهذا مبني على انه من عمى القلب اذ لا يقال ذلك في عمى العين
قال الخليل وسيبويه لانه خلقة بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما اعماه كما لا يقال ما ايداه وقال الاخفش
لا يقال فيه ذلك لانه اكثر من ثلاثة احرف وقد حكى الفراء عن بعض العرب انه سمعه يقول ما اسود
شعره والبحث مستوفى في النحو وَاَضَلُّ سَبِيْلًا من الاعمى لكونه لا يجد طريقا الى الهداية بخلاف الاعمى فانه
قد يهتدي في بعض الاحوال قال ابن عباس من كان في الدنيا اعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء
والارض والجبال والبحار والناس والدواب واشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره
اعمى واضل حجة ثم لما عدد سبحانه في الآية المتقدمة اقسام النعم على بني آدم اردفه بما يجري مجرى
التحذير من الاغترار بوساوس الاشقياء فقال وَاِنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُوْنَكَ المعنى ان الشان انهم قد

قد جوزوا ان يجيء على فاعل فاتنين واصل الفتنة الاختبار ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من
ازال الشيء عن حده وجهته عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ من الاوامر والنواهي والوعد والوعيد لِتَفْتَرِيَ
عَلَيْنَا غَيْرَهُ اي لتتقول وتكذب علينا غير الذي اوحينا اليك مما اقترحه علينا كفار قريش ولم نقله
وذلك لان في اعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد
وغير ذلك وعن ابن عباس قال ان امية بن خلف وابا جهل بن هشام ورجالا من قريش اتوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه
فراق قومه ويحب اسلامهم فرق لهم فانزل الله هذه الآية وعن جابر بن عبد الله مثله وعن سعيد بن جبير
قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر فقالوا لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافه فانزل الله وان كادوا ليفتنونك الآية وعن ابن شهاب نحوه
وعن جبير بن نفير ان قريشا اتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ان كنت ارسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من
سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن اصحابك فركن اليهم فاوحى الله اليه هذه الآية وقال الجلال السيوطي
وغيره ان ثقيفا سألوه صلى الله عليه وسلم ان يحرم واديهم والحوا عليه فنزلت هذه الآية وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ
خَلِيلًا اي لو اتبعت اهواءهم لوالوك ووافوك وصافوك مأخوذ من الخلة بفتح الخاء وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
على الحق وعصمناك من موافقتهم لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ اي لقاربت ان تميل اليهم ادنى ميل والركون
هو الميل اليسير ولهذا قال شَيْئًا قَلِيلًا لكن ادركته صلى الله عليه وسلم العصمة فمنعته من ان يقرب من ادنى
مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا دليل على انه صلى الله عليه وسلم ما هم باجابتهم ذكره معنا
القشيري وغيره والنظم صريح في انه لم يركن اي بالذات ولا قارب اي منطوق التركيب وذلك لان
لولا حرف امتناع لوجود فالترتيب يدل على امتناع القرب من الركون واذا امتنع القرب منه امتنع هو بالضرورة
وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بانك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازا واتساعا كما تقول
للرجل كدت تقتل نفسك اي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ذكر معناه المهدوي ثم توعده سبحانه
في ذلك اشد الوعيد فقال إِذًا اي لو قاربت ان تركن اليهم لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ
اي مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين والمعنى عذابا ضعفا في الحيوة وعذابا ضعفا في الممات
اي مضاعفا ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه واضيفت وذلك لان خطأ العظيم عظيم

كما قال سبحانه يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وضعف
الشيء مثلاه وقد يكون الضعف النصيب كقوله لكل ضعف اي نصيب قال الرازي حاصل الكلام انك
لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك
في الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ثم لا تجد
لك علينا نصيرا ينصرك فيدفع عنك ويمنع منك هذا العذاب قال النيسابوري اعلم ان القرب من
الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها فلا يلزم من الآية
طعن في العصمة وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها الكلام في هذا كالكلام في وان
كادوا ليفتنونك اي وان الشأن انهم قاربوا ان يزعجوك بعداوتهم ومكرهم من ارض مكة لتخرج عنها
ولكنه لم يقع ذلك منهم بل منعهم الله عنه حتى هاجر بامر ربه بعد ان هموا به والاستفزاز الازعاج
وقيل انه اطلق الاخراج على ارادة الاخراج تجوزا قال سعيد بن جبير قال المشركون لرسول الله صلى
الله عليه وسلم كانت الانبياء تسكن الشام فما لك والمدينة فهم ان يشخص فانزل الله وان كادوا الآية واذن لا
يلبثون خلافك اي لا يبقون بعد اخراجك الا لبثا او زمنا قليلا حتى يهلكوا ثم يعاقبون عقوبة
تستأصلهم جميعا قال ابن عباس يعني بالقليل يوم اخذهم ببدر فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا
بعده قال ابن الانباري خلافك بمعنى مخالفتك قال قتادة هم اهل مكة باخراج النبي صلى الله عليه وسلم
منها وقد فعلوا بعد ذلك فاهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده الا قليلا وكذلك كانت سنة الله
في الرسل اذا فعل بهم قومهم مثل ذلك سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا اي سن الله سنة
قال الفراء اي يعذبون كسنة من قد ارسلنا وقيل المعنى سنتنا سنة من قد ارسلنا وقيل انت تتبع
سنة من وقال الزجاج يقول ان سنتنا هذه السنة فيمن ارسلنا قبلك اليهم انهم اذا اخرجوا نبيهم من بين
اظهرهم او قتلوه ان ينزل العذاب بهم ولا تجد لسنتنا تحويلا اي ما اجرى الله به العادة
لم يتمكن احد من تحويله ولا يقدر على تغييره ولما ذكر سبحانه الالهيات والمعاد والجزاء اردفها
بذكر اشرف الطاعات وهي الصلوة فقال اقم الصلوة لدلوك الشمس اجمع المفسرون على ان المراد
بها الصلوات المفروضة وقد اختلف العلماء في الدلوك على قولين احدهما انه زوال الشمس عن كبد
السماء قاله عمر وابنه وابو هريرة وابن عباس وجابر والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة

والضحاك وابو جعفر الباقر واكثر التابعين واختاره ابن جرير والقول الثاني انه غروب الشمس قاله
علي وابن مسعود وابي بن كعب وروي عن ابن عباس وبه قال النخعي ومقاتل والضحاك والسدي
قال الفراء دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها قال الازهري معنى الدلوك في كلام العرب الزوال
و لذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا افلت دالكة لانها في الحالتين زائلة
قال والقول عندي انه زوالها نصف النهار لتكون الاية جامعة للصلوات الخمس واصل هذه
المادة اي ما تركب من الدال واللام والكاف يدل على التحول والانتقال ومنه الدلك فان اليد لا تكاد
لا تستقر به ومنه دلوك الشمس ففي الزوال انتقال من وسط السماء الى ما يليه وكذا كل ما تركب
من الدال واللام بقطع النظر عن اخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل و
الانتقال فيه من مكان الى مكان اخر ودلح بالحاء المهملة اذا مشى مشيا متثاقلا ودلع بالعين
المهملة اذا اخرج لسانه ودلف بالفاء اذا مشى مشي المقيد وبالقاف لاخراج الماء من مقره وده
اذا ذهب عقله ففيه انتقال معنوي وقال ابو عبيد دلوكها غروبها وذلك كنت براح اسمى
غابت وبراح اسم من اسماء الشمس على وزن حذام وقطام وعن ابن عمر قال دلوك الشمس
زيافها بعد نصف النهار وعن ابن عباس قال اذا فاء الفيء وعن عقبة بن عمرو مرفوعا قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر احديث خرجه ابن جرير
وعن ابي برزة الاسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر اذا زالت الشمس ثم تلى اقم الصلوة
لدلوك الشمس والحاصل ان اللفظ يجمعهما لان اصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت
والحمل على الزوال اولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الاية جامعة لمواقيت
الصلوة كلها كما ذكروا وعلى الثاني تخرج الظهر والعصر وفي هذه اللام وجهان احدهما انها بمعنى بعد
ومثله قولهم كتبته لثلاث خلون والثاني انها على بابها اي لاجل دلوك قال الواحدي لانها انما تجب
بزوال الشمس وفيه ثلاثة اقوال اشهرها انه الزوال وهو نصف النهار والثاني انه من الزوال الى الغروب
والثالث انه الغروب الى غسق الليل اي اجتماع الظلمة قاله ابن عباس قال الفراء والزجاج
يقال غسق الليل واغسق اذا اقبل بظلامه وقيل هو غيب الشفق وهذا يتناول المغرب والعشاء
والجار يتعلق باقم لانتهاء غاية الاقامة او اقمها ممدودة اليه قاله ابو البقاء وفيه نظر من حيث

لانه قد دل التعلق كونها متعلقة الا ان يريد تفسير المعنى لا الاعراب والغسق دخول اول الليل قاله ابن شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته واصله من السيلان يقال غسقت العين اي سال دمعها فكان الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم ويقال غسق الجرح امتلأ دما فكان الظلمة ملأت الوجود والمراد في قوله من شر غاسق القمر اذا كسف واسود وقيل الليل والغساق بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد اهل النار ويقال غسق الليل واغسق وظلم واظلم ودجى وادجى وغبش واغبش نقله الفراء قاله السمين وقد استدل بهذه الغاية من قال ان صلوة الظهر يتمادى وقتها من الزوال الى الغروب روي ذلك عن الاوزاعي وابي حنيفة وجوزه مالك والشافعي في حال الضرورة وقد وردت الاحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعيين اوقات الصلوات فيجب حمل مجمل هذه الاية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك ومعنى الاية اقم الصلوة من وقت دلوك الشمس الى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما العشاءان ثم قال وَقُرْآنَ الْفَجْرِ اي اقمه قاله الفراء وقال الاخفش وتبعه ابو البقاء وعليك قرآن الفجر واصول البصريين تأبى هذا لان اسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقيل الزم قرآن الفجر قال المفسرون المراد به صلوة الصبح عبر عنها ببعض اركانها قال الزجاج وفي هذه فائدة عظيمة تدل على ان الصلوة لا تكون الا بقراءة حتى سميت الصلوة قرآنا وهو حجة على الاصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن وقد دلت الاحاديث الصحيحة على انه لا صلوة الا بفاتحة الكتاب وفي بعض الاحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة وسميت صلوة الصبح قرآنا لطول قراءتها وهو عطف على الصلوة وقد حرر الشوكاني في مؤلفاته تحريرا مجودا ثم علل سبحانه ذلك بقوله إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا اي تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الآتي وبذلك قال جمهور المفسرين فينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل واول ديوان النهار وقال الشهاب اي الكاتبون والحفظة ويشهده الكثير من المصلين في العادة والاول اولى وقد اخرج احمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاية قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها وهو في الصحيحين

عنه مرفوعا بلفظ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلوة الفجر ثم يقول ابو هريرة اقرؤا
ان شئتم ان قرأن الفجر كان مشهودا وفي الباب احاديث قال الرازي هذا دليل قاطع قوي
على ان التغليس افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من اول الصبح ففي ذلك الوقت ظلمة
باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلوة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها
زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار اما اذا ابتدأ بهذه الصلوة في وقت الاسفار
فهناك لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت ان قوله يعني هذه
الآية دليل على ان الصلوة في اول وقتها افضل انتهى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ اي قم بعد نومك
قومة من الليل او اسهر من الليل ذكرهما الحوفي ومن للتبعيض اي قم بعض الليل والضمير المجرور
راجع الى القرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر ففي الكلام استخدام وقيل التقدير بذلك
الوقت والباء بمعنى في قاله السمين ولو قال من بمعنى في لكان اوضح وما قيل من انه منتصب على الاغراء
والتقدير وعليك بعض الليل فبعيد جدا والتهجد مأخوذ من الهجود وقال ابو عبيدة وابن الاعرابي
هو من الاضداد لانه يقال هجد الرجل اذا نام وهجد اذا سهر قال الازهري الهجود في الاصل هو
النوم بالليل ولكن التفعل فيه لاجل التجنب ومنه تأثم وتحرج اي تجنب الاثم والحرج فالمتهجد من تجنب
الهجود فقام بالليل وروي عنه ايضا المتهجد القائم الى الصلوة من الليل هكذا حكى عنه الواحدي
فقيد التهجد بالقيام من النوم وهكذا قال مجاهد وعلقمة والاسود فقالوا التهجد بعد النوم قال الليث
يقال تهجد اذا استيقظ للصلوة ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ معناها في اللغة الزيادة على الاصل والامر بالتهجد و
ان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للامر وقيل المراد بالنافلة هنا
انها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه صلى الله عليه وسلم ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة وقيل
كانت صلوة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا وعلى هذا يحمل
ما ورد في الحديث انها عليه فريضة ولامته تطوع قال الواحدي صلوة الليل كانت زيادة للنبي
صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات لانه قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر
وليس لنا نافلة لكثرة ذنوبنا انما نعمل لكفاراتها قال وهو قول جميع المفسرين والحاصل ان الخطاب
في هذه الآية وان كان خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم فانه يعم جميع الامة والتصريح بكونه نافلة يدل على

عدم الوجوب فالتهجد من الليل مندوب اليه ومشروع لكل مكلف واخرج البيهقي في سننه والطبراني
في الاوسط عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة الوتر والسواك
وقيام الليل والقولان مقرران في كتب الفروع وقد صرح بهما هنا الخازن واشار اليهما البيضاوي في التقرير
والاولى ما ذكرناه ثم وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على اقامة الفرائض مع النوافل فقال عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ
رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا قد ذكرنا في مواضع ان عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع اي يبعثك و يقيمك
في الآخرة ذا مقام محمود ومعنى كون المقام محمودا انه يحمده كل من علم به وقد اختلف في تعيين
هذا المقام على اقوال الاول انه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم
ربهم سبحانه مما هم فيه وهذا القول هو الذي دلت عليه الادلة الصحيحة في تفسير الآية وحكاه
ابن جرير عن اكثر اهل التأويل قال الواحدي واجماع المفسرين على ان المقام المحمود هو مقام الشفاعة
في فصل القضاء القول الثاني ان المقام المحمود اعطاء النبي صلى الله عليه وسلم لواء الحمد يوم القيامة ويمكن ان
يقال ان هذا لا ينافي القول الاول اذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد الثالث
ان المقام المحمود هو ان الله سبحانه يجلس محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد وقد ورد
في ذلك حديث وحكى النقاش عن ابي داود السجستاني انه قال من انكر هذا الحديث فهو عندنا متهم
ما زال اهل العلم يتحدثون بهذا الحديث قال ابن عبد البر مجاهد وان كان احد الائمة بالتأويل
فان له قولين مهجورين عند اهل العلم احدهما هذا والثاني في تأويل وجوه يومئذ ناضرة الى
ربها ناظرة قال معناه ينتظر الثواب وليس من النظر انتهى وعلى كل حال فهذا القول غير مناف
للقول الاول لامكان ان يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة واخرج الديلمي
عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسني معه على السرير وينبغي الكشف عن اسناد هذا
الحديث وقال ابن مسعود يقعده على العرش رواه ابو وائل عن عبد الله بن سلام قال يقعده
على الكرسي والاحاديث في الشفاعة كثيرة واول من انكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق
اهل السنة الرابع انه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من انواع الكرامات ذكره صاحب الكشاف والمقتدون
به في التفسير ويجاب عنه بان الاحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة فالمصير
اليها متعين وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقوله

مطلق في كل ما يجلب الحمد انه عام في كل ما هو كذلك ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق كما ذكره في نوع
البقرة ولهذا قال هنا وقيل المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله يعني لفظ المقام والفرق بين العموم
البدلي والعموم الشمولي معروف فلا نطيل بذكره واخرج احمد والترمذي وحسنه والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم وسئل عنه يعني المقام فقال هو المقام المحمود الذي اشفع فيه لامتي واخرج احمد
وابن جرير وابن ابي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال يبعث الناس يوم القيامة فاكون انا وامتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن
لي فاقول ما شاء الله ان اقول فذلك المقام المحمود والاحاديث في هذا الباب كثيرة جدا ثابتة في
الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ومن رام الاستيفاء نظر في احاديث الشفاعة في الامهات وغيرها
﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ قرئ بضم الميمين وبفتحهما وهما مصدران
بمعنى الادخال والاخراج فهما كالمجرى والمرسى والاضافة الى الصدق لاجل المبالغة نحو حاتم الجود اي ادخالا
يستاهل ان يسمى ادخالا ولا يرى فيه ما يكره وقيل للبيان او من اضافة الموصوف لصفته وقال
الواحدي اضافتهما الى الصدق مدح لهما وكل شيء اضفته الى الصدق فهو مدح وقد اختلف المفسرون
في معنى الآية فقيل نزلت حين امر صلى الله عليه وسلم بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة واختاره
ابن جرير وهذا يقتضي ان الآية مكية مع انها آخر الثمان المدنيات لكن البيضاوي مشى على ان السورة كلها مكية وحكى الاستثناء الذي
ذكره الجلال بقيل وعليه فلا اشكال ومن المعلوم ان ادخال المدينة بعد اخراجه من مكة وانما قدمه عليه اهتماما بشانه ولانه هو
المقصود وقيل المعنى امتني اماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق وقيل المعنى ادخلني فيما امرتني به واخرجني مما نهيتني وقيل
ادخاله موضع الامن واخراجه من بين المشركين وهو كالقول الاول وقيل المراد ادخال عز واخراج
نصر وقيل ادخلني في الامر الذي كرمتني به من النبوة مدخل صدق واخرجني منه اذا امتني مخرج
صدق وقيل ادخلني القبر عند الموت مدخل صدق واخرجني منه عند البعث مخرج صدق
قيل ادخلني حيثما ادخلتني بالصدق واخرجني بالصدق وقيل الآية عامة في كل ما تتناوله من الامور
فهي دعاء ومعناها رب اصلح لي وردي في كل الامور وصدري عنها ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾
اي حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقيل اجعل لي من لدنك ملكا وعزا قويا اقيم به
دينك وكانه صلى الله عليه وسلم علم انه لا طاقة له بهذا الامر الا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا وبه قال

الحسن وقتادة واختاره ابن جرير وقال ابن كثير هو الارجح لانه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه ولهذا يقول تعالى لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب وفي الاثر ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن اي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الشديد والتهديد الاكيد وهذا هو الواقع انتهى وقيل وعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له واجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض الآية وقد كان كما وعد ولله الحمد وَقُلْ عند دخولك مكة يوم الفتح جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ المراد بالحق الاسلام وقيل القرآن وقيل الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان والمراد بالباطل الشرك وقيل الشيطان ولا يبعد ان يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل ومعنى زهق بطل واضمحل ومنه زهوق النفس وهو بطلانها وخروجها ومنه قوله تعالى وتزهق انفسهم وهم كافرون قال الشاعر ؎ المت فحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق ‡ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا اي مضمحلا زائلا يعني ان هذا شانه فهو يبطل ولا يثبت والحق ثابت دائما وذلك شان الباطل وان كان له دولة وصولة في وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب في الزوال واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وجاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد حتى سقطت وفي الباب احاديث وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ من لابتداء الغاية قاله ابو حيان ويصح ان تكون لبيان الجنس قاله الزمخشري وابن عطية وابو البقاء فان جميع القرآن شفاء وقدم على المبين للاهتمام وابو حيان ينكر جوازه لان التي للبيان لابد ان يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم هي عليه فالمختار هو الاول وقيل للتبعيض وانكره بعض المفسرين لاستلزامه ان بعضه لا شفاء فيه ورده ابن عطية بان المبعض هو انزاله واختلف اهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين الاول انه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الامور الدالة على الله سبحانه الثاني انه شفاء عن الامراض الظاهرة

بالرقى والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيرا من الادواء والاسقام يدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز او من باب حمل المشترك على معنييه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ولما في تلاوته وتدبره من الاجر العظيم الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ومثل هذه الآية قوله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى والحاصل ان القرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق وابطال المذاهب الفاسدة فهو شفاء لامراض القلوب وتكفير للذنوب وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وفي الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله ولما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرة عليهم فقال ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ القرآن كله او كل بعض منه ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ اي هلاكا لان سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة ارتكاب القبائح تمردا وعنادا فعند ذلك يهلكون وقيل الخسار النقص كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم قال قتادة لم يجالس القرآن احد الا قام عنه بزيادة او نقصان ثم نبه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة فقال ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى﴾ جنس ﴿الْإِنسَانِ﴾ بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والسعة والغنى والفراغ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ اي ثنى عطفه متبخترا والنأي البعد والباء للتعدية او للمصاحبة وهو تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشيء هو ان يوليه عرض وجهه اي ناحيته والنأي بالجانب ان يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره ولا يبعد ان يراد بالاعراض هنا الاعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم وقرئ ناء مثل باع على القلب قال مجاهد نأى تباعد ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من شدة او مرض او فقر او نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس قنطا من رحمة الله هذا وصف للجنس باعتبار بعض افراده ممن هو على هذه الصفة والمعنى انه ان فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود وان فاته شيء من ذلك وتأخرت الاجابة استولى عليه الاسف وغلب عليه القنوط ويئس وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية

قوله تعالى واذا مسه الشر فمن وجد ما يعرض لنظائره فان ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض
المذكور في هذه الآية ولا يبعد ان يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه
كثير الدعاء بلسانه قُلْ كُلٌّ اي كل احد يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ التي جبل عليها قال الفراء الشاكلة الطريقة و
قيل الناحية قاله ابن عباس وقيل الطبيعة وقيل الدين وقيل النية قاله الحسن وبه فسرها البخاري
في كتاب التفسير وقيل الجبلة واحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري انها مذهبه الذي يشاكل حاله
في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطرق التي تتشعب منه وهي مأخوذة من الشكل
وهو المثل والنظير يقال لست على شكلي ولا على شاكلتي واما الشكل بالكسر فهو الهيئة يقال جارية حسنة
الشكل او الشاكلة الروح والمعنى ان كل انسان يعمل على ما يشاكل اخلاقه التي الفها او على حسب جوهر
نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه افعال جميلة واخلاق زكية وان كانت نفسه
كدرة خبيثة صدرت عنه افعال خبيثة فاسدة رديئة وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن فَرَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ لانه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق
فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة وبين الكافر الذي شأنه البطر
للنعم والقنوط عند النقم واهدى من اهتدى على حذف الزوائد او من هدى المتعدي او من هدى
القاصر بمعنى اهتدى وَسَبِيلًا تمييز اي اوضح طريقا واحسن مذهبا واشد اتباعا للحق ولما انجر الكلام
الى ذكر الانسان وما جبل عليه ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قد اختلف الناس في الروح المسئول عنه فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي
تكون به حياته وبهذا قال اكثر المفسرين قال الفراء الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله به سبحانه
احدا من خلقه ولم يعط علمه احدا من عباده وقيل الروح المسئول عنه جبريل وقيل عيسى وقيل
القرآن وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق وقيل خلق كخلق بني آدم وقال بعضهم هو الدم الا ترى الانسان
اذا مات لا يفوت منه شيء الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال
قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيى به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم
والعلو والبقاء والظاهر هو القول الاول وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية وبيان السائلين لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ثم الظاهر ان السؤال عن حقيقة الروح لان معرفة حقيقة الشيء اهم واقدم

من معرفة سأل من أحواله فأمره سبحانه أن يجيب عن السائلين له عن الروح فقال قُلِ الرُّوحُ الظ
في مقام الاضمار لاظهار كمال الاعتناء بشأنه مِنْ أَمْرِ رَبِّي من بيانية والامر بمعنى الشأن والاضافة
للاختصاص العلمي لا الايجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الاضافة الثانية
الآتية من تشريف المضاف اليه اي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاشياء التي لم يعلم بها عباده
وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة ايضا وقيل المعنى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر وفي هذه
الآية ما يزجر الخائضين في شان الروح المتكلفين لبيان ماهيته وايضاح حقيقته ابلغ زجر ويردعهم
اعظم ردع وقد اطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتسع له المقام وغالبه بل كله من الفضول الذي
لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا وقد حكى بعض المحققين ان اقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية عشر مائة
قول فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب الباطل عن النفع بعد ان علموا ان الله سبحانه قد استأثر بعلمه
ولم يطلع عليه انبياءه ولا اذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلا عن اممهم المقتدين
بهم فيا لله العجب حيث تبلغ اقوال اهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول الى هذا الحد الذي
لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما اذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه وقد عجزت الاوائل
عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل
عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه اعجز ولذا رد ما قيل في حده
قديما وحديثا ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا الخطاب عام لجميع الخلق
ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هو خطاب لليهود خاصة والاول اولى ويدخل فيه اليهود دخولا
اوليا والمعنى ان علمكم الذي ليس الا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سبحانه وان اوتي حظا من العلم
وافرا بل علم الانبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه الا كما يأخذ الطائر في منقاره
من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام وقيل ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة
فوصف الشيء بالقلة بالنسبة الى ما فوقه وبالكثرة الى ما تحته اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن
مسعود قال كنت امشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود
فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال بعضهم لا تسألوه فقالوا يا محمد ما الروح فما زال متكئا على
العسيب فظننت انه يوحى اليه فقال وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي الآية واخرج احمد

والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وابو نعيم
والبيهقي عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود اعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح
فنزلت هذه الآية قالوا اوتينا علما كثيرا اوتينا التوراة ومن اوتي التوراة فقد اوتي خيرا كثيرا
فانزل الله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي الآية وفي الباب
احاديث وآثار ولما بين سبحانه انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان يأخذ منهم هذا
القليل لفعل فقال وَلَئِنْ اللام هي الموطئة الدالة على القسم المقدر اي والله لئن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وهذا جواب القسم وجواب الشرط محذوف اي ذهبنا به على القاعدة
في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم قال الزجاج اي
لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له اثر انتهى وبقيت كما كنت ما تدري ما الكتاب
وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ اي بالقرآن عَلَيْنَا وَكِيلًا اي من يتوكل
علينا في رد شيء منه بعد ان ذهبنا به ويتعهد ويلتزم استرداده بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك
فيما يتوكل عليه والاستثناء بقوله إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ان كان متصلا فمعناه الا ان يرحمك الله
ربك فلا يذهب به لان الرحمة تندرج في قوله وكيلا يعني الا رحمة فانها ان نالتك فلعلها تسترده
عليك وان كان منقطعا فمعناه لا نشاء ذلك رحمة من ربك او ولكن رحمة من ربك تركته
غير مذهوب به وابقيناه الى قرب قيام الساعة فعند ذلك يرفع ويقدر بالا بلكن عند البصريين
وببل عند الكوفيين وقد اخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وغيرهم
عن ابن مسعود قال ان هذا القرآن سيرفع قيل كيف يرفع وقد اثبته الله في قلوبنا واثبتناه
في المصاحف قال يسرى عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف الا رفعت
فتصبحون وليس فيكم منه شيء ثم قرأ هذه الآية وقد روي هذا عنه وعن جمع من الصحابة موقوفا
ومرفوعا إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا حيث جعلك رسولا وانزل عليك الكتاب والقى عليك
القرآن والعلم وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين واعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما
انعم الله به عليك ثم احتج سبحانه على المشركين باعجاز القرآن فقال قُلْ لَئِنِ اللام لام قسم وفيه ما تقدم
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وكذا الملائكة ولم يذكروا لان التحدي ليس معهم والتصدي لمعارضته لا يليق بهم

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال الفصاحة
ونهاية البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ لا يأتون بمثله أظهر في مقام الإضمار ولم يكتف
بأن يقول لا يأتون به على أن الضمير راجع إلى المثل المذكور لدفع توهم أن يكون له مثل معين
وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان وهو جواب قسم محذوف وجواب الشرط إذ
اعتذر وأغنى رفعه بأن الشرط ماض والأول أظهر ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة
سواء كان المتصدي لها واحدا منهم على الانفراد أو كان المتصدي لها المجموع بالمظاهرة فقال
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا أي عونا ونصيرا في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله فثبت أنهم
لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلا عن غيرها
وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض وقد تقدم وجه الإعجاز في أوائل
سورة البقرة وفي هذه الآية رد لما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا وإكذاب لهم عن ابن عباس
قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن سيحان ونعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وسلام بن مشكم فقالوا
أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئت به أحق من عند الله فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة فقال
لهم أما والله إنكم لتعرفونه أنه من عند الله قالوا إنا نجيئك بمثل ما تأتي به فأنزل الله تعالى هذه الآية فالقرآن
كلام الله في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة لا يشبه كلام المخلوق لأنه كلام الخالق وهو غير
مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله وهو معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب ثم بين سبحانه
أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال ولقد صرفنا للناس
في هذا القرآن من كل مثل أي رددنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان وكررنا
بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص
الأولين والجنة والنار والقيامة وقيل من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعا
في الأنفس والأول أولى فأبى أكثر الناس يعني من أهل مكة إلا كفورا فإنهم جحدوا وأنكروا كون
القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم واقترحوا من الآيات ما ليس لهم وأظهر في مقام الإضمار
حيث قال فأبى أكثر الناس تأكيدا أو توضيحا ولما كان أبى مأولا بالنفي أي ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء
منه وقالوا أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث قالوا

البهوت المحجوج المتحير ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات اخر وبينات واضحة ولزمتهم الحجة و
غلبوا اخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ثم علقوا نفي ايمانهم بغاية طلبوها
فقالوا حَتّٰى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْاَرْضِ اي مكة يَنْبُوْعًا عينا غزيرة من شأنها ان تنبع بالماء قرئ تفجر
مخففا ومشددا وهما سبعيتان ولم يختلفوا في فتفجر الانهار انها مشددة باتفاق السبعة ووجه
ذلك ابو حاتم بأن الاولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الانهار وهي جمع واجيب عنه
بان الينبوع وان كان واحدا في اللفظ فالمراد به الجمع فان الينبوع العيون التي لا ينضب ماؤها ويرد
بان الينبوع عين الماء والجمع ينابيع وانما يقال للعين ينبوع اذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من
غير انقطاع وهو يفعول من نبع الماء والياء زائدة كيعبوب من عب الماء قال مجاهد ينبوعا عيونا
وعن السدي الينبوع هو النهر الذي يجري من العين اَوْ تَكُوْنَ لَكَ جَنَّةٌ اي بستان تستر اشجاره
ارضه وقال ابن عباس جنة ضيعة والمعنى هب انك لا تفجر الانهار لاجلنا ففجرها من اجلك بأن تكون
لك جنة مِّنْ نَّخِيْلٍ وَّعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْاَنْهٰرَ اي تجريها بقوة خِلٰلَهَا اي وسط الجنة تَفْجِيْرًا كثيرا او
تشقيقا اَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا اي قطعا قاله ابن عباس قرأ مجاهد او تسقط
مسندا الى السماء وقرأ من عداه او تسقط على الخطاب اي او تسقط انت يا محمد السماء والكسف بفتح
السين جمع كسفة والكسفة القطعة من الشيء قاله الجوهري يقال اعطني كسفة من ثوبك والجمع
كسف وكسف اي اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قول الله سبحانه ان نشأ نخسف بهم الارض
او نسقط عليهم كسفا من السماء قال ابو علي الكسف بالسكون الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه
على ما قال ابو زيد من كسفت الثوب كسفا اذا قطعته وقال الزجاج من كسفت الشيء اذا غطيته كأنه قيل
او تسقطها طبقا علينا اَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيْلًا اي حال كونهم مقابلين بفتح الباء ومعاينين
لنا اختلف المفسرون في معنى قبيلا فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج واختاره ابو علي الفارسي
فقال اذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير وقيل معناه كفيلا بما تدعيه قاله
الضحاك وقيل شهيدا قاله مقاتل وقيل شاهدا على صحته ضامنا لدركه وقيل هو جمع القبيلة
اي تأتي باصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء وقيل ضمنا وقيل مقابلا كالعشير
والمعاشر اَوْ يَكُوْنَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ اي من ذهب قاله ابن عباس وبه قرأ ابن مسعود واصله

الزينة والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه وقال الزجاج هو الزينة فرجع الى اصل معنى الزخرف
وهو جيد لانه يصير المعنى او يكون لك بيت من زينة أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ اي حتى تصعد في معارجها
والرقي الصعود يقال رقيت في السلم اذا صعدت من باب تعب وارتقيت مثله ويقال رقي بكسر القاف
يرقى بالفتح رقيا على فعول والاصل رقوي وبالكسر في المحسوسات كما هنا واما في المعاني فهو من باب
سعى يقال رقى في الخير والشر قاف الماضي والمضارع واما رقى المريض بمعنى عوذه فهو من باب
رمى يقال رقاه يرقيه اذا تلا عليه شيئا من القران وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ اي لاجل رقيك او به
فاللام للتعليل او بمعنى الباء وهو مصدر نحو مضى يمضي مضيا وهوى يهوي هويا حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا يصدقك ويدل على نبوتك نَّقْرَؤُهُ جميعا او يقرؤه كل واحد منا وقيل معناه كتابا من الله
الى كل واحد منا كما في قوله بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة قال مجاهد يعنون كتابا من
رب العالمين الى فلان بن فلان تصبح عند كل رجل صحيفة عند راسه موضوعة يقرؤها فامر سبحانه رسوله
صلى الله عليه وسلم ان ياتي بما يفيد التعجب من قولهم والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال قُلْ
وفي قراءة سبعية قال سُبْحَانَ رَبِّي تعجبا مما تقدم او عن ان يتحكم عليه او يشاركه احد في القدرة هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا من البشر لا ملكا حتى اصعد السماء رَّسُولًا كسائر الرسل مامورا من الله سبحانه بابلاغكم
فهل سمعتم ايها المقترحون لهذه الامور ان بشرا قدر على شيء منها وان اردتم انني اطلبها لكم من
الله سبحانه حتى يظهرها على يدي فالرسول اذا اتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك لان بها يتبين صدقه ولا ضرورة
الى طلب الزيادة وانا عبد مامور ليس لي ان اتحكم على ربي بما ليس بضروري ولا دعت اليه حاجة ولو
لزمتني الاجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات وطلب لنفسه اظهار آيات فتعالى
الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا وتنزه عن تعنتاتهم وتقدس عن اقتراحاتهم وقد اعطى
النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القران وانشقاق القمر ونبع الماء من بين
اصابعه وما اشبهها وليست بدون ما اقترحوه بل اعظم منه ولكن لم يكن قصدهم طلب الدليل
بل كانوا متعنتين ثم حكى سبحانه شبهة اخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لايرادها وردها
في غير موضع فقال وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا المراد الناس على العموم وقيل اهل مكة على الخصوص
اي ما منعهم الايمان بالقران وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ اي الوحي من الله سبحانه على

رسوله صلى الله عليه وسلم وبين ذلك لهم وارشدهم اليه اي ما منعهم وقت مجيء الهدى ان يؤمنوا
بالقرآن وبالنبوة الا ان قالوا اي ما منعهم الا قولهم أبعث الله بشرا رسولا الهمزة للانكار منهم ان
يكون الرسول من جنس البشر والمعنى ان هذا الاعتقاد الشامل لهم هو الذي منعهم عن الايمان بالكتاب
وبالرسول وعبر عنه بالقول للاشعار بانه ليس الا مجرد قول قالوه بافواههم ثم امر سبحانه رسوله صلى الله
عليه وسلم ان يجيب عن شبهتهم هذه فقال قل لو كان اي لو وجد وثبت في الارض بدل من فيها من
البشر ملائكة يمشون على الاقدام كما يمشي الانس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها قال الزجاج
مستوطنين في الارض اي لا يظعنون عنها الى السماء ومعنى الطمأنينة السكون فالمراد ههنا المقام و
الاستيطان فانه يقال سكن البلد فلان اذا اقام فيها وان كان ماشيا متقلبا في حاجاته لنزلنا
عليهم من السماء ملكا رسولا حتى يكون من جنسهم ويمكنهم مخاطبته والفهم عنه وفيه اعلام
من الله سبحانه بان الرسل ينبغي ان يكونوا من جنس المرسل اليهم فكانه اعتبر في تنزيل الرسول من
جنس الملائكة امرين الاول كون سكان الارض ملائكة والثاني كونهم ماشين على الاقدام غير
قادرين على الطيران باجنحتهم الى السماء اذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها وسمعوا من اهلها
ما يجب معرفته وسماعه فلا تكون في بعثة الملائكة اليهم فائدة ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد
فقال قل لهم يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيدا على ابلاغي اليكم ما امرني به من امور الرسالة
وقال بيني وبينكم ولم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة الكلية وقيل ان اظهار المعجزة على وفق دعوى النبي
شهادة من الله له على الصدق ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله انه كان بعباده خبيرا اي عالما
بجميع احوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها بصيرا بما كان منها وما يكون وفيه تهديد لهم وتسلية له
صلى الله عليه وسلم ثم بين سبحانه ان الاقرار والانكار مستندان الى مشيته فقال ومن يهد الله اي من يرد الله
هدايته فهو المهتد الى الحق او الى كل مطلوب وافرد الضمير حملا على لفظ من ومن يضلل اي يرد
اضلاله فلن تجد لهم الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل من يصلح له لهم جمع الضمير حملا على معنى من اولياء ينصرونهم
ويهدونهم الى الحق الذي اضلهم الله سبحانه عنه او الى طريق النجاة من دونه اي من دون الله سبحانه ونحشرهم
يوم القيامة ماشين على وجوههم هذا الحشر فيه وجهان للمفسرين الاول انه عبارة عن الاسراع
بهم من قول العرب قد مر القوم على وجوههم اذا اسرعوا والثاني انهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم

حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في اهانته وتعذيبه وهذا هو الصحيح لقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم ولما صح في السنة فقد اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن انس قال قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال الذي امشاهم على ارجلهم قادر ان يمشيهم على وجوههم واخرج ابو داود والترمذي وحسنه والبيهقي عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اصناف صنف مشاة وصنف ركبانا وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك والحدب ما ارتفع من الارض وفي الباب احاديث عمياً وبكماً وصماً انتصب على الحال والابكم الذي لا ينطق والاصم الذي لا يسمع اي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون وهذه هيئة يبعثون عليها في اقبح صورة واشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم وقد اثبت الله تعالى لهم الرؤية والكلام والسمع في قوله ورأى المجرمون النار وقوله دعوا هنالك ثبورا وقوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالمعنى هنا عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يلذ مسامعهم وقيل هذا حين يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون وقيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد اليهم هذه الاشياء بعد ذلك ثم من وراء ذلك مأواهم اي المكان الذي يأوون اليه جهنم مستانفة او حال من الضمير قال ابن عباس يعني انهم وقودها كلما خبت اي سكن لهبها بان اكلت جلودهم ولحومهم يقال خبت النار تخبو خبوا اذا خمدت وسكن لهبها قال السمين فاذا ضعف جمرها خمدت فاذا طفئت بالجملة قيل همدت وكلاهما من باب قعد قال ابن قتيبة معنى زدناهم سعيرا تسعرا وهو التلهب والتوقد اي تتوقد ملتهبة ومتسعرة فانهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله بان لا يزالوا على الاعادة والافناء وقد قيل ان في خبوء النار تخفيفا لعذاب اهلها فكيف يجمع بينه وبين قوله لا يخفف عنهم العذاب واجيب بان المراد بعدم التخفيف انه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوء والتسعر وقيل انها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابهم وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان في ايلامهم لان الله تعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه ارادت ان تخبو وقيل نضجت جلودهم واحترقت واعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم ذلك العذاب المذكور جزاؤهم الذي اوجبه الله لهم واستحقوه عنده بانهم كفروا بآياتنا اي بسبب كفرهم بها

فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً
الهمزة للإنكار وقد تقدم تفسير هذه الآية في هذه السورة أئنا لمبعوثون أي مخلوقون خلقاً
فهو مصدر من غير لفظه أو حال أي مخلوقين خلقاً جديداً أو نبعث بعثاً جديداً فجاء سبحانه
بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود فقال أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض
قادر على أن يخلق مثلهم أي من هو قادر على خلقها في عظمها وشدتها فهو على إعادة ما هو
أدون منه في الصغر والضعف أقدر وقيل المراد أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم من الإنس قال
الكرخي أراد بمثلهم إياهم فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين الإعادة مثل الابتداء وذلك
أن مثل الشيء مساوٍ له في حاله فجاز أن يعبر عن الشيء نفسه يقال مثلك لا يفعل كذا أي أنت لا تفعله
أو أنه تعالى قادر على أن يخلق عبيداً يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون هذه الشبهات
الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله يأت بخلق جديد وكقوله ويستبدل قوماً غيركم وعلى القول الأول يكون
الخلق بمعنى الإعادة وعلى هذا القول هو على حقيقته قال الواحدي والأول أشبه والمعنى قد علموا
بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم لأنهم ليسوا بأشد خلقاً
منها كما قال ءأنتم أشد خلقاً أم السماء وجعل لهم أي لبعثهم أجلاً أي وقتاً محققاً للعذاب لا ريب
أي غير مرتاب فيه وهو الموت والقيامة ويحتمل أن يكون الواو للاستئناف وقيل في الكلام تقديم
وتأخير أي أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق
مثلهم فأبى الظالمون إلا كفوراً أي أبى المشركون إلا جحوداً للأجل وعناداً مع وضوح الدليل وفيه
وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء
العيون والأنهار في أراضيهم لتتسع معايشهم بين الله سبحانه أنهم لا يقنعون بل يبقون على
بخلهم وشحهم فقال قل لهم شرحاً لحالهم التي يدعون خلافها لو أنتم تملكون تقديره لو تملكون
أنتم لأن لو تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها وهذا هو الوجه الذي يقتضيه
علم الإعراب أما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ خزائن
رحمة ربي من خزائن الأرزاق إذاً لأمسكتم أي لبخلتم وحبستم في حال الدنيا قال الزجاج أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق
لأمسكوا شحاً وبخلاً خشية الإنفاق أي خشية أن ينفقوا فيفتقروا وفي حذف الفعل

الذي ارتفع به انتم وابراز الكلام في صورة المبتدأ والخبر للدلالة على انهم هم المختصون بالشح قال اهل
اللغة انفق واصرم واعدم واقتر بمعنى قل ماله فيكون المعنى لامسكتم خشية قلة المال وخوف نفاده
وذهابه بالانفاق ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ اي بخيلا ممسكا مضيقا عليه يقال قتر على عياله يقتر ع
قترا وقتورا ضيق عليهم من النفقة وقيل معنى قتورا قليل المال والظاهر ان المراد المبالغة في وصف
بالشح لان الانسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال الا ان يراد ان جميع النوع الانساني
قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده وقد اختلف في هذه الآية على قولين احدهما انها نزلت في المشركين
خاصة وبه قال الحسن والثاني انها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردي ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾
اي علامات واضحات دالة على نبوته قيل ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان المعجزات المذكورة كانها
مساوية لتلك الامور التي اقترحها كفار قريش بل اقوى منها فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من
الآيات الا لعدم المصلحة في استيصالهم ان لم يؤمنوا بها قال اكثر المفسرين الآيات التسع هي الطوفان
والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات وجعل الحسن مكان السنين
ونقص الثمرات البحر والجبل وقال محمد بن كعب القرظي هي الخمس التي في الاعراف والبحر والعصا والحجر و
الطمس على اموالهم وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى وعن ابن عباس في تسع آيات مثل
ما ذكرنا عن اكثر المفسرين وعنه قال يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم وعن صفوان بن عسال ان يهوديين قال احدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبي نسأله
فأتياه فسألاه عن هذه الآية فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا
بالحق ولا تسرفوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء الى السلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة او قال
لا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة ان لا تعتدوا في السبت فقبلا يديه و
رجليه وقالا نشهد انك نبي الله قال فما يمنعكما ان تسلما قالا ان داود دعا الله ان لا يزال في ذريته
نبي وانا نخاف ان اسلمنا ان تقتلنا اليهود اخرجه احمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والطبراني
وابن قانع والبيهقي وغيرهم وعلى هذا المراد بالآيات الاحكام العامة الثابتة في كل الشرائع سميت بذلك
لانها تدل على حال من يتعاطى متعلقاتها في الآخرة من السعادة والشقاوة وقوله عليكم يا يهود الخ
كلام مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام ﴿فَاسْأَلْ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾

اي حين جاءهم موسى وقرئ فسأل اي سأل موسى فرعون ان يخلي بني اسرائيل ويطلق سبيلهم
ويرسلهم معه وعلى الاول السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والايقان لان الادلة اذا تظافرت
كان ذلك اقوى والمسئولون مؤمنو بني اسرائيل كعبد الله بن سلام واصحابه فقال له فرعون الفاء
هي الفصيحة اي فاظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما ارسل به فقال له
فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا المسحور هو الذي سحر فخولط عقله وقيل هو المخدوع وقيل هو
المطبوب وقال ابو عبيدة والفراء هو بمعنى الساحر فوضع المفعول موضع الفاعل قال موسى لقد علمت
يا فرعون ما انزل اي ما اوجد هؤلاء يعني الآيات التسع التي اظهرها وقرئ علمت بضم التاء ايضا على انه لموسى
ووجه الاولى ان فرعون كان عالما بذلك كما قال سبحانه وتعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما
وعلوا قال ابو عبيدة المأخوذ به عندنا فتح التاء وهو الاصح للمعنى لان موسى لا يقول علمت انا وهو الداعي
وروي نحو هذا عن الزجاج ووجه الثانية ان فرعون لم يعلم ذلك وانما علمه موسى الا رب السموات
والارض بصائر اي بينات يبصر بها ودلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته واني لاظنك
يا فرعون مثبورا الظن هنا بمعنى اليقين والثبور الهلاك والخسران اي مخسورا وقيل مسحورا وقيل
مطبوعا على الشر وقيل المثبور الملعون وقيل ناقص العقل وقيل هو الممنوع المصروف عن الخير يقال
ما ثبرك عن كذا اي ما منعك منه حكاه اهل اللغة فاراد فرعون ان يستفزهم من الارض اي
يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من ارض مصر بابعادهم عنها وقيل اراد ان يقتلهم ويستأصلهم
وعلى هذا يراد بالارض مطلق الارض في القاموس فزه عني عدله وفز فلانا عن موضعه ازعجه و
استفزه استخفه واخرجه من داره وافززته افزعته فاغرقناه ومن معه جميعا فوقع عليه وعليهم
الهلاك بالغرق ولم يبق منهم احد ونجى موسى وقومه فعكسنا عليه مكره وقلنا من بعده اي
من بعد اغراقه ومن معه جميعا لبني اسرائيل اسكنوا الارض اي ارض الشام ومصر التي اراد
ان يستفزهم منها فاذا جاء وعد الآخرة هي القيامة او الكرة الآخرة او الساعة الآخرة وهي
النفخة الثانية الموعود بها وقيل اراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء جئنا بكم لفيفا اي جميعا
الى موقف القيامة قال الجوهري اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال جاء القوم بلفهم و
لفيفهم اي باختلاطهم فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط

للمؤمن بالكافر والسعيد بالشقي قال الاصمعي اللفيف جمع ليس له واحد وهو مثل الجمع وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ
وَبِالْحَقِّ نَزَلَ الضمير يرجع الى القرآن والمعنى انزلناه متلبسا بالحق كما انه نزل وفيه الحق وقيل المعنى ومع الحق
انزلناه كقولهم ركب الامير بسيفه اي مع سيفه وبالحق نزل اي بمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقول نزلت بزيد
وقال ابو علي الفارسي الباء في الموضعين بمعنى مع وقيل المعنى وبالحق قدرنا ان ينزل وكذلك نزل
او ما انزلناه من السماء الا محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الا محفوظا من
تخليط الشياطين والتقديم في الموضعين للتخصيص وفي الشهاب الحق فيهما ضد الباطل لكن المراد بالاول
الحكمة الالهية المقتضية لانزاله وبالثاني ما يشتمل عليه من العقائد والاحكام ونحوها وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا لمن اطاع بالجنة وَنَذِيرًا محذرا لمن عصى بالنار والقصر اضافي اي لا هاديا فان الهدى هدى
الله وَقُرْآنًا منصوب بفعل مقدر اي وآتيناك قرآنا وقيل نصب بفعل مضمر يفسره قوله فَرَقْنَاهُ بالتخفيف
على قراءة الجمهور اي بيناه واوضحناه او فرقنا فيه بين الحق والباطل وقال الزجاج فرقه الله في التنزيل
ليفهمه الناس قال ابو عبيد التخفيف اعجب الي لان تفسيره بيناه وليس للتشديد معنى الا انه نزل متفرقا
ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الاعرابي انه قال فرقت مخففا بين الكلام وفرقت مشددا بين الاجسام
وعن ابن عباس فرقناه مثقلا وقال نزل القرآن الى السماء في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان
المشركون اذا احدثوا شيئا احدث الله لهم جوابا ففرقه الله في عشرين سنة وقد روي نحو هذا عنه
بطرق وعنه فرقناه فصلناه على مكث بامد قال في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة
وغيرهم وفيه وجهان احدهما ان التضعيف للتكثير اي فرقنا آياته بين امر ونهي وحكم واحكام و
مواعظ وامثال وقصص واخبار ماضية ومستقبلة والثاني انه دال على التفريق والتنجيم انتهى ثم ذكر سبحانه
العلة لقوله فرقناه فقال لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ اي على تطاول في المدة شيئا بعد شيء على
القراءة الثانية او انزلناه آية آية وسورة سورة ومعناه على القراءة الاولى على ترسل وتمهل وتؤدة
في التلاوة فان ذلك اقرب الى الفهم واسهل للحفظ وقد اتفق القراء على ضم الميم في مكث الا ابن محيصن
فانه قرأ بفتح الميم وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى انزلناه منجما مفرقا في ثلاث وعشرين
سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة ولو اخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم
يطيقوا قُلْ يا محمد للكافرين المقترحين للآيات آمِنُوا بِهِ اي بالقرآن أَوْ لَا تُؤْمِنُوا فسواء ايمانكم به و

امتناعكم عنه لا يزيده الا نقصانا وفي هذا وعيد شديد لامره صلى الله عليه وسلم
بالاعراض عنهم واحتقارهم ثم علل ذلك بقوله إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ اي العلماء الذين
قرؤا الكتب السابقة قبل انزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وامارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق
والمبطل ورأوا نعتك وصفة ما انزل اليك في تلك الكتب كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل
وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم وقيل الضمير في قوله من قبله راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والاولى
ما ذكرناه من رجوعه الى القرآن لدلالة السياق على ذلك إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
اي يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه وانما قيد الخرور وهو السقوط بكونه للاذقان اي
عليها لان الذقن وهو مجمع اللحيين اول ما يحاذي الارض قال الزجاج لان الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدئ
الانسان بالخرور للسجود فاول ما يحاذي الارض به من وجهه الذقن وقيل المراد تعفير اللحية بالتراب فان ذلك
غاية الخضوع وايثار اللام في للاذقان على على للدلالة على الاختصاص فكانهم خصوا اذقانهم بالخرور
وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصلها انه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم
ولا معرفة بكتب الله ولا بانبيائه فلا تبال بذلك فقد آمن به اهل العلم وخشعوا له وخضعوا له عند
تلاوته عليهم خضوعا ظهر اثره البالغ بكونهم يخرون على اذقانهم سجدا لله وَيَقُولُونَ في سجودهم
سُبْحَانَ رَبِّنَا اي تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب او تنزيها له عن خلف وعده
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ان هذه هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ كرر ذكر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه والسجود
والثاني للبكاء بتاثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال وَيَزِيدُهُمْ اي سماع القرآن
او القرآن بسماعهم له او البكاء او السجود او المتلو لدلالة قوله اذا يتلى خُشُوعًا اي لين قلب ورطوبة
عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل
بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم اخرجه
الترمذي والنسائي وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار
عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله اخرجه الترمذي ثم اراد سبحانه ان يعلم
عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ومعناه انهما مستويان في جواز

الاطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال أَيًّا مَا تَدْعُوا اصل الكلام اياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه
فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى للمبالغة وللدلالة على انه اذا حسنت اسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ومعنى
حسن الاسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه ابو السعود قال
الزجاج اعلمهم ان دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد وسيأتي ذكر سبب نزول
الاية ويتضح المراد منها والحسنى مؤنث الاحسن الذي هو افعل تفضيل لا مؤنث احسن المقابل لامرأة حسناء
كما في القاموس عن ابن عباس قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فقال في دعائه يا الله يا
رحمن فقال المشركون انظروا الى هذا الصابي ينهانا ان ندعو الهين وهو يدعو الهين فانزل الله هذه الاية
وعن ابراهيم النخعي قال ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة
يسمونه الرحمن فنزلت الاية وهو مرسل وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول
في سجوده يا رحمن يا رحيم فسمعه رجل من المشركين فلما اصبح قال لاصحابه ان ابن ابي كبشة يدعو
الرحمن الذي باليمن وكان رجل باليمن يقال له رحمن فنزلت ثم ذكر كيفية اخرى للدعاء فقال
وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا اي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بان الجهر والمخافتة
من نعوت الصوت لا من نعوت افعال الصلوة فهو من اطلاق الكل وارادة الجزء يقال خفت
صوته خفوتا اذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع اذا ذبل وخافت الرجل بقراءته اذا
لم يرفع بها صوته وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والاول اولى اخرج البخاري ومسلم
وغيرهما عن ابن عباس قال نزلت يعني هذه الاية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار فكان اذا صلى باصحابه
رفع صوته بالقران فاذا سمع ذلك المشركون سبوا القران ومن انزله ومن جاء به فقال الله لنبيه
صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلوتك اي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القران ولا تخافت بها عن اصحابك
فلا تسمعهم القران حتى يأخذوا عنك الحديث وعن محمد بن سيرين قال نبئت ان ابا بكر كان اذا قرأ
خفض وكان عمر اذا قرأ جهر فقيل لابي بكر لم تصنع هذا فقال انا اناجي ربي وقد عرف حاجتي وقيل
لعمر لم تصنع هذا قال اطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها
قيل لابي بكر ارفع شيئا وقيل لعمر اخفض شيئا واخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت انما نزلت
هذه الاية في الدعاء وعنها انما نزلت في التشهد وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ اي الجهر والمخافتة المدلول عليهما

بالفضلين سَبِيلًا اي طريقا متوسطا بين الامرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتا بها وعلى التفسير الثاني
يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهي عن المخافة بقراءة الصلوات كلها والامر
بجعل بعض منها مجهورا به وهو صلوة الليل والمخافة بصلوة النهار وذهب قوم الى ان هذه الاية
منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولما امران لا يذكر ولا ينادي الا بالاسماء الحسنى نبه على كيفية
الحمد فقال وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين ان
الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ اي مشارك له في ملكه
والوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الالهة وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ
مِنَ الذُّلِّ اي لم يحتج الى موالاة احد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير قال الزجاج اي لم يحتج ان
ينتصر بغيره وفي التعرض في اثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بان المستحق للحمد من له هذه الصفات لانه القادر على الايجاد وافاضة
النعم لكون الولد مجبنة مبخلة ولانه ايضا يستلزم حدوث الاب لانه متولد من جزء من اجزائه و
المحدث غير قادر على كمال الانعام والشركة في الملك انما يتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ومن
لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له فضلا عن نظام ما هو عليه وايضا الشركة
موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى اوليائه ويؤديه الى الفساد
كما قال تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا والمحتاج الى ولي يمنعه من الذل وينصره على من اراد اذلاله
ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا اي عظمه تعظيما تاما وصفه ع ١٢
بانه اعظم من كل شيء وعن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم اهله هذه الاية
الحمد لله الخ الصغير من اهله والكبير اخرجه ابن جرير واخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم
بن ابي امية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم اذا افصح سبع مرات الحمد لله الذي
الى اخر السورة وروى الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
انه كان يقول اية العز الحمد لله الذي الخ ***

سورة الكهف مائة واحدى عشرة اية

قال القرطبي وهي مكية في قول جميع المفسرين وبه قال ابن عباس وابن الزبير وروي

عن فرقة ان اول السورة نزل بالمدينة الى قوله جرزا والاول اصح وقد ورد في فضلها احاديث منها ما اخرجه احمد ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات من اول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال واخرج مسلم والبخاري وغيرهما عن البراء قال قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة او سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ فلان فان السكينة نزلت للقرآن وهذا الذي كان يقرأ هو اسيد بن حضير كما بينه الطبراني وفي قراءة العشر الآيات من اولها او من آخرها احاديث واخرج الطبراني في الاوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها فخرج الدجال لم يضره واخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والارض ولكاتبها من الاجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الاخرى وزيادة ثلاثة ايام ومن قرأ الخمس الاواخر منها عند نومه بعثه الله من اي الليل شاء قالوا بلى يا رسول الله قال سورة اصحاب الكهف اخرجه ابن مردويه واخرج ايضا عن عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة وفي الباب احاديث وآثار وفيما اوردناه كفاية مغنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ هل المراد الاعلام بذلك للايمان به وتكون الجملة خبرية لفظا ومعنى او الثناء به اي انشاء الثناء بثبوت الحمد لله وتكون الجملة انشائية لفظا ومعنى بمعنى انها نقلت في العرف للانشاء او الاعلام والثناء كلاهما والجملة مستعملة في الخبر والانشاء على طريق الجمع بين الحقيقة والمجاز احتمالات افيدها الثالث وقال الشوكاني لم علم عباده كيف يحمدونه على افاضة نعمه عليهم ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما هو في حيز الصلة لما قبله ووجه كون انزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه اطلع بواسطته على اسرار التوحيد واحوال الملائكة والانبياء وعلى كيفية الاحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد امته بها وكذلك العباد كان انزال الكتاب

على نبيهم نعمة لهم لما علمت مما ذكرناه في النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ اي فيه ﴿عِوَجًا﴾ اي شيئا من العوج بنوع من انواعه كالاختلال في اللفظ والمعنى والعوج بالكسر في المعاني اي فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة وبالفتح في الاعيان اي فيما يدرك به كذا قيل ويرد عليه قوله سبحانه لا ترى فيها عوجا ولا امتا يعني الجبال وهي من الاعيان قال الزجاج المعنى لم يجعل فيه اختلافا كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل لم يجعله مخلوقا والجملة معطوفة على الصلة قبلها او اعتراضية او حالية ﴿قَيِّمًا﴾ القيم المستقيم الذي لا ميل فيه ولا افراط فيه ولا تفريط او القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية او القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها يشهد بصحتها وعلى الاول يكون تاكيدا لما دل عليه نفي العوج فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن ادنى عوج في الحقيقة اي جعله قيما وقيل حالا وقيل في الكلام تقديم وتاخير والتقدير انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ثم فصل سبحانه ما اجمل في قوله قيما فقال ﴿لِيُنْذِرَ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم والمعنى لينذر الكافرين ﴿بَأْسًا﴾ اي عذابا ﴿شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ اي صادرا من عنده نازلا من لدنه ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ قرئ يبشر مشددا ومخففا واجرى الموصول على موصوفه المذكور لان مدار قبول الاعمال هو الايمان ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة قاله السدي حال كونهم ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ﴾ اي في ذلك الاجر ﴿أَبَدًا﴾ اي مكثا دائما لا انقطاع له وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الانذار وذكر المنذر بخصوصه وحذف المنذر به وهو البأس الشديد لتقدم ذكره فقال ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود والنصارى قاله السدي وبعض كفار قريش القائلين بان الملائكة بنات الله فذكر سبحانه اولا قضية كلية وهي انذار عموم الكفار ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية تنبيها على كونها اعظم جزئياتها فافاد ذلك ان نسبة الولد الى الله سبحانه اقبح انواع الكفر ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ اي بالولد واتخاذ الله اياه ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ومن مزيدة لتاكيد النفي والجملة مستانفة والمعنى ما لهم بذلك علم اصلا وانتفاء العلم بالشيء اما للجهل بالطريق الموصل اليه او لانه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ اي ولا لاحد من اسلافهم علم بذلك بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة وقلدهم ابناؤهم فضلوا جميعا وهذا مبالغة في كون تلك المقالة فاسدة باطلة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ قال الفراء كبرت تلك الكلمة كلمة وقال الزجاج

كبرت مقالتهم كلمة والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولدا ومعنى الكلام على التعجب اي ما اكبرها كلمة ثم وصف الكلمة بقوله تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها والخارج من الفم وان كان مجرد الهوى لكن لما كانت الحروف والاصوات كيفيات قائمة بالهوى اسند الى الحال ما هو من شان المحل والمعنى هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكانه يجري على لسانهم على سبيل التقليد وكثيرا ما يوسوس الشيطان في قلوب الناس من المنكرات ما لا يتمالكون ان يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال إِنْ اي ما يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا لا مجال للصدق فيه بحال ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ قال الاخفش والفراء البخع الجهد وقال الكسائي بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وقال ابو عبيدة معناه مهلك نفسك فيكون المعنى على هذه الاقوال لعلك مجهد نفسك او مضعفها او مهلكها والمقصود من هذا الترجي النهي اي لا تبخع نفسك من اجل غمك على عدم ايمانهم اي لا تغتم لئلا تهلك نفسك وفي السمين ولعل قيل للاشفاق على بابها وقيل للاستفهام وهو راي الكوفيين وقيل للنهي عَلَىٰ آثَارِهِمْ اي على فراقهم من بعد توليهم عنك واعراضهم او هلاكهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ اي القرآن أَسَفًا اي غيظا وحزنا قاله قتادة وقال مجاهد جزعا ونصبه على المفعول له وجواب ان محذوف دل عليه الترجي تقديره فلا تحزن وهذا عند الجمهور وعند غيرهم هو جواب متقدم عن ابن عباس قال اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابو جهل والنضر بن الحارث وامية بن خلف والعاص بن وائل والاسود بن عبد المطلب وابو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه اياه وانكارهم ما جاء به من النصيحة فاحزنه حزنا شديدا فانزل الله سبحانه فلعلك باخع نفسك الآية إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا هذه الجملة تعليل للنهي المفهوم من الترجي والقصد منه تسلية له صلى الله عليه وسلم وتسكين اسفه وغيظه على عدم ايمانهم لانه مخبر لاعمال العباد مجازيهم فكانه يقول له صلى الله عليه وسلم لا تحزن فاني منتقم منهم لك وقيل استيناف والمعنى انا جعلنا ما عليها مما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من الحيوانات والنبات والشجر والانهار والجماد وغير ذلك من النعم كالذهب والفضة والمعادن كقوله سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا قال ابن عباس يعني الرجال والعلماء

زينة الارض وعن سعيد بن جبير مثله وقال الحسن هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة لنبلوهم أيهم أحسن عملا اللام للغرض او للعاقبة والمراد بالابتلاء انه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان قال الزجاج ايهم رفع بالابتداء الا ان لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحن اهذا احسن عملا ام ذاك قال الحسن ايهم ازهد اشد للدنيا تركا ومثله عن الثوري وقال مقاتل ايهم اصلح فيما اوتي من المال وقال قتادة ايهم اتم عقلا واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلت ما معنى ذلك يا رسول الله قال ليبلوكم ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله و اسرعكم في طاعة الله ثم اعلم سبحانه انه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال وإنا لجاعلون اي مصيرون ما عليها من هذه الزينة عند تناهي عمر الدنيا صعيدا ترابا قال ابو عبيدة الصعيد المستوي من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لا نبات فيه بعد ان كانت خضراء معشبة اي ارضا ملساء وقيل فتاتا وهو الذي يضمحل بالريح لا اليابس الذي يرسب ونظيره كل من عليها فان وقوله فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا والمعنى انه لا بد من المجازاة بعد فناء ما على الارض وتخصيص الاهلاك بما على الارض يفهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات تدل ايضا على ان الارض لا تبقى وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال قتادة الصعيد الجبال التي ليس فيها زرع جرزا يابسا قال الفراء الجرز الارض التي لا نبات فيها من قولهم امرأة جرز اذا كانت اكولا وسيف جراز اذا كان مستأصلا وجرز الجراد والشاة والابل الارض اذا اكلت ما عليها ويقال سنة جرز وسنون اجراز لا مطر فيها وارض جرز وارضون اجراز لا نبات بها وجرزا نعت لصعيدا فكانه مجاز علاقته المجاورة وعن الحسن الجرز الخراب اي نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك ومعنى النظم القرآني لا تحزن يا محمد مما وقع من هؤلاء من التكذيب فانا قد جعلنا ما على الارض زينة لاختبار اعمالهم وانا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازوهم ان خيرا فخير وان شرا فشر أم حسبت اي احسبت او بل حسبت ومعناها الانتقال من حديث الى حديث آخر لا لابطال الاول ولا اضراب عنه أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا المعنى ان القوم لما تعجبوا من قصة اصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان قال سبحانه بل اظننت

يا محمد انهم كانوا عجبا من آياتنا فقط لا تحسب ذلك فان آياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على جعل
ما على الارض زينة لها للابتلاء ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كان لم تغن بالامس لا تستبعد قدرته
ولا حفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة وان كانت قصتهم خارقة للعادة فان آيات الله
سبحانه كذلك وفوق ذلك وحتى عجبا ذات عجب والكهف هو الغار الواسع في الجبل فان كان صغيرا يسمى غارا
والجمع كهوف في الكثرة واكهف في القلة والرقيم قال كعب والسدي انه اسم القرية التي خرج منها اصحاب
الكهف وقال سعيد بن جبير ومجاهد انه لوح من حجارة او رصاص رقمت فيه اسماؤهم وجعل على
باب الكهف نعيه فلان بن فلان من مدينة كذا خرج في وقت كذا من سنة كذا قال الفراء ويروى
انه انما سمي رقيما لان اسماءهم كانت مرقومة والرقم الكتابة وعن قتادة ان الرقيم دراهمهم التي كانت
معهم وقال ابن عباس الرقيم كتاب مرقوم عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام
وقيل ان الرقيم اسم كلبهم قاله انس وقيل هو اسم الوادي الذي كانوا فيه وقيل اسم الجبل الذي
فيه الغار قال الزجاج اعلم الله سبحانه ان قصة اصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله لان خلق
السموات والارض وما بينهما اعجب من قصتهم وقال ابن عباس يقول الذي آتيتك من العلم والسنة
والكتاب افضل من شان اصحاب الكهف والرقيم إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ اي صاروا اليه ونزلوه و
سكنوه والتجؤوا اليه وجعلوه مأواهم يقال اوى الى منزله من باب ضرب اذا نزله بنفسه وسكنه والمأوى لكل
حيوان مسكنه والفتية هم اصحاب الكهف جمع فتى وهو الطري من الشباب اظهار في مقام الاضمار للتنصيص
على وصفهم وسنهم فكانوا في سن الشباب مردا وكانوا سبعة خرجوا من مدينتهم خائفين على
ايمانهم من قومهم الكفار حيث امروهم بعبادة غير الله وكذلك ملك المدينة امرهم بها ذكروا اسمه
دقيانوس ومدينتهم اسمها افسوس عند اهل الروم لانها من مدائنهم واسمها عند العرب طرسوس
فلما امروهم بعبادة غير الله ذهب كل واحد منهم الى بيت ابيه واخذ منه زادا ونفقة وخرجوا
فارين هاربين حتى اووا الى كهف في جبل قريب من المدينة فاشتغلوا فيه وصاروا يعبدون الله
ويأكلون ويشربون ويبعثون احدا منهم خفية ليشتري لهم الطعام من المدينة وهم خائفون
من اطلاع اهل المدينة عليهم فيقتلوهم لعدم دخولهم في دينهم فجلسوا يوما بعد الغروب
يتحدثون فالقى الله عليهم النوم وذلك قوله تعالى فضربنا على آذانهم كما سيأتي تفصيله

فقالوا ربنا آتنا من لدنك اي من عندك رحمة التنوين اما للتعظيم او للتنويع وتقديم من لدنك
للاختصاص اي رحمة مختصة بانها من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وهي المغفرة في الآخرة
والامن من الاعداء والرزق في الدنيا وهيئ لنا من امرنا رشدا اي اصلح لنا من قولك هيأت
الامر فتهيأ والمراد بامرهم الامر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار والرشد نقيض الضلال
ومن للابتداء ويجوز ان تكون للتجريد كما في قولك رايت منك اسدا وتقديم المجرورين للاهتمام
بهما اي اجعل امرنا رشدا او يسر لنا طريق رضاك فضربنا على آذانهم قال المفسرون انمناهم
المعنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الاصوات اي ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها
للانامة الثقيلة المانعة من وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها ففي الكلام تجوز
بطريق الاستعارة التبعية وهذا النوم من جملة الرحمة التي طلبوها فكانه قال فاستجبنا دعاءهم
ومن جملة استجابته ان انمناهم وقلبناهم في نومهم ذات اليمين وذات الشمال في الكهف
سنين عددا اي ذوات عدد على انه مصدر او بمعنى معدود وهو صفة على انه بمعنى المفعول ويستفاد
من وصف السنين بالعدد الكثرة قال الزجاج ان الشيء اذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج الى
العد وان كثر احتاج الى ان يعد وقيل يستفاد منه التقليل لان الكثير قليل عند الله وان يوما
عند ربك كالف سنة مما تعدون ثم بعثناهم اي ايقظناهم من تلك النومة لنعلم اي ليظهر
معلومنا واللام للعاقبة وقيل للتعليل وقرئ بالتحتية والفاعل هو الله تعالى ففيه التفات عن
التكلم الى الغيبة. قيل والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو الاختبار مجازا فيكون المعنى بعثناهم
لنعامل معاملة من يختبرهم والاولى ما ذكرناه من ان المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده اي
الحزبين من قوم الفتية اهل الهدى واهل الضلالة فالمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين
والكافرين المختلفين في مدة لبثهم وقيل المراد نفس اصحاب الكهف لا اهل المدينة اختلفوا بعد
انتباههم كم لبثوا وقيل المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك واصحاب الكهف
قيل ان اصحاب الكهف حزب واصحابهم حزب قال الفراء ان طائفتين من المسلمين في زمان اصحاب الكهف
اختلفوا في مدة لبثهم احصى اي اضبط لما لبثوا امدا وكانه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف
فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه قال ابن جرير انهم كانوا في اليوم

الذي خرجوا فيه والشهور والسنة وما مصدرية اي احصى لبثهم او بمعنى الذي وقيل اللام
زائدة وقيل على بابها من الصلة اي لاجل قاله ابو البقاء وما بمعنى الذي والامد الغاية وقيل ان
احصى افعل تفضيل واختاره الزجاج والتبريزي ورد بانه خلاف ماتقرر في علم الاعراب وما
ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم افلس من ابن المذلق واعدى من الجرب وقال ابو علي الفارسي والزمخشري
وابن عطية ان احصى فعل ماض نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ هذا شروع في تفصيل ما اجمل في قوله
اذ اوى الفتية اي نحن نخبرك بخبرهم بِالْحَقِّ اي قصصناه بالحق او متلبسا بالحق والصدق إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ اي احداث وشبان كان احدهم وزير الملك دقيانوس وكانوا من اشراف تلك المدينة و
من عظماء اهلها والجملة مستانفة واقعة في جواب سوال اقتضاه ما قبلها فكانه قيل وما نبأهم والفتية
جمع قلة آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فيه التفات من التكلم الى الغيبة اذ لو جاء على نسق الكلام لقيل آمنوا بنا وَزِدْنَاهُمْ
هُدًى بالتثبيت والتوفيق وفيه التفات من الغيبة الى التكلم قال الربيع بن انس هدى اخلاصا وقيل
ايمانا وبصيرة وقيل يقينا وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ اي قويناها بالصبر على هجر الاهل والاوطان و
فراق الخلان والاخدان والفرار الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام
حيث قالوا للملك ربنا رب السموات الخ ولم يحصل لهم منه رعب في الله قال قتادة ربطنا قلوبهم
بالايمان وشددناها بالصبر والتثبيت فيه استعارة تصريحية تبعية لان الربط هو الشد بالحبل
إِذْ قَامُوا اختلف اهل التفسير في هذا القيام على اقوال فقيل انهم اجتمعوا وراء المدينة من غير
ميعاد فقال رجل منهم هو اكبر القوم اني لاجد في نفسي شيئا ان ربي رب السموات والارض فقالوا ونحن
كذلك نجد في انفسنا فقاموا جميعا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قاله مجاهد وقال اكثر المفسرين
انه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس وكان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء
الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه وقد امرهم بالسجود للاصنام فقالوا ربنا رب السموات والارض
اي قالوا جملا ستا ثلاثة بين يدي ملكهم اخرها قوله شططا وثلاثة بعد انصرافهم عن مجلسه
لقومهم اخرها قوله كذبا وقال عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ
إِلَٰهًا اي لن نعبد معبودا اخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا اي قولا ذا شطط
اي افراط في الكفران دعونا الها غير الله فرضا او قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة والشطط الغلو

ومجاوزة الحد القدر في كل شيء يقال شطت الدار بعدت وشط فلان في حكمه شطوطا وشططا جار
وظلم وشط في القول اخلط وشطط في السوم افرط والجميع من باب ضرب وقتل وقال قتادة شططا كذبا
وقال السدي جورا هؤلاء اي اهل بلدهم قومنا عطف بيان او بدل اتخذوا من دونه اي من دون الله
آلهة اصناما يعبدونها وفي هذا الاخبار معنى الانكار وفي الاشارة اليهم تحقير لهم لولا يأتون عليهم
بسلطان بين اي هلا يأتون على عبادتهم لها بحجة بينة ظاهرة تصلح للتمسك بها وفيه تبكيت لان الاتيان
بحجة على عبادة الاصنام محال وهذه جملة طلبية وليست صفة لآلهة لفساده معنى وصناعة قال
الزمخشري وفي الآية دليل على فساد التقليد وانه لابد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت فمن اي لا احد
اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك اليه وزعمهم ان له شريكا في العبادة ثم قال بعضهم لبعض
وقت اعتزالهم واذ اعتزلتموهم اي فارقتموهم في الاعتقاد او اردتم الاعتزال الجسماني وتنحيتم عنهم
جانبا اي عن العابدين للاصنام وما يعبدون ما موصولة او مصدرية اي اذا اعتزلتم معبودهم او
الذي يعبدونه الا الله استثناء منقطع على تقدير انهم لم يعبدوا الا الاصنام او متصل على تقدير
انهم شركوهم في العبادة مع الله سبحانه وقيل هو كلام معترض اخبار من الله سبحانه عن الفتية انهم
لم يعبدوا غير الله فيكون ما على هذا نافية فأووا اي الجئوا وصيروا الى الكهف واجعلوه مأواكم قال الفراء
هو جواب اذ ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم وقيل هو دليل على جوابه اي اذا اعتزلتموهم اعتزالا
اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا واذا اردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف ينشر
اي يبسط ويوسع لكم ربكم مالك امركم من رحمته في الدارين ويهيئ اي يسهل وييسر لكم من امركم
الذي انتم بصدده من الفرار بالدين مرفقا بكسر الميم وفتحها لغتان قرئ بهما مأخوذ من الارتفاق وهو
الانتفاع وقيل فتح الميم اقيس وكسرها اغلب اكثر العرب على كسر الميم من الامر ومن مرفق الانسان وقد
تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان وكأن الذين فتحوا ارادوا ان يفرقوا بين المرفق من الامر والمرفق من الانسان
وقال الكسائي الكسر في مرفق اليد وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به والمرفق بفتح الميم الامر الرافق والمراد هنا
ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص وانما قالوا ذلك ثقة بفضل
الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه او اخبرهم به نبي عصرهم وترى الشمس اذا طلعت شرع سبحانه في بيان
حالهم بعد ان اووا الى الكهف تزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه وقيل تزور

بمعنى تتقبض من الزور اي تنقبض والاول اولى ومعنى الآية ان الشمس اذا طلعت تميل وتعدل وتتنحى عن
كهفهم ذات اليمين اي ناحية اليمين وهي الجهة المسماة باليمين واذا غربت تقرضهم القرض القطع
قال الكسائي والاخفش والزجاج وابو عبيدة تعدل عنهم وتتركهم قرضت المكان عدلت عنه تقول
لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول انما قرضته اذا مررت به وتجاوزت عنه وقال الفارسي معنى تقرضهم
تعطيهم من ضوءها شيئا ثم يزول بسرعة كالقرض يسترد وقد ضعف بانه كان ينبغي ان يقرأ تقرضهم
بضم التاء لانه من اقرض والمعنى ان الشمس اذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين اي يمين الداخل الى الكهف
واذا غربت تمر ذات الشمال اي جهة شمال الكهف لا تصيبه لا في ابتداء النهار ولا في آخر النهار بل تعدل
عن سمته الى الجهتين وهم في فجوة منه الفجوة المكان المتسع ومما يدل على ان الفجوة المكان الواسع قول الشاعر
البست قومك مخزاة ومنقصة ۔ حتى ابيحوا وخلوا فجوة الدار ۔ وقال سعيد بن جبير الفجوة
الخلوة من الارض ويعني بالخلوة الناحية منها وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان الاول انهم مع
كونهم في مكان منفتح انفتاحا واسعا في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لان
الله سبحانه حجبها عنهم كرامة والثاني ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال مستقبلا لبنات
النعش في ارض الروم فاذا طلعت الشمس كانت عن كهف اليمين واذا غربت كانت عن يساره ولا تقع عليهم عند الطلوع
ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها وتغير الوانهم وتبلي ثيابهم ولكن اختار الله لهم مضجعا
في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه ويؤيد القول الاول قوله ذلك من
آيات الله فان صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة انسب بمعنى كونها آية ويؤيده
ايضا اطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها الى جهة كذا وعلى الثاني يكون المعنى ان شأنهم وحديثهم
من آيات الله والاول اولى وقد قيل انه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة
الدبور وهم في زاويته وذهب الزجاج الى ان فعل الشمس كان آية من الله تعالى من دون ان يكون باب
الكهف الى جهة توجب ذلك وعلى الجملة فالآية في ذلك ان الله تعالى آواهم الى كهف هذه صفته لا الى
كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار وعلى هذا فيمكن ان يكون صرف
الشمس عنهم باظلال غمام او سبب آخر والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء وتغير الابدان و
الالوان اليهم والتأذي بحر او برد ثم اثنى سبحانه عليهم بقوله من يهد الله الى الحق مثل اصحاب الكهف

فَهُوَ الْمُهْتَدِ الذي ظفر بالهدى واصاب الرشد والفلاح وَمَنْ يُضْلِلْ اي يضلله الله ولم يرشده كدقيانوس
ع واصحابه فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا اي ناصرا يهديه الى الحق ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب احوالهم
فقال وَتَحْسَبُهُمْ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل احد أَيْقَاظًا جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وَهُمْ رُقُودٌ
اي نيام وهو جمع راقد كقعود في قاعد قيل وسبب هذا الحسبان ان عيونهم كانت مفتحة وهم
نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ اي نقلبهم في رقدتهم
الى الجهتين لئلا تأكل الارض اجسادهم ولحومهم قاله سعيد بن جبير وتعجب منه الامام الرازي
وقال ان الله قادر على حفظهم من غير تقليب ولقائل ان يقول لا ريب في قدرة الله تعالى ولكن جعل
لكل شيء سببا في اغلب الاحوال قاله الكرخي قيل لهم تقلبة واحدة في كل سنة مرة في يوم عاشوراء وقال
ابن عباس ستة اشهر على ذي الجنب اليمين وستة اشهر على ذي الجنب الشمال وعلى هذا كان لهم تقلبتان
في السنة وقيل كل تسع سنين وقالت فرقة انما قلبوا في التسع الاواخر واما في الثلثمائة فلا وظاهر كلام
المفسرين ان التقليب من فعل الله ويجوز ان يكون من ملك بامر الله فيضاف الى الله تعالى قال القرطبي [illegible]
وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضي كما تقرر
في علم النحو اي ماد يديه قال اكثر المفسرين هربوا من ملكهم ليلا فمروا براع معه كلب فتبعهم وقيل
كان لواحد منهم قال مجاهد اسم كلبهم قطمورا وعن الحسن اسمه قطمير وقيل اسمه ريان وقيل
صهبان قيل كان كلبا اغر وقيل فوق القلطي دون الكردي والقلطي كلب صيني وقيل كان اصفر
وقيل كان اسمر اللون وقيل كان يضرب الى حمرة وقيل كلون السماء قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب
اصحاب الكهف وحمار بلعم ولا ادري اي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز وما الذي
حملهم على هذا الفضول الذي لا مستند له في السمع ولا في العقل بِالْوَصِيدِ قال ابو عبيد وابو عبيدة هو
فناء البيت وكذا قال المفسرون وقيل العتبة ورد بان الكهف لا يكون له عتبة ولا باب وانما اراد ان
الكلب موضع العتبة من البيت وقال ابن عباس بالوصيد بالفناء وبالباب وقيل بفناء الكهف وقيل
الصعيد والتراب قال بعضهم كلب احب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الايمان وكلمة
الاسلام وحب نبي الله وصحبه وقال الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم الآية وفي هذا تسلية وامن للمؤمنين
المقصرين عن درجات الكمال المحبين للصالحين الانبياء والعلماء المخالطين للاولياء والاصفياء لَوِ اطَّلَعْتَ

عليهم اي لو نظرت اليهم وهم على تلك الحالة لوليت منهم فرارا اي لفررت منهم هاربا ولملئت
منهم رعبا اي خوفا وفزعا يملأ الصدر وقرئ رعبا بسكون العين وضمها وسبب الرعب الهيبة التي
البسهم الله اياها وقيل طول اظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم ووحشة مكانهم ذكره المهدوي
والنحاس والزجاج والقشيري ويدفعه قوله تعالى لبثنا يوما او بعض يوم فان ذلك يدل على انهم
لم ينكروا من حالهم شيئا ولا وجدوا من اظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة وقيل لان اعينهم
كانت منفتحة كالمستيقظ وقيل ان الله منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد قال ابن عطية والصحيح في امرهم ان
الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم اية فلم يبل لهم ثوب ولم تتغير لهم
صفة ولم ينكر الناهض الى المدينة الا معالم الارض والبناء ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليهم
اهم ذكره القرطبي وكذلك اي وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات وانمناهم في الكهف تلك النومة وحفظنا
اجسامهم من البلى على طول الزمان بعثناهم من نومتهم وجعلنا بعثهم اية قاله الزجاج والزمخشري
وفيه تذكير بقدرته على الاماتة والبعث جميعا ثم ذكر الامر الذي لاجله بعثهم فقال ليتساءلوا
بينهم اي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور
القدرة الباهرة واللام متعلقة بالبعث فقيل هي للصيرورة لان البعث لم يكن للتساؤل قاله ابن عطية
والصحيح انها على بابها من السببية ولا اقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها وانما افرده لاستتباعه لسائر
الآثار قال قائل اي واحد منهم وهو كبيرهم ورئيسهم مكسلمينا كم لبثتم في النوم قالوا ذلك لانهم
رأوا في انفسهم غير ما يعهدونه في العادة والجملة مبينة لما قبلها من التساؤل قالوا اي قال بعضهم
وقيل قال الستة الباقون جوابا عن سؤال من سأل منهم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة
وبعثهم الله سبحانه اخر النهار فلذلك قالوا لبثنا يوما اي لظنهم ان الشمس قد غربت فلما رأوا الشمس لم
تغرب قالوا او بعض يوم وكان قد بقيت بقية من النهار وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة
او للشك وقيل للتفصيل اي قال بعضهم كذا وبعضهم كذا وفيه دليل على جواز الاجتهاد
والقول بالظن الغالب قالوا امنو عنين في قدر مدة لبثهم ربكم اعلم بما لبثتم اما على طريق
الاستدلال او كان ذلك الهاما لهم من الله سبحانه اي انكم لا تعلمون مدة لبثكم
وانما يعلمها الله سبحانه ورد احد منهم على الاولين باجمل ما يكون من مراعاة

حسن الادب وبه يتحقق التقريب الى الحزبين المعهودين في قوله سابقا لنعلم اي الحزبين وقد استدل
ابن عباس على ان عددهم سبعة بهذه الآية لانه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد و
قالوا في جوابه لبثنا وهو جمع واقله ثلثة ثم قالوا وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة فَابْعَثُوٓا
اَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهٖٓ اِلَى الْمَدِيْنَةِ كانه قال القائل منهم يعني تمليخا اتركوا ما انتم عليه من المحاورة
وخذوا في شيء آخر مما يهمكم وفيما تنتفعون به والفاء للسببية اي فارسلوا واحدا منكم الى البلد
والورق الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة ويقال لها الرقة وفي الحديث وفي الرقة ربع العشر
وجمعت شذوذا جمع المذكر السالم فقال عندي رقون والباء للمصاحبة والملابسة وفي حملهم هذه
الورق معهم دليل على ان امساك بعض ما يحتاج اليه الانسان لا ينافي التوكل على الله والمدينة افسوس
بضم الهمزة كما قاله النيسابوري وهي مدينتهم التي كانوا فيها من مدائن الروم ويقال لها اليوم في
الاسلام طرطوس كذا قال الواحدي وفي الكشف ان المدينة التي خرجوا منها غير المدينة التي بعثوا اليها
لشراء الطعام اذ افسوس من اعمال طرطوس وهي ناحية او هما قولان وما قيل من انهما اسمان لمدينة
واحدة احدهما قديم والآخر محدث فخلاف الظاهر محتاج الى النقل عن الثقات فَلْيَنْظُرْ اَيُّهَآ اَزْكٰى طَعَامًا
اي لينظر اي اهلها اطيب طعاما واحل مكسبا او ارخص سعرا واي استفهامية او موصولة قال ابن عباس
احل واطهر ذبيحة لانهم كانوا يذبحون للطواغيت او اكثر بركة وقيل يجوز ان يكون الضمير الى الاطعمة
المدلول عليها في المقام كما يقال زيد طيب الاب ان الاب هو زيد وفيه بعد فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ اي من
الورق اي بدله او من قوت وطعام تاكلونه واستدل بالآية على حل ذبائح اهل الكتاب لان عامة اهل
المدينة كانوا كفارا وفيه قوم يخفون ايمانهم ووجه الاستدلال ان الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره
مما يطلق عليه اسم الطعام وَلْيَتَلَطَّفْ اي يدقق النظر حتى لا يعرف ولا يغبن والاول اولى ويؤيده
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ اَحَدًا من الناس اي لا يفعل ما يؤدي الى الشعور ويتسبب له فهذا النهي يتضمن التاكيد
للامر بالتلطف ثم علل ما سبق من الامر والنهي فقال اِنَّهُمْ اي اهل المدينة اِنْ يَّظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ اي يطلعوا
ويعلموا بمكانكم يَرْجُمُوْكُمْ يقتلوكم بالرجم وهذه القتلة هي اخبث قتلة وكانت ذلك عادة لهم
ولهذا خصه من بين انواع ما يقع به القتل وقيل يشتموكم ويؤذوكم بالقول والاول اولى اَوْ يُعِيْدُوْكُمْ
فِيْ مِلَّتِهِمْ اي يردوكم الى ملتهم التي كنتم عليها قبل ان يهديكم الله ويصيروكم اليها كرها والمراد بالعود

هنا التصغير دلالة على تقدير انهم لم يكونوا على ملتهم وايثار كلمة في على كلمة الى للدلالة على الاستقرار
وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا اي اذن معنى الشرط والجزاء كانه قال ان رجعتم الى دينهم فلن تفلحوا اذن
ابدا لا في الدنيا ولا في الآخرة وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ اي وكما انمناهم وبعثناهم اعثرنا اي اطلعنا الناس عليهم
واظهرناهم وسمي الاعلام اعثارا لان من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه وعرفه فكان الاعثار
سببا لحصول العلم لِيَعْلَمُوٓا۟ اي ليعلم الذين اعثرهم الله عليهم أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ بالبعث حَقٌّ قيل
وكان ملك زمانهم ممن ينكر البعث فاراه الله هذه الآية قيل والسبب الاعثار عليهم ان ذلك
الرجل الذي بعثوه بالورق وكانت من ضربة دقيانوس الى السوق فلما اطلع عليها اهل السوق
اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقال له من اين وجدت هذه الدراهم قال بعت بها امس
شيئا من التمر فعرف الملك صدقه ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب اصحابه معه حتى وصلوا الى
الكهف وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ اي القيامة لَا رَيْبَ فِيهَآ اي لا شك في حصولها فان من شاهد
حال اهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من بعث الارواح والاجساد جميعا وحشرها إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ اي اعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين اولئك الذين اعثرهم الله في امر البعث
وقيل في امر اصحاب الكهف في قدر مكثهم وفي عددهم وفيما يفعلونه بعد ان اطلعوا عليهم
وقيل قال المسلمون نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لانهم على ديننا وقال المشركون نبني عليهم بيعة
لانهم من اهل ملتنا والاول اولى فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا لئلا يتطرق الناس اليهم كما حفظت تربة
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة وذلك ان الملك واصحابه لما وقفوا عليهم وهم احياء امات الله الفتية
فقال بعضهم ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن اعين الناس وقيل يتنازعون متعلق بمحذوف وهو
اذكر ويؤيده ان الاعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ويمكن ان يقال ان اولئك القوم ما زالوا متنازعين
فيما بينهم قرنا بعد قرن منذ دخلوا الكهف الى وقت الاعثار ويؤيد ذلك ان خبرهم كان مكتوبا على
باب الغار كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون ايمانهم كما قاله المفسرون ثم قال
سبحانه حاكيا القول المتنازعين فيهم وفي عددهم وفي مدة لبثهم وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ من هؤلاء المتنازعين فيهم قالوا ذلك تفويضا للعلم الى الله سبحانه وقيل هو من كلام الله سبحانه
رد القول المتنازعين فيهم اي ذروا ما انتم فيه من التنازع فاني اعلم بهم منكم والاول هو الظاهر قال الزمخشري

قال الذين غلبوا على امرهم هو بيدوسيس واصحابه قاله الخازن اي كانت الكلمة لهم والكلام
هو النافذ لان ملك الوقت كان من حملتهم وكان مؤمنا واما الملك الذي خرجوا فارين منه فقد
مات في مدة نومهم لنتخذن عليهم مسجدا يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم وذكر اتخاذ
المسجد يشعر بان هؤلاء الذين غلبوا على امرهم هم المسلمون وقيل هم اهل السلطان والملك من
القوم المذكورين فانهم الذين يغلبون على امر من عداهم والاول اولى قال الزجاج هذا يدل على
انه لما ظهر امرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لان المساجد للمؤمنين سيقولون هؤلاء القائلون
بانهم ثلثة او خمسة او سبعة وهم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من
اهل الكتاب والمسلمين وقيل هم اهل الكتاب خاصة قال السدي هم اليهود وعلى كل تقدير
فليس المراد انهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا وبعضهم بكذا قيل انما اتى بالسين في
هذا لان في الكلام طيا وادماجا تقديره فاذا اجبتهم عن سوالهم عن قصة اهل الكهف فسلهم عن عددهم
فانهم سيقولون ولم يأت بها في باقي الافعال لانها معطوفة على ما فيه السين فاعطيت حكمه من
الاستقبال والمعنى يقولون لك يا محمد ويخبرونك على ثلثة اقوال الاولان للنصارى والثالث للمؤمنين
ثلثة رابعهم كلبهم اي هم ثلثة اشخاص حال كون كلبهم جاعلهم اربعة بانضمامه اليهم ويقولون
خمسة سادسهم كلبهم الكلام فيه كالكلام فيما قبله قال السدي هم النصارى وقيل اليهود كما في
البيضاوي قال ابو علي الفارسي قوله رابعهم كلبهم وسادسهم كلبهم جملتان استغنى عن حرف العطف
فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الاولى وهي قوله ثلثة والتقدير هم ثلثة هكذا حكاه الواحدي رجما
بالغيب اي راجمين او يرجمون رجما والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين ودليل
ولا برهان كما قاله الطيبي وغيره والموصوف بالرجم بالغيب هو كلا الفريقين القائلون بانهم ثلثة
والقائلون بانهم خمسة قال قتادة رجما قذفا بالظن ولم يقل هذا في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف
يدل على ان الحال في الباقي بخلافه والرجم بمعنى الرمي وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لخفائه
عنه تشبيها له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضا والباء فيه للتعدية على تشبيه الظن بالحجر المرمي على
طريق الكناية ويقولون اي المؤمنون يعني قالوه باخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام سبعة وثامنهم
كلبهم وكان قول هذه الفرقة اقرب الى الصواب بدليل عدم ادخالهم في سلك الراجمين بالغيب قيل اتيان

الواو في هذه الجملة يدل على انها مرادة في الجملتين الاوليين وعلى راي الاخفش والكوفيين الواو زائدة
لان وجودها في الكلام كالعدم في عدم افادة اصل معناها قاله الكرخي وقيل زائدة لتاكيد لصوق
الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت وهذا ما جنح اليه الزمخشري وضعفه البيضاوي
واختاره ابن هشام وقيل انها واو العطف كانه قيل هم سبعة وثامنهم كلبهم وقيل واو الحال فيؤول
المعنى الى انهم يقولون ذلك مع هذه الحال وهو ان ثامنهم كلبهم واقعًا لا محالة ويلزم منه ان يكونوا
سبعة قال ابن هشام وقول جماعة من الادباء كالحريري ومن النحويين كابن خالويه ومن المفسرين
كالثعلبي انها واو الثمانية لا يرضاه نحوي لانه لا يتعلق به حكم اعرابي ولا سر معنوي قال الكافيجي هي في
التحقيق واو العطف لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص تضمنت مراعيها واعتبار لطيفة ناسب
ان تسمى باسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة وذلك لان السبعة عندهم
عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على اكثر مراتب اصول الاعداد فان الثمانية عقد مستانف فكان
بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه وهذا هو المقتضي للعطف وهذا المعنى ليس موجودًا بين
السبعة والستة انتهى ملخصا من الكرخي ثم امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يخبر المختلفين في عددهم
بما يقطع التنازع بينهم فقال قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ اي اقوى علما وازيد في الكيفية بِعِدَّتِهِم منكم ايها المختلفون
فان مراتب اليقين متفاوتة في القوة وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العالم والكائنات فيه في الماضي و
المستقبل لا يكون الا لله تعالى او من اخبره الله سبحانه ثم اثبت العلم على ذلك لقليل من الناس فقال
مَّا يَعۡلَمُهُمۡ اي ما يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم او ما يعلم عددهم على حذف المضاف إِلَّا قَلِيلٞ من الناس
عن ابن مسعود قال انا من القليل كانوا سبعة وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح انا من اولئك
القليل كانوا سبعة ثم ذكر اسماءهم وذكر بعض المفسرين لاسمائهم خواص ومنافع ليست من التفسير
في شيء ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع اهل الكتاب في شان اصحاب الكهف فقال
فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ اي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشانهم والمراء في اللغة الجدال يقال مارى يماري مماراة و
مراء اي جادل قال ابن عباس يقول حسبك ما قصصت عليك ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان
ظاهرا واضحا فقال إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا اي غير متعمق فيه وهو ان يقص عليهم ما اوحى الله اليه فحسب
من غير تجهيل لهم ومن غير رد عليهم وقال الرازي هو ان لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل

يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال
﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ اي في شانهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ اي من الخائضين فيهم ﴿أَحَدًا﴾ منهم لان المفتي يجب ان يكون ع
اعلم من المستفتي وههنا الامر بالعكس ولا سيما في واقعة اهل الكهف وفيما قص الله عليك في ذلك
ما يغنيك عن سؤال من لا علم له قال ابن عباس يعني اليهود وقال القرطبي النصارى وهو الاولى وقال
البيضاوي لا تسأل سؤال مسترشد ولا سؤال متعنت يريد فضيحة المسؤول وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم
الاخلاق وفي الاية دليل على منع المسلمين من مراجعة اهل الكتاب في شيء من العلم ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ اي لا تقولن لاجل شيء او في شان شيء تعزم عليه فيما يستقبل
من الزمان فعبر عنه بالغد ولم يرد الغد بعينه فيدخل فيه الغد دخولا اوليا قال الواحدي قال
المفسرون لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية فقال اخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله
فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه فانزل الله هذه الاية يأمره بالاستثناء بمشية الله يقول اذا قلت
لشيء اني فاعل ذلك غدا فقل ان شاء الله قيل وهذا الاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اي لا تقولن ذلك
في حال من الاحوال الا في حال ملابسته لمشية الله وهو ان يقول ان شاء الله او في وقت من الاوقات
الا وقت ان يشاء الله ان تقوله لا مطلقا اي باذن الله فحذف الوقت وهو مراد او لا تقولن افعل غدا
الا قائلا ان شاء الله وحذف القول كثير ونقل شاء الى لفظ الاستقبال حملا على المعنى قاله الاخفش والمبرد
والكسائي والاستثناء على هذا منقطع وقيل التقدير الا بان يشاء الله اي متلبسا بقول ان شاء الله والمعنى
الا ان تذكر مشية الله فليس الا ان يشاء الله من القول الذي نهى عنه وقيل الاستثناء جار مجرى التابيد كانه
قيل لا تقولنه ابدا كقوله وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله لان عودهم في ملتهم مما لا يشاء
الله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء بمشية الله اي فقل ان شاء الله سواء كانت المدة قليلة او كثيرة
وقد اختلف اهل العلم في المدة التي يجوز الحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على اقوال معروفة في
مواضعها وقيل المعنى واذكر ربك بالاستغفار اذا نسيت مبالغة في الحث عليه او واذكر ربك وعقابه
اذا تركت بعض ما امرك به ليبعثك على التدارك او واذكره اذا اعتراك النسيان لتذكر المنسي وعن
ابن عباس انه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ثم قرأ هذه الاية وعنه قال هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وليس لاحد ان يستثني الا في صلة يمين وعن ابن عمر قال كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه واذا كان

غير موصول فهو حانث واخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية تسعين تلد كل امرأة
منهن غلاما يقاتل في سبيل الله فقال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن
الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث
وكان دركا لحاجته وعن عكرمة قال معنى اذا نسيت اذا غضبت وعن الحسن قال اذا نسيت
ان تقول ان شاء الله وقيل الآية في الصلوة ويدل له حديث انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من نسي صلوة فليصلها اذا ذكرها اقم الصلوة لذكري متفق عليه والاول اولى وَقُلْ عَسَىٰ
أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي اي يوفقني ويدلني رَبِّي لِأَقْرَبَ اي لشيء اقرب مِنْ هَٰذَا اي من خبر اهل الكهف من
الآيات والدلائل الدالة على نبوتي رَشَدًا هداية وارشادا للناس ودلالة على ذلك وعلى الاول هو
مفعول مطلق وعلى الثاني تمييز لاقرب قال الزجاج عسى ان يعطيني ربي من الآيات والدلالات على
النبوة ما يكون اقرب في الرشد وادل من قصة اصحاب الكهف وقد فعل الله به ذلك حيث اتاه من
علم غيوب المرسلين وخبرهم والحوادث النازلة في الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة ما كان اوضح
في الحجة واقرب الى الرشد من خبر اصحاب الكهف وقيل عسى ان يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء اخر
يدل على هذا المنسي واقرب من ذلك رشدا وادنى منه خيرا ومنفعة والاول اولى وَلَبِثُوا اي اقاموا فِي
كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ عطف بيان لثلثمائة وهذه السنون عند اهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية
عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت في قوله وَازْدَادُوا تِسْعًا اي تسع سنين فالثلثمائة
الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية قال الفراء ومن العرب من يضع سنين موضع سنة قال ابو علي الفارسي
هذه الاعداد التي تضاف في المشهور الى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى الجموع وفي مصحف
عبد الله ثلثمائة سنة وقال الاخفش لا تكاد العرب تقول مائة سنين وهذا اخبار من الله سبحانه
بمدة لبثهم ردا على اهل الكتاب المختلفين فيها قال ابن جرير ان بني اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من
المدة بعد الاعثار عليهم فقال بعض اهل العلم انهم لبثوا ثلثمائة سنة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع
والسنون عندهم شمسية فهذا ان القرآن خبر بما اخبر الله به من انها ثلثمائة وتسع يعني قمرية
فاخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان هذه المدة في كونهم نياما وان ما بعد ذلك مجهول للبشر فامر الله

ان يرد علم ذلك اليه فقال قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا اي بالزمن الذي لبثوه في نومهم قيل بعثهم
وموتهم وقيل بعد موتهم الى نزول القران فيهم على قول مجاهد او الى ان ماتوا على قول الضحاك او الى وقت
تغيرهم بالبلاء على قول بعضهم وقيل بما لبثوا في الكهف قال ابن عطية فقوله على هذا لبثوا الاول يريد
في نوم الكهف ولبثوا الثاني يريد بعد الاعثار عليهم الى مدة محمد صلى الله عليه وسلم او الى ان ماتوا وقال الطيبي
انه لما قال وازدادوا تسعا لم يدر الناس اهي ساعات ام ايام ام جمع ام شهور ام اعوام فاختلف بنو اسرائيل
بحسب ذلك فامر الله برد العلم اليه في التسع فهي على هذا مبهمة والاول اولى لان الظاهر من كلام العرب
المفهوم منه بحسب لغتهم ان التسع اعوام بدليل ان العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور
ولا للايام ولا للساعات قال القشيري لا يفهم من التسع تسع ليال ولا تسع ساعات لوجود لفظ السنين
وعن الزجاج ان المراد بثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية وهذا انما يكون من الزجاج
على جهة التقريب وقال الشهاب واما احتمال كون السنين شمسية او قمرية وكون التسع سنين
او شهورا او اياما فليس بشيء قال الضحاك قالوا سنين ام شهورا ام اياما فانزل الله سنين وحكى النقاش
ما معناه انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الامم فلما كان الاخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ذكر التسع
اذ المفهوم عنده من السنين القمرية فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ونحوه ذكر القونوي اي
باختلاف سني الشمس والقمر لانه يتفاوت في كل ثلث وثلثين وثلث سنة فيكون في ثلثمائة تسع
سنين انتهى اقول هذا ينبني على حساب الكبيس والكبيس عندهم مختلف وقد حققناه في كتابنا لقطة
العجلان فراجعه وعن ابن عباس قال ان الرجل ليفسر الآية يرى انها كذلك فيهوي ابعد ما بين
السماء والارض ثم تلى ولبثوا في كهفهم الآية ثم قال كم لبث القوم قالوا ثلثمائة وتسع سنين قال لو كانوا
لبثوا كذلك لم يقل الله قل الله اعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجما
بالغيب فاخبر انهم لا يعلمون ثم قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قال
القرطبي اختلف في اصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا او هم نيام واجسادهم محفوظة فروي عن ابن عباس انه
قال اولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ومشى الناس معه في بعض غزوات الشام الى موضع الكهف
فوجد واعظاما وروت فرقة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليحجن عيسى بن مريم ومعه اصحاب الكهف فانهم
لم يحجوا بعد ذكره ابن عيينة ونحوه في التوراة والانجيل وقد ذكرنا هذا الخبر بكاله في التذكرة على

هذا امرهم لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة بل يموتون قبل الساعة انتهى واسماعيل ثم ذكر سبحانه
اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله له غيب السموات والارض اي ما خفي فيهما وغاب من احوالهما
ليس لغيره من ذلك شيء ثم زاد في المبالغة والتاكيد فجاء بما يدل على التعجب من ادراكه المبصرات
والمسموعات فقال ابصر به واسمع فافاد هذا التعجب على ان شانه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات
خارج عما عليه ادراك المدركين وانه يستوي في علمه الغائب والحاضر والخفي والظاهر والصغير و
الكبير واللطيف والكثيف وكأن اصله ما ابصره وما اسمعه ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء على سبيل
المجاز والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الاخفش والبحث مقرر في علم النحو والهاء في به لله تعالى وقيل
تعود على الهدى المفهوم من الكلام اي ابصر بوحيه وارشاده هداك وحججك والحق من الامور و
اسمع به العالم والاول اولى وقرئ ابصر واسمع فعلا ماضيا والفاعل الله تعالى اي ابصر عباده واسمعهم
ما لهم اي لاهل السموات والارض وقيل لاهل الكهف وقيل لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار
من دونه من ولي من موال يواليهم او يتولى امورهم او ينصرهم وفي هذا بيان لغاية قدرته و
ان الكل تحت قهره ولا يشرك في حكمه احدا قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه وقرئ بالجزم
على انه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لله شريكا في حكمه والمراد بحكم الله ما يقضيه او علم الغيب والاول اولى
ويدخل علم الغيب في ذلك دخولا اوليا فان علمه سبحانه من جملة قضائه واتل ما اوحي اليك امره
الله سبحانه ان يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه قيل يحتمل ان يكون معنى قوله واتل واتبع امرا من
التلو لا من التلاوة اي اتبع ما فيه واعمل به ولا تلتفت لقولهم ائت بقرآن غير هذا او بدله من كتاب
ربك بيان للذي اوحي اليه لا مبدل لكلماته اي لا قادر على تبديلها وتغييرها وانما يقدر على
ذلك هو وحده قال الزجاج اي ما اخبر الله به وما امر به فلا مبدل له وعلى هذا يكون التقدير لا مبدل
لحكم كلماته ولن تجد من دونه ملتحدا اي ملجأ واصل اللحد الميل وقال ابو عبيدة الحد الحادا جار ومال
ولحد جار وظلم والحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها والملتحد اسم الموضع وهو الملجأ قال الزجاج لن تجد
معدلا عن امره ونهيه والمعنى انك ان لم تتبع القرآن وتتلوه وتعمل باحكامه لن تجد معدلا تعدل اليه
ومكانا تميل اليه وهذه الآية آخر قصة اهل الكهف ثم شرع سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز
فقال واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم اي احبسها معهم قد تقدم في الانعام نهيه صلى الله عليه

عن طرد فقراء المؤمنين بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم وامره سبحانه ههنا بان يحبس نفسه
معهم فصبر النفس هو حبسها عن الجزع وبابه ضرب وصبره حبسه وهذه الآية ابلغ من التي في الانعام
لان في تلك نهي الرسول عن طردهم وفي هذه امره بمجالستهم والمصابرة معهم بالغداة والعشي ذكرهما
كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقيل المراد صلوة العصر والفجر و
قرئ غدوة وانكره النحاس وقال ولا تكاد العرب تقول الغدوة ومعنى يريدون وجهه انهم يتقيدون
بدعائهم رضاء الله سبحانه لا عرض الدنيا وعن سلمان قال جاءت المؤلفة قلوبهم عيينة بن بدر و
الاقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وارواح جبابهم يعنون
سلمان واباذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف جالسناك وحادثناك واخذنا عنك
فانزل الله واتل ما اوحي اليك الى قوله انا اعتدنا للظالمين نارا اخرجه البيهقي وغيره وزاد ابو الشيخ
عن سلمان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يلتمسهم حتى اصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال
الحمد لله الذي لم يمتني حتى امرني ان اصبر نفسي مع رجال من امتي معكم المحيا والممات وعن عبد الرحمن
بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض ابياته واصبر نفسك الآية فخرج يلتمسهم
فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الراس وجاف الجلد وذو الثوب الخلق فلما رآهم جلس معهم وقال
الحمد لله الذي جعل في امتي من امرني ان اصبر نفسي معهم وعن ابي سعيد وابي هريرة قالا جاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر او سورة الكهف فسكت فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المجلس الذي امرت ان اصبر نفسي معهم وفي الباب روايات
وعن ابن عمر قال انهم الذين يشهدون الصلوات الخمس وعن ابن عباس مثله وقيل نزلت في صلوة
الصبح وصلوة العصر ثم امره سبحانه بالمراقبة لاحوالهم فقال ولا تعد عيناك عنهم اي لا تتجاوز الى
غيرهم قال الفراء معناه لا تصرف عيناك عنهم وقال الزجاج لا تصرف بصرك الى غيرهم من ذوي
الهيئات والزينة واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو من نبوت عن الامر اي صرفته عنه وقال معناه
لا تحتقرهم عيناك عبر بهما عن صاحبهما تريد زينة الحيوة الدنيا اي مجالسة اهل الثروة والشرف
والغنى وصحبة اهل الدنيا والمعنى حال كونك مريدا لذلك هذا اذا كان فاعل تريد هو النبي صلى الله عليه وسلم
وان كان الفاعل ضميرا يعود الى العينين فالتقدير مريدة زينة الحيوة الدنيا واسناد الارادة الى العينين

مجاز وتوحيد الضمير للتلازم والاول اولى وهو نهي له صلى الله عليه وسلم وان لم يرده وليس هو اكد من قوله لئن اشركت ليحبطن عملك وان كان اعاذه من الشرك وانما هو على فرض المحال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ اي جعلناه غافلا ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ بالختم عليه نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كاولئك الذين طلبوا منه ان ينحي الفقراء عن مجلسه فانهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ومع هذا فهم ممن ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ اي متجاوزا عن حد الاعتدال من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما على الخيل فهو على هذا من الافراط وقيل هو من التفريط وهو التقصير و التضييع والاول اظهر قال الزجاج ومن قدم العجز في امره اضاعه واهلكه وعن ابن عباس قال نزلت في امية بن خلف وذلك انه دعا النبي صلى الله عليه وسلم الى امر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد اهل مكة فانزل الله هذه الاية يعني من ختمنا على قلبه يعني التوحيد واتبع هواه يعني الشرك وكان امره فرطا يعني فرطا في امر الله وجهالة به وعن ابن بريدة قال دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم في يوم حار وعنده سلمان عليه جبة صوف فثار منه ريح العرق في الصوف فقال عيينة يا محمد اذا نحن اتيناك فاخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا فاذا خرجنا فانت وهم اعلم فانزل الله ولا تطع الاية وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الاية المتضمنة لمعنى هذه الاية وهي قوله ولا تطرد الذين الاية عن سعد بن ابي وقاص قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله ولا تطرد الذين الاية ثم بين سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يقوله لاولئك الغافلين فقال ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اي قل لهم ان ما اوحي الي وامرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء قال الزجاج اي الذي اتيتكم به هو الحق من ربكم يعني لم اتكم به من قبل نفسي انما اتيتكم به من الله وعن قتادة قال الحق هو القران ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ قيل هو من تمام القول الذي امر رسوله ان يقوله والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ويجوز ان يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذي امر به رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه تهديد شديد وتخويف

لا تخيير والمراد التهديد ويكون المعنى قل لهم يا محمد الحق من ربكم وبعد ان تقول لهم هذا القول من شاء
ان يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ومن شاء ان يكفر به ويكذبك فليكفر وقال ابن عباس يقول
من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ‥ قوله وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين ثم
اكد الوعيد وشدده فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ اي اعددنا وهيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له
والانكار لانبيائه ﴿نَارًا﴾ عظيمة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ اي اشتمل عليهم ﴿سُرَادِقُهَا﴾ واحد السرادقات قال الجوهري
وهي التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف اي قطن فهو سرادق وقيل الحائط المشتمل على الشيء سرادق
قاله الهروي وقال الراغب السرادق فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه الف بعدها
حرفان الا هذا يقال بيت مسردق وقال ابن الاعرابي سرادقها سورها وقال القتيبي السرادق الحجرة التي
تكون حول الفسطاط والمعنى انه احاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق
المحيط بمن فيه وعن ابن عباس قال حائط من نار واخرج احمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم
عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار اربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة
اربعين سنة واخرج احمد والبخاري والحاكم وصححه عن يعلى بن امية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان البحر هو من جهنم ثم تلى نارا احاط بهم سرادقها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من حر النار اي يطلبوا الانقاذ من شدة
العطش ﴿يُغَاثُوا﴾ فيه مشاكلة اذ لا اغاثة لهم بالماء الآتي ذكره بل اتيانهم به والجاؤهم بشربه غاية الاضرار
والاغاثة هي الانقاذ من الشدة فكأنه قال يضروا ويعذبوا ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وهو الحديد المذاب قال الزجاج
انهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب والصفر وقيل هو دردي الزيت اي ما يبقى في الاسفل من الاناء ووجه
المشابهة الثخن والرداءة في كل قال ابو عبيدة والاخفش العكر وهو كل ما اذيب من جواهر الارض من حديد
ورصاص ونحاس وقيل هو ضرب من القطران اخرج احمد والترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن حبان
والبيهقي في البعث عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت
فروة وجهه فيه عن ابن عباس قال اسود كعكر الزيت وعنه قال ماء غليظ كدردي الزيت وعن ابن مسعود
انه سئل عن المهل فدعى بذهب وفضة فاذابه فلما ذاب قال هذا اشبه شيء بالمهل الذي هو شراب
اهل النار ولونه لون السماء غير ان شراب اهل النار اشد حرا من هذا وعن ابن عمر هل تدرون ما
المهل المهل مهل الزيت يعني آخره ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بانه ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ اذا قدم اليهم

صارت وجوههم مشوية لحرارته والتي لا انضاج بالنار من غير احراق بئس الشراب شرابهم
هذا الذي يغاثون به وساءت النار مرتفقا كأي يقال ارتفقت اي اتكأت واصل الارتفاق نصب
المرفق تحت الخد ويقال ارتفق الرجل اذا نام على مرفقه وقال القتيبي هو المجلس والمنزل وقيل المجتمع وبه قال
مجاهد وانما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فاي ارتفاق لاهل النار وهي متكأ ان الذين
آمنوا هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين والمعنى ان الذين آمنوا بالحق
الذي وحي الملك وعملوا الصالحات من الاعمال انا لا نضيع اجر من احسن منهم عملا وفيها اقامة
الظاهر مقام المضمر والمعنى اجرهم اي نثيبهم ما تضمنه قوله اولئك لهم جنات عدن اي اقامة مستانفة
لبيان الاجر والاشارة الى من تقدم ذكره وقيل اولئك خبر ان الذين آمنوا وجملة انا لا نضيع اعتراض
وقيل غير ذلك تجري من تحتهم الانهار لان افضل المساكن ما كان يجري فيه الماء وقد تقدم
الكلام في كيفية جري الانهار من تحتها يحلون فيها من اساور من ذهب قال الزجاج اساور جمع اسورة
وهي جمع سوار وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك وظاهر الاية انها جميعها من ذهب
وجاء في اية اخرى من فضة وفي اخرى من ذهب ولؤلؤ فيلبسون الاساور الثلاثة فيكون في يد الواحد
منهم سوار من ذهب واخر من فضة واخر من لؤلؤ فعلم من هذا ان كلا من هذه الاية ومن اية هل
اتى على الانسان ومن اية الحج ومن اية فاطر فيه الاخبار ببعض ما يحلون به ومن في من اساور للابتداء
وقيل انها زائدة بدليل سقوطها في سورة هل اتى وحلوا اساور من فضة ومن في من ذهب للبيان وحكى الفراء يحلون بفتح الياء
وسكون الحاء وفتح اللام يقال حليت المرأة تحلى فهي حالية اذا لبست الحلي اخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق عطف
على يحلون وبني الفعل في التحلية للمفعول ايذانا بكرامتهم وان غيرهم يفعل بهم ذلك ويزينهم
بخلاف اللبس فان الانسان يتعاطاه بنفسه وقدم التحلي على اللباس لانه اشهى للنفس وخص الاخضر لانه
الموافق للبصر ولكونه احسن الالوان قال الكسائي السندس الرقيق واحده سندسة والاستبرق الثخين
واحده استبرقة وكذا قال المفسرون وقيل ليسا جمعين وقيل الاستبرق هو الديباج وقيل هو
المنسوج بالذهب قال القتيبي وهو فارسي معرب قال الجوهري وتصغيره ابيرق قال السمين وهل
استبرق عربي الاصل مشتق من البريق او معرب اصله استبره خلاف بين اللغويين قال مرثد بن

عبد الله في الجنة شجرة تنبت السندس منه تكون ثياب اهل الجنة وعن عكرمة قال الاستبرق الديباج الغليظ وعن عاصم مثله وفي اية الرحمن بطائنها من استبرق اي الغرش فيقاس عليها اللباس الذي الكلام فيه نظرا لاقة الكل من سندس وبطانته من استبرق قال العلي في سورة هل اتى بطانة ثيابهم والسندس ظهارتها متكئين فيها على الارائك اصل متكا او متكأ واصل متكئين موتكئين والاتكاء التحامل على الشيء اي يجلسون متربعين ومضطجعين اخرج ابن ابي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكئ مقدار اربعين سنة لا يتحول منه ولا يمله ياتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه قال الزجاج الارائك جمع اريكة وهي السرر في الحجال وقيل هي اسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت وعن ابن عباس قال الارائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ وعنه قال لا تكون اريكة حتى يكون السرير في الحجلة وعن عكرمة الارائك هي الحجال على السرر وفي القاموس الاريكة كسفينة سرير في حجلة او كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش او سرير متخذ مزين في قبة او بيت فان لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع ارائك نعم الثواب ذلك الذي اثابهم الله به وهو الجنة وحسنت تلك الارائك في الجنات مرتفقا اي متكأ ومقرا ومجلسا ومنتفعا ومسكنا ومنزلا وقد تقدم قريبا وقد اشتمل هذا القول على خمسة انواع من الثواب الاول جنات عدن الثاني تجري من تحتهم الانهار الثالث يحلون فيها الرابع ويلبسون الخامس متكئين واضرب لهم مثلا رجلين هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتغرر بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله واصبر نفسك وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران او محققان فقال بالاول بعض المفسرين وقال بالاخر بعض اخر واختلفوا في تعيينهما فقيل هما اخوان من بني اسرائيل احدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس وقيل تمليخا والاخر كافر واسمه فيطروس وهما اللذان وصفهما الله في سورة والصافات بقوله قال قائل منهم اني كان لي قرين وقيل هما اخوان مخزوميان من اهل مكة احدهما مؤمن وهو ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد ياليل والاخر كافر وهو الاسود بن عبد الاسد وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن واصحابه مع سلمان واصحابه وانتصاب مثلا ورجلين على انهما مفعولا اضرب قيل والاول هو الثاني والثاني هو الاول جعلنا لاحدهما هو الكافر جنتين قال الشكي الجنة البستان فكان له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كانا جنتين ولذلك سماه جنة من قبل الجدار

الذي عليها وعن يحيى بن ابي عمرو الشيباني قال نهر ابي فرطس نهر الجنتين قال ابن ابي حاتم وهو نهر مشهور بالرملة من اعناب بيان لما في الجنتين اي من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة وحففناهما بنخل الحف الاحاطة ومنه حافين من حول العرش ويقال حف القوم بفلان يحفون حفا اي اطافوا به فمعنى الآية وجعل النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم ان يجعلوها مؤزرة بالاشجار المثمرة وجعلنا بينهما اي بين الجنتين وهو وسطهما زرعا يقتات به ليكون كل واحد منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الانيق ثم اخبر الله سبحانه عن الجنتين بان كل واحدة منهما كانت تؤدي حملها وما فيها فقال كلتا الجنتين آتت اكلها افرد عن كلتا باتت لان لفظه مفرد يدل على التثنية فراعى جانب اللفظ وقد ذهب البصريون الى ان كلا وكلتا اسم مفرد غير مثنى وقال الفراء هو مثنى وهو ماخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الالف للتثنية وعند التثنية المعنوية في قوله الآتي وفجرنا خلالهما نهرا هذا كناية عن تمامها ونموها دائما وابدا فليست على حال الاشجار حيث يتم ثمرها في بعض السنين وينقص في بعض واكلها بضم الكاف وسكونها سبعيتان ولم تظلم منه شيئا اي لم تنقص من اكلها شيئا في بعض السنين بل تطعم في كل سنة اكل ثمرها وافيا يقال ظلمه حقه اي انقصه ووصف الجنتين بهذه الصفة للاشعار بانهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فانها في الغالب تكثر في عام وتقل في عام قال ابن عباس لم ينقص كل شجر الجنة اطعمه وفجرنا اي اجرينا وشققنا خلالهما اي وسط الجنتين نهرا يجري بينهما يسقيهما دائما من غير انقطاع وكان له اي لاحدهما او لصاحب الجنتين ثمر بفتح الثاء والميم وكذا قرأوا في قوله واحيط بثمره وقرئ ثمر بضم الثاء واسكان الميم في الموضعين قال الجوهري الثمرة واحدة الثمر والجمع ثمار مثل جبل وجبال قال الفراء وجمع الثمار ثمر مثل كتاب وكتب وجمع الثمر اثمار مثل عنق واعناق والثمرة مؤنث و الجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء اكل ام لا فيقال ثمر الاراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل كما يقال ثمر النخل وثمر العنب قال الازهري اثمر الشجر اطلع ثمره اول ما يخرجه فهو مثمر ومن هنا قيل لما لا نفع فيه ليس له ثمرة وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك سمي ثمرا لانه يثمر ويزيد ماخوذ من ثمر ماله بالتشديد اذا كثره وقيل الثمر هو الذهب والفضة خاصة قاله مجاهد وقال ابن عباس هو انواع المال فقال الكافر لصاحبه المؤمن وهو يحاوره اي والكافر

يحاوره المؤمن والمعنى يراجعه الكلام ويحاوره من المحاورة المراجعة والتحاور والتجاوب وحاصل ما قاله من القول الشنيع ثلاث مقالات الاولى أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا النفر الرهط وهو ما دون العشرة واراد ههنا الاتباع والخدم والاولاد والعشيرة وَدَخَلَ جَنَّتَهُ اي دخل الكافر جنة نفسه قال المفسرون اخذ بيد اخيه المسلم فادخله جنته يطوف به فيها ويريه اثمارها وعجائبها وبهجتها وحسنها واثمارها ويفاخره بما ملك من المال دونه وافراد الجنة هنا يحتمل ان وجهه كونه لم يدخل اخاه الا واحدة منهما او لكونهما لما اتصلتا كانتا كواحدة او لانه ادخله في واحدة ثم واحدة او لعدم تعلق الغرض بذكرهما او اكتفاء بالواحدة وقال الحلبي لم يقل جنتيه ارادة للروضة وعبارة الشهاب افرد الجنة مع ان له جنتين لنكتة وهي ان الاضافة تاتي لما تاتي له اللام فالمراد بها العموم والاستغراق اي كل ما هو جنة له ينتفع بها فيفيد ما افادته التثنية مع زيادة وهي الاشارة الى انه لا جنة له غير هذه ولذا عبر بالموصول الدال على العموم فيما هو معهود انتهى وما ابعد ما قاله صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على انه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون وَهُوَ اي ذلك الكافر ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بكفره وعجبه قال قتادة كفور لنعمة ربه مستانف بياني لسبب الظلم قَالَ اي الكافر لفرط غفلته وطول امله مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ اي تفنى وتنعدم هَذِهِ الجنة التي تشاهدها أَبَدًا وهذه هي الثانية من مقالاته والثالثة قوله وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً انكر البعث بعد انكاره لفناء جنته قال الزجاج اخبر اخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي اللام هي الموطئة للقسم والمعنى انه والله ان يرد الى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه واللام في لَأَجِدَنَّ جواب القسم والشرط اي لاجدن يومئذ خَيْرًا مِنْهَا على الافراد على ما في مصاحف اهل البصرة والكوفة اي من هذه الجنة وفي مصاحف مكة والمدينة والشام منهما مُنْقَلَبًا هو المرجع والعاقبة لانها فانية وتلك باقية قال هذا قياسا للغائب على الحاضر وانه كما كان غنيا في الدنيا سيكون غنيا في الآخرة اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله قَالَ لَهُ اي للكافر صَاحِبُهُ المؤمن وقد تعقبه في الثلثة على سبيل اللف والنشر المشوش وَهُوَ يُحَاوِرُهُ اي حال محاورته له منكرا عليه ما قاله أَكَفَرْتَ بقولك ما اظن الساعة قائمة استفهام توبيخ وتقريع اي لا ينبغي ولا يليق منك الكفر بِالَّذِي خَلَقَكَ اي خلق اصل خلقك مِنْ تُرَابٍ حيث خلق اباك آدم منه وهو اصلك واصل مادة البشر فلكل فرد حظ

بسم الله الرحمن الرحيم

جداول بيان الصواب من الخطأ الواقع في الجزء الثاني من تفسير فتح البيان بقدر ما امكن في بادي النظر ولعل الباقي منه يكون اقل القليل ان شاء الله الملك الجبار الجليل

صفحه	سطر	خطا	صواب	صفحه	سطر	خطا	صواب
٧	٢٣	ذكره	وذكره	٥٢	١٧	السوال	السؤال
١٢	١	طه العاصي	طه المعاصي	٥٢	٢٢	سلب	سيب
١٣	١٣	تستغنيان	لتستغنيان	٥٧	١٠	لانجسوا	لاتنحسوا
٢٠	٩	اباه	اباءه	٥٨	١٢	أُرسِلَتَ	أُرْسِلْتُ
٢٠	١٤	نشاء	نشأ	٦٣	٥	عددهم صلحهم	عَلى حمو صُلحهم
٢٣	١٧	ويُشتفي	ويُشتهى	٦٥	١١	حال سيء	حال اسيء
٢٥	٢٢	يكون بحق	يكون بغير الحق	٦٦	١٦	موسے	موسى
٢٦	١٤	طعن عمر	لما طعن عمر	٦٧	٢١	نتبين	يتبين
٢٨	١١	اخا دادكوا	اخا اداركوا	٦٩	٢١	اصبحو	اصبحوا
٢٩	١٨	يعم	مايعم	٨١	١٩	بكفي	يكفي
٣٠	١٢	كونه	كونه بحال	٨٢	١٩	واحملهم	وحملهم
٣٢	٦	يتغمد في الله	يتعمد في الله	٨٢	٢٣	قبضته	قبضة
٣٧	٢٣	الست	الستة	٨٤	٢٠	منه	منك
٣٨	٢٣	هو الاستغوار	هو الاستقرار	٨٥	٧	قرة	قرأة
٤٠	٢٣	والاسرار	الاسرار	٨٥	٩	حمرات	حمراوات
٤٤	٢	من	ومن	٨٦	١٢	توبة	نوبة
٤٧	١٣	ادبل	اريد	٨٨	٦	بالاشد	بالاشدّ
٥١	٤	ابيصيو	ابيصو	٨٩	٤	يقتتلون التكابر	يقتتلون الكبر
٥١	٢٠	لاتتعرصوا	لاتتعرضوا	٩٢	١٣	رفع الله	[illegible]

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٩٥	٢	ورحمة	ورحمةُ
٩٥	٢٠	ا في	في
١٠٠	٢٠	وقطعناهم	وقطعناهُمْ
١٠٣	٧	طبريه	طبرية
١٠٥	١١	الثالثة	الثانية
١٠٥	١١	كالثانية	كالثالثة
١٠٥	١١	لاجتماعها	لاجتماعها
١٠٧	٢٣	درسوا	دسوا
١١٢	١٥	اليمن	اليمين
١١٦	٢٣	اولع	ادلع
١٢١	٤	اي ان	لي
١٢٦	١	علم الغيب	علم الغيب
١٢٦	١٨	نذيرا	نذير
١٢٦	١٨	بشيرا	بشير
١٢٩	١٦	القفال	القفال
١٣١	١٣	هل مكة	اهل مكة
١٣٥	٥	يلجئ	يلجأ
١٣٥	٨	أَنَّه	إنَّه
١٤٠	١٣	ثوجلة	ثوحلته
١٤١	١٥	بناقل	بنقل
١٤١	١٩	فتكل	قال رجاله
١٤٣	١	الحوت	الحوت ظاهر
١٥١	٥	صلى هو وسلاحهم	صلوهم وسلاحهم
١٥٥	١٩	حالهم	سالكم
١٦٥	٧	لامر	لامرهم
١٦٧	١٥	ينهم	نبيهم
١٧٣	١٩	فوتوا	فوتوا
١٧٨	١٢	امروا	امروابه
١٨٠	١٥	أفناء	افناء
١٨٧	٢٠	عرن	عرنة
١٩٠	٤	اهزة	هزة
١٩٢	١٢	ثغاف	ثقاف
١٩٥	١٣	تانيهما	ثانيهما
٢٠٠	٨	ينبت لاثنتين	ينبت لاثنين
٢٠٠	١٣	لا يعوتهم	لا يفوتهم
٢٠٠	١٩	بالغل	بالقتل
٢٠٠	٢٢	يستكثر	يستكثر
٢٠١	١	اللازم	لازم
٢٠٦	١	بعضبة	بعصبة
٢٠٩	١٧	بالبراة	بالبراءة
٢٠٩	١٨	واٰذان	وآذان
٢١٣	١٢	مغشرة	مغشر
٢٢٠	٥	نبتلوا	تبتلوا
٢٢٣	١	المحمل	الجمل

صفحه	سطر	خطا	صواب
٢٣٠	١٨	المعام	العام
٢٣٨	٢٣	في اهل	في احكام اهل
٢٤٤	٤	هلكم	ملكهم
٢٤٨	٦	شهور	الشهور
٢٥٠	٧	نسوا اسه	نسوا الله
٢٥٧	٥	دخله	دخلها
٢٦٣	١٨	والمكان	المكان
٢٦٨	١٣	الضعيف	الضيف
٢٦٩	١٩	بطووا	بطروا
٢٨٠	٢٢	البخلا	البخل
٢٩٣	٦	الجهل	الجعل
٣٠٢	١	قال	فان
٣١٣	٢٣	أه بالمد	بالمد
٣١٩	١٧	هذا الموضع	هذين الموضعين
٣٢٣	٣	وَّهُوَ	وَهُوَ
٣٢٦	١٥	قال	قاله
٣٢٨	٢٠	كثير	كثيرة
٣٣٥	١٦	ويخرج	او يخرج
٣٣٦	٦	الحق	الحق عندك
٣٤٠	١	تدراوني	تدراونني
٣٤٢	١٧	فكفى	لكفى
٣٤٣	١٣	وتسميته	وتسمية

صفحه	سطر	خطا	صواب
٣٤٦	٢٢	الاضحال	الاضمحلال
٣٤٨	١٢	امرنا	آمرنا
٣٤٩	١٣	غرفته	غرقته
٣٥٠	٨	قبك	قلبك
٣٥١	٣	وتزحزحنا	ويزحزحنا
٣٥٧	١٧	اندادالا	انداد الا
٣٦٣	٣	لاقادة	لافادة
٣٦٣	٢١	لايُسأل	لايَسأل
٣٦٣	١٦	توفيناك	توفيناك
٣٦٥	٣	به	اسه به
٣٦٦	١٠	احدا	احد
٣٦٧	٢	سبق	تسبق
٣٦٧	٥	اذا	اذ
٣٦٨	٩	والحال	وَالحال
٣٦٨	١٢	والازناء	والازناء
٣٧١	١٠	داء مصدر	داء
٣٧٥	١٣	اثبث	اثبت
٣٧٨	١	الحير	الخير
٣٨١	١٣	ذمت	دمت
٣٨٣	٢١	وخصهما	وخص
٣٨٧	٧	الهم	فهم
٣٩١	٢١	ولم يك	فلم يك
٣٩٦	٣	التكذيب	التكذيب في [illegible]

صفحه	سطر	خطا	صواب
۴۱۰	۱۹	تقديرة	تقديره
۴۱۸	۹	مفسر	مفسرة
۴۲۱	۱۵	من مبادئها	بل من مبادئها
۴۲۳	۱۶	والبالس	والبائس
۴۲۷	۱۵	انسانا	اناس
۴۳۰	۹	لاناج	لاناجي
۴۳۴	۸	متابعة	متابعته
۴۴۱	۱۹	اولمصاحبة	اوالمصاحبة
۴۴۲	۱۶	وخمساوخمسين	وخمسا
۴۴۳	۴	تحية	تحيته
۴۴۴	۱۰	جعل	وجعل
۴۴۵	۱۸	والبركات	والبركة
۴۴۵	۲۲	عليكم	وعليكم
۴۴۶	۱	يغيضه	يغضيه
۴۴۶	۹	انه	انه لما
۴۴۶	۱۱	عشرة	[illegible]
۴۴۹	۱۹	ابي عبيدة	ابي عبيد
۴۵۱	۸	الشيء	بشيء
۴۵۶	۵	نابتي	نابتي
۴۵۷	۱۶	بحجر	بحجر
۴۶۰	۳	اذاكفر	اذكفر
۴۶۵	۳	لاضربنا	لاضربنه

صفحه	سطر	خطا	صواب
۴۶۸	۲۱	خالدين	خالدون
۴۷۴	۲	اناا	انا
۴۷۵	۷	جيشا	حبشيا
۴۷۸	۲۳	حوال	احوال
۴۷۹	۱۷	لايعضوا	لايعضون
۴۸۳	۲۲	واليه	اليه و
۴۸۶	۲۰	توضعهم	تواضعهم
۴۸۸	۱۱	وخبر	وعبر
۴۹۲	۱	اشمامد	اشمام
۵۰۰	۱۱	بينتهما	بينهما عن نفسه
۵۰۳	۷	ضم	صنم
۵۰۶	۱	واودته	راودته
۵۱۶	۲	بالاخر	بالآخرة
۵۱۸	۱۰	يقول	يؤل
۵۲۳	۲۰	يغبنهما	يغيثهما
۵۲۴	۱۴	هذ للفعل	كان هذ للفعل
۵۲۵	۶	تغزيها	وتغزيها
۵۲۶	۱۵	آن	إن
۵۲۷	۱۱	مكين	مكين امين
۵۳۲	۱۵	تاتوفي	تاتوني
۵۳۴	۸	مَن	مِن
۵۳۴	۱۴	احاطة	احاطه

صفحه	سطر	خطا	صواب
٥٣٣	٢٣	سبحانه يقول	بقوله
٥٣٧	٦	ووتقت	ووثقت
٥٣٧	١٨	لتي	التي
٥٣٨	١٥	بالجمل	بالحمل
٥٣٩	٥	رحالهم	رحالهم لكفى
٥٤٠	٤	للنهاية	النهاية
٥٤٣	١١	وتعلوا	والوتعلوا
٥٤٥	١٣	تعالى	تعال
٥٤٧	١٧	الهمزة	والهمزة
٥٤٧	١٩	ابوعمر	ابوعمرو
٥٥٠	٩	بالحسن	اوبالحسن
٥٥١	٢٢	شقي	شغي
٥٥٣	١٣	لشي	الشيء
٥٥٥	٢٠	يقال لي	يقال في
٥٥٩	١٢	ماقبدهم	مانعبدهم
٥٦٢	٢	النضب	النصب
٥٦٢	١٨	هذه	هذا
٥٦٥	٢٢	والوسو	والرسو
٥٦٦	٢٢	يتفاوت	تتفاوت
٥٧٠	١٥	وشمل	وسمل
٥٧٣	١٥	لغيره	لغيرهم
٥٧٥	١٦	له	لة
٥٨٦	١٥	والمعدن	والعدن
٥٩٧	٢٠	يتزجون	يتزوجون
٦٠٥	١٩	الهداية	والهداية
٦١١	٨	اسحدته	اسحداته
٦١٢	٣	اليل	الليل
٦١٢	٢٠	المعاصي	المعاصي
٦١٣	١	امن	من
٦٢٥	١٧	غيرمسائلين	غيرسائلين
٦٢٦	١	اللهم	اللهم انا
٦٢٨	٢٣	القبى	انقبي
٦٣٥	١٩	اوال	اول ال
٦٣٦	٢	قال	فقال
٦٣٨	٢٠	بعدالكتاب	بعدالكتاب
٦٥١	١٨	الساو	المساو
٦٥٨	٦	على بعضهم بعضا	بعضهم على بعض
٦٥٩	٢	لعب	تعب
٦٦٢	١٣	بينما	بينهما
٦٦٦	١	التثبيث	التثبيت
٦٧١	١٦	بل حدوه	بلّ دوه
٦٧٣	٥	اوائل	وائل
٦٧٣	١٢	الكفهاية	الكفرية
٦٧٤	١٨	بعبادتنا	بعبادة
٦٧٨	٣	واكثرها	واكثرما
٦٧٨	٣	تغناء	تغاء

صفحه	سطر	خطا	صواب
٦٨٩	١	ذررة	ذرّة
٦٩٠	١٤	لهابها	له بها
٦٩٢	٣	يهنيهم	يهينهم
٦٩٨	١	كيفيتة	كيفية
٦٩٩	١٠	وسنتة	وسنته
٧٠٣	١٤	قولهم	قوله تعالى
٧٠٣	١٥	والتل وبرين	والتل برون
٧٠٣	١٧	ولوا	اولوا
٧١٣	١٤	العبارة	العبرة
٧١٥	١٧	خلية النحل	خلية العسل
٧٢٠	٨	الا بما يحبونه	لا بما يحبونه
٧٢٧	١٥	ليحبوا	ليرينهوا
٧٤٢	٥	هؤلاء	لهؤلاء
٧٤٥	٣٠	والسع	واسع
٧٥٥	٥	وبان	ولئن
٧٥٩	١٩	يجامع	بجامع
٧٦١	٣	اومرتان	اومرتين
٧٦١	٣	مرين	مرتان
٧٦١	١٤	عزير	عزير
٧٦١	١٨	[illegible]	والهوس
٧٦٢	٦	افلها	اياها
٧٦٢	٧	بها	باللام
٧٦٢	١٠	حسنة وسيئة	حسنة وسيئة

صفحه	سطر	خطا	صواب
٧٦٣	١٣	للطريقة	للطريقة التي
٧٦٥	٨	قوله	قولهم
٧٦٥	١٣	والحساب	والحساب
٧٦٨	١٠	الذي	الامر الذي
٧٦٨	١٠	المامور	المامور به
٧٦٩	٣	كثر تفته	كثرفته
٧٦٩	١٦	بجميع	لجميع
٧٧٠	٢٠	الاولى	الاول
٧٧٢	١٤	اموا	امرا
٧٧٣	٩	لغات	لغة
٧٧٣	١٧	بتا	تبا
٧٧٤	٩	احدهما	احدها
٧٧٤	١١	ولكن	ولكن
٧٧٤	١٣	ارمثل	اومثل
٧٧٤	١٧	الاحسان	بالاحسان
٧٧٥	٦	كالقلتة	كالفلتة
٧٧٥	٢٢	المسكين	المسكين
٧٧٦	٤	ماقيل	ماقبل
٧٧٩	٧	دانية	داثية
٧٧٩	٢٣	هذا بمكة	نزل هذا بمكة
٧٨٠	٧	اي لمن	اولمن
٧٩٠	١٢	الاستكثار	الاستكبار
٧٩٣	١٩	مرموقا	مزهودا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٩٧	٩	في تفسير	وفي تفسير
٧٩٧	٢١	هي تلتوي	هي التي تلتوي
٧٩٩	١٣	ووفرادوفرادى	وفرادو فرادى
٨٠٢	١٣	تترة	تترة
٨٠٣	١٥	فادين	قادين
٨٠٥	١٨	تاجا	تاجا من نادي
٨٠٨	١٢	يلبثوك	يلبثون
٨٢٠	١٥	لمازعمت	كمازعمت
	٨	مبشرا	مُبَشِّراً
٨٢[illegible]	٨	نود	نودا
٨٢[illegible]	٣	لفظة	لفظه
٨٢[illegible]	٣	لتمتحن	لتمتحن
٨٣[illegible]	١٠	معشبه	معشبة
٨٣[illegible]	١٥	جراده	[illegible]
٨٣٦	١٠	في الكهف	في الكهف
٨٣٩	١٣	كهف اليمين	[illegible]
٨٥٠	٢١	سبهما	بهما
٨٥٢	١٦	الاسفل الياء	[illegible]
٨٥٦	١٢	كفور	[illegible]
٨٥٨	١٧	فيها	[illegible]
٨٦١	٣	فاخيرهو	فاخبرهو
٨٦١	٨	والباقيات الصالحات	[illegible]

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٦١	٢٣	جتتكو	جئتكم
٨٦٦	١٠	وتفريجا	وتفريجاً
٨٦٦	١٠	سنهيتك	سنعينك
٨٦٦	١٦	يسعول	يتقول
٨٧١	٢٠	تجبه	تجيبه
٨٧٢	٢	لواجدان	لوجدان
٩٧٣	٢٠	موسي	موسى
٨٨٠	٣	التانيت	التانيث
٨٨١	٢١	نوقيل	ثوقيل
٨٨٣	١	ابصا	ايضاً
٨٨٥	١٣	ومن قبل	[illegible]
٨٨٧	١١	حماة	[illegible]
[illegible]	١١	جما	[illegible]
٨٨[illegible]	١٢	الحمات	الحماة
٨٨٧	١٣	وفرعى	فرعى
٨٨٩	١	ذوا	ذو
٨٩٢	١١	كهيئة	كهيئته
٨٩٢	١٣	ايهلك	انهلك
٨٩٣	٢١	الموسر	الجزية
٨٩٧	٩	الادوية	الاودية
٨٩٩	٥	قال رجل	قال قال رجل

تم بحمد الله المنان تصحيح الكثير للمواضع الضرورية

من اغلاط التفسير فتح البيان في مقاصد القرآن وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله [illegible]

